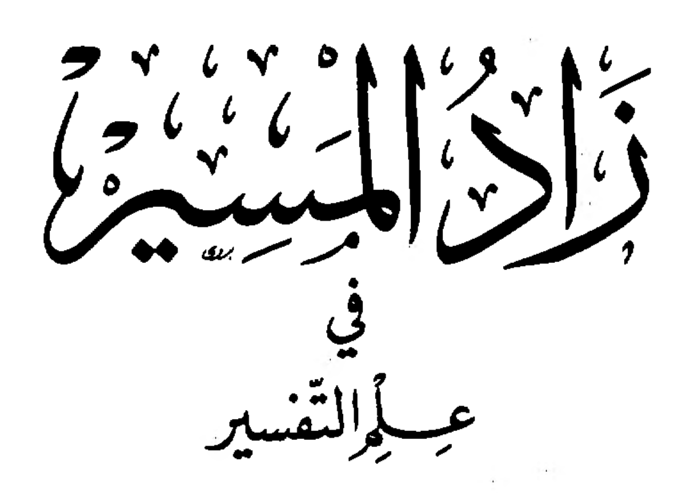


زاد المسير
في
علم التفسير

تأليف

الامام أبي الفرج جمال الدين عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي القرشي البغدادي

٥٠٨ - ٥٩٧ هـ

الجزء السادس

المكتب الإسلامي

الطبعة الثالثة

١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م

المكتب الاسلامي
بيروت: ص.ب ١١/٣٧٧١ - هاتف ٤٥٠٦٣٨ - برقياً: اسلاميا
دمشق: ص.ب ٨٠٠ - هاتف ١١١٦٣٧ - برقياً: اسلامي

سورة النّور

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ سُورَةٌ أَنْزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنْزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ . الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ . الزَّانِي لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴾

وهي مدنية كلّها بإجماعهم

روى أبو عبد الله الحاكم في « صحيحه » من حديث عائشة عن رسول الله ﷺ أنه قال : « لا تُنْزِلُوهنَّ الغُرَف ولا تُعلِّموهنَّ الكتابة ، وعلِّموهنَّ المغْزَل[1] وسورة النُّور » [2] ، يعني : النساء .

---

(١) في الأصل : وعلموهنّ الغزل ، والتصحيح من « المستدرك » للحاكم الذي نقل عنه المؤلف .

(٢) رواه الحاكم في « المستدرك » ٢/٣٩٦ وقال : هذا حديث صحيح الاسناد ، ولم يخرجاه ، وتعقبه الذهبي فقال : قلت : بل موضوع ، وآفته عبد الوهاب بن الضحاك ، قال أبو حاتم : —

قوله عز وجلّ : (سُورة) قرأ الجمهور بالرفع . وقرأ أبو رزين العقيلي ، وابن أبي عبلة ، ومحبوب عن أبي عمرو : « سورةً » بالنصب . قال أبو عبيدة : من رفع ، فعلى الابتداء . وقال الزجاج : هذا قبيح ، لأنها نكرة ، و (أنزلناها) صفة لها ؛ وإنما الرفع على إضمار : هذه سُورةٌ ، والنصب على وجهين ، أحدهما على معنى : أنزلنا سورةً ؛ وعلى معنى : أُتلُ سُورةً .

قوله تعالى : (وفرضناها) قرأ ابن كثير ، وأبو عمرو بالتشديد . وقرأ ابن مسعود ، وأبو عبد الرحمن السلمي ، والحسن ، وعكرمة ، والضحاك ، والزهري ، ونافع ، وابن عامر ، وعاصم ، وحمزة ، والكسائي ، وأبو جعفر ، وابن يعمر ، والأعمش ، وابن أبي عبلة بالتخفيف . قال الزجاج : من قرأ بالتشديد ، فعلى وجهين ، أحدهما : على معنى التكثير ، أي : إنا فرضنا فيها فروضاً ؛ والثاني : على معنى : بيَّنَّا وفصَّلنا مافيها من الحلال والحرام ؛ ومن قرأ بالتخفيف ، فمعناه : ألزمناكم العمل

ـــ كذاب ، وهذا الخبر رواه أيضاً ابن حبان في « صحيحه » ، وفي سنده محمد بن ابراهيم الشامي ، وهو منكر الحديث ومن الوضاعين ، وقد ذكر المصنف هذا الحديث في « العلل المتناهية في الأحاديث الواهية » وقال : لايصح ، محمد بن ابراهيم الشامي كان يضع الحديث ، وقد ألف العلامة المحدث شمس الحق العظيم أبادي رسالة سماها « عقود الجمان في جواز تعليم الكتابة للنسوان » طبعها المكتب الاسلامي ، ذكر فيها مؤلفها أن القول المحقق جواز تعليم الكتابة للنسوان ، وذكر أحاديث عدم الجواز ، منها حديث الحاكم ، وابن حبان ، اللذَين تقدم ذكرها ، وغيرها ، ونقل أقوال العلماء فيها ، ثم قال : وأحاديث النهي عن الكتابة كلها من الأباطيل والموضوعات ، ولم يصحح العلماء واحداً منها ، ماعدا الحاكم أبا عبد الله ، وتساهله في التصحيح معروف ، وتصحيحه متعقب عليه ، ولا يؤخذ كلامه في التصحيح إلا إذا وافق الحفاظ الآخرون في تصحيحه ، ثم قال : وخلاصة الكلام أنه لاريب في جواز تعليم الكتابة للنساء البالغات المشتهيات بواسطة النساء الأخريات ، أو بواسطة محارمهن ، أما البنات غير البالغات وغير المشتهيات فيتعلمن ممن شئن . ومن أراد الزيادة في ذلك ، فليرجع إلى رسالة « عقود الجمان في جواز تعليم الكتابة للنسوان » ، فان المؤلف وفى الموضوع حقه فيها .

بما فُرض فيها . وقال غيره : مَنْ شدَّد، أراد : فصَّلنا فرائضها ، ومَنْ خفَّف ، فمعناه : فرضنا مافيها .

قوله تعالى : (الزانيةُ والزاني) القراءة المشهورة بالرفع . وقرأ أبو رزين العقيلي ، وأبو الجوزاء ، وابن أبي عبلة ، وعيسى بن عمر : « الزانيةَ » بالنصب . واختار الخليل وسيبويه الرفع اختيار الأكثرين . قال الزجاج : والرفع أقوى في العربية ، لأن معناه : من زنى فاجلدوه ، فتأويله الابتداء ، ويجوز النصب على معنى : اجلدوا الزانية . فأما الجَلْد ، فهو ضرب الجِلْد ؛ يقال : جَلَدَه : إذا ضرب جِلْده ، كما يقال : بَطَنَه : إذا ضَرَب بَطْنه .

قال المفسرون : ومعنى الآية : الزانية والزاني إذا كانا حُرَّين بالغَين بِكْرَيْن ، (فاجلِدوا كُلَّ واحد منهما مائة جَلْدة) .

فصل

قال شيخنا علي بن عبيد الله : هذه الآية تقتضي وجوب الجَلْد على البِكْر والثَّيِّب . وقد روي عن رسول الله ﷺ في حق البِكْر زيادة على الجَلْد بتغريب عام ، وفي حق الثَّيِّب زيادة على الجلد بالرجم بالحجارة . فروى عبادة بن الصامت عن رسول الله ﷺ أنه قال : « البِكْر بالبِكْر جَلْدُ مائة وتغريب عامٍ ، والثَّيِّب بالثَّيِّب جلد مائة ورجم بالحجارة » (١) . وممن قال بوجوب النَّفي في حق البِكْر

(١) رواه أحمد في « المسند » : ٥/١٣ ، ومسلم : ٣/١٣١٦ ، وأبو داود رقم (٤٤١٥) ، والترمذي ، والنسائي ، وابن ماجه ، كلهم من حديث عبادة بن الصامت رضي الله عنه ، ولفظه عند مسلم : عن عبادة بن الصامت قال : قال رسول الله ﷺ : « خذوا عني ، خذوا عني ، قد جعل الله لهن سبيلاً ، البكر بالبكر جلد مائة ونفي سنة ، والثيِّب بالثيِّب جلد مائة والرجم » .

قال ابن كثير : وللعلماء فيه تفصيل ونزاع ، فان الزاني لايخلو ، إما أن يكون بكراً ، وهو الذي لم يتزوج ، أو محصناً ، وهو الذي قد وطىء في نكاح صحيح وهو حرٌ بالغ عاقل ، ـــ

أبو بكر ، وعمر ، وعثمان ، وعلي ، وابن عمر ، وممن بعدهم عطاء ، وطاووس ، وسفيان ، ومالك، وابن أبي ليلى ، والشافعي ، وأحمد ، وإسحاق ، وممن قال بالجمع بين الجلد والرجم في حق الثَّيِّب عليُّ بن أبي طالب ، والحسن البصري ، والحسن بن صالح، وأحمد ، وإسحاق . قال : وذهب قوم من العلماء إلى أن المراد بالجَلْد المذكور في هذه الآية : البِكْر ،

ــــ فأما إذا كان بكراً لم يتزوج ، فان حده مائة جلدة ، كما في الآية ، ويزاد على ذلك أن يغرب عاماً عن بلده عند جمهور العلماء ، خلافاً لأبي حنيفه رحمه الله ، فان عنده أن التغريب إلى رأي الامام ، إن شاء الله غرب ، وإن شاء لم يغرب . وحجة الجمهور في ذلك ماثبت في « الصحيحين » عن أبي هريرة وزيد بن خالد الجهني في الأعرابيين اللَّذين أتيا رسول الله ﷺ ، فقال أحدهما : يارسول الله ، إن ابني هذا كان عسيفاً (يعني أجيراً) على هذا ، فزنى بامرأته ، فافتديت ابني منه بمائة شاة ووليدة ، فسألت أهل العلم ، فأخبروني أن على ابني جلد مائة وتغريب عام ، وأن على امرأة هذا الرجم ، فقال رسول الله ﷺ : « والذي نفسي بيده لأقضين بينكما بكتاب الله تعالى ، الوليدة والغنم رد عليك ، وعلى ابنك مائة جلدة وتغريب عام ، واغد يا أنيس (لرجل من أسلم) إلى امرأة هذا ، فان اعترفت فارجمها ، فغدا عليها فاعترفت فرجمها ، قال : وفي هذا دلالة على تغريب الزاني مع جلد مائة إذا كان بكراً لم يتزوج .

وقال ابن كثير أيضاً : وأما إذا كان محصناً وهو الذي قد وطىء في نكاح صحيح وهو حرٌّ بالغ عاقل ، فانه يرجم ، وذلك للأحاديث الواردة في « الصحيحين » وغيرهما في الرجم ، ثم قال : وقد أمر رسول الله ﷺ برجم هذه المرأة وهي زوجة الرجل الذي استأجر الأجير لما زنت مع الأجير ، قال : ورجم رسول الله ﷺ ماعزاً ، والغامدية ، وكل هؤلاء لم ينقل عن رسول الله ﷺ أنه جلدهم قبل الرجم ، وإنما وردت الأحاديث الصحيحة المتعاضدة المتعددة الطرق والألفاظ بالاقتصار على رجمهم ، وليس فيها ذكر الجلد ، ولهذا كان هذا مذهب جمهور العلماء ، وإليه ذهب أبو حنيفة ، ومالك ، والشافعي ، رحمهم الله . وذهب الامام أحمد رحمه الله إلى أنه يجب أن يجمع على الزاني المحصن بين الجلد للآية ، والرجم للسنة ، كما روي عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه لما أتي بسراجة وكانت قد زنت وهي محصنة ، فجلدها يوم الخميس ، ورجمها يوم الجمعة ، فقال : جلدتها بكتاب الله ، ورجمتها بسنة رسول الله ﷺ . قال الامام النووي في « شرح مسلم » ١١/١٨٩ : وقال جماهير العلماء : الواجب الرجم وحده ، ثم قال : قالوا : وحديث الجمع بين الجلد والرجم (وهو حديث عبادة المتقدم) منسوخ ، فانه كان أول الأمر . اهـ .

فأما الثّيّب ، فلا يجب عليه الجَلْد ، وإنما يجب الرجم ، روي عن عمر ، وبه قال النخعي والزهري والأوزاعي والثوري وأبو حنيفة ومالك ، وروي عن أحمد رواية مثل قول هؤلاء .

قوله تعالى : (ولا تَأْخُذْكُمْ) وقرأ أبو عبد الرحمن السلمي ، وأبو رزين ، والضحاك ، وابن يعمر ، والأعمش : « يَأْخُذْكُمْ » بالياء ، (بهما رأفةٌ) قرأ نافع ، وأبو عمرو ، وابن عامر ، وعاصم ، وحمزة ، والكسائي : « رَأْفَةٌ » بإسكان الهمزة . وقرأ أبو المتوكل ، ومجاهد ، وأبو عمران الجوني ، وابن كثير : بفتح الهمزة وقصرها على وزن رَعَفَة . وقرأ سعيد بن جبير ، والضحاك ، وأبو رجاء العطاردي : « رَآفَةٌ » مثل سآمة وكآبة .

وفي معنى الكلام قولان .

أحدها : لا تأخذكم بهما رأفة ، فتخفّفوا الضرب ، ولكن أوجعوهما ، قاله سعيد بن المسيب ، والحسن ، والزهري ، وقتادة .

والثاني : لا تأخذكم بهما رأفة فتعطّلوا الحدود ولا تقيموها ، قاله مجاهد ، والشعبي ، وابن زيد في آخرين .

فصل

واختلف العلماء في شدة الضرب في الحدود ، فقال الحسن البصري : ضرب الزنا أشد من القذف ، والقذف أشد من الشُّرب ، ويضرب الشارب أشد من ضرب التعزير ، وعلى هذا مذهب أصحابنا . وقال أبو حنيفة : التعزير أشد الضرب ، وضرب الزنى أشد من ضرب الشارب ، وضرب الشارب أشد من ضرب القذف . وقال مالك : الضرب في الحدود كلّها سواء غير مبرّح .

فصل

فأما ما يُضرَب من الأعضاء ، فنقل الميموني عن أحمد في جَلْد الزاني ، قال : يجرَّد ، ويعطى كل عضو حقَّه ، ولا يضرب وجهه ولا رأسه . ونقل يعقوب ابن بختان[1] : لا يُضرب الرأس ولا الوجه ولا المذاكير ، وهو قول أبي حنيفة . وقال مالك : لا يُضرب إلا في الظَّهر . وقال الشافعي : يُتَّقى الفرج والوجه .

قوله تعالى : (في دين الله) فيه قولان .

أحدهما : في حُكمه ، قاله ابن عباس . والثاني : في طاعة الله ، ذكره الماوردي .

قوله تعالى : (ولْيَشْهَدْ عذابَهُما طائفة من المؤمنين) قال الزجاج : القراءة باسكان اللام ، ويجوز كسرها . والمراد بعذابهما ضربهما .

وفي المراد بالطائفة هاهنا خمسة أقوال .

أحدها : الرجل فما فوقه ، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس ، وبه قال مجاهد . وقال النخعي : الواحد طائفة .

والثاني : الاثنان فصاعداً ، قاله سعيد بن جبير ، وعطاء ؛ وعن عكرمة كالقولين . قال الزجاج : والقول الأول على غير ما عند أهل اللغة ، لأن الطائفة في معنى جماعة ، وأقل الجماعة اثنان .

والثالث : ثلاثة فصاعداً ، قاله الزهري .

والرابع : أربعة ، قاله ابن زيد .

والخامس : عشرة ، قاله الحسن البصري .

---

(١) هو يعقوب بن اسحاق بن بختان ، أبو يوسف ، سمع من الامام أحمد ، ترجمته في « طبقات الحنابلة » : ٤١٥/١

قوله‌تعالى : (الزاني لا يَنْكِحُ إلاّ زانيةً) قال عبد الله بن عمرو : كانت امرأة تسافح ، وتشترط الذي يتزوجها أن تكفيه النفقة فأراد رجل من المسلمين أن يتزوجها ، فذكر ذلك لرسول الله ﷺ ، فنزلت هذه الآية [١] . وقال عكرمة : نزلت في بغايا ، كُنّ بمكة ، ومنهن تسع صواحب رايات ، وكانت بيوتهن تسمى في الجاهلية : المواخير ، ولا يدخل عليهن إلا زانٍ من أهل القِبلة ، أومشرك من أهل الأوثان ، فأراد ناس من المسلمين نكاحهن ، فنزلت هذه الآية [٢] . قال المفسرون : ومعنى الآية : الزاني من المسلمين لا يتزوج من أولئك البغايا إلا زانية (أو مشركة) لأنهن كذلك كن (والزانية) منهن (لا ينكحها إلا زانٍ أو مشرك) [٣] ، ومذهب أصحابنا أنه إذا زنى بامرأة ، لم يجز له أن يتزوجها إلا بعد التوبة منها [٤] .

(١) رواه أحمد في « المسند » ، والنسائي ، والطبري ، والحاكم وصححه ، وذكره السيوطي في « الدر » : ١٦/٥ وزاد نسبته لعبد بن حميد ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وابن مردويه ، والبيهقي في « سننه » ، وأبي داود في « ناسخه » .

(٢) ذكره بنحوه الطبري عن ابن عباس .

(٣) قال ابن جرير الطبري ٧٥/١٨ : وأولى الأقوال في ذلك عندي بالصواب قول من قال : عنى بالنكاح في هذا الموضع : الوطء ، وأن الآية نزلت في البغايا المشركات ذوات الرايات ، وذلك لقيام الحجة على أن الزانية من المسلمات حرام على كل مشرك ، وأن الزاني من المسلمين حرام عليه كل مشركة من عبدة الأوثان ، فمعلوم إذا كان ذلك كذلك ، أنه لم يُعْنَ بالآية أن الزاني من المؤمنين لا يعقد عقد نكاح على عفيفة من المسلمات ، ولا ينكح إلا بزانية أو مشركة ، وإذ كان ذلك كذلك ، فبيّن أن معنى الآية : الزاني لا يزني إلا بزانية لا تستحل الزنا ، أو بمشركة تستحله . اهـ .

(٤) قال ابن كثير : ومن هاهنا ذهب الامام أحمد بن حنبل رحمه الله إلى أنه لا يصح العقد من الرجل العفيف على المرأة البغي مادامت كذلك حتى تستتاب ، فان تابت ، صح العقد عليها ، وإلا فلا ، وكذلك لا يصح تزويج المرأة الحرة العفيفة بالرجل الفاجر المسافح حتى يتوب توبة صحيحة ، لقوله تعالى : (وحرم ذلك على المؤمنين) . اهـ .

قوله تعالى : (وحُرِّمَ ذلك) وقرأ أُبيّ بن كعب ، وأبو المتوكل ، وأبو الجوزاء : « وحَرَّمَ اللهُ ذلك » بزيادة اسم الله عز وجل مع فتح حروف « حَرَّمَ » . وقرأ زيد بن علي : « وحَرُمَ ذلك » بفتح الحاء وضم الراء مخففة . ثم فيه قولان .

أحدهما : أنه نكاح الزواني ، قاله مقاتل . والثاني : الزنا ، قاله الفراء .

﴿ وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ . إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾

قوله تعالى : (والذين يرمون المُحْصَنات) شرائط الإحصان في الزنا الموجب للرجم عندنا أربعة : البلوغ ، والحريَّة ، والعقل ، والوطء في نكاح صحيح . فأما الإسلام ، فليس بشرط في الإحصان ، خلافاً لأبي حنيفة ، ومالك . وأما شرائط إحصان القذف فأربع : الحرية ، والإسلام ، والعفَّة ، وأن يكون المقذوف ممن يجامِع مثله . ومعنى الآية : يرمون المحصنات بالزنا ، فاكتفى بذكره المتقدّم عن إعادته . (ثم لم يأتوا) على مارمَوْهُنَّ به (بأربعة شهداء) عدول يشهدون أنهم رأوهنَّ يفعلْنَ ذلك (فاجلدوهم) يعني القاذفين .

فصل

وقد أفادت هذه الآية أنَّ على القاذف إذا لم يُقم البيِّنة الحدَّ وردَّ الشهادة وثبوتَ الفِسْق . واختلفوا هل يُحكَم بفسقه وردّ شهادته بنفس القذف ، أم بالحدّ ؟ فعلى قول أصحابنا : إنه يُحكم بفسقه وردّ شهادته إذا لم يُقم البيِّنة ، وهو قول

الشافعي . وقال أبو حنيفة ، ومالك : لايُحكم بفسقه ، وتقبل شهادته مالم يُقَم الحدُّ عليه .

فصل

والتعريض بالقذف ـ كقوله لمن يخاصمه : ما أنت بزانٍ ، ولا أُمُّك زانية ـ يوجب الحدَّ في المشهور من مذهبنا . وقال أبو حنيفة : لايوجب الحدَّ . وحدُّ العبد في القذف نصف حدِّ الحُرِّ ، وهو أربعون ، قاله الجماعة ، إلا الأوزاعي فانه قال : ثمانون . فأما قاذف المجنون ، فقال الجماعة : لايُحَدُّ . وقال الليث : يُحَدُّ . فأما الصبيّ ، فان كان مثله يجامِع أو كانت صبيّة مثلُها يجامَع ، فعلى القاذف الحدُّ . وقال مالك : يُحَدُّ قاذف الصبيّة التي يجامَع مثلُها ، ولا يُحَدُّ قاذف الصبيّ . وقال أبو حنيفة ، والشافعي : لا يُحَدُّ قاذفهما . فان قذف رجلٌ جماعةً بكلمة واحدة ، فعليه حدٌّ واحد ، وإن أفرد كلَّ واحد بكلمة ، فعليه لكل واحد حدٌّ ، وهو قول الشعبي ، وابن أبي ليلى ؛ وقال أبو حنيفة وأصحابه : عليه حدٌّ واحد ، سواء قذفهم بكلمة أو بكلمات .

فصل

وحدُّ القذف حقٌّ لآدمي ، يصح أن يبرىء منه ، ويعفو عنه . وقال أبو حنيفة : هو حقٌّ لله . وعندنا [أنه] لايستوفى إلا بمطالبة المقذوف ، وهو قول الأكثرين . وقال ابن أبي ليلى : يحدُّه الإمام وإن لم يطالِب المقذوف .

قوله تعالى : (إلا الذين تابوا) أي : من القذف (وأصلحوا) قال ابن عباس : أظهروا التوبة ؛ وقال غيره : لم يعودوا إلى قذف المُحْصَنات .

وفي هذا الاستثناء قولان .

أحدهما : أنه نسخ حدّ القذف وإسقاط الشهادة معاً ، وهذا قول عكرمة ، والشعبي ، وطاووس ، ومجاهد ، والقاسم بن محمد ، والزهري ، والشافعي ، وأحمد .

والثاني : أنه يعود إلى الفسق فقط ، وأما الشهادة ، فلا تُقْبَل أبداً ، قاله الحسن ، وشريح ، وإبراهيم ، وقتادة . فعلى هذا القول انقطع الكلام عند قوله : « أبداً » ؛ وعلى القول الأول وقع الاستثناء على جميع الكلام ، وهذا أصح ، لأن المتكلّم بالفاحشة لايكون أعظم جرماً من راكبها ، فاذا قُبلت شهادةُ المقذوف بعد ثبوته ، فالرامي أيسر جرماً ، وليس القاذف بأشدَّ جرماً من الكافر ، فانه إذا أسلم قُبلت شهادتُه [1] .

﴿ وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللهِ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ .

---

(١) قال ابن كثير : واختلف العلماء في هذا الاستثناء ، هل يعود إلى الجملة الأخيرة فقط ، فترفع التوبة الفسق فقط ، ويبقى مردود الشهادة دائماً وإن تاب ، أو يعود إلى الجملتين الثانية والثالثة ؟ وأما الجلد فقد ذهب وانقضى سواء تاب أو أصرّ ولا حكم له بعد ذلك بلا خلاف . قال : فذهب الامام أحمد ، ومالك ، والشافعي إلى أنه إذا تاب قبلت شهادته ، وارتفع عنه حكم الفسق ، ونص عليه سعيد بن المسيب سيد التابعين وجماعة من السلف أيضاً . وقال الامام أبو حنيفة : إنما يعود الاستثناء إلى الجملة الأخيرة فقط ، فيرتفع الفسق بالتوبة ، ويبقى مردود الشهادة أبداً ، قال : وممن ذهب إليه من السلف ، القاضي شريح ، وإبراهيم النخعي ، وسعيد بن جبير ، ومكحول ، وعبد الرحمن بن زيد بن جابر . وقال الشعبي والضحاك : لا تقبل شهادته وإن تاب ، إلا أن يعترف على نفسه أنه قد قال البهتان ، فحينئذ تقبل شهادته ، والله أعلم . اهـ .

وَالْخَامِسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ اللهِ عَلَيْهِ إِنْ كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ . وَيَدْرَؤُا عَنْهَا الْعَذَابَ أَنْ تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ بِاللهِ إِنَّهُ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ . وَالْخَامِسَةَ أَنَّ غَضَبَ اللهِ عَلَيْهَا إِنْ كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ . وَلَوْلَا فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ ﴾

قوله تعالى : (والذين يَرْمُون أزواجهم) سبب نزولها أن هلال بن أُمية وجد عند أهله رجلاً ، فرأى بعينه وسمع بأذنه ، فلم يُهجْه حتى أصبح ، فغدا على رسول الله ﷺ ، فقال : يارسول الله : إنِّي جئت أهلي ، فوجدت عندها رجلاً ، فرأيت بعيني وسمعت بأذني ، فكره رسول الله ﷺ ماجاء به ، واشتد عليه ، فقال سعد بن عبادة : الآن يَضربُ رسولُ الله هلالاً ويُبطل شهادته ، فقال هلال : والله إنّي لأرجو أن يجعل الله لي منها مخرجاً ، فوالله إن رسول الله ﷺ يريد أن يأمر بضربه [إذ] نزل عليه الوحي ، فنزلت هذه الآية ، رواه عكرمة عن ابن عباس [١] . وفي حديث آخر أن الرجل الذي قذفها به شريك بن سحماء ، وأن رسول الله ﷺ قال لهلال حين قذفها : « ائتني بأربعة شهداء ، وإلا فحدٌّ في ظهرك » ، فنزلت هذه الآية [٢] ، فنُسخ حكم الجلد في حق الزوج القاذف .

---

(١) رواه أحمد في « المسند » ،وهو في « الطبري » : ٨٢/١٨ ، ٨٣ ، و « أسباب النزول للواحدي »: ١٨٠ . قال ابن كثير : ورواه أبو داود عن الحسن بن علي عن يزيد بن هارون به مختصراً ، ثم قال : ولهذا الحديث شواهد كثيرة في الصحاح وغيرها من وجوه كثيرة ، وذكر منها الحديث الذي ذكره المصنف بعد هذا . والحديث ذكره السيوطي في « الدر » : ٢١/٥ وزاد نسبته لعبد الرزاق ، والطيالسي ، وعبد بن حميد ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وابن مردويه عن ابن عباس .

(٢) البخاري : ٣٤١/٨ ، والترمذي : ١٤٨/٢ ، وذكره السيوطي في « الدر » : ٢٢/٥ وزاد نسبته لابن ماجه .

فصل
في بيان حكم الآية

إذا قذف الرجل زوجته بالزنا، لزمه الحدُّ ، وله التخلُّص منه بإقامة البيِّنة ، أو باللِّعان ، فان أقام البيِّنة لزمها الحدّ ، وإن لاعنها ، فقد حقَّق عليها الزنا ، ولها التخلُّص منه باللِّعان ؛ فان نكل الزوج عن اللعـان ، فعليه حدُّ القذف ، وإن نكلت الزوجة ، لم تحدّ ، وحُبست حتى تُلاعِن أو تُقِرَّ بالزنا في إحدى الروايتين ، وفي الأُخرى : يُخلَّى سبيلُها . وقال أبو حنيفة : لا يُحَدُّ واحد منهما ، ويُحبس حتى يُلاعِن . وقال مالك ، والشافعي : يجب الحدُّ على الناكل منهما .

فصل

ولا تصح الملاعنة إلا بحضرة الحاكم . فان كانت المرأة خَفِرة ، بعث الحاكم من يُلاعِن بينهما . وصفة اللعان أن يبدأ الزوج فيقول : أشهد بالله إني لمن الصادقين فيما رميتُها به من الزنا ، أربع مرات ، ثم يقول في الخامسة : ولعنة الله عليه إن كان من الكاذبين ، ثم تقول الزوجة أربع مرات : أشهد بالله لقد كذب فيما رماني به من الزنا ، ثم تقول : وغضب الله عليها إن كان من الصادقين . والسُّنة أن يتلاعنا قياماً ، ويقال للزوج إذا بلغ اللعنة : اتق الله فانها المُوجِبة ، وعذاب الدنيا أهون من عذاب الآخرة ، وكذلك يقال للزوجة إذا بلغت إلى الغضب . فان كان بينهما ولد ، اقتصر نفيه عن الأب إلى ذِكْره في اللعـان ، فيزيد في الشهادة : وما هذا الولد ولدي ، وتزيد هي : وإن [هذا] الولد ولده .

فصل

واختلف الفقهاء في الزوجين اللذين يجري بينهما اللعان ، فالمشهور عن أحمد أن كل زوج صح قذفه صح لعانه ، فيدخل تحت هذا المسلمُ والكافر والحرُّ والعبد ، وكذلك المرأة ، وهذا قول مالك ، والشافعي . وقال أبو حنيفة : لايجوز اللعان بين الحرِّ والأَمَة ، ولا بين العبد والحرة ، ولا بين الذميَّين ، أو إذا كان أحدهما ذمياً ؛ ونقل حرب عن أحمد نحو هذا ، والمذهب هو الأوَّل . ولا تختلف الرواية عن أحمد أن فُرقة اللعان لاتقع بلعان الزوج وحده . واختلف هل تقع بلعانهما من غير فُرقة الحاكم على روايتين . وتحريم اللعان مؤبَّد ، فان أكذب الملاعنُ نفسه لم تحلَّ له زوجته أيضاً ، وبه قال عمر ، وعلي ، وابن مسعود ؛ وعن أحمد روايتان ، أصحهما : هذا ، والثانية : يجتمعان بعد التكذيب ، وهو قول أبي حنيفة .

قوله تعالى : (ولم يكن لهم شهداء إلا أنفسُهم) وقرأ أبو المتوكل . وابن يعمر ، والنخعي : « تكن » بالتاء .

قوله تعالى : (فشهادة أحدهم أربع شهادات) قرأ ابن كثير ، ونافع ، وأبو عمرو ، وابن عامر ، وأبو بكر عن عاصم : « أربعَ » بفتح العين . وقرأ حمزة ، والكسائي ، وحفص عن عاصم : برفع العين . قال الزجاج : من رفع « أربعُ » ، فالمعنى : فشهادة أحدهم التي تدرأ حدَّ القذف أربعُ ؛ ومن نصب ، فالمعنى : فعليهم أن يشهد أحدهم أربعَ .

قوله تعالى : (والخامسةُ) قرأ حفص عن عاصم : « والخامسةَ » نصباً ، حملاً على نصب « أربعَ شهادات » .

قوله تعالى : (أنَّ لعنة الله عليه) قرأ نافع ، ويعقوب ، والمفضل : « أنْ

لعنةُ الله » و « أنْ غضبُ الله » بتخفيف النون فيهما وسكونهما ورفع الهاء من « لعنةُ » والباء من « غضبُ » ، إلا أن نافعاً كسر الضاد من « غَضِبَ » وفتح الباء .

قوله تعالى : (ويَدرأُ عنها) أي : ويَدفع عنها (العذابَ) وفيه ثلاثة أقوال . أحدها : [أنه] الحَدُّ . والثاني : الحبس . ذكرهما ابن جرير . والثالث : العار .

قوله تعالى : (ولولا فضلُ الله عليكم ورحمتُه) أي : ستره ونعمته . قال الزجاج : وجواب « لولا » هاهنا متروك ؛ والمعنى : لولا ذلك لنال الكاذبَ منكم عذابٌ عظيم . وقال غيره : لولا فضل الله لبيّن الكاذب من الزوجين فأُقيم عليه الحدّ ، (وأن الله توّاب) يعود على من رجع عن المعاصي بالرحمة (حكيم) فيما فرض من الحدود (١) .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ جَاؤُا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ لَاتَحْسَبُوهُ شَرّاً لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ مَا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ . لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْراً وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُبِينٌ . لَوْلَا جَاؤُ عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُولَئِكَ عِنْدَ اللهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ . وَلَوْلَا فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ . إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ

---

(١) قال ابن جرير الطبري ٨٦/١٨ : يقول تعالى ذكره : ولولا فضل الله عليكم أيها الناس ورحمته بكم ، وأنه عوّاد على خلقه بلطفه وطَوْله ، حكيم في تدبيره إياهم وسياسته لهم ، لعاجلكم بالعقوبة على معاصيكم ، وفضح أهل الذنوب منكم بذنوبهم ، ولكنه ستر عليكم ذنوبكم ، وترك فضيحتكم بها عاجلاً ، رحمةً منه بكم ، وتفضلاً عليكم ، فاشكروا نعمه ، وانتهوا عن التقدُّم عما عنه نهاكم من معاصيه ، وترك الجواب في ذلك اكتفاءً بمعرفة السامع المراد منه . اهـ .

مَالَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّناً وَهُوَ عِنْدَ اللهِ عَظِيمٌ . وَلَوْلاَ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَايَكُونُ لَنَاأَنْ نَتَكَلَّمَ بِهٰذَا سُبْحَانَكَ هٰذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ . يَعِظُكُمُ اللهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَداً إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ . وَيُبَيِّنُ اللهُ لَكُمُ الآيَاتِ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ . إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَاللهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لاتَعْلَمُونَ . وَلَوْلاَ فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللهَ رَؤُفٌ رَحِيمٌ ﴾

قوله تعالى : (إن الذين جاؤوا بالإفك) أجمع المفسرون ؛ أن هذه الآية وما يتعلّق بها بعدها نزلت في قصة عائشة . وفي حديث الإفك أن هذه الآية إلى عشر آيات نزلت في قصة عائشة . وقد ذكرنا حديث الإفك في كتاب « الحدائق » وفي كتاب « المغني في التفسير » فلم نطل بذكره ، لأن غرضنا اختصار هذا الكتاب ليُحفظ [1] . فأما الإفك، فهو الكذب، والعُصبة : الجماعة .

(١) حديث الافك مشهور ، رواه أحمد في « المسند » ، والبخاري ومسلم في « صحيحيهما » ، والترمذي ، وعبد الرزاق ، وعبد بن حميد ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وابن مردويه ، والبيهقي في « الشعب » عن عائشة رضي الله عنها ، وهو حديث طويل ، وهذه الآيات العشر نزلت في شأن عائشة رضي الله عنها حين رماها أهل الافك والبهتان من المنافقين بما قالوه من الكذب البحت والفرية التي غار الله عز وجل لها ولنبيه ﷺ فأنزل الله تعالى براءتها في القرآن صيانة لعرض الرسول ﷺ ، وكان الذين جاؤوا بالافك عصبة ، يعني ماهو واحد ولا اثنان بل جماعة ، والذي تحمل معظم ذلك الاثم والافك منهم ، هو الذي بدأ بالخوض فيه ، وهو عبد الله بن أبيّ بن سلول رأس المنافقين ، فانه كان يجمعه ويستوشيه ويذيعه ويشيعه ، حتى دخل ذلك في أذهان بعض المسلمين ، فتكلموا به ، وجوزه آخرون منهم ، وبقي الأمر كذلك قريباً من شهر وعائشة رضي الله عنها تقول : (فصبر جميل والله المستعان على ماتصفون) ـــ

ومعنى قوله : (منكم) أي : من المؤمنين . وروى عروة عن عائشة أنها قالت : هم أربعة : حسّان بن ثابت ، وعبد الله بن أُبيّ [بن سلول] ، ومِسْطَح بن أُثاثَة ، وحَمْنة بنت جَحْش ، وكذلك عدَّهم مقاتل [١] .

قوله تعالى : (لا تَحْسَبُوه شرّاً لكم) قال المفسرون : هذا خطاب لعائشة وصفوان بن المُعَطِّل ، وقيل : لرسول الله ﷺ وأبي بكر وعائشة ؛ والمعنى : إنكم تؤجَرون فيه [٢] ، (لكلِّ امرىءٍ منهم) يعني : من العُصبة الكاذبة (ما اكتَسَبَ مِنَ الإِثم) أي : جزاء ما اجترح من الذَّنب على قدر خوضه فيه ، (والذي تولَّى كِبْرَه منهم) وقرأ ابن عباس ، وأبو رزين ، وعكرمة ، ومجاهد ، وابن أبي عبلة ، والحسن ، ومحبوب عن أبي عمرو ، ويعقوب : « كُبْرَه » بضم

ـــ حتى نزل القرآن ببراءتها ، فقال رسول الله ﷺ لعائشة : « أبشري فقد أنزل الله براءتك » وكانت السيدة عائشة الصدّيقة تقول : « والله ما كنت أظن أن الله مُنْزِلٌ في شأني وحياً يتلى ، ولشأني في نفسي كان أحقر من أن يتكلم الله فيَّ بأمر يتلى ، ولكن كنت أرجو أن يرى رسول الله ﷺ في النوم رؤيا يبرئني الله بهـ ـ » . وقد روى قصة الافك مطولة الحافظ ابن حجر في « فتح الباري » : ٨/٣٤٢ - ٣٧٥ ، وابن كثير في « التفسير » : ٣/٢٦٨ ، وغيرهما .

(١) وفي « صحيح البخاري » : ٨/٣٤٣ عن عروة عن عائشة رضي الله عنها : (والذي تولى كبره) » قالت : عبد الله بن أبيّ بن سلول . اهـ . وهو الذي بدأ بالخوض فيه ، وأذاعه وأشاعه ، فله عذاب عظيم على ذلك .

(٢) قال ابن كثير : لاتحسبوه شراً لكم ،أي : يا آل أبي بكر ، بل هو خير لكم ، أي : في الدنيا والآخرة ، لسان صدق في الدنيا ، ورفعة منازل في الآخرة ، وإظهار شرف لهم باعتناء الله تعالى بعائشة أم المؤمنين رضي الله عنها حيث أنزل الله براءتها في القرآن العظيم الذي لايأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، ولهذا لما دخل عليها ابن عباس رضي الله عنه وعنها وهي في سياق الموت قال لها : أبشري فانك زوجة رسول الله ﷺ ، وكان يحبك ولم يتزوج بكراً غيرك ، ونزلت براءتك من السماء . اهـ .

الكاف . قال الكسائي : وهما لغتان . وقال ابن قتيبة : كِبْرُ الشيء : مُعْظَمُه[1] ، ومنه هذه الآية . قال قيس بن الخطيم يذكر امرأة :

تَنَامُ عن كِبْرِ شَأْنِها فاذا قامَتْ رُوَيْداً تكاد تَنْغَرِفُ[2]

وفي المتولِّي لذلك قولان .

أحدها : أنه عبد الله بن أُبَيّ ، رواه أبو صالح عن ابن عباس ، وعروة عن عائشة ، وبه قال مجاهد ، والسدي ، ومقاتل . قال المفسرون : هو الذي أشاع الحديث ، فله عذاب عظيم بالنار . وقال الضحاك : هو الذي بدأ بذلك .

والثاني : أنه حسّان[3] ؛ روى الشعبي أن عائشة قالت : ما سمعتُ أحسن من شعر حسّان ، وما تمثلتُ به إلا رجوتُ له الجنَّة ؛ فقيل : يا أُمَّ المؤمنين ، أليس الله يقول : (والذي تولَّى كِبْرَه منهم له عذاب عظيم) ؟ فقالت : أليس قد ذهب بصرُه ؟ وروى عنها مسروق أنها قالت : وأيُّ عذابٍ أشدّ من العمى ، ولعلّ الله أن يجعل ذلكَ العذابَ العظيم ، ذهاب بصره ، تعني : حسان بن ثابت .

---

(١) نقل في « اللسان » هذا القول عن ابن السكيت ، وفي « غريب القرآن » : (والذي تولى كِبْرَهُ) أي : عُظْمَهُ .

(٢) ديوانه : ١٧ ، و « مختار الشعر الجاهلي » : ٢/٥٦٤ ، و « غريب القرآن » : ٣٠١ ، و « اللسان » و « التاج » : كبر ، قال يعقوب : معناه : تنثنّى ، وقيل : معناه : تنقصف من دِقّة خصرها .

(٣) قال ابن جرير الطبري ١٨/٨٩ : وأولى القولين في ذلك بالصواب قول من قال : الذي تولى كبره من عصبة الافك ، كان عبد الله بن أُبيّ ، وذلك أنه لاخلاف بين أهل العلم بالسِّيَر ، أن الذي بدأ بذكر الافك وكان يجمع أهله ويحدّثهم ، عبدُ الله بن أُبيّ بن سلول ، وفعله ذلك على ماوصفت ، كان توليه كِبْر ذلك الأمر . اه . وقال ابن كثير ٣/٢٧٢ : والأكثرون على أن المراد بذلك إنما هو عبد الله بن أُبيّ بن سلول قبحه الله تعالى ولعنه ، وهو الذي تقدم النص عليه في الحديث ، وقال ذلك مجاهد وغير واحد . اه .

ثم إن الله عزَّ وجلَّ أنكر على الخائضين في الإفك بقوله : (لو لا إذ سَمِعْتُمُوهُ) أي : هلاّ إذ سمعتم أيَّتُها العُصْبة الكاذبة قَذْفَ عائشة (ظَنَّ المؤمنون) من العُصْبَة الكاذبة ، وهم حسّان ومِسْطَح (والمؤمناتُ) وهي : حَمْنة بنت جَحْش (بأنفسهم) وفيها ثلاثة أقوال .

أحدها : بأُمَّهاتهم . والثاني : بأخَواتهم . والثالث : بأهل دينهم ، لأن المؤمنين كنفس واحدة ، (وقالوا هذا إفك مُبِين) أي : كذب بيِّن . وجاء في التفسير أن أبا أيوب الأنصاري قالت له أمُّه : ألا تسمع ما يقول الناس في أمر عائشة ؟! فقال : هذا إفك مبين ، أكنتِ يا أمّاه فاعلته ؟ قالت : معاذ الله ، قال : فعائشة والله خير منكِ ؛ فنزلت هذه الآية [1] .

قوله تعالى : (لولا جاؤوا) أي : هلاّ جاءت العُصْبة الكاذبة على قذفهم [عائشة] (بأربعة شهداء) وقرأ الضحاك ، وعاصم الجحدري : « بأربعةٍ » منونة ؛ والمعنى : يشهدون بأنهم عاينوا ما رمَوْها به (فاذ لم يأتو بالشهداء فأولئك عند الله) أي : في حُكمه (هم الكاذبون) . ثم ذكر القاذفين فقال : (ولولا فَضْل الله عليكم ورحمتُه) أي : لولا ما مَنَّ [الله] به عليكم ، (لَمَسَّكُمْ) أي : لأصابكم (فيما أفَضْتُمْ) أي : أخذتم وخُضتم (فيه) من الكذب والقذف

---

(١) قال ابن كثير عند قوله تعالى : (وقالوا هذا إفك مبين) أي : كذب ظاهر على أم المؤمنين رضي الله عنها ، فان الذي وقع لم يكن ريبة ، وذلك أن مجيء أم المؤمنين راكبة جهرة على راحلة صفوان بن المعطّل في وقت الظهيرة والجيش بكماله يشاهدون ذلك ، ورسول الله ﷺ بين أظهرهم ، ولو كان هذا الأمر فيه ريبة ، لم يكن هذا جهرة ، ولا كانا يقدمان على مثل ذلك على رؤوس الأشهاد ، بل كان هذا يكون لو قدّر خفية مستوراً ، فتعيَّن أن ماجاء به أهل الافك مما رمَوْا به أم المؤمنين ، هو الكذب البحت ، والقول الزور ، والرعونة الفاحشة الفاجرة ، والصفقة الخاسرة . اهـ .

(عذابٌ عظيمٌ) في الدنيا والآخرة[١] . ثم ذكر الوقت الذي لولا فضله لأصابهم فيه العذاب فقال : (إذ تَلَقَّوْنَهُ) وكان الرجل منهم يلقى الرَّجل فيقول : بلغني كذا ، فيتلقّاه بعضهم من بعض . وقرأ عمر بن الخطاب : « إذ تُلْقُونَهُ » بتاء واحدة خفيفة مرفوعة وإسكان اللام وقاف منقوطة بنقطتين مرفوعة خفيفة ؛ وقرأ معاوية ، وابن السميفع مثله ، إلا أنهما فتحا التاء والقاف . وقرأ ابن مسعود : « تَتَلَقَّوْنَهُ » بتاءين مفتوحتين مع نصب اللام وتشديد القاف . وقرأ أُبيّ بن كعب ، وعائشة ، ومجاهد ، وأبو حيوة : « تَلِقُونَهُ » بتاء واحدة خفيفة مفتوحة وكسر اللام ورفع القاف . وقال الزجاج : « تَلِقُونه » : يُلقيه بعضكم إلى بعض وتَلِقُونه ؛ ومعناه : إذ تُسرعون بالكذب ، يقال : وَلَقَ يَلِقُ : إذا أسرع في الكذب وغيره ، قال الشاعر :

جاءت به عَنْسٌ من الشأْم تَلِق[٢]

أي : تُسرِع . وقال ابن قتيبة : « تَلَقَّوْنَهُ » أي : تَقْبَلُونَه ، ومن قرأ : « تَلِقُونه » أخذه من الوَلْق ، وهو الكذب .

قوله تعالى : (وتقُولون بأفواهكم ما ليس لكم به عِلْم) أي : من غير أن تعلموا أنه حق (وتَحْسَبُونه) يعني : ذلك القذف (هيِّناً) أي : سهلاً لا إثم

---

(١) قال ابن كثير : وهذا فيمن عنده إيمان يقبل الله بسببه التوبة ، كمسطح ، وحسان ، وحمنة بنت جحش ، فأما من خاض فيه من المنافقين كعبد الله بن أُبيّ بن سلول وأضرابه ، فليس أولئك مرادين في هذه الآية ، لأنه ليس عندهم من الايمان والعمل الصالح مايعادل هذا ولا مايعارضه ، وهكذا شأن ما يرد من الوعيد على فعل معيَّن ، يكون مطلقاً مشروطاً بعدم التوبة أو مايقابله من عمل صالح يوازنه أو يرجح عليه . اهـ .

(٢) الرجز في « الطبري » : ١٨/٩٨ ، و « القرطبي » : ١٢/٢٠٤ ، و « اللسان » : ولق .

فيه (وهو عند الله عظيم) في الوزر [١] . ثم زاد عليهم في الإنكار فقال : (ولولا إذ سمعتموه قلتم ما يكون لنا) أي : ما يحل وما ينبغي لنا (أن نتكلم بهذا سبحانك) وهو يحتمل التنزيه والتعجب . وروت عائشة أن امرأة أبي أيوب الأنصاري قالت له : ألم تسمع ما يتحدث الناس ؟! فقال : « ما يكون لنا أن نتكلم بهذا ... » الآية ، فنزلت الآية . وقد روينا آنفاً أن أمه ذكرت له ذلك ، فنزلت الآية المتقدمة . وروي عن سعيد بن جبير أن سعد بن معاذ لما سمع ذلك قال : سبحانك هذا بهتان عظيم ، فقيل للناس : هلا قلتم كما قال سعد ؟!

قوله تعالى : (يعظكم الله) أي : ينهاكم الله (أن تعودوا لمثله) أي : إلى مثله (إن كنتم مؤمنين) لأن من شرط الإيمان ترك قذف المحصنة . (ويبين الله لكم الآيات) في الأمر والنهي .

ثم هدد القاذفين بقوله : (إن الذين يحبون أن تشيع الفاحشة) أي : يحبون أن يفشو القذف بالفاحشة ، وهي الزنا (في الذين آمنوا لهم عذاب أليم في الدنيا) يعني : الجلد (والآخرة) عذاب النار . وروت عمرة عن عائشة قالت : لما نزل عذري قام رسول الله ﷺ على المنبر ، فذكر ذلك ، وتلا القرآن ، فلما نزل أمر برجلين وامرأة ، فضربوا حدهم [٢] . وروى أبو صالح عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ جلد عبد الله بن أبي ، ومسطح بن أثاثة ، وحسان بن ثابت ، وحمنة بنت جحش [٣] ، فأما الثلاثة فتابوا ، وأما عبد الله فمات منافقاً ؛ وبعض العلماء ينكر صحة هذا ، ويقول : لم يضرب أحداً .

---

(١) وفي « الصحيحين » : « إن العبد ليتكلم بالكلمة ما يتبين فيها يزل بها إلى النار أبعد مما بين المشرق والمغرب » .

(٢) رواه أحمد ، وأصحاب السنن الاربعة . (٣) رواه أبو داود في « سننه » رقم (٤٤٧٥) .

قوله تعالى : (واللهُ يَعْلَم) شرَّ ما خضتم فيه وما يتضمن من سخط الله (وأنتم لا تعلمون) ذلك[1] ،(ولولا فضلُ الله عليكم) جوابه محذوف ، تقديره : لعاقبكم فيما قلتم لعائشة . قال ابن عباس : يريد : مِسْطَحاً، وحسّان ، و حَمْنَة .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾

قوله تعالى : (لا تتَّبعوا خطواتِ الشيطان) أي : تزيينه لكم قذفَ عائشة . وقد سبق شرح « خطوات الشيطان » وبيان « الفحشاء والمنكر » [البقرة:١٦٨،١٦٩] .

قوله تعالى : (ما زكى منكم) وقرأ الحسن ، ومجاهد ، وقتادة : « ما زكّى » بتشديد الكاف .

وفيمن خوطب بهذا قولان .

أحدهما : أنه عامّ في الخلق . والثاني : أنه خاصّ للمتكلمين في الإفك .

ثم في معناه أربعة أقوال .

أحدها : ما اهتدى ، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس . والثاني : ما أسلم ، قاله ابن زيد . والثالث : ما صلح ، قاله مقاتل . والرابع : ما طهر ، قاله ابن قتيبة .

قوله تعالى : (ولكنّ الله يزكّي من يشاء) أي : يطهّر من يشاء من

---

(١) قال ابن جرير الطبري : يقول تعالى ذكره : والله يعلم كذب الذين جاؤوا بالإفك من صدقهم ، وأنتم أيها الناس لا تعلمون ذلك ، لأنكم لا تعلمون الغيب ، وإنما يعلم ذلك علام الغيوب ، يقول : فلا ترووا ما لا علم لكم به من الإفك على أهل الإيمان بالله ، ولا سيما على حلائل رسول الله ﷺ فتهلكوا . اهـ .

الإثم بالتوبة والغفران ؛ فالمعنى : وقد شئتُ أن أتوب عليكم ، (والله سميع عليم) علم مافي نفوسكم من التوبة والندامة .

﴿ وَلا يَأْتَلِ أُولُوا الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلاَ تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللهُ لَكُمْ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾

قوله تعالى : (ولا يَأْتَلِ) وقرأ الحسن ، وأبو العالية ، وأبو جعفر ، وابن أبي عبلة : « ولا يَتَأَلَّ » بهمزة مفتوحة بين التاء واللام وتشديد اللام على وزن يَتَعَلَّ . قال المفسرون : سبب نزولها أن أبا بكر الصدّيق كان ينفق على مِسْطح لقرابته وفقره ، فلمّا خاض في أمر عائشة قال أبو بكر : والله لا أُنفِق عليه [شيئاً]أبداً ، فنزلت هذه الآية [1] . فأما الفَضْل ، فقال أبو عبيدة : هو التفضُّل ، والسَّعة : الجِدَة . قال المفسرون : والمراد به : أبو بكر .

قوله تعالى : (أن يُؤْتُوا) قال ابن قتيبة : معناه : أن لايؤتوا ، فحذف « لا » . فأما قوله : (أُولي القُربى) فانه يعني مِسْطحاً ، وكان ابن خالة أبي بكر ، وكان مسكيناً ، وكان مهاجراً . قال المفسرون : فلما سمع أبو بكر (ألا تُحِبُّون أن يغفر اللهُ لكم) قال : بلى يارب ، وأعاد نفقته على مِسْطح .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلاَتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ . يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ

(١) روى البخاري ومسلم في « صحيحيهما » عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت عندما نزلت الآيات العشر في براءتها : فلما أنزل الله هذا في براءتي ، قال أبو بكر رضي الله عنه وكان ينفق على مسطح بن أثاثة لقرابته منه وفقره : والله لاأنفق عليه شيئاً أبداً بعد الذي قال لعائشة ماقال ، فأنزل الله تعالى : (ولا يأتل أولو الفضل منكم والسعة أن يؤتوا أولي القربى) إلى قوله : (ألا تحبون أن يغفر لكم والله غفور رحيم) فقال أبو بكر : بلى والله إني لأحب أن يغفر الله لي ، فرجع إلى مسطح النفقة التي كان ينفق عليه وقال : والله لاأنزعها عنه أبداً .

أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ . يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ ﴾

قوله تعالى : (إن الذين يَرْمون المحصنات) يعني : العفائف (الغافلات) عن الفواحش ، (لُعنوا في الدنيا) أي : عُذِّبوا بالجَلْد ، وفي الآخرة بالنار .

واختلف العلماء فيمن نزلت هذه الآية على أربعة أقوال .

أحدها : أنها نزلت في عائشة خاصة . قال خصيف : سألت سعيد بن جبير عن هذه الآية ، فقلت : من قذف محصنة لعنه الله ؟ قال : لا ، إنما أُنزلت هذه الآية في عائشة خاصة [١] .

والثاني : أنها في أزواج النبيّ ﷺ خاصة ، قاله الضحاك [٢] .

والثالث : أنها في المهاجرات . قال أبو حمزة الثمالي : بلغنا أن المرأة كانت إذا خرجت إلى المدينة مهاجرة ، قذفها المشركون من أهل مكة ، وقالوا : إنما خرجت تفجر ، فنزلت هذه الآية .

والرابع : أنها عامّة في أزواج النبي ﷺ وغيرهنّ ، وبه قال قتادة ، وابن زيد [٣] .

---

(١) « الطبري » : ١٨/١٠٣ ، وذكره السيوطي في « الدر » : ٥/٣٥ وزاد نسبته لعبد ابن حميد ، وابن المنذر ، والطبراني .

(٢) « الطبري » : ١٨/١٠٤ ، وذكره السيوطي في « الدر » : ٥/٣٥ وزاد نسبته لعبد بن حميد .

(٣) قال ابن جرير الطبري : وأولى هذه الأقوال في ذلك عندي بالصواب قول من قال : نزلت هذه الآية في شأن عائشة ، والحكم بها عام في كل من كان بالصفة التي وصفه الله بها فيها . اهـ . وقال ابن كثير : وهو الصحيح ، ويعضد العموم ما جاء في « الصحيحين » من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « اجتنبوا السبع الموبقات » قيل : وما هنّ يا رسول الله ؟ قال : « الشرك بالله ، والسحر ، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق ، وأكل الربا ، وأكل مال اليتيم ، والتولي يوم الزحف ، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات » .

فان قيل : لم اقتصر على ذِكْر المحصَنات دون الرجال ؟

فالجواب : [أن] من رمى مؤمنة فلا بدَّ أن يرمي معها مؤمناً ، فاستُغني ذِكْر المؤمنين ، ومثله : « سرابيل تقيكم الحَرَّ » [النحل: ٨١] أراد : والبرد ، قاله الزجاج .

قوله تعالى : (يومَ تَشْهَدُ عليهم ألسنتُهم) وقرأ حمزة ، والكسائي ، وخلف : « يشهد » بالياء ؛ وهو إقرارها بما تكلَّموا به من الفِرْية . قال أبو سليمان الدمشقي : وهؤلاء غير الذين يُخْتَم على أفواههم . وقال ابن جرير : المعنى : أن ألسنة بعضهم تشهد على بعض .

قوله تعالى : (يومئذ يوفِّيهم اللهُ دِينَهم الحقَّ) أي : حسابهم العدل ، وقيل : جزاءهم الواجب . وقرأ مجاهد ، وأبو الجوزاء ، وحميد بن قيس ، والأعمش : « دينهم الحقُّ » برفع القاف (ويَعْلَمون أن الله هو الحقُّ المُبِين) قال ابن عباس : وذلك أن عبد الله بن أُبيّ كان يشك في الدين ، فاذا كانت القيامة عَلِم حيث لاينفعه .

﴿ الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ أُولَٰئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾

قوله تعالى : (الخبيثاتُ للخبيثين) فيه أربعة أقوال .

أحدها : الكلمات الخبيثات لايتكلَّم بها إلا الخبيث من الرجال والنساء ، والكلمات الطَّيبات لايتكلم بها إلا الطَّيبون من الرجال والنساء .

والثاني : الكلمات الخبيثات إنما تلصق بالخبيثين من الرجال والنساء ، فأما الطيبات والطيبون ، فلا يصلح أن يقال في حقهم إلا الطيبات .

والثالث : الخبيثات من النساء للخبيثين من الرجال ، والطيبات من النساء للطيِّبين من الرجال .

والرابع : الخبيثات من الأعمال للخبيثين من الناس ، والخبيثون من الناس للخبيثات من الأعمال ، وكذلك الطيِّبات . (أولئك) يعني : عائشة وصفوان (مبرَّؤون) أي : منزَّهون (مما يقولون) من الفِرية (لهم مغفرة) لذنوبهم (ورزق كريم) في الجنة .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ . فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّى يُؤْذَنَ لَكُمْ وَإِنْ قِيلَ لَكُمُ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ . لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَاعٌ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴾

قوله تعالى : (لاتدخلوا بيوتاً غير بيوتكم) ذكر أهل التفسير أن سبب نزولها أن امرأة من الأنصار جاءت إلى رسول الله ﷺ ، فقالت : يارسول الله ، إني أكون في بيتي على حال لا أُحبّ أن يراني عليها أحد ، فلا يزال يدخل عليّ رجل من أهلي ، فنزلت هذه الآية[1] ؛ فقال أبو بكر بعد نزولها : يارسول الله ، أفرأيت الخانات والمساكن التي ليس فيها ساكن ، فنزل قوله : (ليس عليكم جُناح أن تَدْخُلوا بيوتاً غير مسكونة ..) الآية[2] . ومعنى قوله : (لاتدخلوا بيوتاً غير بيوتكم)

---

(١) « الطبري » : ١١١/١٨ ، و « أسباب النزول » للواحدي : ١٨٦ ، وذكره السيوطي في « الدر » : ٣٨/٥ وزاد نسبته للفريابي .

(٢) ذكره الواحدي في « أسباب النزول » : ١٦٨ بدون سند .

أي : بيوتاً ليست لكم . واختلف القراء في باء البيوت ، فقرأ بعضهم بضمها ، وبعضهم بكسرها . وقد بيَّنَّا ذلك في (البقرة : ١٨٩) .

قوله تعالى : (حتى تستأنسوا) قال الفراء : في الكلام تقديم وتأخير ، تقديره : حتى تسلِّموا وتستأنسوا . قال الزجاج : و « تستأنسوا » في اللغة ، بمعنى تستأذنوا ، وكذلك هو في التفسير ، والاستئذان : الاستعلام ، تقول : آذنتُه بكذا ، أي : أعلمته ، وآنستُ منه كذا ، أي : علمتُ منه ، ومثله : « فان آنستم منهم رُشداً » [النساء : ٦] أي : علمتم . فمعنى الآية : حتى تستعلموا ، يريد أهلها أن تدخلوا ، أم لا ؟ قال المفسرون : وصفة الاستعلام أن تقول : السلام عليكم ، أأدخل ؟ ولا يجوز أن تدخل بيت غيرك إلا بالاستئذان ، لهذه الآية ، (ذلكم خير لكم) من أن تدخلوا بغير إذن (لعلَّكم تَذَكَّرون) أن الاستئذان خير فتأخذون به ، قال عطاء : قلت لابن عباس : أستأذن على أمي وأختي ونحن في بيت واحد ؟ قال : أيسرُّك أن ترى منهن عورة ؟ قلت : لا ، قال : فاستأذن .

قوله تعالى : (فان لم تجدوا فيها أحداً) أي : إن وجدتموها خالية (فلا تدخلوها حتى يؤذن لكم وإن قيل لكم ارجعوا فارجعوا) أي : إن ردُّوكم فلا تقفوا على أبوابهم وتلازموها ، (هو أزكى لكم) يعني : الرجوع خير لكم وأفضل (والله بما تعملون) من الدخول باذن وغير إذن (عليم) [١] .

---

(١) قال ابن كثير : هذه آداب شرعية أدب الله بها عباده المؤمنين ، وذلك في الاستئذان ، أمرهم أن لا يدخلوا بيوتاً غير بيوتهم حتى يستأنسوا ، أي : يستأذنوا قبل الدخول ويسلموا بعده ، قال : وينبغي أن يستأذن ثلاث مرات ، فان أذن له ، وإلا انصرف ، كما ثبت في « الصحيح » أن أبا موسى حين استأذن على عمر ثلاثاً فلم يؤذَن له انصرف ، ثم قال عمر : ألم أسمع صوت عبد الله بن قيس يستأذن ؟ ائذنوا له ، فطلبوه فوجدوه قد ذهب ، فلما جاء بعد ذلك قال : ما أرجعك ؟ قال : إني استأذنت ثلاثاً فلم يؤذن لي ، وإني سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إذا استأذن أحدكم ثلاثاً فلم يؤذَن له فلينصرف » .

فصل

وهل هذه الآية منسوخة ،أم لا ؟ فيها قولان .

أحدهما : أن حكمها عامّ في جميع البيوت ، ثم نسخت منها البيوت التي ليس لها أهل يُستأذَنون بقوله تعالى : (ليس عليكم جناح أن تدخلوا بيوتاً غير مسكونة) ، هذا مروي عن الحسن ، وعكرمة .

والثاني : أن الآيتين محكمتان ، فالاستئذان شرط في الأولى إذا كان الدار أهل ، والثانية وردت في بيوت لاساكن لها ، والإذن لايتصور من غير آذن ، فاذا بطل الاستئذان ،لم تكن البيوت الخالية داخلة في الأولى ، وهذا أصح .

قوله تعالى : (أن تدخلوا بيوتاً غير مسكونة) فيها خمسة أقوال .

أحدها : أنها الخانات والبيوت المبنيّة للسابلة ليأووا إليها ، ويُؤووا أمتعتهم ، قاله قتادة .

والثاني : أنها البيوت الخربة ، والمتاع : قضاء الحاجة فيها من الغائط والبول ، قاله عطاء .

والثالث : أنها بيوت مكة ، قاله محمد بن الحنفية .

والرابع : حوانيت التجار التي بالأسواق ، قاله ابن زيد .

والخامس : أنها جميع البيوت التي لاساكن لها ، لأن الاستئذان إنما جعل لأجل الساكن ، قاله ابن جريج .

فيخرّج في معنى « المتاع » ثلاثة أقوال .

أحدها : الأمتعة التي تباع وتشترى . والثاني : إلقاء الأذى من الغائط والبول . والثالث : الانتفاع بالبيوت لاتقاء الحر والبرد .

﴿ قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ . وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَىٰ عَوْرَاتِ النِّسَاءِ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾

قوله تعالى : (قل للمؤمنين يَغُضُّوا مِنْ أبصارهم) في « مِنْ » قولان . أحدهما : أنها صلة . والثاني : أنها أصل ، لأنهم لم يؤمروا بالغض مطلقاً ، وإنما أُمروا بالغضّ عما لايحلّ .

وفي قوله : (ويحفظوا فروجهم) قولان . أحدهما : عما لايحلّ لهم ، قاله الجمهور . والثاني : عن أن تُرى ، فهو أمر لهم بالاستتار ، قاله أبو العالية ، وابن زيد .

قوله تعالى : (ذلك) إشارة إلى الغضّ وحفظ الفُروج (أزكى لهم) أي : خير وأفضل (إن الله خبير بما يصنعون) في الأبصار والفروج [1] . ثم أمر النساء بما أمر به الرجال .

---

(١) قال ابن كثير : هذا أمر من الله تعالى لعباده المؤمنين أن يغضّوا من أبصارهم عما حرّم —

قوله تعالى : (ولا يبدين زينتهن) أي : لايُظهِرْنَها لغير مَحْرَم . وزينتُهن على ضربين ، خفيَّةٌ كالسّوارين والقُرطين والدُّملج والقلائد ونحو ذلك ، وظاهرةٌ وهي المشار إليها بقوله : (إلا ماظَهَرَ منها) وفيه سبعة أقوال .

أحدها : أنها الثياب ، رواه أبو الأحوص عن ابن مسعود ؛ وفي لفظ آخر قال : هو الرداء . والثاني : أنها الكفُّ والخاتم والوجه . والثالث : الكُحْل والخاتم ، رواهما سعيد بن جبير عن ابن عباس . والرابع : القُلْبان ، وهما السِّواران والخاتم والكُحْل ، قاله المِسْوَر بن مَخْرَمَة . والخامس : الكُحْل والخاتم والخضاب ، قاله مجاهد . والسادس : الخاتم والسِّوار ، قاله الحسن . والسابع : الوجه والكفّان ، قاله الضحاك . قال القاضي أبو يعلى : والقول الأول أشبه [1] ، وقد نص عليه أحمد ، فقال : الزينة الظاهرة : الثياب ، وكل شيء منها عورة حتى الظفر [2] ، ويفيد هذا تحريم النظر إلى شيء من الأجنبيات لغير عذر ، فان كان

—— عليهم ، ولا ينظروا إلا إلى ماأباح لهم النظر إليه ، وأن يغمضوا أبصارهم عن المحارم ، فان اتفق أن وقع البصر على محرَّم من غير قصد فليصرف بصره عنه سريعاً ، كما روى مسلم في « صحيحه » عن جرير بن عبد الله البجلي رضي الله عنه قال : سألت النبي ﷺ عن نظر الفجأة ، فأمرني أن أصرف بصري . وروى أبو داود عن عبد الله بن بريدة عن أبيه قال : قال رسول الله ﷺ لعليّ : « ياعلي لاتتبع النظرة النظرة ، فإن لك الأولى ، وليست لك الآخرة » . وفي « الصحيح » عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إياكم والجلوس على الطرقات » قالوا : يارسول الله لابد لنا من مجالسنا نتحدث فيها ، فقال رسول الله ﷺ : « إن أبيتم فأعطوا الطريق حقه » قالوا : وما حق الطريق يارسول الله ؟ قال : « غض البصر ، وكف الأذى ، ورد السلام ، والأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر » .

(١) قال ابن جرير الطبري : وأولى الأقوال في ذلك بالصواب قول من قال : عني بذلك الوجه والكفان ، يدخل في ذلك ـ إذا كان كذلك ـ : الكحل ، والخاتم ، والسوار ، والخضاب .

(٢) وقال غيره من الأئمة : الوجه والكفان ليسا بعورة ، فيجوز للمرأة أن تظهرهما ، وهذا مقيَّد بما إذا لم يكن على الوجه والكفين شيء من الزينة ، أما مايضعه النساء في زماننا من الأصباغ على وجوههن وأكفّهن بقصد التجمُّل ، ويظهرن به أمام الرجال في الطرقات ، فلا شك في تحريمه عند جميع الأئمة . ثم الوجه والكفّان وإن لم يكونا عورة عند بقية الأئمة ، ——

لعذر مثل أن يريد أن يتزوجها أو يشهد عليها ، فانه ينظر في الحالين إلى وجهها خاصة ؛ فأما النظر إليها لغير عذر ، فلا يجوز لا لشهوة ولا لغيرها ، وسواء في ذلك الوجه والكفان وغيرهما من البدن .

فان قيل : فلم لا تبطل الصلاة بكشف وجهها ؟!

فالجواب : أن في تغطيته مشقّة ، فعُفي عنه .

قوله تعالى : (ولْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ) وهي جمع خِمار ، وهو ماتغطّي به المرأة رأسها ، والمعنى : ولْيُلْقِينَ مَقَانِعَهُنَّ (على جُيُوبِهِنَّ) ليسترْن بذلك شعورهن وقُرطهن وأعناقهن . وقرأ ابن مسعود ، وأُبيّ بن كعب ، وإبراهيم النخعي ، والأعمش : « على جِيُوبِهِنَّ » بكسر الجيم ، (ولا يُبْدِين زينتهنَّ) يعني : الخفيَّة ، وقد سبق بيانها (إلا لِبُعُولَتِهِنَّ) قال ابن عباس : لا يَضَعْنَ الجلباب والخمار إلا لأزواجهن .

قوله تعالى : (أو نِسَائِهِنَّ) يعني : المُسْلمات . قال أحمد : لا يَحِلّ المسلمة أن تكشف رأسها عند نساء أهل الذمة [1] ، واليهوديةُ والنصرانية لا تقبّلان المسلمة .

ـــ فليس معنى ذلك أنه يجب كشفها عندهم ، أو أنه سنة وسترهما بدعة ، بل معناه أنه يجوز كشفها ، وذلك إذا أمنت الفتنة. ثم إن سترهما مشروع وهو الأحسن والأكمل ، وخاصة في مثل زماننا ، فاننا لا نرى ذلك المجتمع المهذّب الذي يصغي لقوله تعالى : (قل للمؤمنين يغضّوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم) والكثير من الناس لا يدرك معنى قوله عليه السلام لجرير بن عبد الله البجلي رضي الله عنه عندما سأله عن نظر الفجأة : « اصرف بصرك » وقوله لعلي رضي الله عنه : « ياعلي لا تُتبع النظرة النظرة ، فان لك الأولى وليست لك الآخرة » والاحتياط في مثل هذا الأمر أفضل ، صوناً للنساء ، وحفظاً لعفافهن ، وأن يستعففن خير لهن .

(١) قال ابن كثير : يعني تظهر بزينتها أيضاً للنساء المسلمات دون نساء أهل الذمة لئلا تصفهنّ لرجالهنّ ، وذلك وإن كان محذوراً في جميع النساء ، إلا أنه في نساء أهل الذمة أشد ، فانهن لا يمنعهنّ من ذلك مانع ، فأما المسلمة فانها تعلم أن ذلك حرام فتنزجر عنه ، وقد قال رسول الله ﷺ : « لا تباشر المرأة المرأة تنعتها لزوجها كأنه ينظر إليها » أخرجاه في « الصحيحين » عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه .

قوله تعالى : (أو ماملَكَت أيمانُهن) قال أصحابنا : المراد به : الإماء دون العبيد . وقال أصحاب الشافعي : يدخل فيه العبيد ، فيجوز المرأة عندهم أن تظهر لمملوكها ماتُظهر لمحارمها ، لأن مذهب الشافعي أنه مَحْرَم لها ، وعندنا أنه ليس بمحرم ، ولا يجوز أن ينظر إلى غير وجهها وكفَّيها ، وقد نص أحمد على أنه لايجوز أن ينظر إلى شعر مولاته . قال القاضي أبو يعلى : وإنما ذكر الإماء في الآية ، لأنه قد يظن الظانُّ أنه لايجوز أن تبديَ زينتها للاماء ، لأن الذين تقدَّم ذِكرهم أحرارٌ ، فلما ذكر الإماء زال الإشكال .

قوله تعالى : (أو التّابِعِين) وهم الذين يتبعون القوم ويكونون معهم لإرفاقهم إياهم ، أو لأنهم نَشَؤوا فيهم .

وللمفسرين في هذا التَّابع ستة أقوال .

أحدها : أنه الأحمق الذي لاتشتهيه المرأة ولا يغار عليه الرجل ، قاله قتادة ، وكذلك قال مجاهد : هو الأبله الذي يريد الطعام ولا يريد النساء . والثاني : أنه العِنِّين ، قاله عكرمة . والثالث : المخنَّث كان يتبع الرجل يخدمه بطعامه ، ولا يستطيع غشيان النساء ولا يشتهيهن [1] ، قاله الحسن . والرابع : أنه الشيخ

(١) وفي الصحيح من حديث الزهري عن عائشة رضي الله عنها أن مخنثاً كان يدخل على أهل رسول الله ، وكانوا يعدُّونه من غير أولي الاربة ، فدخل النبي ﷺ وهو ينعت امرأة ، يقول : إنها إذا أقبلت أقبلت بأربع ، وإذا أدبرت أدبرت بثمان ، فقال رسول الله ﷺ : « ألا أرى هذا يعلم ماهاهنا لا يدخلنَّ عليكم » وأخرجه ، وكان بالبيداء يدخل كل يوم جمعة ليستطعم . وروى الامام أحمد في « المسند » عن أم سلمة أنها قالت : دخل عليها رسول الله ﷺ وعندها مخنث ، وعندها عبد الله بن أبي أمية ـ يعني أخاها ـ والمخنث يقول : ياعبد الله إن فتح الله عليكم الطائف غداً ، فعليك بابنة غيلان فانها تقبل بأربع وتدبر بثمان ، قال : فسمعه رسول الله ﷺ ، فقال لأم سلمة : « لا يدخلن هذا عليك » وهو في « الصحيحين » من حديث هشام ــ

الفاني . والخامس : أنه الخادم ، قالهما ابن السائب . والسادس : أنه الذي لايكترث بالنساء ، إما لكِبَر أو لهرم أو لصغر ، ذكره ابن المنادي من أصحابنا . قال الزجاج : « غَيْرِ » صفة للتابعين . وفيه دليل على أن قوله : (أو ماملكت أيمانهن) معناه : (غيرِ أولي الإربة من الرجال) والمعنى : ولا يبدين زينتهن لماليكهن ، ولا لتُبَّاعهن ، إلا أن يكونوا غير أولي الإربة ، والإربة : الحاجة ، ومعناه : غير ذوي الحاجات إلى النساء .

قوله تعالى : (أو الطِّفْلِ) قال ابن قتيبة : يريد الأطفال ، بدليل قوله : (لم يظهروا على عورات النساء) أي : لم يعرفوها [1] .

قوله تعالى : (ولا يَضْرِبْنَ بأرجُلهن) أي : باحدى الرجلين على الأخرى ليضرب الخلخالُ الخلخالَ فيُعلَم أن عليها خلخالين [2] .

—— ابن عروة . ورواه أحمد بنحوه عن عائشة رضي الله عنها ، وفيه أن رسول الله ﷺ قال : « ألا أرى هذا يعلم ما هاهنا ، لا يدخلن عليكم هذا » فحجبوه ، ورواه مسلم ، وأبو داود ، والنسائي عن أم سلمة رضي الله عنها .

(١) قال ابن كثير : يعني لصغرهم لا يفهمون أحوال النساء وعوراتهن من كلامهن الرخيم ، وتعطفهن في المشية ، وحركاتهن وسكناتهن ، فاذا كان الطفل صغيراً لا يفهم ذلك ، فـلا بأس بدخوله ، فأما إذا كان مراهقاً أو قريباً منه بحيث يعرف ذلك ويدريه ، ويفرق بين الشوهاء والحسناء ، فلا يمكّن من الدخول على النساء ، وقد ثبت في « الصحيحين » عن رسول الله ﷺ أنه قال : « إياكم والدخول على النساء » قيل : يارسول الله ، أفرأيت الحمو ؟ قال : « الحمو الموت » .

(٢) قال ابن كثير : كانت المرأة في الجاهلية إذا كانت تمشي في الطريق وفي رجلها خلخال صامت لا يعلم صوتها ، ضربت برجلها الأرض فيسمع الرجال طنينه ، فنهى الله المؤمنات عن مثل ذلك ، وكذلك إذا كان شيء من زينتها مستوراً فتحركت بحركة لتظهر ما هو خفي ، دخل في هذا النهي ، لقوله تعالى : (ولا يضربن بأرجلهن) إلى آخره ، ومن ذلك أنها تُنهى عن التعطّر والتطيب عند خروجها من بيتها فيشم الرجال طيبها ، قال : وقد روى الترمذي عن أبي ——

﴿ وَأَنْكِحُوا الْأَيَامَىٰ مِنْكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ . وَلْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا وَآتُوهُمْ مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَنْ يُكْرِهْهُنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَحِيمٌ . وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ آيَاتٍ مُبَيِّنَاتٍ وَمَثَلًا مِنَ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ ﴾

قوله تعالى : (وأنكحوا الأيامى) وهم الذين لا أزواج لهم من الرجال والنساء ، يقال : رجل أيّم وامرأة أيّم ، ورجل أرمل وامرأة أرملة ، ورجل بِكر وامرأة بِكر : إذا لم يتزوجا ، وامرأة ثيّب ورجل ثيّب : إذا كانا قد تزوجا ، (والصالحين من عبادكم) أي : من عبيدكم ، يقال ، عَبْد وعِبَاد وعَبِيد ، كما يقال : كَلْب وكِلَاب وكَلِيب . وقرأ الحسن ، ومعاذ القارىء : « من عَبِيدكم » .

ــــ موسى الأشعري رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال : « كل عين زانية ، والمرأة إذا استعطرت فمرت بالمجلس فهي كذا وكذا » يعني زانية ، قال : وفي الباب عن أبي هريرة ، وهذا حديث حسن صحيح ، رواه أبو داود ، والنسائي من حديث ثابت بن عمارة به . وقال : ومن ذلك أيضاً أنهن ينهين عن المشي في وسط الطريق لما فيه من التبرج . اهـ .

وقال ابن كثير في تتمة الآية : وقوله : (وتوبوا إلى الله جميعاً أيها المؤمنون لعلكم تفلحون) أي : افعلوا ما أمركم به من هذه الصفات الجميلة ، والأخلاق الجليلة ، واتركوا ما كان عليه أهل الجاهلية من الأخلاق والصفات الرذيلة ، فان الفلاح كل الفلاح في فعل ما أمر الله به ورسوله ، وترك ما نهيا عنه ، والله تعالى هو المستعان . اهـ .

قال المفسرون : والمراد بالآية الندب [١] . ومعنى الصلاح هاهنا : الإيمان . والمراد بالعباد : المملوكون ، فالمعنى : زوِّجوا المؤمنين من عبيدكم وولائدكم . ثم رجع إلى الأحرار فقال : (إن يكونوا فقراء يُغْنِهِمُ الله من فضله) فأخبرهم أن النكاح سبب لنفي الفقر [٢] .

قوله تعالى : (ولْيَسْتَعْفِفِ الذين لايجدون نكاحاً) أي : ولْيطلب العِفَّة عن الزنا والحرام مَن لايجد ماينكح به من صداق ونفقة . وقد روى ابن مسعود عن رسول الله ﷺ أنه قال : « يامعشر الشباب عليكم بالباءة ، فمن لم يجد فعليه بالصيام فانه له وجاء » [٣] .

---

(١) قال ابن كثير : اشتملت هذه الآيات الكريمات المبينة ، على جمل من الأحكام المحكمة ، والأوامر المبرمة ، فقوله تعالى : (وأنكحوا الأيامى منكم) الى آخره ، هذا أمر بالتزويج ، وقد ذهب طائفة من العلماء الى وجوبه على كل من قدر عليه ، واحتجوا بظاهر قوله عليه الصلاة والسلام : « يامعشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج ، فانه أغض للبصر وأحصن للفرج ، ومن لم يستطع فعليه بالصوم فانه له وجاء » أخرجاه في « الصحيحين » من حديث ابن مسعود . وقد جاء في « السنن » من غير وجه أن رسول الله ﷺ قال : « تزوجوا الولود ، تناسلوا فاني مباهٍ بكم الأمم يوم القيامة » اه .

(٢) روى الامام أحمد ، والترمذي ، والنسائي ، وابن ماجه بسند حسن من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « ثلاثة حق على الله عونهم : المكاتَب الذي يريد الأداء ، والناكح الذي يريد العفاف ، والمجاهد في سبيل الله » .

وروى ابن جرير الطبري عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال : التمسوا الغنى في النكاح ، يقول الله تعالى :(إن يكونوا فقراء يغنهم الله من فضله) . وقال الطبري في تمام الآية : (والله واسع عليم) يقول جل ثناؤه : والله واسع الفضل ، جواد بعطاياه ، فزوجوا إماءكم ، فان الله واسع يوسِّع عليهم من فضله إن كانوا فقراء ، عليم ، يقول : هو ذو علم بالفقير منهم والغني ، لا يخفى عليه حال خلقه في شيء وتدبيرهم . اه .

(٣) متفق عليه من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه بلفظ : « يامعشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج فانه أغض للبصر وأحصن للفرج ، فمن لم يستطع فعليه بالصوم فانه له وجاء » .

قوله تعالى : (والذين يبتغون الكتاب) أي : يطلبون المكاتبة من العبيد والإماء على أنفسهم ، (فكاتبوهم) فيه قولان .

أحدهما : أنه مندوب إليه ، قاله الجمهور .

والثاني : أنه واجب ، قاله عطاء ، وعمرو بن دينار . وذكر المفسرون : أنها نزلت في غلام لحويطب بن عبد العزّى يقال له : صبيح ، سأل مولاه الكتابة فأبى عليه ، فنزلت هذه الآية ، فكاتبه حويطب على مائة دينار ووهب له منها عشرين ديناراً [1] .

قوله تعالى : (إن علمتم فيهم خيراً) فيه ستة أقوال .

أحدها : إن علمتم لهم مالاً ، رواه العوفي عن ابن عباس ، وبه قال مجاهد ، وعطاء ، والضحاك . والثاني : إن علمتم لهم حيلة ، يعني : الكسب ، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس . والثالث : إن علمتم فيهم ديناً ، قاله الحسن . والرابع : إن علمتم أنهم يريدون بذلك الخير ، قاله سعيد بن جبير . والخامس : إن أقاموا الصلاة ، قاله عبيدة السلماني . والسادس : إن علمتم لهم صدقاً ووفاءً ، قاله إبراهيم .

قوله تعالى : (وآتوهم من مال الله الذي آتاكم) فيه قولان .

أحدهما : أنه خطاب للأغنياء الذين تجب عليهم الزكاة ، أُمروا أن يعطوا المكاتبين من سهم الرِّقاب ، روى عطاء عن ابن عباس في هذه الآية قال : هو سهم الرقاب يُعطى منه المكاتَبون .

والثاني : أنه خطاب للسادة ، أُمروا أن يعطوا مكاتبيهم من كتابتهم شيئاً . قال أحمد والشافعي : الإيتاء واجب ، وقدَّره أحمد بربع مال الكتابة . وقال الشافعي : ليس بمقدَّر . وقال أبو حنيفة ومالك : لا يجب الإيتاء . وقد روي عن عمر بن الخطاب

(١) الواحدي في « أسباب النزول » ١٨٦ ، وذكره السيوطي في « الدر » : ٥/٤٥ من رواية ابن السكن في معرفة الصحابة .

أنه كاتب غلاماً له يقال له : أبو أمية ، فجاءه بنجمه حين حلّ ؛ فقال : اذهب يا أبا أمية فاستعن به في مكاتَبتك ، قال: ياأمير المؤمنين لو أخَّرْته حتى يكون في آخر النجوم ، فقال : يا أبا أمية : إني أخاف أن لاأدرك ذلك ، ثم قرأ : «وآتوهم من مال الله الذي آتاكم »[1] ، قال عكرمة : وكان ذلك أول نجم أُدّي في الإسلام .

قوله تعالى : (ولا تُكْرِهوا فتياتكم على البِغاء) روى مسلم في «صحيحه» من حديث أبي سفيان عن جابر ، قال : كان عبد الله بن أُبيّ يقول لجارية له : اذهبي فابغينا شيئاً ، فنزلت هذه الآية [2] . قال المفسرون : وكان له جاريتان ، مُعاذة ومُسَيكة ، فكان يكرههما على الزنا ، ويأخذ منهما الضريبة ، وكذلك كانوا يفعلون في الجاهلية ، يؤاجرون إماءهم ، فلما جاء الإسلام قالت معاذة لمسيكة : إن هذا الأمر الذي نحن فيه إن كان خيراً فقد استكثرنا منه ، وإن كان شرّاً فقد آن لنا أن نَدَعه ، فنزلت هذه الآية [3] . وزعم مقاتل أنها نزلت في ست جوارٍ كُنّ لعبد الله بن أُبيّ ، مُعاذة ، ومُسَيكة ، وأُميمة ، وقُتيلة ، وعمرة ، وأروى . فأما الفتيات ، فهن الإماء . والبِغاء : الزنا . والتحصن : التعفف .

واختلفوا في معنى (إن أرَدْنَ تحصُّناً) على أربعة أقوال .

أحدها : أن الكلام ورد على سبب ، وهو الذي ذكرناه ، فخرج النهي عن صفة السبب ، وإن لم يكن شرطاً فيه .

---

(١) ذكره السيوطي في « الدر » : ٤٦/٥ من رواية عبد الرزاق ، وابن أبي حاتم ، والبيهقي .

(٢) ذكره الواحدي في « أسباب النزول » ١٨٧ ، والسيوطي في « الدر » ٤٦/٥ ، وزاد نسبته لابن أبي شيبة ، وسعيد بن منصور ، والبزار ، والدارقطني ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وابن مردويه ، من طريق أبي سفيان ، عن جابر رضي الله عنه .

(٣) هكذا ذكره الواحدي في « أسباب النزول » ١٨٧ بدون سند ، وذكره السيوطي في « الدر » : ٤٦/٥ ونسبه لسعيد بن منصور ، والفريابي ، وعبد بن حميد ، وابن جرير عن عكرمة .

والثاني : إنه إنما شرط إرادة التحصُّن ، لأن الإكراه لا يُتصور إلا عند إرادة التحصُّن ، فأما إذا لم ترد المرأة التحصُّن ، فانها تبغي بالطبع .

والثالث : أن « إنْ » بمعنى « إذ » ، ومثله : « وذروا مابقي من الربا إن كنتم مؤمنين » [البقرة : ٢٧٨] « وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين » [آل عمران : ١٣٩] .

والرابع : أن في الكلام تقديماً وتأخيراً ، تقديره : « وأنكحوا الأيامى » إلى قوله : « وإمائكم » « إن أردن تحصناً » ولا تُكرهوا فتياتكم على البغاء (لتبتغوا عرض الحياة الدنيا) وهو كسبهن وبيع أولادهن (ومن يُكْرِهْهُنَّ فان الله من بعد إكراههن غفور) للمُكْرَهات (رحيم) وقرأ ابن عباس ، وأبو عمران الجوني ، وجعفر بن محمد : « من بعد إكراههن لهن غفور رحيم » .

قوله تعالى : (آيات مُبَيِّنَاتٍ) قرأ ابن عامر ، وأهل الكوفة غير أبي بكر ، وأبان : « مبيِّنات » بكسر الياء في الموضعين في هذه السورة [النور : ٣٤ ، ٤٦] ، وآخر سورة (الطلاق : ١١) .

قوله تعالى : (ومَثَلاً من الذين خَلَوا) أي : شَبَهاً من حالهم بحالكم أيها المكذِّبون ، وهذا تخويف لهم أن يلحقهم ما لحق المكذِّبين قبلهم .

﴿ اللهُ نُورُ السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لا شَرْقِيَّةٍ وَلا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾

قوله تعالى : (اللهُ نُور السموات والأرض) فيه قولان .

أحدها : هادي أهل السموات والأرض ، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس ،

وبه قال أنس بن مالك ، وبيان هذا أن النُّور في اللغة : الضياء ، وهو الذي تصل به الأبصار إلى مُبْصَرَاتها ، فورد النُّور مضافاً إلى الله تعالى ، لأنه هو الذي يَهْدي المؤمنين ويبيِّن لهم ما يهتدون به ، والخلائق بنوره يهتدون [1] .

والثاني : مدبِّر السموات والأرض ، قاله مجاهد ، والزجاج . وقرأ أُبيّ ابن كعب ، وأبو المتوكل ، وابن السميفع : « اللهُ نَوَّرَ » بفتح النون والواو وتشديدها ونصب الراء « السمواتِ » بالخفض « والأرضَ » بالنصب .

قوله تعالى : (مَثَل نُوره) في هاء الكناية أربعة أقوال .

أحدها : أنها ترجع إلى الله عز وجل ، قال ابن عباس : مَثَلُ هُدَاه في قلب المؤمن .

والثاني : أنها ترجع إلى المؤمن ، فتقديره : مَثَل نُور المؤمن ، قاله أُبيّ ابن كعب . وكان أُبيّ وابن مسعود يقرآن : « مثل نُور مَنْ آمن به » .

والثالث : أنها ترجع إلى محمد ﷺ ، قاله كعب .

والرابع : أنها ترجع إلى القرآن ، قاله سفيان .

فأما المشكاة ، ففيها ثلاثة أقوال .

أحدها : أنها في موضع الفتيلة من القنديل الذي هو كالأنبوب ، والمصباح : الضوء ، قاله ابن عباس .

والثاني : أنها القنديل ، والمصباح : الفتيلة ، قاله مجاهد .

والثالث : أنها الكوّة التي لا منفذ لها ، والمصباح : السراج ، قاله كعب ، وكذلك قال الفراء : المشكاة : الكوّة التي ليست بنافذة . وقال ابن قتيبة : المشكاة :

---

(١) وفي « الصحيحين » عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : كان رسول الله ﷺ إذا قام من الليل يقول : « اللهم لك الحمد ، أنت نور السموات والأرض ومن فيهن ، ولك الحمد أنت قيُّوم السموات والارض ومن فيهن . . » الحديث .

الكوّة بلسان الحبشة . وقال الزجاج : هي من كلام العرب [١] ، والمصباح : السراج . وإنما ذكر الزّجاجة ، لأن النّور في الزّجاج أشد ضوءاً منه في غيره . وقرأ أبو رجاء العطاردي ، وابن أبي عبلة : « في زَجاجة الزَّجاجة » بفتح الزاي فيهما . وقرأ معاذ القارىء ، وعاصم الجحدري ، وابن يعمر : بكسر الزاي فيهما . قال بعض أهل المعاني : معنى الآية : كَمَثَل مصباح في مشكاة ، فهو من المقلوب .

فأما الدُّرّيّ ، فقرأ أبو عمرو ، والكسائي ، وأبان عن عاصم « دِرّيء » بكسر الدال وتخفيف الياء ممدوداً مهموزاً . قال ابن قتيبة : المعنى على هذا : إنه من الكواكب الدَّراريء ، وهي اللاتي يَدْرأْن عليك ، أي : يطلُعن . وقال الزجاج : هو مأخوذ من درأ يدرأ : إذا اندفع منقضّاً فتضاعف نوره ، يقال : تدارأ الرجلان : إذا تدافعا . وروى المفضَّل عن عاصم كسر الدال وتشديد الياء من غير همز ولا مدّ ، وهي قراءة عبد الله بن عمر ، والزهري . وقرأ ابن كثير ، ونافع ، وابن عامر ، وحفص عن عاصم : « دُرِّيٌّ » بضم الدال وكسر الراء

---

(١) قال ابن جرير الطبري : وأولى الاقوال في ذلك بالصواب قول من قال . ذلك مثل ضربه الله للقرآن في قلب أهل الايمان به ، فقال : مثل نور الله الذي أنار به لعباده سبيل الرشاد الذي أنزله إليهم فآمنوا به وصدّقوا بما فيه ، في قلوب المؤمنين ، مثل مشكاة ، وهي عمود القنديل الذي فيه الفتيلة ، وذلك هو نظير الكوّة التي في الحيطان التي لا منفذ لها ، وإنما جعل ذلك العمود مشكاة ، لأنه غير نافذ ، وهو أجوف مفتوح الأعلى ، فهو كالكوة التي في الحائط التي لاتنفذ ، ثم قال : (فيها مصباح) وهو السراج ، وجعل السراج وهو المصباح مثلاً لما في قلب المؤمن من القرآن والآيات المبينات ، ثم قال : (المصباح في زجاجة) يعني أن السراج الذي في المشكاة : في القنديل ، وهو الزجاجة ، وذلك مثل القرآن ، يقول : القرآن الذي في قلب المؤمن الذي أنار الله قلبه في صدره ، ثم مثل الصدر في خلوصه من الكفر بالله والشك فيه ، واستنارته بنور القرآن ، واستضاءته بآيات ربه المبينات ومواعظه فيها ، بالكوكب الدري ، فقال (الزجاجة) وذلك صدر المؤمن الذي فيه قلبه (كأنها كوكب دريّ) . اهـ .

وتشديد الياء من غير مدٍ ولا همز ، وقرأ عثمان بن عفان ، وابن عباس ، وعاصم ، الجحدري : « دَرِيء » بفتح الدال وكسر الراء ممدوداً مهموزاً . وقرأ أُبيّ ابن كعب ، وسعيد بن المسيب ، وقتادة : بفتح الدال وتشديد الراء والياء من غير مدٍ ولا همز . وقرأ ابن مسعود ، وسعيد بن جبير ، وعكرمة ، وقتادة ، وابن يعمر : بفتح الدال وكسر الراء مهموزاً مقصوراً . قال الزجاج : الدُّرِّيّ : منسوب إلى أنه كالدُّرّ في صفائه وحسنه . وقال الكسائي : الدُّرِّيء : الذي يشبه الدُّرّ ، والدِّرِّيء : جارٍ ، والدَّرِّيء : يلتمع ، وقرأ حمزة ، وأبو بكر عن عاصم ، والوليد بن عتبة عن ابن عامر : بضم الدال وتخفيف الياء مع إثبات الهمزة والمدِّ ، قال الزجاج : فالنحويون أجمعون لا يعرفون الوجه في هذا ؛ وقال الفراء : ليس هذا بجائز في العربية ، لأنه ليس في الكلام « فُعِّيل » إلا أعجمي ، مثل مُرِّيق ، وما أشبهه . وقرأت على شيخنا أبي منصور اللغوي : المُرِّيق : العُصْفُر ، أعجمي معرَّب ، وليس في كلامهم اسم على زِنة فُعِّيْل . قال أبو علي : وقد حكى سيبويه عن أبي الخطّاب : كوكب دُرِّيء : من الصفات ، ومن الأسماء : المُرِّيق : العُصْفُر .

قوله تعالى : (تَوَقَّدَ) قرأ ابن كثير . وأبو عمرو : بالتاء المفتوحة وتشديد القاف ونصب الدَّال ، يريدان المصباح ، لأنه هو الذي يوقد . وقرأ نافع ، وابن عامر ، وحفص عن عاصم : « يُوقَدُ » بالياء مضمومة مع ضم الدال ، يريدون المصباح أيضاً . وقرأ حمزة والكسائي ، وأبو بكر عن عاصم : « تُوقَد » بضم التاء ولدال ، يريدون الزجاجة ، قال الزجاج : والمقصود : مصباح الزجاجة ، فحذف المضاف .

قوله تعالى : (من شجرة) أي : من زيت شجرة ، فحذف المضاف ، يدلك على ذلك قوله : (يكاد زيتها يضيء) ؛ والمراد بالشجرة هاهنا : شجرة الزيتون ،

وبَرَكَتُها من وجوه ، فانها تجمع الأُدْم والدُّهن والوقود ، فيوقد بحطب الزيتون ، ويُغسَل برماده الإبريسم ، ويُستخرج دُهنه أسهل استخراج ، ويورِق غصنه من أوله إلى آخره . وإنما ُخصَّت بالذِّكْر هاهنا دون غيرها ، لأنَّ دُهنها أصفى وأضوأ .

قوله تعالى : (لا شرقيةٍ ولا غربيةٍ) فيه ثلاثة أقوال .

أحدها : أنها بين الشجر ، فهي خضراء ناعمة لا تصيبها الشمس ، قاله أُبيّ ابن كعب ، ورواه سعيد بن جبير عن ابن عباس .

والثاني : أنها في الصحراء لا يُظِلُّها جبل ولا كهف ، ولا يواريها شيء ، فهو أجود لزيتها ، رواه عكرمة عن ابن عباس ، وبه قال مجاهد ، والزجاج .

والثالث : أنها من شجر الجنة ، لا من شجر الدُّنيا ، قاله الحسن [1] .

قوله تعالى : (يكاد زيتها يُضيء) أي : يكاد من صفائه يُضيء قبل أن تصيبه النار بأن يوقد به . (نُور على ُنور) قال مجاهد : النار على الزيت . وقال ابن السائب : المصباح نور ، والزجاجة نور . وقال أبو سليمان الدمشقي : نور النار ، ونور الزيت ، ونور الزجاجة [2] ، (يهدي الله لنوره) فيه أربعة أقوال .

---

(١) قال ابن جرير الطبري : وأولى هذه الأقوال بتأويل ذلك قول من قال : إنها شرقية غربية ، وقال : ومعنى الكلام : ليست شرقية تطلع عليها الشمس بالعشي دون الغداة ، ولكن الشمس تشرق عليها وتغرب ، فهي شرقية غربية ، وإنما قلنا : ذلك أولى بمعنى الكلام ، لأن الله إنما وصف الزيت الذي يوقد على هذا المصباح بالصفاء والجودة ، فاذا كان شجره شرقياً غربياً ، كان زيته لاشك أجود وأصفى وأضوأ . اه .

وقال ابن كثير بعد أن سرد عدة أقوال : وأولى هذه الأقوال أنها في مستوى من الأرض في مكان فسيح بادٍ ظاهر ضاحٍ للشمس تقرعه من أول النهار إلى آخره ، ليكون ذلك أصفى لزيتها وألطف ، كما قال غير واحد ، قال : ولهذا قال : (يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار) قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : يعني لضوء إشراق الزيت . اه .

(٢) قال ابن كثير : نور النار ونور الزيت حين اجتمعا أضاءا ، ولا يضيء واحد بغير صاحبه ، كذلك نور القرآن ونور الايمان حين اجتمعا فلا يكون واحد منهما إلا بصاحبه . اه .

أحدها : لنور القرآن . والثاني : لنور الإيمان . والثالث : لنور محمد ﷺ . والرابع : لدينه الإسلام [١] .

فصل

فأما وجه هذا المَثَل ، ففيه ثلاثة أقوال .

أحدها : أنه شبَّه نور محمد ﷺ بالمصباح النيِّر ؛ فالمشكاة جوف رسول الله ﷺ ، والمصباح النور الذي في قلبه ، والزجاجة قلبه ، فهو من شجرة مباركة ، وهو إبراهيم عليه السلام ، سماه شجرة مباركة ، لأن أكثر الأنبياء من صُلبه « لاشرقية ولا غربية » لايهودي ولا نصراني ، يكاد محمد ﷺ يتبيَّن للناس أنه نبيٌّ ولو لم يتكلَّم . وقال القرظي : المشكاة : إبراهيم ، والزجاجة : إسماعيل ، والمصباح : محمد ، صلى الله عليه وعليهم وسلَّم . وقال الضحاك : شبّه عبد المطلب بالمشكاة ، وعبد الله بالزجاجة ، ومحمداً ﷺ بالمصباح [٢] .

والثاني : أنه شبّه نور الإيمان في قلب المؤمن بالمصباح ، فالمشكاة : قلبه ، والمصباح : نور الإيمان فيه . وقيل : المشكاة : صدره ، والمصباح : القرآن والإيمان اللَّذان في

---

(١) قال ابن جرير الطبري : وقوله : (يهدي الله لنوره من يشاء) يقول تعالى ذِكره : يوفق الله لاتباع نوره ، وهو هذا القرآن من يشاء من عباده اهـ . فعلى هذا الضمير يعود على القرآن ، وهو الصواب .

(٢) هذا تأويل ، وليس تفسيراً لظاهر الآيات . قال ابن جرير الطبري : وقوله : (ويضرب الله الأمثال للناس) يقول : ويمثل الله الأمثال والأشباه للناس ، كما مثل لهم مثل هذا القرآن في قلب المؤمن بالمصباح في المشكاة وسائر ما في هذه الآية من الأمثال ، (والله بكل شيء عليم) يقول : والله بضرب الأمثال وغيرها من الأشياء كلها ، ذو علم .

وقال ابن كثير : وقوله : (ويضرب الله الأمثال للناس والله بكل شيء عليم) : لما ذكر تعالى هذا مثلاً لنور هداه في قلب المؤمن ، ختم الآية بقوله : (ويضرب الله الأمثال للناس والله بكل شيء عليم) أي : هو أعلم بمن يستحق الهداية ممن يستحق الاضلال . اهـ .

صدره ، والزجاجة : قلبه ، فكأنه مما فيه من القرآن والإيمان كوكب مضيء توقّد من شجرة ، وهي الإخلاص ، فمثل الإخلاص عنده كشجرة لاتصيبها الشمس ، فكذلك هذا المؤمن قد احترس من أن تصيبه الفتن ، فان أُعطي شكر ، وإن ابتُلي صبر ، وإن قال صدق ، وإن حكم عدل ، فقلب المؤمن يعمل بالهدى قبل أن يأتيه العلم ، فاذا جاءه العلم ازداد هدىً على هدىً كما يكاد هذا الزيت يضيء قبل أن تمسّه النار ، فاذا مسّته اشتد نوره ، فالمؤمن كلامه نور ، وعمله نور ، ومدخله نور ، ومخرجه نور ، ومصيره إلى نور يوم القيامة .

والثالث : أنه شبّه القرآن بالمصباح يُستضاء به ولا ينقص ، والزجاجة : قلب المؤمن ، والمشكاة : لسانه وفمه ، والشجرة المباركة : شجرة الوحي ، تكاد حجج القرآن تتضح وإن لم تُقرأ . وقيل : تكاد حجج الله تضيء لمن فكّر فيها وتدبّرها ولو لم ينزل القرآن ، « نور على نور » أي : القرآن نور من الله لخلقه مع ماقد قام لهم من الدلائل والأعلام قبل نزول القرآن .

قوله تعالى : (ويَضْرِبُ اللهُ الأمثال) أي : ويبيّن الله الأشباه للناس تقريباً إلى الأفهام وتسهيلاً لسبل الإدراك .

﴿ فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ . رِجَالٌ لَاتُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللهِ وَإِقَامِ الصَّلَوٰةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوْماً تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ . لِيَجْزِيَهُمُ اللهُ أَحْسَنَ مَاعَمِلُوا وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَاللهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾

قوله تعالى : (فِي بُيُوتٍ) قال الزجاج : « في » من صلة قوله : « كمشكاة »،

فالمعنى : كمشكاة في بيوت ؛ ويجوز أن تكون متصلة بقوله : « يسبِّح له فيها » فتكون فيها تكريراً على التوكيد ؛ والمعنى : يسبِّح لله رجال في بيوت .

فإن قيل : المشكاة إنما تكون في بيت واحد ، فكيف قال : « في بيوت » ؟

فمنه جوابان . أحدهما : أنه من الخطاب المتلوِّن الذي يُفتح بالتوحيد ويُختم بالجمع ، كقوله : (يا أيها النبيُّ إذا طلَّقتم النساء) [الطلاق : ١] .

والثاني : أنه راجع إلى كل واحد من البيوت ، فالمعنى : في كل بيت مشكاة .

وللمفسرين في المراد بالبيوت هاهنا ثلاثة أقوال .

أحدها : أنها المساجد ، قاله ابن عباس ، والجمهور . والثاني : بيوت أزواج رسول الله ﷺ [١] ، قاله مجاهد . والثالث : بيت المقدس ، قاله الحسن [٢] .

فأما (أذِنَ) فمعناه : أمَرَ . وفي معنى (أن تُرْفَع) قولان .

أحدهما : أن تعظَّم ، قاله الحسن ، والضحاك .

والثاني : أن تُبْنَى ، قاله مجاهد ، وقتادة .

---

(١) وهذا أيضاً تأويل ، فان المقصود من البيوت هنا : المساجد .

(٢) والقول الأول هو الصواب . قال ابن كثير : لما ضرب الله تعالى مثل قلب المؤمن وما فيه من الهدى والعلم بالمصباح في الزجاجة الصافية المتوقّد من زيت طيب ، وذلك كالقنديل ، مثلاً ، ذكر محلها وهي المساجد التي هي أحب البقاع إلى الله تعالى من الأرض ، وهي بيوته التي يُعبَد فيها ويُوحَّد ، فقال تعالى : (في بيوت أذن الله أن ترفع) أي : أمر الله تعالى بتعاهدها وتطهيرها من الدنس واللغو والأقوال والأفعال التي لا تليق فيها . اهـ .

وقد ورد في فضل بناء المساجد واحترامها وتوقيرها وتطييبها وتبخيرها أحاديث كثيرة ، منها ما أخرجه البخاري ومسلم في « صحيحيهما » عن عثمان بن عفان رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « من بنى مسجداً يبتغي به وجه الله بنى الله له بيتاً في الجنة » وروى ابن ماجه في « سننه » بسند صحيح عن جابر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « من بنى مسجداً لله كمفحص قطاة أو أصغر بنى الله له بيتاً في الجنة » ، والأحاديث في ذلك كثيرة .

وفي قوله : (ويُذْكَرَ فيها اسمُه) قولان .

أحدها : توحيده ؛ رواه أبو صالح عن ابن عباس . والثاني : يُتلى فيها كتابُه ، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس .

قوله تعالى : (يُسَبِّح) قرأ ابن كثير ، وحفص عن عاصم ، ونافع ، وأبو عمرو ، وحمزة ، والكسائي : « يُسَبِّح » بكسر الباء ؛ وقرأ ابن عامر ، وأبو بكر عن عاصم : بفتحها . وقرأ معاذ القارىء ، وأبو حيوة : « تُسَبِّحُ » بتاء مرفوعة وكسر الباء ورفع الحاء .

وفي قوله : (يُسَبِّح له فيها) قولان .

أحدهما : أنه الصلاة . ثم في صلاة الغُدُوِّ قولان . أحدهما : أنها صلاة الفجر ، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس . والثاني : صلاة الضحى ، روى ابن أبي مُلَيكة عن ابن عباس قال : إن صلاة الضحى لفي كتاب الله ، وما يغوص عليها إلا غوّاص ، ثم قرأ « يُسَبِّح له فيها بالغدوّ والآصال » . وفي صلاة الآصال قولان . أحدهما : أنها صلاة الظهر والعصر والمغرب والعشاء ، قاله ابن السائب . والثاني : صلاة العصر ، قاله أبو سليمان الدمشقي .

والقول الثاني : أنه التسبيح المعروف ، ذكره بعض المفسرين .

قوله تعالى : (رجال لا تُلْهِيهم) أي : لا تَشْغَلُهم (تجارة ولا بيع) [1] قال ابن السائب : التُّجَّار : الجلاّبون ، والباعة : المقيمون . وقال الواقدي : التجارة هاهنا بمعنى الشراء .

---

(١) قال ابن كثير : يقول تعالى : لاتشغلهم الدنيا وزخرفها وزينتها وملاذ بيعها وربحها عن ذكر ربهم الذي هو خالقهم ورازقهم ، والذين يعلمون أن الذي عنده هو خير لهم وأنفع مما بأيديهم ، لأن ماعندهم ينفد وما عند الله باقٍ ، ولهذا قال تعالى : (لاتلهيهم تجارة ولا بيع عن ذِكر الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة) أي : يقدّمون طاعته ومراده ومحبته على مرادهم ومحبتهم . اهـ .

وفي المراد بذِكْر الله ثلاثة أقوال .

أحدها : الصلاة المكتوبة ، قاله ابن عباس ، وعطاء . وروى سالم عن ابن عمر أنه كان في السوق فأقيمت الصلاة ، فأغلقوا حوانيتهم ودخلوا المسجد ، فقال ابن عمر : فيهم نزلت « رجال لا تُلهيهم تجارة ولا بيع عن ذِكْر الله » .

والثاني : عن القيام بحق الله ، قاله قتادة .

والثالث : عن ذِكْر الله باللسان ، ذكره أبو سليمان الدمشقي .

قوله تعالى : (وإقامِ الصلاة) أي : أداؤها لوقتها وإتمامها .

فان قيل : إذا كان المراد بذِكْر الله الصلاة ، فما معنى إعادتها ؟

فالجواب : أنه بيَّن أنهم يقيمونها بأدائها في وقتها .

قوله تعالى : (تَتَقَلَّبُ فيه القلوب والأبصار) في معناه ثلاثة أقوال .

أحدها : أن من كان قلبه مؤمناً بالبعث والنشور ، ازداد بصيرة برؤية ما وُعِد به ؛ ومن كان قلبه على غير ذلك ، رأى مايوقِن معه بأمر القيامة ، قاله الزجاج .

والثاني : أن القلوب تتقلَّب بين الطمع في النجاة والخوف من الهلاك ، والأبصار تتقلَّب ، تنظر من أين يؤتَون كتبهم ، أمِنْ قِبَل اليمين ، أم مِنْ قِبَل الشمال ؟ وأي ناحية يؤخذ بهم ، أذات اليمين ، أم ذات الشمال ؟ قاله ابن جرير .

والثالث : تتقلَّب القلوب فتبلغ إلى الحناجر ، وتتقلَّب الأبصار إلى الزَّرَق بعد الكَحَل والعمى بَعْدَ النَّظر .

قوله تعالى : (لِيَجْزِيَهُم) المعنى : يسبِّحون الله ليَجزيَهم (أحْسَنَ ماعملوا) أي : ليجزيهم بحسناتهم . فأما مساوئهم فلا يَجزيهم بها (ويَزيدَهم من فضله)

مالم يستحقُّوه بأعمالهم (والله يرزق من يشاء بغير حساب) قد شرحناه في (آل عمران : ٢٧) .

﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ . أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ ﴾

ثم ضرب الله مثلاً للكفار فقال : (والذين كفروا أعمالُهم كسراب) قال ابن قتيبة : السراب : مارأيته من الشمس كالماء نصف النهار ، والآل : مارأيته في أول النهار وآخره ، وهو يرفع كل شيء ، والقِيعة والقاع واحد . وقرأ أُبيُّ ابن كعب ، وعاصم الجحدري ، وابن السميفع : « بِقِيعات » . وقال الزجاج : القيعة جمع قاع ، مثل جارٍ وجيرة ، والقيعة والقاع : ماانبسط من الأرض ولم يكن فيه نبات ، فالذي يسير فيه يرى كأن فيه ماءً يجري ، وذلك هو السراب ، والآل مثل السراب ، إلا أنه يرتفع وقت الضحى ـ كالماء ـ بين السماء والأرض يحسبه الظمآن ـ وهو الشديد العطش ـ ماءً ، حتى إذا جاء إلى موضع السراب رأى أرضاً لاماء فيها ، فأعلم الله أن الكافر الذي يظن أن عمله قد نفعه عند الله ـ كظن الذي يظن السراب ماءً ـ وعملُه قد حبط .

قوله تعالى : (ووجد اللهَ عنده) أي : قَدِم على الله (فوفّاه حسابَه) أي : جازاه بعمله ؛ وهذا في الظاهر خبر عن الظمآن ، والمراد به الخبر عن الكافر .

قوله تعالى : (والله سريع الحساب) مفسَّر في (البقرة : ٢٠٢) .

قوله تعالى : (أو كظلمات) في هذا المَثَل قولان .

أحدهما : أنه لعمل الكافر ، قاله الجمهور ، واختاره الزجاج .

والثاني : أنه مَثَل لقلب الكافر في أنه لايَعْقِل ولا يُبْصِر ، قاله الفراء . فأما اللُّجّيّ ، فهو العظيم اللُّجَّة ، وهو العميق (يغشاه) أي : يعلو ذلك البحرَ (موجٌ من فوقه) أي : من فوق الموج موج ، والمعنى : يتبع الموج موج ، حتى كأن بعضه فوق بعض ، (من فوقه) أي : من فوق ذلك الموج (سحاب) .

ثم ابتدأ فقال : (ظلماتٌ) يعني : ظلمة البحر ، وظلمة الموج [الأول ، وظلمة الموج] الذي فوق الموج ، وظلمة السحاب . وقرأ ابن كثير ، وابن محيصن : « سحابُ ظلماتٍ » مضافاً (إذا أخرج يده) يعني : إذا أخرجها مُخرِجٌ ، (لم يكد يراها) فيه قولان .

أحدهما : أنه لم يرها ، قاله الحسن ، واختاره الزجاج . قال : لأن في دون هذه الظلمات لايرى الكفّ ؛ وكذلك قال ابن الأنباري : معناه : لم يرها البتَّة ، لأنه قد قام الدليل عند وصف تكاثف الظلمات على أن الرؤية معدومة ، فبان بهذا الكلام أن « يَكَد » زائدة للتوكيد ، بمنزلة « ما » في قوله : (عمَّا قليلٍ ليُصْبِحُنَّ نادمين) [المؤمنون : ٤٠] .

والثاني : أنه لم يرها إلا بعد الجهد ، قاله المبرّد . قال الفراء : وهذا كما تقول : ما كدت أبلغ إليك ، وقد بلغتَ ، قال الفراء : وهذا وجه العربية .

فصل

فأما وجه المَثَل ، فقال المفسرون : لمّا ضرب اللهُ للمؤمن مَثَلاً بالنُّور ،

ضَرب [١] للكافر هذا المثل بالظلمات ؛ والمعنى : أن الكافر في حيرة لايهتدي لرشدٍ . وقيل : الظُّلمات : ظُلمة الشِّرك وظُلمة المعاصي . وقال بعضهم : ضربَ الظلمات مثلاً لعمله ، والبحر اللُّجّيّ لقلبه ، والموج لِما يغشى قلبه من الشِّرك والجهل والحيرة ، والسحاب للرَّيْن والخَتْم على قلبه ، فكلامه ظُلمة ، وعمله ظُلمة ، ومدخله ظُلمة ، ومخرجه ظُلمة ، ومصيره إلى الظُّلمات يوم القيامة .

قوله تعالى : (ومن لم يَجْعَلِ اللهُ له نوراً) فيه قولان .

أحدهما : ديناً وإيماناً ، قاله ابن عباس ، والسدي . والثاني : هداية ، قاله الزجاج .

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَنْ فِي السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ وَاللهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ . وَلِلهِ مُلْكُ السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضِ وَإِلَى اللهِ الْمَصِيرُ﴾

قوله تعالى : (ألم تر أن الله يُسَبِّح له مَنْ في السمواتِ والأرض) قد تقدم تفسيره [البقرة : ٣٠] .

قوله تعالى : (والطَّيْرُ) أي : وتسبِّح له الطير (صافّاتٍ) أي : باسطات أجنحتها في الهواء . وإنما خصّ الطير بالذِّكر ، لأنها تكون بين السماء والأرض إذا طارت ، فهي خارجة عن جملة مَنْ في السموات والأرض .

قوله تعالى : (كُلٌّ) أي : من الجملة التي ذكرها (قد عَلِمَ صلاته وتسبيحه) قال المفسرون : الصلاة ، لبني آدم ، والتسبيح ، لغيرهم من الخلق .

وفي المشار إليه بقوله : « قد عَلِمَ » قولان .

أحدهما : أنه الله تعالى ، والمعنى : قد علم اللهُ صلاة المصلّي وتسبيحه ، قاله الزجاج .

---

(١) في الأصل : وضرب .

والثاني : أنه المصلّي والمسبّح . ثم فيه قولان . أحدهما : قد علم المصلّي والمسبّح صلاة نفسه وتسبيحه ، أي : قد عرف ما كلّف من ذلك . والثاني : قد علم المصلّي صلاة الله وتسبيحه ، أي : علم أن ذلك لله تعالى وحده .

وقرأ قتادة ، وعاصم الجحدري ، وابن يعمر : « كُلٌّ قد عُلِمَ » برفع العين وكسر اللام « صلاتُه وتسبيحُه » بالرفع فيهما .

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَنْ مَنْ يَشَاءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ . يُقَلِّبُ اللهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِأُولِي الْأَبْصَارِ ﴾

قوله تعالى : (أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يُزْجِي سحاباً) أي : يسوقه (ثم يؤلّف بينه) أي : يضم بعضه إلى بعض ، فيجعل القِطَع المتفرّقة قطعة واحدة . والسحاب لفظه لفظ الواحد ، ومعناه الجمع ، فلهذا قال : « يؤلّف بينه ثم يجعلُه رُكاماً » أي : يجعل بعض السحاب فوق بعض (فترى الوَدْقَ) وهو المطر . قال الليث : الوَدْقُ : المطر كُلُّه شديدُه وهيِّنُه .

قوله تعالى : (مِنْ خِلاله) وقرأ ابن مسعود ، وابن عباس ، وأبو العالية ، ومجاهد ، والضحاك : « من خَلَلِهِ » . والخِلال : جمع خَلَل ، مثل : جبال وجبل . (وينزّل من السماء) مفعول الإنزال محذوف ، تقديره : وينزّل من السماء من جبال فيها من بَرَدٍ بَرَداً ، فاستغنى عن ذكر المفعول للدلالة عليه . و « مِنْ » الأولى ، لابتداء الغاية ، لأن ابتداء الإنزال من السماء ، والثانية ، للتبعيض ، لأن الذي ينزله الله بعض تلك الجبال ، والثالثة ، لتبيين الجنس ، لأن جنس تلك [الجبال]

جنس البَرَد ؛ قال المفسرون : وهي جبال في السماء مخلوقة من بَرَد . وقال الزجاج : معنى الكلام : وينزِّل من السماء من جبال بَرَد فيها ، كما تقول : هذا خاتم في يدي من حديد ، المعنى : هذا خاتم حديد في يدي .

قوله تعالى : (فيُصيب به) أي : بالبَرَد (من يشاء) فيضرُّه في زرعه وثمره . والسنا : الضوء ، (يَذْهَبُ) وقرأ مجاهد ، وأبو جعفر : « يُذْهِبُ » بضم الياء وكسر الهاء . (يقلِّب اللهُ الليل والنهار) أي : يأتي بهذا ، ويذهب بهذا (إنَّ في ذلك) التقلُّب (لعبرةً لأُولي الأبصار) أي : دلالة لأهل البصائر والعقول على وحدانية الله وقدرته .

﴿ وَاللهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَاءٍ فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللهُ مَايَشَاءُ إِنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾

قوله تعالى : (واللهُ خَلَقَ كُلَّ دابَّة) وقرأ حمزة ، والكسائي : « واللهُ خالقُ كُلِّ دابّة من ماءٍ) وفي الماء قولان .

أحدهما : أن الماء أصل كُلِّ دابَّة .

والثاني : أنه النُّطفة ، والمراد به : جميع الحيوان المشاهَد في الدنيا . وإِنما قال : « فمنهم » تغليباً لما يَعقل . وإِنما لم يذكُر الذي يمشي على أكثر من أربع ، لأنه في رأي العين كالذي يمشي على أربع ، وقيل : لأنه يعتمد في المشي على أربع . وإِنما سمَّى السائر على بطنه ماشياً ، لأن كُلَّ سائر ومستمرٍّ يقال له : ماشٍ وإِن لم يكن حيواناً ، حتى إِنه يقال : قد مشى هذا الأمر ، هذا قول الزجاج . وقال أبو عبيدة : إِنما هذا على سبيل التشبيه بالماشي ، لأن المشي لايكون على البطن ، إِنما يكون

لمن له قوائم، فاذا خلطوا ماله قوائم بما لاقوائم له، جاز ذلك، كما يقولون: أكلت خبزاً ولبناً، ولا يقال: أكلت لبناً.

﴿ لَقَدْ أَنْزَلْنَا آيَاتٍ مُبَيِّنَاتٍ وَاللهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ . وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ . وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ مُعْرِضُونَ . وَإِنْ يَكُنْ لَهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ . أَفِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَمِ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَنْ يَحِيفَ اللهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ بَلْ أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ . إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ . وَمَنْ يُطِعِ اللهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللهَ وَيَتَّقْهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴾

قوله تعالى: (ويقولون آمنَّا بالله) قال المفسرون: نزلت في رجل من المنافقين يقال له: بشر كان بينه وبين يهوديّ حكومة، فدعا اليهوديُّ المنافق إلى رسول الله ﷺ ليحكم بينهما، فقال المنافق لليهودي: إن محمداً يَحيف علينا، ولكن بيني وبينك كعب بن الأشرف، فنزلت هذه الآية [1].

قوله تعالى: (ثم يتولَّى فريق منهم) يعني: المنافقين (مِنْ بَعْدِ ذلك) أي: من بعد قولهم: آمنَّا (وما أولئك) يعني: المُعْرِضين عن حُكم الله ورسوله (بالمؤمنين . وإذا دُعوا إلى الله) أي: إلى كتابه (ورسولِه ليحكُم بينهم)

(١) ذكره الواحدي في «أسباب النزول» ١٨٨ سبباً لنزول قوله تعالى: (وإذا دعوا إلى الله ورسوله) ... والتي بعدها بدون سند.

الرسول (إذا فريق منهم مُعْرِضُون) ومعنى الكلام : أنهم كانوا يُعْرِضُون عن حكم الرسول عليهم ، لعلمهم أنَّه يحكُم بالحق ؛ وإن كان الحق لهم على غيرهم، أسرعوا إلى حكمه مذعنين ، لثقتهم أنه يحكم لهم بالحق . قال الزجاج : والإذعان في اللغة : الإسراع مع الطاعة ، تقول : قد أذعن لي ، أي : قد طاوعني لِما كنتُ ألتمسه منه .

قوله تعالى : (أفي قلوبهم مرض) أي : كفر (أم ارتابوا) أي : شكّوا في القرآن ؛ وهذا استفهام ذمّ وتوبيخ ، والمعنى : إنهم كذلك ، وإنما ذكره بلفظ الاستفهام ليكون أبلغ في ذمّهم ، كما قال جرير في المدح :

أَلَسْتُمْ خَيْرَ مَنْ رَكِبَ المَطايَا [وأندى العالَمِينَ بُطُونَ راحِ][1]

أي : أنتم كذلك . فأما الحَيْف ، فهو : المَيْل في الحكم ؛ يقال : حاف في قضيَّته ، أي : جار ، (بل أولئك هم الظالمون) أي : لا يَظْلِمُ اللهُ ورسولُه أحداً ، بل هم الظالمون لأنفسهم بالكفر والإعراض عن حُكم الرسول .

ثم نعت المؤمنين ، فقال : (إنما كان قولَ المؤمنين) قال الفراء : ليس هذا بخبرٍ ماضٍ ، وإنما المعنى : إنما كان ينبغي أن يكون قول المؤمنين إذا دعوا أن يقولوا سمعنا . وقرأ الحسن ، وأبو الجوزاء : « إنما كان قولُ المؤمنين » بضم اللام . وقرأ أبو جعفر ، وعاصم الجحدري ، وابن أبي [ليلى] : « ليُحكم بينهم » برفع الياء وفتح الكاف . وقال المفسرون : والمعنى : سمعنا قول رسول الله ﷺ وأطعنا أمره ، وإن كان ذلك فيما يكرهونه .

قوله تعالى : (ويَخْشَ اللهَ) أي : فيما مضى من ذنوبه (ويَتَّقْهِ) فيما بعدُ أن يعصيه . وقرأ ابن كثير ، وحمزة ، والكسائي ، وورش عن نافع : « ويَتَّقِهي »

---

(١) ديوانه : ٩٨ ، و « مجاز القرآن » : ٢/١١٨ ، و « القرطبي » : ١٢/٢٩٤ .

موصولة بياء . وروى قالون عن نافع : « ويتّقْهِ فأولئك » بكسر الهاء لايبلغ بها الياء . وقرأ أبو عمرو ، وابن عامر ، وأبو بكر عن عاصم : « ويتّقهْ » جزماً .

﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ قُلْ لَاتُقْسِمُوا طَاعَةٌ مَعْرُوفَةٌ إِنَّ اللهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ . قُلْ أَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَاحُمِّلَ وَعَلَيْكُمْ مَاحُمِّلْتُمْ وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴾

قوله تعالى : (وأقسَموا بالله) قال المفسرون : لمّا نزل في هؤلاء المنافقين مانزل من بيان كراهتهم لحكم الله ، قالوا للنبي ﷺ : والله لو أمرتنا أن نخرج من ديارنا وأموالنا ونسائنا لخرجنا ، فكيف لانرضى حكمك ؟! فنزلت هذه الآية[1] . وقد بيّنّا معنى « جَهْدَ أيمانهم » [المائدة : ٥٣] ، (لئن أمرتَهم لَيخرُجُنّ) من أموالهم وديارهم ، وقيل : ليخرجُنّ إلى الجهاد (قل لا تُقسِموا) هذا تمام الكلام ؛ ثم قال : (طاعةٌ معروفةٌ) قال الزجاج : المعنى : أمثَلُ من قسَمِكم الذي لاتصدُقون فيه طاعةٌ معروفة . قال ابن قتيبة : وبعض النحويين يقول : الضمير فيها : لتكن منكم طاعة معروفة ، أي : صحيحة لانِفاق فيها .

قوله تعالى : (فان تولّوا) هذا خطاب لهم ، والمعنى : فان تتولّوا ، فحذف إحدى التاءين ومعنى التولّي : الإعراض عن طاعة الله ورسوله ، (فانما عليه) يعني : الرسول (ما حُمِّل) من التبليغ (وعليكم ما حُمِّلْتُم) من الطاعة ؛ وذكر بعض المفسرين أن هذا منسوخ بآية السيف ، وليس بصحيح .

---

(١) ذكره بنحوه مختصراً السيوطي في « الدر » : ٥/٥٤ من رواية ابن مردويه عن ابن عباس رضي الله عنهما .

قوله تعالى : (وإن تُطيعوه) يعني : رسول الله ﷺ (تهتدوا) ، وكان بعض السلف يقول : من أمَّر السُّنَّة على نفسه قولاً وفعلاً ، نطق بالحكمة ، ومن أمَّر الهوى على نفسه قولاً وفعلاً ، نطق بالبدعة ، لقوله : « وإن تُطيعوه تهتدوا » .

﴿ وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ . وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾

قوله تعالى : (وَعَدَ اللهُ الذين آمنوا منكم) روى أبو عبد الله الحاكم في « صحيحه » من حديث أُبيّ بن كعب قال : لمّا قدِم رسولُ الله ﷺ وأصحابه المدينة وآواهم الأنصار ، رمتْهم العرب عن قوس واحدة ، كانوا لايبيتون إلا في السلاح ، ولا يصبحون إلا في لأمتهم ، فقالوا : أترون أنّا نعيش حتى نبيت آمنين مطمئنين لانخاف إلا الله عز وجل ؟ ! فنزلت هذه الآية [1] . قال أبو العالية : لمّا أظهر الله عز وجل رسوله على جزيرالعرب ، وضعوا السلاح وأمنوا ، ثم قبض الله نبيّه ، فكانوا آمنين كذلك في إمارة أبي بكر ، وعمر ، وعثمان ، حتى وقعوا فيما وقعوا فيه وكفروا بالنعمة ، فأدخل الله عز وجل عليهم الخوف ، فغيّروا ، فغيّر

---

(١) رواه الحاكم في « المستدرك » ٢/٤٠١ وقال : هذا حديث صحيح الاسناد ، ولم يخرجاه ، ووافقه الذهبي ، وذكره السيوطي في « الدر » : ٥/٥٥ ، وزاد نسبته لابن المنذر ، والطبراني في « الأوسط » ، وابن مردويه ، والبيهقي في « الدلائل » ، والضياء في « المختارة » عن أبيّ بن كعب رضي الله عنه .

الله تعالى مابهم [(١)] . وروى أبو صالح عن ابن عباس : أن هذا الوعد وعده الله أمّة محمد في التوراة والإنجيل . وزعم مقاتل أن كفار مكة لمّا صدّوا رسولَ الله ﷺ والمسلمين عن العُمرة عام الحديبية ، قال المسلمون . لو أن الله تعالى فتح علينا مكة ، فنزلت هذه الآية .

قوله تعالى : (لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ) أي : ليجعلنَّهم يخلُفون مَنْ قبلهم ، والمعنى : ليورثنَّهم أرض الكفار من العرب والعجم ، فيجعلهم ملوكها وساستها وسكّانها . وعلى قول مقاتل : المراد بالأرض مكة .

قوله تعالى : (كما استَخْلَفَ الذين من قبلهم) وقرأ أبو بكر عن عاصم : « كما استُخْلِف » بضم التاء وكسر اللام ؛ يعني : بني إسرائيل ، وذلك أنه لمّا هلكت الجبابرة بمصر ، أورثهم الله أرضهم وديارهم وأموالهم .

قوله تعالى : (وَلَيُمَكِّنَنَّ لهم دِينهم) وهو الإسلام ، وتمكينه : إظهاره على كل دين ، (وَلَيُبَدِّلَنَّهم) وقرأ ابن كثير ، وأبو بكر ، وأبان ، ويعقوب : « وَلَيُبْدِلَنَّهم » بسكون الباء وتخفيف الدال (من بعد خوفهم أمْناً) لأنهم كانوا مظلومين مقهورين [(٢)] ، (يعبُدونني) هذا استئناف كلام في الثناء عليهم ، (وَمَن كفر بعد ذلك) بهذه النِّعم ، أي : من جحد حقَّها . قال المفسرون : وأوّلُ من كفر بهذه النعم قَتَلَةُ عثمان .

---

(١) رواه الواحدي في « أسباب النزول » : ١٨٨ ، وذكره السيوطي في « الدر » ٥/٥٥ عن عبد بن حميد ، وابن أبي حاتم .

(٢) قال ابن كثير : هذا وعد من الله تعالى لرسوله صلوات الله وسلامه عليه ، بأنه سيجعل أمته خلفاء الأرض ، أي : أئمة الناس ، والولاة عليهم ، وبهم تصلح البلاد ، وتخضع لهم العباد ، وليبدلنهم من بعد خوفهم من الناس أمناً وحكماً فيهم ، وقد فعله تبارك وتعالى ، وله الحمد والمنة ، فانه ﷺ لم يمت حتى فتح الله عليه مكة وخيبر والبحرين وسائر جزيرة العرب وأرض اليمن بكمالها ، وأخذ الجزية من مجوس هجر ومن بعض أطراف الشام ، وهاداه هرقل ملك —

﴿ لَاتَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَلَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴾

قوله تعالى : (لَاتَحْسَبَنَّ الذين كفروا) قرأ ابن عامر ، وحمزة عن عاصم : « لايَحْسَبَنَّ » بالياء وفتح السين . وقرأ الباقون : بالتاء وكسر السين .

ـــ الروم وصاحب مصر وإسكندرية ، وهو المقوقس ، وملوك عمان ، والنجاشي ملك الحبشة الذي تملك بعد أصحمة رحمه الله وأكرمه . ثم لما مات رسول الله ﷺ ، واختار الله له ماعنده من الكرامة ، قام بالأمر بعده خليفته أبو بكر الصدّيق ، فلمّ شعث ماوهى بعد موته ﷺ ، وأخذ جزيرة العرب ومهّدها ، وبعث جيوش الاسلام إلى بلاد فارس صحبةَ خالد بن الوليد رضي الله عنه ، ففتحوا طرفاً منها وقتلوا خلقاً من أهلها ، وجيشاً آخر صحبةَ أبي عبيدة رضي الله عنه ومن اتبعه من الأمراء إلى أرض الشام ، وثالثاً صحبةَ عمرو بن العاص رضي الله عنه إلى بلاد مصر ، ففتح الله للجيش الشامي في أيامه بصرى ودمشق ومخاليفهما من أراضي حوران وما والاها ، وتوفاه الله عز وجل ، واختار له ماعنده من الكرامة ، ومَنَّ على أهل الاسلام بأن ألهم الصدّيق أن يستخلف عمر الفاروق ، فقام بالأمر بعده قياماً تاماً ، لم يَدُر الفلك بعد الأنبياء على مثله في قوة سيرته وكمال عدله ، وتم في أيامه فتح البلاد الشامية بكمالها وديار مصر إلى آخرها وأكثر إقليم فارس ، وكسر كسرى وأهانه غاية الهوان ، وتقهقر إلى أقصى مملكته ، وقصر قيصر وانتزع يده عن بلاد الشام ، وانحدر إلى القسطنطينية ، وأنفق أموالها في سبيل الله كما أخبر بذلك ووعد به رسول الله عليه من ربه أتم سلام وأزكى صلاة . ثم لما كانت الدولة العثمانية (دولة عثمان بن عفان رضي الله عنه) امتدت الممالك الاسلامية إلى أقصى مشارق الأرض ومغاربها ، ففتحت بلاد المغرب إلى أقصى ماهنالك الأندلس وقبرص وبلاد القيروان وبلاد سبتة مما يلي البحر المحيط ، ومن ناحية المشرق إلى أقصى بلاد الصين ، وقتل كسرى وباد ملكه بالكلية ، وفتحت مدائن العراق وخراسان والأهواز ، وقتل المسلمون من الترك مقتلة عظيمة جداً ، وخذل الله ملكهم الأعظم خاقان ، وجُبي الخراج من المشارق والمغارب إلى حضرة أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه ، وذلك ببركة تلاوته ودراسته وجمعه الأمة على حفظ القرآن ، ولهذا ثبت في « الصحيح » أن رسول الله ﷺ قال : « إن الله زوى لي الأرض ، فرأيت مشارقها ومغاربها ، وسيبلغ ملك أمتي مازوي لي منها » قال ابن كثير : فها نحن نتقلّب فيما وعدنا الله ورسوله ، وصدق الله ورسوله ، فنسأل الله الايمان به وبرسوله ، والقيام بشكره على الوجه الذي يرضيه عنا . اهـ .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنكُمْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ مِن قَبْلِ صَلَاةِ الْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ الظَّهِيرَةِ وَمِن بَعْدِ صَلَاةِ الْعِشَاءِ ثَلَاثُ عَوْرَاتٍ لَّكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ طَوَّافُونَ عَلَيْكُم بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ . وَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنكُمُ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَأْذِنُوا كَمَا اسْتَأْذَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ . وَالْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاءِ اللَّاتِي لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَّهُنَّ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾

قوله تعالى : (لِيَسْتَأْذِنكُمُ الذين مَلَكَتْ أيمانُكم) في سبب نزولها قولان .

أحدها : أن رسول الله ﷺ وجّه غلاماً من الأنصار يقال له : مُدْلج بن عمرو إلى عمر بن الخطاب وقت الظهيرة ليدعوه ، فدخل فرأى عمر على حالة كره عمرُ رؤيتَه عليها ، فقال : يارسول الله ، وددتُ لو أن الله أمرنا ونهانا في حال الاستئذان ، فنزلت هذه الآية ، قاله ابن عباس [1] .

والثاني : أن أسماء بنت مرثد [2] كان لها غلام ، فدخل عليها في وقت كرهته ، فأتت رسول الله ﷺ ، فقالت : إنّ خدمنا وغلماننا يدخلون علينا في حالة نكرهها ، فنزلت هذه الآية ، قاله مقاتل [3] .

---

(١) ذكره الواحدي في « أسباب النزول » : ١٨٩ عن ابن عباس بدون سند .
(٢) في الأصل : أسماء بنت مرشد ، وما أثبتناه من « الاصابة » وبعض كتب التفسير .
(٣) وكذلك ذكره الواحدي في « أسباب النزول » ١٨٩ عن مقاتل بدون سند ، وخرجه بنحوه السيوطي في « الدر » : ٥/٥٥ من رواية ابن أبي حاتم عن مقاتل بن حيان .

ومعنى الآية : ليستأذنكم الذين ملكت أيمانكم ؛ وفيهم قولان .

أحدهما : أنه أراد الذكور دون الإناث ، قاله ابن عمر .

والثاني : الذكور والإناث ، رواه أبو حصين عن أبي عبد الرحمن [١] . ومعنى الكلام : ليستأذنكم مماليككم في الدخول عليكم . قال القاضي أبو يعلى : والأظهر أن يكون المراد : العبيد الصغار والإماء الصغار ، لأن العبد البالغ بمنزلة الحر البالغ في تحريم النظر إلى مولاته ، فكيف يضاف إلى الصبيان الذين هم غير مكلفين ؟!

قوله تعالى : (والذين لم يبلغوا الحُلُم) وقرأ عبد الوارث : « الحُلْم » باسكان اللام (منكم) أي : من أحراركم من الرجال والنساء (ثلاث مرات) أي : ثلاثة أوقات ؛ ثم بيَّنها فقال : (من قبل صلاة الفجر) وذلك لأن الإنسان قد يَبيت عُرياناً ، أو على حالة لا يحب أن يُطَّلع عليه فيها (وحين تضعون ثيابكم من الظَّهيرة) أي : القائلة (ومن بعد صلاة العشاء) حين يأوي الرجل إلى زوجته ، (ثلاثُ عَوْرات) قرأ ابن كثير ، ونافع ، وأبو عمرو ، وابن عامر ، وحفص عن عاصم : « ثلاثُ عورات » برفع الثاء من « ثلاث » ، والمعنى : هذه الأوقات هي ثلاث عورات ، لأن الإنسان يضع فيها ثيابه ، فربما بدت عورته . وقرأ حمزة ، والكسائي ، وأبو بكر عن عاصم : « ثلاثَ عورات » بنصب الثاء ؛ قال أبو علي : وجعلوه بدلاً من قوله : « ثلاثَ مَرَّات » والأوقات ليست عورات ، ولكن المعنى : أنها أوقات ثلاث عورات ، فلما حذف المضاف أعرب [باعراب المحذوف] . وقرأ أبو عبد الرحمن السلمي ، وسعيد بن جبير ، والأعمش : « عَوَرات » بفتح الواو ، (ليس عليكم) يعني : المؤمنين الأحرار (ولا عليهم) يعني : الخدم

---

(١) قال ابن جرير الطبري : وأولى القولين في ذلك عندي بالصواب قول من قال : عُني به الذكور والاناث ، لأن الله عم بقوله : (الذين ملكت أيمانكم) جميع أملاك أيماننا ، ولم يخصص منهم ذكراً ولا أنثى ، فذلك على جميع من عمه ظاهر التنزيل . اهـ .

والغلمان (جُنَاح) أي : حرج (بَعْدَهُنَّ) أي : بعد مُضي هذه الأوقات في أن لايستأذنوا ، فرفع الحرج عن الفريقين ، (طَوَّافُون عليكم) أي : هم طوافون عليكم (بعضُكم على بعض) أي : يطوف بعضكم وهم المماليك على بعض وهم الأحرار .

فصل

وأكثر علماء المفسرين على أن هذه الآية محكمة ، وممن روي عنه ذلك ابن عباس ، والقاسم بن محمد ، وجابر بن زيد ، والشعبي . وحكي عن سعيد بن المسيب أنها منسوخة بقوله : (وإذا بلغ الأطفال منكم الحُلُم فليستأذِنوا) ؛ والأول أصح ، لأن معنى هذه الآية : وإذا بلغ الأطفال منكم ، أو من الأحرار الحلم ، فليستأذنوا ، أي : في جميع الأوقات في الدخول عليكم (كما استأذن الذين مِنْ قَبْلهم) يعني : كما استأذن الأحرار الكبار ، الذين هم قبلهم في الوجود ، وهم الذين أُمروا بالاستئذان على كل حال ؛ فالبالغ يستأذن في كل وقت ، والطفل والمملوك يستأذنان في العورات الثلاث .

قوله تعالى : (والقواعدُ من النِّساء) قال ابن قتيبة : يعني : العُجُزَ ، واحدها : قاعدٌ ، ويقال : إنما قيل لها : قاعدٌ ، لقعودها عن الحيض والولد ، وقد تقعد عن الحيض والولد ومِثْلُها يرجو النكاح ، ولا أُراها سميتْ قاعداً إلا بالقعُود ، لأنها إذا أسَنَّتْ عجزتْ عن التصرُّف وكثرة الحركة ، وأطالت القعود ، فقيل لها : « قاعد » بلا هاء ، ليدلَّ حذف الهاء على أنه قعود كِبَر ، كما قالوا : « امرأةٌ حاملٌ » ، ليدلُّوا بحذف الهاء على أنه حمل حَبَل ، وقالوا في غير ذلك : قاعدةٌ في بيتها ، وحاملةٌ على ظَهرها .

قوله تعالى : (أن يَضَعْنَ ثيابهُنَّ) أي : عند الرجال ؛ ويعني بالثياب :

الجلباب والرداء والقناع الذي فوق الخمار ، هذا المراد بالثياب ، لا جميع الثياب ، (غيرَ متبرِّجاتٍ بِزِينَةٍ) أي : من غير أن يُرِدْنَ بوضع الجلباب أن[1] تُرى زينتُهن ؛ والتبرُّج : إظهار المرأة محاسنها ، (وأن يَستَعْفِفْنَ) فلا يَضَعْنَ تلك الثياب (خيرٌ لهُنَّ) ، قال ابن قتيبة : والعرب تقول : امرأةٌ واضعٌ : إذا كبِرتْ فوضعت الخمار ، ولا يكون هذا إلا في الهرِمة . قال القاضي أبو يعلى : وفي هذه الآية دلالة على أنه يُباح [للعجوز] كشف وجهها ويديها بين يدي الرجال ، وأما شعرها ، فيحرم النظر إليه كشعر الشابَّة .

﴿ لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَنْ تَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ آبَائِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَانِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَامِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَالِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَالَاتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكْتُمْ مَفَاتِحَهُ أَوْ صَدِيقِكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَأْكُلُوا جَمِيعاً أَوْ أَشْتَاتاً فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتاً فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُبَارَكَةً طَيِّبَةً كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾

قوله تعالى : (ليس على الأعمى حَرَجٌ) في سبب نزولها خمسة أقوال .

أحدها : أنه لمّا نزل قوله تعالى : « لاتأكلوا أموالكم بينكم بالباطل » [النساء : ٢٩] تحرَّج المسلمون عن مؤاكلة المرضى والزَّمنى والعُمْي والعُرْج ، وقالوا : الطعام أفضل الأموال ، وقد نهى الله تعالى عن أكل المال بالباطل ،

---

(١) في الأصل : أي .

والأعمى لايُبْصِر موضع الطعام الطيِّب ، والمريض لايستوفي الطعام ، فنزلت هذه الآية ، قاله ابن عباس [١] .

والثاني : أن ناساً كانوا إذا خرجوا مع رسول الله ﷺ ، وضعوا مفاتيح بيوتهم عند الأعمى والأعرج والمريض وعند أقاربهم ، وكانوا يأمرونهم أن يأكلوا مما في بيوتهم إذا احتاجوا ، فكانوا يتَّقون أن يأكُلوا منها ، ويقولون : نخشى أن لاتكون أنفُسُهم بذلك طيِّبة ، فنزلت هذه الآية ، قاله سعيد بن المسيب [٢] .

والثالث : أن العُرجان والعُميان كانوا يمتنعون عن مؤاكلة الأصحاء ، لأن الناس يتقذَّرونهم ، فنزلت هذه الآية ، قاله سعيد بن جبير ، والضحاك [٣] .

والرابع : أن قوماً من أصحاب رسول الله ﷺ كانوا إذا لم يكن عندهم مايُطعمون المريض والزَّمِن ، ذهبوا به إلى بيوت آبائهم وأمهاتهم وبعض من سمَّى اللهُ عز وجل في هذه الآية ، فكان أهل الزَّمانَة يتحرَّجون من أكل ذلك الطعام لأنه أطعمهم غير مالكه ، فنزلت هذه الآية ، قاله مجاهد [٤] .

والخامس : أنها نزلت في إسقاط الجهاد عن أهل الزَّمانَة المذكورين في الآية ، قاله الحسن ، وابن زيد .

---

(١) « الطبري » : ١٦٨/١٨ ، وذكره الواحدي في « أسباب النزول » : ١٨٩ عن ابن عباس بدون سند . وخرجه السيوطي في « الدر » : ٥٨/٥ من رواية ابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، والبيهقي عن ابن عباس .

(٢) « أسباب النزول » للواحدي : ١٩٠ ، وذكره السيوطي بنحوه في « الدر » : ٥٨/٥ من رواية عبد بن حميد .

(٣) ذكره بنحوه الطبري : ١٦٨/١٨ عن الضحاك ، وهو عند الواحدي في « أسباب النزول » ١٨٩ بدون سند .

(٤) « الطبري » : ١٦٩/١٨ ، وهو عند الواحدي في « أسباب النزول » بدون سند ، وذكره السيوطي في « الدر » بنحوه : ٨٥/٥ .

فعلى القول الأول يكون معنى الآية : ليس عليكم في الأعمى حرج أن تأكلوا معه، ولا في الأعرج، وتكون « على » بمعنى « في »، ذكره ابن جرير. وكذلك يخرَّج [معنى الآية] على كل قول بما يليق به . وقد كان جماعة من المفسرين يذهبون إلى أن آخر الكلام « ولا على المريض حرج » وأن مابعده مستأنَف لاتعلّق له به ، وهو يقوّي قول الحسن ، وابن زيد .

قوله تعالى : (أن تأكُلوا من بيوتكم) فيه ثلاثة أقوال .

أحدها : أنها بيوت الأولاد .

والثاني : البيوت التي يسكنونها وهم فيها عيال غيرهم ، فيكون الخطاب لأهل الرجل وولده وخادمه ومَن يشتمل عليه منزله ، ونسبها إليهم لأنهم سكّانها .

والثالث : أنها بيوتهم ، والمراد أكلُهم من مال عيالهم وأزواجهم ، لأن بيت المرأة كبيت الرجل .

وإنما أباح الأكل من بيوت القرابات المذكورين ، لجريان العادة ببذل طعامهم لهم ؛ فان كان الطعام وراء حِرْزٍ ، لم يجز هتك الحرز .

قوله تعالى : (أو مَامَلَكْتُمْ مفاتحه) فيه ثلاثة أقوال .

أحدها : أنه الوكيل، لابأس أن يأكل اليسير ، وهو معنى قول ابن عباس . وقرأها سعيد بن جبير ، وأبو العالية : « مُلِّكْتُمْ » بضم الميم وتشديد اللام مع كسرها على مالم يسمَّ فاعله ، وفسَّرها سعيد فقال : يعني القهرمان الذي بيده المفاتيح . وقرأ أنس بن مالك، وقتادة، وابن يعمر : « مِفْتَاحَه » بكسر الميم على التوحيد .

والثاني : بيت الإنسان الذي يملكه ، وهو معنى قول قتادة .

والثالث : بيوت العبيد ، قاله الضحاك .

قوله تعالى : (أَوْ صَدِيقِكُمْ) قال ابن عباس : نزلت هذه في الحارث بن عمرو ، خرج مع رسول الله ﷺ غازياً ، وخلَّف مالك بن زيد على أهله ، فلما رجع وجده مجهوداً ، فقال : تحرَّجْتُ أن آكل من طعامك بغير إذنك ، فنزلت هذه الآية [(١)] . وكان الحسن وقتادة يريان الأكل من طعام الصَّديق بغير استئذان جائزاً .

قوله تعالى : (لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَأْكُلُوا جَمِيعاً) في سبب نزول هذه [الآية] ثلاثة أقوال .

أحدها : أن حيّاً من بني كنانة يقال لهم : بنو ليث كانوا يتحرَّجون أن يأكل الرجل الطعام وحده ، فربما قعد الرجل والطعام بين يديه من الصباح إلى الرَّواح ، فنزلت هذه الآية ، قاله قتادة والضحاك [(٢)] .

والثاني : أن قوماً من الأنصار كانوا لا يأكلون إذا نزل بهم ضيف إلا مع ضيفهم ، فنزلت هذه الآية ، ورخِّص لهم أن يأكلوا جميعاً أو أشتاتاً ، قاله عكرمة [(٣)] .

والثالث : أن المسلمين كانوا يتحرَّجون من مؤاكلة أهل الضُّرِّ خوفاً من أن يستأثروا عليهم ، ومن الاجتماع على الطعام ، لاختلاف الناس في مأكلهم وزيادةِ بعضهم على بعض ، فوسِّع عليهم ، وقيل : « ليس عليكم جناح أن تأكلوا جميعاً » أي : مجتمعين « أو أشتاتاً » أي : متفرِّقين ، قاله ابن قتيبة .

قوله تعالى : (فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتاً) فيها ثلاثة أقوال .

---

(١) ذكره السيوطي في « الدر » : ٥/٥٨ من رواية الثعلبي عن ابن عباس رضي الله عنهما .

(٢) « أسباب النزول » للواحدي عن قتادة والضحاك بدون سند ، وذكره الطبري عن عن قتادة ، والسيوطي في « الدر » من رواية عبد بن حميد ، وابن أبي حاتم عن قتادة .

(٣) « الطبري » : ١٨/١٧٢ ، و « أسباب النزول » للواحدي : ١٩٠ ، وذكره السيوطي في « الدر » : ٥/٥٨ وزاد نسبته لابن المنذر .

أحدها : أنها بيوت أنفسكم ، فسلِّموا على أهاليكم وعيالكم ، قاله جابر بن عبد الله ، وطاووس ، وقتادة .

والثاني : أنها المساجد ، فسلِّموا على مَنْ فيها ، قاله ابن عباس .

والثالث : بيوت الغير ؛ فالمعنى : إذا دخلتم بيوت غيركم فسلِّموا عليهم ، قاله الحسن [1] .

قوله تعالى : (تحيةً) قال الزجاج : هي منصوبة على المصدر ، لأن قوله : (فسلِّموا) بمعنى: فحيُّوا ولْيُحَيِّ [2] بعضكم بعضاً تحيَّةً ، (من عند الله) قال مقاتل : مباركة بالأجر ، (طيبةً) أي : حسنة .

﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوهُ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولَئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَرَسُولِهِ فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَنْ لِمَنْ شِئْتَ مِنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمُ اللهَ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾

قوله تعالى : (وإذا كانوا معه) يعني : مع رسول الله ﷺ (على أمر جامع) أي : على أمر طاعة يجتمعون عليها ، نحو الجهاد والجمعة والعيد ونحو ذلك (لم يذهبوا حتى يستأذنوه) قال المفسرون : كان رسول الله ﷺ إذا صَعِد المنبر

---

(١) قال ابن جرير الطبري : وأولى الأقوال في ذلك بالصواب قول من قال : معنـاه : فاذا دخلتم بيوتاً من بيوت المسلمين ، فليسلم بعضكم على بعض ، قال : وإنما قلنا : ذلك أولى بالصواب ، لأن الله جل ثناؤه قال : (فاذا دخلتم بيوتاً) ولم يخصص من ذلك بيتاً دون بيت ، وقال : (فسلموا على أنفسكم) يعني : بعضكم على بعض ، فكان معلوماً إذ لم يخصص ذلك على بعض البيوت دون بعض ، أنه معنيٌّ به جميعها ، مساجدها وغير مساجدها . اهـ .

(٢) في الأصل : تحيُّوا ويحيِّي .

يوم الجمعة ، وأراد الرجل أن يخرج من المسجد لحاجة أو عذر ، لم يخرج حتى يقوم بحيال رسول الله ﷺ حيث يراه ، فيعرف أنه إنما قام ليستأذن ، فيأذن لمن شاء منهم ، فالأمر إليه في ذلك . قال مجاهد : وإذن الإمام يوم الجمعة أن يشير بيده .

قوله تعالى : (واستَغْفِرْ لَهُمُ اللهَ) أي : لخروجهم عن الجماعة إن رأيتَ لهم عذراً .

﴿ لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا قَدْ يَعْلَمُ اللهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنْكُمْ لِوَاذًا فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ . أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا وَاللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾

قوله تعالى : (لا تَجْعَلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضاً) فيه ثلاثة أقوال .

أحدها : أنه نهي عن التعرّض لإسخاط رسول الله ﷺ ، فانه إذا دعا على شخص فدعوتُه موجبة ، قاله ابن عباس .

والثاني : أنهم أُمروا أن يقولوا : يارسول الله ، ونُهوا أن يقولوا : يا محمد ، قاله سعيد بن جبير ، وعلقمة ، والأسود ، وعكرمة ، ومجاهد .

والثالث : أنه نهي لهم عن الإبطاء إذا أمرهم والتأخّر إذا دعاهم ، حكاه الماوردي .

وقرأ الحسن ، وأبو رجاء ، وأبو المتوكل ، ومعاذ القارىء : « دعاء الرسولِ نبيِّكم » بياء مشددة ونون قبل الباء .

قوله تعالى : (قد يَعْلَمُ اللهُ الذين يتسلَّلون) التسلل : الخروج في خفية .

واللِّواذ : أن يستتر بشيء مخافة مَن يراه . والمُراد بقوله « قد يَعْلَمُ » التهديدُ بالمجازاة . قال الفراء : كان المنافقون يشهدون الجمعة فيذكُرهم رسولُ الله ﷺ ويعيبهم بالآيات التي أُنزلت فيهم ، فان خفي لأحدهم القيام قام ، فذلك قوله : (قد يعلم الله الذين يتسلَّلون منكم لِواذاً) أي : يلوذ هذا بهذا ، أي : يستتر ذا بذا[1] . وإنما قال : « لواذاً » لأنها مصدر « لاوَذْتُ » ، ولو كان مصدراً لـ « لُذْتُ » لقلتَ : لُذْتُ لِياذاً ، كما تقول : قُمْتُ قِياماً . وكذلك قال ثعلب : وقع البناء على لاوَذَ مُلاوَذَةً ، ولو بني على لاذ يَلُوذ ، لقيل : لياذاً . وقيل : هذا كان في حفر الخندق ، كان المنافقون ينصرفون عن غير أمر رسول الله ﷺ مختفين .

قوله تعالى : (فَلْيَحْذَرِ الذين يخالِفون عن أمره) في هاء الكناية قولان .

أحدهما : أنها ترجع إلى الله عز وجل ، قاله مجاهد .

والثاني : إلى رسول الله ﷺ ، قاله قتادة .

وفي « عن » قولان .

أحدهما : [أنها] زائدة ، قاله الأخفش . والثاني : أن معنى « يخالفون » : يُعْرِضون عن أمره .

وفي الفتنة هاهنا ثلاثة أقوال .

أحدها : الضلالة ، قاله ابن عباس . والثاني : بلاء في الدُّنيا ، قاله مجاهد . والثالث : كفر ، قاله السدي ، ومقاتل .

---

(١) قال ابن جرير الطبري : يقول تعالى ذكره : إنكم أيها المنصرفون عن نبيكم بغير إذنه تستّراً وخفية منه ، وإن خفي أمر من يفعل ذلك منكم على رسول الله ﷺ ، فان الله يعلم ذلك ، ولا يخفى عليه ، فليتق من يفعل ذلك منكم ـ الذين يخالفون أمر الله في الانصراف عن رسول الله ﷺ إلا باذنه ـ أن تصيبهم فتنة من الله ، أو يصيبهم عذاب أليم فيطبع على قلوبهم فيكفروا بالله . اهـ .

قوله تعالى : (أو يُصيبَهُمْ عذابٌ أليم) فيه قولان .

أحدهما : القتل في الدنيا . والثاني : عذاب جهنم في الآخرة [١] .

قوله تعالى : (قد يَعْلَمُ ما أنتم عليه) أي : ما في أنفسكم ، وما تنطوي عليه ضمائركم من الإيمان والنفاق ؛ وهذا تنبيه على الجزاء على ذلك [٢] .

* * *

---

(١) قال ابن كثير في قوله : (فليحذر الذين يخالفون عن أمره) أي : عن أمر رسول الله ﷺ وهو سبيله ومنهاجه وطريقته وسنته وشريعته ، فتوزن الأقوال والأعمال بأقواله وأعماله ، فما وافق ذلك قُبل ، وما خالفه فهو مردود على قائله وفاعله كائناً من كان ، كما ثبت في « الصحيحين » وغيرهما عن رسول الله ﷺ أنه قال : « من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو ردٌّ » ، أي : فليحذر وليخش من خالف شريعة الرسول ﷺ باطناً وظاهراً (أن تصيبهم فتنة) أي في قلوبهم من كفر أو نفاق أو بدعة (أو يصيبهم عذاب أليم) أي : في الدنيا بقتل أو حدٍّ أو حبس أو نحو ذلك . اهـ .

وقد قال رسول الله ﷺ فيما رواه مسلم في « صحيحه » : ٤/١٧٩٠ عن جابر رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « مثلي ومثلكم كمثل رجل أوقد ناراً ، فجعل الجنادبُ والفراش يقعن فيها وهو يذبُّهن عنها ، وأنا آخذٌ بحجزكم عن النار وأنتم تفلّتون من يدي » .

(٢) قال ابن جرير الطبري : (قد يعلم ما أنتم عليه) من طاعتكم إياه فيما أمركم ونهاكم من ذلك ، ثم قال ابن جرير في تتمة السورة : (ويوم يُرجَعون إليه) يقول : ويوم يرجع إلى الله الذين يخالفون عن أمره (فينبئهم) يقول : فيخبرهم حينئذ (بما عملوا) في الدنيا ثم يجازيهم على ما أسلفوا فيها من خلافهم على ربهم (والله بكل شيء عليم) يقول : والله ذو علم بكل شيء عملتموه أنتم وهم وغيركم ، وغير ذلك من الأمور ، لايخفى عليه شيء ، بل هو محيط بذلك كلّه ، وهو موفٍّ كل عامل منكم أجر عمله يوم ترجعون إليه . اهـ .

سورة الفرقان

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيراً . الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَداً وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيراً . وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَايَخْلُقُونَ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ ضَرّاً وَلَا نَفْعاً وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتاً وَلَا حَيٰوةً وَلَا نُشُوراً ﴾

قال ابن عباس ، والحسن ، ومجاهد ، وعكرمة ، وقتادة في آخرين : هي مكيه . وحكي عن ابن عباس وقتادة أنهما قالا : إلا ثلاث آيات منها نزلت بالمدينة ، وهي قوله : (والذين لايَدْعُون مع الله إلٰهاً آخر) إلى قوله : (غفوراً رحيماً) [الفرقان : ٦٨-٧٠] .

قوله تعالى : (تبارك) قد شرحناه في (الأعراف : ٥٤) والفُرقان : القرآن ، سمي فُرقاناً ، لأنه فُرق به بين الحق والباطل .

والمراد بعبده : محمد ﷺ ، (ليكونَ) فيه قولان .

أحدها : أنه كناية عن عبده ، قاله الجمهور . والثاني : عن القرآن ، حكاه الماوردي .

قوله تعالى : (للعالَمين) يعني الجن والإنس (نذيراً) [أي] : مخوِّفاً من عذاب الله .

قوله تعالى : (فقدَّره تقديراً) فيه ثلاثة أقوال .

أحدها : سوّاه وهيَّأه لما يصلح له ، فلا خلل فيه ولا تفاوت . والثاني : قَدَّر له ما يُصلحه ويُقيمه . والثالث : قدَّر له تقديراً من الأجَل والرِّزق .

ثم ذكر ما صنعه المشركون ، فقال : (واتَّخَذوا من دونه آلهة) يعني : الأصنام (لا يَخلُقون شيئاً وهم يُخلَقون) أي : وهي مخلوقة (ولا يَملِكون لأنفسهم ضَرّاً) أي : دَفع ضرّ ، ولا جرّ نفع ، لأنها جماد لا قدرة لها ، (ولا يَملِكون مَوتاً) أي : لا تملك أن تُميت أحداً ، ولا أن تحيي أحداً ، ولا أن تبعث أحداً من الأموات ؛ والمعنى : كيف يعبُدون ما هذه صفته ، ويتركون عبادة مَن يقدر على ذلك كلّه ؟!

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَٰذَا إِلَّا إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جَاؤُا ظُلْماً وَزُوراً . وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلاً . قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُوراً رَحِيماً ﴾

قوله تعالى : (وقال الذين كفروا) يعني : مشركي قريش ؛ وقال مقاتل : هو قول النَّضْر بن الحارث من بني عبد الدار (إنْ هذا) أي : ما هذا ، يعنون القرآن (إلا إفك) أي : كذب (افتراه) أي : اختلقه من تلقاء نفسه (وأعانه عليه قوم آخَرون) قال مجاهد : يعنون اليهود ؛ وقال مقاتل : أشاروا إلى عدّاس

مولى حويطب ، ويسار غلام عامر بن الحضرمي ، وجبر مولى لعامر أيضاً ، وكان الثلاثة من أهل الكتاب .

قوله تعالى : (فقد جاؤوا ظُلماً وزُوراً) قال الزجاج : المعنى : فقد جاؤوا بظلم وزور ، فلما سقطت الباء ، أفضى الفعل فنصب ، والزُّور : الكذب . (وقالوا أساطير الأوَّلين) المعنى : وقالوا : الذي جاء به أساطير الأولين ؛ وقد بيَّنَّا ذلك في (الأنعام : ٢٥) . قال المفسرون : والذي قال هذا هو النضر بن الحارث . ومعنى (اكْتَتَبَها) أمر أن تُكْتَبَ له . وقرأ ابن مسعود ، وإبراهيم النخعي ، وطلحة بن مصرف : « اكْتُتِبَها » برفع التاء الأولى وكسر الثانية ، والابتداء على قراءتهم برفع الهمزة ، (فهي تُملَى عليه) أي : تُقرأ عليه ليحفظها لا ليكتبها ، لأنه لم يكن كاتباً ، (بُكرة وأصيلاً) أي : غُدوة وعشيّاً . (قل) لهم يا محمد : (أنزَلَه) يعني : القرآن (الذي يعلم السرَّ) أي : لا يخفى عليه شيء (في السموات والأرض) .

﴿ وَقَالُوا مَالِ هٰذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيراً . أَوْ يُلْقَىٰ إِلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلاً مَسْحُوراً . أُنْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلاً ﴾

قوله تعالى : (وقالوا) يعني المشركين (مالهذا الرسول يأكل الطعام) أنكروا أن يكون الرسول بَشَراً يأكل الطعام ويمشي في الطُّرق كما يمشي سائر الناس يطلب المعيشة ؛ والمعنى : أنه ليس بِمَلَك ولا مَلِك ، لأن الملائكة لا تأكل ، والملوك لا تتبذَّل في الأسواق ، فعجبوا أن يكون مساوياً للبشر لا يتميَّز عليهم

بشيء ؛ وإنما جعله الله بشراً ليكون مجانساً الذين أُرسل إليهم ، ولم يجعله ملكاً يمتنع من المشي في الأسواق ، لأن ذلك من فعل الجبابرة ، ولأنه أُمر بدعائهم، فاحتاج أن يمشي بينهم .

قوله تعالى : (لولا أُنزل إليه مَلَكٌ) وذلك أنهم قالوا له : سل ربك أن يبعث معك ملكاً يصدِّقك ويجعل لك جِناناً وقصوراً وكنوزاً ؛ فذلك قوله : (أو يُلقَى إليه كَنْزٌ) أي : ينزل إليه كنز من السماء (أو تكونُ له جَنَّة يأكُلُ منها) أي : بستان يأكل من ثماره . قرأ ابن كثير ، ونافع ، وأبو عمرو ، وعاصم ، وابن عامر : « يأكل منها » بالياء ، يعنون النبيَّ ﷺ . وقرأ حمزة ، والكسائي : « نأكل » بالنون ، قال أبو علي : المعنى : يكون له علينا مزيَّة في الفضل بأكلنا من جنته . وباقي الآية مفسَّر في (بني إسرائيل : ٤٧) .

قوله تعالى : (انظر) يا محمد (كيف ضَربوا لك الأمثال) حين مثَّلوك بالمسحور ، وبالكاهن والمجنون والشاعر (فضَلُّوا) بهذا عن الهدى (فلا يستطيعون سبيلاً) فيه قولان .

أحدهما : لا يستطيعون مَخرجاً من الأمثال التي ضربوها ، قاله مجاهد ، والمعنى أنهم كذَّبوا ولم يجدوا على قولهم حُجَّة وبرهاناً . وقال الفراء : لا يستطيعون في أمرك حيلة .

والثاني : سبيلاً إلى الطاعة ، قاله السدي .

﴿ تَبَارَكَ الَّذِي إِنْ شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْراً مِنْ ذَٰلِكَ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ وَيَجْعَلْ لَكَ قُصُوراً . بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ وَأَعْتَدْنَا لِمَنْ كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيراً . إِذَا رَأَتْهُمْ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظاً وَزَفِيراً . وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَاناً ضَيِّقاً

مُقَرَّنِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُوراً . لاتَدْعُوا اليَوْمَ ثُبُوراً واحِداً وَادْعُوا ثُبُوراً كَثِيراً ﴾

ثم أخبر أنه لو شاء لأعطاه خيراً مما قالوا في الدنيا ، وهو قوله : (خيراً من ذلك) يعني : لو شئتُ لأعطيتُك في الدنيا خيراً مما قالوا ، لأنه قد شاء أن يعطيَه ذلك في الآخرة . (وَيَجْعَلْ لكَ قُصوراً) قرأ ابن كثير ، وابن عامر ، وأبو بكر عن عاصم : « ويجعلُ لكَ قصوراً » برفع اللام . وقرأ أبو عمرو ، ونافع ، وحمزة ، والكسائي ، وحفص عن عاصم : « ويجعلْ » بجزم اللام . فمن قرأ بالجزم ، كان المعنى : إن يشأْ يجعلْ لك جنات ويجعلْ [لك] قصوراً . ومن رفع ، فعلى الاستئناف [المعنى] : ويجعلُ لكَ قصوراً في الآخرة . وقد سبق معنى « أعتدنا » [النساء : ٣٧] ومعنى « السعير » [النساء : ١٠] .

قوله تعالى : (إذ رأتْهم من مكان بعيد) قال السدي عن أشياخه : من مسيرة مائة عام .

فإن قيل : السعير مذكَّر ، فكيف قال : « إذا رأتهم » ؟

فالجواب : أنه أراد بالسعير النار .

قوله تعالى : (سَمِعوا لها تغيُّظاً) فيه قولان .

أحدهما : غَلَيان تَغيُّظ ، قاله الزجاج . قال المفسرون : والمعنى أنها تتغيَّظ عليهم ، فيسمعون صوت تغيُّظها وزفيرها كالغضبان إذا غلا صدره من الغيظ .

والثاني : يسمعون فيها تغيُّظ المعذَّبين وزفيرهم ، حكاه ابن قتيبة .

قوله تعالى : (وإذا أُلْقُوا منها مكاناً ضيِّقاً مُقَرَّنِين دَعَوْا هنالك ثُبوراً) قال المفسرون : تضيِّق عليهم كما يضيِّق الزُّجُّ (١) على الرُّمح ، وهم قد قُرنوا مع الشياطين والثُّبور : الهَلَكة . وقرأ عاصم الجحدري ، وابن السميفع : « ثَبوراً » بفتح الثاء .

(١) الزج : الحديدة التي في أسفل الرمح .

قوله تعالى : (وادعوا ثُبوراً كثيراً) قال الزجاج : الثُّبور مصدر ، فهو للقليل والكثير على لفظ الواحد ، كما تقول : ضربته ضرباً كثيراً ، والمعنى : هلاككم أكثر من أن يدعوا مرة واحدة . وروى أنس بن مالك قال : قال رسول الله ﷺ : « أول من يُكسى من أهل النار يوم القيامة إبليس ، يُكسى حُلَّة من النار فيضعها على حاجبيه ويسحبها من خلفه وذريَّتُه خلفه وهو يقول : واثبوراه ، وهم ينادون : ياثبورهم ، حتى يقفوا على النار ، فينادي : ياثبوراه ، وينادون : ياثبورهم ، فيقول الله عز وجل : (لاتدعوا اليوم ثُبوراً واحداً وادعوا ثُبوراً كثيراً) »[1] .

﴿ قُلْ أَذٰلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ كَانَتْ لَهُمْ جَزَاءً وَمَصِيراً . لَهُمْ فِيهَا مَايَشَاؤُنَ خَالِدِينَ كَانَ عَلَى رَبِّكَ وَعْداً مَسْؤُلاً ﴾

قوله تعالى : (قل أذلكَ) يعني : السعير (خيرٌ أم جنَّةُ الخُلْد) وهذا تنبيه على تفاوت مابين المنزلتين ، لا على أن في السعير خيراً . وقال الزجاج : قد وقع التساوي بين الجنة والنار في أنهما منزلان ، فلذلك وقع التفضيل بينهما[2] .

(١) رواه أحمد في « المسند » ، و « الطبري » : ١٨٨/١٨ ، وذكره السيوطي في « الدر » : ٦٤/٥ وزاد نسبته لابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وابن مردويه ، والبيهقي في « البعث » عن أنس رضي الله عنه .

(٢) قال ابن كثير : يقول تعالى : يامحمد هذا الذي وصفناه لك من حال الأشقياء الذين يحشرون على وجوههم إلى جهنم فتلقاهم بوجه عبوس وتغيظ وزفير ، ويلقون في أماكنها الضيق مقرنين لايستطيعون حراكاً ولا استنصاراً ولا فكاكاً مما هم فيه ، أهذا خير أم جنة الخلد التي وعدها الله المتقين من عباده التي أعدها لهم وجعلها لهم جزاءً ومصيراً على ما أطاعوه في الدنيا وجعل مآلهم إليها (لهم فيها مايشاؤون) من الملاذ ، من مآكل ومشارب وملابس ومساكن ومراكب ومناظر وغير ذلك مما لاعين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب أحد ، وهم في ـــ

قوله تعالى : (كانت لهم جزاءً) أي : ثواباً (ومَصيراً) أي : مَرْجِعاً .

قوله تعالى : (كان على ربِّك) المشار إليه ، إما الدخول ، وإما الخلود (وَعْداً) وعدهم الله إياه على ألسنة الرسل .

وفي معنى « مسؤولاً » قولان .

أحدها : مطلوباً . وفي الطالب له قولان . أحدهما : أنهم المؤمنون ، سألوا الله في الدنيا إنجاز ماوعدهم [به] . والثاني : أن الملائكة سألته ذلك لهم ، وهو قوله : (ربَّنا وأدْخِلهم جنَّاتِ عَدْنٍ التي وعدتَهم) [غافر : ٨] .

والثاني : أن معنى المسؤول : الواجب .

﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ فَيَقُولُ ءَأَنْتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِي هؤُلاَءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ . قَالُوا سُبْحَانَكَ مَا كَانَ يَنْبَغِي لَنَا أَنْ نَتَّخِذَ مِنْ دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ وَلكِنْ مَتَّعْتَهُمْ وَآبَاءَهُمْ حَتَّى نَسُوا الذِّكْرَ وَكَانُوا قَوْماً بُوراً . فَقَدْ كَذَّبُوكُمْ بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفاً وَلاَ نَصْراً وَمَنْ يَظْلِمْ مِنْكُمْ نُذِقْهُ عَذَاباً كَبِيراً . وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيراً ﴾

قوله تعالى : (ويوم يَحْشُرُهُمْ) قرأ ابن كثير ، وحفص عن عاصم : « يحشرهم » « فيقول » بالياء فيهما . وقرأ نافع ، وأبو عمرو ، وحمزة ، والكسائي ،

ـــ ذلك خالدون أبداً دائماً سرمداً بلا انقطاع ولا زوال ولا انقضاء ، ولا يبغون عنها حولاً ، وهذا من وعد الله الذي تفضل به عليهم وأحسن به إليهم ، ولهذا قال : (كان على ربك وعداً مسؤولاً) أي : لابد أن يقع وأن يكون . اهـ .

وأبو بكر عن عـاصم : « نحشرهم » بالنون « فيقول » بالياء . وقرأ ابن عامر : « نحشرهم » « فنقول » بالنون فيهما جميعاً ؛ يعني : المشركين ، (وما يَعْبُدون) قال مجـاهد : يعني عيسى وعزيراً والملائكة . وقال عكرمة ، والضحاك : يعني الأصنام ، فيأذن الله للأصنام في الكلام ، ويخاطبها (فيقول أأنتم أضللتم عِبادي) أي : أمرتموهم بعبادتكم (أم هم ضَلّـوا السبيل) أي : أخطأوا الطريق . (قالوا) يعني الأصنام (سبحانَكَ) نزّهوا الله تعالى أن يُعْبَدَ غيره (ما كان ينبغي لنـا أن نَتّخذ من دونك من أوليـاء) نُواليهم ؛ والمعنى : ما كان ينبغي لنا أن نعبد نحن غيرك ، فكيف ندعو إلى عبادتنا ؟ ! فدل هذا الجواب على أنهم لم يأمروا بعبادتهم [(١)] . وقرأ أبو عبد الرحمن السلمي ، وابن جبير ، والحسن ، وقتادة ، وأبو جعفر ، وابن يعمر ، وعـاصم الجحدري : « أن نُتَّخَذ » برفع النون وفتح الخاء . ثم ذكروا سبب تركهم الإيمان ، فقالوا : (ولكن متّعْتَهم) أي : أطلتَ لهم العمر وأوسعت لهم الرزق (حتى نَسُوا الذِّكْر) أي : تركوا الإيمـان بالقرآن والاتّعاظَ به (وكانوا قوماً بُوراً) قال ابن عباس : هَلْكى . وقال في روايه أخرى ، البُور : [في] لغة أزد عُمان : الفاسد . قال ابن قتيبة : هو من بارَ يَبُور : إذا هلك وبطَل ، يقال : بار الطعامُ : إذا كَسَد ، وبارت الأَيِّمُ : إذا لم يُرغَبْ فيها ، وكان رسول الله ﷺ يتعوَّذُ من بَوَار الأَيِّمِ ، قال : وقال أبو عبيدة : يقال : رجل بُورٌ ، وقوم بور ، لا يُجمَع ولا يُثنّى ، واحتج بقول الشاعر :

---

(١) كما قال تعالى في حق عيسى عليه السلام : (وإذ قال الله ياعيسى بن مريم أأنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلٰهين من دون الله قال سبحانك مايكون لي أن أقول ماليس لي بحق إن كنت قلته فقد علمته تعلم ما في نفسي ولا أعلم ما في نفسك إنك أنت علام الغيوب . ماقلت لهم إلا ما أمرتني به أن اعبدوا الله ربي وربكم . . .) الآية [المائدة : ١١٦] .

يا رَسُولَ المَلِيكِ إنَّ لِسَانِي ‏ رَاتِقٌ ما فَتَقْتُ إذْ أنَا بُورُ [١]

وقد سمعنا بـ « رجل بأر » ، ورأيناهم ربما جمعوا « فاعلاً » على « فُعْل » ، نحو عائذٍ وعُوذٍ ، وشارِفٍ وشُرْفٍ . قال المفسرون : فيقال للكفار حينئذ (فقد كذَّبوكم) أي : فقد كذَّبكم المعبودون في قولكم : إنهم آلهة . وقرأ سعيد ابن جبير ، ومجاهد ، ومعاذ القارئ ، وابن شنبوذ عن قنبل : « بما يقولون » بالياء ؛ والمعنى : كذَّبوكم بقولهم : (سبحانكَ ما كان ينبغي لنا ...) الآية ؛ هذا قول الأكثرين . وقال ابن زيد : الخطاب للمؤمنين ؛ فالمعنى : فقد كذَّبكم المشركون بما تقولون : إن محمداً رسول الله ﷺ .

قوله تعالى : (فما يَستطيعون صَرْفاً ولا نَصْراً) قرأ الأكثرون بالياء . وفيه وجهان .

أحدهما : فما يستطيع المعبودون صرفاً للعذاب عنكم ولا نصراً لكم .

والثاني : فما يستطيع الكفار صرفاً لعذاب الله عنهم ولا نصراً لأنفسهم . وقرأ حفص عن عاصم : « تستطيعون » بالتاء ؛ والخطاب للكفار . وحكى ابن قتيبة عن يونس البصري أنه قال : الصَّرْف : الحيلةُ من قولهم : إنه ليتصرَّف .

قوله تعالى : (ومن يَظْلِمْ منكم) أي : بالشِّرك (نُذِقْهُ) في الآخرة . وقرأ عاصم الجحدري ، والضحاك ، وأبو الجوزاء [وقتادة] : « يذقه » بالياء (عذاباً كبيراً) أي : شديداً . (وما أرسَلْنا قبلكَ من المرسَلين) قال الزجاج : في الآية محذوف ،

---

(١) البيت لعبد الله بن الزِّبَعْرَى السَّهْمي قاله حين أسلم عند فتح مكة ، وهو في « مجاز القرآن » : ٧٣/٢ ، و « غريب القرآن » : ٣١١ ، و « الطبري » : ١٩١/١٨ ، و « القرطبي » : ١١/١٣ ، و « اللسان » ، و « التاج » : بور .

تقديره : وما أرسلنا قبلك رُسلاً من المرسَلين ، فحذفت « رسلاً » لأن قوله : (من المرسَلين) يدلّ عليها .

قوله تعالى : (إِلّا إنّهم لَيأكُلون الطعام ويمشون في الأسواق) أي : إنهم كانوا على مثل حالكَ ، فكيف تكون بِدْعاً منهم ؟!

فان قيل : لِمَ كُسرت « إنَّهم » هاهنا ، وفتحت في [(براءة : ٥٤) في] قوله : « أن تُقبَلَ منهم نفقاتُهم إلّا أنّهم » فقد بيّنّا هنالك عِلّة فتح تلك ؛ فأما كسر هذه ، فذكر ابن الأنباري فيه وجهين .

أحدهما : أن تكون فيها واو حال مضمرة ، فكسرت بعدها « إنّ » للاستئناف ، فيكون التقدير : إلا وإنّهم ليأكلون الطعام ، فأضمرت الواو هاهنا كما أُضمرت في قوله :(أو هم قائلون) [الأعراف : ٤] ، والتأويل : أو وهم قائلون .

والثاني : أن تكون كُسرت لإضمار « مَنْ » قبلها ، فيكون التقدير : وما أرسلنا قبلكَ منَ المرسَلين إلا مَنْ إنهم ليأكلون ، قال الشاعر :

فظلّوا ومنهم دَمْعُه سَابق له وآخَرُ يَثني دَمْعَةَ العيْنِ بالمَهْلِ [1]

أراد : مَن دمعُه .

قوله تعالى : (وجعلنا بعضَكم لبعض فِتنة) الفتنة : الابتلاء والاختبار .

وفي معنى الكلام ثلاثة أقوال .

أحدها : أنه افتتان الفقير بالغنيّ ، يقول : لو شاء لجعلني غنيّاً ، والأعمى بالبصير ، والسقيم بالصحيح ، قاله الحسن .

---

(١) المَهل : التؤدة والسّكينة ، والبيت لذي الرمة وهو في « معاني القرآن » : ٣٨٤ ، وروايته في ديوانه طبع المكتب الاسلامي ص ٥٧٠ :

فظلّوا ومنهم دَمْعُه غـالبٌ له وآخرُ يَثني عَبْرَةَ العيْنِ بالهَمْلِ

والثاني : ابتلاء الشريف بالوضيع ، والعربي بالمولى ، فاذا أراد الشريف أن يُسلِم فرأى الوضيع قد سبقه بالإسلام أنف فأقام على كفره ، قاله ابن السائب .

والثالث : أن المستهزئين من قريش كانوا إذا رأوا فقراء المؤمنين ، قالوا : انظروا إلى أتباع محمد من موالينا ورُذالتنا ، قاله مقاتل .

فعلى الأول : يكون الخطاب بقوله : (أتصبرون) لأهل البلاء . وعلى الثاني : للرؤساء ، فيكون المعنى : أتصبرون على سبق الموالي والأتباع . وعلى الثالث : للفقراء ؛ فالمعنى : أتصبرون على أذى الكفار واستهزائهم ، والمعنى : قد علمتم ما وُعِد الصابرون ، (وكان ربُّك بصيراً) بمن يصبر وبمن يجزع [1] .

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَـٰئِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا . يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَـٰئِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَحْجُورًا . وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا . أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ﴾

قوله تعالى : (وقال الذين لا يَرْجُون لقاءنا) أي : لايخافون البعث (لولا) أي : هلاَّ (أُنزِلَ علينا الملائكةُ) فكانوا رُسلاً إلينا وأخبرونا بصدقك ،

(١) قال ابن كثير : يقول الله : لو شئت أن أجعل الدنيا مع رسلي فلا يخالفون لفعلت ، ولكني قد أردت أن أبتلي العباد بهم وأبتليكم بهم ، وفي « صحيح مسلم » عن عياض بن حمار عن رسول الله ﷺ : « يقول الله تعالى : إني مبتليك ومبتلٍ بك » . وفي « المسند » عن رسول الله ﷺ : « لو شئت لأجرى الله معي جبال الذهب والفضة » . وفي « الصحيح » أنه عليه أفضل الصلاة والسلام خُيِّر بين أن يكون نبيّاً ملكاً أو عبداً رسولاً ، فاختار أن يكون عبداً رسولاً . اهـ .

(أو نرى ربَّنا) فيخبرنا أنَّكَ رسوله ، (لقد استكبروا في أنفسهم) أي : تكبَّروا حين سألوا هذه الآيات (وعَتَوْا عُتُوّاً كبيراً) قال الزجاج : العُتُوُّ في اللغة : مجاوزة القَدْر في الظُّلم .

قوله تعالى : (يومَ يَرَوْنَ الملائكةَ) فيه قولان .

أحدهما : عند الموت . والثاني : يوم القيامة .

قال الزجاج : وانتصب اليوم على معنى : لا بشرى للمجرمين يوم يرون الملائكة ، و « يومئذٍ » مؤكِّد لـ « يومَ يَرَوْنَ الملائكةَ » ؛ والمعنى أنهم يُمنَعون البُشرى في ذلك اليوم ؛ ويجوز أن يكون « يومَ » منصوباً على معنى : اذكر يوم يرون الملائكة ، ثم أخبر فقال : (لا بُشرى) ، والمجرمون هاهنا : الكفار .

قوله تعالى : (ويقولون حِجْراً مَحْجُوراً) وقرأ قتادة ، والضحاك ، ومعاذ القارىء : « حُجْراً » بضم الحاء . قال الزجاج : وأصل الحِجْر في اللغة : ماحجرتَ عليه ، أي : منعتَ من أن يُوصَل إليه ، ومنه حَجْر القضاة على الأيتام .

وفي القائلين لهذا قولان .

أحدهما : أنهم الملائكة يقولون للكفار : حِجْراً محجوراً ، أي : حراماً محرّماً . وفيما حرَّموه عليهم قولان . أحدهما : البُشرى ، فالمعنى : حرام محرَّم أن تكون لكم البشرى ، قاله الضحاك ، والفراء ، وابن قتيبة ، والزجاج . والثاني : أن تدخلوا الجنة ، قاله مجاهد .

والثاني : أنه قول المشركين إذا عاينوا العذاب ، ومعناه الاستعاذة من الملائكة ، روي عن مجاهد أيضاً . وقال ابن فارس : كان الرَّجل إذا لقيَ مَن يخافه في الشهر الحرام ، قال : حِجْراً ، أي : حرام عليكَ أذايَ ، فاذا رأى

المشركون الملائكة يوم القيامة ، قالوا : حِجْراً محجوراً ، يظنُّون أنه ينفعهم كما كان ينفعهم في الدنيا .

قوله تعالى : (وقَدِمْنَا) قال ابن قتيبه : أي : قَصَدْنا و عَمَدْنا ، والأصل أنَّ من أراد القُدوم إلى موضع عَمَد له وقصده .

قوله تعالى : (إلى ما عَمِلُوا من عمل) [أي] من أعمال الخير (فجعلناه هَبَاءً) لأن العمل لا يُتقبَّل مع الشِّرك [١] .

وفي الهباء خمسة أقوال .

أحدها : أنه ما رأيتَه يتطاير في الشمس التي تدخل من الكوَّة مثل الغبار ، قاله عليّ عليه السلام ، والحسن ، ومجاهد ، وسعيد بن جبير ، وعكرمة ، واللغويون ؛ والمعنى أنَّ الله أحبط أعمالهم حتى صارت بمنزلة الهباء .

والثاني : أنه الماء المُهراق ، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس .

والثالث : أنه ما تنسفه الرياح وتذريه من التراب وحطام الشجر ، رواه عطاء الخراساني عن ابن عباس .

والرابع : أنه الشَّرر الذي يطير من النار إذا أُضرمت ، فاذا وقع لم يكن شيئاً ، رواه عطيَّة عن ابن عباس .

والخامس : أنه ما يسطع من حوافر الدَّواب ، قاله مقاتل . والمنثور : المتفرِّق .

قوله تعالى : (أصحابُ الجنَّة يومَئذ) أي : يوم القيامة ، (خيرٌ مُستَقَرّاً)

---

(١) قال ابن كثير : أخبر الله تعالى أنه لايحصل لهؤلاء المشركين من الأعمال التي ظنوا أنها منجاة لهم شيء ، وذلك لأنها فقدت الشرط الشرعي ، إما الاخلاص فيها ، وإما المتابعة لشرع الله ، فكل عمل لايكون خالصاً وعلى الشريعة المرضيَّة فهو باطل ، فأعمال الكفار لاتخلو من واحد من هذين ، وقد تجمعها معاً فتكون أبعد من القبول حينئذ . اهـ .

أفضل منزلاً من المشركين (وأحسن مَقيلاً) قال الزجاج : المَقيل : المُقام وقت القائلة ، وهو النوم نصف النهار . وقال الأزهري : القيلولة عند العرب : الاستراحة نصف النهار إذا اشتد الحرّ وإن لم يكن مع ذلك نوم . وقال ابن مسعود ، وابن عباس : لا ينتصف النهار من يوم القيامة حتى يَقيل أهل الجنة في الجنة وأهل النار في النار .

﴿ وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ وَنُزِّلَ الْمَلَٰئِكَةُ تَنزِيلاً . الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ وَكَانَ يَوْماً عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيراً . وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَالَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلاً . يَاوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلاَناً خَلِيلاً . لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلإِنسَانِ خَذُولاً ﴾

قوله تعالى : (ويَوْمَ تَشَقَّقُ السَّماء بالغَمَام ونُزِّلَ الملائكةُ تنزيلاً) هذا معطوف على قوله : (يوم يرون الملائكة) ، وقرأ ابن كثير ، ونافع ، وابن عامر : « تَشَّقَّقُ » بالتشديد ، فأدغموا التاء في الشين ، لأن الأصل : تتشقق . قال الفراء : المعنى : تتشقق السماء عن الغمام ، وتنزل فيه الملائكة ، و « على » و « عن » و « الباء » في هذا الموضع بمعنى واحد ، لأن العرب تقول : رميت عن القوس ، وبالقوس ، وعلى القوس ، والمعنى واحد . وقال أبو علي الفارسي : المعنى : تتشقّقُ السماء وعليها غمام ، كما تقول : ركب الأمير بسلاحه ، وخرج بثيابه ، وإنما تتشقّق السماء لنزول الملائكة . قال ابن عباس : تتشقق السماء عن الغمام ، وهو الغيم الأبيض ، وتنزل الملائكة في الغمام . وقال مقاتل : المراد بالسماء : السموات ، تتشقق عن الغمام ، وهو غمام أبيض كهيئة الضَّباب ، فتنزل الملائكة عند انشقاقها . وقرأ ابن كثير : « ونُنزِلُ » بنونين ، الأولى مضمومة ، والثانية ساكنة ،

واللام مضمومة، و « الملائكةَ » نصباً. وقرأ عاصم الجحدري، وأبو عمران الجوني: « وَنَزَّلَ » بنون واحدة مفتوحة ونصب الزاي وتشديدها وفتح اللام ونصب « الملائكةَ » . وقرأ ابن يعمر : « وَنَزَلَ » بفتح النون واللام والزاي والتخفيف « الملائكةُ » بالرفع .

قوله تعالى : (الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ الحَقُّ للرَّحمن) قال الزجاج : المعنى : الْمُلْك الذي هو الْمُلْك حقـاً للرحمن [1] . فأما العسير ، فهو الصعب الشديد يشتد على الكفار ، ويهون على المؤمنين فيكون كمقدار صلاة مكتوبة .

قوله تعالى : (ويَوْمَ يَعَضُّ الظالمُ على يديه) في سبب نزولها ثلاثة أقوال .

أحدها : أن أُبيَّ بن خَلَف كان يحضر [عند] رسول الله ﷺ ويجالسه من غير أن يؤمن به ، فزجره عُقبة بن أبي مُعَيط عن ذلك ، فنزلت هذه الآية ، رواه عطاء الخراساني عن ابن عباس [2] .

والثاني : أن عُقبة دعا قوماً فيهم رسول الله ﷺ لطعام فأكلوا ، وأبى رسول الله ﷺ أن يأكل ، وقال : « لا آكل حتى تَشهد أن لا إله إلا الله وأنّي رسولُ الله » ، فشهد بذلك عقبة ، فبلغ ذلك أُبيَّ بن خَلَف ، وكان خليلاً له ، فقال : صبوت ياعقبة ؟ فقال : لا والله ، ولكنه أبى أن يأكل حتى قلت ذلك ، وليس من نفسي ، فنزلت هذه الآية ، قاله مجاهد [3]

(١) وفي « الصحيح » ، « أن الله تعالى يطوي السموات بيمينه ، ويأخذ الأرضين بيده الأخرى ، ثم يقول : أنا الملك ، أنا الديان ، أين ملوك الأرض ، أين الجبارون ، أين المتكبرون » .

(٢) « الطبري » : ١٩/٨ ، و « أسباب النزول » للواحدي : ١٩١ ، وذكره السيوطي في « الدر » : ٥/٦٨ وزاد نسبته لابن المنذر ، وابن مردويه عن ابن عباس .

(٣) « الطبري » : ١٩/٨ ، وذكره السيوطي في « الدر » : ٥/٦٩ وزاد نسبته للفريابي ، وابن أبي شيبة ، وعبد بن حميد ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم عن مجاهد .

والثالث : أن عُقبة كان خليلاً لأُميَّة بن خَلَف ، فأسلم عُقبة ، فقال أُمية : وجهي من وجهك حرام إن تابعتَ محمداً ، فكفر وارتدّ لرضى أُميَّة ، فنزلت هذه الآية ، قاله الشعبي (١) .

فأما الظالم [المذكور] هاهنا ، فهو الكافر ، وفيه قولان .

أحدهما : أنه أُبيُّ بن خَلَف ، رواه العوفي عن ابن عباس .

والثاني : عُقبة بن أبي مُعَيط ، قاله مجاهد ، وسعيد بن جبير ، وقتادة . قال عطاء : يأكل يديه حتى تذهبا إلى المرفقين ، ثم تنبتان ، فلا يزال هكذا كلَّما نبتت يده أكلها ندامة على مافعل .

قوله تعالى : (ياليتني اتَّخَذْتُ) الأكثرون يسكِّنون « ياليتني » ، وأبو عمرو يحرِّكها ؛ قال أبو علي : والأصل التحريك ، لأنها بازاء الكاف التي للخطاب ، إلا أن حرف اللِّين تكره فيه الحركة ، ولذلك أسكن من أسكن ؛ والمعنى : ليتني اتَّبعتُه فاتَّخذتُ معه طريقاً إلى الهُدى .

قوله تعالى : (ليتني لم أتَّخِذ فلاناً) في المشار إليه أربعة أقوال .

أحدها : أنه عنى أُبيَّ بن خَلَف ، قاله ابن عباس . والثاني : عقبة بن أبي مُعَيط ، قاله أبو مالك . والثالث : الشيطان ، قاله مجاهد . والرابع : أُميَّة ابن خَلَف ، قاله السدي .

فان قيل : إنما يكني من يخاف المبادأة أو يحتاج إلى المُداجاة ، فما وجه الكناية ؟

فالجواب : أنه أراد بالظالم : كلَّ ظالم ، وأراد بفلان : كلَّ من أُطيع في معصية الله وأُرضي بسخط الله ، وإن كانت الآية نزلت في شخص ، قاله ابن قتيبة .

(١) « الطبري » : ١٩/٨ ، و « أسباب النزول » للواحدي : ١٩١ .

قوله تعالى : (لقد أضلَّني عن الذِّكْر) أي : صرفني عن القرآن والإيمان به (بعد إذ جاءني) مع الرسول ، وهاهنا تم الكلام . ثم قال الله تعالى : (وكان الشَّيطان للانسان) يعني : الكافر (خَذُولاً) يتبرأ [منه] في الآخرة .

﴿ وَقَالَ الرَّسُولُ يَارَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُوراً . وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّاً مِنَ الْمُجْرِمِينَ وَكَفَى بِرَبِّكَ هَادِياً وَنَصِيراً ﴾

قوله تعالى : (وقال الرسول) يعني محمداً ﷺ ، وهذا عند كثير من العلماء أنه يقوله يوم القيامة ؛ فالمعنى : ويقول الرسول يومئذ . وذهب آخرون ، منهم مقاتل ، إلى أن الرسول قال ذلك شاكياً من قومه إلى الله تعالى حين كذَّبوه(١) .

وقرأ ابن كثير ، ونافع ، [وأبو عمرو] : « إن قوميَ اتخذوا » بتحريك الياء ؛ وأسكنها عاصم ، وابن عامر ، وحمزة ، والكسائي .

وفي المراد بقوله : (مهجوراً) قولان .

أحدها : متروكاً لا يلتفتون إليه ولا يؤمنون به ، وهذا معنى قول ابن عباس ، ومقاتل .

(١) قال ابن كثير : يقول تعالى مخبراً عن رسوله ونبيه محمد ﷺ أنه قال : « يارب إن قومي اتخذوا هذا القرآن مهجوراً » ، وذلك أن المشركين كانوا لا يُصغون للقرآن ولا يستمعونه ، كما قال تعالى : (وقال الذين كفروا لاتسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه . . .) الآية [فصلت : ٢٦] ، فكانوا إذا تلي عليهم القرآن أكثروا اللغط والكلام في غيره حتى لا يسمعونه ، فهذا من هجرانه ، وتركُ الايمان به وترك تصديقه ، من هجرانه ، وتركُ تدبّره وتفهمه ، من هجرانه ، وتركُ العمل به وامتثال أوامره واجتناب زواجره ، من هجرانه ، والعدولُ عنه إلى غيره من شعر أو قول أو غناء أو لهو أو كلام أو طريقة مأخوذة من غيره ، من هجرانه ، قال : فنسأل الله الكريم المنان ، القادر على مايشاء ، أن يخلصنا مما يسخطه ، ويستعملنا فيما يرضيه من حفظ كتابه وفهمه والقيام بمقتضاه آناء الليل وأطراف النهار على الوجه الذي يحبُّه ويرضاه إنه كريم وهاب . اهـ .

والثاني : هجَروا فيه ، أي : جعلوه كالهذَيان ، ومنه يقال : فلان يَهْجُر في منامه ، أي : يَهْذِي ، قاله ابن قتيبة . وقال الزجاج : الهُجْر : ما لا يُنتفع به من القول . قال المفسرون : فعزّاه الله عز وجل ، فقال : (وكذلك جعلنا لكلِّ نبيٍّ عدوّاً) أي : كما جعلنا لك أعداءً من مشركي قومك ، جعلنا لكلِّ نبيٍّ عدوّاً من كفّار قومه ؛ والمعنى : لا يَكْبُرَنَّ هذا عليك ، فلك بالأنبياء أسوة ، (وكفى بربِّك هادياً ونصيراً) يمنعك من عدوِّك . قال الزجاج : والباء في قوله : (بربِّكَ) زائدة ؛ فالمعنى : كفى ربُّك هادياً ونصيراً .

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلاَ نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً . وَلا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيراً . الَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَى وُجُوهِهِمْ إِلَى جَهَنَّمَ أُولَٰئِكَ شَرٌّ مَكَاناً وَأَضَلُّ سَبِيلاً ﴾

قوله تعالى : (لولا نُزِّل عليه القرآنُ جُمْلَةً واحدةً) أي : كما أُنزلت التوراةُ والإِنجيل والزَّبور ، فقال الله عز وجل : (كذلكَ) أي : أنزلناه كذلك متفرِّقاً ، لأن معنى ماقالوا : لِمَ نُزِّل عليه متفرِّقاً ؟ فقيل : إنما أنزلناه كذلك (لنُثَبِّتَ به فؤادكَ) أي : لنُقَوِّي به قلبك فتزداد بصيرة ، وذلك أنه كان يأتيه الوحي في كل أمر وحادثة ، فكان أقوى لقلبه وأنور لبصيرته وأبعد لاستيحاشه ، (ورتَّلناه ترتيلاً) أي : أنزلناه على الترتيل ، وهو التمكُّث الذي يُضادُّ العَجلة .

قوله تعالى : (ولا يأتونكَ) يعني المشركين (بِمَثَل) يضربونه لك في مخاصمتك وإبطال أمرك (إلا جئناك بالحقّ) أي : بالذي هو الحقّ لتَرُدَّ به كيدهم (وأحسنَ تفسيراً) من مَثَلهم ؛ والتفسير : البيان والكشف .

قال مقاتل : ثم أخبر بمستقرّهم في الآخرة ، فقال : (الذين يحشرون على

وجوههم) وذلك أن كفار مكة قالوا : إن محمداً وأصحابه شرُّ خلق الله ، فنزلت هذه الآية .

قوله تعالى : (أولئك شرٌّ مكاناً) أي : منزلاً ومصيراً (وأضلُّ سبيلاً) ديناً وطريقاً من المؤمنين .

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ هَٰرُونَ وَزِيراً . فَقُلْنَا اذْهَبَا إِلَى الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَدَمَّرْنَاهُمْ تَدْمِيراً . وَقَوْمَ نُوحٍ لَمَّا كَذَّبُوا الرُّسُلَ أَغْرَقْنَاهُمْ وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً وَأَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ عَذَاباً أَلِيماً . وَعَاداً وَثَمُودَ وَأَصْحَابَ الرَّسِّ وَقُرُوناً بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيراً . وَكُلاًّ ضَرَبْنَا لَهُ الْأَمْثَالَ وَكُلاًّ تَبَّرْنَا تَتْبِيراً ﴾

قوله تعالى : (اذهبا إلى القوم الذين كذَّبوا بآياتنا) .

إن قيل : إنما عاينوا الآيات بعد [وجود] الرسالة ، فكيف يقع التكذيب منهم قبل وجود الآيات ؟

فالجواب : أنهم كانوا مكذّبين أنبياءَ الله وكُتُبَه المتقدّمة ، ومن كذَّب نبيّاً فقد كذَّب سائر الأنبياء ، ولهذا قال : (وقومَ نوحٍ لمَّا كذَّبوا الرُّسُل) ، وقال الزجاج : يجوز أن يكون المرادَ به نوحٌ وحده ، وقد ذُكر بلفظ الجنس ، كما يقال : فلان يركب الدوابّ ، وإن لم يركب إلا دابّة واحدة ؛ وقد شرحنا هذا في (هود : ٥٩) عند قوله : « وعَصَوا رُسُلَه » . وقد سبق معنى التدمير [الاعراف : ١٣٧] .

قوله تعالى : (وأصحابَ الرَّسِّ) في الرَّسِّ ثلاثة أقوال .

أحدها : أنها بئر كانت تسمى الرَّسَّ ، قاله ابن عباس في رواية العوفي .

وقال في رواية عكرمة : هي بئر بأذربيجان . وزعم ابن السائب أنها بئر دون اليمامة . وقال السدي : بئر بأنطاكية .

والثاني : أن الرَّسّ قرية من قرى اليمامة ، قاله قتادة .

والثالث : أنها المَعْدِن ، قاله أبو عبيدة ، وابن قتيبة .

وفي تسميتها بالرَّسِّ قولان .

أحدهما : أنهم رَسُّوا نبيَّهم في البئر ، قاله عكرمة . قال الزجاج : رَسُّوه ، أي : دَسُّوه فيها .

والثاني : أن كل رَكِيَّة لم تطو فهي رَسٌّ ، قاله ابن قتيبة .

واختلفوا في أصحاب الرَّسِّ على خمسة أقوال .

أحدها : أنهم قوم كانوا يعبدون شجرة ، فبعث الله تعالى إليهم نبيّاً من ولد يهوذا بن يعقوب ، فحفروا له بئراً وألقَوه فيها ، فهلكوا ، قاله عليّ عليه السلام .

والثاني : أنهم قوم كان لهم نبيّ يقال له : حنظلة بن صفوان ، فقتلوا نبيَّهم فأهلكهم الله ، قاله سعيد بن جبير .

والثالث : أنهم كانوا أهل بئر ينزلون عليها ، وكانت لهم مواشٍ ، وكانوا يعبدون الأصنام ، فبعث الله إليهم شُعيباً ، فتمادَوا في طغيانهم ، فانهارت البئر ، فخُسف بهم وبمنازلهم ، قاله وهب بن منبه .

والرابع : أنهم الذين قتلوا حبيباً النجار ، قتلوه في بئر لهم ، وهو الذي قال : (ياقوم اتَّبِعُوا المرسَلين) [يسٓ : ٢٠] ، قاله السدي .

والخامس : أنهم قوم قتلوا نبيَّهم وأكلوه ، وأولُ من عمل السحر نساؤهم ، قاله ابن السائب [١] .

(١) واختار ابن جرير الطبري أن المراد بأصحاب الرس هم أصحاب الأخدود الذين ذكروا في سورة (البروج) ، والله أعلم .

قوله تعالى : (وَقُرُوناً) المعنى : وأهلكنا قروناً (بين ذلكَ كثيراً) أي : بين عاد وأصحاب الرَّسِّ . وقد سبق بيان القَرْن [الانعام : ٦] . وفي هذه القصص تهديد لقريش .

قوله تعالى : (وكُلاًّ ضَرَبْنَا له الأمثال) أي : أعذرنا إليه بالموعظة وإقامة الحُجَّة (وكُلاًّ تَبَّرْنَا) قال الزجاج : التَّتبير : التدمير ، وكل شيء كسرته وفتّتّه فقد تبَّرته ، وكُسارته : التِّبر ، ومن هذا قيل لمكسور الزجاج : التِّبر ، وكذلك تبر الذهب .

﴿ وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أُمْطِرَتْ مَطَرَ السَّوْءِ أَفَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنَهَا بَلْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ نُشُوراً . وَإِذَا رَأَوْكَ إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُواً أَهَذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولاً . إِنْ كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ آلِهَتِنَا لَوْلَا أَنْ صَبَرْنَا عَلَيْهَا وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ الْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلاً . أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلاً . أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً ﴾

قوله تعالى : (ولقد أتَوْا) يعني كفار مكة (على القرية التي أُمطرت مَطر السَّوْء) يعني قرية قوم لوط التي رُميتْ بالحجارة (أفَلَم يكونوا يرَونها) في أسفارهم فيعتبروا ؟ ! ثم أخبر بالذي جرَّأهم على التكذيب ، فقال : (بل كانوا لا يَرْجُون نُشوراً) أي : لا يخافون بعثاً ، هذا قول المفسرين . وقال الزجاج : الذي عليه أهل اللغة أن الرجاء ليس بمعنى الخوف ، وإنما المعنى : بل كانوا لا يرجون ثواب عمل الخير ، فركبوا المعاصي .

قوله تعالى : (وإذا رأوكَ إن يتَّخذونكَ) أي : مايتخذونك (إلا هُزُواً) أي : مهزوءاً به . ثم ذكر مايقولون من الاستهزاء : (أهذا الذي بَعَثَ اللهُ رسولاً إن كاد ليُضِلُّنَا عن آلهتنا) أي : ليصرفنا عن عبادة آلهتنا (لولا أن صَبَرْنَا عليها) أي : على عبادتها ؛ قال الله تعالى : (وسوف يعلمون حين يَرَوْنَ العذابَ) في الآخرة (مَنْ أضَلُّ) أي : مَنْ أخطأُ طريقاً عن الهدى ، أهم، أم المؤمنون .

ثم عجَّب نبيَّه من جهلهم حين عبدوا مادعاهم إليه الهوى ، فقال : (أرأيتَ من اتخذ إلهه هواه) قال ابن عباس : كان أحدهم يعبد الحجر ، فاذا رأى ماهو أحسن منه رمى به وعبد الآخَر . وقال قتادة : هو الكافر لايهوى شيئاً إلا ركبه . وقال ابن قتيبة : المعنى : يتَّبع هواه ويدع الحقَّ ، فهو له كالإله .

قوله تعالى : (أفأنتَ تكونُ عليه وكيلاً) أي : حفيظا يحفظه من اتِّباع هواه . وزعم الكلبي أن هذه الآية منسوخة بآية القتال .

قوله تعالى : (أم تَحْسَبُ أنَّ أكثرهم يَسمعون) يعني أهل مكة ؛ والمراد : يسمعون سماع طالب الإفهام (أو يعقلون) مايعاينون من الحُجج والأعلام (إن هم إلّا كالأنعام) وفي وجه تشبيههم بالأنعام قولان .

أحدهما : أن الأنعام تسمع الصوت ولا تفقه القول .

والثاني : أنه ليس لها همٌّ إلا المأكل والمشرب .

قوله تعالى : (بل هم أضَلُّ سبيلاً) لأن البهائم تهتدي لمراعيها وتنقاد لأربابها وتُقبل على المحسِن إليها ، وهم على خلاف ذلك .

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِناً ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلاً . ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضاً يَسِيراً .

وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِبَاساً وَالنَّوْمَ سُبَاتاً وَجَعَلَ النَّهارَ نُشُوراً . وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ بُشْراً بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُوراً . لِنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَيْتاً وَنُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَاماً وَأَنَاسِيَّ كَثِيراً . وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا فَأَبَىٰ أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُوراً . وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَذِيراً . فَلاَ تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَاداً كَبِيراً ﴾

قوله تعالى : (ألم تَرَ إلى ربِّك) أي : إلى فِعْل ربِّك . وقال الزجاج : معناه : ألم تعلم ، فهو من رؤية القلب ، ويجوز أن يكون من رؤية العين ؛ فالمعنى : ألم تر إلى الظِّلِّ كيف مَدَّه ربُّك ؟ والظِّلُّ من وقت طلوع الفجر إلى وقت طلوع الشمس (ولو شاء لجعله ساكناً) أي : ثابتاً دائماً لا يزول (ثم جعلنا الشمس عليه دليلاً) فالشمس دليل على الظل ، فلولا الشمس ما عُرف أنه شيء ، كما أنه لولا النُّور ما عُرفت الظُّلمة ، فكل الأشياء تُعرف بأضدادها .

قوله تعالى : (ثم قبضْناه إلينا) يعني : الظِّل (قبْضاً يَسيراً) وفيه قولان . أحدهما : سريعاً ، قاله ابن عباس . والثاني : خفيّاً ، قاله مجاهد .

وفي وقت قبض الظل قولان . أحدهما :عند طلوع الشمس يُقبض الظِّل وتُجمع أجزاؤه المنبسطة بتسليط الشمس عليه حتى تنسخَه شيئاً فشيئاً والثاني : عند غروب الشمس تُقبض أجزاء الظِّل بعد غروبها ، ويخلّف كل جزء منه جزءاً من الظلام .

قوله تعالى : (وهو الذي جعل لكم الليل لِباساً) أي : ساتراً بظلمته ، لأن ظلمته تغشى الأشخاص وتَشتمل عليها اشتمال اللباس على لابسه (والنَّومَ

سُبَاتاً) قال ابن قتيبة : أي : راحة ، ومنه يوم السبت ، لأن الخلق اجتمع يوم الجمعة ، وكان الفراغ منه في يوم السبت ، فقيل لبني إسرائيل : استريحوا في هذا اليوم ولا تعملوا فيه شيئاً ، فسمّي يوم السبت ، أي : يوم الراحة [1]، وأصل السبت : التّمدُّد ، ومن تمدَّد استراح . وقال ابن الأنباري : أصل السبت : القَطْع ؛ فالمعنى : وجعلنا النوم قَطْعاً لأعمالكم .

قوله تعالى : (وجَعَلَ النَّهارَ نُشوراً) فيه قولان . أحدهما : تنتشرون فيه لابتغاء الرزق ، قاله ابن عباس . والثاني : تُنشَر الرُّوح باليقظة كما تُنشَر بالبعث ، حكاه الماوردي .

قوله تعالى : (وهو الذي أرسل الرِّياح) قد شرحناه في (الأعراف : ٥٧) إلى قوله : (وأنزلنا من السماء ماءً طَهُوراً) يعني : المطر . قال الأزهري : الطَّهُور في اللغة : الطاهر المُطهِّر . والطَّهور ما يُتَطَهَّر به ، كالوَضوء الذي يُتَوضَّأ به ، والفَطُور الذي يُفطَر عليه .

قوله تعالى : (لِنُحْيِيَ به بلدةً مَيْتاً) وقرأ أبو المتوكل ، وأبو الجوزاء ، وأبو جعفر : « مَيِّتاً » بالتشديد . قال الزجاج : لفظ البلدة مؤنَّث ، وإنما قيل : « ميتاً » لأن معنى البلدة والبلد سواء . وقال غيره : إنما قال : « ميتاً » ، لأنه أراد بالبلدة المكان . وقد سبق معنى صفة البلدة بالموت [الأعراف : ٥٧] ومعنى : « و نُسْقِيَهُ » [الحجر : ٢٤] . وقرأ أبو مجلز ، وأبو رجاء ، والضحاك ، والأعمش ، وابن أبي عبلة : « ونَسْقِيَهُ » بفتح النون . فأما الأناسيُّ ، فقال الزجاج : هو جمع إنسيّ ، مثل كرسيّ و كراسي ؛ ويجوز أن يكون جمع إنسان ، وتكون الياء بدلاً من النون ، الأصل : أناسين مثل سَراحين [2] . وقرأ أبو مجلز ،

---

(١) الذي في « صحيح مسلم » ٢١٤٩/٤ : « خلق التربة يوم السبت... » الحديث . وقال الحافظ ــــ

(٢) سَراحين جمع سِرْحان ، وهو الذئب .

والضحاك ، وأبو العالية ، وعاصم الجحدري : « وأناسيَ » بتخفيف الياء .

قوله تعالى : (ولقد صرَّفْناه) يعني المطر (بينهم) مرة لهذه البلدة ، ومرة لهذه (لِيَذَّكَّروا) أي : ليتفكَّروا في نِعَم الله عليهم فيحمدوه . وقرأ حمزة ، والكسائي : « لِيَذْكُروا » خفيفة الذال . قال أبو علي : يَذْكُر في معنى يتذكَّر ، (فأبى أكثرُ الناس إلا كُفُوراً) وهم الذين يقولون : مُطِرنا بنوء كذا وكذا ، كفروا بنعمة الله [1] . (ولو شئنا لبَعَثْنَا في كل قرية نذيراً) المعنى : إنّا بعثناك إلى جميع القُرى لعِظَم كرامتك ، (فلا تُطِعِ الكافرين) ، وذلك أن كفار مكة دعَوه إلى دين آبائهم ، (وجاهِدهم به) أي بالقرآن (جهاداً كبيراً) أي : تامّاً شديداً .

﴿ وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخاً وَحِجْراً مَحْجُوراً . وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَراً فَجَعَلَهُ نَسَباً وَصِهْراً وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيراً . وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ مَالاَ يَنْفَعُهُمْ وَلا يَضُرُّهُمْ وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَى رَبِّهِ ظَهِيراً ﴾

قوله تعالى : (وهو الذي مَرَجَ البَحرين) قال الزجاج : أي : خلّى بينهما ؛ تقول : مرجتُ الدابّة وأمرجتُها : إذا خلّيتَها ترعى ، ومنه الحديث : « مَرِجَتْ

ـــ المناوي في شرحه لهذا الحديث : وفيه ردٌّ زعمِ اليهود أنه ابتدأ في خلق العالم يوم الأحد ، وفرغ يوم الجمعة ، واستراح يوم السبت ، قالوا : ونحن نستريح كما استراح الرب ، وهذا من غباوتهم وجهلهم ، إذ التعب لا يتصور إلا على حادث ، (إنما أمرنا لشيء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون) . اهـ .

(١) روى مسلم في « صحيحه » أن رسول الله ﷺ قال لأصحابه يوماً على أثر سماء أصابتهم من الليل : « أتدرون ماذا قال ربكم ؟ » قالوا : الله ورسوله أعلم ، قال : « قال أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر ، فأما من قال : مطرنا بفضل الله ورحمته ، فذاك مؤمن بالله كافر بالكوكب ، وأما من قال : مطرنا بنوء كذا وكذا ، فذاك كافر بي مؤمن بالكوكب » .

عهودُهم وأماناتهم » (١) أي : اختلطت . قال المفسرون : والمعنى أنه أرسلهما في مجاريهما ، فما يلتقيان ، ولا يختلط المَلِح بالعذب ، ولا العذب بالمَلِح ، وهو قوله : (هذا) يعني : أحد البحرين (عَذْبٌ) أي : طيِّب ؛ يقال : عَذُبَ الماء يَعْذُبُ عُذوبةً ، فهو عَذْبٌ . قال الزجاج : والفُرات صفة للعَذْب ، وهو أشد الماء عُذوبة ، والأُجاج صفة للملح ، وهو : المُرُّ الشديد المرارة . وقال ابن قتيبة : هو أشد الماء ملوحة ؛ وقيل : هو الذي يُخالطه مرارةٌ ، ويقال : ماء مِلح ، ولا يقال : مالح ، والبرزخ : الحاجز . وفي هذا الحاجز قولان .

أحدهما : أنه مانع من قدرة الله تعالى ، قاله الأكثرون . قال الزجاج : فهما في مرأى العين مختلطـان ، وفي قدرة الله منفصلان لا يختلط أحدهما بالآخر . قـال أبو سليمان الدمشقي : ورأيت عند عَبَّادان من سواد البصرة الماءَ العذب يَنحدر في دجلة نحو البحر ، ويأتي المَدُّ من البحر ، فيلتقيان ، فلا يختلط أحد الماءين بالآخر ، يُرى ماء البحر إلى الخُضرة الشديدة ، وماء دجلة إلى الحُمرة الخفيفة ، فيأتي المستقي فيغرف من ماء دجلة عذباً لا يخالطه شيء ، وإلى جانبه ماء البحر في مكان واحد .

والثاني : أن الحاجز : الأرض واليَبَس ، وهو قول الحسن ؛ والأول أصح .

قوله تعالى : (وحِجْراً محجوراً) قال الفراء : أي : حراماً محرَّماً أن يغلب أحدهما صاحبه .

---

(١) هو جزء من حديث طويل ، أخرجه أبو داود في « سننه » رقم (٤٣٤٢) وابن ماجه في « سننه » رقم (٣٩٥٧) والحـاكم في « مستدركه » ٤/٤٣٥ وصححه ، ووافقه الذهبي ، عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « يوشك أن يأتيَ زمان يُغربل فيه الناس غربلة ، ويبقى حثالة من الناس قد مَرِجت عهودهم وأماناتهم (أي فسدت) واختلفوا فكانوا هكذا » ـ وشبك بين أصابعه ـ قالوا : فكيف تأمرنا يارسول الله ، قال : « تأخذون ماتعرفون ، وتَدَعون ماتنكرون ، وتقبلون على أمر خاصتكم ، وتَدَعون أمر عامتكم » .

قوله تعالى : (وهو الذي خَلَقَ من الماء بَشَراً) أي : من النُّطفة بَشَراً ، أي : إِنساناً (فجعله نَسَباً وصِهْراً) أي : ذا نسب وصِهْرٍ . قال علي عليه السلام : النَّسَب : ما لا يحل نكاحه ، والصِّهر : ما يَحِلُّ نكاحه . وقال الضحاك : النسب سبع ، وهو قوله : (حُرِّمت عليكم أمهاتُكم ...) إِلى قوله : (وبناتُ الأُخت) ، والصِّهر خمس ، وهو قوله : (وأُمهاتُكم اللاَّتي أرضعنكم ...) إِلى قوله : (مِنْ أصلابكم) [النساء:٢٣] . وقال طاووس : الرَّضاعة من الصِّهر . وقال ابن قتيبة : « نَسَباً » أي : قرابة النَّسَب ، « وصِهراً » أي : قرابة النكاح . وكل شيء من قِبَل الزوج ، مثل الأب والأخ ، فهم الأحماء ، واحدهم حَماً ، مثل : قَفاً ، وحَمُو مثل أُبو ، وحَمْءٌ مهموز ساكن الميم ، وحَمٌ مثل أبٍ . وحَماة المرأة : أمُّ زوجها ، لا لغة فيها غير هذه وكلّ شيء من قِبَل المرأة ، فهم الأَخْتَان . والصِّهر يجمع ذلك كلَّه . وحكى ابن فارس عن الخليل ، أنه قال : لا يقال لأهل بيت الرجل إِلا أختان ، ولأهل بيت المرأة إِلا أصهار . ومن العرب من يجعلهم أصهاراً كلَّهم . والصَّهْر : إِذابة الشيء . وذكر الماوردي أن المناكح سمِّيتْ صِهْراً ، لاختلاط الناس بها كما يختلط الشيء إِذا صُهِر .

قوله تعالى : (وكان الكافر على ربِّه ظهيراً) فيه أربعة أقوال .

أحدها : مُعيناً للشيطان على ربِّه ، لأن عبادته للأصنام معاونة للشيطان .

والثاني : مُعيناً للمشركين على أن لا يوحِّدوا الله تعالى .

والثالث : مُعيناً على أولياء ربِّه .

والرابع : وكان الكافر على ربِّه هيِّناً ذليلاً ، من قولك : ظَهَرتُ بفلان : إِذا جعلتَه وراء ظهرك ولم تلتفت إِليه . قالوا : والمراد بالكافر هاهنا أبو جهل .

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلا مُبَشِّراً وَنَذِيراً . قُلْ مَا أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَنْ شَاءَ أَنْ يَتَّخِذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلاً . وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ وَكَفَى بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيراً. الَّذِي خَلَقَ السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمٰنُ فَسْئَلْ بِهِ خَبِيراً . وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمٰنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمٰنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُوراً ﴾

قوله تعالى : (ما أسألكم عليه) أي : على القرآن وتبليغ الوحي (من أجْر) وهذا توكيد لصِدْقه ، لأنه لو سألهم شيئاً من أموالهم لاتّهموه ، (إلا من شاء) معناه : لكن من شاء (أن يتّخذ إلى ربّه سبيلاً) بانفاق ماله في مرضاته ، فَعَل ذلك ، فكأنه قال : لا أسألكم لنفسي . وقد سبق تفسير الكلمات التي تلي هذه [آل عمران : ١٥٩ ، البقرة : ٣٠ ، الأعراف : ٥٤] إلى قوله : (فاسأل به خبيراً) ، و « به » بمعنى : « عنه » ، قال [عَلْقَمة بن عَبَدة] :

فإنْ تَسْأَلُوني بالنِّساء فإنَّني بَصيرٌ بأدْوَاء النِّسَاء طَبِيبُ [1]

وفي هاء « به » ثلاثة أقوال .

أحدها : أنها ترجع إلى الله عز وجل . والثاني : إلى اسمه الرحمن ، لأنهم قالوا : لا نعرف الرّحمن . والثالث : إلى ما ذكر مِنْ خَلْق السموات والأرض وغير ذلك .

وفي « الخبير » أربعة أقوال .

أحدها : أنه جبريل ، قاله ابن عباس . والثاني : أنه الله عز وجل ، والمعنى :

(١) ديوانه : ١١ ، و « مشكل القرآن » : ٤٢٧ ، و « القرطبي » : ١٣/٦٣ ، و « أدب الكاتب » : ٥٠٥ . والأدواء : جمع داء .

سلني فأنا الخبير، قاله مجاهد. والثالث: [أنه] القرآن، قاله شمر. والرابع: مُسْلِمة أهل الكتاب، قاله أبو سليمان، وهذا يخرّج على قولهم: لانعرف الرّحمن، فقيل: سَلُوا مُسْلِمة أهل الكتاب، فان الله تعالى خاطب موسى في التوراة باسمه الرحمن، فعلى هذا، الخطابُ للنبي ﷺ والمراد سواه.

قوله تعالى: (وإذا قيل لهم) يعني كفار مكة (اسجُدوا للرّحمن قالوا وما الرحمن) قال المفسرون: إنهم قالوا: لانعرف الرّحمن إلا رحمن اليمامة، فأنكروا أن يكون من أسماء الله تعالى، (أنسْجُدُ لِمَا تأمُرُنا) وقرأ حمزة، والكسائي: «يأمُرُنا» بالياء، أي: لِمَا يأمرنا به محمد، وهذا استفهام إنكار، ومعناه: لانسجد للرّحمن الذي تأمرنا بالسجود له، (وزادهم) ذِكر الرحمن (نُفوراً) أي: تباعداً من الإيمان.

﴿تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجاً وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجاً وَقَمَراً مُنِيراً. وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُوراً﴾

قوله تعالى: (تبارك الذي جعل في السماء بُروجاً وجعل فيها سِراجاً) قد شرحناه في (الحجر: ١٦). والمراد بالسراج: الشمس. وقرأ حمزة، والكسائي: «سُرُجاً» بضم السين والراء وإسقاط الألف. قال الزجاج: أراد: الشمس والكواكب العظام؛ ويجوز «سُرْجاً» بتسكين الراء، مثل رُسْل ورُسُل. قال الماوردي: لما اقترن بضوء الشمس وهج حرِّها، جعلها لأجل الحرارة سراجاً، ولمّا عدم ذلك في القمر جعله نوراً.

قوله تعالى: (وهو الذي جعل الليل والنهار خِلْفَةً) فيه قولان.

أحدهما: أن كل واحد منهما يخالف الآخر في اللون، فهذا أبيض، وهذا

أسود ، روى هذا المعنى الضحاك عن ابن عباس ، وابن أبي نجيح عن مجاهد ، وبه قال قتادة .

والثاني : أن كل واحد منهما يَخْلُفُ صاحبه ، رواه عمرو بن قيس الملائي عن مجاهد ، وبه قال ابن زيد وأهل اللغة ، وأنشدوا قول زهير :

بِهَاالعِينُ والآرَامُ يَمْشِينَ خِلْفَةً وأطْلاؤُها يَنْهَضْنَ مِنْ كُلِّ مَجْثَمِ [(١)]

أي : إذا ذهبت طائفة جاءت طائفة [(٢)] .

قوله تعالى : (لِمَنْ أراد أن يَذَّكَّر) أي : يتّعظ ويعتبر باختلافهما . وقرأ حمزة : « يَذْكُرَ » خفيفة الذال مضمومة الكاف ، وهي في معنى : يتذكّر ، (أو أراد) شُكْر الله تعالى فيهما .

﴿ وَعِبَادُ الرَّحْمٰنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْناً وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَاماً . وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّداً وَقِيَاماً . وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَاماً . إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرّاً وَمُقَاماً . وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذٰلِكَ قَوَاماً ﴾

(١) « شرح ديوان زهير » : ٥ ، و « غريب القرآن » : ٣١٤ ، و « مجاز القرآن » : ٢/٨٠ ، و « الطبري » : ١٩/٣٢ ، و « القرطبي » : ١٣/٦٥ ، و « مختار الشعر الجاهلي » : ١/٢٢٨ ، و « اللسان » ، و « التاج » : خلف . والعين ، جمع أعين وعيناء : بقر الوحش ، سميت بذلك لسعة أعينها . والآرام : جمع رئم ، وهو الظبي الخالص البياض . وخلفة : يخلُف بعضها بعضاً . والأطلاء : جمع الطلا ، وهو الولد من ذوات الظلف . والمجثم : المربض .

(٢) قال ابن كثير : أي : جعلهما يتعاقبان توقيتاً لعبادة عباده له عز وجل ، فمن فاته عمل في الليل استدركه في النهار ، ومن فاته عمل في النهار استدركه في الليل ، وقد جاء في الحديث الصحيح « إن الله عزّ وجل يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار ، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل » . اهـ .

قوله تعالى : (وعبادُ الرَّحمن الذين يَمْشُون) وقرأ عليّ ، وأبو عبد الرحمن السلمي ، وابن السميفع : « يُمَشَّون » برفع الياء وفتح الميم والشين وبالتشديد . وقال ابن قتيبة : إنما نسبهم إليه لاصطفائه إياهم ، كقوله : (ناقةُ الله) [الأعراف:٧٣] ، ومعنى « هَوْناً » : مشياً رويداً (١) . ومنه يقال : أَحْبِبْ حبيبك هَوْناً ما (٢) . وقال مجاهد : يمشون بالوقار والسكينة . (وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً) أي : سَداداً . وقال الحسن : لايجهلون على أحد ، وإن جهل عليهم حلُموا (٣) . وقال مقاتل بن حيّان : « قالوا سلاماً » أي : قولاً يَسْلَمون فيه من الإثم . وهذه الآية محكمة عند الأكثرين . وزعم قوم أن المراد بها أنهم يقولون للكفار : ليس بيننا وبينكم غير السلام ، ثم نُسخت بآية السيف .

---

(١) قال ابن كثير : وليس المراد أنهم يمشون كالمرضى تصنُّعاً ورياءً ، فقد كان سيد ولد آدم ﷺ إذا مشى كأنما ينحطُّ من صَبَب ، وكأنما الأرض تطوى له . قال : وقد كره بعض السلف المشي بتضعُّف وتصنُّع ، قال : وإنما المراد بالهَون هنا : السكينة والوقار ، كما قال رسول الله ﷺ « إذا أتيتم الصلاة فلا تأتوها وأنتم تسعَوْن ، وائتوها وعليكم السكينة والوقار ، فما أدركتم منها فصلوا ، وما فاتكم فأتموا » اهـ ، والحديث متفق عليه .

(٢) هو من كلام علي بن أبي طالب رضي الله عنه كما في « الأدب المفرد » للبخاري : « أحبب حبيبك هوناً ما عسى أن يكون بغيضك يوماً ما ، وأبغض بغيضك هوناً ما ، عسى أن يكون حبيبك يوماً ما » ولم يثبت في المرفوع ، وإضافة « ما » إلى الهَون تفيد التقليل ، والمعنى : أحبب حبيبك حباً مقتصداً لا إفراط فيه ، أي : لا تسرف في الحب والبغض ، فعسى أن يصير الحبيب بغيضاً ، والبغيض حبيباً ، فلا تكن مسرفاً في الحب فتندم ، ولا في البغض فتأسف .

(٣) روى الامام أحمد في « المسند » ٥/٤٤٥ عن النعمان بن مقرن قال : قال رسول الله ﷺ وسب رجل رجلاً عنده ، قال : فجعل الرجل المسبوب يقول : عليك السلام قال : قال رسول الله ﷺ : « أما إن ملكاً بينكما يذبّ عنك ، كلما شتمك هذا قال له : بل أنت وأنت أحق به ، وإذا قال له : عليك السلام ، قال : لا ، بل لك ، أنت أحق به » ، قال ابن كثير : وإسناده حسن .

قوله تعالى : (والذين يَبيتون لربِّهم) قال الزجاج : كل من أدركه الليل فقد بات ، نام أو لم ينم ؛ يقال : بات فلان قلقاً ، إنما المبيت إدراك الليل .

قوله تعالى : (كان غراماً) فيه خمسة أقوال متقارب معانيها .

أحدها : دائماً ، رواه أبو سعيد الخدري عن رسول الله ﷺ [١] . والثاني : موجِعاً ، رواه الضحاك عن ابن عباس . والثالث : مُلِحّاً ، قاله ابن السائب ؛ وقال ابن جريج : لا يفارق . والرابع : هلاكاً ، قاله أبو عبيدة : والخامس : أن الغرام في اللغة : أشدُّ العذاب ، قال الشاعر :

وَيَوْمَ النِّسار وَيَوْمَ الجِفا رِكانا عذاباً وكانا غَرَاماً [٢]

قاله الزجاج .

قوله تعالى : (ساءت مُستَقَرّاً) أي : بئس موضع الاستقرار وموضع الإقامة هي .

قوله تعالى : (والذين إذا أنفقوا لم يُسْرِفوا ولم يقتروا) وقرأ ابن كثير ، وأبو عمرو : « يَقْتِروا » مفتوحة الياء مكسورة التاء وقرأ عاصم ، وحمزة ، والكسائي : « يَقْتُروا » بفتح الياء وضم التاء . وقرأ نافع ، وابن عامر : « يُقْتِروا » بضم الياء وكسر التاء .

وفي معنى الكلام قولان .

أحدها : أن الإسراف : مجاوزة الحدِّ في النفقة ، والإقتار : التقصير عمّا لا بُدَّ

(١) ذكره السيوطي في « الدر » : ٧٧/٥ من رواية عبد بن حميد عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه .

(٢) البيت لبشر بن أبي خازم كما في « مجاز القرآن » : ٨٠/٢ ، و « الطبري » : ٣٦/١٩ ، و « البحر » : ٥١٣/٦ ، و « روح المعاني » : ٤١/١٩ ، و « اللسان » ، و « التاج » : غرم . ونسبه في « اللسان » للطرماح .

منه ، ويدل على هـذا قولُ عمر بن الخطاب : كفى بالمرء سَرَفاً أن يأكل كلَّ ما اشتهى .

والثاني : [أنَّ] الإسراف : الإنفاق في معصية الله وإن قَلَّ ، والإقتار : منع حق الله تعالى ، قاله ابن عباس ، ومجاهد ، وقتادة ، وابن جريج في آخرين .

قوله تعالى : (وكان) يعني الإنفاق (بين ذلك) أي : بين الإسراف والإقتار (قَوَاماً) أي : عَدْلاً ؛ قال ثعلب : القَوام ، بفتح القاف : الاستقامة والعَدْل ، وبكسرها : ما يدوم عليه الأمر ويستقرّ [1] .

﴿ وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللهِ إِلَهاً آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَاماً . يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَاناً . إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحاً فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللهُ غَفُوراً رَحِيماً ﴾

قوله تعالى : (والذين لا يَدْعُون مع الله إلهاً آخر) في سبب نزولها ثلاثة أقوال .

أحدها : ما رواه البخاري ومسلم من حديث ابن مسعود ، قال : سألتُ رسول الله ﷺ أيُّ الذَّنب أعظم ؟ قال : « أن تَجْعَلَ لله نِدّاً وهو خَلَقَكَ » ، قلتُ : ثم أيّ ؟ قال : « أن تَقْتُلَ وَلَدَكَ مخافة أن يَطْعَمَ معك » ، قلت :

(١) قال ابن جرير الطبري : والصواب من القول في ذلك قول من قال : الاسراف في النفقة الذي عناه الله في هذا الموضع : ما جاوز الحدَّ الذي أباحه الله لعباده الى ما فوقه ، والاقتار : ما قصر عما أمر الله به ، والقوام بين ذلك ، قال : وإنما قلنا : إن ذلك كذلك ، لأن المسرف والمقتر كذلك ، ولو كان الاسراف والاقتار في النفقة مرخصاً فيهما ، ما كانا مذمومَين ، ولا كان المسرف ولا المقتر مذموماً ، لأن ما أذن الله في فعله ، فغير مستحق فاعله الذم . اهـ .

ثم أيّ ؟ قال : « أن تُزانيَ حليلة جارك » ، فأنزل الله تعالى تصديقها « والذين لا يَدْعُون مع الله إلهاً آخر . . . » الآية [١] .

والثاني : أن ناساً من أهل الشرك قتلوا فأكثروا وزنَوا فأكثروا ، ثم أتَوا رسولَ الله ﷺ فقالوا : إن الذي تقولُ وتدعو إليه لحَسَنٌ لو تُخبرنا أن لِمَا عَمِلنا كفارة ، فنزلت هذه الآية ، إلى قوله : « غفوراً رحيماً » ، أخرجه مسلم من حديث سعيد بن جبير عن ابن عباس [٢] .

والثالث : أن وحشيّاً أتى النبيّ ﷺ فقال : يا محمد أتيتك مستجيراً فأجِرني حتى أسمع كلام الله ، فقال رسول الله ﷺ : قد كنتُ أُحِبُّ أن أراك على غير جِوار ، فأما إذا أتيتَني مستجيراً فأنت في جواري حتى تَسمع كلام الله ، قال : فإنّي أشركتُ بالله وقتلتُ النَّفْس التي حرَّم الله وزنيتُ ، فهل يقبل الله مني توبة ؟ فصمت رسول الله ﷺ حتى نزلت هذه الآية ، فتلاها عليه ، فقال : أرى شرطاً ، فلعلّي لا أعمل صالحاً ، أنا في جوارك حتى أسمع كلام الله ، فنزلت « إن الله لا يَغْفِرُ أن يُشْرَكَ به ويَغْفِرُ ما دون ذلك لمن يشاء » [النساء : ٤٨] ، فدعاه فتلاها عليه ، فقال : ولعلّي ممن لا يشاء [الله] ، أنا في جوارك حتى أسمع كلام الله ، فنزلت : « يا عباديَ الذين أسْرَفوا على أنفُسِهم لا تَقْنَطوا من رحمة الله . . . » الآية [الزُّمَر : ٥٣] ، فقال : نعم ، الآن لا أرى شرطاً ، فأسلم ، رواه عطاء عن ابن عباس [٣] ؛ وهذا وحشيّ هو قاتل حمزة ؛ وفي هذا الحديث المذكور عنه نظر ، وهو بعيد الصحّة ، والمحفوظ في إسلامه غير هذا ، وأنه قَدِم

---

(١) رواه البخاري : ٨/٣٧٨ ، ومسلم : ١/٩٠ .

(٢) رواه مسلم في « كتاب الايمان » : ١/١١٣ ، ورواه البخاري ٨/٤٢٢ مسبباً لنزول قوله تعالى : (قل ياعبادي الذين أسرفوا على أنفسهم . . .) في سورة (الزمر : ٥٣) .

(٣) هكذا ذكره الواحدي في « أسباب النزول » ١٩٣ .

مع رسل الطائف فأسلم من غير اشتراط [١]. وقوله : (يَدْعُونَ) معناه : يَعْبُدون . وقد سبق بيان قتل النفس بالحق في (الأنعام : ١٥١) .

قوله تعالى : (يَلْقَ أثاماً) وقرأ سعيد بن جبير ، وأبو المتوكل : « يُلَقَّ » برفع الياء وفتح اللام وتشديد القاف مفتوحة . قال ابن عباس : يَلْقَ جزاءً . وقال مجاهد ، وعكرمة : هو وادٍ في جهنم . وقال ابن قتيبة : يَلْقَ عقوبة ، وأنشد :

[جَزَى اللهُ ابنَ عُرْوَةَ حيثُ أمسَى عُقُوقاً] والعُقُوق لَهُ أثام [٢]

قال الزجاج : وقوله : (يَلْقَ أثاماً) جزماً على الجزاء . قال أبو عمرو الشيباني : يقال : قد لقيَ أثام ذلك ، أي : جزاء ذلك ، وسيبويه والخليل يذهبان إلى أن معناه : يلقى جزاء الأثام . قال سيبويه : وإنما جزم « يُضاعَفْ له العذابُ » لأن مضاعفة العذاب لُقِيُّ الآثام ، فلذلك جزمت ، كما قال الشاعر :

مَتَى تَأْتِنَا تُلْمِمْ بنا في ديارِنا تَجِدْ حَطَباً جَزْلاً وناراً تَأَجَّجَا [٣]

لأن الإتيان هو الإلمام ، فجزم « تُلْمِمْ » لأنه بمعنى « تأتي . وقرأ الحسن : « يُضَعَّفْ » ، وهو جيِّد بالغ ؛ تقول : ضاعفتُ الشيءَ وضَعَّفْتُه . وقرأ عاصم : « يُضَاعَفُ » بالرفع على تفسير « يَلْقَ أثاماً » كأنَّ قائلاً قال : مالُقِيُّ الأثام ؟ فقيل : يُضاعَف للآثم العذاب . وقرأ أبو المتوكل ، وقتادة ، وأبو حيوة : « يُضْعَف » برفع الياء وسكون الضاد وفتح العين خفيفة من غير ألف . وقرأ أبو حصين الأسدي ، والعمري عن أبي جعفر مثله ، إلا أن العين مكسورة ، و « العذابَ » بالنصب .

(١) انظر البخاري بشرح « الفتح » : ٧/٢٨٤ .

(٢) البيت لبلعاء بن قيس الكناني ، كما في « غريب القرآن » : ٣١٥ ، و « مجاز القرآن » : ٢/٨١ ، و « الطبري » : ١٩/٤٠ ، و « اللسان » : أثم ، ونسبه إلى شافع الليثي .

(٣) البيت غير منسوب في « القرطبي » : ١٣/٧٧ ، و « مجمع البيان » : ١٩/١٢٢ ، و « البحر » : ٦/٥١٥ ، و « روح المعاني » : ١٩/٤٤ .

قولهتعالى : (ويَخْلُدْ) وقرأ أبو حيوة ، وقتادة ، والأعمش : « ويُخْلَد » برفع الياء وسكون الخاء وفتح اللام مخففة . وقرأ عاصم الجحدري ، وابن يعمر ، وأبو المتوكل مثله ، إلا أنهم شدَّدوا اللام .

فصل

ولعلماء الناسخ والمنسوخ في هذه الآية قولان .

أحدها : أنها منسوخة ؛ وفي ناسخها ثلاثة أقوال . أحدها : أنه قوله تعالى : (ومن يَقتُلْ مؤمِناً متعمّداً فجزاؤه جهنَّمُ) [النساء: ٩٣] ، قاله ابن عباس . وكان يقول : هذه مكية ، والتي في « النساء » مدنية . والثاني : أنها نسخت بقوله : (إن الله لا يَغْفِرُ أنْ يُشْرَكَ به ويغفر ما دون ذلك . . .) الآية [النساء : ٤٨] . والثالث : أن الأولى نُسخت بالثانية ، وهي قوله : (إلا من تاب) .

والقول الثاني : أنها محكمة ؛ والخلود إنما كان لانضمام الشّرك إلى القتل والزنا . وفساد القول الأول ظاهر ، لأن القتل لا يوجب تخليداً عند الأكثرين ؛ وقد بيَّنَّاه في سورة (النساء : ٩٣) ، والشّرك لا يُغْفَر إذا مات المشرك عليه ، والاستثناء ليس بنسخ .

قولهتعالى : (إلا من تاب) قال ابن عباس : قرأنا على عهد رسول الله سنتين : « والذين لا يَدْعُون مع الله إلهاً آخر » ثم نزلت « إلا من تاب » فما رأيتُ رسولَ الله ﷺ فرح بشيء فرحه بها ، وبـ« إنّا فتحنا لكَ فتحاً مبيناً »[1] [الفتح : ١]

(١) ذكره السيوطي في « الدر » ٥/٧٩ من رواية ابن المنذر ، والطبراني ، وابن مردويه ــــ

قوله تعالى : (فأولئك يُبَدِّلُ الله سيِّئاتِهم حسنات) اختلفوا في كيفية هذا التبديل وفي زمان كونه ، فقال ابن عباس : يبدِّل الله شركهم إيماناً ، وقتلهم إمساكاً ، وزناهم إحصاناً ؛ وهذا يدل على أنه يكون في الدنيا ، وممن ذهب إلى هذا المعنى سعيد بن جبير ، ومجاهد ، وقتادة ، والضحاك ، وابن زيد . والثاني أن هذا يكون في الآخرة ، قاله سلمان رضي الله عنه ، وسعيد بن المسيِّب ، وعليّ بن الحسين . وقال عمرو بن ميمون : يبدِّل الله سيئات المؤمن إذا غفرها له حسنات ، حتى إن العبد يتمنَّى أن تكون سيئاته أكثر مما هي . وعن الحسن كالقولين . وروي عن الحسن أنه قال : وَدَّ قومٌ يوم القيامة أنهم كانوا في الدنيا استكثروا من الذُّنوب ؛ فقيل : من هم ؟ قال : هم الذين قال الله تعالى فيهم : (فأولئك يبدل الله سيآتهم حسنات) ، ويؤكِّد هذا القولَ حديثُ أبي ذرّ عن النبي ﷺ : « يؤتى بالرجل يوم القيامة ، فيقال : اعرضوا عليه صِغار ذنوبه ، فتُعْرَض عليه صِغار ذنوبه وتنحّى عنه كبارها ، فيقال : عملتَ يوم كذا ، كذا وكذا ، وهو مُقِرّ لا يُنْكِر ، وهو مُشْفِق من الكبار ، فيقال : أعطوه مكان كل سيئة عملها حسنة » ، أخرجه مسلم في « صحيحه » [1] .

—— عن ابن عباس رضي الله عنهما . وقال الحافظ الهيثمي في « مجمع الزوائد » ٨٤/٧ : رواه الطبراني من رواية علي بن زيد عن يوسف بن مهران ، وقد وثقا ، وفيها ضعف ، وبقية رجاله ثقات .

وقد جاء في صحيح البخاري ٤٤٨/٨ أن رسول الله ﷺ قال عندما نزلت سورة (الفتح) « لقد أنزلت عليّ الليلة سورة لهي أحب إليّ مما طلعت عليه الشمس ، ثم قرأ (إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً) » ورواه أحمد في « المسند » ، والترمذي ، والنسائي من طرق عن مالك رحمه الله .

(١) رواه مسلم في « صحيحه » : ١٧٧/١ ولفظه بتمامه عن أبي ذر رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إني لأعلم آخر أهل الجنة دخولاً الجنة ، وآخر أهل النار خروجاً ——

﴿ وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحاً فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللهِ مَتَاباً . وَالَّذِينَ لَايَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَاماً . وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمّاً وَعُمْيَاناً . وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَاماً ﴾

قوله تعالى : (ومن تاب) ظاهر هذه التوبة أنها عن الذنوب المذكورة . وقال ابن عباس : يعني : ممن لم يَقتُل ولم يزن ، (وعمل صالحاً) فانّي قد قدَّمتُهم وفضَّلتُهم على من قاتل نبيّي واستحلّ محارمي .

قوله تعالى : (فانه يتوب إلى الله مَتاباً) قال ابن الأنباري : معناه : من أراد التوبة وقصد حقيقتها ، فينبغي له أن يُريد اللهَ بها ولا يخلط بها مايُفسدها ؛ وهذا كما يقول الرجل : من تجر فانه يتّجر في البزّ ، ومن ناظر فانه يناظر في النحو ، أي : من أراد ذلك ، فينبغي أن يقصد هذا الفن ؛ قال : ويجوز أن يكون معنى [هذه] الآية : ومن تاب وعمل صالحاً ، فان ثوابه وجزاءه يعظُمان له عند ربّه الذي أراد بتوبته ، فلما كان قوله : « فانه يتوب إلى الله متاباً » يؤدّي عن هذا المعنى ، كفى منه ، وهذا كما يقول الرجل الرجل : إذا تكلّمتَ فاعلم

--- منها ، رجل يؤتى به يوم القيامة ، فيقال : اعرضوا عليه صغار ذنوبه ، وارفعوا عنه كبارها ، فتعرض عليه صغار ذنوبه ، فيقال : عملت يوم كذا وكذا ، كذا كذا ، وعملت يوم كذا وكذا ، كذا كذا ، فيقول : نعم ، لا يستطيع أن ينكر وهو مشفق من كبار ذنوبه أن تعرض عليه ، فيقال له : فان لك مكان كل سيئة حسنة ، فيقول : رب قد عملت أشياء لا أراها هاهنا ، فلقد رأيت رسول الله ﷺ ضحك حتى بدت نواجذه ، ورواه الطبري ٤٧/١٩ ، وذكره السيوطي في « الدر » : ٧٩/٥ ، وزاد نسبته لأحمد ، وهناد ، والترمذي ، والبيهقي في « الأسماء والصفات » ، عن أبي ذر رضي الله عنه .

أنك تكلِّم الوزير ، أي : تكلِّم من يَعرف كلامك ويجازيك ، ومثله قوله تعالى : ﴿ إن كان كَبُر عليكم مَقامي وتذكيري بآيات الله فعلى الله توكَّلْتُ ﴾ [يونس : ٧١] ، أي : فاني أتوكَّل على من ينصرني ولا يُسْلِمني . وقال قوم : معنى الآية : فانه يرجع إلى الله مرجعاً يقبله منه .

قوله تعالى : ﴿ والذين لايَشْهَدون الزُّور ﴾ فيه ثمانية أقوال .

أحدها : أنه الصَّنم ؛ روى الضحاك عن ابن عباس أن الزُّور صنم كان للمشركين . والثاني : أنه الغِناء ، قاله محمد بن الحنفية ، ومكحول ؛ وروى ليث عن مجاهد قال : لايسمعون الغناء . والثالث : الشِّرك ، قاله الضحاك ، وأبو مالك . والرابع : لعب كان لهم في الجاهلية ، قاله عكرمة . والخامس : الكذب ، قاله قتادة ، وابن جريج . والسادس : شهادة الزور ، قاله عليّ بن أبي طلحة . والسابع : أعياد المشركين ، قاله الربيع بن أنس . والثامن : مجالس الخنا ، قاله عمرو بن قيس[1] .

(١) قال ابن جرير الطبري : وأصل الزور : تحسين الشيء ووصفه بخلاف صفته حتى يخيَّل إلى من يسمعه أو يراه أنه خلاف ما هو به ، والشرك قد يدخل في ذلك ، لأنه محسَّن لأهله حتى قد ظنوا أنه حق ، وهو باطل ، ويدخل فيه الغناء ، لأنه أيضاً مما يحسِّنه ترجيع الصوت حتى يستحليَ سامعه سماعه ، والكذب أيضاً قد يدخل فيه لتحسين صاحبه إياه حتى يظن صاحبه أنه حق ، فكل ذلك مما يدخل في معنى الزور . قال : فاذا كان ذلك كذلك ، فأولى الأقوال بالصواب في تأويله أن يقال : والذين لا يشهدون شيئاً من الباطل ، لا شركاً ، ولا غناءً ، ولا كذباً ، ولا غيره ، وكل ما لزمه اسم الزور ، لأن الله عمّ في وصفه إياهم أنهم لا يشهدون الزور ، فلا ينبغي أن يخص من ذلك شيء إلا بحجة يجب التسليم لها من خبر أو عقل . اهـ .

وقد قال رسول الله ﷺ فيما رواه البخاري ومسلم في « صحيحيهما » عن أبي بكرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « ألا أنبئكم بأكبر الكبائر » ثلاثاً ، قلنا : بلى يا رسول الله ، قال : « الشرك بالله ، وعقوق الوالدين » وكان متكئاً فجلس فقال : « ألا وقول الزور ، ألا وشهادة الزور » فما زال يكررها حتى قلنا : ليته سكت .

وفي المراد باللغو هاهنا خمسة أقوال .

أحدها : المعاصي ، قاله الحسن . والثاني : أذى المشركين إياهم ، قاله مجاهد . والثالث : الباطل ، قاله قتادة والرابع : الشِّرك ، قاله الضحاك . والخامس : إذا ذكروا النكاح كنوا عنه ، قاله مجاهد . وقال محمد بن علي : إذا ذكروا الفروج كنوا عنها .

قوله تعالى : (مَرُّوا كِرَاماً) فيه ثلاثة أقوال .

أحدها : مَرُّوا حُلَمَاء ، قاله ابن السائب . والثاني : مَرُّوا مُعْرِضِين عنه ، قاله مقاتل . والثالث : أن المعنى : إذا مَرُّوا باللغو جاوزوه ، قاله الفراء [١] .

قوله تعالى : (والذين إذا ذُكِّروا) أي : وُعِظوا (بآيات ربِّهم) وهي القرآن (لم يَخِرُّوا عليها صُمّاً وعُمْيَاناً) قال ابن قتيبة : لم يتغافلوا عنها كأنهم صُمٌّ لم يسمعوها ، عميٌ لم يَرَوها . وقال غيره من أهل اللغة : لم يثبتوا على حالتهم الأولى كأنهم لم يسمعوا ولم يَرَوا ، وإن لم يكونوا خَرُّوا حقيقة ؛ تقول العرب : شتمت فلاناً فقام يبكي ، وقعد يندب ، وأقبل يعتذر ، وظلَّ يتحيَّر ، وإن لم يكن قام ولا قعد .

---

(١) قال ابن جرير الطبري : وأولى الأقوال في ذلك بالصواب عندي أن يقال : إن الله أخبر عن هؤلاء المؤمنين الذين مدحهم بأنهم إذا مروا باللغو مروا كراماً ، واللغو في كلام العرب هو كل كلام أو فعل باطل لا حقيقة له ولا أصل ، أو ما يستقبح ، فسبُّ الانسان الانسانَ بالباطل الذي لا حقيقة له ، من اللغو ، وذِكْر النكاح بصريح اسمه مما يستقبح في بعض الأماكن ، فهو من اللغو ، وكذلك تعظيم المشركين آلهتهم من الباطل الذي لا حقيقة لما عظموه على نحو ما عظموه ، وسماع الغناء مما هو مستقبح في أهل الدين ، فكل ذلك يدخل في معنى اللغو ، فلا وجه ـ إذا كان كل ذلك يلزمه اسم اللغو ـ أن يقال : عُني به بعض ذلك دون بعض ، إذ لم يكن لخصوص ذلك دلالة من خبر أو عقل . اهـ .

قوله تعالى : (هَبْ لنا مِنْ أزواجنا وذُرِّيَّاتِنَا) قرأ ابن كثير ، ونافع ، وابن عامر ، وحفص عن عاصم : « وذُرِّيَّاتِنَا » على الجمع . وقرأ أبو عمرو ، وحمزة ، والكسائي ، وأبو بكر ، [وحفص] عن عاصم : « وذُرِّيَّتِنَا » على التوحيد ، (قُرَّةَ أعْيُنٍ) وقرأ ابن مسعود ، وأبو حيوة : « قُرَّاتِ أعْيُنٍ » يعنون : من يعمل بطاعتك فتقرّ به أعيننا في الدنيا والآخرة . وسئل الحسن عن قوله : « قُرَّةَ أعين » في الدنيا ، أم في الآخرة ؟ قال : لا ، بل في الدنيا ، وأيُّ شيء أقَرُّ لعين المؤمن من أن يرى زوجته وولده يُطيعون الله ، والله ماطلب القوم إلا أن يُطاع الله فتَقَرّ أعينهم . قال الفراء : إنما قال : « قُرَّةَ » لأنها فعل ، والفعل لا يكاد يُجمع ، ألا ترى إلى قوله : (وادعُوا ثُبُوراً كثيراً) [الفرقان : ١٤] فلم يجمعه ؛ والقُرَّة مصدر ، تقول : قَرَّت عينه قُرَّة ، ولو قيل : قُرَّة عين أو قُرَّات أعين كان صواباً . وقال غيره : أصل القُرَّة من البَرْد ، لأن العرب تتأذى بالحَرّ ، وتستروح إلى البَرْد .

قوله تعالى : (واجْعَلْنا للمُتَّقِين إماماً) فيه قولان .

أحدهما : اجعلنا أئمة يُقتدى بنا ، قاله ابن عباس . وقال غيره : هذا من الواحد الذي يراد به الجمع ، كقوله : (إنَّا رسولُ ربِّ العالَمِين) [الشعراء : ١٦] ، وقوله : (فإنَّهم عَدُوٌّ لي) [الشعراء : ٧٧] .

والثاني : اجعلنا مؤتمّين بالمُتَّقِين مقتدين بهم ، قاله مجاهد ؛ فعلى هذا يكون الكلام من المقلوب ، فيكون المعنى : واجعل المُتَّقِين لنا إماماً (١) .

---

(١) قال ابن كثير : وقال غيرهم : اجعلنا هداة مهتدين دعاة إلى الخير ، فأحبّوا أن تكون عبادتهم متصلة بعبادة أولادهم وذرياتهم ، وأن يكون هداهم متعدياً إلى غيرهم بالنفع ، وذلك أكثر ثواباً وأحسن مآباً . اهـ . وقد ثبت في « صحيح مسلم » عن أبي هريرة رضي الله عنه . قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا مات ابن آدم انقطع عنه عمله إلا من ثلاثة : إلا من صدقة جارية ، أو علم ينتفع به ، أو ولد صالح يدعو له » .

﴿ أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلاَماً . خَالِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرّاً وَمُقَاماً . قُلْ مَايَعْبَؤُا بِكُمْ رَبِّي لَوْلاَ دُعَاؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَاماً ﴾

قوله تعالى : (أولئك يُجْزَوْنَ الغُرْفَةَ) قال ابن عباس : يعني الجنة . وقال غيره : الغرفة : كل بناء عالٍ مرتفع ، والمراد غرف الجنة ، وهي من الزَّبَرجد والدُّرّ والياقوت ، (بما صَبَروا) على دينهم وعلى أذى المشركين .

قوله تعالى : (ويُلَقَّوْنَ فيها) قرأ ابن كثير ، ونافع ، وأبو عمرو ، وحفص عن عاصم : « ويُلَقَّوْنَ » بضم الياء وفتح اللام وتشديد القاف . وقرأ ابن عامر ، وحمزة ، والكسائي ، وأبو بكر عن عاصم : « وَيَلْقَوْنَ » بفتح الياء وسكون اللام وتخفيف القاف ، (تحيَّةً وسلاماً) قال ابن عباس : يُحيّي بعضُهم بعضاً بالسلام ، ويرسل إليهم الرَّبُّ عز وجل بالسلام . وقال مقاتل : « تحيةً » يعني السلام ، « وسلاماً » أي : سلَّم الله لهم أمرهم وتجاوز عنهم [1] .

قوله تعالى : (قل مايَعْبَأُ بكم ربّي) فيه ثلاثة أقوال .

أحدها : مايصنع بكم ! قاله ابن عباس . والثاني : أيّ وزن يكون لكم عنده ؛ تقول : ماعبأتُ بفلان ، أي : ماكان له عندي وزن ولا قَدْر ، قاله الزجاج . والثالث : مايعبأ بعذابكم ، قاله ابن قتيبة .

وفي قوله : (لولا دُعاؤكم) أربعة أقوال .

أحدها : لولا إيمانكم ، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس .

---

(١) قال ابن كثير : أولئك يُبتدرون فيها بالتحية والاكرام ، ويلقون التوقير والاحترام ، فلهم السلام وعليهم السلام ، فان الملائكة يدخلون عليهم من كل باب : سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار .

والثاني : لولا عبادتكم ، رواه الضحاك عن ابن عباس .

والثالث : لولا دعاؤه إيّاكم لتعبُدوه ، قاله مجاهد ؛ والمراد نفع الخَلْق ، لأن الله تعالى غير محتاج .

والرابع : لولا توحيدكم ، حكاه الزجاج . وعلى قول الأكثرين ليس في الآية إضمار ؛ وقال ابن قتيبة : فيها إضمار تقديره : مايعبأ بعذابكم لولا ماتَدْعونه من الشريك والولد ، ويوضح ذلك [قوله] : (فسوف يكون لِزَاماً) يعني : العذاب ، ومثله قول الشاعر :

مَنْ شَاءَ دَلَّى النَّفْسَ في هُوَّةٍ ضَنْكٍ ولكِنْ مَنْ لَهُ بالمَضِيقْ (١)

أي : بالخروج من المضيق . وهل هذا خطاب للمؤمنين ، أو للكفار ؟ فيه قولان . فأما قوله تعالى : (فقد كذَّبْتُم) فهو خطاب لأهل مكة حين كذَّبوا رسول الله ﷺ ، (فسوف يكون) يعني : تكذيبكم (لِزَاماً) أي : عذاباً لازماً [لكم] ؛ وفيه ثلاثة أقوال .

أحدها : أنه قتلهم يوم بدر ، ، فقُتلوا يومئذ ، واتصل بهم عذاب الآخرة لازماً لهم ، وهذا مذهب ابن مسعود ، وأُبيِّ بن كعب ، ومجاهد في آخرين . والثاني : أنه الموت ، قاله ابن عباس . والثالث : أن اللِّزام : القتال ، قاله ابن زيد .

★ ★ ★

(١) « مشكل القرآن » : ٣٣٩ . و « اللسان » : دلا ، وأيضاً في « اللسان » و « التاج » : ضيق ، ورواية الشطر الأول فيها : مَنْ شَا يُدَلِّي النفسَ في هُوَّة .

سورة الشعراء

وهي مكية كلها ، إلا أربع آيات منها نزلت بالمدينة ، من قوله : (والشعراء يتَّبعهم الغاوون) [الشعراء : ٢٢٤] إلى آخرها ، قاله ابن عباس ، وقتادة .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ طسٓمٓ . تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ . لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ . إِنْ نَشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ . وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنَ الرَّحْمٰنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ . فَقَدْ كَذَّبُوا فَسَيَأْتِيهِمْ أَنْبَؤُا مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ . أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَمْ أَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ . إِنَّ فِي ذٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ . وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾

قوله تعالى : (طسٓمٓ) قرأ ابن كثير ، ونافع ، وأبو عمرو ، وابن عامر : « طسٓمٓ » بفتح الطاء وإدغام النون من هجاء « سين » عند الميم . وقرأ حمزة ، والكسائي ، وخلف ، وأبان ، والمفضل : « طِسٓمٓ » و « طِسٓ » [النمل] بإمالة الطاء فيهما . وأظهر النون من هجاء « سين » عند الميم حمزة هاهنا وفي (القصص) .

وفي معنى «طسۤمۤ» أربعة أقوال .

أحدها : أنها حروف من كلمات ، ثم فيها ثلاثة أقوال . أحدها : [ما] رواه عليّ بن أبي طالب عليه السلام قال : لما نزلت «طسۤمۤ» قال رسول الله ﷺ : « الطاء : طور سيناء ، والسين : الاسكندرية ، والميم : مكة » [١] . والثاني : [أن] الطاء : طَيْبَة ، وسين : بيت المقدس ، وميم : مكة ، [رواه الضحاك عن ابن عباس] . والثالث : الطاء : شجرة طوبى ، والسين : سدرة المنتهى ، والميم : محمد ﷺ ، قاله جعفر الصادق .

والثاني : أنه قسم أقسم الله به ، وهو من أسماء الله تعالى ، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس . وقد بيّنّا كيف يكون مثل هذا من أسماء الله تعالى في فاتحة مريم . وقال القرظي : أقسم الله بطَوْلِه وسَنائه ومُلْكه .

والثالث : أنه اسم للسُّورة ، قاله مجاهد .

والرابع : أنه اسم من أسماء القرآن ، قاله قتادة ، وأبو روق [٢] . وما بعد

---

(١) لم يذكر المفسرون أن معنى هـــذه الحروف ورد في المرفوع ، إلا ما ذكر الطبرسي من علماء الامامية الشيعة في تفسيره « مجمع البيان » حيث قال : وروي عن ابن الحنفية عن علي عليه السلام عن النبي ﷺ ... فذكره من غير سند ، فلعل المصنف نقل هذا المعنى عنه أو ممن نقل عنه . وقد نقل القرطبي هذا المعنى من كلام عبد الله بن محمد بن عقيل ، ولم يذكره مرفوعاً ، وذكر السيوطي في « الدر » ٥/٨٢ عن محمد بن كعب القرظي في قوله تعالى : (طسم) قال : الطاء من ذي الطول ، والسين من القدوس ، والميم من الرحمن ، وكذلك ذكر الآلوسي في « تفسيره » : ١٩/٥٢ .

(٢) قال ابن كثير عن الحروف التي في أوائل السور : وقال آخرون : بل إنما ذكرت هذه الحروف في أوائل السور التي ذكرت فيها بيانـــاً لاعجاز القرآن ، وأن الخلق عاجزون عن معارضته بمثله ، هذا مع أنه مركب من هذه الحروف المقطعة التي يتخاطبون بها ، قال : وقد حكى هذا المذهب الرازي في « تفسيره » عن المبرد وجمع من المحققين ، قال : وحكى القرطبي عن ——

هذا قد سبق تفسيره [المائدة : ١٥ ، الكهف : ٦] إلى قوله : (ألّا يكونوا مؤمنين) والمعنى : لعلّك قاتل نفسك لتركهم الإيمان .

ثم أخبر أنه لو أراد أن يُنزل عليهم مايضطرهم إلى الإيمان لفعل ، فقال : (إن نَشَأْ نُنَزِّلْ) وقرأ أبو رزين ، وأبو المتوكل : « إن يَشَأْ يُنَزِّلْ » بالياء فيهما ، (عليهم من السماء آية فظلّت أعناقُهم لها خاضعِين) جعل الفعل أولاً للأعناق ، ثم جعل « خاضعين » الرجال ، لأن الأعناق إذا خضعت فأربابها خاضعون . وقيل : لمّا وصف الأعناق بالخضوع ، وهو من صفات بني آدم ، أخرج الفعل مخرج الآدميّين كما بيَّنّا في قوله : (والشمسَ والقمرَ رأيتُهم لي ساجدِين) [يوسف : ٤] ، وهذا اختيار أبي عبيدة . وقال الزجاج : قوله : « فظلّت » معناه : فتَظَلُّ ، لأن الجزاء يقع فيه لفظ الماضي في معنى المستقبل ، كقولك : إن تأتني أكرمتُكَ ، معناه : أُكْرِمْكَ ؛ وإنما قال : « خاضعِين » لأن خضوع الأعناق هو خضوع أصحابها ، وذلك أن الخضوع لمّا لم يكن إلا بخضوع الأعناق ، جاز أن يخبر عن المضاف إليه ، كما قال الشاعر :

رَأَتْ مَرَّ السّنِينَ أَخَذْنَ مِنّي كَمَا أَخَذَ السِّرَارُ مِنَ الهِلالِ [1]

فلما كانت السّنون لاتكون إلا بمَرٍّ ، أخبر عن السنين ، وإن كان أضاف إليها المرور . قال : وجاء في التفسير أنه يعني بالأعناق كبراءهم ورؤساءهم . وجاء في

ـــ الفراء وقطرب نحو هذا ، وقرره الزمخشري في « كشافه » ونصره أتم نصر ، قال : وإليه ذهب الشيخ الامام العلامة أبو العباس ابن تيمية وشيخنا الحافظ المجتهد أبو الحجاج المزي وحكاه لي عن ابن تيمية . اهـ .

(١) البيت لجرير ، ديوانه : ٤٢٦ ، و « مجاز القرآن » : ٨٣/٢ و « الطبري » : ٦٢/١٩ ، و « اللسان » : خضع ، و « السّرار » : الليلة يخفى فيها الهلال آخر الشهر .

اللغة أن أعناقهم جماعاتهم ؛ يقال : جاءني عُنُق من الناس ، أي : جماعة . وما بعد هذا قد سبق تفسيره [الأنبياء : ٢] إلى قوله : (أَوَلَمْ يَرَوا إلى الأرض) يعني المكذّبين بالبعث (كَمْ أَنبَتْنَا فيها) بعد أن لم يكن فيها نبات (من كُلِّ زوج كريم) قال ابن قتيبة : من كل جنس حسن . وقال الزجاج : الزوج : النوع ، والكريم : المحمود .

قوله تعالى : (إنَّ في ذلك) الإنبات (لآيةً) تدل على وحدانية الله وقدرته (وما كان أكثرُهم مؤمنين) أي : ما كان أكثرهم يؤمن في علم الله ، (وإنَّ ربَّك لَهوَ العزيز) المنتقم من أعدائه (الرَّحيمُ) بأوليائه .

﴿ وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰ أَنِ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ . قَوْمَ فِرْعَوْنَ أَلَا يَتَّقُونَ . قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ . وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنْطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَارُونَ . وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنْبٌ فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ . قَالَ كَلَّا فَاذْهَبَا بِآيَاتِنَا إِنَّا مَعَكُمْ مُسْتَمِعُونَ . فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ . أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ . قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ . وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ . قَالَ فَعَلْتُهَا إِذًا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ . فَفَرَرْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ . وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدْتَ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾

قوله تعالى : (وإذ نادى) المعنى : واتل هذه القصة على قومك .

قوله تعالى : (أن يُكَذِّبونِ) ياء « يُكَذِّبونِ » محذوفة ، ومثلها « أن يقتلون » [الشعراء : ١٤] « سيهدين » [الشعراء : ٦٢] « فهو يهدين » [الشعراء : ٧٨]

« ويسقين » [الشعراء : ٧٩] « فهو يشفين » [الشعراء : ٨٠] « ثم يحيين » [الشعراء : ٨١] « كذّبون » [الشعراء : ١١٧] « وأطيعون » [الشعراء : ١٠٨] فهذه ثمان آيات أثبتهن في الحالين يعقوب [1] .

قوله تعالى : (ويَضيقُ صَدْري) أي بتكذيبهم إيّاي (ولا يَنْطَلِقُ لساني) للعُقدة التي كانت بلسانه . وقرأ يعقوب : « ويَضيقَ » « ولا يَنطلقَ » بنصب القاف فيهما ، (فأَرسِلْ إلى هارونَ) المعنى : ليُعينني ، فحُذف ، لأن في الكلام دليلاً عليه . (ولهم عليّ ذَنْب) وهو القتيل الذي وكزه فقضى عليه ؛ والمعنى : ولهم عليّ دعوى ذَنْب (فأخافُ أن يقتُلون) به (قال كَلّا) وهو ردع وزجر عن الإقامة على هذا الظن ؛ والمعنى : لن يقتلوك لأنّي لاأسلّطهم عليك ، (فاذهبا) يعني : أنت وأخوك (بآياتنا) وهي : ماأعطاهما من المعجزة (إنّا) يعني نفسه عز وجل (معكم) فأجراهما مجرى الجماعة (مستمِعونَ) نسمع ماتقولان وما يجيبونكما به .

قوله تعالى : (إنّا رسولُ ربّ العالَمين) قال ابن قتيبة : الرسول يكون بمعنى الجميع ، كقوله : (هؤلاء ضَيفي) [الحجر : ٦٨] وقوله : (ثُمّ نُخرِجُكم طِفْلاً) [الحج : ٥] . وقال الزجاج : المعنى : إنّا رِسالةُ ربّ العالَمين ، أي : ذوو رسالة ربّ العالمين ، قال الشاعر :

لقَدْ كَذَبَ الوَاشُونَ مابُحْتُ عِنْدَهُمْ
بِسرٍّ وَلا أَرْسَلْتُهُمْ بِرَسُولِ [2]

أي : برسالة .

---

(١) عبارة ابن الجزري في كتاب « النشر في القراءات العشر » : ٣٢٣/٢ « أثبت الياء في جميعها يعقوب في الحالين » .

(٢) البيت لكثير عزة ، وهو في « مجاز القرآن » : ٨٤/٢ ، و « غريب القرآن » : ٣١٦ ، و « الطبري » : ٦٥/١٩ ، و « القرطبي » : ٩٣/١٣ ، و « اللسان » و « التاج » : رسل .

قوله تعالى : (أنْ أرسِلْ) المعنى : بأن أرسل (معنا بني إسرائيل) أي : أطْلِقهم من الاستعباد ، فأتَياه فبلَّغاه الرسالة ، فـ (قال ألم نُرَبِّكَ فينا وليداً) أي : صبيّاً صغيراً (ولَبِثْتَ فينا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ) وفيها ثلاثة أقوال .

أحدها : ثماني عشرة سنة ، قاله ابن عباس . والثاني : أربعون سنة ، قاله ابن السائب . والثالث : ثلاثون سنة ، قاله مقاتل ، والمعنى : فجازيْتَنا على أن ربَّيناك أن كفرت نعمتنا ، وقتلت منّا نفساً ، وهو قوله : (وفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ) وهي قتل النفس . قال الفراء : وإنما نُصِبَت الفاء ، لأنها مرة واحدة ، ولو أُريد بها مثل الجِلسة والمِشية جاز كسرها .

وفي قوله : (وأنت من الكافرين) قولان .

أحدهما : من الكافرين لنعمتي ، قاله ابن عباس ، وسعيد بن جبير ، وعطاء ، والضحاك ، وابن زيد .

والثاني : من الكافرين بإلهك ، كنتَ معنا على ديننا الذي تعيب ، قاله الحسن ، والسدي . فعلى الأول : وأنت من الكافرين الآن . وعلى الثاني : وكنت .

وفي قوله : (وأنا من الضالّين) ثلاثة أقوال .

أحدها : من الجاهلين ، قاله ابن عباس ، ومجاهد ، وسعيد بن جبير ، وقتادة . وقال بعض المفسرين : المعنى : إني كنت جاهلاً لم يأتني من الله شيء .

والثاني : من الخاطئين ؛ والمعنى : إني قتلت النفس خطأً ، قاله ابن زيد .

والثالث : من الناسين ؛ ومثله : (أن تَضِلَّ إحداهما) [البقرة : ٢٨٢] ، قاله أبو عبيدة .

قوله تعالى : (ففرَرتُ منكم) أي : ذهبت من بينكم (لمَّا خِفتُكم) على

نفسي إلى مَدْيَنِ ، وقرأ عاصم الجحدري ، والضحاك ، وابن يعمر : (لِمَا) بكسر اللام وتخفيف الميم ، (فوهَبَ لي ربِّي حُكْماً) وفيه قولان .

أحدهما : النبوّة ، قاله ابن السائب . والثاني : العِلْم والفَهم ، قاله مقاتل .

قوله تعالى : (وتلك نِعمة تَمُنُّها عليَّ) يعني التربية (أَنْ عَبَّدْتَ بني إسرائيل) أي : اتخذْتَهم عبيداً ؛ يقال : عبَّدتُ فلاناً وأعبدتُه واستعبدتُه : إذا اتخذتَه عبداً [1] .

وفي « أَنْ » وجهان .

أحدهما : أن تكون في موضع رفع على البدل من « نِعْمةٌ » .

والثاني : أن تكون في موضع نصب بنزع الخافض ، تقديره : لِأَنْ عبَّدتَ ، أو لتعبيدك .

واختلف العلماء في تفسير الآية ، ففسرها قوم على الإنكار ، وقوم على الإقرار . فمن فسرها على الإنكار قال معنى الكلام : أو تلك نعمة ؟! على طريق الاستفهام ، ومثله (هذا ربِّي) [الأنعام:٧٦] ، وقوله : (فهم الخالدون) [الأنبياء:٣٤] ، وأنشدوا :

[لم أنس يوم الرحيل وقفتَها وجفنُها من دموعها شَرِقُ] [2]

وقولَها والركابُ سائرة تتركنا هكذا وتنطلق

---

(١) قال ابن كثير في قوله : (وتلك نعمة تمنّها عليَّ أن عبَّدت بني إسرائيل) أي : وما أحسنت إليَّ وربيتني مقابل ما أسأت إلى بني إسرائيل فجعلتهم عبيداً وخدماً تصرفهم في أعمالك ومشاقِّ رعيتك ، أفيَفي إحسانك إلى رجل واحد منهم بما أسأت إلى مجموعهم ؟! أي : ليس ما ذكرته شيئاً بالنسبة إلى مافعلت بهم . اهـ .

(٢) الشطر الأول من هذا البيت زيادة من النسخة الاستنبولية ، وأثبتنا البيت بتمامه من القرطبي .

وهذا قول جماعة منهم . ثم لهم في معنى الكلام ووجهه أربعة أقوال .

أحدها : أن فرعون أخذ أموال بني إسرائيل واستعبدهم وأنفق على موسى منها ، فأبطل موسى النِّعمة لأنها أموال بني إسرائيل ، قاله الحسن .

والثاني : أن المعنى : إنك لو كنتَ لا تقتُل أبناء بني إسرائيل لكفلني أهلي ، وكانت أُمِّي تستغني عن قذفي في اليمّ ، فكأنك تمنّ عليّ بما كان بلاؤك سبباً له ، وهذا قول المبرِّد ، والزجّاج ، والأزهري .

والثالث : أن المعنى : تمنّ عليّ باحسانك إليّ خاصة ، وتنسى إساءتك بتعبيدك بني إسرائيل ؟ ! قاله مقاتل .

والرابع : أن المعنى : كيف تمنّ عليّ بالتربية وقد استعبدت قومي ؟ ! ومن أُهين قومُه فقد ذلّ ، فقد حَبِط إحسانك إليّ بتعبيدك قومي ، حكاه الثعلبي .

فأما من فسرها على الإقرار ، فانه قال : عدَّها موسى نعمة حيثُ ربَّاه ولم يقتله ولا استعبده . فالمعنى : هي لعمري نعمة إذ ربَّيتني ولم تستعبدني كاستعبادك بني إسرائيل ؛ فـ « أنْ » تدل على المحذوف ، ومثله في الكلام ـ أن تضرب بعض عبيدك وتترك الآخر ، فيقول المتروك ـ : هذه نعمة عليّ أن ضربتَ فلاناً وتركتني ، ثم تحذف « وتركتني » لأن المعنى معروف ، هذا قول الفراء .

﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ . قَالَ رَبُّ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ . قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْتَمِعُونَ . قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ . قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ . قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ ﴾

قوله تعالى : (قال فرعونُ وما ربُّ العالَمين) سأله عن ماهيَّةِ مَنْ لاماهيَّة له ، فأجابه بما يدلُّ عليه من مصنوعاته [١] .

وفي قوله : (إنْ كنتم موقِنين) قولان .

أحدهما : أنـّه خـَلَقَ السموات والأرض .

والثاني : إن كنتم موقنين أنّ ماتعاينونه كما تعاينونه ، فكذلك [٢] ، فأيقنوا أن [٣] ربَّ العـالمين ربُّ السموات والأرض . (قال) يعني : فرعون (لِمَنْ حوله) من أشراف قومه (ألا تَستمعونَ) معجّباً لهم .

فان قيل : فأين جوابهم ؟

فالجواب : أنه أراد : ألا تستمعون قول موسى ؟ فردَّ موسى ، لأنه المراد

---

(١) قال ابن كثير : يقول تعالى مخبراً عن كفر فرعون وتمرّده وطغيـانه وجحوده في قوله : (وما ربّ العـالمين) وذلك أنه كان يقول لقومه : (ماعلمت لكم من إله غيري) (فاستخف قومَه فأطاعوه) وكانوا يجحدون الصانع جل وعلا ، ويعتقدون أنه لا رب لهم سوى فرعون ، فلما قال له موسى : (إني رسول من رب العالمين) قال له فرعون : ومن هذا الذي تزعم أنه رب العالمين غيري ؟ قال ابن كثير : هكذا فسره علماء السلف وأئمة الخلف حتى قال السدي : هذه الآية كقوله تعالى : (قال فمن ربكما ياموسى قال ربنا الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى) قال : ومن زعم من أهل المنطق وغيرهم أن هذا سؤال عن الماهية ، فقد غلط ، فانه لم يكن مقراً بالصانع حتى يسأل عن الماهية ، بل كان جاحداً له بالكلية فيما يظهر وإن كانت الحجج والبراهين قد قامت عليه ، فعند ذلك قال موسى لما سأله عن رب العـالمين : (قال رب السموات والأرض وما بينهما) أي : خالق جميع ذلك ومالكه والمتصرف فيه وإلهه لاشريك له ، هو الذي خلق الأشياء كلّها ، العالَمَ العلوي وما فيه من الكواكب الثوابت والسيارات النيِّرات ، والعالَمَ السفلي وما فيه من بحار وقفار وجبال وأشجار وحيوانات ونبات وثمار ، وما بين ذلك من الهواء والطير ، وما يحتوي عليه الجو ، الجميع عبيد له خاضعون ذليلون (إن كنتم موقنين) أي : إن كانت لكم قلوب موقنة ، وأبصار نافذة . اهـ .

(٢) في نسخة الرباط : « أن ماتعاينوه كما يعاينوه فكذلك » وفي النسخة الاستنبولية : « أن ماتعاينونه فكذلك » والتصحيح من الطبري .

(٣) في الأصل : أنه .

بالجواب ، ثم زاد في البيان بقوله : (ربُّكم وربُّ آبائكم الأوَّلين) ، فأعرض فرعون عن جوابه ونسبه إلى الجنون ، فلم يَحْفِل موسى بقول فرعون ، واشتغل بتأكيد الحُجَّة ، فـ(قال ربُّ المَشْرِقِ والمَغْرِبِ وما بينهما إن كنتم تَعْقِلُونَ) أي : إن كنتم ذوي عقول ، لم يَخْفَ عليكم ما أقول .

﴿ قَالَ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَٰهاً غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ . قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُبِينٍ . قَالَ فَأْتِ بِهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ . فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ . وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ . قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُ إِنَّ هَٰذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ . يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ . قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَابْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ . يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ . فَجُمِعَ السَّحَرَةُ لِمِيقَاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ . وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنْتُمْ مُجْتَمِعُونَ . لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ السَّحَرَةَ إِنْ كَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ . فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالُوا لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْراً إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ . قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذاً لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ . قَالَ لَهُمْ مُوسَىٰ أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ . فَأَلْقَوْا حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ . فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ . فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ . قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ . رَبِّ مُوسَىٰ وَهَارُونَ ﴾

قوله تعالى : (أَوَلَوْ جِئْتُكَ بشيءٍ مُبِينٍ) أي : بأمر ظاهر تعرف به صدقي أتسجنني ؟ ! وما بعد هذا مفسر في (الأعراف : ١٠٧) إلى قوله : (فجُمِعَ

السحرةُ لميقات يوم معلوم) وهو يوم الزينة ، وكان عيداً لهم ، (وقيل للناس) يعني أهل مصر . وذهب ابن زيد إلى أن اجتماعهم كان بالاسكندرية .

قوله تعالى : (لعلَّنا نتَّبع السَّحَرة) قال الأكثرون : أرادوا سَحَرة فرعون ؛ فالمعنى : لعلَّنا نتَّبعهم على أمرهم . وقال : بعضهم : أرادوا موسى وهارون ، وإنما قالوا ذلك استهزاءً . قال ابن جرير : و « لعل » هاهنا بمعنى « كي » . وقوله [١] : (بعزَّة فرعون) أي : بعظمته [٢] .

﴿ قَالَ آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ . قَالُوا لَا ضَيْرَ إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ . إِنَّا نَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَانَا أَنْ كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾

قوله تعالى : (فلسوف تعلَمون) قال الزجاج : اللام دخلت للتوكيد .

قوله تعالى : (لا ضَيْرَ) أي : لا ضرر . قال ابن قتيبة : هو من ضارَه يَضُوره ويَضيره ؛ بمعنى : ضَرَّه . والمعنى : لا ضرر علينا فيما ينالنا في الدنيا ، لأنَّا ننقلب إلى ربِّنا في الآخرة مؤمِّلين غفرانه .

قوله تعالى : (أنْ كُنَّا) أي : لِأن كنا (أوَّلَ المؤمِنين) بآيات موسى في هذه الحال .

﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي إِنَّكُمْ مُتَّبَعُونَ . فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ . إِنَّ هَؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ . وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ . وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَاذِرُونَ . فَأَخْرَجْنَاهُمْ

---

(١) في الأصل : كقوله . (٢) أقسموا بعزَّة فرعون ، وهي من أيمان الجاهلية .

مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ . وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ . كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾

قوله تعالى : (إِنَّكُم مُتَّبَعُونَ) أي : يَتبعكم فرعون وقومه .

قوله تعالى : (إِنَّ هؤلاء) المعنى : وقال فرعون إن هؤلاء ، يعني بني إسرائيل (لَشِرْذِمَةٌ) قال ابن قتيبة : أي : طائفة . قال الزجاج : والشرذمة في كلام العرب : القليل . قال المفسرون : وكانوا ستمائة ألف ، وإنما استقلَّهم بالإضافة إلى جنده ، وكان جنده لا يُحصى .

قوله تعالى : (وإنَّهم لَنَا لَغَائِظُون) تقول : غاظني الشيء ، إذا أغضبك . قال ابن جرير : وذُكر أن غيظهم كان لقتل الملائكة من قتلَتْ من أبكارهم . قال : ويحتمل أن غيظهم لذهابهم بالعواري التي استعاروها من حُليِّهم ، ويحتمل أن يكون لفراقهم إياهم وخروجهم من أرضهم على كُره منهم .

قوله تعالى : (وإنَّا لَجَمِيعٌ حَذِرون) قرأ ابن كثير ، ونافع ، وأبو عمرو : « حَذِرون » بغير ألف . وقرأ الباقون : « حاذِرون » بألف . وهل بينهما فرق؟ فيه قولان .

أحدها : أن الحاذر : المستعدُّ ، والحذر : المتيقِّظ . وجاء في التفسير أن معنى حاذرين : مُؤْدُون ، أي : ذوو أداة ، وهي السلاح ، لأنها أداة الحرب .

والثاني : أنهما لغتان معناهما واحد ؛ قال أبو عبيدة : يقال : رجل حَذِرٌ وحَذُرٌ وحاذرٌ . والمَقام الكريم : المنزل الحسن .

وفي قوله : (كذلك) قولان .

أحدها : كذلك أفعل بمن عصاني ، قاله ابن السائب . والثاني : الأمر كذلك ، أي : كما وصفنا ، قاله الزجاج .

قوله تعالى : (وأورثناها بني إسرائيل) وذلك أن الله تعالى ردَّهم إلى مصر بعد غرق فرعون ، وأعطاهم ما كان لفرعون وقومه من المساكن والأموال .
وقال ابن جرير الطبري : إنما جعل ديار آل فرعون مُلْكاً لبني إسرائيل ولم يَرُدُّهم إليها لكنه جعل مساكنهم الشام .

﴿ فَأَتْبَعُوهُمْ مُشْرِقِينَ . فَلَمَّا تَرَاءَ الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَىٰ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ . قَالَ كَلاَّ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ . فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَىٰ أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ . وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الآخَرِينَ . وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَعَهُ أَجْمَعِينَ . ثُمَّ أَغْرَقْنَا الآخَرِينَ . إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ . وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾

قوله تعالى : (فَأَتْبَعُوهم) قال ابن قتيبة : لحقوهم (مُشْرِقِين) أي : حين شَرَقت الشمس ، أي : طلعت ، يقال : أشْرَقنا : دخلنا في الشُّروق ، كما يقال : أمسينا وأصبحنا . وقرأ الحسن ، وأيوب السَّخْتِياني : « فاتَّبعوهم » بالتشديد .

قوله تعالى : (فلما تَرَاءَى الجمعان) وقرأ أبو رجاء ، والنخعي ، والأعمش : « تَرِاأَى » بكسر الراء وفتح الهمزة ، أي : تقابلا بحيث يرى كل فريق صاحبه .
قوله تعالى : (كَلاَّ) أي : لن يُدركونا (إنَّ مَعِيَ ربِّي سَيَهدِين) أي : سيدلُّني على طريق النجاة .

قوله تعالى : (فانْفَلَقَ) فيه إضمار « فضرب فانفلق » ، أي : انشقَّ الماء اثني عشر طريقاً (فكانَ كُلُّ فِرْقٍ) أي : كل جزء انفرق منه . وقرأ أبو المتوكل ، وأبو الجوزاء ، وعاصم الجحدري : « كُلُّ فِلْقٍ » باللام ، (كالطود) وهو الجبل .

قوله تعالى : (وأَزْلَفْنَا ثَمَّ الآخَرِين) أي : قرَّبْنا الآخَرين من الغرق ، وهم أصحاب فرعون . وقال أبو عبيدة : « أزلفنا » أي : جمعنا . قال الزجاج : وكلا القولين حسن ، لأنَّ جمعهم تقريب بعضهم من بعض ، وأصل الزُّلفى في كلام العرب : القُرْبَى . وقرأ ابن مسعود ، وأُبيُّ بن كعب ، وأبو رجاء ، والضحاك ، وابن يعمر : « أزْلَقْنَا » بقاف ، وكذلك قرأوا : « وأُزْلِقَتِ الجَنَّةُ » [الشعراء : ٩٠] بقاف [أيضاً] .

قوله تعالى : (إنَّ في ذلك لَآيةً) يعني : في إهلاك فرعون وقومه عبرة لمن بعدهم (وما كان أكثرُهم مؤمِنين) أي : لم يكن أكثر أهل مصر مؤمنين ، إنما آمنت آسية ، وخربيل [1] مؤمن آل فرعون ، وفتّة الماشطة ، ومريم ـ امرأة دلّت موسى على عظام يوسف ـ ، هذا قول مقاتل . وما أخللنا به من تفسير كلمات في قصة موسى ، فقد سبق بيانها ، وكذلك ما يُفقد ذِكْره في مكان ، فهو إما أن يكون قد سبق ، وإما أن يكون ظاهراً ، فتنبَّه لهذا .

﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إبْرٰهِيمَ . إذْ قَالَ لأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَاتَعْبُدُونَ . قَالُوا نَعْبُدُ أصْنَاماً فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ . قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إذْ تَدْعُونَ . أوْ يَنفَعُونَكُمْ أوْ يَضُرُّونَ . قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذٰلِكَ يَفْعَلُونَ . قَالَ أفَرَأيْتُمْ مَاكُنْتُمْ تَعْبُدُونَ . أنْتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الأَقْدَمُونَ . فَإنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ . الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ . وَالَّذِي يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ . وَإذَا

---

(١) قال الآلوسي في « روح المعاني » ٢٤/٥٧ : واسمه : قيل : شمعان ، بشين معجمة ، وقيل : خِربيل ، بخاء معجمة مكسورة وراء مهملة ساكنة ، وقيل : حزبيل ، بحاء مهملة وزاي معجمة ، وقيل : حبيب .

مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ . وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ . وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ ﴾

قوله تعالى : (هل يَسْمَعُونكم) والمعنى : هل يَسمعون دعاءكم . وقرأ سعيد بن جبير ، وابن يعمر ، وعاصم الجحدري : « هل يُسْمِعونكم » بضم الياء وكسر الميم ، (إذ تَدْعُون) قال الزجاج : إن شئت بيَّنت الذال ، وإن شئت أدغمتها في التاء وهو أجود في العربية ، لقرب الذال من التاء .

قوله تعالى : (أو يَنفعونكم) أي : إن عبدتموهم (أو يَضُرُّونَ) إن لم تعبدوهم ؟ فأخبروا عن تقليد آبائهم .

قوله تعالى : (فإنَّهم عَدُوٌّ لي) فيه وجهان .

أحدهما : أن لفظه لفظ الواحد والمراد به الجميع ؛ فالمعنى : فإنهم أعداء لي .

والثاني : فإن كلَّ معبود لكم عدوٌّ لي .

فإن قيل : ما وجه وصف الجماد بالعداوة ؟

فالجواب : من وجهين . أحدهما : أن معناه : فإنهم عدوٌّ لي يوم القيامة إن عبدتُهم . والثاني : أنه من المقلوب ؛ والمعنى : فإنِّي عدوٌّ لهم ، لأن مَنْ عاديتَه عاداكَ ، قاله ابن قتيبة [١] .

وفي قوله : (إلَّا رَبَّ العالَمِين) قولان .

أحدهما : أنه استثناء من الجنس ، لأنه عَلِم أنهم كانوا يعبُدون الله مع آلهتهم ، قاله ابن زيد .

والثاني : أنه من غير الجنس ؛ والمعنى : لكن ربَّ العالمين [ليس كذلك] [٢] ، قاله أكثر النحويين .

---

(١) قال ابن كثير : أي : إن كانت هذه الأصنام شيئاً ، ولها تأثير ، فلتخلص إليَّ بالمساءة ، فإني عدوٌّ لها لا أبالي بها ولا أفكِّر فيها . اهـ . (٢) زيادة من « روح المعاني » .

قوله تعالى : (الذي خلقني فهو يَهْدِين) أي : إلى الرّشد ، لا ماتعبُدون ، (والذي هو يُطْعِمُني وَيَسْقِين) أي : هو رازق الطعام والشراب (١) .

فان قيل : لم قال : « مرضتُ » ، ولم يقل : « أمرضَني » ؟

فالجواب : أنه أراد الثناء على ربّه فأضاف إليه الخير المحض ، لأنه لو قال : « أمرضَني » لعدّ قومُه ذلك عيباً ، فاستعمل حُسن الأدب ؛ ونظيره قصة الخضر حين قال في العيب : « فأردتُ » [الكهف:٧٩] ، وفي الخير المحض : « فأراد ربُّكَ » [الكهف : ٨٢] .

فان قيل : فهذا يردّه قوله : (والذي يُميتني) .

فالجواب : أن القوم كانوا لايُنكرون الموت ، وإنما يجعلون له سبباً سوى تقدير الله عز وجل ، فأضافه إبراهيم إلى الله عز وجل ، وقوله : (ثم يُحيين) يعني للبعث ، [وهو] (٢) أمرٌ لايُقِرُّون به ، وإنما قاله استدلالاً عليهم ؛ والمعنى : أن ماوافقتموني عليه موجب لصحّة قولي فيما خالفتموني فيه .

قوله تعالى : (والذي أَطْمَعُ أن يَغْفِر لي خطيئتي) يعني : ماجرى على مِثْلِي من الزَّلل ؛ والمفسرون يقولون : إنما عنى الكلمات الثلاث التي ذكرناها في (الأنبياء : ٦٣) ، (يومَ الدِّين) يعني : يوم الحشر والحساب ؛ وهذا احتجاج على قومه أنه لاتصلحُ الإلهية إلا لِمَنْ فعلَ هذه الأفعال .

﴿ رَبِّ هَبْ لِي حُكْماً وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ . وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الآخِرِينَ . وَاجْعَلْنِي مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ . وَاغْفِرْ

(١) قال ابن كثير : أي : هو خالقي ورازقي بما سخّر ويسّر من الأسباب السماوية والأرضية ، فساق المزن ، وأنزل الماء وأحيا به الأرض وأخرج به من كل الثمرات رزقاً للعباد ، وأنزل الماء عذباً زلالاً يسقيه مما خلق أنعاماً وأناسيّ كثيراً . اهـ .

(٢) زيادة ليست في الأصل .

لأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ . وَلا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ . يَوْمَ لاَيَنْفَعُ مَالٌ وَلا بَنُونَ . إِلَّا مَنْ أَتَى اللهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾

قوله تعالى : (هَبْ لِي حُكْماً) فيه ثلاثة أقوال .

أحدها : النبوَّة ، قاله أبو صالح عن ابن عباس . والثاني : اللبّ [1] ، قاله عكرمة . والثالث : الفَهْم والعِلْم ، قاله مقاتل . وقد بيَّنَّا قوله : (وألحِقْني بالصَّالِحِين) في سورة (يوسف : ١٠١) ، وبيَّنَّا معنى (لِسَانَ صِدْقٍ) في (مريم : ٥٠) والمراد بالآخِرِين : الذين يأتون بعده إلى يوم القيامة .

قوله تعالى : (واغفر لأبي) قال الحسن : بلغني أن أُمَّه كانت مسلمة على دينه ، فلذلك لم يذكُرها .

فان قيل : فقد قال : « اغفر لي ولوالديَّ » [ابراهيم : ٤١] .

قيل : أكثر الذِكْر إنما جرى لأبيه ، فيجوز أن يسأل الغفران لأمّه وهي مؤمنة ، فأما أبوه فلا شك في كفره . وقد بيَّنَّا سبب استغفاره لأبيه في (براءة : ١١٣) ، وذكرنا معنى الخزي في (آل عمران : ١٩٢) .

قوله تعالى : (يَوْمَ يُبْعَثُون) يعني : الخلائق .

قوله تعالى : (إلا مَنْ أتى اللهَ بقلب سليم) فيه ستة أقوال .

أحدها : سليم من الشِّرك ، قاله الحسن ، وابن زيد .

والثاني : سليم من الشَّكّ ، قاله مجاهد .

والثالث : سليم ، أي : صحيح ، وهو قلب المؤمن ، لأن قلب الكافر والمنافق مريض ، قاله سعيد بن المسيب .

---

(١) أي : العقل .

والرابع : أن السَّليم في اللغة : اللديغ ، فالمعنى : كاللديغ من خوف الله تعالى ، قاله الجنيد .

والخامس : سليم من آفات المال والبنين ، قاله الحسين بن الفضل .

والسادس : سليم من البدعة ، مُطْمئنّ على السُّنَّة ، حكاه الثعلبي .

﴿ وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ . وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ . وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَمَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ . مِنْ دُونِ اللهِ هَلْ يَنْصُرُونَكُمْ أَوْ يَنْتَصِرُونَ . فَكُبْكِبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ . وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ . قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ . تَاللهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ . إِذْ نُسَوِّيكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ . وَمَا أَضَلَّنَا إِلَّا الْمُجْرِمُونَ . فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ . وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ . فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ . إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ . وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾

قوله تعالى : (وأُزْلِفَت الجَنَّة للمُتَّقِينَ) أي : قُرِّبَتْ إليهم حتى نظروا إليها ،(وبُرِّزَت الجَحِيمُ) أي : أُظهرتْ (للغاوين) وهم الضالُّون ، (وقيل لهم) على وجه التوبيخ (أين ما كنتم تعبُدون من دون الله هل ينصُرونكم) أي : يمنعونكم من العذاب ، أو يمتنعون منه .

قوله تعالى : (فكُبْكِبوا) قال السّدي : هم المشركون . قال ابن قتيبة : أُلْقُوا على رؤوسهم ، وأصل الحرف « كُبِّبوا » من قولك : كَبَبْتُ الإناء ، فأبدلَ من الباء الوسطى كافاً ، استثقالاً لاجتماع ثلاث باءات ، كما قالوا : « كُمْكِمُوا » من « الكُمَّة »، والأصل : « كُمِّمُوا » . وقال الزجاج :

معناه : طُرح بعضُهم على بعض ؛ وحقيقة ذلك في اللغة تكرير الانكباب ، كأنه إذا أُلقي يَنْكَبُّ مَرَّةً بعد مَرَّةٍ حتى يَسْتَقِرَّ فيها .

وفي الغاوين ثلاثة أقوال .

أحدها : المشركون ، قاله ابن عباس .

والثاني : الشياطين ، قاله قتادة ، ومقاتل .

والثالث : الآلهة ، قاله السدي . (وجنود إبليسَ) أتباعه من الجنّ والإنس . (قالوا وهم فيها يَخْتَصِمُونَ) يعني : هم وآلهتهم ، (تالله إنْ كُنَّا) قال الفراء : لقد كُنَّا . وقال الزجاج : ما كُنَّا إلا في ضلال .

قوله تعالى : (إذ نُسَوِّيكم) أي : نَعْدِلُكم بالله في العبادة ، (وما أضلَّنا إلا المُجْرِمُون) فيهم قولان .

أحدهما : الشياطين . والثاني : أوَّلوهم الذين اقتَدَوا بهم ، قال عكرمة : إبليسُ وابنُ آدم القاتل .

قوله تعالى : (فما لنا من شافِعِين) هذا قولهم إذا شفع الأنبياء والملائكة والمؤمنون . وروى جابر بن عبد الله عن رسول الله ﷺ قال : « إن الرجل يقول في الجنة : ما فعل صديقي فلان ؟ وصديقه في الجحيم ، فيقول الله عز وجل : أخرجوا له صديقه إلى الجنة ، فيقول من بقي [في النار] : فما لنا من شافعين ولا صديق حميم » ؟ [1] . والحميم : القريب الذي تَوَدُّه ويَوَدُّك والمعنى : ما لنا

(١) هذا الحديث ذكره الطبرسي من الامامية الشيعة في تفسيره « مجمع البيان » ولم يعزُه لاحد ، بل قال : وفي الخبر المأثور عن جابر قال : سمعت رسول الله ﷺ ... فذكره ، واستدركنا الزيادة التي بين القوسين منه ، ولعل المصنف رحمه الله نقله عن الطبرسي أو عمن نقله عنه ، وكذلك ذكره القرطبي في تفسيره عن جابر ولم يعزُه لأحد ، ولم نره ، والله أعلم .

من ذي قرابة يُهِمُّه أمرنا ، (فلو أنَّ لنا كَرَّةً) أي : رجعة إلى الدنيا (فنكونَ مِنَ المؤمنين) لتَحِلَّ لنا الشفاعة كما حلَّت للموحِّدين .

﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ . إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلاَ تَتَّقُونَ . إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ . فَاتَّقُوا اللهَ وَأَطِيعُونِ . وَمَا أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ . فَاتَّقُوا اللهَ وَأَطِيعُونِ ﴾

قوله تعالى : (كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ) قال الزجاج : القوم مذكَّرون ؛ والمعنى : كذَّبت جماعةُ قوم نوح .

قوله تعالى : (إذ قال لهم أخوهم نوحٌ) كانت الأُخوَّة من جهة النَّسَب بينهم ، لا من جهة الدِّين ، (ألا تتقون) عذاب الله بتوحيده وطاعته ، (إنِّي لكم رسول أمين) على الرسالة فيما بيني وبين ربِّكم [1] . (وما أسألُكم عليه من أجْر) أي : على الدعاء إلى التوحيد .

﴿ قَالُوا أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ . قَالَ وَمَا عِلْمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ . إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَى رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ . وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ . إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ . قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَانُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ ﴾

---

(١) قال ابن كثير : هذا إخبار من الله عز وجل عن عبده ورسوله نوح عليه السلام ، وهو أول رسول بعثه الله إلى أهل الأرض بعدما عبدت الأصنام والأنداد ، فبعثه الله ناهياً عن ذلك ومحذراً من وبيل عقابه ، فكذبه قومه فاستمرُّوا على ماهم عليه من الفعال الخبيثة في عبادتهم أصنامهم مع الله تعالى ، ونزّل الله تعالى تكذيبهم له منزلة تكذيبهم جميع الرسل ، فلهذا قال : (كذبت قوم نوح المرسلين ، إذ قال لهم أخوهم نوح ألا تتقون) أي : ألا تخافون الله في عبادتكم غيره ؟ ! (إني لكم رسول أمين) أي : إني رسول من الله إليكم ، أمين فيما بعثني الله به ، أبلغكم رسالات ربي ولا أزيد فيها ولا أنقص منها .

قوله تعالى : (واتَّبعكَ الأرذلون) وقرأ يعقوب بفتح الهمزة وتسكين التاء وضم العين : « وأتباعُكَ الأرذلون » ، وفيهم ثلاثة أقوال .

أحدها : الحاكَة ، رواه الضحاك عن ابن عباس .

والثاني : الحاكَة والأساكفة ؛ قاله عكرمة .

والثالث : المساكين الذين ليس لهم مال ولا عزٌّ ، قاله عطاء . وهذا جهل منهم ، لأن الصناعات لا تضرُّ في باب الدّيانات .

قوله تعالى : (وما عِلْمِي بما كانوا يعملون) أي : لم أعلم أعمالهم وصنائعهم ، ولم أُكلَّف ذلك ، إنما كلِّفتُ أن أدعوَهم ، (إنْ حِسَابُهم) فيما يعملون (إلا على ربِّي لو تشعُرون) بذلك ما عبتموهم في صنائعهم ، (وما أنا بطارد المؤمنين) أي : ما أنا بالذي لا أقبل إيمانهم لزعمكم أنهم الأرذلون .

وفي قوله : (لَتكونَنَّ من المرجومين) ثلاثة أقوال .

أحدها : من المشتومين ، قاله الضحاك . والثاني : من المضروبين بالحجارة ، قاله قتادة . والثالث : من المقتولين بالرَّجم ، قاله مقاتل .

﴿ قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ . فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحاً وَنَجِّنِي وَمَنْ مَعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ . فَأَنْجَيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ . ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ الْبَاقِينَ . إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ . وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾

قوله تعالى : (فافتح بيني وبينهم) أي : اقض بيني وبينهم قضاءً ، يعني : بالعذاب (ونَجِّني ومَنْ معيَ) من ذلك العذاب . والفُلْك قد تقدم بيانه [البقرة : ١٦٤] . والمشحون : المملوء ، يقال : شحنتُ الإناء : إذا ملأتَه ؛ وكانت

سفينة نوح قد ملئت من الناس والطير والحيوان كُلِّه ، (ثم أغْرقنا بعدُ) بعد نجاة نوح ومن معه (الباقين) .

﴿ كَذَّبَتْ عَادٌ الْمُرْسَلِينَ . إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلاَ تَتَّقُونَ . إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ . فَاتَّقُوا اللهَ وَأَطِيعُونِ . وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ . أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ . وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ . وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ . فَاتَّقُوا اللهَ وَأَطِيعُونِ . وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ . أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ . وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ . إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾

قوله تعالى : (أتبنون بكُلِّ رِيع) وقرأ عاصم الجحدري ، وأبو حيوة ، وابن أبي عبلة : « بكُلِّ رَيْع » بفتح الراء . قال الفراء : هما لغتان . ثم فيه ثلاثة أقوال .

أحدها : أنه المكان المرتفع ؛ روى ابن أبي طلحة عن ابن عباس قال : بكل شَرَف . قال الزجاج : هو في اللغة : الموضع المرتفع من الأرض .

والثاني : أنه الطريق ، رواه الضحاك عن ابن عباس ، وبه قال قتادة .

والثالث : الفجُّ بين الجبلين ، قاله مجاهد . والآية : العلامة .

وفيما أراد بهذا البناء ثلاثة أقوال .

أحدها : أنه أراد : تبنون مالا تسكنون ، رواه عطاء عن ابن عباس ؛ والمعنى أنه جعل بناءهم مايستغنون عنه عبثاً .

والثاني : بروج الحمام ، قاله سعيد بن جبير ، ومجاهد .

والثالث : أنهم كانوا يبنون في المواضع المرتفعة ليُشرفوا على المارَّة فيَسْخَروا منهم ويَعْبَثوا بهم ، وهو معنى قول الضحاك .

قوله تعالى : (وتَتَّخِذون مَصَانع) فيه ثلاثة أقوال .

أحدها : قصور مشيَّدة ، قاله مجاهد . والثاني : مصانع الماء تحت الأرض ، قاله قتادة . والثالث : بروج الحمام ، قاله السدي[1] .

وفي قوله : (لعلَّكم تَخْلُدون) قولان .

أحدها : كأنَّكم تخلُدون ؛ قاله ابن عباس ، وأبو مالك .

والثاني : كَيْما تَخْلُدوا ، قاله الفراء ، وابن قتيبة . وقرأ عكرمة ، والنخعي ، وقتادة ، وابن يعمر : « تُخْلَدون » برفع التاء [وتسكين الخاء وفتح اللام مخففة . وقرأ عاصم الجحدري ، وأبو حصين] : « تُخَلَّدون » بفتح الخاء وتشديد اللام .

قوله تعالى : (وإذا بَطَشْتُم بَطَشْتُم جبَّارِين) المعنى : إذا ضربتم ضربتم بالسياط ضرب الجبَّارين ، وإذا عاقبتم قتلتم ؛ وإنما أنكر عليهم ذلك ، لأنه صدر عن ظلم ، إذ لو ضربوا بالسيف أو بالسوط في حَقٍّ مالِيموا .

وفي قوله : (عذابَ يوم عظيم) قولان .

أحدها : ماعذِّبوا به في الدنيا . والثاني : عذاب جهنم .

---

(١) قال ابن جرير الطبري : والصواب من القول في ذلك أن يقال : إن المصانع جمع مَصْنعة ، والعرب تسمي كل بناءٍ مصنعة ، وجائز أن يكون ذلك البناء كان قصوراً وحصوناً مشيّدة ، وجائز أن يكون كان مآخذ الماء ، ولا خبر يقطع العذر بأي ذلك كان ، ولا هو مما يدرك من جهة العقل ، فالصواب أن يقال فيه ماقال الله أنهم كانوا يتخذون مصانع . اهـ .

﴿ قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْوَاعِظِينَ . إِنْ هٰذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ . وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ . فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّ فِي ذٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ . وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ . كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ . إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ . إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ . فَاتَّقُوا اللّٰهَ وَأَطِيعُونِ . وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾

قوله تعالى : (إنْ هذا إلا خُلُق الأوَّلين) قرأ ابن كثير ، وأبو عمرو ، والكسائي : « خَلْق » بفتح الخاء وتسكين اللام ؛ قال ابن قتيبة : أرادوا اختلاقهم وكذبهم ، يقال : خَلَقتُ الحديثَ واختلقتُه ، أي : افتعلته ، قال الفراء : والعرب تقول للخُرافات : أحاديثُ الخَلْق . وقرأ عاصم ، وأبو عمرو ، وحمزة ، [وخلف ، ونافع] : « خُلُق الأولين » بضم الخاء واللام . وقرأ ابن عباس ، وعكرمة ، وعاصم الجحدري : « خُلْق » برفع الخاء وتسكين اللام ؛ والمعنى : عادتهم وشأنهم . قال قتادة : قالوا [له] : هكذا كان الناس يعيشون ما عاشوا ، ثم يموتون ، ولا بعث لهم ولا حساب .

قوله تعالى : (وما نحن بمعذَّبين) أي : على ما نفعله في الدنيا .

﴿ أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هٰهُنَا آمِنِينَ . فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ . وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ . وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ . فَاتَّقُوا اللّٰهَ وَأَطِيعُونِ . وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ . الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴾

قوله تعالى : (أَتُتْرَكُونَ فيما هاهنا) أي : فيما أعطاكم الله في الدنيا (آمنين) من الموت والعذاب .

قوله تعالى : (طَلْعُها هَضِيم) الطَّلْع : الثمر . وفي الهضيم سبعة أقوال .

أحدها : أنه الذي قد أينع وبلغ ، رواه العوفي عن ابن عباس . والثاني : أنه الذي يتهشَّم تهشُّماً ، قاله مجاهد . والثالث : أنه الذي ليس له نوى ، قاله الحسن . والرابع : أنه المذنِّب من الرُّطَب ، قاله سعيد بن جبير . والخامس : اللَّيِّن ، قاله قتادة ، والفراء . والسادس : أنه الحَمْل الكثير الذي يركب بعضه بعضاً ، قاله الضحاك . والسابع : أنه الطَّلْع قبل أن ينشقَّ عنه [القشر] وينفتح ، يريد أنه منضمٌّ مُكتَنِزٌ ، ومنه قيل : رجل أهضَمُ الكَشْحَيْن ، إذا كان مُنْضَمَّهما ، قاله ابن قتيبة [1] .

قوله تعالى : (وتَنْحِتُون من الجبال بيوتاً فَرِهِين) قرأ ابن كثير ، ونافع ، وأبو عمرو : « فَرِهين » . وقرأ الباقون : « فارِهِين » بألف . قال ابن قتيبة : « فَرِهِينَ » : أَشِرِين بَطِرِين ، ويقال : الهاء فيه مبدَلةٌ من حاء ، أي : فَرِحِين ، و « الفرحُ » قد يكون السرورَ ، وقد يكون الأَشَرَ ، ومنه قوله : (إنَّ اللهَ لايُحِبُّ الفَرِحِينَ) [القصص : ٧٦] أي : الأَشِرِين ، ومن قرأ : « فَارِهِينَ » فهي لغة أخرى ، يقال : فَرِهٌ وفارِهٌ ، كما يقال : فَرِحٌ وفارِحٌ ، ويقال : « فَارِهِينَ » أي : حاذِقِين ؛ قال عكرمة : حاذِقِين بنحتها .

---

(١) قال ابن جرير الطبري : وأولى الأقوال في ذلك بالصواب أن يقال : الهضيم : هو المتكسِّر من لينه ورطوبته ، وذلك من قولهم : هضيم فلان حقه : أذا انتقصه وتحيَّفه ، فكذلك الهضم في الطلع ، إنما هو التنقُّص منه ، من رطوبته ولينه ، إما بمسِّ الأيدي ، وإما بركوب بعضه بعضاً ، وأصله مفعول صرف الى فعيل . اهـ .

قوله تعالى : (ولا تُطيعوا أمر المسرِفين) قال ابن عباس : يعني : المشركين . وقال مقاتل : هم التسعة الذين عقروا الناقة .

﴿ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ . مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا فَأْتِ بِآيَةٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ . قَالَ هٰذِهِ نَاقَةٌ لَهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَعْلُومٍ . وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ . فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا نَادِمِينَ . فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ إِنَّ فِي ذٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ . وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ . كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ . إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ . إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ . فَاتَّقُوا اللّٰهَ وَأَطِيعُونِ . وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾

قوله تعالى : (إنَّما أنتَ مِنَ المُسَحَّرِين) قال الزجاج : أي : ممن له سَحْر ، والسَّحْر : الرِّئة ، والمعنى : أنت بشر مثلنا . وجائز أن يكون من المفعَّلين من السِّحر ؛ والمعنى : ممن قد سُحِر مَرَّة بعد مَرَّة (١) .

قوله تعالى : (لها شِرْبٌ) أي : حظٌّ من الماء . قال ابن عباس : لها شِرب معروف لاتحضروه معها ، ولكم شِرْب لاتحضر معكم ، فكانت إذا كان يومهم حضروا الماء فاقتسموه ، وإذا كان يومها شَرِبتِ الماءَ كُلَّه . وقال قتادة : كانت إذا كان يوم شربها ، شربت ماءهم أول النهار ، وسقتهم اللبن آخر النهار . وقرأ أُبيُّ بن كعب ، وأبو المتوكل ، وأبو الجوزاء ، وابن أبي عبلة : « لها شُرْبٌ » بضم الشين .

(١) قال ابن جرير الطبري : والصواب من القول في ذلك عندي أن معناه : إنما أنت من المخلوقين الذين يعلَّلون بالطعام والشراب مثلنا ، ولست ربّاً ولا ملكاً فنطيعك ونعلم أنك صادق فيما تقول ، قال : والمسحَّر : المفعَّل من السحرة ، وهو الذي له سحرة . اهـ .

قوله تعالى : (فأَصبحوا نادمين) قال ابن عباس : ندموا حين رأو العذاب على عقرها ، وعذابهم كان بالصَّيحة .

﴿ أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ . وَتَذَرُونَ مَاخَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ . قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَالُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ . قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُمْ مِنَ الْقَالِينَ . رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ . فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ . إِلَّا عَجُوزاً فِي الْغَابِرِينَ . ثُمَّ دَمَّرْنَا الْآخَرِينَ . وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَراً فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ . إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ . وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾

قوله تعالى : (أتأتون الذُّكران) وهو جمع ذَكَر (مِن العالَمين) أي : من بني آدم ، (وتذَرونَ ماخلَقَ لكم ربُّكم مِنْ أزواجكم) [قال الزجاج : وقرأ ابن مسعود : « ما أصلح لكم ربُّكم من أزواجكم »] يعني به الفروج . وقال مجاهد : تركتم أقبال النساء إلى أدبار الرجال .

قوله تعالى : (بل أنتم قوم عادُون) أي : ظالمون معتدون . (قالوا لئن لم تَنْتَه يالوط) أي : لئن لم تسكت عن نهينا (لتكونَنَّ مِنَ المُخْرَجِين) من بلدنا . (قال إنّي لعملكم) يعني : إتيان الرجال (من القالِين) قال ابن قتيبة : أي : من المُبْغِضِين ، يقال : قَلَيْتُ الرجلَ : إذا أبغضته .

قوله تعالى : (ربِّ نجِّني وأهلي مما يعملون) أي : من عقوبة عملهم ، (فنجَّيناه وأهلَه) وقد ذكرناهم في (هود : ٨٠) ، (إلا عجوزاً) يعني : امرأته (في الغابرين) أي : الباقين في العذاب . (ثم دمَّرْنا الآخَرين) أهلكناهم بالخَسْف والحَصْب ، وهو قوله : (وأمْطَرْنا عليهم مطراً) يعني الحجارة .

﴿ كَذَّبَ أَصْحَابُ الأَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ . إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلاَ تَتَّقُونَ . إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ . فَاتَّقُوا اللهَ وَأَطِيعُونِ . وَمَا أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾

قوله تعالى : (كَذَّب أصحابُ الأيكة) قرأ ابن كثير، ونافع، وابن عامر: « أصحابُ لَيْكَةَ » هاهنا، وفي (صۤ : ١٣) بغير همز والتاء مفتوحة ؛ وقرأ الباقون : « الأَيْكَةِ » بالهمز فيها والألف . وقد سبق هذا الحرف [الحجر: ٧٨] . (إذ قال لهم شُعَيب) إن قيل : لِمَ لم يقل : أخوهم، كما قال في (الأعراف : ٨٥) ؟ فالجواب : أن شعيباً لم يكن من نسل أصحاب الأيكة، فلذلك لم يقل : أخوهم، وإنما أُرسل إليهم بعد أن أُرسِلَ إلى مَدْيَن، وهو من نسل مَدْيَن، فلذلك قال هناك : أخوهم، هذا قول مقاتل بن سليمان . وقد ذكرنا في سورة (هود : ٩٤) عن محمد بن كعب القرظي، أن أهل مَدْين عذِّبوا بعذاب الظُّلَّة، فان كانوا غير أصحاب الأيكة كما زعم مقاتل، فقد تساوَوا في العذاب، وإن كان أصحاب مَدْين هم أصحاب الأيكة [1]، وهو مذهب ابن جرير الطبري كان حذف ذكر الأخ تخفيفاً، والله أعلم .

---

(١) قال ابن كثير : هؤلاء - يعني أصحاب الأيكة - هم أهل مدين على الصحيح، وكان نبي الله شعيب من أنفسهم، وإنما لم يقل ها هنا : أخوهم شعيب، لأنهم نسبوا الى عبادة الأيكة، وهي شجرة، وقيل : شجر ملتفّ كالغيضة، كانوا يعبدونها، فلهذا لما قال : (كذب أصحاب الأيكة المرسلين) لم يقل : إذ قال لهم أخوهم شعيب، إنما قال : (إذ قال لهم شعيب) فقطع نسب الأخوة بينهم المعنى الذي نسبوا إليه وإن كان أخاهم نسباً . قال : ومن الناس من لم يفطن لهذه النكتة فظن أن أصحاب الأيكة غير أهل مدين، فزعم أن شعيباً عليه السلام بعثه الله الى أمَّتين، ومنهم من قال : ثلاث أمم . اهـ .

فأهل مدين، وأصحاب الرس، وأصحاب الأيكة، هم قوم شعيب، وما ذكر في بعض ـــ

﴿ أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ . وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ . وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ . وَاتَّقُوا الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالْجِبِلَّةَ الْأَوَّلِينَ ﴾

قوله تعالى : (ولا تكونوا من المُخسرين) أي : من الناقصين للكَيْل ، يقال : أخسرتُ الكَيْل والوزن : إذا نقصته . وقد ذكرنا القسطاس في (بني إسرائيل : ٣٥) .

قوله تعالى : (واتَّقُوا الذي خلقكم والجِبِلَّةَ) أي : وخَلَق الجِبِلَّة . وقيل : المعنى : واذكروا مانزل بالجِبِلَّة (الأوَّلين) . وقرأ الحسن ، وأبو مجلز ، وأبو رجاء ، وابن يعمر ، وابن أبي عبلة : « والجُبُلَّةَ » برفع الجيم والباء جميعاً مشددة اللام . وقرأ أبو عبد الرحمن السلمي ، والضحاك ، وعاصم الجحدري : بكسر الجيم وتسكين الباء وتخفيف اللام . قال ابن قتيبة : الجِبِلَّة : الخَلْق ، يقال : جُبِل فلان على كذا ، أي : خُلق ، قال الشاعر :

والموتُ أعظمُ حادثٍ ممَّا يَمُرُّ على الجِبِلَّهْ [1]

﴿ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ . وَمَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَإِنْ نَظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ . فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِنَ السَّمَاءِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ . قَالَ رَبِّي أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ . فَكَذَّبُوهُ

ـــ الأحاديث أن أصحاب الأيكة وقوم مدين أمَّتان بعث الله اليها شعيباً ، قال ابن كثير : هو غريب ، وفي رفعه نظر ، والأشبه أن يكون موقوفاً ، والصحيح أنهم أمة واحدة وصفوا في كل مقام بشيء ، ولهذا وعظ هؤلاء ، وأمر بوفاء المكيال والميزان كما في قصة مدين سواء بسواء ، فدل على أنهم أمة واحدة . اهـ .

(١) البيت غير منسوب في « غريب القرآن » : ٣٢٠ ، و « مجمع البيان » : ١٩/١٧٨ ، و « القرطبي » : ١٣/١٢٦ وفيه « فيما » بدل « مما » .

﴿فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ . إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ . وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾

قوله تعالى : (فأسقط علينا كِسْفاً)[1] قال ابن قتيبة : أي قطعةً (من السماء) ، و« كِسَفٌ » جمع « كِسْفَة » ، [كما] يقال : قِطَعٌ وقِطْعَة .

قوله تعالى : (ربِّي أعلمُ بما تعملون) أي : من نقصان الكيل والميزان ؛ والمعنى : إنه يُجازيكم إن شاء ، وليس عذابكم بيدي ، (فكذَّبوه فأخذهم عذابُ يومِ الظُّلَّة) قال المفسرون : بعث الله عليهم حرّاً شديداً ، فأخذ بأنفاسهم ، فخرجوا من البيوت هرباً إلى البرِّيَّة ، فبعث الله عليهم سحابة أظلَّتهم من الشمس ، فوجدوا لها برداً ، ونادى بعضهم بعضاً ، حتى إذا اجتمعوا تحتها ، أرسل الله عليهم ناراً ، فكان ذلك من أعظم العذاب . والظُّلَّة : السحابة التي أظلَّتهم .

﴿وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ . نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ . عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ . بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ . وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ . أَوَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةً أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ . وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَىٰ بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ . فَقَرَأَهُ عَلَيْهِمْ مَا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ﴾

قوله تعالى : (وإنَّه) يعني القرآن (لَتَنْزِيلُ ربِّ العالَمين . نَزَلَ به

---

(١) قال ابن جرير الطبري ١٥/١٦١ : اختلفت القراء في قراءة قوله : (كِسفاً) فقرأته عامة قراء الكوفة والبصرة بسكون السين ، وقرأ ذلك عامة قراء أهل المدينة وبعض الكوفيين (كِسَفاً) بفتح السين ، ثم قال : وأولى القراءتين في ذلك بالصواب عندي قراءة من قرأه بسكون السين ، لأن الذين سألوا رسول الله ﷺ ذلك ، لم يقصدوا في مسألتهم إياه ذلك أن يكون بحدٍّ معلوم من القِطَع ، إنما سألوا أن يُسقط عليهم السماء قِطَعاً ، وبذلك جاء التأويل أيضاً عن أهل التأويل . اهـ .

الرُّوحُ الأمينُ) قرأ ابن كثير ، ونافع ، وأبو عمرو ، وحفص عن عاصم : « نَزَلَ به » خفيفاً « الرُّوحُ الأمينُ » بالرفع . وقرأ ابن عامر ، وحمزة ، والكسائي ، وأبو بكر عن عاصم : « نَزَّلَ » مشددة الزاي « الرُّوحَ الأمينَ » بالنصب . والمراد بالرُّوح الأمين جبريل ، وهو أمين على وحي الله تعالى إلى أنبيائه ، (على قَلْبِكَ) قال الزجاج : معناه : نزل عليك فوعاه قلبك ، فثبت ، فلا تنساه أبداً .

قوله تعالى : (لِتَكونَ من المُنْذِرِينَ) أي : ممن أنذر بآيات الله المكذِّبين ، (بلسان عربيّ مُبِين) قال ابن عباس : بلسان قريش ليفهموا ما فيه .

قوله تعالى : (وإنه لفي زُبُرِ الأوَّلِين) وقرأ الأعمش : « زُبْرِ » بتسكين الباء . وفي هاء الكناية قولان .

أحدهما : أنها ترجع إلى القرآن ؛ والمعنى : وإنَّ ذِكْر القرآن وخبره ، هذا قول الأكثرين [1] .

والثاني : أنها تعود إلى رسول الله ﷺ ، قاله مقاتل . والزُّبُر : الكُتُب .

قوله تعالى : (أوَلَمْ يَكُنْ لهم آيةً أن يَعْلَمه عُلماء بني إسرائيل) قرأ ابن كثير ، ونافع ، وأبو عمرو ، وعاصم ، وحمزة ، والكسائي : « أولم يكن لهم » بالياء « آيةً » بالنصب . وقرأ ابن عامر ، وابن أبي عبلة : « تكن » بالتاء « آيةٌ » بالرفع . وقرأ أبو عمران الجوني ، وقتادة : « تكن » بالتاء « آيةً » بالنصب قال الزجاج : إذا قلت: « يكن » بالياء ، فالاختيار نصب « آيةً » ويكون « أنْ » اسم كان ، ويكون « آية » خبر كان ، المعنى : أوَلَم يكن لهم عِلْم علماء بني إسرائيل أنَّ النبيَّ ﷺ حقٌّ ، وأن نبوَّته حق ؟ ! « آية » أي : علامة موضحة ، لأن العلماء الذين آمنوا من بني إسرائيل

---

(١) وهو الصواب .

وجدوا ذِكْر النبي ﷺ مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل . ومن قرأ « أوَلَم تكن » بالتاء « آيةٌ » جعل « آية » هي الاسم ، و « أن يعلمه » خبر « تكن » . ويجوز أيضاً « أوَلم تكن » بالتاء « آيةً » بالنصب ، كقوله : (ثم لم تكن فتنتُهم) [الأنعام : ٢٣] وقرأ الشعبي ، والضحاك ، وعاصم الجحدري : « أن تَعْلَمَهُ » بالتاء .

قال ابن عباس : بعث أهل مكة إلى اليهود وهم بالمدينة يسألونهم عن محمد ﷺ ، فقالوا : إنّ هذا لَزمانُه ، وإنّا لنجد في التوراة صفته ، فكان ذلك آية لهم على صدقه [1] .

قوله تعالى : (على بعض الأعجمِين) قال الزجاج : هو جمع أعجم ، والأنثى عجماء ، والأعجم : الذي لا يُفصِح ، وكذلك الأعجمي ؛ فأما العجمي : فالذي من جنس العجم ، أفصح أو لم يُفصِح .

قوله تعالى : (ما كانوا به مؤمِنين) أي : لو قرأه عليهم أعجميّ لقالوا : لانفقه هذا ، فلم يؤمنوا .

﴿ كَذَٰلِكَ سَلَكْنَاهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ . لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ . فَيَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ .

(١) قال ابن جرير الطبري : يقول تعالى ذكره : أولم يكن لهؤلاء المعرضين عما يأتيك يامحمد من ذِكر ربك دلالة على أنك رسول رب العالمين ، أن يعلم حقيقة ذلك وصحته علماء بني اسرائيل . وقال ابن كثير : أوَليس يكفيهم من الشاهد الصادق على ذلك ، أن العلماء من بني اسرائيل يجدون ذكر هذا القرآن في كتبهم التي يدرسونها ، والمراد : العدول منهم الذين يعترفون بما في أيديهم من صفة محمد ﷺ ومبعثه وأمته ، كما أخبر بذلك من آمن منهم ، كعبد الله بن سلام ، وسلمان الفارسي عمن أدركه منهم ومن شاكلهم ، قال الله تعالى : (الذين يتّبعون الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والانجيل ...) الآية [الأعراف : ١٥٧] . اهـ .

فَيَقُولُوا هَلْ نَحْنُ مُنْظَرُونَ . أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ . أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ . ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ . مَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يُمَتَّعُونَ . وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنْذِرُونَ . ذِكْرَىٰ وَمَا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴾

قوله تعالى : (كذلك سلكناه) قد شرحناه في (الحجر : ١٢) . والمجرمون هاهنا : المشركون .

قوله تعالى : (لا يؤمنون به) قال الفراء : المعنى : كي لا يؤمنوا . فأما العذاب الأليم ، فهو عند الموت . (فيقولوا) عند نزول العذاب (هل نحن مُنْظَرُون) أي : مُؤَخَّرون لنؤمن ونصدّق . قال مقاتل : فلمّا أوعدهم رسول الله ﷺ بالعذاب ، قالوا : فتى هو ؟ تكذيباً به [1] ، فقال الله تعالى : (أفبعذابنا يستعجلون) .

قوله تعالى : (أفرأيتَ إنْ متّعناهم سنينَ) قال عكرمة : عُمُرَ الدنيا .

قوله تعالى : (ثم جاءهم ما كانوا يُوعَدون) أي : من العذاب . (وما أهلكنا من قرية) بالعذاب في الدنيا (إلا لها مُنذِرونَ) يعني : رسُلاً تنذرهم العذابَ . (ذِكرىٰ) أي : موعظة وتذكيراً .

﴿ وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ . وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ . إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ ﴾

قوله تعالى : (وما تنزّلتْ به الشياطين) سبب نزولها أن قريشاً قالت : إنما

---

(١) في « مجمع البيان » للطبرسي « تكذيباً له » ، ولعل المصنف رحمه الله نقل قول قتادة هذا من الطبرسي ، أو ممن نقل عنه الطبرسي .

تجيء بالقرآن الشياطين فتُلقيه على [لسان] محمد، فنزلت هذه الآية، قاله مقاتل [١] .

قوله تعالى : (وما ينبغي لهم) أي : أن ينزلوا بالقرآن (وما يستطيعون) أن يأتوا به من السماء ، لأنهم قد حِيل بينهم وبين السَّمع بالملائكة والشُّهُب . (إنهم عن السَّمْع) أي : عن الاستماع للوحي من السماء (لمعزولون) فكيف ينزلون به ؟! وقال عطاء : عن سماع القرآن لمحجوبون ، لأنهم يُرْجَمون بالنجوم .

﴿ فَلاَ تَدْعُ مَعَ اللهِ إِلٰهاً آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ . وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ . وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ . فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ . وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ . الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ . وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ . إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾

قوله تعالى : (فلا تدعُ مع الله إلهاً آخر) قال ابن عباس : يحذّر به غيره ، يقول : أنت أكرمُ الخلق عليَّ ، ولو اتخذتَ من دوني إلهاً لعذَّبتُك .

قوله تعالى : (وأنذِر عشيرتك الأقربين) روى البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة قال : قام رسول الله ﷺ حين أنزل الله « وأنذر عشيرتك الأقربين » فقال : « يا معشَر قريش : اشتَرُوا أنفسكم من الله ، لا أُغني عنكم من الله شيئاً ، يا بني عبدِ مَنافٍ لا أُغني عنكم من الله شيئاً ، يا عبّاسُ بنَ عبد المطّلب لا أُغني عنكَ من الله شيئاً ، يا صفيةُ عمّةَ رسولِ الله لا أُغني عنكِ من الله شيئاً ، يا فاطمةُ بنتَ محمد سَليني ما شئتِ ما أُغني عنكِ من الله شيئاً » [٢] .

---

(١) وهو كذلك في « مجمع البيان » للطبرسي .

(٢) رواه البخاري ٨/٣٨٦ ومسلم ١/١٩٢ والطبري ١٩/١١٩ وذكره السيوطي في « الدر » ٥/٩٥ وزاد نسبته لأحمد ، وعبد بن حميد ، والترمذي ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وابن مردويه ، والبيهقي في « الشعب » وفي « الدلائل » .

وفي بعض الألفاظ : « سَلُوني مِنْ مالي ما شئتم »(١) . وفي لفظ : « غير أنَّ لكم رَحِماً سأبُلُّها بِبلالها »(٢) . ومعنى قوله : (عشيرتَكَ الأقربين) : رهطك الأدنَيْن . (فان عَصَوْكَ) يعني : العشيرة (فقُلْ إنّي بَريءٌ ممّا تَعْمَلون) من الكُفْر . (وتَوَكَّلْ على العزيز الرَّحيم) أي : ثِقْ به وفوِّض أمرك إليه ، فهو عزيز في نِقْمته ، رحيم لم يعجّل بالعقوبة . وقرأ نافع ، وابن عامر : « فتَوَكَّل » بالفاء ، وكذلك [هو](٣) في مصاحف أهل المدينة والشام

(الذي يراكَ حين تَقُوم) فيه ثلاثة أقوال .

أحدها : حين تقوم إلى الصلاة ، قاله ابن عباس ، ومقاتل ، والثاني : حين تقوم من مقامك ، قاله أبو الجوزاء . والثالث : حين تخلو ، قاله الحسن .

قوله تعالى : (وتَقَلُّبَكَ) أي : ونرى تقلُّبك (في الساجدين) وفيه ثلاثة أقوال .

أحدها : وتقلُّبك في أصلاب الأنبياء حتى أخرجك ، رواه عكرمة عن ابن عباس .

والثاني : وتقلُّبك في الركوع والسجود والقيام مع المصلّين في الجماعة ؛ والمعنى : يراك وحدك ويراك في الجماعة ، وهذا قول الأكثرين منهم قتادة .

---

(١) رواه مسلم في « صحيحه » بهذا اللفظ ١/١٩٢ .

(٢) رواه مسلم أيضاً بهذا اللفظ ١/١٩٢ ، قال الامام النووي في « شرح مسلم » ٣/٨٠ « ببلالها » ضبطناه بفتح الباء الثانية وكسرها ، وهما وجهان مشهوران ذكرهما جماعات من العلماء ، وقال : قال القاضي عياض : رويناه بالكسر ، قال : ورأيت للخطابي أنه بالفتح ، وقال صاحب « المطالع » رويناه بكسر الباء وفتحها ، من بلّه يَبُلّه ، والبِلال الماء . ومعنى الحديث : سأصلها ، شبهت قطيعة الرحم بالحرارة ، ووصلها باطفاء الحرارة ببرودة ، قال : ومنه : بُلّوا أرحامكم ، أي : صلوها . اهـ .

(٣) زيادة من « القرطبي » .

والثالث : وتصرُّفك في ذهابك ومجيئك في أصحابك المؤمنين، قاله الحسن [١] .

﴿ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَى مَنْ تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ . تَنَزَّلُ عَلَى كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ . يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ ﴾

قوله تعالى : (هل أُنَبِّئُكم على من تَنَزَّلُ الشَّيَاطين) هذا ردٌّ عليهم حين قالوا : إنما يأتيه بالقرآن الشياطين . فأما الأَفَّاك فهو الكذّاب، والأثيم : الفاجر ؛ قال قتادة : وهم الكهنة .

قوله تعالى : (يُلْقُون السَّمْع) أي : يُلْقُون ما سمعوه من السماء إلى الكهنة .

وفي قوله : (وأكثرُهم كاذبون) قولان .

أحدهما : أنهم الشياطين . والثاني : الكهنة .

﴿ وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ . أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ . وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لا يَفْعَلُونَ . إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا

---

(١) قال ابن جرير الطبري : وأولى الأقوال في ذلك بتأويله ، قول من قال : تأويله : ويرى تقلّبك مع الساجدين في صلاتهم معك ، حين تقوم معهم وتركع وتسجد ، لأن ذلك هو الظاهر من معناه ، ثم قال : فتأويل الكلام إذن : وتوكل على العزيز الرحيم الذي يراك حين تقوم إلى صلاتك ، ويرى تقلبك في المؤتمين بك فيها بين قيام وركوع وسجود وجلوس .

ثم قال في تتمة الآية : وقوله : (إنه هو السميع العليم) يقول تعالى ذكره : إن ربك هو السميع تلاوتك يامحمد وذكرك في صلاتك ماتتلو وتذكر ، العليم بما تعمل فيها ويعمل فيها من يتقلّب فيها معك مؤتماً بك ، يقول : فرتل فيها القرآن ، وأقم حدودها ، فانك بمرأىً من ربك ومسمع . اهـ .

الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللهَ كَثِيراً وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَاظُلِمُوا وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ ﴾

قوله تعالى : (والشُّعراء يتَّبعهم الغاوون) وقرأ نافع : « يَتْبعهم » بسكون التاء ؛ والوجهان حسنان ، يقال : تَبِعْتُ واتَّبعت ، مثل حقرتُ واحتقرتُ. وروى العوفي عن ابن عباس ، قال : كان رجلان على عهد رسول الله ﷺ قد تهاجيا ، فكان مع كل واحد منهما غُواة من قومه ، فقال الله : « والشعراء يتَّبعهم الغاوون »[١] . وفي رواية أخرى عن ابن عباس ، قال : هم شعراء المشركين . قال مقاتل : منهم عبد الله بن الزِّبَعْرى ، وأبو سفيان بن حرب ، وهبيرة ابن أبي وهب المخزومي في آخرين ، قالوا : نحن نقول مثل قول محمد ، وقالوا الشعر ، فاجتمع إليهم غُواة من قومهم يستمعون أشعارهم ويَرْوُون عنهم[٢] .

وفي الغاوين ثلاثة أقوال .

أحدها : الشياطين ، قاله مجاهد ، وقتادة . والثاني : السُّفهاء ، قاله الضحاك . والثالث : المشركون ، قاله ابن زيد .

قوله تعالى : (ألم تَرَ أنَّهم في كُلِّ وادٍ يَهيمون) هذا مَثَل لمن يَهيم في الأودية ؛ والمعنى أنهم يأخذون في كل فنّ من لغو وكذب وغير ذلك ؛ فيمدحون بباطل ويذُمّون بباطل ، ويقولون : فعلنا ، ولم يفعلوا[٣] .

---

(١) الطبري ١٩/١٢٧ ، وذكره السيوطي في « الدر » ٥/٩٩ وزاد نسبته لابن أبي حاتم ، وابن مردويه .

(٢) ذكر قول مقاتل هذا الطبرسي في « مجمع البيان » . وعبد الله بن الزبعرى أسلم بعد ذلك ، وكذلك أبو سفيان .

(٣) قال ابن كثير : قال الحسن البصري : قد والله رأينا أوديتهم التي يخوضون فيها ، مرة في شتيمة فلان ، ومرة في مديحة فلان . قال : قال قتادة : الشاعر يمدح قوماً بباطل ، ويذم قوماً بباطل . اهـ .

قوله تعالى : (إلّا الذين آمنوا) قال ابن عباس : لمّا نزل ذمُّ الشعراء ، جاء كعب بن مالك ، وعبد الله بن رواحة ، وحسان بن ثابت ، فقالوا : يا رسول الله ، أنزل اللهُ هذا وهو يعلم أنّا شعراء ، فنزلت هذه الآية [1] . قال المفسرون : وهذا الاستثناء لشعراء المسلمين الذين مدحوا رسول الله ﷺ وذمّوا من هجاه [2] ، (وذكروا الله كثيراً) أي : لم يَشْغَلهم الشِّعر عن ذِكْر الله ولم يجعلوا الشِّعر همَّهم . وقال ابن زيد : وذكروا الله في شِعرهم . وقيل : المراد بالذِّكْر : الشِّعر في طاعة الله عز وجل .

قوله تعالى : (وانْتَصَروا) أي : من المشركين (مِنْ بَعْدِ ماظُلِموا) لأنّ المشركين بدؤوا بالهجاء . ثم أوعد شعراء المشركين ، فقال : (وسَيَعْلَمُ الذين ظَلَمُوا) أي : أشركوا وهَجَوا رسولَ الله ﷺ والمؤمنين (أيَّ مُنْقَلَبٍ

(١) قال ابن كثير : هذه السورة مكية ، فكيف يكون سبب نزول هذه الآيات في شعراء الأنصار ؟! وفي ذلك نظر ، ولم يتقدم ـ أي في سبب النزول ـ إلا مرسلات لا يعتمد عليها ، والله أعلم . اهـ .

(٢) قال ابن كثير : ولكن هذا الاستثناء يدخل فيه شعراء الأنصار وغيرهم حتى يدخل فيه من كان متلبِّساً من شعراء الجاهلية بذمّ الاسلام وأهله ثم تاب وأناب ورجع وأقلع وعمل صالحاً وذكر الله كثيراً في مقابلة ماتقدم من الكلام السيء ـ فان الحسنات يذهبن السيئات ـ وامتدح الاسلام وأهله في مقابلة ما كان يذمه ، كما قال عبد الله بن الزبعرى حين أسلم :

يا رسول المليك إن لســاني راتق ما فتقتُ إذ أنا بــور

إذ أجاري الشيطان في سنن الغيْـ ي ومن مال ميــله مثبور

قال : وكذلك أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب كان من أشد الناس عداوة للنبي ﷺ وهو ابن عمه ، وأكثرهم له هجواً ، فلما أسلم لم يكن أحد أحبَّ إليه من رسول الله ﷺ ، وكان يمدح رسول الله ﷺ بعدما كان يهجوه ، ويتولاه بعدما كان قد عاداه ، ثم قال ابن كثير : ولهذا قال تعالى : (إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وذكروا الله كثيراً) قيل : معناه : ذكروا الله كثيراً في كلامهم ، وقيل : في شعرهم ، قال : وكلاهما صحيح مكفِّر لما سبق . اهـ .

يَنْقَلِبُون) [١] قال الزجاج : « أيَّ » منصوبة بقوله : « ينقلبون » لا بقوله : « سيعلم »، لأن « أيّاً » وسائر أسماء الاستفهام لايعمل فيها ماقبلها . ومعنى الكلام : إنهم يَنْقلبون إلى نار يخلَّدون فيها .

وقرأ ابن مسعود ، ومجاهد عن ابن عباس ، وأبو المتوكل ، وأبو رجاء : « أيَّ مُتَقَلَّبٍ يَتَقَلَّبُون » بتاءين مفتوحتين وبقافين على كل واحدة منهما نقطتان وتشديد اللام فيهما . وقرأ أُبيُّ بن كعب ، وابن عباس ، وأبو العالية ، وأبو مجلز ، وأبو عمران الجوني ، وعاصم الجحدري : « أيَّ مُنْفَلَتٍ يَنْفَلِتُون » بالفاء فيهما وبنونين ساكنين وبتاءين . وكان شريح يقول : سيعلم الظّالمون حظّ من نقصوا ، إنّ الظّالم يَنْتَظِر العِقاب ، وإنّ المظلوم ينتظر النصر .

★ ★ ★

(١) قال ابن جرير الطبري : وقوله : (وسيعلم الذين ظلموا) يقول تعالى ذِكره : وسيعلم الذين ظلموا أنفسهم بشركهم بالله من أهل مكة (أيَّ منقلب ينقلبون) يقول : أيَّ مرجع يرجعون إليه ، وأيَّ معادٍ يعودون إليه بعد مماتهم ، فانهم يصيرون إلى نار لايطفأ سعيرهـا ، ولا يسكن لهبها . اهـ .

وقال ابن كثير : والصحيح أن هذه الآية عامة في كل ظالم . اهـ . وفي « صحيح » مسلم عن جابر بن عبد الله أن رسول الله ﷺ قال : « اتقوا الظلم فان الظلم ظلمات يوم القيامة » .

سورة النمل

وهي مكية كلها باجماعهم

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ طس تِلْكَ آيَاتُ الْقُرْآنِ وَكِتَابٍ مُبِينٍ . هُدىً وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ . الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ . إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ . أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَهُمْ سُوءُ الْعَذَابِ وَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْأَخْسَرُونَ . وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى الْقُرْآنَ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ . إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِ إِنِّي آنَسْتُ نَاراً سَآتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ آتِيكُمْ بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ . فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِيَ أَنْ بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾

قوله تعالى : (طس) فيه ثلاثة أقوال .

أحدها : أنه قسم أقسم الله به ، وهو من أسمائه ، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس . وفي رواية أخرى عنه ، قال : هو اسم الله الأعظم .

والثاني : اسم من أسماء القرآن ، قاله قتادة .

والثالث : الطاء من اللطيف ، والسين من السميع ، حكاه الثعلبي [١] .

قوله تعالى : (وكِتَابٍ مُبِينٍ) وقرأ أبو المتوكل ، وأبو عمران ، وابن أبي عبلة : « وكتابٌ مبينٌ » بالرفع فيهما .

قوله تعالى : (وبُشْرى) أي : بشرى بما فيه من الثواب للمصدِّقين [٢] .

قوله تعالى : (زيَّنَّا لهم أعمالهم) أي : حبَّبْنا إليهم قبيح فعلهم . وقد بيَّنَّا حقيقة التزيين والعَمَه في (البقرة : ١٥ ، ٢١٢) . وسُوءُ العذاب : شديده .

قوله تعالى : (هم الأخسرون) لأنهم خسروا أنفسهم وأهليهم وصاروا إلى النار .

قوله تعالى : (وإنَّكَ لَتُلَقَّى القُرآنَ) قال ابن قتيبة : أي : يُلْقَى عليك فتَتَلَقَّاه أنت ، أي : تأخذه . (إذ قال موسى) المعنى : اذكر إذ قال موسى .

قوله تعالى : (بشهاب قَبَس) قرأ عاصم ، وحمزة ، والكسائي ، ويعقوب إلا زيداً : « بشهابٍ » بالتنوين . وقرأ الباقون على الإضافة غير منوَّن . قال الزجاج : من نوَّن الشهاب ، جعل القبس من صفة الشهاب ، وكل أبيض ذي نور ، فهو شهاب . فأما من أضاف ، فقال الفراء : هذا مما يضاف إلى نفسه إذا اختلفت الأسماء ، كقوله : (ولَدارُ الآخرة) [يوسف : ١٠٩] . قال ابن قتيبه : الشِّهاب : النار ، والقَبَس : النار تُقْبَس ، يقال : قَبَسْتُ النار قَبْساً ، واسم ماقبَستَ : قَبَسٌ .

---

(١) انظر التعليق الذي في أول سورة (الشعراء) وما قاله العلماء عن الحروف التي في أوائل السور .

(٢) قال ابن كثير في قوله تعالى : (هدى وبشرى للمؤمنين) : إنما تحصل الهداية والبشارة من القرآن لمن آمن به واتَّبعه وصدَّقه وعمل بما فيه وأقام الصلاة المكتوبة وآتى الزكاة المفروضة وأيقن بالدار الآخرة والبعث بعد الموت والجزاء على الأعمال خيرها وشرها والجنة والنار . اه .

قوله تعالى : (تَصْطَلُونَ) أي : تستدفئون ، وكان الزمان شتاءً .

قوله تعالى : (فلمّا جاءها) أي : جاء موسى النارَ ، وإنما كان نوراً فاعتقده ناراً ، (نُوديَ أن بُورِكَ مَنْ في النّار) فيه ثلاثة أقوال .

أحدها : أن المعنى : قُدِّس مَنْ في النّار ، وهو الله عز وجل ، قاله ابن عباس ، والحسن ؛ والمعنى : قُدِّس مَنْ ناداه مِنَ النّار ، لا أنّ الله عز وجل يَحُلُّ في شيء .

والثاني : أن « مَنْ » زائدة ؛ والمعنى : بورِكتِ النّارُ ، قاله مجاهد .

والثالث : أن المعنى : بُورِكَ على من في النار ، أو فيمن في النار ؛ قال الفراء : والعرب تقول : باركه الله ، وبارك عليه ، وبارك فيه ، بمعنى واحد ، والتقدير : بُورِكَ من في طلب النار ، وهو موسى ، فحذف المضاف . وهذه تحيَّة من الله تعالى لموسى بالبركة ، كما حيَّا إبراهيمَ بالبركة على ألسنة الملائكة حين دخلوا عليه ، فقالوا : (رحمةُ الله وبركاتُه عليكم أهلَ البيت) [هود : ٧٣] .

فخرج في قوله : (بُورِكَ) قولان .

أحدهما : قدِّس . والثاني : من البَرَكة .

وفي قوله : (وَمَنْ حَوْلَها) ثلاثة أقوال .

أحدها : الملائكة ، قاله ابن عباس ، والحسن . والثاني : موسى والملائكة ، قاله محمد بن كعب . والثالث : موسى ؛ فالمعنى : بُورِكَ فيمن يطلبها وهو قريب منها .

﴿ يَامُوسىٰ إنَّهُ أنَا اللهُ العَزِيزُ الحَكِيمُ . وَأَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِراً وَلَمْ يُعَقِّبْ يَامُوسىٰ لاتَخَفْ إنِّي لايَخَافُ لَدَيَّ المُرْسَلُونَ . إلَّا مَنْ ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْناً بَعْدَ

سُوءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ . وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ فِي تِسْعِ آيَاتٍ إِلَى فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ . فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ . وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴾

قوله تعالى : (إِنَّهُ أنا اللهُ) الهاء عماد في قول أهل اللغة ؛ وعلى قول السدي : هي كناية عن المنادي ، لأن موسى قال : مَن هذا الذي يناديني ؟ فقيل : « إنَّه أنا الله » .

قوله تعالى : (وألقِ عصاكَ) في الآية محذوف ، تقديره : فألقاها فصارت حيَّة ، (فلمَّا رآها تهتزُّ كأنَّها جانٌّ) قال الفراء : الجانّ : الحيَّة التي ليست بالعظيمة ولا بالصغيرة .

قوله تعالى : (ولَمْ يُعَقِّبْ) فيه قولان .

أحدهما : لم يلتفت ، قاله قتادة . والثاني : لم يرجع ، قاله ابن قتيبة ، والزجاج . قال ابن قتيبة : وأهل النظر يرون أنه مأخوذ من العَقِب .

قوله تعالى : (إنِّي لايَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ) أي : لايخافون عندي . وقيل : المراد : في الموضع الذي يوحى إليهم فيه ، فكأنه نبَّه على أن من آمنه الله بالنبوَّة من عذابه لاينبغي أن يخاف من حيَّة .

وفي قوله : (إلَّا مَنْ ظَلَمَ) ثلاثة أقوال .

أحدها : أنه استثناء صحيح ، قاله الحسن ، وقتادة ، ومقاتل ؛ والمعنى : إلا من ظَلَمَ منهم فانه يخاف . قال ابن قتيبة : علم الله تعالى أن موسى مُسْتَشْعِرٌ

خيفةً من ذنبه في الرَّجل الذي وكزه ، فقال : « إِلَّا مَنْ ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًا » أي : توبة وندماً ، فانه يخاف ، وإني غفور رحيم .

والثاني : أنه استثناء منقطع ؛ والمعنى : لكن من ظلم فانه يخاف ، قاله ابن السائب ، والزجاج [١] . وقال الفراء : « مَنْ » مستثناة من الذين تُركوا في الكلام ، كأنه قال : لايخاف لديَّ المرسلون ، إنما الخوف على غيرهم ، إلا من ظَلَمَ ، فتكون « مَنْ » مستثناة . وقال ابن جرير : في الآية محذوف ، تقديره : إلا من ظَلَمَ ، فمن ظَلَمَ ثم بدَّل حُسْنًا .

والثالث : أن « إِلَّا » بمعنى الواو ، فهو كقوله : (لِئَلاَّ يكونَ للناس عليكم حُجَّةٌ إِلَّا الذين ظَلَموا مِنْهُمْ) [البقرة : ١٥٠] ، حكاه الفراء عن بعض النحويين ، ولم يرضه .

وقرأ أُبيُّ بن كعب ، وسعيد بن جبير ، والضحاك ، وعاصم الجحدري ، وابن يعمر : « أَلا مَنْ ظَلَمَ » بفتح الهمزة وتخفيف اللام .

وللمفسرين في المراد بالظلم هاهنا قولان .

أحدها : المعاصي . والثاني : الشِّرك . ومعنى « حُسْنًا » : توبة وندماً .

وقرأ ابن مسعود ، والضَّحَّاك ، وأبو رجاء ، والأعمش ، وابن السميفع ، وعبد الوارث عن أبي عمرو : « حَسَنًا » بفتح الحاء والسين . (بَعْدَ سُوءٍ) أي : بعد إساءة . وقيل : الإشارة بهذا إلى أن موسى وإن كان [قد] ظلم نفسه بقتل القبطي ، فان الله يغفر له ، لأنه ندم على ذلك وتاب .

---

(١) قال ابن كثير : هذا استثناء منقطع ، وفيه بشارة عظيمة للبشر ، وذلك أن من كان على عمل سيء ، ثم أقلع عنه ورجع وتاب وأناب ، فان الله يتوب عليه ، كما قال تعالى : (وإني لغفار لن تاب وآمن وعمل صالحاً ثم اهتدى) [طه : ٨٢] وقال تعالى : (ومن يعمل سوءاً أو يظلم نفسه ...) الآية [النساء : ١١٠] ، والآيات في هذا كثيرة جداً . اهـ .

قوله تعالى : (وأَدْخِلْ يَدَكَ في جَيْبِكَ) الجَيْب حيث جِيبَ من القميص ، أي : قُطِع . قال ابن جرير : إنَّما أُمر بادخاله يده في جيبه ، لأنه كان عليه حينئذ مِدْرَعة من صوف ليس لها كُمّ . والسُّوء : البَرَص .

قوله تعالى : (في تِسْعِ آيات) [1] قال الزجاج : « في » مِنْ صلة قوله : « وألْقِ عصاك » « وأدخل يدك » ، فالتأويل : أَظْهِر هاتين الآيتين في تسع آيات . و « في » بمعنى « مِنْ » ، فتأويله : مِنْ تسع آيات ؛ تقول : خذ لي عشراً من الإبل فيها فحلان ، أي : منها فحلان . وقد شرحنا الآيات في (بني إسرائيل : ١٠١) .

قوله تعالى : (إلى فرعون وقومه) أي : مُرْسَلاً إلى فرعون وقَومِه ، فحذف ذلك لأنه معروف . (فلما جاءَتهم آياتُنا مُبْصِرَةً) أي : بيِّنة واضحة ، وهو كقوله : (وآتينا ثمودَ الناقةَ مُبْصِرَةً) [الاسراء : ٥٩] وقد شرحناه .

قوله تعالى : (قالوا هذا) أي : هذا الذي نراه عياناً (سِحْرٌ مُبين) . (وجَحَدوا بها) أي : أنكروها (واستَيْقَنَتْها أنْفُسُهم) أنَّها مِنْ عند الله ، (ظُلْماً) أي : شِركاً (وعُلُوّاً) أي : تكبُّراً . قال الزجاج : المعنى : وجحدوا بها ظُلماً وعُلُوّاً ، أي : ترفُّعاً عن أن يؤمِنوا بما جاء به موسى وهم يعلمون أنها من عند الله .

---

(١) قال ابن كثير عن الآيات التسع : وقال ابن عباس ومجاهد وعكرمة والشعبي : هي : يده ، وعصاه ، والسنين ، ونقص الثمرات ، والطوفان ، والجراد ، والقمَّل ، والضفادع ، والدم ، ثم قال : وهذا القول ظاهر جلي حسن قوي . اهـ . وقد ذكر الله عز وجل في هذه الآيات آيتين من تسع آيات ، وهما العصا واليد ، وبيَّن الآيات الباقيات في سورة (الأعراف : ١٣٣) وفصَّلها .

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَنَ عِلْماً وَقَالاَ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ . وَوَرِثَ سُلَيْمَنُ دَاوُدَ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ . وَحُشِرَ لِسُلَيْمَنَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ . حَتَّى إِذَا أَتَوْا عَلَى وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَنُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ . فَتَبَسَّمَ ضَاحِكاً مِنْ قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحاً تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ ﴾

قوله تعالى : (ولقد آتينا داود وسليمان عِلْماً) قال المفسرون : عِلْماً بالقضاء وبكلام الطير والدواب وتسبيح الجبال (وقالا الحمدُ لله الذي فضّلَنا) بالنبوّة والكتاب وإلانة الحديد وتسخير الشياطين والجن والإنس (على كثير من عباده المؤمنين) قال مقاتل : كان داود أشد تعبُّداً من سليمان ، وكان سليمان أعظمَ مُلْكاً منه وأفطن .

قوله تعالى : (وَوَرِث سليمانُ داودَ) أي : ورث نبوّته وعِلْمه ومُلْكه ، وكان لداود تسعة عشر ذكراً ، فخصّ سليمان بذلك ، ولو كانت وراثة مال لكان جميع أولاده فيها سواء .

قوله تعالى : (وقال) يعني سليمان لبني إسرائيل (يا أيُّها الناسُ عُلِّمْنا مَنْطِقَ الطَّيْر) قرأ أُبَيُّ بن كعب : « عَلَّمْنا » بفتح العين واللام . قال الفراء : « مَنْطِقَ الطَّير » : كلام الطَّير كالمنطق إذا فُهِم ، قال الشاعر :

عَجِبْتُ لها أنَّى يَكُونُ غِناؤها فَصِيحاً ولم تَفْغَرْ بمَنْطِقِها فَمَا [١]

ومعنى الآية : فهمنا ما تقول الطَّير . قال قتادة : والنمل من الطَّير . (وأُوتِينا من كُلِّ شيء) قال الزجاج : أي : من كل شيء يجوز أن يؤتاه الأنبياء والناس . وقال مقاتل : أُعطينا المُلك والنبوَّة والكتاب والرِّياح ومَنْطِق الطَّير ، وسخِّرت لنا الجنّ والشياطين .

وروى جعفر بن محمد عن أبيه ، قال : أُعطي سليمان مُلْك مشارق الأرض ومغاربها ، فملك سبعمائة سنة وستة أشهر ، وملك أهلَ الدنيا كلَّهم من الجن والإنس والشياطين والدواب والطير والسباع ، وأُعطي عِلْم كل شيء ومنطق كل شيء ، وفي زمانه صُنعت الصنائع المعجِبة ، فذلك قوله : (عُلِّمنا مَنْطِقَ الطَّير وأُوتينا من كلِّ شيء) [٢] .

قوله تعالى : (إنَّ هذا) يعني : الذي أُعطينا (لَهُوَ الفَضْلُ المُبِينُ) أي : الزيادة الظاهرة على ما أُعطي غيرنا . (وحُشِر لسليمان جنودُه) أي : جُمع له كل صِنف من جُنده على حِدَة ، وهذا كان في مسيرٍ له ، (فهم يُوزَعُون) قال مجاهد : يُحبَس أوَّلُهم على آخرهم . قال ابن قتيبة : وأصل الوَزْع : الكَفُّ والمنع . يقال : وزَعْتُ الرَّجل ، أي : كففته ، ووازِعُ الجيش : الذي يكفُّهم عن التفرُّق ، ويردُّ مَنْ شَذَّ منهم .

قوله تعالى : (حتَّى إذا أَتَوا) أي : أشرفوا (على وادي النَّمْل) وفي موضعه قولان .

---

(١) البيت لحُميد بن ثور ، وهو في « اللسان » و « التاج » : فغر ؛ ويعني بالمَنطق بكاءها .

(٢) ذكر هذا المعنى الطبرسي في « مجمع البيان » عن الواحدي ، من طريق محمد بن جعفر بن محمد عن أبيه ، وذكره السيوطي أيضاً في « الدر » : ٥/١٠٣ ونسبه للحاكم ثم قال : قال الذهبي : هذا باطل .

أحدهما : أنه بالطّائف ، قاله كعب . والثاني : بالشّام ، قاله قتادة [1] .

قوله تعالى : (قالتْ نَمْلَةٌ) وقرأ أبو مجلز ، وأبو رجاء ، وعاصم الجحدري ، وطلحة بن مصرف : « [illegible] » بضم الميم ؛ أي : صاحت بصوت ، فلما كان ذلك الصوت [illegible] عبّر عنه بالقول ؛ ولمّا نَطَقَ النّمل كما ينطق بنو آدم ، أجري مجرى الآدميين ، فقيل : (ادخُلوا) ، وألهم الله تلك النملة معرفة سليمان مُعْجِزاً له ، وقد ألهم الله النمل كثيراً من مصالحها تزيد به على الحيوانات ، فمن [illegible] أنها تكسر كل حبّة تدّخرها قطعتين لئلا تَنْبُت ، إلا الكُزْبرة فانها [illegible] لأنها تنبُت إذا كُسرت قطعتين ، فسبحان من ألهمها هذا !

[illegible] النملة قولان .

[illegible] كهيئة النعجة ، قال نوف الشامي [2] : كان النمل في زمن سليمان [illegible] الذئاب .

والثاني [illegible] نملة صغيرة .

(ادخلوا [illegible]) وقرأ أُبيّ بن كعب ، وأبو المتوكل ، وعاصم الجحدري : « مسكنكم » [illegible]

قوله تعالى : (لا يَحْطِمَنَّكُمْ) الحَطْم : الكَسْر . وقرأ أُبيّ بن كعب ، وأبو رجاء : « لَيَحْطِمَنْكُمْ » بغير ألف بعد اللام . وقرأ ابن مسعود :

---

(١) قال ابن كثير : ومن قال من المفسرين : إن هذا الوادي كان بأرض الشام أو بغيره وإن هذه النملة كانت ذات جناحين كالذباب أو غير ذلك من الأقاويل فلا حاصل لها .

(٢) هو نوف بن فضالة الحميري البكالي ، إمام أهل دمشق في عصره ، من رجال الحديث ، ورد ذكره في « الصحيحين » ، وكان راوياً للقصص ، وهو ابن زوجة كعب الأحبار ، توفي سنة ٩٥ هـ .

« لا يَحْطِمْكُمْ » بفتح الياء وسكون الحاء وتخفيف الطاء وسكون الميم وحذف النون . وقرأ عمرو بن العاص ، وأبان : « يَحْطِمَنْكُمْ » بفتح الياء وسكون الحاء والنون ساكنة أيضاً والطاء خفيفة . وقرأ أبو المتوكل ، وأبو مجلز : « لا يَحِطِّمَنَّكُمْ » بفتح الياء وكسر الحاء وتشديد الطاء والنون جميعاً . وقرأ ابن السميفع ، وابن يعمر ، وعاصم الجحدري : « يُحْطِمَنَّكُمْ » برفع الياء وسكون الحاء وتخفيف الطاء وتشديد النون . والحَطْمُ : الكَسْر ، والحُطَام : ما تحطَّم . قال مقاتل : سمع سليمان كلامها من ثلاثة أميال .

وفي قوله : (وهم لا يَشْعُرون) قولان .

أحدهما : وأصحاب سليمان لم يشعروا بكلام النملة ، قاله ابن عباس .

والثاني : وأصحاب سليمان لا يَشْعُرون بمكانكم ، لأنها علمتْ أنَّه ملك لا بغي فيه ، وأنهم لو علموا بالنمل ما توطَّؤوهم ، قاله مقاتل .

قوله تعالى : (فتبسَّمَ ضاحكاً) قال الزجاج : « ضاحكاً » منصوب ، حال مؤكَّدة ، لأن « تبسّم » بمعنى « ضحك » . قال المفسرون : تبسم تعجُّباً ممَّا قالت ، وقيل : من ثنائها عليه . وقال بعض العلماء : هذه الآية من عجائب القرآن ، لأنها بلفظة « يا » نادت « أيها » نبهت « النمل » عيَّنت « ادخلوا » أمرت « مساكنَكم » نصَّت « لا يحطمنَّكم » حذَّرت « سليمانُ » خصَّت « وجنوده » عمَّت « وهم لا يشعُرون » عذرت .

قوله تعالى : (وقال ربِّ أوْزِعْني) قال ابن قتيبة : ألهِمْني ، أصل الإيزاع : الإغراء بالشيء ، يقال : أوزَعْتُه بكذا ، أي : أغريتُه به ، وهو مُوزَعٌ بكذا ، ومُولَعٌ بكذا . وقال الزجاج . تأويله في اللغة : كُفَّني عن الأشياء إلا عن شُكر نِعمتك ؛ والمعنى : كُفَّني عمَّا يُباعِد منك ، (وأن أعْمَلَ) أي :

وألهمني أن أعمل (صالحاً ترضاه) قال المفسرون : إنما شكر الله عز وجل لأن الريح أبلغت إليه صوتها ففهم ذلك .

﴿ وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَالِيَ لا أرى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ . لأُعَذِّبَنَّهُ عَذَاباً شَدِيداً أَوْ لأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ . فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطْتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَأٍ بِنَبَأٍ يَقِينٍ . إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ . وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لا يَهْتَدُونَ . أَلَّا يَسْجُدُوا للهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ . اللهُ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴾

قوله تعالى : (وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ) التفقُّد : طلب ما غاب عنك ؛ والمعنى أنه طلب ما فقد من الطير ؛ والطَّير اسم جامع للجنس ، وكانت الطَّير تصحب سليمان في سفره تُظلُّه بأجنحتها (فقال ماليَ لا أرى الهُدْهُدَ) قرأ ابن كثير ، وعاصم ، والكسائي : « ما ليَ لا أرى الهُدْهُدَ » بفتح الياء . وقرأ نافع ، وأبو عمرو ، وابن عامر ، وحمزة بالسكون ، والمعنى : ما للهدهد [لا أراه] ؟ ! تقول العرب : مالي أراك كئيباً ، أي : مالكَ ؛ فهذا من المقلوب الذي معناه معلوم . قال المفسرون : لمَّا فصَل سليمان عن وادي النمل ، وقع في قفر من الأرض ، فعطش الجيش فسألوه الماء ، وكان الهدهد يدلُّه على الماء ، فاذا قال له : هاهنا الماء ، شقَّقت الشياطين الصَّخر وفجَّرت العيون قبل أن يضربوا أبنيتهم ، وكان الهدهد يرى الماء في الأرض كما يرى الماء في الزجاجة ، فطلبه يومئذ فلم يجده .

وقال بعضهم : إنما طلبه لأن الطَّير كانت تُظِلُّهم من الشمس ، فأخلَّ الهدهد بمكانه ، فطلعت الشمس عليهم من الخلل .

قوله تعالى : (أمْ كان) قال الزجاج : معناه : بل كان .

قوله تعالى : (لأُعَذِّبَنَّهُ عذاباً شديداً) فيه ستة أقوال .

أحدها : نتف ريشه ، قاله ابن عباس ، والجمهور . والثاني : نتفه وتشميسه ، قاله عبد الله بن شداد . والثالث . شد رجله وتشميسه ، قاله الضحاك . والرابع : أن يطليَه بالقطران ويشمّسه ، قاله مقاتل بن حيان . والخامس : أن يودِعه القفص والسادس : أن يفرِّق بينه وبين إلفه ، حكاهما الثعلبي .

قوله تعالى : (أو ليَأْتِيَنِّي) وقرأ ابن كثير : « ليَأْتِيَنَّنِي » بنونين ، وكذلك هي في مصاحفهم . فأما السلطان ، فهو الحُجَّة ، وقيل : العُذر .

وجاء في التفسير أن سليمان لما نزل في بعض مسيره ، قال الهدهد : إنه قد اشتغل بالنزول فأرتفع أنا إلى السماء فأنظر إلى طول الدنيا وعرضها ، فارتفع فرأى بستاناً لبلقيس ، فمال إلى الخُضرة فوقع فيه ، فاذا هو بهدهد قد لقيَه ، فقال : من أين أقبلت ؟ قال : من الشام مع صاحبي سليمان ، فمن أين أنت ؟ قال : من هذه البلاد ، وملكها امرأة يقال لها : بلقيس ، فهل أنت مُنطلق معي حتى ترى مُلكها ؟ قال : أخاف أن يتفقَّدني سليمان وقت الصلاة إذا احتاج إلى الماء ، قال : إن صاحبك يسرُّه أن تأتيَه بخبر هذه الملِكة ، فانطلق معه ، فنظر إلى بلقيس ومُلكها ، (فمَكث غير بعيد) قرأ الجمهور بضم الكاف ، وقرأ عاصم بفتحها ، وقرأ ابن مسعود : « فتمكّث » بزيادة تاء ؛ والمعنى : لم يلبث إلا يسيراً حتى جاء ، فقال سليمان : ماالذي أبطأ بك ؟ (فقال أحَطْتُ بما لم تُحِطْ به) أي : علمتُ شيئاً من جميع جهاته مما لم تعلم [به] (وجِئْتُكَ من سَبَأٍ) قرأ ابن كثير ،

وأبو عمرو : « سَبَأَ » نصباً غير مصروف ، وقرأ الباقون خفضاً منوّناً . وجاء في الحديث عن رسول الله ﷺ أن سبأ رجل من العرب (١) . وقال قتادة : هي أرض باليمن يقال لها : مأرب . وقال أبو الحسن الأخفش : إن شئتَ صرفت « سبأ » فجعلته اسم أبيهم ، أو اسم الحيِّ ، وإن شئتَ لم تصرف فجعلته اسم القبيلة ، أو اسم الأرض . قال الزجاج : وقد ذكر قوم من النحويين أنه اسم رجل . وقال آخرون : الاسم إذا لم يُدرَ ماهو لم يُصرف ؛ وكلا القولين خطأٌ ، لأن الأسماء حقّها الصّرف ، وإذا لم يُعلم هل الاسم للمذكّر أم للمؤنّث ، فحقّه الصّرف حتى يُعلم أنّه لاينصرف ، لأن أصل الأسماء الصرف . وقول الذين قالوا : هو اسم رجل ، غلط ، لأن سبأ هي مدينة تُعرف بمأرب من اليمن ، بينها وبين صنعاء مسيرة ثلاثة أيام ، فمن لم يصرفه جعله اسم مدينة ، ومن صرفه فلأنّه اسم البلد ، فيكون مذكّراً سمي بمذكّر .

قوله تعالى : (بنبأٍ يقينٍ) أي : بخبر صادق ، (إني وجدتُ امرأةً تملكُهم) يعني بلقيس (وأوتيتْ من كل شيء) قال الزجاج : معناه : من كل شيء يُعطاه الملوك ويؤتاه الناس . والعرش : سرير الملك . قال قتادة : كان عرشها من ذهب ، قوائمه من جوهر مكلّل باللؤلؤ ، وكان أحد أبويها من الجنّ ، وكان مؤخّر أحد قدميها مثل حافر الدابة . وقال مجاهد : كان قدماها كحافر الحمار . وقال ابن السائب : لم يكن بقدميها شيء ، إنما وقع الجنّ فيها عند سليمان بهذا القول ، فلمّا جعل لها الصرح بان له كذبُهم . قال مقاتل : كان ارتفاع عرشها

(١) روى الترمذي في« سننه » ٢/١٥٤ عن فروة بن مسيك المرادي قال : قال رجل : يارسول الله! وما سبأ ، أرض أو امرأة ؟ قال : « ليس بأرض ولا امرأة ، ولكنه رجل ولد عشرة من العرب . . . » الحديث . قال الترمذي : هذا حديث غريب حسن . ورواه الطبري ٢٢/٧٦ . وقال الحافظ ابن حجر في « الاصابة » في ترجمة فروة بن مسيك عن هذا الحديث : وأخرجه ابن سعد ، وأبو داود ، والترمذي ، وابن السكن مطوّلاً ومختصراً .

ثمانين ذراعاً في عرض ثمانين ، وكانت أُمُّها من الجنّ . قال ابن جرير : وإنما صار هذا الخبر عُذْراً للهدهد ، لأن سليمان كان لايرى لأحد في الأرض مملكة سواه ، وكان مع ذلك يحبُّ الجهاد ، فلمَّا دلّه الهدهد على مملكةٍ لغيره ، وعلى قومٍ كفَرة يجاهدم ، صار ذلك عُذراً له .

قوله تعالى : (أَلّا يَسْجُدوا) قرأ الأكثرون : « أَلّا » بالتشديد . قال الزجاج : والمعنى : وزيَّن لهم الشيطان أَلّايسجدوا ، أي : فصدَّم لئلاَّ يسجُدوا . وقرأ ابن عباس ، وأبو عبد الرحمن السلمي ، والحسن ، والزهري ، وقتادة ، وأبو العالية ، وحميد الأعرج ، والأعمش ، وابن أبي عبلة ، والكسائي : « ألا يسجُدوا » مخفَّفة، على معنى: ألا ياهؤلاء اسجُدوا ، فيكون في الكلام إضمار « هؤلاء » ويُكتفى منها بـ « يا » ، ويكون الوقف « ألا يا » والابتداء « اسجدوا » ؛ قال الفراء : فعلى هذه القراءة هي سجدة ، وعلى قراءة من شدَّد لاينبغي لها أن تكون سجدة . وقال أبو عبيدة : هذا أمر من الله مستأنَف ، يعني : ألا ياأيُّها الناس اسجدوا . وقرأ ابن مسعود ، وأُبيٌّ : « هلاَّ يسجدوا » بهاء .

قوله تعالى : (الذي يُخرِجُ الخَبْءَ في السَّموات والأرض) قال ابن قتيبة : أي : المُستَتِر فيها ، وهو من خَبَأْتُ الشيءَ : إذا أخفيته ، ويقال : خبْء السموات : المطر ، وخبء الأرض : النبات . وقال الزجاج : كل ما خبأْته فهو خَبْء ، فالخَبْء : كُلُّ ماغاب ؛ فالمعنى : يعلم الغيب في السموات والأرض . وقال ابن جرير : « في » بمعنى « مِنْ » ، فتقديره : يُخرج الخَبْءَ من السموات .

قوله تعالى : (ويَعْلَمُ ما تُخفُونَ وما تُعلِنُونَ) قرأ حفص [عن] عاصم ، والكسائي بالتاء فيهما . وقرأ الباقون بالياء . قال ابن زيد : من قوله : (أَحَطْتُ) إلى قوله : (العَظِيمِ) كلام الهدهد . وقرأ الضحاك ، وابن محيصن : « العَظِيمُ » برفع الميم .

﴿ قَالَ سَنَنْظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ . اِذْهَبْ بِكِتَابِي هٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانْظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ . قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَؤُا إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ . إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمٰنَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ . أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ﴾

فلما فرغ الهدهد من كلامه (قال سَنَنْظُرُ) فيما أخبرتَنا به (أَصَدَقْتَ) فيما قلتَ (أم كنتَ من الكاذبين) وإنما شكَّ في خبره ، لأنه أنكر أن يكون لغيره في الأرض سلطان . ثم كتب كتاباً وختمه بخاتَمه ودفعه إلى الهدهد وقال: (اذهب بكتابي هذا فأَلقِهْ إليهم) قرأ ابن كثير ، وابن عامر ، والكسائي : « فأَلْقِهي » موصولة بياء . وقرأ أبو عمرو ، وعاصم ، وأبو جعفر ، وحمزة : « فأَلْقِهْ » بسكون الهاء ، وروى قالون عن نافع كسر الهاء من غير إشباع ؛ ويعني إلى أهل سبأ ، (ثُمَّ تَوَلَّ عنهم) فيه قولان .

أحدهما : أعْرِض . والثاني : انْصَرِف ، (فانظُر ماذا يَرْجِعون) أي : ماذا يَرُدُّون من الجواب .

فان قيل : إذا تولّى عنهم فكيف يعلم جوابهم ؟ فمنه جوابان .

أحدهما : أن المعنى : ثم تولَّ عنهم مستتراً من حيث لايرونك ، فانظر ماذا يردُّون من الجواب ، وهذا قول وهب بن منبِّه .

والثاني : أن في الكلام تقديماً وتأخيراً ، تقديره : فانظر ماذا يرجِعون ثم تولّ عنهم ، وهذا مذهب ابن زيد .

قال قتادة : أتاها الهدهد وهي نائمة فألقى الكتاب على نحرها فقرأته وأخبرت قومها . وقال مقاتل : حمله في منقاره حتى وقف على رأس المرأة ، فرفرف ساعة

والناس ينظُرون ، فرفعت رأسها فألقى الكتاب في حِجْرها ، فلما رأت الخاتَم أُرْعِدَتْ وخضعتْ وخضع مَنْ معها من الجنود .

واختلفوا لأيِّ عِلَّة سمَّته كريماً على سبعة أقوال .

أحدها : لأنه كان مختوماً ، رواه سعيد بن جبير عن ابن عباس والثاني : لأنها ظنَّته من عند الله عز وجل ، روي عن ابن عباس أيضاً . والثالث : أن معنى قولها : « كريمٌ » : حَسَنٌ ما فيه ، قاله قتادة ، والزجاج . والرابع : لكَرَم صاحبه ، فانه كان ملِكاً ، ذكره ابن جرير . والخامس : لأنه كان مَهيباً ، ذكره أبو سليمان الدمشقي . والسادس : لتسخير الهدهد لحمله ، حكاه الماوردي . والسابع : لأنها رأت في صدره « بسم الله الرحمن الرحيم » ، حكاه الثعلبي .

قوله تعالى : (إنَّه من سُليمان) أي : إن الكتاب من عنده (وإنَّه) أي : وإنَّ المكتوب (بسم الله الرحمن الرحيم . ألاَّ تَعْلُوا عَلَيَّ) أي : لا تتكبروا . وقرأ ابن عباس : « تَغْلُوا » بغين معجمة (وأْتُوني مُسْلِمِينَ) أي : منقادين طائعين . ثم استشارت قومها ، فـ (قالت يا أيُّها الملأُ) يعني الأشراف ، وكانوا ثلاثمائة وثلاثة عشر قائداً ، كل رجل منهم على عشرة آلاف . وقال ابن عباس : كان معها مائة ألف قَيْل [1] ، مع كل قَيْل مائة ألف . وقيل : كانت جنودها ألف ألف ومائتي ألف .

﴿ قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَؤُا أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنْتُ قَاطِعَةً أَمْراً حَتَّى تَشْهَدُونِ . قَالُوا نَحْنُ أُولُوا قُوَّةٍ وَأُولُوا بَأْسٍ شَدِيدٍ وَالأَمْرُ إِلَيْكِ فَانْظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ . قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً

(١) القَيْل ، بفتح فسكون : ملك من ملوك حِمْيَر دون الملك الأعظم ، وجمعه أقوال ، وأقيال

أفسدوها وجعلوا أعزَّةَ أهلِهَا أذِلَّةً وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ . وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ ﴾

قوله تعالى : (أَفْتُونِي فِي أمري) أي : بيّنوا لي ما أفعل ، وأشيروا عليّ .

قال الفراء : جعلت المشورة فُتيا ، وذلك جائز لسعة اللغة .

قوله تعالى : (ما كنتُ قاطعةً أمراً) أي : فاعلة (حتى تَشْهَدُون)

أي : تحضرون ؛ والمعنى : إلا بحضوركم ومشورتكم .

(قالوا نحن أُولُو قوّة) فيه قولان .

أحدهما : أنهم أرادوا القُوة في الأبدان . والثاني : كثرة العدد والبأس والشجاعة في الحرب .

وفيما أرادوا بذلك القول قولان . أحدهما : تفويض الأمر إلى رأيها .

والثاني : تعريض منهم بالقتال إن أمرتهم .

ثم قالوا : (والأمر إليكِ) أي : في القتل وتركه . (قالت إن الملوك إذا دخلوا قرية) قال الزجاج : المعنى : إذا دخلوها عَنْوة عن قتال وغلَبة .

قوله تعالى : (أفسَدوها) أي : خرّبوها (وجعلوا أعزّة أهلها أذلّة) أي : أهانوا أشرافها ليستقيم لهم الأمر . ومعنى الكلام : أنها حذّرتهم مسير سليمان إليهم ودخوله بلادها .

قوله تعالى : (وكذلك يَفْعَلون) فيه قولان .

أحدهما : أنه من تصديق الله تعالى لقولها ، قاله الزجاج .

والثاني : من تمام كلامها ؛ والمعنى : وكذلك يفعل سليمان وأصحابه إذا دخلوا بلادنا ، حكاه الماوردي .

قوله تعالى : (وإنّي مُرْسِلة إليهم بهديَّة) قال ابن عباس : إنما أرسلَت الهديَّة لتعلم أنه إن كان نبيّاً لم يُرِد الدُّنيا ، وإن كان مَلِكاً فسيرضى بالحَمْل ، وأنها بعثت ثلاث لَبِنات مِنْ ذهب في كل لَبِنة مائة رطل ؛ وياقوتةً حمراء طولها شِبر مثقوبة ، وثلاثين وصيفاً وثلاثين وصيفة ، وألبستْهم لباساً واحداً حتى لا يُعرف الذكر من الأُنثى ، ثم كتبتْ إليه : إنّي قد بعثتُ إليكَ بهديَّة فاقبلها ، وبعثتُ إليكَ بياقوتة طولها شبر ، فأدخل فيها خيطاً واختِم على طرفي الخيط بخاتَمك ، وقد بعثت إليكَ ثلاثين وصيفاً وثلاثين وصيفة ، فميِّز بين الجواري والغلمان ؛ فجاء أمير الشياطين فأخبره بما بعثتْ إليه ، فقال له : انطلق فافرش على طريق القوم من باب مجلسي ثمانية أميال في ثمانية أميال [لَبِناً] من الذهب ؛ فانطلق ، فبعث الشياطين ، فقطعوا اللَّبِن من الجبال وطلَوه بالذهب وفرشوه ، ونصبوا في الطريق أساطين الياقوت الأحمر ، فلمّا جاء الرُّسُل ، قال بعضهم لبعض : كيف تدخُلون على هذا الرجل بثلاث لَبِنات ، وعنده ما رأيتم ؟! فقال رئيسهم : إنما نحن رُسُل ، فدخلوا عليه ، فوضعوا اللَّبِن بين يديه ، فقال : أَتُمِدُّونني بمال ؛ ثم دعا ذَرَّةً [١] فربط فيها خيطاً وأدخلها في ثَقْب الياقوتة حتى خرجت من طرفها الآخر [٢] ، ثم جمع بين طرفي الخيط فختم عليه ودفعها إليهم ، ثم ميَّز بين الغلمان والجواري ، هذا كلُّه مرويّ عن ابن عباس [٣] . وقال مجاهد : جعلت لباس الغلمان للجواري ولباس الجواري للغلمان ، فميَّزهم ولم يقبل هديَّتها .

---

(١) الذَّرُّ : صغار النمل ، واحدته ذَرَّة .

(٢) وفي بعض التفاسير : فجاءت الأرضة فأخذت شعرة في فيها ودخلت فيها حتى خرجت من الجانب الآخر .

(٣) قال ابن كثير : والله أعلم أكان ذلك ، أم لا ، وأكثره مأخوذ من الاسرائيليات ، والظاهر أن سليمان عليه السلام لم ينظر إلى ماجاؤوا به بالكلية ، ولا اعتنى به ، بل أعرض عنه .

وفي عدد الوصائف والوُصفاء خمسة أقوال .

أحدها : ثلاثون وصيفاً وثلاثون وصيفة ، وقد ذكرناه عن ابن عباس . والثاني : خمسمائة غلام وخمسمائة جارية ، قاله وهب . والثالث : مائتا غلام ومائتا جارية ، قاله مجاهد . والرابع : عشرة غلمان وعشر جوارٍ ، قاله ابن السائب . والخامس : مائة وصيف ومائة وصيفة ، قاله مقاتل .

وفي ما ميَّزهم به ثلاثة أقوال .

أحدها : أنه أمرهم بالوضوء ، فبدأ الغلام من مرفقه إلى كفِّه ، وبدأت الجارية من كفِّها إلى مرفقها ، فميَّزهم بذلك ، قاله سعيد بن جبير .

والثاني : أن الغِلمان بدؤوا بغَسْل ظُهور السَّواعد قبل بُطونها ، والجواري على عكس ذلك ، قاله قتادة .

والثالث : أن الغلام اغترف بيده ، والجارية أفرغت على يدها ، قاله السدي . وجاء في التفسير أنها أمرت الجواري أن يكلِّمن سليمان بكلام الرجال ، وأمرت الرجال أن يكلِّموه كلام النساء ، وأرسلت قَدَحاً تسأله أن يملأها ماءً ليس من [ماء] السماء ولا من ماء الأرض ، فأجرى الخيل وملأه من عرقها [1] .

قوله تعالى : (فناظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلون) أي : بقَبُول أم بِردّ . قال ابن جرير : وأصل « بِمَ » : بِما ، وإنما أُسقطت الألف لأن العرب إذا كانت « ما » بمعنى « أيّ » ثم وصلوها بحرف خافض ، أسقطوا ألفها ، تفريقاً بين الاستفهام والخبر ، كقوله : (عَمَّ يتساءلون ؟) [النبأ : ١] و (قالوا فيم كنتم ؟) [النساء : ٩٧] ، وربما أثبتوا فيها الألف كما قال الشاعر :

---

(١) قال الآلوسي عن مثل هذه الأخبار : وكل ذلك أخبار لايدرى صحتها ولا كذبها ، ولعل في بعضها مايميل القلب إلى القول بكذبه ، والله أعلم .

عَلَى مَا قَامَ يَشْتُمُنَا لَئِيمٌ كَخِنْزِيرٍ تَمَرَّغَ فِي رَمَادِ؟[1]

﴿ فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَنَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَا آتَـٰنِيَ اللَّهُ خَيْرٌ مِمَّا آتَـٰكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ . اِرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ بِجُنُودٍ لَاقِبَلَ لَهُمْ بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُمْ مِنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ . قَالَ يَاأَيُّهَا الْمَلَؤُا أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ . قَالَ عِفْرِيتٌ مِنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ . قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرّاً عِنْدَهُ قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ ﴾

قوله تعالى : (فلما جاء سليمانَ) قال الزجاج : لما جاء رسولُها ، ويجوز : فلمَّا جاء بِرُّها .

قوله تعالى : (أتُمِدُّونَني بمال) قرأ ابن كثير ، ونافع ، وأبو عمرو : « أَتُمِدُّونَني » بنونين وياء في الوصل . وروى المسيّبي عن نافع : « أَتُمِدُّوني » بنون واحدة خفيفة وياء في الوصل والوقف . وقرأ عاصم ، وابن عامر ، والكسائي : « أَتُمِدُّونَنِ » بغير ياء في الوصل والوقف . وقرأ حمزة : « أَتُمِدُّونِّي بمال » بنون واحدة مشددة ووقف على الياء .

قوله تعالى : (فما آتانيَ اللهُ) قرأ ابن كثير ، وابن عامر ، وحمزة ، والكسائي ، وأبو بكر عن عاصم : « فما آتانِ اللهُ » بكسر النون من غير ياء . وقرأ أبو عمرو ، ونافع ، وحفص عن عاصم : « آتانيَ » بفتح الياء . وكلُّهم

---

(١) البيت لحسان بن ثابت ، ديوانه : ١٤٣ ، و « الطبري » ١٩/١٥٦ ، و « القرطبي » : ١٣/٢٠٠ .

فتحوا التاء غير الكسائي ، فانه أمالها من « آتانيَ اللهُ » ، وأمال حمزة : « أنا آتيكَ به » أشمَّ النون شيئاً من الكسر ، والمعنى : فما آتاني الله ، أي : من النبوَّة والملك (خيرٌ مما آتاكم) من المال (بل أنتم بهديَّتكم تَفرَحون) يعني إذا أهدى بعضكم إلى بعض فرح ، فأمّا أنا فلا ، ثم قال للرسول : (إرجع إليهم فلنأتينَّهم بجنود لا قِبَلَ) أي : لاطاقة (لهم بها ولنُخرِجنَّهم منها) يعني بلدتهم . فلمّا رجعتْ رسلُهـا إليها بالخبر ، قالت : قد علمتُ أنَّه ليس بملك ومالنـا به طاقة ، فبعثتْ إليه : إني قادمة عليك بملوك قومي لأنظر ما تدعو إليه ، ثم أمرت بعرشها فجُعل وراء سبعة أبواب ، ووكّلتْ به حرساً يحفظونه ، وشخصت إلى سليمان في اثني عشر ألف ملِك ، تحت يدي كل ملِك منهم ألوف . وكان سليمان مَهيباً لا يُبتَدأ بشيء حتى يسأل عنه ، فجلس يوماً على سرير ملكه فرأى رهجاً قريباً منه ، فقال : ما هذا ؟ قالوا : بلقيس قد نزلت بهذا المكان ، وكان قدر فرسخ ، وقد كان بلغه أنها احتاطت على عرشهـا قبل خروجهـا ، فـ (قال ياأيُّها الملأُ أيكم يأتيني بعرشها) ، وفي سبب طلبه له خمسة أقوال .

أحدها : ليعلم صِدق الهدهد ، قاله ابن عباس .

والثـاني : ليجعل ذلك دليلاً على صِدق نبوَّته ، لأنهـا خلّفته في دارهـا واحتاطت عليه ، فوجدته قد تقدَّمها ، قاله وهب بن منبه[١] .

والثالث : ليختبر عقلها وفطنتها ، أتعرفه أم تُنكِره ، قاله سعيد بن جبير .

والرابع : لأن صفته أعجبتْه ، فخشي أن تُسلِم فيحرم عليه مالها ، فـأراد أخذه قبل ذلك ، قاله قتادة .

والخامس : ليريَها قدرة الله تعالى وعِظَم سلطانه ، حكاه الثعلبي .

(١) وهذا هو أولى الأقوال بالصواب كما قال ابن جرير الطبري .

قوله تعالى : (قال عِفْريتٌ من الجِنّ) قال أبو عبيدة : العِفْريت من كل جِنّ أو إنس : الفائق المبالغ الرئيس . وقال ابن قتيبة : العِفْريت : الشديد الوثيق . وقال الزجاج : العفريت : النافذ في الأمر ، المبالغ فيه مع خُبث ودهاء .

وقرأ أُبيّ بن كعب ، والضحاك ، وأبو العالية ، وابن يعمر ، وعاصم الجحدري : « قال عَفْرِيت » بفتح العين وكسر الراء . وروى ابن أبي شريح عن الكسائي : « عِفْرِيَةٌ » بفتح الياء وتخفيفها ؛ وروي عنه أيضاً تشديدها وتنوين الهاء على التأنيث . وقرأ ابن مسعود ، وابن السميفع : « عِفْرَاةٌ » بكسر العين وفتح الراء وبألف من غير ياء .

قوله تعالى : (قَبْلَ أن تَقُوم من مَقامِكَ) أي : من مجلسك ؛ ومثله « في مَقَامٍ أمينٍ » [الدخان : ٥١] . وكان سليمان يجلس للقضاء بين الناس من وقت الفجر إلى طلوع الشمس ، وقيل : إلى نصف النهار . (وإنّي عليه) أي : على حمله (لَقَوِيٌّ) .

وفي قوله : (أمينٌ) قولان .

أحدهما : أمين على ما فيه من الجوهر والدُّرّ وغير ذلك ، قاله ابن السائب .

والثاني : أمين أن لا آتيك بغيره بدلاً منه ، قاله ابن زيد .

قال سليمان : أريد أسرع من ذلك . (قال الذي عنده عِلْمٌ مِنَ الكِتَاب) وهل هو إنسي أم مَلَك ؟ فيه قولان .

أحدهما : إنسيّ ، قاله ابن عباس ، والضحاك ، وأبو صالح . ثم فيه أربعة أقوال . أحدها : أنّه رجل من بني إسرائيل ، واسمه آصف بن برخيا ، قاله مقاتل . قال ابن عباس : دعا آصف - وكان آصف يقوم على رأس سليمان بالسيف - فبعث اللهُ الملائكة فحملوا السرير تحت الأرض يَخُدُّون الأرض خَدّاً ، حتى انخرقت

الأرض بالسرير بين يدي سليمان . والثاني : أنه سليمان عليه السلام ، وإنما قال له رجل : أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرْفك ، فقال : هات ، قال : أنت النبيُّ ابن النبيِّ ، فان دعوتَ اللهَ جاءكَ ، فدعا اللهَ فجاءه ، قاله محمد بن المكندر . والثالث : أنَّه الخضر ، قاله ابن لهيعة [1] . والرابع : أنه عابد خرج يومئذ من جزيرة في البحر فوجد سليمان فدعا فأُتيَ بالعرش ، قاله ابن زيد .

والقول الثاني : أنه من الملائكة . ثم فيه قولان .

أحدها : أنه جبريل عليه السلام . والثاني : مَلَك من الملائكة أيَّد اللهُ به سليمان ، حكاهما الثعلبي .

وفي العِلْم الذي عنده من الكتاب ثلاثة أقوال .

أحدها : أنه اسم الله الأعظم ، قاله ابن عباس ، ومجاهد ، وقتادة ، والجمهور .

والثاني : أنه عِلْم كتاب سليمان إلى بلقيس .

والثالث : أنه عِلْم ما كتب اللهُ لبني آدم ، وهذا على أنه مَلَك ، حكى القولين الماوردي .

وفي قوله : (قبل أن يَرْتَدَّ إليكَ طَرْفُك) أربعة أقوال .

أحدها : قبل أن يأتيك أقصى ماتنظر إليه ، قاله سعيد بن جبير .

والثاني : قبل أن ينتهي طرفك إذا مددته إلى مداه ، قاله وهب .

والثالث : قبل أن يرتد طرفك حسيراً إذا أدمتَ النظر ، قاله مجاهد .

والرابع : بمقدار ما تفتح عينك ثم تطرف ، قاله الزجاج . قال مجاهد : دعا فقال : ياذا الجلال والإكرام . وقال ابن السائب : إنما قال : ياحيُّ ياقيُّوم .

قوله تعالى : (فلمَّا رآه) في الكلام محذوف ، تقديره : فدعا اللهَ [فأُتيَ]

---

(١) قال ابن كثير عن هذا القول : وهو غريب جداً .

به ، فلمَّا رآه ، يعني : سليمان (مستقِراً عنده) أي : ثابتاً بين يديه (قال هذا) يعني : التمكّن من حصول المراد .

قوله تعالى : (أأشكُرُ أم أكفُر) فيه قولان .

أحدهما : أأشكر على السرير إذ أُتيتُ به ، أم أكفر إذا رأيتُ من هو دوني في الدنيا أعلم مني ، قاله ابن عباس .

والثاني : أأشكر ذلك من فضل الله عليَّ ، أم أكفر نعمته بترك الشكر له ، قاله ابن جرير .

﴿ قَالَ نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا نَنظُرْ أَتَهْتَدِي أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ . فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ أَهَكَذَا عَرْشُكِ قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ . وَصَدَّهَا مَا كَانَتْ تَعْبُدُ مِنْ دُونِ اللهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ كَافِرِينَ . قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَنْ سَاقَيْهَا قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُمَرَّدٌ مِنْ قَوَارِيرَ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾

قوله تعالى : (قال نكّروا لها عرشها) قال المفسرون : خافت الشياطين أن يتزوج سليمان بلقيس فتُفشي إليه أسرار الجن ، لأن أُمَّها كانت جِنّية ، فلا ينفكّون من تسخير سليمان وذرّيّته بعده ، فأساؤوا الثناء عليها وقالوا : إن في عقلها شيئاً ، وإن رجلها كحافر الحمار ، فأراد سليمان [أن] يختبر عقلها بتنكير عرشها ، وينظر إلى قدميها ببناء الصرح . قال ابن قتيبة : ومعنى « نكّروا » : غيّروا ، يقال : نكّرت الشيء فتنكّر ، أي : غيّرته فتغيّر .

وللمفسرين في كيفية تغييره ستة أقوال .

أحدها : أنه زِيد فيه ونقص منه ، رواه العوفي عن ابن عباس .

والثاني : أنهم جعلوا صفائح الذهب التي كانت عليه مكان صفائح الفضة ، وصفائح الفضة مكان صفائح الذهب ، والياقوتَ مكان الزَّبَرْجَد ، والدُّرَّ مكان اللؤلؤ ، وقائمتَي الزَّبَرْجَد مكان قائمتَي الياقوت ، قاله ابن عباس أيضاً .

والثالث : أنهم نزعوا ماعليه من فصوصه وجواهره ، روي عن ابن عباس أيضاً .

والرابع : أنهم جعلوا ماكان منه أحمرَ أخضرَ ، وماكان أخضر أحمر ، قاله مجاهد .

والخامس : أنهم جعلوا أسفله أعلاه ، ومُقَدَّمه مُؤخَّره ، وزادوا فيه ، ونقصوا منه ، قاله قتادة .

والسادس : أنهم جعلوا فيه تماثيل السَّمك ، قاله أبو صالح .

وفي قوله : (كأنّه هو) قولان .

أحدها : أنها لمَّا رأته جعلت تَعرِف وتُنكِر ، ثم قالت في نفسها : من أين يَخلُص إلى ذلك وهو في سبعة أبيات والحرس حوله ؟! ثم قالت : كأنه هو ، قاله أبو صالح عن ابن عباس . وقال قتادة : شبَّهتْه بعرشها . وقال السدي : وجدت فيه ماتعرفه فلم تُنكِر ، ووجدت فيه ماتُنكِره فلم تُثبِت ، فلذلك قالت : كأنه هو .

والثاني : أنَّها عرفته ، ولكنها شبَّهتْ عليهم كما شبَّهوا [عليها] ، فلو أنهم قالوا : هذا عرشكِ ، لقالت : نعم ، قاله مقاتل . قال المفسرون : فقيل لها : فانه عرشكِ ، فما أغنى عنكِ إغلاق الأبواب ؟!

وفي قوله : (وأُوتينا العِلْم) ثلاثة أقوال .

أحدها : أنه قول سليمان ، قاله مجاهد . ثم في معناه قولان . أحدهما : وأوتينا العِلْم بالله وقدرته على مايشاء من قبل هذه المرأة . والثاني : أوتينا العِلْم بإسلامها ومجيئها طائعة من قبل مجيئها وكُنَّا مُسْلِمِين لله .

والقول الثاني : أنه من قول بلقيس ، فانها لمَّا رأت عرشها ، قالت : قد عرفتُ هذه الآية ، وأوتينا العِلْم بصِحَّة نبوَّة سليمان بالآيات المتقدِّمة ، تعني أمر الهدهد والرُّسُلِ التي بُعثت من قَبْل هذه الآية ، وكُنَّا مُسْلِمِين منقادِين لأمرِكَ قبل أن نجيء .

والثالث : أنه من قول قوم سليمان ، حكاه الماوردي .

قوله تعالى : (وصدَّها ما كانت تعبُد مِنْ دون الله) قال الفراء : معنى الكلام : هي عاقلة ، إنَّما صدَّها عن عبادة الله عبادتُها الشمس والقمر ، وكان عادةً من دين آبائها ؛ والمعنى : وصدَّها أن تعبُد الله ماكانت تعبد ، قال : وقد قيل : صدَّها سليمانُ ، أي : منعها ماكانت تعبُد . قال الزجاج : المعنى : صدَّها عن الإيمان العادةُ التي كانت عليها ، لأنها نشأت ولم تعرِف إلا قوماً يعبُدون الشمس ، وبيَّن عبادتها بقوله : (إنَّها كانت من قوم كافرين) وقرأ سعيد بن جبير ، وابن أبي عبلة : « أنَّها كانت » بفتح الهمزة .

قوله تعالى : (قيل لها ادخُلي الصَّرْحَ) قال المفسرون : أمر الشياطين فبنَوا له صرحاً كهيئة السطح من زجاج .

وفي سبب أمره بذلك ثلاثة أقوال .

أحدها : أنه أراد أن يرَيها مُلكاً هو أعزُّ من مُلكها ، قاله وهب بن منبِّه .

والثاني : أنه أراد أن ينظر إلى قدمها من غير أن يسألها كشفها ، لأنه

قيل له: إن رجلها كحافر الحمار ، فأمر أن يُهيَّأ لها بيت من قوارير فوق الماء ، ووُضع سرير سليمان في صدر البيت ، هذا قول محمد بن كعب القرظي .

والثالث : أنه فعل ذلك ليختبرها كما اختبرته بالوصائف والوصفاء ، ذكره ابن جرير . فأمّا الصَّرْح ، فقال ابن قتيبة : هو القصر ، وجمعه : صُروح ، ومنه قول الهذليّ :

[على طُرُقٍ كنحور الرِّكا بِ] تَحسَبُ أعلامَهنَّ الصُّروحا[1]

قال : ويقال : الصَّرْحُ بلاطٌ اتُّخِذ لها من قوارير ، وجُعل تحتها ماء وسمك . قال مجاهد : كانت بِركة من ماء ضرب عليها سليمان قوارير . وقال مقاتل : كان قصراً من قوارير بني على الماء وتحته السَّمك .

قوله تعالى : (حَسِبَتْه لُجَّةً) وهي : مُعْظَم الماء (وكَشَفَتْ عن ساقَيْها) لدخول الماء ، فناداها سليمان (إنَّه صَرْحٌ مُمَرَّدٌ) أي : مملَّسٌ (مِنْ قَوارير) أي : من زُجاج ؛ فعلمتْ حينئذ أن مُلك سليمان من الله تعالى ، ف (قالت ربِّ إنِّي ظَلَمْتُ نَفْسي) أي : بعبادة غيرك[2] . وقيل : ظنَّت في سليمان أنه يريد تغريقها في الماء ، فلمَّا علمتْ أنه صَرْح ممرَّد قالت : ربِّ

(١) البيت لأبي ذؤيب الهذلي ، وهو في « ديوان الهذليين » : ١٣٦/١ ، و « غريب القرآن » : ٣٢٥ ، و « اللسان » و « التاج » : صرح .

(٢) قال ابن كثير في التفسير : والغرض أن سليمان عليه السلام اتخذ قصراً عظيماً منيفاً من زجاج لهذه الملكة ليريَها عظمة سلطانه وتمكُّنَه ، فلما رأت ما آتاه الله وجلالة ما هو فيه وتبصَّرت في أمره ، انقادت لأمر الله تعالى ، وعرفت أنه نبي كريم ، وملك عظيم ، وأسلمت لله عز وجل وقالت : (رب إني ظلمت نفسي) أي : بما سلف من كفرها وشركها وعبادتها وقومها للشمس من دون الله (وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين) أي : متابعة لدين سليمان في عبادته لله وحده لاشريك له الذي خلق كل شيء فقدَّره تقديراً . اهـ .

إنّي ظَلَمْتُ نفسي بذلك الظَّنِّ ، وأسلمتُ مع سليمان ، ثم تزوجها سليمان . وقيل : إنه ردَّها إلى مملكتها وكان يزورها في كل شهر مرة ويقيم عندها ثلاثة أيام ، وأنها ولدت منه . وقيل : إنه زوَّجها ببعض الملوك ولم يتزوجها هو [١] .

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ . قَالَ يَاقَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ . قَالُوا اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَنْ مَعَكَ قَالَ طَائِرُكُمْ عِنْدَ اللَّهِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ ﴾

قوله تعالى : (فاذا هم فريقان) أي : مؤمن وكافر (يختصمون) وفيه قولان .

أحدهما : أنه قولهم : (أتعْلَمون أنَّ صالحاً مُرْسَلٌ مِنْ ربِّه ...) الآيات [الأعراف : ٧٥ - ٨٠] .

والثاني : أنه قول كل فريق منهم : الحقُّ معي .

قوله تعالى : (لِمَ تَستَعْجِلونَ بالسَّيِّئة) وذلك حين قالوا : إن كان ما أتيتنا به حقّاً فائتنا بالعذاب . وفي السيِّئة والحسنة قولان .

أحدهما : أن السيِّئة : العذابُ ، والحسنة : الرحمة ، قاله مجاهد .

والثاني : [أن] السيِّئة : البلاءُ ، والحسنة : العافية ، قاله السدي .

قوله تعالى : (لولا) أي : هلاَّ (تَستغفِرونَ اللهَ) من الشِّرك (لعلَّكم تُرْحَمون) فلا تعذَّبون . (قالوا اطَّيَّرْنا) قال ابن قتيبة : المعنى : تَطَيَّرنا وتشاءمْنا (بك) ، فأُدغمت التاء في الطاء ، وأُثبتت الألف ، ليسلم السكونُ

---

(١) قال ابن كثير في « البداية والنهاية » ٢/٢٤ بعد أن ذكر القولين : والأول أشهر وأظهر . وقال الآلوسي في « روح المعاني » ١٩/١٨٩ : والمشهور أنه عليه السلام تزوجها ، وإليه ذهب جماعة من أهل الأخبار .

لِمَا بعدها . وقال الزجاج : الأصل : تطيَّرنا ، فأُدغمت التاء في الطاء ، واجتُلبت الألفُ لسكون الطاء ؛ فاذا ابتدأتَ قلتَ : اطَّيَّرنا ، وإذا وصلتَ لم تذكر الألف وتسقط لأنها ألف وصل ،[وإنما] تطيَّروا به ،لأنهم قحطوا وجاعوا ، فـ(قال)لهم (طائرُكم عِنْدَ الله)،وقد شرحنا هذا المعنى في (الأعراف : ١٣١) .

وفي قوله : (تُفْتَنون) ثلاثة أقوال .

أحدها : تُختَبرون بالخير والشر ، قاله ابن عباس . والثاني : تُصرَفون عن دينكم ، قاله الحسن . والثالث : تُبتلَوْن بالطاعة والمعصية ، قاله قتادة .

﴿ وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ . قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَاشَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ . وَمَكَرُوا مَكْراً وَمَكَرْنَا مَكْراً وَهُمْ لَايَشْعُرُونَ . فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ . فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذٰلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ . وَأَنْجَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴾

قوله تعالى : (وكان في المدينة) وهي الحِجْر التي نزلها صالح (تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفسدون في الأرض) يريد : في أرض الحِجْر ، وفسادهم : كفرهم ومعاصيهم ، وكانوا يسفكون الدّماء ويَثِبون على الأموال والفروج ، وهم الذين عملوا في قتل الناقة . وروي عن سعيد بن جبير وعطاء بن أبي رباح قالا : كان فسادهم كسر الدراهم والدنانير ، (قالوا) فيما بينهم (تَقَاسَموا بالله)أي : احلفوا بالله (لَنُبَيِّتَنَّهُ) أي : لنقتُلنَّ صالحاً (وأهلَه) ليلاً (ثم لَنَقولَنَّ) وقرأ حمزة ، والكسائي : « لتُبَيِّتُنَّهُ وأهلَه ثم لَتقولُنَّ » بالتاء فيهما . وقرأ مجاهد ،

وأبو رجاء ، وحميد بن قيس : « لَيُبَيِّتُنَّهُ » بياء وتاء مرفوعتين « ثم لَيَقُولُنَّ » بياء مفتوحة وقاف مرفوعة وواو ساكنة ولام مرفوعة (لِوَلِيِّه) أي : لوليِّ دمه إنْ سألنا عنه (ما شَهِدْنا) أي : ما حضرنا (مَهْلِكَ أهْلِهِ) قرأ الأكثرون بضم الميم وفتح اللام ؛ والمَهْلِك يجوز أن يكون مصدراً بمعنى الإهلاك ، ويجوز أن يكون الموضع . وروى أبو بكر ، وأبان عن عاصم : بفتح الميم واللام ، يريد الهلاك ؛ يقال : هَلَكَ يَهْلِكُ مَهْلَكاً . وروى عنه حفص ، والمفضل : بفتح الميم وكسر اللام ، وهو اسم المكان ، على معنى : ما شهدنا موضع هلاكهم ؛ فهذا كان مكرهم ، فجازاهم الله عليه فأهلكهم .

وفي صفة إهلاكهم أربعة أقوال .

أحدها : أنهم أتَوا دار صالح شاهرين سيوفهم ، فرمتْهم الملائكة بالحجارة فقتلتهم ، [قاله ابن عباس .

والثاني : رماهم الله بصخرة فقتلتهم ، قاله قتادة] .

والثالث : أنهم دخلوا غاراً ينتظرون مجيء صالح ، فبعث الله صخرة سدَّت باب الغار ، قاله ابن زيد .

والرابع : أنهم نزلوا في سفح جبل ينتظر بعضهم بعضاً ليأتوا دار صالح ، فجثم عليهم الجبل فأهلكهم ، قاله مقاتل .

قوله تعالى : (أنَّا دَمَّرْنَاهُم) قرأ عاصم ، وحمزة ، والكسائي : « أنَّا دمَّرناهم » بفتح الألف . وقرأ الباقون بكسرها . فمن كسر استأنف ، ومن فتح ، فقال أبو علي : فيه وجهان .

أحدها : أن يكون بدلاً من (عاقبةُ مَكْرِهِم) [1] .

---

(١) في الأصل : عاقبة أمرهم .

والثاني : أن يكون محمولاً على مبتدإ مضمر ، كأنه قال: هو أنّا دمّرناهم .

قوله تعالى : (فَتِلْكَ بيوتُهم خاويةً) قال الزجاج : هي منصوبة على الحال ؛ المعنى : فانظر إلى بيوتهم خاويةً .

﴿ وَلُوطاً إذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ وَأنْتُمْ تُبْصِرُونَ . أئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أنْتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ . فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إلّا أنْ قَالُوا أخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إنَّهُمْ أنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ . فَأنْجَيْنَاهُ وَأهْلَهُ إلّا امْرَأتَهُ قَدَّرْنَاهَا مِنَ الْغَابِرِينَ . وَأمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَراً فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ ﴾

قوله تعالى : (أتأتون الفاحشة وأنتم تُبْصِرونَ) فيه قولان .

أحدها : وأنتم تعلمون أنّها فاحشة . والثاني : وبعضكم يُبْصِر بعضاً .

قوله تعالى : (بل أنتم قوم تَجْهَلونَ) قال ابن عباس : تجهلون القيامة وعاقبة العصيان .

قوله تعالى : (قَدَّرْنَاهَا مِنَ الغابِرِين) أي : جعلناها بتقديرنا وقضائنا عليها من الباقين في العذاب . وقرأ أبو بكر عن عاصم : « قَدَرْنَاهَا » خفيفة ، وهي في معنى المشدَّدة . وباقي القصة قد تقدم تفسيره [هود : ٧٧] .

﴿ قُلِ الْحَمْدُ للهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى آللهُ خَيْرٌ أمَّا يُشْرِكُونَ . أمَّنْ خَلَقَ السَّمٰوَاتِ وَالْأرْضَ وَأنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَا كَانَ لَكُمْ أنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا ءَإلٰهٌ مَعَ اللهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ . أمَّنْ جَعَلَ الْأرْضَ

قَرَاراً وَجَعَلَ خِلالَهَا أَنْهَاراً وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزاً ءَإِلَهٌ مَعَ اللهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لايَعْلَمُونَ ﴾

قوله تعالى : (قُلِ الحمدُ لله) هذا خطاب لرسول الله ﷺ ، أُمِرَ أن يَحْمَدَ اللهَ على هلاك الأمم الكافرة ، وقيل : على جميع نِعَمه ، (وسلامٌ على عباده الذين اصطفى) فيهم أربعة أقوال .

أحدها : الرسل ، رواه أبو صالح عن ابن عباس . وروى عنه عكرمة ، قال : اصطفى إبراهيم بالخُلَّة ، وموسى بالكلام ، ومحمداً بالرؤية [١] .

(١) رواه ابن جرير ٢٧/٤٨ عن عكرمة عن ابن عباس ، وذكره السيوطي في « الدر » ٢٣٠/٢ وزاد نسبته للطبراني في « السنة » عن ابن عباس . وهذا رأي ابن عباس ، وقد روى مسلم في « صحيحه » ١٥٨/١ عن ابن عباس قال : (ما كذب الفؤاد ما رأى) ، (ولقد رآه نزلة أخرى) قال : رآه بفؤاده مرتين . وفي مسلم ١٥٨/١ عن عبد الله بن مسعود قال : (ما كذب الفؤاد ما رأى) قال : رأى جبريل عليه السلام له ستمائة جناح ، وروى مسلم ١٥٨/١ عن أبي هريرة : (ولقد رآه نزلة أخرى) قال : رأى جبريل . قال ابن كثير : وكان ابن عباس رضي الله عنهما يثبت الرؤية ليلة الاسراء ، ويستشهد بهذه الآية ، وتابعه جماعة من السلف والخلف ، وقد خالفه جماعات من الصحابة رضي الله عنهم والتابعين وغيرهم ، قال ابن كثير : وقد روى الامام أحمد عن عبد الله بن مسعود في هذه الآية (ولقد رآه نزلة أخرى عند سدرة المنتهى) قال : قال رسول الله ﷺ : « رأيت جبريل وله ستمائة جناح . . . » الحديث ، ثم قال : وهذا إسناد جيد قوي . اهـ . وروى الامام مسلم في « صحيحه » ١٥٩/١ عن مسروق قال : كنت متكئاً عند عائشة فقالت : يا أبا عائشة ، ثلاث من تكلم بواحدة منهن فقد أعظم على الله الفرية ، قلت : ماهن ؟ قالت : من زعم أن محمداً ﷺ رأى ربه فقد أعظم على الله الفرية ، قال : وكنت متكئاً فجلست فقلت : يا أم المؤمنين أنظريني ولا تعجليني ، ألم يقل الله عز وجل : (ولقد رآه بالأفق المبين) (ولقد رآه نزلة أخرى) ؟ فقالت : أنا أول هذه الأمة سأل عن ذلك رسول الله ﷺ فقال : « إنما هو جبريل ، لم أره على صورته التي خلق عليها غير هاتين المرتين ، رأيته منهبطاً من السماء ساداً عِظَمُ خَلقه مابين السماء إلى الأرض » ، فقالت : أولم تسمع ـــ

والثاني : أنهم أصحاب محمد ﷺ ، رواه أبو مالك عن ابن عباس ، وبه قال السدي .

والثالث : أنهم الذين وحّدوه وآمنوا به ، رواه عطاء عن ابن عباس .

والرابع : أنه محمد ﷺ ، قاله ابن السائب .

قوله تعالى : (آللهُ خيرٌ أمَّا يُشرِكونَ) قال أبو عبيدة : مجازه: أو مايشركون[1]، وهذا خطاب للمشركين ؛ والمعنى : آلله خير لمن عبده ، أم الأصنام لعابديها ؟! ومعنى الكلام : أنه لمَّا قصَّ عليهم قصص الأمم الخالية ، أخبرهم أنَّه نجَّى عابديه ، ولم تُغنِ الأصنام عنهم .

قوله تعالى : (أمَّنْ خَلَقَ السموات) تقديره : أمَّا يشركون خير ، أمَّن خلق السموات (والأرضَ وأنزلَ لكم من السماء ماءً فأنبتنا به حدائق ذات بهجة)؟! فأمَّا الحدائق ، فقال ابن قتيبة : هي البساتين ، واحدها : حديقة ، سميت بذلك لأنه يُحْدَقُ عليها ، أي : يُحظَر ، والبهجة : الحُسن .

قوله تعالى : (ما كان لكم أن تُنبِتُوا شجرها) أي : ما ينبغي لكم ذلك [لأنكم] لا تقدرون عليه . ثم قال مستفهماً مُنكِراً عليهم : (أإله مع الله ؟!) أي : ليس معه

أن الله يقول : (لاتدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير) أولم تسمع أن الله يقول : (وما كان لبشر أن يكلّمه الله إلا وحياً أو من وراء حجاب أو يرسل رسولاً فيوحيَ بإذنه مايشاء إنه عليٌّ حكيم) ؟ قالت : ومن زعم أن رسول الله ﷺ كتم شيئاً من كتاب الله فقد أعظم على الله الفرية ، والله يقول : (يا أيها الرسول بلّغ ما أُنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلّغت رسالته) قالت : ومن زعم أنه يُخبِر بما يكون في غدٍ فقد أعظم على الله الفرية ، والله يقول : (قل لايعلم من في السموات والأرض الغيبَ إلا الله) . وانظر « فتح الباري شرح صحيح البخاري » للحافظ ابن حجر العسقلاني : ٨/٤٦٦ ، ٤٦٩ .

(١) كذا الأصل ، وفي « مجاز القرآن » : ٢/٩٥ : « آللهُ خيرٌ أمَّا تُشركونَ » مجازه : أم ماتشركون ، أي : أم الذي تشركون به ، فأدغمت الميم في الميم فثقّلت .

إله (بل هم) يعني : كفار مكة (قوم يَعْدِلون) وقد شرحناه في فاتحة (الأنعام) . (أمَّنْ جعَلَ الأرض قراراً) أي : مُستَقَرّاً لا تَميد بأهلها (وجعَلَ خلالها) أي : فيما بينها (أنهاراً وجعل لها رواسيَ) أي : جبالاً ثوابتَ (وجعل بين البحرين حاجزاً) أي : مانعاً من قدرته بين العذْب والملْح أن يختلطا ، (بل أكثرهم لا يعْلَمونَ) قَدْر عظَمة الله .

﴿أمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ ءَإِلٰهٌ مَعَ اللهِ قَلِيلاً مَاتَذَكَّرُونَ . أمَّنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَنْ يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْراً بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ ءَإِلٰهٌ مَعَ اللهِ تَعَالَى اللهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ . أمَّنْ يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَن يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ءَإِلٰهٌ مَعَ اللهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ . قُلْ لَايَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ . بَلِ ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْهَا بَلْ هُمْ مِنْهَا عَمُونَ . وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا ءَإِذَا كُنَّا تُرَاباً وَآبَاؤُنَا أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ . لَقَدْ وُعِدْنَا هٰذَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ إِنْ هٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ . قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ . وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُنْ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ . وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هٰذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ . قُلْ عَسَىٰ أَنْ يَكُونَ رَدِفَ لَكُمْ بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ . وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَايَشْكُرُونَ . وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَاتُكِنُّ

صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ . وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴾

قوله تعالى : (أَمَّنْ يجيب المُضْطَرَّ) وهو : المكروب المجهود ؛ (ويَكْشِفُ السُّوء) يعني الضرّ [١] (ويجعلُكم خُلَفَاءَ الأرض) أي : يُهلك قرناً وينشىء آخرين [٢] ، و (تَذَكَّرون) بمعنى تتّعظون . وقرأ أبو عمرو بالياء ، والباقون بالتاء . (أَمَّنْ يَهديكم) أي : يُرشدكم إلى مقاصدكم إذا سافرتم (في ظُلُمات البرّ والبحر) وقد بيّنّاها في (الأنعام : ٦٣ ، ٩٧) وشرحنا ما يليها من الكلمات فيما مضى [الأعراف : ٥٧ ويونس : ٤] إلى قوله : (وما يَشْعُرونَ) يعني مَنْ في السموات والأرض (أيَّانَ يُبْعَثُونَ) أي : متى يُبْعَثون بعد موتهم .

---

(١) قال ابن كثير : ينبّه تعالى أنه هو المدعو عند الشدائد ، المرجو عند النوازل ، كما قال تعالى : (وإذا مسّكم الضرّ في البحر ضلّ من تدعون إلا إياه) وقال تعالى : (ثم إذا مسكم الضر فاليه تجأرون) وهكذا قال هاهنا : (أمن يجيب المضطر إذا دعاه) أي : من هو الذي لايلجأ المضطر إلا إليه ، والذي لايكشف ضر المضرورين سواه ؟ .

(٢) قال ابن كثير : أي أمة بعد أمة وجيلاً بعد جيل وقوماً بعد قوم ، ولو شاء لأوجدهم كلهم في وقت واحد ولم يجعل بعضهم من ذريه بعض ، بل لو شاء لخلقهم كلهم أجمعين كما خلق آدم من تراب ، ولو شاء أن يجعلهم بعضهم من ذرية بعض ولكن لايميت أحداً حتى تكون وفاة الجميع في وقت واحد ، لكانت تضيق عنهم الأرض وتضيق عليهم معايشهم وأكسابهم ويتضرر بعضهم ببعض ، ولكن اقتضت حكمته وقدرته أن يخلقهم من نفس واحدة ، ثم يكثرهم غاية الكثرة ويذرأهم في الأرض ويجعلهم قروناً بعد قرون وأمماً بعد أمم حتى ينقضي الأجل وتفرغ البريّة ، كما قدر ذلك تبارك وتعالى وكما أحصاهم وعدّهم عدّاً ، ثم يقيم القيامه ويوفي كل عامل عمله إذا بلغ الكتاب أجله ، ولهذا قال : (أمن يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء ويجعلكم خلفاء الأرض أإله مع الله) أي : يقدر على ذلك ، أو أإله مع الله بعد هذا ، وقد علم أن الله هو المتفرد بفعل ذلك وحده لاشريك له ؟ ! اهـ .

قوله تعالى : (بل أدْرَكَ عِلْمُهم في الآخرة) قرأ ابن كثير ، وأبو عمرو : « بل أدْرَكَ » قال مجاهد : « بل » بمعنى « أم » والمعنى : لم يُدْرِكْ عِلْمُهم ، وقال الفراء : المعنى : هل أدرك عِلْمُهم عِلْم الآخرة ؟ فعلى هذا يكون المعنى : إنهم لا يقفون في الدنيا على حقيقة العِلْم بالآخرة . وقرأ نافع ، وابن عامر ، وعاصم ، وحمزة ، والكسائي : « بل ادّارَكَ » على معنى : بل تدارك ، أي : تتابع وتلاحق ، فأُدغمت التاء في الدال . ثم في معناها قولان .

أحدهما : بل تكامل عِلْمهم يوم القيامة لأنهم مبعوثون ، قاله الزجاج . وقال ابن عباس : ما جهلوه في الدُّنيا ، عَلِموه في الآخرة .

والثاني : بل تدارك ظَنُّهم وحَدْسهم في الحكم على الآخرة ، فتارة يقولون : إنها كائنة ، وتارة يقولون : لا تكون ، قاله ابن قتيبة . وروى أبو بكر عن عاصم : « بل ادَّرَكَ » على وزن افتعل من أدركت .

قوله تعالى : (بل هم في شَكٍّ منها) أي : بل هم اليوم في شك من القيامة (بل هم منها عَمُونَ) قال ابن قتيبة : أي : من عِلْمِها . وما بعد هذا قد سبق بيانه [النحل : ١٢٧ ، المؤمنون : ٣٥ ، ٨٢] إلى قوله : (متى هذا الوعد) يعنون : العذاب الذي تَعِدنا . (قُلْ عسى أن يكون رَدِفَ لكم) قال ابن عباس : قَرُب لكم . وقال ابن قتيبة : تَبِعَكم ، واللام زائدة ، كأنه قال : رَدِفَكم .

وفي ما تبعهم مِمَّا استعجلوه قولان .

أحدهما : يوم بدر . والثاني : عذاب القبر .

قوله تعالى : (وإنَّ ربَّكَ لَذُو فَضْلٍ على النَّاس) قال مقاتل : على أهل مكة حين لا يعجل عليهم بالعذاب .

قوله تعالى : (وإنَّ ربَّك لَيَعْلَمُ ما تُكِنُّ صُدورهم) أي : ما تُخفيه

(ومـا يُعْلِنون) بألسنتهم من عداوتك وخلافك ؛ والمعنى أنه يجـازيهم عليه .

(وما مِنْ غائبة) أي : وما من جملة غائبة ، (إلا في كتاب) يعني اللوح المحفوظ ؛ والمعنى : إنَّ عِلْم ما يستعجلونه من العذاب بَيّنٌ عند الله وإن غاب عن الخَلْق .

﴿ إنَّ هذَا الْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ . وَإِنَّهُ لَهُدىً وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ . إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ بِحُكْمِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ . فَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ . إِنَّكَ لاتُسْمِعُ الْمَوْتَى وَلا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ . وَمَا أَنْتَ بِهَادِ الْعُمْيِ عَنْ ضَلالَتِهِمْ إِنْ تُسْمِعُ إِلاَّ مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ . وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِنَ الأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لايُوقِنُونَ ﴾

(إنَّ هذا القرآنَ يَقُصُّ على بني إسرائيل) وذلك أن أهل الكتاب اختلفوا فيما بينهم فصاروا أحزاباً يطعن بعضهم على بعض ، فنزل القرآن ببيان ما اختلفوا فيه ، فلو أخذوا به لسلموا . (إنَّ ربَّكَ يقضي بينهم) يعني بين بني إسرائيل (بِحُكْمِهِ) وقرأ أبو المتوكل ، وأبو عمران الجوني ، وعاصم الجحدري : « بِحِكَمِه » بكسر الحاء وفتح الكاف .

قوله تعالى : (إنَّكَ لا تُسْمِعُ الموتى) قال المفسرُون : هذا مَثَلٌ ضربه الله للكفار فشبَّههم بالموتى .

قوله تعالى : (ولا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعاء) وقرأ ابن كثير : « ولا يَسْمَعُ الصُّمُّ » بفتح ميم « يَسْمَعُ » ، وضم ميم « الصُّمُّ » .

قوله تعالى : (إذا ولَّوا مُدْبِرِينَ) أي : أن الصُّم إذا أدبروا عنك ثم

ناديتَهم لم يسمعوا ، فكذلك الكافر . (وما أنتَ بِهادِ العُمْيِ) أي : [ما أنت] بمرشِد من أعماه الله عن الهدى ، (إنْ تُسْمِعُ) إسماع إفهام (إلاّ مَنْ يُؤْمِنُ بآياتنا) .

قوله تعالى : (وإذا وَقَعَ القَوْلُ عليهم أخرجنا لهم دابة من الأرْض) « وقع » بمعنى « وجب » .

وفي المراد بالقول ثلاثة أقوال .

أحدها : العذاب ، قاله ابن عباس . والثاني : الغضب ، قاله قتادة . والثالث : الحُجَّة ، قاله ابن قتيبة . ومتى ذلك ؟ فيه قولان .

أحدهما : إذا لم يأمروا بمعروف ، ولم ينهَوا عن منكر ، قاله ابن عمر ، وأبو سعيد الخدري .

والثاني : إذا لم يُرجَ صلاحُهم ، حكاه أبو سليمان الدمشقي ، وهو معنى قول أبي العالية . والإشارة بقوله : (عليهم) إلى الكفار الذين تخرج الدابّة عليهم .

وللمفسرين في صفة الدابّة أربعة أقوال .

أحدها : أنها ذات وبر وريش ، رواه حذيفة بن اليمان عن رسول الله ﷺ [1] . وقال ابن عباس : ذات زغب وريش لها أربع قوائم .

والثاني : أن رأسها رأس ثور ، وعينها عين خنزير ، وأذنها أذن فيل ، وقرنها قرن إيَّل [2] ، وصدرها صدر أسد ، ولونها لون نمر ، وخاصرتها خاصرة هرّ ، وذنبها ذنب كبش ، وقوائمها قوائم بعير ، بين كل مَفصِلين اثنا عشر ذراعاً ، رواه ابن جريج عن أبي الزبير .

---

(١) « الطبري » : ١٥/٢٠ ، قال ابن كثير : ورواه ابن جرير من رواية حذيفة بن اليمان مرفوعاً ، وأن ذلك في زمن عيسى بن مريم وهو يطوف بالبيت ، ثم قال : وإسناده لايصح .

(٢) بكسر الهمزة وضمها : ذكر الأوعال .

والثالث : أن وجهها وجه رجل ، وسائر خَلْقها كخَلْق الطير ، قاله وهب .

والرابع : أن لها أربع قوائم وزغباً وريشاً وجناحين ، قاله مقاتل .

وفي المكان الذي تخرج منه خمسة أقوال .

أحدها : من الصفا . روى حذيفة بن اليمان عن النبي ﷺ [أنه] قال : « بينما عيسى يطوف بالبيت ومعه المسلمون ، تضطرب الأرض تحتهم ، وينشقّ الصَّفا مِمّا يلي المسعى ، وتخرج الدابَّة من الصَّفا ، أول ما يبدو منها رأسها ، ملمَّعةٌ ذاتُ وَبَر وريش ، لن يدركها طالب ، ولن يفوتها هارب »[1] . وفي حديث آخر عن النبي ﷺ أنه قال : « طولها ستون ذراعاً »[2] ، وكذلك قال ابن مسعود : تخرج من الصفا . وقال ابن عمر : تخرج من صدع في الصفا كجري الفرس ثلاثة أيام وما خرج ثلثها . وقال عبد الله بن عمر : تخرج الدابَّة فيَمَسُّ رأسها السحاب ورِجلاها في الأرض ما خرجتا .

والثاني : أنها تخرج من شِعْب أجياد ، روي عن النبي ﷺ[3] ، وعن ابن عمر مثله .

والثالث : تخرج من بعض أودية تهامة ، قاله ابن عباس .

والرابع : من بحر سَدوم ، قاله وهب بن منبّه .

---

(١) هو الحديث الذي تقدم من رواية ابن جرير الطبري الذي قال فيه ابن كثير : إسناده لا يصح .

(٢) ذكره الطبرسي في « مجمع البيان » عن حذيفة مرفوعاً ولم يذكر من رواه ، والله أعلم .

(٣) ذكره السيوطي في « الدر » ٥/١١٧ من رواية ابن مردويه ، والبيهقي في « البعث » عن أبي هريرة رضي الله عنه .

والخامس : أنها تخرج بتهامة بين الصّفا والمروة ، حكاه الزجّاج . وقد روى أبو هريرة عن النبي ﷺ أنه قال : « تخرج الدابّة معها خاتم سليمان ، وعصا موسى ، فتجلو وجه المؤمن بالعصا وتحطم أنف الكافر بالخاتم ، حتى إن أهل البيت ليجتمعون ، فيقول هذا : يا مؤمن ، ويقول هذا : يا كافر »[١] . وروي عن النبي ﷺ أنه قال : « تَسِم المؤمن بين عينيه وتكتب بين عينيه : مؤمن ، وتَسِم الكافر بين عينيه وتكتب بين عينيه : كافر[٢] ، وتصرخ ثلاث صرخات يسمعُها مَنْ بين الخافِقَين »[٣] . وقال حُذيفة بن أسِيد : إن للدابة ثلاث خرجات ، خرجة في بعض البوادي ثم تنكتم ، وخرجة في بعض القرى ثم تنكتم ، فبينما الناس عند أشرف المساجد ـ يعني المسجد الحرام ـ إذ ارتفعت الأرض ، فانطلق الناس هِراباً ، فلا يفوتونها ، حتى إنّها لتأتي الرجل وهو يصلّي ، فتقول : أتتعوّذ بالصلاة ، والله ما كنت مِنْ أهل الصَّلاة ، فتَخْطِمُه ، وتجلو وجه المؤمن[٤] . وقال عبد الله بن عمرو :

(١) رواه الطبري : ٢٠/١٥ وفي سنده علي بن زيد بن جدعان ، وهو ضعيف . ورواه الترمذي : ٢/١٥٠ وحسنه ، وذكره السيوطي في « الدر » : ٥/١١٦ وزاد نسبته لأحمد ، وأبي داود الطيالسي ، وعبد بن حميد ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وابن مردويه ، والبيهقي في « البعث » عن أبي هريرة رضي الله عنه .

(٢) ذكره الطبرسي في « مجمع البيان » من رواية حذيفة مرفوعاً بهذا اللفظ ، ولم ينسبه لأحد ، ورواه الطبري من رواية حذيفة بن اليمان مرفوعاً بلفظ : تَسِم الناس : مؤمن ، وكافر ، أما المؤمن فتترك وجهه كأنه كوكب درّيّ ، وتكتب بين عينيه : مؤمن ، وأما الكافر فتنكت بين عينيه نكتة سوداء : كافر ، وإسناده لا يصح ، كما قال ابن كثير .

(٣) ذكره السيوطي في « الدر » : ٥/١١٧ من رواية ابن مردويه ، والبيهقي في « البعث » عن أبي هريرة مرفوعاً .

(٤) رواه الطبري : ٢٠/١٤ من طريقين عن حذيفة بن أسيد موقوفاً ، ورواه أبو داود الطيالسي مرفوعاً من حديث حذيفة بن أسيد ، وذكره السيوطي في « الدر » : ٥/١١٦ من حديث ـــ

إنها تَنْكُتُ في وجه الكافر نُكْتَةً سوداء فتفشو في وجهه فيسودُّ وجهُه ، وتَنْكُتُ في وجه المؤمن نُكْتَةً بيضاء فتفشو في وجهه حتَّى يبيضَّ وجهه ، فيعرف الناس المؤمن والكافر ، ولَكَأنِّي بها قد خرجت في عقب ركب من الحاج [1] .

قوله تعالى : (تُكَلِّمُهم) قرأ الأكثرون بتشديد اللام ، فهو من الكلام . وفيما تكلِّمهم به ثلاثة أقوال .

أحدها : أنها تقول لهم : إنَّ الناس كانوا بآياتنا لا يوقنون ، قاله قتادة .

والثاني : تكلِّمهم ببطلان الأديان سوى دين الاسلام ، قاله السدي .

والثالث : تقول : هذا مؤمن ، وهذا كافر ، حكاه الماوردي .

وقرأ ابن أبي عبلة ، والجحدري : بتسكين الكاف وكسر اللام [وفتح التاء] ، فهو [من] الكَلْم ؛ قال ثعلب : والمعنى : تجرحهم . وسئل ابن عباس عن القراءتين ، فقال : كل ذلك والله تفعله ، تُكلِّم المؤمن ، وتَكْلِم الفاجر والكافر ، أي : تجرحه .

قوله تعالى : (أنَّ الناس) قرأ عاصم ، وحمزة ، والكسائي بفتح الهمزة ، وكسرها الباقون ؛ فمن فتح أراد : تكلِّمهم بأن الناس ، وهكذا قرأ ابن مسعود ، وأبو عمران الجوني : « تكلِّمهم بأنَّ الناس » بزيادة باء مع فتح الهمزة ؛ ومن كسر ، فلأنّ معنى « تكلِّمهم » : تقول لهم : إن الناس ، والكلام قول .

ـــ حذيفة بن أسيد مرفوعاً ، وزاد نسبته لعبد بن حميد ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، والحاكم ، وابن مردويه ، والبيهقي في « البعث » .

(١) رواه الطبري : ٢٠/١٥ بمعناه عن عبد الله بن عمر موقوفاً وروى الفقرة الأخيرة منه ، وهي قوله : « ولكأني بها قد خرجت في عقب ركب من الحاج » عن عبد الله بن عمرو ، وذكره السيوطي في « الدر » بمعناه ٥/١١٥ من رواية عبد بن حميد عن عبد الله بن عمرو .

﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجاً مِمَّنْ يُكَذِّبُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ . حَتَّى إِذَا جَاؤُوا قَالَ أَكَذَّبْتُمْ بِآيَاتِي وَلَمْ تُحِيطُوا بِهَا عِلْماً أَمَّا ذَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ . وَوَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ بِمَا ظَلَمُوا فَهُمْ لَا يَنْطِقُونَ . أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا اللَّيْلَ لِيَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِراً إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾

قوله تعالى : (ويوم نَحْشُرُ مِنْ كُلِّ أُمَّة فَوْجاً) الفوج : الجماعة من الناس كالزُّمرة ، والمراد به : الرؤساء والمتبوعون في الكفر ، حُشروا وأُقيمت الحجة عليهم . وقد سبق معنى (يُوزَعون) [النمل : ١٧] . (حتى إذا جاؤوا) إلى موقف الحساب (قال) الله تعالى لهم : (أَكذَّبتم بآياتي ؟!) هذا استفهام إنكار عليهم ووعيد لهم ، (ولم تُحيطوا بها عِلْماً) فيه قولان .

أحدهما : لم تعرفوها حقَّ معرفتها .

والثاني : لم تُحيطوا عِلْماً ببطلانها . والمعنى : إنكم لم تفكَّروا في صحتها ، (أم ماذا كنتم تعملون) في الدنيا فيما أمرتُكم به ونهيتُكم عنه ؟! .

قوله تعالى : (وَوَقَعَ القولُ عليهم) قد شرحناه آنفاً [النمل : ٨٢] (بما ظَلَمُوا) أي : بما أشركوا (فهم لا يَنْطِقُون) بحجة عن أنفسهم . ثم احتج عليهم بالآية التي تلي هذه . ومعنى قوله : (والنَّهارَ مُبْصِراً) أي : يُبْصَر فيه لابتغاء الرِّزق .

﴿ وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّمٰوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللهُ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ . وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنْعَ اللهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ

شيءٍ إنَّهُ خبيرٌ بما تفعلونَ . مَنْ جاءَ بالحسنةِ فلهُ خيرٌ منها وهُمْ مِنْ فزعٍ يومئذٍ آمنونَ . ومَنْ جاءَ بالسيِّئةِ فكُبَّتْ وُجوهُهُمْ في النَّارِ هلْ تُجزونَ إلَّا ما كُنتُمْ تعملونَ ﴾

قوله تعالى : (ويومَ يُنفخُ في الصُّور) قال ابن عباس : هذه النفخة الأولى .

قوله تعالى : (ففزِعَ مَنْ في السموات ومَن في الأرض) [قال المفسرون : المعنى : فيفزع مَن في السموات ومن في الأرض] ، والمراد أنهم ماتوا ، بلغ بهم الفزع إلى الموت .

وفي قوله : (إلاَّ مَنْ شاء اللهُ) ثلاثة أقوال .

أحدها : أنهم الشهداء ، قاله أبو هريرة ، وابن عباس ، وسعيد بن جبير .

والثاني : جبريل وميكائيل وإسرافيل ومَلَك الموت ، ثم إن الله تعالى يميتهم بعد ذلك ، قاله مقاتل .

والثالث : أنهم الذين في الجنة من الحور وغيرهن ، وكذلك مَن في النار ، لأنهم خُلقوا للبقاء ، ذكره أبو إسحاق ابن شاقلا من أصحابنا (١) .

قوله تعالى : (وكُلٌّ) أي : من الأحياء الذين ماتوا ثم أُحيوا (آتُوه) وقرأ حمزة ، وحفص عن عاصم : « أَتَوْهُ » بفتح التاء مقصورة ، أي : يأتون الله يوم القيامة (داخِرِينَ) قال ابن عباس ، ومجاهد ، وقتادة : صاغرين . قال أبو عبيدة : « كُلٌّ » لفظه لفظ الواحد، ومعناه يقع على الجميع ، فهذه الآية في موضع جمع .

قوله تعالى : (وتَرَى الجبالَ) قال ابن قتيبة : هذا يكون إذا نُفخ في الصُّور ، تُجمَع الجبالُ وتُسيَّر ، فهي لكثرتها تُحسب (جامدة) أي : واقفة

---

(١) هو أبو إسحاق ابراهيم بن أحمد بن عمر بن حمدان بن شاقلا البزار الحنبلي المتوفى (٣٦٩ هـ) ترجمته في « طبقات الحنابلة » لابن أبي يعلى ١٢٨/٢ .

(وهي تَمُرُّ) أي : تسير سير السحاب ، وكذلك كلُّ جيش عظيم يحسبه الناظر من بعيد واقفاً وهو يسير ، لكثرته ، قال الجَعْدِيّ يصف جيشاً :

بِأَرْعَنَ مِثْلِ الطَّوْدِ تَحْسَبُ أَنَّهُمْ
وُقُوفٌ لِحَاجٍ والرِّكَابُ تُهَمْلِجُ [1]

قوله تعالى : (صُنْعَ اللهِ) قال الزجاج : هو منصوب على المصدر ، لأن قوله : (وتَرَى الجبال تحسَبُها جامدةً) دليل على الصنعة ، فكأنه قال : صنع الله ذلك صنعاً ، ويجوز الرفع على معنى : ذلك صُنْعُ الله . فأما الإتقان ، فهو في اللغة : إحكام الشيء .

قوله تعالى : (إنَّه خَبير بما تَفْعَلون) قرأ ابن كثير ، وأبو عمرو ، وابن عامر : « يفعلون » بالياء . وقرأ نافع ، وعاصم ، وحمزة ، والكسائي بالتاء .

قوله تعالى : (مَنْ جاءَ بالحسَنة) قد شرحنا الحسنة والسيّئة في آخر (الأنعام : ١٦٠) .

قوله تعالى : (فله خير منها) فيه قولان .

أحدهما : فله خير منها يصل إليه ، وهو الثواب ، قاله ابن عباس ، والحسن ، وعكرمة .

والثاني : فله أفضل منها ، لأنه يأتي بحسنة فيُعطى عشر أمثالها ، قاله زيد ابن أسلم .

قوله تعالى : (وهم من فزع يومئذ) قرأ ابن كثير ، ونافع ، وأبو عمرو ، وابن عامر : « مِنْ فَزَعِ يَوْمِئِذٍ » مضافاً . وقرأ عاصم ، وحمزة ، والكسائي : « مِنْ فَزَعٍ » بالتنوين « يومَئذٍ » بفتح الميم . وقال الفراء : الإضافة أعجب

(١) البيت للنابغة الجعدي ، وهو في « مشكل القرآن » : ٥ ، و « الطبري » : ٢٠/٢١ ، و « مجمع البيان » : ٢٠/٢٥٧ ، و « القرطبي » : ١٣/٢٤٢ ، و « البحر » : ٧/١٠٠ .

إليّ في العربية ، لأنه فزع معلوم ، ألا ترى إلى قوله : ﴿لا يَحْزُنُهُمُ الفَزَعُ الأَكْبَرُ﴾ [الانبياء : ١٠٣] فصيَّره معرفة ، فاذا أضفت مكان المعرفة كان أحبَّ إليّ . واختار أبو عبيدة قراءة التنوين وقال : هي أعمُّ التأويلين ، فيكون الأمن من جميع فزع ذلك اليوم . قال أبو علي الفارسي : إذا نوّن جاز أن يُعنى به فزعٌ واحدٌ ، وجاز أن يُعنى به الكثرة ، لأنه مصدر ، والمصادر تدل على الكثرة وإن كانت مفردة الألفاظ ، كقوله : ﴿إنَّ أنكر الأصوات لَصوتُ الحمير﴾ [لقمان:١٩] ، وكذلك إذا أضيف جاز أن يُعنى به فزع واحد ، وجاز أن يعنى به الكثرة ؛ وعلى هذا القول ، القراءتان سواء ، فان أريد به الكثرة ، فهو شامل لكل فزع يكون يوم القيامة ، وإن أريد به الواحد ، فهو المشار إليه بقوله : ﴿لا يَحْزُنُهُمُ الفَزَعُ الأَكْبَرُ﴾ [الانبياء : ١٠٣] . وقال ابن السائب : إذا أطبقت النَّارُ على أهلها فَزِعوا فَزْعَةً لم يفزعوا مثلها ، وأهل الجنَّة آمنون من ذلك الفزع .

قوله تعالى : ﴿وَمَنْ جاء بالسَّيِّئة﴾ قال المفسرون : هي الشِّرك ﴿فَكُبَّتْ وُجوهُهم﴾ يقال : كَبَبْتُ الرجل : إذا ألقيتَه لوجهه ؛ وتقول لهم خَزَنة جهنم : ﴿هل تُجْزَوْنَ إلاَّ ما كُنْتم تَعْمَلونَ﴾ أي : إلاَّ جزاء ما كنتم تعملون في الدُّنيا من الشِّرك .

﴿ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلْدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ . وَأَنْ أَتْلُوَا الْقُرْآنَ فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنْذِرِينَ . وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾

قوله تعالى : (إنَّما أُمِرْتُ) المعنى : قل للمشركين : إنَّما أُمِرْتُ (أنْ أعبُد ربَّ هذه البلدة الذي حرَّمها) وقرأ ابن مسعود ، وأبو عمران الجوني : « التي حرَّمها » ، وهي مكة ، وتحريمها : تعظيم حرمتها بالمنع من القتل فيها والسبي والكفّ عن صيدها وشجرها [1] ، (وله كُلُّ شيء) لأنه خالقه ومالكه ، (وأُمِرْتُ أن أكون من المسلِمين) أي : من المخلِصين لله بالتوحيد ، (وأن أتلوَ القرآن) عليكم (فمن اهتدى فانَّما يهتدي لنفسه) أي : فله ثواب اهتدائه (ومَنْ ضَلَّ) أي : أخطأ [طريق] الهُدى (فَقُلْ إنَّما أنا مِنَ المُنْذِرِين) أي : ليس عليَّ إلا البلاغ ؛ وذكر المفسرون أن هذا منسوخ بآية السيف . (وقُلِ الحمدُ لله) أي : قُلْ لِمَن ضَلَّ : الحمد لله الذي وفَّقَنا لقَبول ما امتنعتم منه (سيريكم آياته) .

ومتى يريهم ؟ فيه قولان .

أحدهما : في الدنيا . ثم فيها [2] ثلاثة أقوال . أحدها : أن منها الدخان وانشقاق القمر ، وقد أراهم ذلك ، رواه أبو صالح عن ابن عباس . والثاني : سيريكم آياته [فتعرفونها] [3] في السماء ، وفي أنفسكم ، وفي الرِّزق ، قاله مجاهد . والثالث : القتل ببدر ، قاله مقاتل .

والثاني : سيُريكم آياته في الآخرة فتَعْرِفونها على ما قال في الدنيا ، قاله الحسن .

---

(١) قال ابن كثير : وقوله : (الذي حرَّمها) أي : الذي إنما صارت حراماً شرعاً وقدَراً بتحريمه لها ، كما ثبت في « الصحيحين » عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ يوم فتح مكة : « إن هذا البلد حرَّمه الله يوم خلق السموات والأرض ، فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة ، لا يعضد شوكه ، ولا ينفَّر صيده ، ولا يلتقط لقطته إلا من عرَّفها ، ولا يُختلى خلاها ... » الحديث بتمامه. اهـ. وهو في البخاري ٤/٤٢ ، ومسلم ٢/٩٨٦ ، ومعنى «لا يعضد» : لا يقطع ، وقوله : « ولا يختلى خلاها » الخلا : الرطب من النبات ، واختلاؤه : قطعه واحتشاشه .

(٢) أي : الآيات . (٣) زيادة من الطبري .

قوله تعالى : (وما ربُّك بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ)[1] وقرأ نافع ، وابن عامر ، وحفص عن عاصم : « تعملون » بالتاء ، على معنى : قل لهم . وقرأ الباقون بالياء ، على أنه وعيد لهم بالجزاء على أعمالهم .

★ ★ ★

(١) قال ابن جرير الطبري : وقوله : (وما ربك بغافل عما تعملون) : يقول تعالى ذِكره : وما ربُّك يا محمد بغافل عما يعمل هؤلاء المشركون ، ولكن لهم أجل هم بالغوه ، فاذا بلغوه فلا يستأخرون ساعةً ولا يستقدمون ، قال : يقول تعالى ذِكره لنبيه ﷺ : فلا يحزنك تكذيبهم إياك ، فاني من وراء إهلاكهم ، وإني لهم بالمرصاد ، فأبقِنْ لنفسك بالنصر ، ولعدوّك بالذل والخزي . اه .

سورة القصص

وهي مكيَّة كلها غير آية منها، وهي قوله: (إنَّ الذي فرَضَ عليكَ القُرآن) [القصص: ٨٥] فانها نزلت عليه وهو بالجُحْفَة في وقت خروجه للهجرة، هذا قول ابن عباس. وروي عن الحسن، وعطاء، وعكرمة: أنها مكيَّة كلها. وزعم مقاتل: أن فيها من المدنيّ (الذين آتيناهم الكتاب منْ قبله هم به يؤمنون) [القصص: ٥٢] إلى قوله: (لا نبتغي الجاهلين) [القصص: ٥٥]. وفيها آية ليست بمكية ولا مدنية وهي قوله: (إنَّ الذي فرَضَ عليكَ القُرآن) [القصص: ٨٥] نزلت بالجُحْفَة.

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ طسۤمۤ. تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ. نَتْلُوا عَلَيْكَ مِنْ نَبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ. إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ. وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ. وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ ﴾

قوله تعالى : (طسم) قد سبق تفسيره [الشعراء] .

قوله تعالى : (إنَّ فرعون علا في الأرض) أي : طغى وتجبَّر في أرض مصر (وجَعَلَ أهلَها شِيَعاً) أي : فِرَقاً وأصنافاً في خدمته (يَستضعف طائفةً منهم) وهم بنو إسرائيل ، واستضعافه إيّاهم: استعبادُهم ، (إنَّه كان مِنَ المُفسِدِينَ) بالقتل والعمل بالمعاصي . (يُذَبِّحُ أبناءَهم) وقرأ أبو رزين ، والزهري ، وابن محيصن ، وابن أبي عبلة : « يَذْبَحُ » بفتح الياء وسكون الذال خفيفة .

قوله تعالى : (ونُريدُ أن نَمُنَّ) أي : نُنعِم (على الذين استُضْعِفوا) وهم بنو إسرائيل ، (ونَجْعَلَهم أئمَّةً) يُقتدى بهم في الخير ؛ وقال قتادة : وُلاةً وملوكاً (ونجعلَهم الوارِثين) لمُلك فرعون بعد غَرَقه .

قوله تعالى : (ونُرِيَ فرعونَ وهامانَ وجنودَهما) وقرأ حمزة ، والكسائي ، وخلف : « ويَرى » بياء مفتوحة وإمالة الألف التي بعد الراء « فرعونُ وهامانُ وجنودُهما » بالرفع . ومعنى الآية : أنهم أُخبِروا أن هلاكهم على يَدَي رجل من بني إسرائيل ، فكانوا على وَجَل منهم ، فأراهم اللهُ ماكانوا يَحذَرون .

﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ . فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ . وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰ أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾

قوله تعالى : (وأوحينا إلى أُمِّ موسى) فيه ثلاثة أقوال .

أحدها : أنَّه إلهام ، قاله ابن عباس . والثاني : أنَّ جبريل أتاها بذلك ،

قاله مقاتل . والثالث : أنَّه كان رؤيا منام ، حكاه الماوردي . قال مقاتل : واسم أم موسى « يوخابذ » .

قوله تعالى : (أنْ أرْضِعِيه) قال المفسرون : كانت امرأةٌ من القوابل مصافية لأم موسى ، فلمَّا وضعتْه تولَّت أمرها ثم خرجت فرآها بعض العيون فجاؤوا ليدخلوا على أم موسى ، فقالت أخته : يا أُمَّاه هذا الحرس بالباب ، فلفَّت موسى في خرقة ووضعته في التَّنُّور وهو مُسْجَر ، فدخلوا ثم خرجوا ، فقالت لأخته : أين الصبيُّ ، قالت : لا أدري ، فسمعت بكاءه من التَّنُّور فاطَّلعت وقد جعل الله عليه النَّارَ بَرْداً وسلاماً [١] ، فأرضعته بعد ولادته ثلاثة أشهر ، وقيل : أربعة أشهر ، فلمَّا خافت عليه صنعت له التابوت [٢] .

وفي قوله : (فاذا خِفْتِ عليه) قولان .

أحدها : إذا خِفْتِ عليه القتل ، قاله مقاتل .

والثاني : إذا خِفْتِ [عليه] أن يصيح أو يبكي فيُسمع صوتُه ، قاله ابن السائب .

وفي قوله : (ولا تَخافي) قولان .

---

(١) هذه القصة ذكرها بعض المفسرين مصدرة بكلمة « روي » ، ولم يذكروا من خرجها ولا عمن رويت عنه ، ولعلها من الاسرائيليات ، والله أعلم .

(٢) وألقته في اليم - أي البحر - وهو النيل . قال ابن جرير الطبري : وأولى قول قيل في ذلك بالصواب أن يقال : إن الله تعالى ذِكره أمر أم موسى أن ترضعه ، فاذا خافت عليه من عدو الله فرعون وجنده ، أن تلقيَه في اليم ، وجائز أن تكون خافتهم عليه بعد أشهر من ولادها إياه ، وأيّ ذلك كان ، فقد فعلت ما أوحى الله اليها فيه ، ولا خبر قامت به حجة ، ولا فطرة في العقل لبيان أي ذلك كان من أيٍّ ، فأولى الأقوال في ذلك بالصحة أن يقال كما قال جل ثناؤه ، قال : واليم الذي أمرت أن تلقيه فيه هو النيل . اه .

أحدهما : أن يغرق ، قاله ابن السائب . والثاني : أن يضيع ، قاله مقاتل[1] .

وقال الأصمعي : قلت لأعرابية : ما أفصحكِ ! فقالت : أوَ بعد هذه الآية فصاحة وهي قوله : « وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه ، فإذا خفت عليه فألقيه في اليم ، ولا تخافي ولا تحزني ، إنَّا رادُّوه إليك وجاعلوه من المرسلين » جمع فيها بين أمرين ونهيين وخبرين وبشارتين ؟!

قوله تعالى : (فالتقَطَه آلُ فرعون) الالتقاط : إصابة الشيء من غير طلب . والمراد بآل فرعون : الذين تولّوا أخذ التابوت من البحر .

وفي الذين التقطوه ثلاثة أقوال .

أحدها : جواري امرأة فرعون ، قاله السدي . والثاني : ابنة فرعون ، قاله محمد بن قيس . والثالث : أعوان فرعون ، قاله ابن إسحاق .

قوله تعالى : (لِيَكونَ لهم عدوّاً) أي : ليصير بهم الأمر إلى ذلك ، لا أنهم أخذوه لهذا ، وهذه اللام تسمى لام العاقبة ، وقد شرحناها في (يونس : ٨٨) .

وللمفسرين في معنى الكلام قولان .

أحدها : ليكون لهم عَدُوّاً في دينهم وحَزَناً لِمَا يصنعه بهم .

والثاني : عدوّاً لرجالهم وحَزَناً على نسائهم ، فقتل الرجال بالغرق ، واستعبد النساء . (وقالت امرأة فرعون) وهي آسية بنت مزاحم ، وكانت من بني إسرائيل تزوجها فرعون : (قُرَّةُ عَيْنٍ) قال الزجاج : رفع « قُرَّةُ عَيْنٍ » على إضمار « هو » . قال المفسرون : كان فرعون لا يولد له إلا البنات ، فقالت : (عسى

---

(١) قال ابن جرير الطبري : وقوله : (ولا تخافي ولا تحزني) يقول : لا تخافي على ولدك من فرعون وجنده أن يقتلوه ، ولا تحزني لفراقه .

أن ينفعنا) فنُصيب منه خيراً (أو نتَّخِذَه ولداً) ، (وهم لا يشعرون) فيه أربعة أقوال .

أحدها : لا يشعرون أنَّه عدوٌّ لهم ، قاله مجاهد . والثاني : أنَّ هلاكهم على يديه ، قاله قتادة . والثالث : لا يشعر بنو إسرائيل أنَّا التقطناه ، قاله محمد ابن قيس . والرابع : لا يشعرون أنّي أفعل ما أريد لا ما يريدون ، قاله محمد ابن إسحاق [١] .

﴿ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَارِغاً إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَنْ رَبَطْنَا عَلَى قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ . وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِ عَنْ جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ . وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ . فَرَدَدْنَاهُ إِلَى أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾

قوله تعالى : (وأصبح فؤادُ أمِّ موسى فارغاً) فيه أربعة أقوال .

أحدها : فارغاً من كل شيء إلا من ذِكْر موسى ، رواه سعيد بن جبير عن ابن عباس ، وبه قال مجاهد ، وعكرمة ، وقتادة ، والضحاك .

والثاني : أصبح فؤادها فَزِعاً ، رواه الضحاك عن ابن عباس ، وهي قراءة أبي رزين ، وأبي العالية ، والضحاك ، وقتادة ، وعاصم الجحدري ، فانهم قرؤوا : « فَزِعاً » بزاي معجمة .

والثالث : فارغاً من وحينا بنسيانه ، قاله الحسن ، وابن زيد .

---

(١) قال ابن جرير الطبري : والصواب من القول في ذلك قول من قال : معنى ذلك : وفرعون وآله لا يشعرون بما هو كائن من هلاكهم على يديه .

والرابع : فارغاً من الحزن ، لِعِلْمِها أنَّه لم يُقتَل ، قاله أبو عبيدة . قال ابن قتيبة : وهذا من أعجب التفسير ، كيف يكون كذلك واللهُ يقول : (لولا أنْ رَبَطْنا على قَلْبها) ؟! وهل يُرْبَطُ إلاّ على قلب الجازع المحزون ؟!

قوله تعالى : (إنْ كادَتْ لَتُبْدِي به) في هذه الهاء قولان .

أحدهما : أنها ترجع إلى موسى . ومتى أرادت هذا ؟ فيه ثلاثة أقوال . أحدها : أنه حين فارقتْه ؛ روى سعيد بن جبير عن ابن عباس [أنه] قال : كادت تقول : يا بُنَيَّاه . قال قتادة : وذلك من شدة وجدها . والثاني : حين حُمِلَتْ لِرَضاعه ثم كادت تقول : هو ابني ، قاله السدي . والثالث : أنَّه لمَّا كَبِر وسَمِعَت الناسَ يقولون : موسى بن فرعون ، كادت تقول : لا بل هو ابني ، قاله ابن السائب .

والقول الثاني : أنها ترجع إلى الوحي ؛ والمعنى : إنْ كادت لتُبْدي بالوحي ، حكاه ابن جرير .

قوله تعالى : (لولا أنْ رَبَطْنَا على قَلْبِها) قال الزجاج : المعنى : لولا ربطنا على قلبها ، والرَّبْط : إلهام الصبر وتشديد القلب وتقويته .

قوله تعالى : (لِتَكُونَ مِنَ المؤمِنِينَ) أي : من المُصَدِّقين بوعد الله . (وقالت لِأُخته قُصّيه) قال ابن عباس : قُصّي أثره واطلُبيه هل تسمعين له ذِكْراً ، [أي] : أحيٌّ هو ، أو قد أكلته الدوابّ ؟ ونسيتْ الذي وعدها الله فيه . وقال وهب : إنَّما قالت لأُخته : قصّيه ، لأنَّها سمعتْ أنَّ فرعون قد أصاب صبياً في تابوت . قال مقاتل : واسم أُخته : مريم . قال ابن قتيبة : ومعنى « قُصّيه » : قُصّي أثَرَه واتبعيه (فبَصُرَتْ به عن جُنُبٍ) أي : عن

بُعْدٍ منها عنه وإعراضٍ ، لئلاَّ يَفْطنوا ، و المجانبة مِن هذا . وقرأ أُبَيُّ ابن كعب ، وأبو مجلز : « عَنْ جَنَابٍ » بفتح الجيم والنون وبألف بعدهما . وقرأ ابن مسعود ، وأبو عمران الجوني : « عَنْ جَانِبٍ » بفتح الجيم وكسر النون وبينهما ألف . وقرأ قتادة ، وأبو العالية ، وعاصم الجحدري : « عَنْ جَنْبٍ » بفتح الجيم وإسكان النون من غير ألف .

قوله تعالى : (وهم لا يشعُرونَ) فيه قولان .

أحدها : وهم لا يشعُرون أنَّه عدوٌّ لهم ، قاله مجاهد .

والثاني : لا يشعُرون أنَّها أختُه ، قاله السدي .

قوله تعالى : (وحَرَّمْنا عليه المراضع) وهي جمع مُرْضِع (مِنْ قَبْلُ) أي : مِنْ قَبْل أنْ نَرُدَّه على أُمِّه ، وهذا تحريم منع ، لا تحريم شرع . قال المفسرون : بقي ثمانية أيام ولياليهن ، كلَّما أُتي بمُرْضِع لم يَقْبل ثديها ، فأهمَّهم ذلك واشتدَّ عليهم (فقالت) لهم أخته : (هل أَدُلُّكم على أهل بيت يَكْفُلُونه لكم) فقالوا لها : نعم ، مَنْ تلك ؟ فقالت : أُمِّي ، قالوا : وهل لها ابن ؟ قالت : لبن هارون . فلمَّا جاءت قَبِل ثديها . وقيل : إنَّها لمَّا قالت : (وهم له ناصحون) قالوا : لعلَّكِ تعرفين أهله ، قالت : لا ، ولكني إنما قلت : وهم للملِكِ ناصحون .

قوله تعالى : (فَرَدَدْنَاهُ إلى أُمِّه) قد شرحناه في (طه : ٤٠) .

قوله تعالى : (ولِتَعْلَمَ أنَّ وعد الله) بردِّ ولدها (حَقٌّ) وهذا عِلْم عِيان ومشاهدة (ولكنَّ أكثرهم لا يَعْلَمون) أنَّ الله وعدها أن يردَّه إليها .

﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَىٰ آتَيْنَاهُ حُكْماً وَعِلْماً وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ . وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِنْ شِيعَتِهِ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِ فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ . قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ . قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيراً لِلْمُجْرِمِينَ ﴾

(ولمَّا بلغ أشُدَّه) قد فسرنا هذه الآية في سورة (يوسف : ٢٢) ، وكلامُ المفسرين في لفظ الآيتين متقارب ، إلا أنهم فرّقوا بين بلوغ الأشُدِّ وبين الاستواء ؛ فأما بلوغ الأشُدِّ ، فقد سلف بيانه [الانعام : ١٥٢] .

وفي مدة الاستواء لهم قولان .

أحدهما : أنه أربعون سنة ، قاله مجاهد ، وقتادة ، وابن زيد .

والثاني : ستون سنة ، ذكره ابن جرير . قال المفسرون : مكث عند أُمِّه حتى فطمته ، ثم ردَّته إليهم ، فنشأ في حِجْر فرعون وامرأته واتخذاه ولداً .

قوله تعالى : (ودخل المدينة) فيها قولان .

أحدهما : أنها مصر . والثاني : مدينة بالقرب من مصر .

قال السدي : ركب فرعون يوماً وليس عنده موسى ، فلما جاء موسى ركب في إثره فأدركه المَقيل في تلك المدينة . وقال غيره : لمَّا توهَّم فرعون في موسى أنَّه عدوُّه أمر باخراجه من مدينته ، فلم يدخل إلا بعد أن كَبِر فدخلها يوماً (على حين غفلة من أهلها) .

وفي ذلك الوقت أربعة أقوال .

أحدهـا : أنَّه كان يوم عيد لهم ، وكانوا قد اشتغلوا فيه بلهوهم ، قاله عليٌّ عليه السلام .

والثاني : أنه دخل نصف النهار ، رواه جماعة عن ابن عباس ، وبه قال سعيد ابن جبير .

والثالث : بين المغرب والعشاء ، قاله وهب بن منبِّه .

والرابع : أنَّهم لمَّا أخرجوه لم يدخل عليهم حتى كَبِر ، فدخل على حين غفلة عن ذِكْره ، لأنَّه قد نُسي أمرُه ، قاله ابن زيد .

قوله تعالى: (هذا مِنْ شيعته) أي : من أصحابه من بني إسرائيل (وهذا مِنْ عدوِّه) أي : من أعـدائه من القِبط ، والعدوّ يُذكَر للواحد وللجمع . قال الزجاج : وإنما قيل في الغائب : « هذا » و « هذا » ، على جهة الحكاية للحضرة ؛ والمعنى : أنه إذا نظر إليهما الناظر قال : هذا مِنْ شيعته ، وهذا مِنْ عدوِّه . قال المفسرون : وإنَّ القِبطي كان قد سَخَّر الإسرائيليَّ أن يحمل حطباً إلى مطبخ فرعون (فاستغاثه) أي : فاستنصره ، (فوكزه) قال الزجاج : الوَكْز : أن يضربه بجميع كفِّه [١] . وقال ابن قتيبة : « فوكزه » أي : لَكَزَهُ ، يقال : وَكَزْتُه ولَكَزْتُه ولَهَزْتُه : إذا دفَعْتَه ، (فقضى عليـه) أي : قتله ؛ وكلُّ شيء فرغت منه فقد قضيته وقضيت عليه . وللمفسرين فيما وكزه به قولان .

أحدهما : كفّه ، قاله مجاهد . والثاني : عصاه ، قاله قتادة .

فلمَّـا مات القِبطي ندم موسى لأنه لم يُرِد قتله ، و (قال هذا مِنْ عمل الشيطان) أي : هو الذي هيَّج غضبي حتى ضربتُ هذا ، (إنَّه عَدُوٌّ)

(١) كذا الاصل ، والذي في « اللسان » عن الزجاج : الوكز : أن يضرب بجُمْع كفّه ، وهو كذلك في كتب اللغة .

لابن آدم (مُضِلٌّ) له (مُبينٌ) عداوته . ثم استغفر فـ (قال ربِّ إنِّي ظَلَمْتُ نفسي) أي : بقتل هذا ، ولا ينبغي لنبيٍّ أن يقتُل حتى يُؤْمَر . (قال ربِّ بما أنعمتَ عليَّ) بالمغفرة (فلن أكون ظهيراً للمُجْرِمين) قال ابن عباس : عوناً للكافرين . وهذا يدلُّ على أن الإسرائيليَّ الذي أعانه موسى كان كافراً .

﴿ فأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفاً يَتَرَقَّبُ فَإِذَا الَّذِي اسْتَنْصَرَهُ بِالأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ قَالَ لَهُ مُوسَىٰ إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُبِينٌ . فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَنْ يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَهُمَا قَالَ يَامُوسَىٰ أَتُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْساً بِالأَمْسِ إِنْ تُرِيدُ إِلَّا أَنْ تَكُونَ جَبَّاراً فِي الأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ . وَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَامُوسَىٰ إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ ﴾

قوله تعالى : (فأصبح في المدينة) وهي التي قتل بها القبطيَّ (خائفاً) على نفسه (يترقَّب) أي : ينتظر سوءاً يناله منهم ويخاف أن يُقتل به (فاذا الذي استنصره بالأمس) وهو الاسرائيلي (يستصرخُه) أي : يستغيث به على قبطي آخر أراد أن يسخِّره أيضاً (قال له موسى) في هاء الكناية قولان .

أحدهما : أنها ترجع إلى القبطي . والثاني : إلى الإسرائيليّ ، وهو أصح .

فعلى الأول يكون المعنى : (إنَّكَ لَغَوِيٌّ) بتسخيرك وظلمك .

وعلى الثاني فيه قولان .

أحدهما : أن يكون الغَوِيُّ بمعنى المُغْوِي ، كالأليم والوجيع بمعنى المؤلِم

والموجِع ؛ والمعنى : إنَّك لَمُضِلٌ حين قتلتُ بالأمس رجلاً بسببك، وتَدْعوني اليوم إلى آخر .

والثاني : أن يكون الغوي بمعنى الغاوي ؛ والمعنى : إنك غاوٍ في قتالك من لانُطيق دفع شرِّه عنك .

قوله تعالى : (فلمَّا أن أراد أنْ يَبْطِشَ بالذي هو عدوٌّ لهما) أي : بالقِبطي (قال ياموسى) هذا قول الإسرائيليّ من غير خلاف علمناه بين المفسرين ؛ قالوا : لمَّا رأى الاسرائيليْ غضبَ موسى عليه حين قال [له] : « إنَّكَ لَغَوِيٌّ مُبِين » ورآه قد همَّ أن يَبْطِش بالفرعونيِّ ، ظنَّ أنَّه يريده فخاف على نفسه فـ (قال ياموسى أتريد أن تقتُلَني) وكان قوم فرعون لم يعلموا مَنْ قاتِلُ القِبطي ، إلّا أنَّهم أتَوْا إلى فرعون فقالوا : إن بني إسرائيل قتلوا رجلاً مِنَّا فخُذ لَنَا بحقِنا ، فقال : ابغوني قاتله ومن يشهد عليه لآخذ لكم حقَّكم ، فبينا هم يطوفون ولا يدرون مَنْ القاتل ، وقعت هذه الخصومة بين الإسرائيلي والقِبطي في اليوم الثاني ، فلمّا قال الإسرائيليْ لموسى : « أتريد أن تقتُلني كما قَتَلْتَ نفساً بالأمس » انطلق القبطي إلى فرعون فأخبره أنَّ موسى هو الذي قتل الرجل ، فأمر بقتل موسى ، فعلم بذلك رجل من شيعة موسى فأتاه فأخبره ، فذلك قوله : (وجاء رجل من أقصى المدينة يسعى) . فأمَّـا الجبَّـار ، فقال السدي : هو القتَّـال ، وقد شرحناه في (هود : ٥٩) ، وأقصى المدينة : آخرهـا وأبعدهـا ، ويسعى ، بمعنى يُسرع . قال ابن عباس : وهذا الرجل هو مؤمن آل فرعون ، وسيأتي الخلاف في اسمه في سورة (المؤمن : ٢٨) . فأمّا الملأ ، فهم الوجوه من الناس والأشراف .

وفي قوله : (يأتمرون بك) ثلاثة أقوال .

أحدها : يتشاورون فيك ليقتلوك ، قاله أبو عبيدة . والثاني : يَهُمُّون بك ، قاله ابن قتيبة . والثالث : يأمر بعضهم بعضاً بقتلك ، قاله الزجاج .

﴿ فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفاً يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ . وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ . وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَاخَطْبُكُمَا قَالَتَا لَانَسْقِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ . فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰ إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ . فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَاسَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لَاتَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ . قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَاأَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ . قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنْكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَىٰ أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْراً فَمِنْ عِنْدِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ . قَالَ ذَٰلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ وَاللَّهُ عَلَىٰ مَانَقُولُ وَكِيلٌ ﴾

قوله تعالى : (فخرج منها) أي : من مصر (خائفاً) وقد مضى تفسيره [القصص : ١٨] .

قوله تعالى : (نَجِّني مِنَ القوم الظالمين) يعني المشركين أهل مصر .

(ولمَّا توجَّه تِلقاءَ مَدْيَنَ) قال ابن قتيبة : أي : تِجاهَ مَدْيَن ونحوَها ، وأصله : اللِّقاء ، وزيدت فيه التاء ، قال الشاعر :

[أمَّلْتُ خَيْرَكَ هل تأتي مَواعِدُهُ] فاليومَ قَصَّرَ عن تِلْقَائِك الأَمَلُ[1]

أي : عن لقائك .

قال المفسرون : خرج خائفاً بغير زاد ولا ظَهْر[2] ، وكان بين مصر ومَدْيَن مسيرة ثمانية أيام ، ولم يكن له بالطريق عِلْم ، فـ (قال عسى ربِّي أن يَهْدِيَني سَواءَ السَّبيل) أي : قَصْدَه . قال ابن عباس : لم يكن له عِلْم بالطريق إلاّ حُسْن ظنِّه بربِّه . وقال السدي : بعث الله له مَلَكاً فدلَّه ، قالوا : ولم يكن له في طريقه طعام إلا ورق الشجر ، فورد ماءَ مَدْيَن وخُضْرةُ البقل تتراءى في بطنه من الهُزَال ؛ والأُمَّة : الجماعة ، وهم الرعاة ، (يَسْقُون) مواشيهم (ووَجد مِنْ دونهم) أي : مِنْ سوى الأُمَّة (امرأتين) وهما ابنتا شعيب ؛ قال مقاتل : واسم الكبرى : صبورا[3] والصغرى : عبرا (تذودان) قال ابن قتيبة : أي : تكُفَّان غَنَمها ، فحذف الغنم اختصاراً . قال المفسرون : وإنما فعلَتَا ذلك ليَفْرُغ الناس وتخلوَ لهما البئر ، قال موسى : (ماخَطْبُكما) أي : ماشأنكما لاتسقيان ؟! (قالتا لانَسْقِي) وقرأ ابن مسعود ، وأبو الجوزاء ، وابن يعمر ، وابن السميفع : « لانُسقي » برفع النون (حتى يُصْدِرَ الرِّعَاء) وقرأ أبو عمرو ، وابن عامر ، وأبو جعفر : « يَصْدُرَ » بفتح الياء وضم الدال ، أي : حتى يرجع الرِّعاء . وقرأ الباقون : « يُصْدِرَ » بضم الياء وكسر الدال ، أرادوا : حتى يَرُدَّ الرِّعاء غنمهم عن الماء . والرِّعاء : جمع راعٍ ، كما يقال : صاحب وصِحاب . وقرأ عكرمة ،

(١) البيت للراعي النميري ، وهو في « غريب القرآن » : ٣٣١ ، و « الصحاح » و « اللسان » و « التاج » : لقي .

(٢) الظَّهْر : الدابة التي يُركَب ظهرها من جمل ونحوه .

(٣) في الآلوسي : صفوراء ، وقيل : صفوريا . وفي « الكشاف » اسم الكبرى : صفراء ، واسم الصغرى : صفيراء . والله أعلم بذلك ، ولا يتعلق بمعرفة اسميهما حكم شرعي .

وسعيد بن جبير، وابن يعمر، وعاصم الجحدري: «الرُّعَاء» بضم الراء، والمعنى: نحن امرأتان لانستطيع أن نزاحم الرجال (وأبونا شيخ كبير) لايقدِر أن يسقيَ ماشيته من الكِبَر؛ فلذلك احتَجْنَا نحن إلى أن نسقيَ، وكان على تلك البئر صخرة عظيمة، فاذا فرغ الرِّعاء مِنْ سَقيهم أعادوا الصخرة، فتأتي المرأتان إلى فضول حياض الرِّعاء فتَسْقيان غنمهما. (فسقى لهما) موسى.

وفي صفة ماصنع قولان.

أحدهما: أنه ذهب إلى بئر أُخرى عليها صخرة لايقتلعها إلا جماعة من الناس، فاقتلعها وسقى لهما، قاله عمر بن الخطاب [1]، وشُرَيح.

والثاني: أنه زاحم القوم على الماء، وسقى لهما، قاله ابن إسحاق، والمعنى: سقى غنمهما لأجلهما.

(ثم تولَّى) أي: انصرف (إلى الظِّلِّ) وهو ظل شجرة (فقال ربِّ إنِّي لِمَا) اللام بمعنى إلى، فتقديره: إنِّي إلى ما (أَنْزَلْتَ إليَّ مِنْ خَيْرٍ فَقيرٌ) وأراد بالخير: الطعام [2]. وحكى ابن جرير أنه أسمع المرأتين

(١) قال السيوطي في «الدر» ٥/١٢٤: أخرج الفريابي، وابن أبي شيبة في «المصنف» وعبد بن حميد، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والحاكم وصححه، عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: إن موسى عليه السلام لما ورد ماء مدين وجد عليه أمةً من الناس يسقون، فلما فرغوا أعادوا الصخرة على البئر، ولا يطيق رفعها إلا عشرة رجال، فاذا هو بامرأتين، قال: ماخطبكما، فحدثتاه، فأتى الصخرة فرفعها وحده، ثم استقى، فلم يستق إلا دلواً واحداً حتى رويت الغنم... الحديث بطوله، وقد ذكره ابن كثير في «تفسيره» من رواية ابن أبي شيبة مختصراً هكذا، وقال: إسناده صحيح.

(٢) قال ابن كثير: قال ابن عباس: سار موسى من مصر إلى مدين ليس له طعام إلا البقل وورق الشجر، وكان حافياً، فما وصل إلى مدين حتى سقطت نعل قدميه، وجلس في الظل وهو صفوة الله من خلقه وإن بطنه للاصق بظهره من الجوع، وإن خضرة البقل لترى من داخل جوفه، وإنه لمحتاج إلى شق تمرة.

هذا الكلام تعريضاً أن تُطعِماه . (فجاءته إحداهما) المعنى : فلمّا شربتْ غنمُهما رَجَعَتا إلى أبيهما فأخبرتاه خبر موسى ، فبعث إحداهما تدعو موسى . وفيها قولان . أحدهما : الصغرى . والثاني : الكبرى . فجاءته (تمشي على استحياء) قد سترت وجهها بِكُمِّ دِرْعها .

وفي سبب استحيائها ثلاثة أقوال .

أحدها : أنه كان من صفتها الحياء ، فهي تمشي مشي مَن لم يعتد الخروج والدخول .

والثاني : لأنها دعته لتكافئَه ، وكان الأجمل عندها أن تدعوَه من غير مكافأة .

والثالث : لأنها رسول أبيها .

قوله تعالى : (لِيَجْزِيَكَ أجر ما سَقَيْتَ لنا) قال المفسرون : لمّا سمع موسى هذا القول كرهه وأراد أن لا يتبعها ، فلم يجد بُدّاً للجَهْد الذي به من اتّباعها ، فتَبِعها ، فكانت الريح تضرب ثوبها فيصف بعض جسدها ، فناداها : يا أَمَةَ الله ، كوني خلفي ودُلّيني الطريق [1] (فلما جاءه) أي : جاء موسى شعيباً (وقصّ

---

(١) قال السيوطي في تتمة الحديث الذي تقدم من رواية الفريابي ، وابن أبي شيبة ، وعبد بن حميد ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، والحاكم وصححه عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه : « فرجعت المرأتان إلى أبيهما ، فحدثتاه ، وتولّى موسى عليه السلام إلى الظل فقال : (رب إني لما أنزلت إلي من خير فقير) قال : (فجاءته إحداهما تمشي على استحياء) واضعة ثوبها على وجهها ليست بسلفع من الناس خرّاجة ولاّجة ، (قالت : إن أبي يدعوك ليجزيَك أجر ماسقيت لنا) فقام معها موسى عليه السلام ، فقال : امشي خلفي وانعتي لي الطريق فإني أكره أن تصيب الريح ثيابك فتصف جسدك . . . » الخ . وذكره ابن كثير من رواية ابن أبي حاتم مختصراً إلى قوله : خرّاجة ولاّجة ، وقال : هذا إسناد صحيح . وقال : قال الجوهري : السلفع من الرجال : الجسور ، ومن النساء : الجريئة السليطة ، ومن النوق : الشديدة . اهـ .

عليه القَصَصَ) أي : أخبره بأمره مِنْ حين وُلد والسبب الذي أخرجه من أرضه (قال لا تَخَفْ نجوتَ مِنَ القوم الظّالِمينَ) أي : لا سُلطان لفرعون بأرضنا ولسنا في مملكته . (قالت إحداهما) وهي الكبرى : (يا أبت استأجِرْهُ) أي : اتّخِذه أجيراً (إنَّ خير من استأجرتَ القويُّ الأمينُ) أي : خير من استعملتَ على عملك مَنْ قَوِيَ على عملك وأدّى الأمانة ؛ وإنّما سمَّتْه قويّاً، لرفعه الحجر عن رأس البئر ، وقيل : لأنه استقى بدلو لا يُقِلُّها إلا العدد الكثير من الرجال ، وسمَّته أميناً ، لأنه أمرها أن تمشيَ خلفه . وقال السدي : قال لها شعيب : قد رأيتِ قوّته ، فما يُدريك بأمانته ؛ فحدّثَتْه . قال المفسرون : فرغب فيه شعيب ، فقال له : (إنِّي أُريدُ أنْ أُنكِحَكَ) أي : أُزوِّجك (إحدى ابنتيَّ هاتين على أن تأجُرَني ثمانيَ حِجَج) قال الفراء : تأجُرني وتأجِرني ، بضم الجيم وكسرها ، لغتان . قال الزجاج : والمعنى : تكون أجيراً لي ثماني سنين (فإن أتممتَ عشْراً فمِنْ عِنْدِك) أي : فذلك تفضل منكَ ، وليس بواجب عليك .

قوله تعالى : (وما أُريد أن أشُقَّ عليكَ) أي : في العَشْر (ستجدُني إن شاء اللهُ من الصالِحينَ) أي : في حُسْن الصُّحبة والوفاء بما قلت . (قال) له موسى (ذلكَ بيني وبيْنَكَ) أي : ذلك الذي وصفتَ وشرطتَ عليَّ فلكَ ، وما شرطتَ لي مِنْ تزويج إحداهما فلي ، فالأمر كذلك بيننا . وتم الكلام هاهنا . ثم قال : (أيَّما الأجلَين) يعني : الثمانيَ والعشر . قال أبو عبيدة : « ما » زائدة .

قوله تعالى : (قضيتُ) أي : أتممتُ[1] (فلا عُدْوانَ عَلَيَّ) أي : لا سبيل عَلَيَّ ؛ والمعنى : لا تعتد عليَّ بأن تُلزِمني أكثر منه (واللهُ على ما نقولُ وكيل) قال الزجاج : أي : واللهُ شاهِدُنا على ما عقدَ بعضُنا على بعض .

---

(١) قال ابن كثير هذا وقد دل الدليل على أن موسى عليه السلام إنما فعل أكمل الأجلين ـــ

واختلف العلماء في هذا الرجل الذي استأجر موسى على أربعة أقوال .

أحدها : أنه شُعيب نبيُّ الله ﷺ ، وعلى هذا أكثر [أهل] [١] التفسير ، وفيه أثر عن النبي ﷺ يدل عليه [٢] ، وبه قال وهب ، ومقاتل .

والثاني : أنه صاحب مَدْيَن ، واسمه يثرى ، قاله ابن عباس .

والثالث : رجل من قوم شعيب ، قاله الحسن .

والرابع : أنه يثرون ابن أخي شعيب ، رواه عمرو بن مرّة عن أبي عبيدة ابن عبد الله بن مسعود ، وبه قال ابن السائب [٣] .

واختلفوا في التي تزوّجها موسى من الابنتين على قولين .

أحدها : الصغرى ، روي عن ابن عباس . والثاني : الكبرى ، قاله مقاتل .

ـــ وأتمها ، قال : وقال البخاري عن سعيد بن جبير قال : سألني يهودي من أهل الحيرة : أي الأجلين قضى موسى ؟ فقلت : لاأدري حتى أقدم على حَبْر العرب فأسأله ، فقدمت على ابن عباس رضي الله عنهما فسألته ، فقال : قضى أكثرهما وأطيبهما ، إن رسول الله إذا قال فعل . ا هـ .

(١) زيادة ليست في الأصل .

(٢) من رواية ابن أبي حاتم عن عتبة بن المنذر ، وسنده ضعيف .

(٣) قال ابن كثير : وقد اختلف المفسرون في هذا الرجل من هو على أقوال . أحدها : أنه شعيب النبي عليه السلام الذي أرسل إلى أهل مدين ، وهذا هو المشهور عند كثير من العلماء . قال : وقال آخرون : بل كان ابن أخي شعيب ، وقيل : رجل مؤمن من قوم شعيب ، قال : وقال آخرون : كان شعيب قبل زمان موسى عليه السلام بمدة طويلة ، لأنه قال لقومه : (وما قوم لوط منكم ببعيد) وقد كان هلاك قوم لوط في زمن الخليل عليه السلام بنص القرآن ، وقد عُلم أنه كان بين الخليل وموسى عليهما السلام مدة طويلة تزيد على أربعمائة سنة كما ذكره غير واحد ، قال : وما قيل : إن شعيباً عاش مدة طويلة ، إنما هو ـ والله أعلم ـ احتراز من هذا الاشكال ، ثم من المقوّي لكونه ليس بشعيب أنه لو كان إياه لأوشك أن ينص على اسمه في القرآن هاهنا ، وما جاء في بعض الأحاديث من التصريح بذكره في قصة موسى ، لم يصح إسناده ، قال : ثم من الموجود في كتب بني إسرائيل أن هذا الرجل اسمه يثرون ، والله أعلم . ا هـ .

وفي اسم التي تزوجها ثلاثة أقوال.

أحدها : صفوريا ، حكاه أبو عمران الجوني . والثاني : صفورة ، قاله شعيب الجبائي . والثالث : صبورا ، قاله مقاتل .

﴿ فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِن جَانِبِ الطُّورِ نَاراً قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَاراً لَعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ . فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِن شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَن يَامُوسَىٰ إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ . وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّىٰ مُدْبِراً وَلَمْ يُعَقِّبْ يَامُوسَىٰ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ . اسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْماً فَاسِقِينَ . قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْساً فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ . وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَاناً فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءاً يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ . قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَاناً فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِآيَاتِنَا أَنتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ ﴾

قوله تعالى : (فلمَّا قضى موسى الأجَلَ) روى ابن عباس رضي الله عنهما عن رسول الله ﷺ أنه سئل : أيّ الأجلين قضى موسى ، قال : « أوفاهما وأطيبهما » [1] . قال مجاهد : مكث بعد قضاء الأجل عندهم عشراً

(١) روى البخاري عن ابن عباس رضي الله عنها أنه سئل : أي الأجلين قضى موسى ، فقال : قضى أكثرهما وأطيبها ، إن رسول الله إذا قال فعل . وذكره السيوطي في « الدر » —

أُخَر[1]. وقال وهب بن منبِّه : أقام عندهم بعد أن أدخل عليه امرأته سنين[2]، وقدسبق تفسير هذه الآية [طه : ١٠] إلى قوله : (أو جَذْوَةٍ) وقرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو ، وابن عامر ، والكسائي : « جِذْوَةٍ » بكسر الجيم . وقرأ عاصم بفتحها . وقرأ حمزة ، وخلف ، والوليد عن ابن عامر بضمها ، وكلُّها لغات . قال ابن عباس : الجذوة : قطعة حطب فيها نار ، وقال أبو عبيدة : قطعة غليظة من الحطب ليس فيها لَهب ، وهي مثل الجِذْمَة من أصل الشجرة ، قال ابن مقبل :

باتَتْ حَوَاطِبُ لَيْلَى يَلْتَمِسْنَ لَهَا
جَزْلَ الجِذَا غيرَ خَوَّارٍ ولَا دَعِرٍ[3]

والدَّعِر : الذي قد نَخِر ، ومنه رجل داعر ، أي : فاسد .

قوله تعالى : (نُودِيَ مِنْ شاطىء الواد) وهو : جانبه (الأيمنِ) وهو الذي عن يمين موسى (في البُقْعة) وهي القطعة من الأرض (المباركةِ) بتكليم الله موسى فيها (مِنَ الشجرة) أي : من ناحيتها . وفي تلك الشجرة قولان .

أحدها : [أنها] شجرة العنَّاب ، قاله ابن عباس .

والثاني : عوسجة ، قاله قتادة ، وابن السائب ، ومقاتل .

ــــ ١٢٦/٥ وزاد نسبته لسعيد بن منصور ، وابن أبي شيبة في « المصنف » وعبد بن حميد ، وابن المنذر ، وابن مردويه من طرق عن ابن عباس رضي الله عنهما . قال ابن كثير : وقد يستفاد هذا أيضاً من الآية الكريمة حيث قال تعالى : (فلما قضى موسى الأجل) أي : الأكمل منهما ، والله أعلم .

(١) قال ابن كثير : وهذا القول لم أره لغيره ، وقد حكاه عنه ابن أبي حاتم ، وابن جرير ، فالله أعلم . وذكره السيوطي في « الدر » ١٢٧/٥ ، وزاد نسبته لعبد بن حميد ، وابن المنذر .

(٢) في النسخة الاستنبولية : سنتين .

(٣) البيت في « مجاز القرآن » : ١٠٣ ، و « الطبري » : ٧٠/٢٠ ، و « مجمع البيان » : ٢٨٤/٢٠ ، و « القرطبي » : ٢٨١/١٣ ، و « اللسان » و « التاج » : دعر . والجذا جمع جذوة .

وما بعد هذا قد سبق بيانه [النمل : ١٠] إلى قوله : (إنك من الآمنين) أي : من أن ينالك مكروه .

قوله تعالى : (أُسْلُكْ يدك) أي : أَدْخِلها ، (واضمُمْ إليكَ جناحك) قد فسرنا الجناح في (طه : ٢٢) إلا أن بعض المفسرين خالف بين تفسير اللفظين ، فشرحناه . وقال ابن زيد : جناحه : الذّراع والعضُد والكفّ . وقال الزجاج : الجناح هاهنا : العضُد ، ويقال لليد كلّها : جناح . وحكى ابن الأنباري عن الفراء أنه قال : الجناح هاهنا : العصا . قال ابن الأنباري : الجناح للانسان مشبَّه بالجناح للطائر ، ففي حال تُشبِّه العربُ رِجْلي الإنسان بجناحَي الطائر ، فيقولون : قد مضى فلان طائراً في جناحيه ، يعنون ساعياً على قدميه ، وفي حال يجعلون العضد منه بمنزلة جناحي الطائر ، كقوله : « واضمُمْ يدك إلى جناحك » ، وفي حال يجعلون العصا بمنزلة الجناح ، لأن الإنسان يدفع بها عن نفسه كدفع الطائر عن نفسه بجناحه ، كقوله : « واضمُمْ إليك جناحك مِنَ الرَّهْب » ، وإنما يوقع الجناح على هذه الأشياء تشبيهاً واستعارة ، كما يقال : قد قُصَّ جناح الإنسان ، وقد قُطعت يده ورجله : إذا وقعت به جائحة أبطلت تصرُّفه ؛ ويقول الرجل للرجل : أنت يدي ورِجْلي ، أي : أنت مَنْ به أَصِلُ إلى محابّي ، قال جرير :

سَأَشْكُرُ أَنْ رَدَدْتَ إليَّ رِيشي ... وأَنْبَتَّ القَوادمَ في جَناحِي [(١)]

وقالت امرأة من العرب ترثي زوجها الأغرّ :

ياعِصمتي في النّائبات ويا ... رُكْني [الأغرّ] ويا يَدي اليمنى

لاصُنْتُ وجهاً كنتُ صائنه ... أبداً ووجهك في الثرى يَبْلى

فأمّا الرَّهَب ، فقرأ ابن كثير ، ونافع ، وأبو عمرو : « مِنَ الرَّهَب » بفتح

---

(١) ديوانه : ٩٨ .

الراء والهاء . وقرأ حمزة ، والكسائي ، وأبو بكر عن عاصم : « من الرُّهْب » بضم الراء وسكون الهاء . وقرأ حفص [وأبان] عن عاصم : « من الرَّهْب » بفتح الراء وسكون الهاء [وهي قراءة ابن مسعود ، وابن السميفع] . وقرأ أُبيّ بن كعب ، والحسن ، وقتادة : بضم الراء والهاء . قال الزجاج : الرُّهْب ، والرَّهَب بمعنى واحد ، مثل الرُّشْد ، والرَّشَد . وقال أبو عبيدة : الرُّهْب والرَّهْبة بمعنى الخوف والفَرَق . وقال ابن الأنباري : الرَّهْبُ ، والرُّهُب ، والرَّهَب ، مثل الشَّغْل ، والشُّغُل ، والشَّغَل ، والبَخْل ، والبُخُل ، والبَخَل ، وتلك لغات ترجع إلى معنى الخوف والفَرَق .

وللمفسرين في معنى هذه الآية ثلاثة أقوال .

أحدها : أنَّه لمَّا هرب من الحيَّة أمره الله أن يَضُم إليه جناحه ليذهب عنه الفزع . قال ابن عباس : المعنى : اضمم يدك إلى صدرك من الخوف ولا خوف عليك . وقال مجاهد : كلُّ مَنْ فَزِع فضَمَّ جناحه إليه ذهب عنه الفَزَع .

والثاني : أنَّه لمَّا هاله بياض يده وشعاعها ، أُمِر أن يُدْخِلها في جيبه ، فعادت إلى حالتها الأُولى .

والثالث : أن معنى الكلام : سَكِّن رَوْعَك ، وثَبِّت جأْشَك . قال أبو علي : ليس يراد به الضَّمْ بين الشيئين ، إنما أُمِر بالعزم [على ما أُمِر به] والجدِّ فيه ، ومثله : اشدد حيازيمك الموت .

قوله تعالى : (فذانك) قرأ ابن كثير ، وأبو عمرو : « فذانِّك » بالتشديد . وقرأ الباقون : « فذانك » بالتخفيف . قال الزجاج : التشديد تثنية « ذلك » ، والتخفيف تثنية « ذاك » ، فجعل اللام في « ذلك » بدلاً من تشديد النون في « ذانِّك » ، (بُرْهانان) أي : بيانان اثنان . قال المفسرون : « فذانك » يعني

العصا واليد ، حُجَّتان من الله لموسى على صِدْقه ، (إلى فرعون) أي : أرسلنا بهاتين الآيتين إلى فرعون [١] . وقد سبق تفسير مابعد هذا [الشعراء : ١٤] إلى قوله : (هو أفْصَحُ مِنِّي لساناً) أي : أحسنُ بياناً ، لأنَّ موسى كان في لسانه أثر الجمرة التي تناولها ، (فأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءاً) قرأ الأكثرون : « رِدْءاً » بسكون الدال وبعدها همزة . وقرأ أبو جعفر : « رِدا » بفتح الدال وألف بعدها من غير تنوين ولا همز ؛ وقرأ نافع كذلك إلا أنه نوَّن . وقال الزجاج : الرِّدْء : العون ، يقال : ردأتُه أردؤه رِدْءاً : إذا أعنتَه .

قوله تعالى : (يُصَدِّقُني) قرأ عاصم ، وحمزة : « يُصَدِّقُني » بضم القاف . وقرأ الباقون بسكون القاف . قال الزجاج : من جزم « يُصَدِّقْني » فعلى جواب المسألة : أرْسِلْهُ يُصَدِّقْني ؛ ومن رفع ، فالمعنى : رِدْءاً مُصَدِّقاً لي . وأكثر المفسرين على أنه أشار بقوله : « يُصَدِّقُني » إلى هارون ؛ وقال مقاتل بن سليمان : لكي يُصَدِّقني فرعون .

قوله تعالى : (سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بأخيك) قال الزجاج : المعنى : سنُعينك بأخيك ، ولفظ العَضُد على جهة المثل ، لأن اليد قِوامُها عَضُدُها ، وكل مُعين فهو عَضُد ، (ونَجْعَلُ لكما سُلطاناً) أي : حُجَّة بيِّنة . وقيل للزَّيت : السَّليط ، لأنه يُستضاء به ؛ والسُّلطان : أبْيَن الحُجج .

قوله تعالى : (فلا يَصِلُونَ إليكما) أي : بقتل ولا أذى .

---

(١) قال ابن كثير : وقوله تعالى : (فذانك برهانان من ربك) يعني إلقاء العصا وجعلها حية تسعى ، وإدخاله يده في جيبه فتخرج بيضاء من غير سوء ، دليلان قاطعان واضحان على قدرة الفاعل المختار وصحة نبوَّة من جرى هذا الخارق على يديه ، ولهذا قال تعالى : (إلى فرعون وملئه) أي : وقومه من الرؤساء والكبراء والأتباع ، (إنهم كانوا قوماً فاسقين) أي : خارجين عن طاعة الله مخالفين لأمره ودينه . اهـ .

وفي قوله : (بآياتنا) ثلاثة أقوال .

أحدها : أن المعنى : تمتنعان منهم بآياتنا وحُججنا فلا يَصِلُون إليكما .

والثاني : أنَّه متعلِّق بما بعده ، فالمعنى : بآياتنا أنتما ومَنْ اتَّبعكما الغالبون ، أي : تَغْلِبُون بآياتنا .

والثالث : أنَّ في الكلام تقديماً وتأخيراً ، تقديره : ونجعل لكما سُلطاناً بآياتنا فلا يَصِلُون إليكما .

﴿ فَلَمَّا جَاءَهُمْ مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُفْتَرًى وَمَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ . وَقَالَ مُوسَىٰ رَبِّي أَعْلَمُ بِمَنْ جَاءَ بِالْهُدَىٰ مِنْ عِنْدِهِ وَمَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴾

قوله تعالى : (ما هذا إلا سِحْرٌ مُفترىً) أي : ما هذا الذي جئتَنا به إلا سِحْر افتريتَه مِنْ قِبَل نفسك ولم تُبعَث به (وما سَمِعْنا بهذا) الذي تدعونا إليه (في آبائنا الأوَّلين) ، (وقال موسى ربِّي أعلم) وقرأ ابن كثير : « قال موسى » بلا واو ، وكذلك هي في مصاحفهم (بمن جاء بالهُدى) أي : هو أعلم بالمُحِقّ منَّا ، (ومَنْ تكونُ له عاقبة الدَّار) وقرأ حمزة ، والكسائي ، وخلف ، [والمفضل] : « يكون » بالياء ، والباقون بالتاء .

﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَلْ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَىٰ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ . وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ . فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ .

﴿ وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُنْصَرُونَ . وَأَتْبَعْنَاهُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُمْ مِنَ الْمَقْبُوحِينَ ﴾

قوله تعالى : (فَأَوْقِدْ لي يا هامانُ على الطِّين) قال ابن قتيبة : المعنى : اصنع لي الآجُرّ (فاجْعَلْ لي صَرْحاً) أي : قصراً عالياً . وقال الزجاج : الصَّرْح : كلُّ بناءٍ متَّسع مرتفع . وجاء في التفسير أنّه لمَّا أمر هامان - وهو وزيره - ببناء الصَّرْح ، جمع العمَّال والفَعَلَة حتى اجتمع خمسون ألف بنَّاء سوى الأتباع ، فرفعوه وشيَّدوه حتى ارتفع ارتفاعاً لم يبلغه بنيانُ أحد قَطْ ، فلمَّا تمَّ ارتقى فرعون فوقه ، وأمر بنُشَّابةٍ فرمى بها نحو السماء ، فرُدَّت وهي متلطِّخة بالدَّم ، فقال : قد قتلتُ إله موسى[1] ، فبعث الله تعالى جبريلَ فضربه بجناحه[2] فقطعه ثلاث قطع ، فوقعت قطعة على عسكر فرعون فقتلتْ ألف ألف رجل ، ووقعت قطعة أخرى في البحر ، وأخرى في المغرب[3] .

قوله تعالى : (لَعَلِّي أطَّلِعُ إلى إلٰه موسى) أي : أصعد إليه وأُشْرِفُ عليه (وإنِّي لأظُنُّه) يعني موسى (من الكاذبين) في ادِّعائه إلهاً غيري . وقال ابن جرير : المعنى : أظنُّ موسى كاذباً في ادِّعائه أنَّ في السماء ربّاً أرسله . (واستكبر هو وجنودُه في الأرض) يعني أرض مصر (بغير الحق) أي : بالباطل والظُّلم (وظنُّوا أنَّهم إلينا لا يُرْجَعون) بالبعث للجزاء . قرأ ابن كثير ، وأبو عمرو ، وعاصم ، وابن عامر : « يُرْجَعون » برفع الياء ؛ وقرأ نافع ، وحمزة ، والكسائي : بفتحها .

---

(١) ذكر هذا الخبر بنحوه القرطبي في تفسيره ، ولم يعزه لأحد ، وذكره الطبري مختصراً عن السدي ، وكذلك السيوطي من رواية ابن أبي حاتم عن السدي .

(٢) أي : فضرب الصرح بجناحه .

(٣) قال القرطبي بعد أن ذكره : والله أعلم بصحة ذلك .

قوله تعالى : (وجعلناهم) أي : في الدنيا (أئمَّةً) أي : قادة في الكفر يأتمّ بهم العتاة (يَدْعُونَ إلى النّار) لأن من أطاعهم دخلها ؛ و « يُنْصَرون » بمعنى : يُمْنَعون من العذاب . وما بعد هذا مفسر في (هود : ٦٠ ، ٩٩) .

قوله تعالى : (من المقبوحين) أي : من المُبْعَدين الملعونين ؛ قال أبو زيد : يقال : قَبَحَ اللهُ فلاناً ، أي : أبعده من كل خير . وقال ابن جريج : معنى الآية : وأتبعناهم في هذه الدنيا لعنةً ويوم القيامة لعنةً أخرى ، ثم استقبل الكلام، فقال : هم من المقبوحين [1] .

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَىٰ بَصَائِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ . وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَى مُوسَى الْأَمْرَ وَمَا كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ . وَلَٰكِنَّا أَنْشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ وَمَا كُنْتَ ثَاوِيًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَلَٰكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ . وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَٰكِنْ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ لِتُنْذِرَ قَوْمًا مَا أَتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ . وَلَوْلَا أَنْ تُصِيبَهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾

قوله تعالى : (مِنْ بَعْدِ ما أهلكنا القرونَ الأولى) يعني قوم نوح وعاد وثمود وغيرهم (بصائرَ للناس) أي : ليبصروا به ويهتدوا .

(١) قال ابن كثير : أي : وشرع الله لعنتهم ولعنة ملكهم فرعون على ألسنة المؤمنين من عباده المتّبعين لرسله كما أنهم في الدنيا ملعونون على ألسنة الأنبياء وأتباعهم ، كذلك (ويوم القيامة هم من المقبوحين) .

قوله تعالى : (وما كنتَ بجانب الغربيِّ) قال الزجاج : أي : وما كنتَ بجانب الجبل الغربيّ .

قوله تعالى : (إذ قضَيْنا إلى موسى الأمرَ) أي : أحْكَمْنا الأمر معه بارساله إلى فرعون وقومه (وما كنتَ مِن الشاهدين) لذلك الأمر ؛ وفي هذا بيان لصحة نبوّة نبيِّنا ﷺ ، لأنهم يعلمون أنه لم يقرأ الكتب ، ولم يشاهِد ماجرى ، فلولا أنّه أُوحي إليه ذلك ، ما علم [1] .

قوله تعالى : (ولكنَّا أنشأْنا قروناً) أي : خلَقْنا أُمماً مِن بعد موسى (فتَطَاوَلَ عليهم العُمُرُ) أي : طال إمهالُهم فنسوا عهد الله وتركوا أمره ؛ وهذا

(١) قال ابن كثير : يقول تعالى منبّهاً على برهان نبوّة محمد ﷺ حيث أخبر بالغيوب الماضية خبراً كأن سامعه شاهدٌ وراءٍ لما تقدّم ، وهو رجل أميٌّ لا يقرأ شيئاً من الكتب ، نشأ بين قوم لايعرفون شيئاً من ذلك ، كما أنه لما أخبره عن مريم وما كان من أمرها ، قال تعالى : (وما كنت لديهم إذ يلقون أقلامهم أيهم يكفل مريم وما كنت لديهم إذ يختصمون ...) الآية ، أي : وما كنت حاضراً لذلك ، ولكن الله أوحاه إليك ، وهكذا لمّا أخبره عن نوح وقومه وما كان من إنجاء الله له وإغراق قومه ، ثم قال تعالى : (تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك وما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا فاصبر إن العاقبة للمتقين . . .) الآية ، وقال في آخر السورة : (ذلك من أنباء القرى نقصه عليك) وقال بعد ذكر قصة يوسف : (ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك وما كنت لديهم إذ أجمعوا أمرهم وهم يمكرون . . .) الآية ، وقال في سورة (طه) : (كذلك نقص عليك من أنباء ماقد سبق . . .) الآية ، وقال ها هنا بعد ماأخبر عن قصة موسى من أولها إلى آخرها وكيف كان ابتداء إيحاء الله إليه وتكليمه له : (وما كنتَ بجانب الغربيّ إذ قضينا إلى موسى الأمر) يعني : ما كنت يامحمد بجانب الجبل الغربي الذي كلم الله موسى من الشجرة التي هي شرقية على شاطىء الوادي (وما كنت من الشاهدين) لذلك ، ولكن الله سبحانه وتعالى أوحى إليك ذلك ليكون حجة وبرهاناً على قرون قد تطاول عهدها ونسوا حجج الله عليهم وما أوحاه إلى الأنبياء المتقدمين . اهـ .

يدلُّ على أنه قد عُهد إلى موسى وقومه عهود في أمر محمد ﷺ، وأُمروا بالإيمان به، فلمَّا طال إمهالُهم، أعرضوا عن مراعاة العهود، (وما كنتَ ثاوياً) أي: مقيماً (في أهل مَدْيَنَ) فتَعْلَم خبر موسى وشعيب وابنتيه فتتلو ذلك على أهل مكة [١] (ولكنَّا كُنَّا مرسِلِين) أرسلناكَ إلى أهل مكة وأخبرناك خبر المتقدِّمِين، ولولا ذلك ما علمته. (وماكنتَ بجانب الطُّور) أي: بناحية الجبل الذي كُلِّم عليه موسى (إذ نادَيْنا) موسى وكلَّمناه، هذا قول الأكثرين؛ وقال أبو هريرة: كان هذا النداء: يا أُمَّة محمد، أعطيتُكم قبل أن تسألوني، وأستجيب لكم قبل أن تدعوني [٢].

قوله تعالى: (ولكن رحمةً مِنْ ربِّك) قال الزجاج: المعنى: لم تُشاهِد قصص الأنبياء، ولكنَّا أوحيناها إليك وقصصناها عليك، رحمةً من ربِّك.

(ولولا أن تصيبهم مصيبة) جواب «لولا» محذوف، تقديره: لولا أنهم يحتجُّون بترك الإرسال إليهم لعاجلناهم بالعقوبة. وقيل: لولا ذلك لم نحتَجْ إلى إرسال الرسل ومؤاثرة الاحتجاج.

﴿ فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا لَوْلَا أُوتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَىٰ أَوَلَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ مِنْ قَبْلُ قَالُوا سِحْرَانِ تَظَاهَرَا وَقَالُوا إِنَّا بِكُلٍّ كَافِرُونَ. قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَا أَتَّبِعْهُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ. فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا

(١) قال ابن كثير: وما كنت مقيماً في أهل مدين تتلو عليهم آياتنا حين أخبرت عن نبيِّها شعيب وما قال لقومه وما ردُّوا عليه، ولكن نحن أوحينا إليك ذلك.

(٢) رواه الطبري والنسائي، وفي سنده حمزة الزيات، قال الحافظ ابن حجر عنه: صدوق زاهد ربما وهم، وذكره السيوطي في «الدر» وزاد نسبته للفريابي، وابن أبي حاتم، والحاكم، وابن مردويه، وأبي نعيم والبيهقي معاً في «الدلائل».

لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدىً مِنَ اللهِ إِنَّ اللهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ . وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ . الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ . وَإِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ . أُولَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا وَيَدْرَؤُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ . وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ ﴾

قوله تعالى : (فلمّا جاءهم) يعني أهل مكة (الحقُّ مِنْ عندنا) وهو محمد عليه السلام والقرآن (قالوا لولا) أي : هلاَّ (أُوتيَ) محمد من الآيات (مِثْلَ ما أُوتيَ موسى) كالعصا واليد . قال المفسرون : أمرت اليهودُ قريشاً أن تسأل محمداً مثل ما أُوتيَ موسى ، فقال الله تعالى : (أولم يكفروا بما أُوتيَ موسى) أي : فقد كفروا بآيات موسى ، و (قالوا) في المشار إليهم قولان . أحدهما : اليهود . والثاني : قريش . (سحران) قرأ ابن كثير ، ونافع ، وأبو عمرو ، وابن عامر : « ساحران » . (تَظَاهَرا) أي : تعاونا . وروى العباس الأنصاري عن أبي عمرو : « تَظَّاهَرا » بتشديد الظاء .

وفيمن عَنَوْا ثلاثة أقوال .

أحدها : موسى ومحمد ، قاله ابن عباس ، والحسن ، وسعيد بن جبير ؛ فعلى هذا هو من قول مشركي العرب .

والثاني : موسى وهارون ، قاله مجاهد ؛ فعلى هذا هو من قول اليهود لهما في ابتداء الرسالة .

والثالث : محمد وعيسى [١] ، قـاله قتـادة ؛ فعلى هذا هو من قول اليهود الذين لم يؤمنوا بنبيِّنا .

وقرأ عاصم ، وحمزة ، والكسائي : « سِحْران » وفيه ثلاثة أقوال .

أحدها : التوراة والفرقان ، قاله ابن عباس ، والسدي .

والثاني : الإنجيل والقرآن ، قاله قتادة .

والثالث : التوراة والإنجيل ، قاله أبو مجلز ، وإسماعيل ابن أبي خالد . ومعنى الكلام : كلُّ سِحْر منهما يقوِّي الآخر ، فنُسب التظاهر إلى السِحْرين توسُّعاً في الكلام ، (وقالوا إنَّا بكلٍّ كافرون) يعنون ما تقدَّم ذِكْره على اختلاف الأقوال ، فقال الله لنبيِّه (قُلْ) لكفَّار مكة (فأْتُوا بكتابٍ مِنْ عِنْدِ الله هو أهدى منهما) أي : من التوراة والقرآن ، (إن كنتم صادِقين) أنَّهما ساحران . (فان لم يستجيبوا لك) أي : فان لم يأتوا بمثل التوراة والقرآن ، (فاعلم أنَّما يَتَّبعون أهواءهم) أي : أنَّ ما ركبوه من الكفر لم يحملهم عليه حُجَّة ، وإنما آثروا فيه الهوى (ومَنْ أضَلُّ) أي : ولا أحد أضل (مِمَّن اتَّبع هواه بغير هُدىً) أي : بغير رشاد ولا بيان جاء (من الله) . (ولقد وصَّلْنا لهم القَولَ) وقرأ الحسن ، وأبو المتوكل ، وابن يعمر : « وصَلْنَا » بتخفيف الصاد .

وفي المشار إليهم قولان .

أحدها : أنهم قريش ، قاله الأكثرون ، منهم مجاهد .

والثاني : اليهود ، قاله رفاعة القرظي .

والمعنى : أنزلنا القرآن يتبع بعضه بعضاً ، ويُخبِر عن الأمم الخالية كيف عُذِّبوا لعلَّهم يتَّعظون .

(الذين آتيناهم الكتاب) وفيهم ثلاثة أقوال .

---

(١) قال ابن كثير : وهذا فيه بُعد ، لأن عيسى لم يجر له ذكر هاهنا ، والله أعلم . اهـ .

أحدها : أنهم مؤمنو أهل الكتاب ، رواه العوفي عن ابن عباس ، وبه قال مجاهد .

والثاني : مسلمو أهل الإنجيل ، روى سعيد بن جبير عن ابن عباس أن أربعين من أصحاب النجاشي قَدِموا على رسول الله ﷺ فشهدوا معه أُحُداً ، فنزلت فيهم هذه الآية [1] .

والثالث : مسلمو اليهود ، كعبد الله بن سلام وغيره ، قاله السدي .

قوله تعالى : (مِنْ قَبْلِه) أي : من قبل القرآن (هُمْ به) في هاء الكناية قولان . أحدهما : أنها ترجع إلى محمد ﷺ ، لأن ذِكْره كان مكتوباً [عندهم] في كتبهم ، فآمنوا به . والثاني : إلى القرآن .

قوله تعالى : (وإذا يُتْلى عليهم) يعني القرآن (قالوا آمَنَّا به) ، (إنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِه) أي : من قبل نزول القرآن (مُسْلِمِين) أي : مُخْلِصين لله مصدِّقين بمحمد ، وذلك لأن ذِكْره كان في كتبهم فآمنوا به (أولئك يؤتَوْنَ أجرهم مَرَّتين) في المشار إليهم قولان .

أحدها : أنَّهم مؤمنو أهل الكتاب ، وهذا قول الجمهور ، وهو الظاهر [2] ،

---

(١) قال السيوطي في « أسباب النزول » ٢١٠ : رواه الطبراني في « الأوسط » بسند فيه من لا يُعرف عن ابن عباس رضي الله عنها .

(٢) عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « ثلاثة يؤتَون أجرهم مرتين : رجل من أهل الكتاب آمن بنبيه وأدرك النبي ﷺ فآمن به واتَّبعه وصدَّقه ، فله أجران ، وعبد مملوك أدَّى حق الله تعالى وحق سيِّده ، فله أجران ، ورجل كانت له أمة فغذاها فأحسن غذاءها ، ثم أدَّبها فأحسن أدبها ، ثم أعتقها وتزوجها ، فله أجران » متفق عليه ، واللفظ لمسلم . وذكره السيوطي في « الدر » ٥/١٣٣ ، وزاد نسبته لأحمد ، والترمذي ، والنسائي ، وابن ماجه ، وابن مردويه ، والبيهقي .

وفيما صبروا عليه قولان . أحدهما : أنهم صبروا على الكتاب الأوّل، وصبروا على اتّباعهم محمداً ، قاله قتادة ، وابن زيد . والثاني : أنهم صبروا على الإيمان بمحمد قبل أن يُبْعَث، ثم على اتّباعه حين بُعث ، قاله الضحاك .

والقول الثاني : أنهم قوم من المشركين أسلموا ، فكان قومهم يؤذونهم ، فصبروا على الأذى ، قاله مجاهد .

قوله تعالى : (ويدرؤون بالحسنة السَّيئة) فيه أقوال قد شرحناها في (الرعد : ٢٢) .

قوله تعالى : (وإذا سَمِعُوا اللَّغو) فيه ثلاثة أقوال .

أحدها : الأذى والسَّبّ ، قاله مجاهد . والثاني : الشِرك ، قاله الضحاك . والثالث : أنهم قوم من اليهود آمنوا ، فكانوا يسمعون ماغيَّر اليهود من صفة رسول الله ﷺ فيَكرهون ذلك ويُعْرِضون عنه ، قاله ابن زيد . وهل هذا منسوخ ، أم لا ؟ فيه قولان .

وفي قوله : (وقالوا لنا أعمالُنا ولكم أعمالكم) قولان .

أحدها : لنا دِيننا ولكم دِينكم . والثاني : لنا حِلْمُنا ولكم سَفَهُكم . (سلام عليكم) قال الزجاج : لم يريدوا التحيَّة ، وإنَّما أرادوا : بيننا وبينكم المُتارَكة ، وهذا قبل أن يؤمَر المسلمون بالقتال . وذكر المفسرون أنَّ هذا منسوخ بآية السيف .

وفي قوله : (لانبتغي الجاهلين) ثلاثة أقوال .

أحدها : لانبتغي دِين الجاهلين . والثاني : لانطلُب مجاورتهم . والثالث : لانريد أن نكون جُهَّالاً .

﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ . وَقَالُوا إِنْ نَتَّبِعِ الْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا أَوَلَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَىٰ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقًا مِنْ لَدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ . وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَنْ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ ﴾

قوله تعالى : (إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ) قد ذكرنا سبب نزولها عند قوله : (ما كان للنبيِّ والذين آمنوا أن يَستغفروا للمُشركين) [التوبة : ١١٣] ، وقد روى مسلم فيما انفرد به عن البخاري من حديث أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ لعمِّه : « قل : لا إله إلا الله أشهد لك بها يوم القيامة » ، فقال : لولا أن تُعيِّرني نساء قريش ، يقلن : إنَّما حمله على ذلك الجزع ، لاقررتُ بها عينك ، فأنزل الله عز وجل : « إنَّك لا تهدي مَنْ أحببتَ » [1] . قال الزجاج : أجمع المفسرون أنها نزلت في أبي طالب .

---

(١) رواه مسلم في « صحيحه » ١/٥٥ ، ولفظه : « لولا أن تعيِّرني قريش ، يقولون : إنما حمله على ذلك الجزع لأقررت بها عينك » وليس عند مسلم كلمة « نساء » . وذكره السيوطي في « الدر » ٥/١٣٣ ، وزاد نسبته لعبد بن حميد ، والترمذي ، وابن أبي حاتم ، وابن مردويه ، والبيهقي في « الدلائل » ، وقد انفرد مسلم بروايته بهذا اللفظ مختصراً ، ورواه البخاري في « صحيحه » ٨/٣٨٩ ومسلم في « صحيحه » ١/٥٤ بأطول منه باختلاف يسير في روايتيهما : عن سعيد بن المسيب عن أبيه قال : لما حضرت أبا طالب الوفاةُ ، جاءه رسول الله ﷺ فوجد عنده أبا جهل وعبد الله بن أبي أمية بن المغيرة ، فقال : « أي عم قل لا إله إلا الله كلمة أحاج لك بها عند الله » فقال أبو جهل وعبد الله بن أبي أمية : أترغب عن ملة عبد المطلب ؟ ! فلم يزل رسول الله ﷺ يعرضها عليه ويُعيدانه بتلك المقالة ، حتى قال أبو طالب آخر ما كلَّمهم : على ملة عبد المطلب ، ـــ

وفي قوله : (مَنْ أحببتَ) قولان .

أحدهما : من أحببتَ هدايته . والثاني : من أحببتَه لقرابته .

(ولكنّ الله يهدي من يشاء) أي : يُرْشِد لِدِينه من يشاء (وهو أعلمُ بالمهتدين) أي : من قدَّر له الهُدى .

قوله تعالى : (وقالوا إنْ نَتَّبِعِ الهُدى معكَ) قال ابن عباس في رواية العوفي : هم ناس من قريش قالوا ذلك [١] . وقال في رواية ابن أبي مُلَيْكة : إنّ الحارث بن عامر بن نوفل قال ذلك [٢] . وذكر مقاتل أن الحارث بن عامر قال لرسول الله ﷺ : إنّا لَنعلم أنّ الذي تقول حق ، ولكن يمنعنا أن نتّبع [الهُدى] معك مخافة أن تتخطّفنا العرب من أرضنا [٣] ، يعنون مكة . ومعنى الآية : إن اتّبعناك على دينك خِفْنا العرب لمخالفتنا إياها . والتّخطُّف : الانتزاع بسرعة ؛ فردّ اللهُ عليهم قولهم ، فقال : (أوَلَمْ نُمَكِّنْ لهم حَرَماً) أي : أوَلَمْ نُسْكِنْهم

ــــ وأبى أن يقول : لا إله إلا الله ، قال : فقال رسول الله ﷺ : « والله لأستغفرنّ لك مالم أنه عنك » فأنزل الله (ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ..) وأنزل الله في أبي طالب فقال لرسول الله ﷺ : (إنك لاتهدي من أحببت ، ولكن الله يهدي من يشاء) ، واللفظ للبخاري ، وأورده السيوطي في « الدر » ٣/٢٨٢ وزاد نسبته لابن أبي شيبة ، وأحمد ، والنسائي ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وأبي الشيخ ، وابن مردويه ، والبيهقي في « الدلائل » .

(١) رواه الطبري ٢٠/٩٤ ، وذكره السيوطي في « الدر » ٥/١٣٤ ، وزاد نسبته لابن أبي حاتم ، وابن مردويه .

(٢) رواه الطبري ٢٠/٩٤ ، وأورده السيوطي في « الدر » ٥/١٣٤ ، وزاد نسبته للنسائي ، وابن المنذر . وذكر الحافظ ابن كثير عن رواية النسائي عن ابن أبي مليكه ، قال : قال عمرو بن شعيب عن ابن عباس ، ولم يسمعه منه .

(٣) ذكر هذا المعنى الطبرسي في « مجمع البيان » ولم ينسبه لمقاتل ولا غيره ، بل ذكره بلفظ « وقيل » . وذكره القرطبي عن ابن عباس ، ولم يذكر من رواه عنه ، والله أعلم .

حَرَماً ونجعله مكاناً لهم ، ومعنى (آمِناً) : ذو أمن يأمن فيه الناس ، وذلك أن العرب كان يُغير بعضُها على بعض ، وأهلُ مكة آمنون في الحرم من القتل والسَّبي والغارة ، أي : فكيف يخافون إذا أسلموا وهم في حرم آمن ؟! (يُجْبى) [قرأ نافع : « تُجْبى » بالتاء] ، أي : تُجْمَع إليه وتُحمل من [كل] النواحي الثمرات ، (رِزْقاً مِنْ لَدُنَّا) أي : مِنْ عندنا (ولكنَّ أكثرهم) يعني أهل مكة (لايَعْلَمون) أنَّ الله هو الذي فعل بهم ذلك فيشكرونه . ومعنى الآية : إذا كنتم آمنين في حرمي تأكلون رزقي وتعبُدون غيري ، فكيف تخافون إذا عبَدتموني وآمنتم بي ؟! ثم خوَّفهم عذاب الأمم الخالية فقال: (وكم أهْلَكْنَا من قرية بَطِرَتْ مَعيشتَها) قال الزجاج : « معيشتَها » منصوبة باسقاط « في » ، والمعنى : بَطِرَتْ في معيشتها ، والبطر : الطُّغيان في النِّعمة . قال عطاء : عاشوا في البطر فأكلوا رزق الله وعبدوا الأصنام .

قوله تعالى : (فتلك مساكنُهم لَمْ تُسْكَن مِنْ بَعدهم إلَّا قليلاً) قال ابن عباس : لم يسكُنْها إلَّا المسافرون ومارُّ الطريق يوماً أو ساعة ، والمعنى : لم تُسْكَن من بعدهم إلا سُكُونا قليلاً (وكُنَّا نحن الوارثين) أي : لم يَخْلُفْهم أحد بعد هلاكهم في منازلهم ، فبقيتْ خراباً غير مسكونة .

﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولاً يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَىٰ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ . وَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَزِينَتُهَا وَمَا عِنْدَ اللهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ أَفَلَا تَعْقِلُونَ . أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْداً حَسَناً فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَنْ مَتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَٰمَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ ﴾

(وما كان ربُّك مُهْلِكَ القُرى) يعني القرى الكافر أهلها (حتَّى يَبْعَثَ

في أُمّها) أي : في أعظمها (رسولاً)، وإنما خصّ الأعظم ببعثة الرسول، لأن الرسول إنّما يُبعث إلى الأشراف، وأشراف القوم ملوكهم، وإنما يسكُنون المواضع التي هي أمٌّ ماحولها. وقال قتادة : أُم القرى : مكة، والرسول : محمد.

قوله تعالى : (يَتْلو عليهم آياتنا) قال مقاتل : يخبرهم الرسول أنّ العذاب نازل بهم إن لم يؤمنوا.

قوله تعالى : (وما كُنَّا مُهْلِكي القرى إلاّ وأهلها ظالمون) أي : بظلمهم أهلكهم. وظلمهم : شركهم. (وما أُوتيتم من شيء) أي : ما أُعطيتم من مال وخير (فمتاعُ الحياة الدُّنيا) تتمتّعون به أيام حياتكم ثم يفنى وينقضي، (وما عند الله) من الثواب (خير وأبقى) أفضل وأدْوَم لأهله (أفلا تَعْقِلون) أنّ الباقي أفضل مِنَ الفاني ؟!

قوله تعالى : (أفَمَنْ وَعَدْناه وَعْداً حسَناً) اختُلف فيمن نزلت على أربعة أقوال. أحدها : أنها نزلت في رسول الله ﷺ وأبي جهل [1]. والثاني : في عليّ وحمزة عليهما السلام، وأبي جهل [2]. والقولان مرويان عن مجاهد. والثالث : في المؤمن والكافر، قاله قتادة [3]. والرابع : في عمّار والوليد بن المغيرة، قاله السدي [4].

---

(١) « الطبري » : ٩٧/٢٠ عن مجاهد، وفي سنده الحكم بن عبد الله العجلي، ثقة له أوهام، وأبان بن تغلب، ثقة تكلم فيه للتشيع.

(٢) « الطبري » : ٩٧/٢٠ عن مجاهد، والواحدي في « أسباب النزول » : ١٩٤. وفي سنده أبان بن تغلب.

(٣) ذكر ذلك البغوي والخازن عن قتادة، ولم ينسباه إلى أحد. وذكر نحوه بأطول منه السيوطي في « الدر » : ١٣٥/٥ عن قتادة من رواية عبد بن حميد، وابن أبي حاتم.

(٤) ذكره الواحدي في « أسباب النزول » : ١٩٤ عن السدي، ولم يعزه لأحد.

وفي الوعد الحسن قولان . أحدهما : الجنة . والثاني : النصر .

قوله تعالى : (فهو لاقِيه) أي : مُصيبه ومُدْرِكه (كَمَنْ مَتَّعْناه متاع الحياة الدنيا) أي : كمن هو ممتَّع بشيء يفنى ويزول عن قريب (ثُمَّ هو يومَ القيامة من المُحْضَرِين) فيه قولان . أحدهما : من المُحْضَرِين في عذاب الله ، قاله قتادة . والثاني : من المُحْضَرِين للجزاء ، حكاه الماوردي .

﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ . قَالَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنَا أَغْوَيْنَاهُمْ كَمَا غَوَيْنَا تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ . وَقِيلَ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَرَأَوُا الْعَذَابَ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ . وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ . فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الْأَنْبَاءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَاءَلُونَ . فَأَمَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَعَسَى أَنْ يَكُونَ مِنَ الْمُفْلِحِينَ ﴾

قوله تعالى : (ويوم يناديهم) أي : ينادي اللهُ تعالى المشركين يومَ القيامة (فيقول أين شركائيَ) هذا على حكاية قولهم ؛ والمعنى : أين شركائي في قولكم ؟! (قال الذين حَقَّ عليهم القول) أي : وجب عليهم العذاب ، وهم رؤساء الضلالة ،

ـــ قال القرطبي : قال القشيري : والصحيح أنها نزلت في المؤمن والكافر على التعميم ، ونقل عن الثعلبي أنه قال : وبالجملة فانها نزلت في كل كافر متع في الدنيا بالعافية والغنى وله في الآخرة النار ، وفي كل مؤمن صبر على بلاء الدنيا ثقة بوعد الله ، وله في الآخرة الجنة . وقال ابن كثير : والظاهر أنها عامة .

وفيهم قولان . أحدهما : أنهم رؤوس المشركين . والثاني : أنهم الشياطين (ربَّنا هؤلاء الذين أغوَينا) يعنون الأتباع (أغوَيناهم كما غوَينا) أي : أضللناهم كما ضَلَلْنا (تبرَّأنا إليكَ) أي : تبرَّأنا منهم إليك ؛ والمعنى أنهم يتبرَّأ بعضهم من بعض ويصيرون أعداءاً . (وقيل) لكُفَّار بني آدم (ادعوا شركاءكم) أي : استغيثوا بآلهتكم لتُخَلِّصكم من العذاب (فدعَوْهم فلم يستجيبوا لهم) أي : فلم يجيبوهم إلى نصرهم (ورأَوُا العذاب لو أنَّهم كانوا يَهْتَدون) قال الزجّاج : جواب « لو » محذوف ؛ والمعنى : لو [أنهم] كانوا يهتدون لَمَا اتَّبعوهم ولَمَا رأَوُا العذاب .

قوله تعالى : (ويوم يناديهم) أي : ينادي اللهُ الكفار ويسألهم (فيقولُ ماذا أجبتم المرسَلِين) . (فَعَمِيَت عليهم الأنباء) وقرأ أبو رزين العقيلي ، وقتادة ، وأبو العالية ، وأبو المتوكل ، وعاصم الجحدري : « فَعُمِّيَتْ » برفع العين وتشديد الميم . قال المفسرون : خفيت عليهم الحُجج ، وسمِّيت أنباءً ، لأنها أخبار يُخبَر بها . قال ابن قتيبة : والمعنى : عَمُوا عنها ـ من شدة الهول ـ فلم يُجيبوا ، و « الأنباء » هاهنا : الحُجج .

قوله تعالى : (فهم لايتساءلون) فيه ثلاثة أقوال . أحدها : لايسأل بعضهم بعضاً عن الحُجَّة ، قاله الضحاك . والثاني : أن المعنى : سكتوا فلا يتساءلون في تلك الساعة ، قاله الفراء . والثالث : لايسأل بعضهم بعضاً أن يحمل عنه شيئاً من ذنوبه ، حكاه الماوردي .

(فأمَّا مَنْ تاب) من الشِّرك (وآمَنَ) أي : صدَّق بتوحيد الله (وعَمِلَ صالحاً) أدَّى الفرائض (فعسى أن يكون من المُفْلِحِين) و « عسى » من الله واجب .

﴿ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَايَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَاكَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحَانَ اللهِ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ . وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَاتُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ . وَهُوَ اللهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَىٰ وَالْآخِرَةِ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾

قوله تعالى : (وربُّكَ يَخْلُقُ مايشاء ويختار) روى العوفي عن ابن عباس في قوله : « وربُّكَ يَخْلُقُ مايشاء ويختار » قال : كانوا يجعلون لآلهتهم خير أموالهم في الجاهلية . وقال مقاتل : نزلت في الوليد بن المغيرة حين قال : « لولا نُزّلَ هذا القُرآنُ على رَجُلٍ مِنَ القريتين عظيمٍ » [الزخرف:٣١] [١] ؛ والمعنى أنّه لاتُبْعَث الرسل باختيارهم . قال الزجاج : والوقف الجيّد على قوله : « ويختار » وتكون « ما » نفياً ؛ والمعنى : ليس لهم أن يختاروا على الله ؛ ويجوز أن تكون « ما » بمعنى « الذي » ، فيكون المعنى : ويختار الذي لهم فيه الخِيَرة ممّا يتعبّدهم به ويدعوهم إليه [٢] ؛ قال الفراء : والعرب تقول لِمَا تختاره : أعطِني الخِيْرَة والخِيَرة والخَيْرة ، قال ثعلب : كلها لغات .

قوله تعالى : (ماتُكِنُّ صُدورُهم) أي : ما تُخفي من الكفر والعداوة (وما يُعْلِنون) بألسنتهم .

(١) ذكره السيوطي في « أسباب النزول » : ١٩٣ من رواية ابن المنذر عن قتادة ، والله أعلم .

(٢) قال ابن كثير : وقد اختار ابن جرير أن « ما » هاهنا بمعنى الذي ، تقديره : ويختار الذي لهم فيه خيرة ، قال : وقد احتج بهذا المسلك طائفة المعتزلة على وجوب مراعاة الأصلح ، ثم قال ابن كثير : والصحيح أنها نافية كما نقله ابن أبي حاتم عن ابن عباس وغيره أيضاً ، فان المقام في بيان انفراده تعالى بالخلق والتقدير والاختيار ، وأنه لانظير له في ذلك ، ولهذا قال : (سبحان الله وتعالى عما يشركون) أي : من الأصنام والأنداد التي لاتخلق ولا تختار شيئاً . اهـ .

قوله تعالى : (له الحَمْد في الأُولى والآخرة) [أي] : يَحْمَدُه أولياؤُه في الدنيا وَيَحْمَدونه في الجنة (وله الحُكْم) وهو الفصل بين الخلائق . والسَّرمد : الدائم .

﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَداً إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ . قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَداً إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ . وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ . وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ . وَنَزَعْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيداً فَقُلْنَا هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴾

قوله تعالى : (أفلا تَسْمَعون) أي : سماع فَهْم وقَبول فتستدلُّوا بذلك على وحدانية الله تعالى ؟! ومعنى (تَسْكُنون فيه) : تستريحون من الحركة والنَّصَب (أفلا تُبْصِرون) ما أنتم عليه من الخطأ والضلالة ؟! ثم أخبر أن اللَّيل والنهار رحمة منه . وقوله : (لتَسْكُنوا فيه) يعني في الليل (ولِتَبْتَغوا مِنْ فَضْله) أي : لتلتمسوا من رزقه بالمعاش في النهار (ولعلَّكم تَشْكُرون) الذي أنعَم عليكم بهما .

قوله تعالى : (ونَزَعْنا مِنْ كلِّ أُمَّة شهيداً) أي : أخرجنا من كل أُمَّة رسولها الذي يشهد عليها بالتبليغ (فقُلْنا هاتوا بُرهانكم) أي : حُجَّتكم على ما كنتم تعبُدون من دوني (فعَلِموا أنَّ الحق لله) أي : عَلِموا أنَّه لا إله إلا هو (وضَلَّ عنهم) أي : بَطَل في الآخرة (ما كانوا يَفْتَرون) في الدنيا من الشركاء .

﴿إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ . وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾

قوله تعالى : (إنَّ قارونَ كان من قوم موسى) أي : من عشيرته ؛ وفي نسبه إلى موسى ثلاثة أقوال .

أحدها : أنه كان ابن عمه ، رواه سعيد بن جبير عن ابن عباس ، وبه قال عبد الله بن الحارث ، وإبراهيم ، وابن جريج .

والثاني : ابن خالته ، رواه عطاء عن ابن عباس .

والثالث : أنه كان عمَّ موسى ، قاله ابن إسحاق [(١)] .

قال الزجاج : « قارون » اسم أعجمي لاينصرف ، ولو كان « فاعولاً » من العربية من « قرنتُ الشيء » لانصرف .

قوله تعالى : (فبغى عليهم) فيه خمسة أقوال . أحدها : أنه جعل لِبَغِيٍّ جُعْلاً على أن تقذف موسى بنفسها ، ففعلت ، فاستحلفها موسى على ما قالت ، فأخبرته بقصتها ، فكان هذا بغيه ، قاله ابن عباس . والثاني : أنه بغى بالكفر بالله تعالى ، قاله الضحاك . والثالث : بالكِبْر ، قاله قتادة . والرابع : أنه زاد في طول ثيابه شبراً ، قاله عطاء الخراساني ، وشهر بن حوشب . والخامس : أنه كان يخدم فرعون فتعدَّى على بني إسرائيل وظلمهم ، حكاه الماوردي .

---

(١) قال ابن كثير : قال ابن جريج : وأكثر أهل العلم على أنه كان ابن عمه ، والله أعلم .

وفي المراد بمفاتحه قولان .

أحدهما : أنها مفاتيح الخزائن التي تفتح بها الأبواب ، قاله مجاهد ، وقتادة . وروي الأعمش عن خيثمة قال : كانت مفاتيح قارون وِقْر ستين بغلاً ، وكانت من جلود ، كل مفتاح مثل الأصبع .

والثاني : أنها خزائنه ، قاله السدي ، وأبو صالح ، والضحاك . قال الزجاج : وهذا الأشبه أن تكون مفاتحه خزائن ماله ؛ وإلى نحو هذا ذهب ابن قتيبة . قال أبو صالح : كانت خزائنه تُحمل على أربعين بغلاً .

قوله تعالى : (لَتَنُوءُ بالعُصْبة) أي : تُثقلهم وتُميلهم . ومعنى الكلام : لَتُنيءُ العصبةَ ، فلمَّا دخلت الباءُ في « العُصْبة » انفتحت التاء ، كما تقول : هذا يَذْهَبُ بالأبصارِ ، وهذا يُذْهِبُ الأبصارَ ، وهذا اختيار الفراء ، وابن قتيبة ، والزجَّاج في آخرين . وقال بعضهم : هذا من المقلوب ، وتقديره : ما إن العُصْبة لَتَنُوء بمفاتحه ، كما يقال : إنها لَتَنُوء بها عجيزتُها ، أي : هي تَنُوء بعجيزتها ، وأنشدوا :

فَدَيْتُ بِنَفْسِهِ نَفْسِي وَمَالي وَمَا آلُوكَ إِلاَّ مَا أُطِيقُ (١)

أي : فديت بنفسي وبمالي نفسه ، وهذا اختيار أبي عبيدة ، والأخفش . وقد بيَّنَّا معنى العُصْبة في سورة (يوسف : ٨) ، و [في] المراد بها [هاهنا] ستة أقوال . أحدها : أربعون رجلاً ، رواه العوفي عن ابن عباس . والثاني : مابين الثلاثة إلى العشرة ، رواه الضحاك عن ابن عباس . والثالث : خمسة عشر ، قاله مجاهد . والرابع : فوق العشرة إلى الأربعين ، قاله قتادة . والخامس : سبعون رجلاً ، قاله أبو صالح . والسادس : مابين الخمسة عشر إلى الأربعين ، حكاه الزجاج .

(١) البيت في « مجاز القرآن » : ٢/٧٩ ، و « الطبري » : ٢٠/١٠٨ .

قوله تعالى : (إذ قال له قومه) في القائل له قولان . أحدهما : أنهم المؤمنون من قومه ، قاله السدي . والثاني : أنه قول موسى له ، حكاه الماوردي .

قوله تعالى : (لا تَفْرَحْ) قال ابن قتيبة : المعنى : لا تأشَرْ ، ولا تَبطَرْ ، قال الشاعر :

ولستُ بِمِفْراحٍ إذا الدَّهرُ سَرَّني ولا جازعٍ من صَرفهِ المُتَحَوِّلِ [1]

أي : لستُ بأَشِرٍ ، فأمَّا السرورُ ، فليس بمكروه . (إنَّ اللهَ لا يُحِبُّ الفَرِحِين) وقرأ أبو رجاء ، وأبو حيوة ، وعاصم الجحدري ، وابن أبي عبلة : « الفارِحِين » [بألف] .

قوله تعالى : (وابْتَغِ فيما آتاكَ اللهُ) أي : اطلب فيما أعطاكَ اللهُ من الأموال . وقرأ أبو المتوكل ، وابن السميفع : « واتَّبِعْ » بتشديد التاء وكسر الباء بعدها وعين ساكنة غير معجمة (الدارَ الآخرةَ) وهي : الجنة ؛ وذلك يكون بانفاقه في رضى الله تعالى وشُكر المُنْعِم به (ولا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِن الدُّنيا) فيه ثلاثة أقوال . أحدها : أن يعمل في الدنيا للآخرة ، قاله ابن عباس ، ومجاهد ، والجمهور . والثاني : أن يُقدِّم الفضل ويُمسك ما يُغْنيه ، قاله الحسن . والثالث : أن يستغنيَ بالحلال عن الحرام ، قاله قتادة .

وفي معنى : « وأحْسِنْ كما أحسن اللهُ إليك » ثلاثة أقوال حكاها الماوردي . أحدها : أعْطِ فضل مالك كما زادك على قدر حاجتك . والثاني : أحْسِن فيما

(١) البيت لهُدْبة بن خَشْرَم العُذْريّ ، وهو في « غريب القرآن » : ٣٣٥ ، و « البحر المحيط » : ٧/١٣٢ ، و « القرطبي » : ١٣/٣١٣ ، و « الكامل » : ٣/١٢٤٨ ، و « عيون الأخبار » : ٢/١٧٦ و ٢٨١ ، و « حماسة البحتري » : ١٢٠ ، و « حماسة ابن الشجري » : ١٣٧ .

افترض عليك كما أحسن في إنعامه إليك . والثالث : أحسن في طلب الحلال كما أحسن إليك في الإحلال [١] .

قوله تعالى : (ولا تَبْغِ الفساد في الأرض) فتعمل فيها بالمعاصي .

﴿ قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِندِي أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلَا يُسْأَلُ عَن ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ ﴾

قوله تعالى : (إنَّما أُوتيتُه) يعني المال (على عِلْمٍ عِندي) فيه خمسة أقوال .

أحدها : على عِلْم عندي بصنعة الذهب ، رواه أبو صالح عن ابن عباس ؛ قال الزجاج : وهذا لا أصل له ، لأن الكيمياء باطل لا حقيقة له . والثاني : برضى الله عني ، قاله ابن زيد [٢] . والثالث : على خيرٍ عَلِمَهُ الله عندي ، قاله مقاتل . والرابع : إنما أُعطيتُه لفضل علمي ، قاله الفراء . قال الزجاج : ادَّعى أنه أُعطيَ المال لعلمه بالتوراة . والخامس : على علم عندي بوجوه المكاسب ، حكاه الماوردي .

(١) قال ابن جرير الطبري : وأحسن في الدنيا إنفاق مالك الذي آتاكه الله في وجوهه وسُبله ، كما أحسن الله إليك فوسَّع عليك منه وبسط لك فيها . وقال ابن كثير : أي : أحسن إلى خلقه كما أحسن هو إليك .

(٢) قال ابن كثير : وقد أجاد في تفسير هذه الآية الامام عبد الرحمن بن زيد بن أسلم ، فانه قال في قوله : (قال إنما أوتيته على علم عندي) قال : لولا رضى الله عني ومعرفته بفضلي ، ما أعطاني هذا المال ، وقرأ (أوَلَمْ يعلم أن الله قد أهلك مِنْ قبله مِنَ القرون مَنْ هو أشدُّ منه قوة وأكثرُ جمعاً . . .) الآية ، قال : وهكذا يقول من قلَّ علمه إذا رأى مَنْ وسَّع الله عليه : لولا أن يستحق ذلك لما اعطي . اهـ . وقال ابن جرير الطبري : ولو كان الله يؤتي الأموال من يؤتيه لفضل فيه وخير عنده ، ولرضاه عنه ، لم يكن يهلك من أهلك من أرباب الأموال الذين كانوا أكثر منه مالاً ، لأن من كان الله عنه راضياً ، فمحال أن يهلكه الله وهو عنه راض ، وإنما يهلك من كان عليه ساخطاً . اهـ .

قوله تعالى : (أوَلَمْ يَعْلَمْ) يعني قارون (أنّ الله قد أهلك) بالعذاب (منْ قبْله منَ القُرون) في الدُّنيا حين كذّبوا رُسُلَهم (مَنْ هو أشدُّ منه قُوَّةً وأكثرُ جَمْعاً) للأموال .

وفي قوله : (ولا يُسأَلُ عن ذُنوبهم المُجْرِمون) ثلاثة أقوال . أحدها : لا يُسأَلون ليُعْلَم ذلك مِنْ قِبَلهم وإن سئلوا سؤال توبيخ ، قاله الحسن . والثاني : أن الملائكة تعرفهم بسيماهم فلا تسألهم عن ذنوبهم ، قاله مجاهد . والثالث : يدخلون النار بغير حساب ، قاله قتادة . وقال السدي : يعذّبون ولا يُسأَلون عن ذُنوبهم .

﴿ فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَوٰةَ الدُّنْيَا يَالَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ . وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ ﴾

قوله تعالى : (فخرج على قومه في زينته) قال الحسن : في ثياب حمر وصفر ؛ وقال عكرمة : في ثياب مُمَصْفَرة . وقال وهب بن منبّه : خرج على بغلة شهباء عليها سرج أحمر من أرْجُوان ، ومعه أربعة آلاف مقاتل ، وثلاثمائة وصيفة عليهن الحلي والزّينة على بغال بيض . قال الزجاج : الأُرْجُوان في اللغة : صبغ أحمر .

قوله تعالى : (لَذُو حَظّ) أي : لَذُو نصيب وافر من الدنيا .

[وقوله] : (وقال الذين أُوتوا العِلْم) قال ابن عباس : يعني الأحبار من بني إسرائيل . وقال مقاتل : الذين أوتوا العلم بما وَعَدَ اللهُ في الآخرة قالوا للذين تمنّوا ما أُوتيَ [قارون] (وَيْلكم ثوابُ الله) أي : ماعنده من الجزاء (خيرٌ لِمَنْ آمَنَ) مِمَّا أُعطيَ قارونُ [1] .

---

(١) قال ابن كثير : أي جزاء الله لعباده المؤمنين الصالحين في الدار الآخرة خير مما ترون ، —

قوله تعالى : (ولا يُلَقَّاها) قال أبو عبيدة : لا يوفَّق لها ويُرزَقُها . وقرأ أُبيُّ بن كعب ، وابن أبي عبلة : « ولا يَلْقَاها » بفتح الياء وسكون اللام وتخفيف القاف . وفي المشار إليها ثلاثة أقوال .

أحدها : أنها الأعمال الصالحة ، قاله مقاتل . والثاني : أنها الجنة ، والمعنى : لا يُعطاها في الآخرة إلاّ الصابرون على أمر الله ، قاله ابن السائب .

والثالث : أنها الكلمة التي قالوها ، وهي قولهم : « ثوابُ الله خيرٌ » ، قاله الفراء [1] .

﴿ فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنْتَصِرِينَ . وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ اللهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْلَا أَنْ مَنَّ اللهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيْكَأَنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ ﴾

قوله تعالى : (فَخَسَفْنَا به وبداره الأرض) [2] لمَّا أمر قارونُ البَغِيَّ

ـــ قال : كما جاء في الحديث الصحيح : « يقول الله تعالى : أعددت لعبادي الصالحين مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ، اقرؤوا إن شئتم : (فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين جزاءً بما كانوا يعملون) » . اهـ .

(١) قال ابن جرير الطبري : وقوله : (ولا يلقاها إلا الصابرون) يقول : ولا يلقاها ، أي : ولا يوفَّق لقيل هذه الكلمة ، وهي قوله : (خير لمن آمن وعمل صالحاً) قال : والهاء والألف كناية عن الكلمة ، وقال : (إلا الصابرون) يعني بذلك : الذين صبروا عن طلب زينة الحياة الدنيا ، وآثروا ما عند الله من جزيل ثوابه على صالحات الأعمال ، على لذات الدنيا وشهواتها ، فجدُّوا في طاعة الله ، ورفضوا الحياة الدنيا . اهـ .

(٢) وفي « صحيح البخاري » : ٦/٣٨١ عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن ـــ

بقذف موسى على ما سبق شرحه [القصص : ٧٦] غضب موسى فدعا عليه ، فأوحى الله تعالى إليه : إنِّي قد أمرت الأرض أن تُطيعكَ فمُرْها ؛ فقال موسى : يا أرض خُذيه ، فأخذتْه حتى غيَّبَتْ سريره ، فلمَّا رأى ذلك ناشده بالرَّحم ، فقال : خُذيه ، فأخذتْه حتى غيَّبتْ قدميه ؛ فما زال يقول : خُذيه ، حتى غيَّبتْه ، فأوحى الله تعالى إليه : يا موسى ما أفظَّك ، وعِزَّتي وجلالي لو استغاث بي لأغثته [١] . قال ابن عباس : فخُسفتْ به الأرضُ إلى الأرض السفلى . وقال سَمُرَة بن جُنْدَب : إنَّه يُخسف به كلَّ يوم قامة ، فتبلغ به الأرض السفلى يوم القيامة [٢] . وقال مقاتل : فلمَّا هلك قارون قال بنو إسرائيل : إنَّما أهلكه موسى ليأخذ ماله وداره ، فخَسَفَ اللهُ بداره وماله بعده بثلاثة أيام .

قوله تعالى : (يَنْصُرونه مِنْ دون الله) أي : يمنعونه من الله (وما كان من المُنْتَصِرِين) أي : من الممتنعين ممَّا نزل به . ثم أعلَمنا أن المتمنِّين مكانه ندموا على ذلك التمنِّي بالآية التي تلي هذه .

ـــ رسول الله ﷺ قال : « بينما رجل يجر إزاره من الخيلاء ، خسف به ، فهو يتجلجل في الأرض إلى يوم القيامة » وفي « صحيح مسلم » : ٣/١٦٥٤ عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « بينما رجل يتبختر ، يمشي في بُرديه قد أعجبته نفسه ، فخسف الله به الأرض ، فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة » .

(١) رواه الطبري بنحوه : ٢٠/١١٧ وفي سنده رجل مجهول ، وذكر نحوه السيوطي في « الدر » مطولاً من رواية عبد الرزاق وابن أبي حاتم عن عبد الله بن الحارث ، ومختصراً من رواية أحمد في « الزهد » ، عن عون بن عبد الله القارىء ، والله أعلم .

(٢) ذكره السيوطي في « الدر » : ٥/١٣٨ من رواية ابن أبي حاتم من طريق قتادة عن سمرة بن جندب ، قال الحافظ ابن حجر في « الفتح » : ورواه الطبري في « التاريخ » من طريق سعيد بن أبي عروبة عن قتادة قال : ذكر لنا . . . فذكره .

وقوله : (لَخُسِف بنا) الأكثرون على ضم الخاء وكسر السين . وقرأ يعقوب ، والوليد عن ابن عامر ، وحفص ، وأبان عن عاصم : بفتح الخاء والسين .

فأما قوله : « وَيْكَ » فقال ابن عباس : معناه : ألم تر ، وكذلك قال أبو عبيدة ، والكسائي . وقال الفراء : « وَيْكَ أن » في كلام العرب تقرير ، كقول الرجل : أما ترى إلى صنع الله وإحسانه ، أنشدني بعضهم :

وَيْكَ أنْ مَنْ يَكُنْ لَهُ نَشَبٌ يُحْـ
بَبْ ومَنْ يفتَقِرْ يَعِشْ عَيْشَ ضُرِّ

وقال ابن الأنباري : في قوله : « وَيْكَ أنَّه » ثلاثة أوجه .

إن شئت قلت : « وَيْكَ » حرف ، و « أنَّه » حرف ؛ والمعنى : ألم تر أنَّه ، والدليل على هذا قول الشاعر :

سَالَتَاني الطَّلاق أنْ رَأَتَاني قَلَّ مالي قَدْ جِئْتُمَاني بِنُكْرِ [1]
وَيْكَ أنْ مَنْ يَكُنْ لَهُ نَشَبٌ يُحْـ بَبْ وَمَن يفتَقِرْ يَعِشْ عَيْشَ ضُرِّ

والثاني : أن يكون « وَيْكَ » حرفاً ، و « أنَّه » حرفاً . والمعنى : ويلك اعلمْ أنَّه ، فحذفت اللام ، كما قالوا : قم لا أباك ، يريدون : لا أبالك ، وأنشدوا :

أبِالْمَوْتِ الذي لا بُدَّ أنِّي مُلاقٍ لا أبَاكِ تُخَوِّفِيني [2]

أراد : لا أبَالَكِ ، فحذف اللام .

---

(١) البيتان لزيد بن عمرو بن نفيل القرشي ، وهما في « مجاز القرآن » : ١١٢/٢ ، و « الطبري » : ١٢٠/٢٠ ، و « القرطبي » : ٣١٨/١٣ ، و « سيبويه » : ٢٩٠/١ ، والبيت الثاني في « مشكل القرآن » : ٤٠١ ، وفي « الصحاح » و « اللسان » و « التاج » : ويا ، ونسبته فيها لزيد بن عمرو ، أو لنبيه بن الحجاج .

(٢) البيت لأبي حيَّة النُّميري ، وهو في « الصحاح » و « اللسان » و « التاج » : أبى .

والثالث : أن يكون « وَيْ » حرفاً ، و « كأنَّه » حرفاً ، فيكون معنى « وَيْ » التعجُّب ، كما تقول : وَيْ لِمَ فعلت كذا وكذا ، ويكون معنى « كأنَّه » : أظُنُّه وأعلمُه ، كما تقول في الكلام : كأنَّك بالفرَج قد أقبَل ؛ فمعناه : أظُنُّ الفرَج مُقبِلاً . وإنما وصلوا الياء بالكاف في قوله : « وَيكأنَّه » لأنَّ الكلام بهما كَثُر ، كما جعلوا « يا ابْنَ أُمَّ » في المصحف حرفاً واحداً ، وهما حرفان [طه : ٩٤] . وكان جماعة منهم يعقوب ، يقفون على « وَيْكَ » في الحرفين ، ويبتدؤون « أنّ » و « أنَّه » في الموضعين . وذكر الزجَّاج عن الخليل أنه قال : « وَيْ » مفصولة من « كأنَّ » ، وذلك أنَّ القوم تندَّموا فقالوا : « وَيْ » متندِّمين على ما سلف منهم ، وكلُّ مَنْ نَدِم فأظهر ندامته قال : وَيْ . وحكى ابن قتيبة عن بعض العلماء أنَّه قال : معنى « ويكأنَّ » : رحمةً لك ، بلغة حِمْيَر [1] .

قوله تعالى : (لولا أنْ مَنَّ اللهُ علينا) أي : بالرحمة والمعافاة والإيمان (لَخَسَفَ بِنَا) .

---

(١) قال ابن جرير الطبري : وأولى الأقوال في ذلك بالصحة ، أن معناه : ألم تر ، ألم تعلم ، ثم قال : وإذْ كان ذلك هو الصواب ، فتأويل الكلام : وأصبح الذين تمنَّوا مكان قارون وموضعه من الدنيا بالأمس ، يقولون لمَّا عاينوا ما أحل الله به من نقمته : ألم تر ياهذا أن الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده فيوسِّع عليه لا لفضل منزلته عنده ولا لكرامته عليه ، كما كان بسط من ذلك لقارون ، لا لفضله ولا لكرامته عليه (ويقدر) يقول : ويضيِّق على من يشاء من خلقه ذلك ويقتّر عليه لالهوانه ولا لسخْطِهِ عملَه . اهـ . وقد ضعف ابن جرير قول من قال : معناه : « ويلك اعلم أن » ، وقال ابن كثير : والظاهر أنه قوي ، ولا يشكل على ذلك إلا كتابتها في المصاحف متصلة « ويكأن » ، وقال : والكتابة أمر وضعي اصطلاحي ، والمرجع إلى اللفظ العربي ، والله أعلم . اهـ .

﴿ تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لاَيُرِيدُونَ عُلُوّاً فِي الأَرْضِ وَلا فَسَاداً وَالعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا وَمَن جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلاَ يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّآتِ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾

قوله تعالى : (تِلْكَ الدَّارُ الآخرةُ) يعني الجنة (نجعلُها للذين لا يُريدون عُلُوّاً في الأرض) وفيه خمسة أقوال . أحدها : أنَّه البَغْي ، قاله سعيد بن جبير . والثاني : الشَّرَفُ والعِزّ ، قاله الحسن . والثالث : الظُّلْم ، قاله الضحاك . والرابع : الشِّرك ، قاله يحيى بن سلام . والخامس : الاستكبار عن الإيمان ، قاله مقاتل .

قوله تعالى: (ولا فساداً) فيه قولان . أحدهما : العمل بالمعاصي ، قاله عكرمة . والثاني : الدُّعاء إلى غير عبادة الله ، قاله ابن السائب [١] .

قوله تعالى : (والعاقبةُ للمتَّقِين) أي : العاقبة المحمودة لهم .

قوله تعالى : (مَنْ جاء بالحسنة) قد فسرناه في سورة (النمل : ٨٩) .

---

(١) قال ابن كثير : يخبر تعالى أن الدار الآخرة ونعيمها المقيم الذي لايحول ولا يزول ، جعلها لعباده المؤمنين المتواضعين الذين لايريدون علواً في الأرض ، أي : ترفُّعاً على خلق الله وتعاظماً عليهم وتجبُّراً بهم ، ولا فساداً فيهم . اهـ . وروى ابن جرير الطبري عن علي رضي الله عنه قال : إن الرجل ليعجبه من شراك نعله أن يكون أجود من شراك صاحبه ، فيدخل في قوله : (تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لايريدون علواً في الأرض ولا فساداً والعاقبة للمتقين) . اهـ . قال ابن كثير : وهذا محمول على ما إذا أراد بذلك الفخر والتطاول على غيره ، فان ذلك مذموم ، كما ثبت في « الصحيح » عن النبي ﷺ أنه قال : « إنه أوحي إليّ أن تواضعوا حتى لا يفخر أحد على أحد ولا يبغي أحد على أحد » وأما إذا أحب ذلك لمجرد التجمُّل ، فهذا لابأس به ، فقد ثبت أن رجلاً قال : يارسول الله إني أحب أن يكون ردائي حسناً ، ونعلي حسنة ، أفمن الكِبْر ذلك ؟ فقال : « لا ، إن الله جميل يحب الجمال » .

قوله تعالى : (فلا يُجزى الذين عَمِلوا السَّيِّئات) يريد الذين أشركوا (إلاَّ ما كانوا يَعْمَلون) أي : إلاَّ جزاء عملهم من الشِّرك ، وجزاؤه النَّار .

﴿ إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَى مَعَادٍ قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ مَنْ جَاءَ بِالْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ . وَمَا كُنْتَ تَرْجُوا أَنْ يُلْقَىٰ إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيراً لِلْكَافِرِينَ . وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ آيَاتِ اللهِ بَعْدَ إِذْ أُنْزِلَتْ إِلَيْكَ وَادْعُ إِلَى رَبِّكَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ . وَلَا تَدْعُ مَعَ اللهِ إِلَٰهاً آخَرَ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾

قوله تعالى : (إنَّ الذي فَرَضَ عليكَ القرآنَ) قال مقاتل : خرج رسول الله ﷺ من الغار ليلاً ، فمضى من وجهه إلى المدينة فسار في غير الطريق مخافة الطَّلَب ؛ فلمَّا أَمِن رجع إلى الطريق فنزل الجُحْفَةَ بين مكّة والمدينة ، فعرف الطريق إلى مكة ، فاشتاق إليها ، وذكر مولده ، فأتاه جبريل فقال : أتشتاق إلى بلدك ومولدك ؟ قال : نعم ؛ قال : فان الله تعالى يقول : (إنَّ الذي فَرَضَ عليك القرآن لرادُّك إلى مَعَادٍ) ، فنزلت هذه الآية بالجُحْفة [1] .

وفي معنى « فَرَضَ عليكَ » ثلاثة أقوال . أحدها : فرض عليك العمل

(١) ذكر ذلك القرطبي في « تفسيره » عن مقاتل أيضاً ، وخرجه السيوطي في « الدر » : ٥/١٣٩ من رواية ابن أبي حاتم عن الضحاك بنحوه . وقال ابن كثير بعد أن أورد رواية ابن أبي حاتم عن الضحاك : وهذا من كلام الضحاك يقتضي أن هذه الآية مدنية وإن كان مجموع السورة مكياً ، والله أعلم . اهـ .

بالقرآن ، قاله عطاء بن أبي رباح ، وابن قتيبة . والثاني : أعطاك القرآن ، قاله مجاهد والثالث : أنزل عليك القرآن ، قاله مقاتل ، والفراء ، وأبو عبيدة .

وفي قوله : (لرادُّكَ إلى مَعادٍ) أربعة أقوال .

أحدها : إلى مكة ، رواه العوفي عن ابن عباس ، وبه قال مجاهد في رواية ، والضحاك . قال ابن قتيبة : مَعَادُ الرَّجُل : بلدُه ، لأنه يتصرَّف [في البلاد ويَضْرِب في الأرض] [1] ثم يعود إلى بلده .

والثاني : إلى معادك من الجنة ، رواه عكرمة عن ابن عباس [2] ، وبه قال الحسن ، والزهري . فإن اعتُرض على هذا فقيل : الرَّدُّ يقتضي أنه قد كان فيما رُدَّ إليه ؛ فعنه ثلاثة أجوبة . أحدها : أنَّه لمَّا كان أبوه آدم في الجنة ثم أخرج ، كان كأنَّ ولده أُخرج منها ، فاذا دخلها فكأنه أُعيد . والثاني : أنَّه دخلها ليلة المعراج ، فاذا دخلها يوم القيامة كان ردّاً إليها ، ذكرهما ابن جرير . والثالث : أن العرب تقول : رجع الأمر إلى كذا ، وإن لم يكن له كَوْن فيه قطّ ، وأنشدوا :

[وما المَرْءُ إلّا كالشِّهَابِ وضَوْئِهِ]
يَحُورُ رَمَاداً بَعْدَ إذ هُوَ سَاطِعُ [3]

وقد شرحنا هذا في قوله : (وإلى الله تُرْجَعُ الأمور) [البقرة : ٢١٠] .

---

(١) زيادة من « مشكل القرآن » .

(٢) رواه الطبري : ٢٠/١٢٤ وفي سنده ضعف .

(٣) البيت للبيد بن ربيعة العامري ، وهو في ديوانه : ١٦٩ ، و « البحر » : ٨/٤٤٤ ، و « اللسان » و « التاج » : حور .

والثالث: لَرَادُّكَ إلى الموت، رواه سعيد بن جبير عن ابن عباس، وبه قال أبو سعيد الخدري [١].

والرابع: لَرَادُّكَ إلى القيامة بالبعث، قاله الحسن، والزهري، ومجاهد في رواية، والزجاج [٢].

ثم ابتدأ كلاماً يَرُدُّ به على الكفار حين نسبوا النبي ﷺ إلى الضَّلال، فقال: (قُلْ رَبِّي أعلمُ مَنْ جاء بالهُدى)؛ والمعنى: قد علم أنِّي جئت بالهُدى، وأنَّكم في ضلال مبين. ثم ذَكَّرَهُ نِعَمَه، فقال: (وما كُنْتَ ترجو أن يُلْقَى إليكَ الكتابُ) أي: أن تكون نبيّاً وأن يوحى إليكَ القرآنُ (إلّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ) قال الفراء: هذا استثناء منقطع، والمعنى: إلّا أنَّ ربَّكَ رَحِمَكَ فأنزله عليك (فلا تَكُونَنَّ ظَهِيراً للكافرين) أي: عَوْناً لهم على دينهم، وذلك أنَّهم دَعَوه إلى دين آبائه فأُمر بالاحتراز منهم؛ والخطاب بهذا وأمثاله له، والمراد أهل دينه لئلاَّ يُظاهِروا الكفَّار ولا يوافقوهم.

قوله تعالى: (كُلُّ شيءٍ هالكٌ إلّا وَجْهَهُ) فيه قولان.

---

(١) قال ابن جرير الطبري: والصواب من القول في ذلك عندي قول من قال: لرادك إلى عادتك من الموت، أو إلى عادتك حيث وُلدتَ. اهـ.

(٢) قال ابن كثير: وجه الجمع بين هذه الأقوال، أن ابن عباس فسر ذلك تارة برجوعه إلى مكة، وهو الفتح الذي هو عند ابن عباس أمارة على اقتراب أجل النبي ﷺ، كما فسر ابن عباس سورة (إذا جاء نصرُ الله والفتح) إلى آخر السورة: أنه أجل رسول الله ﷺ نعي إليه، وكان ذلك بحضرة عمر بن الخطاب رضي الله عنه، ووافقه عمر على ذلك وقال: لا أعلم منها غير الذي تعلم، ولهذا فسر ابن عباس تارة أخرى قوله: (لرادك إلى معاد) بالموت، وتارة بيوم القيامة الذي هو بعد الموت، وتارة بالجنة التي هي جزاؤه ومصيره على أداء رسالة الله وإبلاغها إلى الثقلين: الانس والجن، ولأنه أكمل خلق الله، وأفصح خلق الله، وأشرف خلق الله على الاطلاق. اهـ.

أحدهما : إلا ما أُرِيدَ به وجهُه ، رواه عطاء عن ابن عباس ، وبه قال الثوري .
والثاني : إلّا هو ، قاله الضحاك ، وأبو عبيدة .

قوله تعالى : (لَهُ الحُكْمُ) أي : الفصل بين الخلائق في الآخرة دون غيره (وإليه تُرْجَعُونَ) في الآخرة [1] .

★ ★ ★

(١) قال ابن جرير الطبري : وإليه تردّون من بعد مماتكم فيقضي بينكم بالعدل فيجازي مؤمنيكم جزاءهم ، وكفاركم ماوعدهم . اهـ .

سورة العنكبوت

فصل في نزولها

روى العوفي عن ابن عباس أنَّها مكية، وبه قال الحسن، وقتادة، وعطاء، وجابر بن زيد، ومقاتل. وفي رواية عن ابن عباس أنها مدنية. وقال هبة الله [ابن سلامة] المفسّر: نزل من أولها إلى رأس العشر بمكة، وباقيها بالمدينة. وقال غيره عكس هذا: نزل العشر بالمدينة، وباقيها بمكة.

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ الٓمٓ . أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ . وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ . أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَنْ يَسْبِقُونَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾

قوله تعالى: (الٓمٓ . أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا) في سبب نزولها ثلاثة أقوال.

أحدها : أنَّه لمَّا أُمر بالهجرة ، كتب المسلمون إلى إخوانهم بمكة أنَّه لايُقْبَل منكم إسلامكم حتى تُهاجِروا ، فخرجوا نحو المدينة فأدركهم المشركون فردُّوهم ، فأنزل الله عز وجل من أول هذه السورة عشر آيات ، فكتبوا إليهم يخبرونهم بما نزل فيهم ، فقالوا : نَخْرُج ، فان اتَّبعَنَا أحدٌ قاتلناه ، فخرجوا فاتَّبعهم المشركون فقاتلوهم ، فمنهم مَنْ قُتل ، ومنهم مَنْ نجا ، فأنزل الله عز وجل فيهم : « ثُمَّ إنَّ ربَّكَ الذين هاجروا مِنْ بَعْد مافُتِنوا » [النحل : ١١٠] ، هذا قول الحسن ، والشعبي (١) .

والثاني : أنَّها نزلت في عمَّار بن ياسر إذ كان يعذَّب في الله عز وجل ، قاله عبد الله بن عُبيد بن عُمير (٢) .

والثالث : أنَّها نزلت في مِهْجَع مولى عمر بن الخطاب حين قُتل ببدر ، فجزع عليه أبواه وامرأته ، فأنزل الله تعالى في أبويه وامرأته هذه الآية (٣) .

قوله تعالى : (أحَسِبَ النَّاسُ) قال ابن عباس : يريد بالناس : الذين آمنوا بمكة ، كعيَّاش بن أبي ربيعة ، وعمَّار بن ياسر ، وسَلَمة بن هشام ، وغيرهم .

قال الزجاج : لفظ الآية استخبار ، ومعناه معنى التقرير والتوبيخ ؛ والمعنى : أحَسِب النَّاس أن يُترَكوا بأن يقولوا : آمَنَّا ، ولأَن يقولوا : آمَنَّا ، أي : أحَسِبوا أن يُقْنَع منهم بأن يقولوا : إنَّا مؤمنون ، فقط ، ولا يُمتَحنون بما يبيِّن

(١) رواه ابن جرير الطبري : ٢٠/١٢٩ عن الشعبي ، وذكره السيوطي في « الدر » : ٥/١٤١ ، وزاد نسبته لعبد بن حميد ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم عن الشعبي .

(٢) « الطبري » ٢٠/١٢٩ ، وأورده السيوطي في « الدر » ٥/١٤١ ، وزاد نسبته لابن سعد ، وابن أبي حاتم ، وابن عساكر .

(٣) ذكره الواحدي في « أسباب النزول » ١٩٥ عن مقاتل ، بدون سند . وقال الحافظ ابن حجر في « تخريج الكشاف » ١٢٧ : ذكره الثعلبي عن مقاتل ، قال : وسنده إلى مقاتل في أول كتابه .

حقيقة إيمانهم ، (وهم لا يُفتَنون) أي : لا يُختَبرون بما يُعلَم به صِدق إيمانهم من كذبه .

والمفسرين فيه قولان . أحدهما : لا يُفتَنون في أنفسهم بالقتل والتعذيب ، قاله مجاهد . والثاني : لا يُبتَلَوْن بالأوامر والنواهي .

قوله تعالى : (ولقد فتَنَّا الذين مِن قَبْلِهم) أي : ابتليناهم واختبرناهم ، (فَلَيَعْلَمَنَّ اللهُ) فيه ثلاثة أقوال .

أحدها : فلَيُرِيَنَّ اللهُ الذين صَدَقوا في إيمانهم عند البلاء إذا صبروا لقضائه ، ولَيُرِيَنَّ الكاذبين في إيمانهم إذا شكُّوا عند البلاء ، قاله مقاتل .

والثاني : فلَيُمَيِّزَنَّ ، لأنَّه [قد] عَلِم ذلك مِنْ قَبْل ، قاله أبو عبيدة .

والثالث : فلَيُظْهِرَنَّ ذلك حتى يوجد معلوماً ، حكاه الثعلبي [1] .

وقرأ عليّ بن أبي طالب ، وجعفر بن محمد : « فلَيُعْلِمَنَّ اللهُ » « ولَيُعْلِمَنَّ الكاذبين » « ولَيُعْلِمَنَّ اللهُ الذين آمنوا ولَيُعْلِمَنَّ المنافقين » [العنكبوت : ١١] بضم الياء وكسر اللام .

قوله تعالى : (أمْ حَسِبَ) أي : أيَحْسَب (الذين يَعْمَلون السَّيِّئات)

---

(١) قال ابن كثير : ومعناه : أن الله سبحانه وتعالى لابد أن يبتلي عباده المؤمنين بحسب ماعندهم من الايمان ، كما جاء في الحديث الصحيح : « أشد الناس بلاءً الأنبياء ، ثم الصالحون ، ثم الأمثل فالأمثل ، يُبتلى الرجل على حسب دينه ، فان كان في دينه صلابة زيد له في البلاء » قال : وهذه الآية كقوله تعالى : (أم حسبتم أن تتركوا ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين) قال : ومثلها في سورة (براءة) وقال في سورة (البقرة) : (أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مَثَلُ الذين خلَوا من قبلكم مستهم البأساء والضراء وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله ألا إن نصر الله قريب) قال : ولهذا قال هاهنا : (ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين) أي : الذين صدقوا في دعوى الايمان ممن هو كاذب في قوله ودعواه . والله سبحانه وتعالى يعلم ما كان ، وما يكون ، وما لم يكن لو كان كيف يكون ، وهذا مجمع عليه عند أئمة السنة والجماعة . اهـ .

يعني الشِّرك (أن يَسْبِقونا) أي : يفُوتونا ويُعجزونا (ساء مايحكُمون) أي : بئس ماحكموا لأنفسهم حين ظنُّوا ذلك . قال ابن عباس : عنى بهم الوليد ابن المغيرة ، وأبا جهل ، والعاص بن هشام ، وغيرهم .

﴿ مَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ اللهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللهِ لَآتٍ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ . وَمَنْ جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ . وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّآتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾

قوله تعالى : (من كان يرجو لقاء الله) قد شرحناه في آخر (الكهف) (فإنَّ أجَل الله لَآتٍ) يعني الأجل المضروب للبعث ؛ والمعنى : فليعمل لذلك اليوم (وهو السميع) لما يقول (العليم) بما يعمل . (ومَنْ جاهد فإنَّما يُجاهِد لنفسه) أي : إن ثوابه إليه يرجع .

قوله تعالى : (لَنُكَفِّرَنَّ عنهم سيِّآتهم) أي : لَنُبْطِلَنَّها حتى تصير بمنزلة مالم يُعمل (ولَنَجْزِيَنَّهم أحسنَ الذي كانوا يَعْمَلون) أي : بأحسن أعمالهم ، وهو الطاعة ، ولا نجزيهم بمساوىء أعمالهم .

﴿ وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا وَإِنْ جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَالَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ . وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ ﴾

قوله تعالى : (ووصَّينا الإنسان بوالديه حُسْنًا) وقرأ أُبيّ بن كعب ، وأبو مجلز : وعاصم الجحدري : « إحساناً » بألف . وقرأ ابن مسعود، وأبو رجاء : « حَسَناً » بفتح الحاء والسين .

روى أبو عثمان النَّهْدي عن سعد ابن أبي وقّاص ، قال : فيَّ أُنزلت هذه الآية ، كنت رجلاً بَرّاً بأُمّي ، فلمّا أسلمتُ قالت : يا سعد ! ما هذا الدِّين الذي قد أحدثتَ ، لتَدَعَنَّ دِينك هذا أو لا آكل ولا أشرب حتى أموتَ فتُعيَّر بي فيقال : يا قاتلَ أُمّه ، قلت : لا تفعلي يا أُمّاه ، إنّي لا أدَعُ ديني هذا لشيء ، قال : فمكثتْ يوماً وليلة لا تأكل ، فأصبحتْ قد جُهِدَتْ ، ثم مكثتْ يوماً آخر وليلة لا تأكل ، فلمّا رأيتُ ذلك قلتُ : تعلمين والله يا أُمّاه لو كانت لكِ مائة نَفْس فخرجتْ نَفْساً نَفْساً ما تركتُ ديني هذا لشيء ، فكُلي ، وإن شئتِ لا تأكلي ، فلمّا رأت ذلك أكلتْ ، فأُنزلت هذه الآية [1] . وقيل : إنّها نزلت في عيّاش بن أبي ربيعة ، وقد جرى له مع أُمّه نحو هذا [2] . وذكر بعض المفسرين أنَّ هذه الآية ، والتي في (لقمان : ١٥) وفي (الأحقاف : ١٥) نزلن في قصة سعد [3] .

---

(١) رواه بهذا السياق الواحدي في « أسباب النزول » : ١٩٥ من رواية أبي عثمان النَّهدي عن سعد بن أبي وقاص ، وفي سنده ضعف ، وذكره ابن كثير في سورة (لقمان) من رواية أبي القاسم الطبراني ، وفي سنده ضعف وانقطاع ، وأورده السيوطي في « الدر » : ٥/١٦٥ في سورة (لقمان) وزاد نسبته لأبي يعلى ، وابن مردويه ، وابن عساكر . وقال الترمذي عند تفسير هذه الآية في سورة (العنكبوت) : ٢/١٥٠ عن سعد بن أبي وقاص قال : أنزلت فيَّ أربع آيات ، فذكر قصته ، وقالت أم سعد : أليس قد أمر الله بالبرّ ، والله لا أطعم طعاماً ، ولا أشرب شراباً حتى أموت أو تكفر ، قال : فكانوا إذا أرادوا أن يطعموها شجروا فاها ، فنزلت هذه الآية : (ووصينا الانسان بوالديه حسناً ، وإن جاهداك لتشرك بي ...) الآية . ومعنى : شجروا فاها : فتحوه ، وهذا الحديث قال عنه الترمذي : حديث حسن صحيح ، ورواه بنحوه أحمد ، ومسلم ، وأبو داود ، والنسائي .

(٢) قال الحافظ ابن حجر في « تخريج الكشاف » ٤٧ : ذكر القصة بطولها الثعلبي بدون سند ، والواحدي عن ابن الكلبي ، والطبري عن السدي .

(٣) قال الحافظ ابن حجر في « تخريج الكشاف » ١٢٧ : ذكره الواحدي ، والثعلبي ، —

قال الزجاج : مَنْ قرأ : « حُسْناً » فمعناه : ووصَّينا الإنسان أن يفعل بوالديه ما يَحْسُن ، ومن قرأ : « إحساناً » فمعناه : ووصينا الإنسان أن يُحْسِن إلى والديه ، وكان « حُسْناً » أعمَّ في البِرّ .

(وإن جاهداك) قال أبو عبيدة : مجاز هذا الكلام مجاز المختصر الذي فيه ضمير ، والمعنى : وقلنا له : وإن جاهداك .

قوله تعالى : (لِتُشْرِكَ بي) معناه : لتشرك بي شريكاً لا تَعْلَمه لي وليس لأحد بذلك عِلْم ، (فلا تُطِعْهما) .

قوله تعالى : (لَنُدْخِلَنَّهم في الصالحين) أي : في زُمرة الصَّالحين في الجنة . وقال مقاتل : « في » بمعنى « مع » .

﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللهِ وَلَئِنْ جَاءَ نَصْرٌ مِنْ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوَلَيْسَ اللهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ . وَلَيَعْلَمَنَّ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ ﴾

قوله تعالى : (ومِنَ النَّاس مَنْ يقولُ آمَنَّا بالله) اختلفوا فيمن نزلت على أربعة أقوال .

أحدها : أنَّها نزلت في المؤمنين الذين أخرجهم المشركون إلى بدر فارتدّوا ، رواه عكرمة عن ابن عباس [1] .

والواقدي هكذا بغير سند ، والقصة في « صحيح مسلم » من حديث سعد بن أبي وقاص بغير هذا السياق . اهـ . يعني به الحديث الذي تقدَّم : أنزلت فيَّ أربع آيات . . .

(١) ذكره الواحدي بدون سند : ١٩٦ وهو في « الطبري » بأطول منه : ٢٠/١٣٣ عن عكرمة عن ابن عباس مسنداً ، وذكره السيوطي في « أسباب النزول » بنحو رواية الطبري : ٢/٢٠٥ ، وزاد نسبته لابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وابن مردويه ، والبيهقي في « سننه » عن ابن عباس .

والثاني : نزلت في قوم كانوا يؤمنون بألسنتهم ، فاذا أصابهم بلاء من الله أو مصيبة في أنفسهم وأموالهم افتتنوا ، قاله مجاهد (١) .

والثالث : نزلت في ناس من المنافقين بمكة ، كانوا يؤمنون ، فاذا أوذوا وأصابهم بلاء من المشركين رجعوا إلى الشرك ، قاله الضحاك (٢) .

والرابع : أنها نزلت في عيَّاش بن أبي ربيعة ، كان أسلم ، فخاف على نفسه من أهله وقومه ، فخرج من مكة هارباً إلى المدينة ، وذلك قبل قدوم رسول الله ﷺ إلى المدينة ، فجزعت أمُّه فقالت لأخويه أبي جهل والحارث ابني هشام ـ وهما أخواه لأمِّه ـ : والله لا آوي بيتاً ولا آكل طعاماً ولا أشرب شراباً حتى تأتياني به ، فخرجا في طلبه فظفرا به ، فلم يزالا به حتى تابعهما وجاءا به إليها ، فقيَّدته ، وقالت : والله لا أحُلُّك من وَثاقك حتى تكفُر بمحمد ، ثم أقبلت تَجْلِده بالسِّياط وتعذِّبه حتى كفر بمحمد عليه السلام جَزَعاً من الضَّرْب ، فنزلت [فيه]هذه الآية ، ثم هاجر بَعْدُ وحَسُنَ إسلامه ، هذا قول ابن السائب ، ومقاتل . وفي رواية عن مقاتل أنَّهما جلَدَاه في الطريق مائتي جلدة ، فتبرَّأ من دين محمد ، فنزلت هذه الآية (٣) .

قوله تعالى : (فاذا أُوذِيَ في الله) أي : ناله أذى أو عذاب بسبب إيمانه (جَعَل فِتْنَةَ الناس) أي : ما يصيبه من عذابهم في الدنيا (كعذاب الله) في

(١) « الطبري » : ٢٠/١٣٢ ، وذكره السيوطي في « الدر » : ٥/١٤٢ ، وزاد نسبته للفريابي ، وابن أبي شيبة ، وعبد بن حميد ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم .

(٢) « الطبري » : ٢٠/١٣٢ .

(٣) قال الحافظ ابن حجر في « تخريج الكشاف » ٤٧ : ذكر القصة بطولها الثعلبي بدون سند ، والواحدي عن ابن الكلبي ، ورواها الطبري من طريق أسباط عن السدي بتغيير يسير ولم يسم الحارث ، فقال : ومعه رجل من بني عامر .

الآخرة ؛ وإنما ينبغي للمؤمن أن يصبر على الأذى في الله تعالى لِمَا يرجو من ثوابه[1] (ولئن جاء نصرٌ من ربِّك) يعني دولة للمؤمنين (لَيَقُولُنَّ) يعني المنافقين للمؤمنين (إنَّا كنَّا معكم) على دينكم ، فكذَّبهم الله عز وجل وقال : (أوَليس اللهُ بأعلمَ بما في صدور العالَمِين) من الإيمان والنفاق . وقد فسرنا الآية التي تلي هذه في أول السورة .

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ وَمَا هُمْ بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَاهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ . وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالاً مَعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيُسْأَلُنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴾

قوله تعالى : (اتَّبِعوا سبيلنا) يعنون : ديننا . قال مجاهد : هذا قول كفار قريش لمن آمن من أهل مكة ، قالوا لهم : لا نُبعَث نحن ولا أنتم فاتَّبِعونا ، فان كان عليكم شيء فهو علينا .

قوله تعالى : (ولْنَحملْ خطاياكم) قال الزجاج : هو أمر في تأويل الشرط والجزاء ، يعني : إن اتَّبعتم سبيلنا حملنا خطاياكم . وقال الأخفش : كأنَّهم أمروا أنفسهم بذلك . وقرأ الحسن : « ولِنَحمل » بكسر اللام . قال ابن قتيبة : الواو زائدة ، والمعنى : لنحمل خطاياكم .

قوله تعالى : (إنَّهم لكاذبون) أي : فيما ضمنوا من حمل خطاياهم .

(١) قال ابن كثير : يقول تعالى مخبراً عن صفات قوم من المكذبين الذين يدَّعون الايمان بألسنتهم ولم يثبت في قلوبهم ، بأنهم إذا جاءتهم محنة وفتنة في الدنيا ، اعتقدوا أن هذا من نقمة الله تعالى بهم ، فارتدوا عن الاسلام ، ولهذا قال تعالى : (ومن الناس من يقول آمنا فاذا أوذي في الله جعل فتنة الناس كعذاب الله) ثم قال : قال ابن عباس : يعني فتنته أن يرتدَّ عن دينه إذا أوذي في الله ، وكذا قال غيره من علماء السلف . اهـ .

قوله تعالى : (وليَحْمِلُنَّ أثقالهم) أي : أوزار أنفسهم (وأثقالاً مع أثقالهم) أي : أوزاراً مع أوزارهم ، وهي أوزار الذين أضلّوهم ، وهذا كقوله : (لِيَحْمِلوا أوزارهم كاملة يوم القيامة ومن أوزار الذين يُضِلّونهم بغير عِلْم) [النحل : ٢٥] (ولَيُسْأَلُنَّ يوم القيامة) سؤال توبيخ وتقريع (عمَّا كانوا يَفْتَرون) من الكذب على الله عز وجل ؛ وقال مقاتل : عن قولهم : نحن الكفلاء بكل تَبِعة تصيبكم من الله عز وجل .

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَى قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَاماً فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ . فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ ﴾

قوله تعالى : (ولقد أرسلنا نوحاً إلى قومه) في هذه القصة تسلية للنبي ﷺ حيث أُعلِم أن الأنبياء قد ابتُلوا قبلَه ، وفيها وعيد شديد لمن أقام على الشِّرك ، فانهم وإن أُمهلوا ، فقد أُمهل قوم نوح أكثر ثم أُخذوا .

قوله تعالى : (فلَبِثَ فيهم ألفَ سنةٍ إلَّا خمسينَ عاماً) اختلفوا في عُمُر نوح على خمسة أقوال .

أحدها : بُعث بعد أربعين سنة ، وعاش في قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً يدعوهم ، وعاش بعد الطوفان ستين سنة ، رواه يوسف بن مهران عن ابن عباس (١) .

والثاني : أنَّه لبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاماً ، وعاش بعد ذلك سبعين عاماً ، فكان مبلغ عُمُره ألف سنة وعشرين سنة ، قاله كعب الأحبار .

---

(١) قال السيوطي في « الدر » ١٤٣/٥ : أخرج ابن أبي شيبة ، وعبد بن حميد ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : بعث الله نوحاً وهو ابن أربعين سنة ، ولبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاماً يدعوهم إلى الله ، وعاش بعد الطوفان ستين سنة حتى كثر الناس وفشَوا .

والثالث : أنه بُعث وهو ابن خمسين وثلاثمائة ، فلبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاماً ، ثم عاش بعد ذلك خمسين وثلاثمائة ، قاله عون بن أبي شداد [١] .

والرابع : أنّه لبث فيهم قبل أن يدعوهم ثلاثمائة سنة ، [ودعاهم ثلاثمائة سنة] [٢] ولبث بعد الطوفان ثلاثمائة وخمسين سنة ، قاله قتادة [٣] . وقال وهب ابن منبّه : بُعث لخمسين سنة .

والخامس : أنّ هذه الآية بيّنت مقدار عُمُره كلّه ، حكاه الماوردي [٤] .

فان قيل : مافائدة قوله : « إلّا خمسينَ عاماً » ، فهلاّ قال : تسعمائة وخمسين ؟

فالجواب : أنّ المراد به تكثير العدد ، وذِكْر الألف أفخم في اللفظ ، وأعظم للعدد .

قال الزجاج : تأويل الاستثناء في كلام العرب : التوكيد ، تقول : جاءني إخوتك إلا زيداً ، فتؤكّد أنّ الجماعة جاؤوا ، وتنقص زيداً . واستثناء نصف الشيء قبيح جداً لاتتكلّم به العرب ، وإنما تتكلّم بالاستثناء كما تتكلم بالنقصان ، تقول : عندي درهم ينقُص قيراطاً ، فلو قلت : ينقُص نصفه ، كان الأَولى أن تقول : عندي نصف درهم ، ولم يأت الاستثناء في كلام العرب إلّا قليل من كثير .

قوله تعالى : (فأخذَهم الطّوفان) فيه ثلاثة أقوال .

أحدها : الموت ، روت عائشة عن رسول الله ﷺ في قوله : « فأخذَهم الطّوفان » قال : « الموت » [٥] .

---

(١) قال ابن كثير عن هذا القول : غريب رواه ابن أبي حاتم ، وابن جرير .

(٢) زيادة من تفسير ابن كثير .

(٣) قال ابن كثير : وهذا قول غريب ، وظاهر السياق من الآية أنه مكث في قومه يدعوهم إلى الله ألف سنة إلا خمسين عاماً .

(٤) قال ابن كثير : وقول ابن عباس أقرب ، والله أعلم اهـ ، يريد به القول الأول هنا .

(٥) رواه الطبري : ٥١/١٣ ، وفي سنده المنهال بن خليفة العجلي ، وهو ضعيف ، وفيه ـــ

والثاني : المطر ، قاله ابن عباس ، وسعيد بن جبير ، وقتادة . قال ابن قتيبة : هو المطر الشديد .

والثالث : الغرق ، قاله الضحاك .

قال الزجاج : الطُّوفان من كل شيء : ما كان كثيراً مطيفاً بالجماعة كلّها ، فالغرق الذي يشتمل على المدن الكثيرة : طوفان ، وكذلك القتل الذريع ، والموت الجارف : طوفان .

قوله تعالى : (وهم ظالمون) قال ابن عباس : كافرون .

قوله تعالى : (وجعلناها) يعني السفينة ، قال قتادة : أبقاها الله آية للناس بأعلى الجُودِيّ . قال أبو سليمان الدمشقي : وجائز أن يكون أراد : الفعلة التي فعلها بهم من الغرق (آية) ، أي عبرة (للعالَمين) [بعدهم] .

﴿ وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللهَ واتَّقُوهُ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ . إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ أَوْثَاناً وَتَخْلُقُونَ إِفْكاً إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ لاَيَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقاً فَابْتَغُوا عِنْدَ اللهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ . وَإِنْ تُكَذِّبُوا فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلاَغُ الْمُبِينُ ﴾

قوله تعالى : (وإبراهيمَ) قال الزجّاج : هو معطوف على نوح ، والمعنى : أرسلنا إبراهيم .

قوله تعالى : (ذلكم) يعني عبادة الله (خير لكم) من عبادة الأوثان ،

الحجاج بن أرطاة ، وهو صدوق كثير الخطأ والتدليس ، والحديث ذكره ابن كثير : ٢/٢٤٠ من رواية ابن مردويه بنحوه ، وقال عنه : حديث غريب . اهـ .

(إن كنتم تَعْلَمون) ماهو خير لكم مما هو شر لكم ؛ والمعنى : ولكنكم لاتعلمون . (إنَّما تعبُدون مِنْ دون الله أوثاناً) قال الفراء : « إنَّما » في هذا الموضع حرف واحد ، وليست على معنى « الذي » ، وقوله : (وتخلُقون إفكاً) مردود على « إنما » ، كقولك : إنما تفعلون كذا ، وإنما تفعلون كذا . وقال مقاتل : الأوثان : الأصنام . قال ابن قتيبة : واحدها وثن ، وهو ماكان من حجارة أو جِصّ .

قوله تعالى : (وتخلُقون إفكاً) وقرأ ابن السميفع ، وأبو المتوكل : « وتختلقون » بزيادة تاء . ثم فيه قولان . أحدهما : تختلقون كذباً في زعمكم أنَّها آلهة . والثاني : تصنعون الأصنام [١] ؛ والمعنى : تعبدون أصناماً أنتم تصنعونها . ثم بيَّن عجزهم بقوله : (لايملكون لكم رزقاً) أي : لايقدرون على أن يرزقوكم (فابتغوا عند الله الرِّزق) أي : فاطلبوا من الله ، فانَّه القادر على ذلك .

قوله تعالى : (وإن تكذِّبوا) هذا تهديد لقريش (فقد كذَّب أُمَمٌ مِنْ قبلكم) والمعنى : فأُهلكوا .

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرٌ . قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللهُ يُنْشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ . يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَنْ يَشَاءُ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ . وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ . وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللهِ وَلِقَائِهِ أُولَٰئِكَ يَئِسُوا مِنْ رَحْمَتِي وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾

(أَوَلَمْ يَرَوْا) [قرأ ابن كثير ، ونافع ، وأبو عمرو ، وابن عامر :

---

(١) قال ابن جرير الطبري : وأولى الأقوال في ذلك قول من قال : معناه : وتصنعون كذباً .

« يَرَوْا »] بالياء وقرأ حمزة ، والكسائي : بالتاء . [وعن عاصم كالقراءتين] . وعنى بالكلام كفار مكة (كيف يُبْدِىءُ اللهُ الخَلْق) أي : كيف يخلُقهم ابتداءً من نطفة ، ثم من علقة ، ثم من مُضغة إلى أن يتم الخلق (ثُمَّ يُعيده) أي : ثم هو يُعيده في الآخرة عند البعث . وقال أبو عبيدة : مجازه : أولم يَرَوا كيف استأنف الله الخلق الأوَّل ثم يعيده . وفيه لغتان : أبدأ وأعاد ، وكان مُبدِئاً ومُعيداً ، وبدأ وعاد ، وكان بادئاً وعائداً .

قوله تعالى : (إنَّ ذلك على الله يسير) يعني الخَلْق الأول والخَلْق الثاني .

قوله تعالى : (قُلْ سيروا في الأرض) أي : انظروا إلى المخلوقات التي في الأرض ، وابحثوا عنها هل تجدون لها خالقاً غير الله ، فاذا علموا أنه لا خالق لهم سواه ، لزمتهم الحجة في الإعادة ، وهو قوله : (ثُمَّ اللهُ يُنشِىءُ النَّشأة الآخرة) أي : ثم الله ينشئهم عند البعث نشأة أخرى . وأكثر القراء قرؤوا : « النَّشْأة » بتسكين الشين وترك المد . وقرأ ابن كثير ، وأبو عمرو : « النَّشاءَة » بالمد .

قوله تعالى : (يعذِّب من يشاء) فيه قولان .

أحدهما : أنَّه في الآخرة بعد إنشائهم .

والثاني : أنَّه في الدنيا . ثم فيه خمسة أقوال حكاها الماوردي . أحدها : يعذِّب من يشاء بالحرص ، ويرحم من يشاء بالقناعة . والثاني : يعذِّب بسوء الخُلُق ويرحم بحُسْن الخُلُق والثالث : يعذِّب بمتابعة البدعة ، ويرحم بملازمة السُّنَّة . والرابع : يعذِّب بالانقطاع إلى الدنيا ، ويرحم بالإعراض عنها . والخامس : يعذِّب من يشاء ببغض الناس له ، ويرحم من يشاء بحبِّ الناس له .

قوله تعالى : (وإليه تُقْلَبون) أي : تُرَدُّون . (وما أنتم بمُعْجِزِين في الأرض) فيه قولان حكاها الزجاج .

أحدها : وما أنتم بمعجزين في الأرض ، ولا أهلُ السماء بمعجزين في السماء .

والثاني : وما أنتم بمعجزين في الأرض ، ولا لو كنتم في السماء وقال قطرب : هذا كقولك : ما يفوتني فلان لا هاهنا ولا بالبصرة ، أي : ولا بالبصرة لو صار إليها . قال مقاتل : والخطاب لكفار مكة ؛ والمعنى : لا تَسبقون الله حتى يجزيَكم بأعمالكم السيِّئة ، (وما لكم مِنْ دون الله مِنْ وليٍّ) أي : قريب ينفعكم (ولا نصيرٍ) يمنعكم من الله .

قوله تعالى : (والذين كفروا بآيات الله ولقائه) أي : بالقرآن والبعث (أولئك يَئِسوا مِنْ رحمتي) في الرحمة قولان . أحدها : الجنة ، قاله مقاتل . والثاني : العفو والمغفرة ، قاله أبو سليمان . قال ابن جرير : وذلك في الآخرة عند رؤية العذاب .

﴿ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنْجَاهُ اللهُ مِنَ النَّارِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ . وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِ اللهِ أَوْثَانًا مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُمْ بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَاصِرِينَ ﴾

ثم عاد الكلام إلى قصة إبراهيم ، وهو قوله : (فما كان جوابَ قومه) أي : حين دعاهم إلى الله ونهاهم عن الأصنام (إلَّا أن قالوا اقتُلوه أو حرِّقوه) وهذا بيان لسفه أحلامهم حين قابلوا احتجاجه عليهم بهذا .

قوله تعالى : (فأنجاه الله) المعنى : فحرَّقوه فأنجاه الله (مِنَ النَّار) .

قوله تعالى : (إنَّ في ذلك) يشير إلى إنجائه إبراهيم .

قوله تعالى : (وقال) يعني إبراهيم (إنَّما اتَّخذتم مِنْ دون الله أوثاناً

مَوَدَّةُ بَيْنِكُمْ) قرأ ابن كثير ، وأبو عمرو : « مَوَدَّةُ بَيْنِكُمْ » بالرفع والإِضافة . قال الزجاج : « مَوَدَّةُ » مرفوعة بإضمار « هي » ، كأنه قال : تلك مَوَدَّةُ بينِكم ، أي : أُلفتكم واجتماعكم على الأصنام مَوَدَّةُ بينِكم ؛ والمعنى : إنّما اتخذتم هذه الأوثان لتتوادُّوا بها في الحياة الدنيا . ويجوز أن تكون « ما » بمعنى الذي .

وقرأ ابن عباس ، وسعيد بن المسيّب ، وعكرمة ، وابن أبي عبلة : « مَوَدَّةٌ » بالرفع « بَيْنَكُمْ » بالنصب .

وقرأ نافع ، وابن عامر ، وأبو بكر عن عاصم : « مَوَدَّةً بَيْنَكم » قال أبو علي : المعنى : اتّخذتم الأصنام للمودّة ، و « بينَكم » نصب على الظرف ، والعامل فيه المودّة .

وقرأ حمزة ، وحفص عن عاصم : « مَوَدَّةَ بَيْنِكُم » بنصب « مودَّةَ » مع الإِضافة ، وهذا على الاتساع في جعل الظرف اسماً لِما أُضيف إليه .

قال المفسرون : معنى الكلام : إنّما اتّخذتموها لِتتّصلَ المودّة بينكم واللقاء والاجتماع عندها ، وأنتم تعلمون أنها لا تضر ولا تنفع ، (ثُمَّ يومَ القيامة يكفُر بعضُكم ببعض) أي : يتبرّأ القادة من الأتباع (ويلعنُ بعضُكم بعضاً) يلعن الأتباعُ القادةَ لأنّهم زيّنوا لهم الكفر .

﴿ فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ . وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ . وَلُوطاً إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَاسَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ . أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنْكَرَ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ

إِلَّا أَنْ قَالُوا ائْتِنَا بِعَذَابِ اللهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ . قَالَ رَبِّ انْصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ ﴾

قوله تعالى : (فآمن له لوط) أي : صدّق بإبراهيم (وقال) يعني إبراهيم (إِنّي مُهاجِر إلى ربّي) فيه قولان . أحدهما : إلى رضى ربّي . والثاني : إلى حيث أمرني ربّي ، فهاجر من سواد العراق إلى الشام وهجر قومه المشركين . (ووهبْنا له إسحاق) بعد إسماعيل (ويعقوب) من إسحاق (وجعلْنا في ذرّيّته النبُوّة والكتاب) وذلك أن الله تعالى لم يبعث نبياً بعد إبراهيم إلاّ من صُلبه (وآتيناه أجره في الدُّنيا) فيه أربعة أقوال .

أحدها : الذِّكْر الحسن ، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس . والثاني : الثناء الحسن والولد الصالح ، رواه أبو صالح عن ابن عباس . والثالث : العافية والعمل الحسن والثناء ، فلستَ تلْقى أحداً من أهل المِلَل إلاّ يتولاّه ، قاله قتادة ، والرابع : أنه أُري مكانه من الجنة ، قاله السدي .

قوله تعالى : (وإنّه في الآخرة لَمِنَ الصّالحين) قد سبق بيانه [البقرة:١٣٠] . قال ابن جرير : له هناك جزاء الصّالحين غير منقوص من الآخرة بما أُعطي في الدنيا من الأجر . وما بعد هذا قد سبق بيانه [الأعراف : ٨٠] إلى قوله : (وتقطعون السبيل) وفيه ثلاثة أقوال .

أحدها : أنهم كانوا يعترضون مَنْ مَرَّ بهم لعملهم الخبيث ، قاله أبو صالح عن ابن عباس .

والثاني : أنهم كانوا إذا جلسوا في مجالسهم يرمون ابن السبيل بالحجارة ، فيقطعون سبيل المسافر ، قاله مقاتل .

والثالث : أنه قطع النسل للعدول عن النساء إلى الرجال ، حكاه الماوردي .

قوله تعالى : (وتأتون في ناديكم المُنْكَر) قال ابن قتيبة : النادي : المجلس ، والمُنْكَر يجمع الفواحش من القول والفعل .

وللمفسرين في المراد بهذا المُنْكَر أربعة أقوال .

أحدها : أنهم كانوا يَحْذِفون أهل الطريق ويسخرون منهم ، فذلك المنكر ، روته أم هانىء بنت أبي طالب عن رسول الله ﷺ [1] . وقال عكرمة ، والسدي : كانوا يَحْذِفون كلَّ مَنْ مَرَّ بهم .

والثاني : لَفُّ القميص على اليد ، وجَرُّ الإزار ، وحَلُّ الأزرار ، والحذف والرمي بالبندق ، ولعب الحمام ، والصَّفير ، في خصال أُخَر رواها ميمون بن مهران عن ابن عباس .

والثالث : أنه الضُّراط ، رواه عروة عن عائشة ، وكذلك فسَّره القاسم ابن محمد .

والرابع : أنه إتيان الرجال في مجالسهم ، قاله مجاهد ، وقتادة ، وابن زيد [2] .

---

(١) رواه أحمد في « المسند » ٦/٣٤١ ، و « الطبري » ٢٠/١٤٥ ، والترمذي ٢/١٥٠ وحسنه ، وأورده السيوطي في « الدر » ٥/١٤٤ ، وزاد نسبته للفريابي ، وعبد بن حميد ، وابن أبي حاتم ، وابن أبي الدنيا في كتاب « الصمت » ، وابن المنذر ، والشاشي في « مسنده » ، والطبراني ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه ، والبيهقي في « شعب الايمان » ، وابن عساكر ، عن أم هانىء بنت أبي طالب رضي الله عنها .

وفي « المسند » والترمذي « يخذفون » بالخاء المعجمة ، وكذلك هو في « الدر » ، وفي الأصل « يحذفون » بالحاء المهملة ، والحذف يستعمل في الرمي والضرب معاً ، والخذف ـ بالخاء المعجمة ـ : رميك حصاة أو نواة تأخذها بين سبَّابتيك وترمي بها ، أو تتخذ مِخْذَفَة من خشب ثم ترمي بها الحصاة بين إبهامك والسبابة ، وقد نهى رسول الله ﷺ عن الخذف ـ بالخاء المعجمة ـ وقال عنه : إنه لا يقتل الصيد ، ولا ينكأ العدوَّ ، وإنه يفقأ العين ويكسر السنّ ، متفق عليه .

(٢) قال ابن جرير الطبري : وأولى الأقوال في ذلك بالصواب قول من قال : معناه : وتحذفون في مجالسكم المارَّة بكم ، وتسخرون منهم ، لما ذكرنا من الرواية بذلك عن رسول الله ﷺ . اهـ . يريد به حديث أم هانىء .

وهذه الآية [تدل] على أنه لا ينبغي للمجتمعين أن يتعاشروا إلا على ما يقرِّب من الله عز وجل ، ولا ينبغي أن يجتمعوا على الهزء واللعب[١] .

قوله تعالى : (ربِّ انْصُرْني) أي : بتصديق قولي في العذاب .

﴿ وَلَمَّا جاءَتْ رُسُلُنَا إِبْراهِيمَ بِالْبُشْرَىٰ قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُوا أَهْلِ هَٰذِهِ الْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ . قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطاً قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنْ فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ . وَلَمَّا أَنْ جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطاً سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعاً وَقَالُوا لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا امْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ . إِنَّا مُنْزِلُونَ عَلَى أَهْلِ هَٰذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزاً مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ . وَلَقَدْ تَرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾

قوله تعالى : (إنَّا مُهْلِكو أهلِ هذه القرية) يعنون قرية لوط .

قوله تعالى : (لَنُنَجِّيَنَّه) قرأ نافع ، وأبو عمرو ، وابن عامر ، وعاصم : « لَنُنَجِّيَنَّه » و« إنَّا مُنَجُّوكَ » بتشديد الحرفين ، وخفَّفهما حمزة ، والكسائي . وروى أبو بكر عن عاصم : « لَنُنَجِّيَنَّه » مشددة ، و « إنَّا مُنْجُوكَ » مخففة ساكنة النون . وقد سبق شرح ما أخللنا بذكره [هود : ٧٧] إلى قوله : (إنَّا مُنْزِلُونَ على أهل هذه القرية رِجْزاً) وهو الحَصْب والخسف .

قوله تعالى : (ولقد تركْنا منها) في المكني عنها قولان .

أحدها : أنها الفَعْلة التي فعل بهم ؛ فعلى هذا في الآية ثلاثة أقوال . أحدها : أنها الحجارة التي أدركت أوائل هذه الأُمَّة ، قاله قتادة . والثاني : الماء الأسود على وجه الأرض ، قاله مجاهد . والثالث : الخبر عما صُنع بهم .

(١) في النسخة الاستنبولية : ولا ينبغي أن يجتمعوا على الهزل واللعب .

والثاني : أنها القرية ؛ فعلى هذا في المراد بالآية ثلاثة أقوال .

أحدها : أنها آثار منازلهم الخَرِبة ، قاله ابن عباس .

والثاني : أن الآية في قريتهم إلى الآن أن أساسها أعلاها وسقوفها أسفلها ، حكاه أبو سليمان الدمشقي .

والثالث : أن المعنى : تركناها آية ، تقول : إن في السماء لآية ، تريد أنها هي الآية ، قاله الفراء .

﴿ وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْباً فَقَالَ يَاقَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ وَارْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ . فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴾

قوله تعالى : (وارجُوا اليومَ الآخِر) قال المفسرون : اخشَوا البعث الذي فيه جزاء الأعمال .

﴿ وَعَاداً وَثَمُودَ وَقَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ مِنْ مَسَاكِنِهِمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ . وَقَارُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مُوسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ . فَكُلّاً أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِباً وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾

قوله تعالى : (وعاداً وثمود) قال الزجاج : المعنى : وأهلكنا عاداً وثموداً ، لأن قبل هذا (فأخذتْهم الرجفة) .

قوله تعالى : (وقد تَبَيَّن لكم مِنْ مساكنهم) أي : ظهر لكم يا أهل مكة

من منازلهم بالحجاز واليمن آية في هلاكهم ، (وكانوا مستبصرين) قال الفراء : أي : ذوي بصائر . وقال الزجاج : أتوا ما أتوه وقد تبين لهم أن عاقبته عذابهم . وقال غيره : كانوا عند أنفسهم مستبصرين ، يظنون أنهم على حق .

قوله تعالى : (وما كانوا سابقين) أي : ما كانوا يفوتون الله أن يفعل بهم ما يريد .

قوله تعالى : (فكلاًّ أخذنا بذنبه) أي : عاقبنا بتكذيبه (فمنهم من أرسلنا عليه حاصباً) يعني قوم لوط (ومنهم من أخذته الصيحة) يعني ثموداً وقوم شعيب (ومنهم من خسفنا به الأرض) يعني قارون وأصحابه (ومنهم من أغرقنا) يعني قوم نوح وفرعون (وما كان الله ليظلمهم) فيعذبهم على غير ذنب (ولكن كانوا أنفسهم يظلمون) بالإقامة على المعاصي .

﴿ مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتاً وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ . إِنَّ اللهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ . وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ ﴾

قوله تعالى : (مَثَلُ الذين اتَّخذوا من دون الله أولياءَ) يعني الأصنام يتخذها المشركون أولياء يرجون نفعها ونصرها ، فمَثَلهم في ضعف احتيالهم (كَمَثَل العنكبوت اتَّخذتْ بيتاً) [1] قال ثعلب : والعنكبوت أنثى ، وقد يذكِّرها بعض العرب ، قال الشاعر :

---

(١) قال ابن كثير : هذا مثل ضربه الله تعالى للمشركين في اتخاذهم آلهة من دون الله يرجون نصرهم ورزقهم ويتمسكون بهم في الشدائد ، فهم في ذلك كبيت العنكبوت في ضعفه ووهنه ، فليس في أيدي هؤلاء من آلهتهم إلا كمن يتمسك ببيت العنكبوت ، فانه لا يجدي ــــ

[على هَطَّالِهِم منهم بُيوتٌ] كأنَّ العَنْكَبُوتَ هو ابْتَناها(١)

قوله تعالى : (إنَّ الله يَعْلَمُ مايَدْعُون مِنْ دونه مِنْ شيء) أي : هو عالِمٌ بما عبدوه من دونه ، لايخفى عليه ذلك ؛ والمعنى أنه يجازيهم على كفرهم . (وتلك الأمثال) يعني أمثال القرآن التي شبّه بها أحوال الكفار ؛ وقيل : إن « تلك » بمعنى « هذه » ، و (العالمون) : الذين يعقلون عن الله عز وجل .

﴿ خَلَقَ اللهُ السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنَّ فِي ذٰلِكَ لَآيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ . أُتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلٰوٰةَ إِنَّ الصَّلٰوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللهِ أَكْبَرُ وَاللهُ يَعْلَمُ مَاتَصْنَعُونَ ﴾

(خَلَقَ اللهُ السموات والأرض بالحقّ) أي : للحق ، ولإظهار الحق .

قوله تعالى : (إنَّ الصلاة تنهى عن الفحشاء والمُنْكَر) في المراد بالصلاة قولان .

أحدهما : أنها الصلاة المعروفة ، قاله الأكثرون . وروى أنس بن مالك عن رسول الله ﷺ أنه قال : « مَنْ لم تَنْهَهُ صلاتُه عن الفحشاء والمُنْكَر ، لم يزدد من الله إلا بُعداً »(٢) .

ـــ عنه شيئاً ، فلو علموا هذا الحال لما اتّخذوا من دون الله أولياء ، وهذا بخلاف المسلم المؤمن قلبُه لله وهو مع ذلك يحسن العمل في اتباع الشرع ، فانه متمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها لقوتها وثباتها . اهـ .

(١) البيت غير منسوب في « مجمع البيان » : ٢٠/٣٦٣ ، و « البحر المحيط » : ٧/١٥٢ ، و « روح البيان » : ٢٠/١٤٠ ، و « اللسان » و « التاج » : عنكب . قال في « التاج » : هطّال : جبل .

(٢) هذا الحديث رواه الطبراني ، وابن أبي حاتم ، وابن مردويه من طريق ليث بن أبي سُلَيم ـــ

والثاني : أنّ المراد بالصلاة : القرآن ، قاله ابن عمر ؛ ويدل على هذا قوله : (ولا تَجْهَر بِصَلاتك) [الاسراء:١١٠] . وقد شرحنا معنى الفحشاء والمنكر فيما سبق [البقرة : ١٦٨ ، النحل : ٩٠] .

وفي معنى هذه الآية للعلماء ثلاثة أقوال .

أحدها : أن الإنسان إذا أدَّى الصلاة كما ينبغي وتدبَّر مايتلو فيها ، نهته عن الفحشاء والمنكر ، هذا مقتضاها وموجبها .

والثاني : أنها تنهاه مادام فيها .

والثالث : أن المعنى : ينبغي أن تنهى الصلاةُ عن الفحشاء والمنكر .

قوله تعالى : (ولَذِكْرُ الله أكبر) فيه أربعة أقوال .

أحدها : ولَذِكْرُ الله إيَّاكم أكبرُ من ذِكْرِكم إيَّاه ، رواه ابن عمر عن

ـــ عن عطاء عن ابن عباس مرفوعاً ، وهو حديث ضعيف ، من أجل ليث بن أبي سُلَيم ، وقد أخرجه الطبري من رواية ابن عباس موقوفاً عليه ، ومن رواية ابن مسعود موقوفاً عليه أيضاً ، وهو الصواب . قال ابن كثير : والأصح في هذا كلّه الموقوفات عن ابن مسعود ، وابن عباس ، والحسن ، وقتادة ، والأعمش ، وغيرهم . اه . فالحديث إذن ضعيف السند في المرفوع . وقال شيخ الاسلام ابن تيمية في بعض فتاويه : هذا الحديث ليس بثابت عن النبي ﷺ ، لكن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر كما ذكر الله في كتابه ، وبكل حال فالصلاة لاتزيد صاحبها بعداً ، بل الذي يصلي خير من الذي لايصلي وأقرب إلى الله منه وإن كان فاسقاً ، اه . فكأنه يشير إلى تضعيف متنه أيضاً . وقد ثبت أن رسول الله ﷺ لما قيل له : إن فلاناً يصلي الليل كلَّه ، فاذا أصبح سرق ، فقال : « سينهاه ماتقول » أو قال : « ستمنعه صلاته » رواه أحمد ، والبزار ، وابن حبان ، وغيرهم ، وسنده صحيح . يريد عليه الصلاة والسلام أن الصلاة إذا كانت على الوجه الأكمل ، تنهى صاحبها عن الفحشاء ، ولا تزيده بعداً ، بل تزيده قرباً منه .

رسول الله ﷺ [(١)] ، وبه قال ابن عباس ، وعكرمة ، وسعيد بن جبير ، ومجاهد في آخرين .

والثاني : ولَذِكْرُ الله أفضلُ من كل شيء سواه ، وهذا مذهب أبي الدرداء ، وسلمان ، وقتادة .

والثالث : ولَذِكْرُ الله في الصلاة أكبرُ مِمَّا نهاك عنه من الفحشاء والمُنكَر ، قاله عبد الله بن عون .

والرابع : ولَذِكْرُ الله العبدَ ـ ما كان في صلاته ـ أكبرُ من ذِكْر العبدِ لله ، قاله ابن قتيبة .

﴿ وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾

قوله تعالى : (ولا تُجادِلوا أهل الكتاب إلَّا بالَّتي هي أحسن) في التي هي أحسن ثلاثة أقوال . أحدها : أنها لا إله إلا الله ، رواه الضحاك عن ابن عباس . والثاني : أنها الكفُّ عنهم إذا بذلوا الجزية ، فان أبَوْا قوتِلوا ، قاله مجاهد . والثالث : أنها القرآن والدُّعاء إلى الله بالآيات والحُجج .

قوله تعالى : (إلَّا الذين ظَلَموا منهم) وهم الذين نصبوا الحرب وأبَوْا أن يؤدُّوا الجزية ، فجادِلوا هؤلاء بالسيف حتى يُسْلِموا أو يُعطوا الجزية (وقولوا)

---

(١) ذكره السيوطي في « الدر » : ١٤٦/٥ من رواية ابن السني ، وابن مردويه ، والديلمي عن ابن عمر رضي الله عنهما مرفوعاً ، والله أعلم . وذكر الطبري هذا المعنى في التفسير من قول ابن عباس . قال ابن كثير : وقد روي هذا من غير وجه عن ابن عباس ، وروي أيضاً عن ابن مسعود ، وأبي الدرداء ، وسلمان الفارسي ، وغيرهم ، واختاره ابن جرير . اهـ .

لِمَن أدّى الجزية منهم إذا أخبركم بشيء ممّا في كتبهم (آمَنَّا بالذي أُنْزل إلينـا وأُنْزل إليكم . . .)[الآية] . وقـد روى أبو هريرة قال : كان أهل الكتاب يقرؤون التوراة بالعبرانية ، ويفسّرونها بالعربية لأهل الإسلام ، فقال رسول الله ﷺ : « لاتصدّقوا أهل الكتـاب ولا تكذّبوهم (وقولوا آمنّا بالذي أُنزل إلينا وأُنزل إليكم . . .) » [الآية] [1] .

فصل

واختُلف في نسخ هذه الآية على قولين .

(١) رواه البخاري في « صحيحه » : ١٢٩/٨ قال ابن كثير : إذا أخـبروا بما لا نعلم صدقه ولا كذبه ، فهذا لا نقدم على تكذيبه ، لأنه قـد يكون حقاً ، ولا تصديقه ، فلعله أن يكون باطلاً ، ولكن نؤمن به إيماناً مجملاً معلّقاً على شـرط ، وهو أن يكون منزلاً ، لامبدّلاً ولا مؤوّلاً . وقال أيضاً : ثم ليُعلَم أن أكثر مايتحدّثون به غالبه كذب وبهتان ، لأنه قد دخله تحريف وتبديل وتغيير وتأويل ، وما أقل الصدق فيه ، ثم ماأقل فائدة كثير منه لو كان صحيحاً . اهـ . وقال ابن كثير : قال البخـاري عن ابن عباس : كيف تسألون أهل الكتاب عن شيء وكتابكم الذي أنزل اليكم على رسول الله ﷺ أحدثُ تقرؤونه محضـاً لم يُشَب ، وقد حدّثكم أن أهل الكتاب بدّلوا وغيّروا وكتبوا بأيديهـم الكتاب وقالوا : هو من عند الله ليشتروا به ثمناً قليلاً ؟ ألا ينهاكم ماجاءكم من العلم عن مسألتهم ؟! لا والله مارأينا منهم رجلاً يسألكم عن الذي أنزل عليكم . وقال ابن كثير أيضاً : قال البخاري : وقال أبو اليمان ، أخبرنا شعيب عن الزهري ، أخبرني حميد بن عبد الرحمن أنه سمع معاوية يحدّث رهطاً من قريش بالمدينة وذكر كعب الأحبار فقال : إن كان من أصدق هؤلاء المحدّثين الذين يحدّثون عن أهل الكتاب وإن كنا مع ذلك لنبلو عليه الكذب ، قال ابن كثير : معناه : أنه يقع منه الكذب لغة من غير قصد ، لأنه يحدّث عن صحف هو يحسن بها الظن ، وفيها أشياء موضوعة ، ومكذوبة ، لأنهم لم يكن في ملّتهم حفاظ متقنون كهذه الأمـة العظيمة ، ومع ذلك وقربِ العهد وضعت أحاديث كثيرة في هذه الأمة لايعلمها إلا الله عز وجل ، ومَن منحه الله تعالى علماً بذلك كلٌّ بحسبه ، ولله الحمد والمنة . اهـ .

أحدهما : أنها نُسخت بقوله تعالى : (قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ...) إلى قوله : (وهم صاغرون) [التوبة : ٢٩] ، قاله قتادة ، والكلبي .

والثاني : أنها ثابتة الحكم ، وهو مذهب ابن زيد .

﴿ وَكَذَٰلِكَ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ فَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمِنْ هَؤُلَاءِ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الْكَافِرُونَ . وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لَارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ . بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ ﴾

قوله تعالى : (وكذلك) أي : وكما أنزلنا الكتاب عليهم (أنزلنا إليك الكتاب فالذين آتيناهم الكتاب يؤمنون به) يعني مؤمني أهل الكتاب (ومِن هؤلاء) يعني أهل مكة (مَنْ يؤمن به) وهم الذين أسلموا (وما يَجْحَد بآياتنا إلاّ الكافرون) قال قتادة : إنّما يكون الجَحْد بعد المعرفة . قال مقاتل : وهم اليهود .

قوله تعالى : (وما كنتَ تتلو مِنْ قَبْله مِنْ كِتَاب) قال أبو عبيدة : مجازه : ما كنتَ تقرأ قبله كتاباً ، و « مِن » زائدة . فأما الهاء في « قَبْله » فهي عائدة إلى القرآن . والمعنى : ما كنتَ قارئاً قبل الوحي ولا كاتباً ، وهكذا كانت صفته في التوراة والإنجيل أنّه أُمّيٌّ لا يقرأ ولا يكتب [1] ، وهذا يدلّ على أن الذي جاء به ، من عند الله تعالى .

---

(١) قال ابن كثير : ومن زعم من متأخري الفقهاء ، كالقاضي أبي الوليد الباجي ومَن تابعه أنه عليه السلام كتب يوم الحديبية : « هذا ماقاضى عليه محمد بن عبد الله » ، فانما حمله على ذلك رواية في « صحيح البخاري » : « ثم أخذ فكتب » ، وهذه محمولة على الرواية الأخرى : « ثم أمر —

قوله تعالى : (إذاً لارتاب المُبْطِلون) أي : لو كنتَ قارئاً كاتباً لشكَّ اليهودُ فيكَ ، ولقالوا : ليست هذه صفته في كتابنا . والمُبْطِلون : الذين يأتون بالباطل ، وفيهم هاهنا قولان . أحدهما : كفار قريش ، قاله مجاهد . والثاني : كفار اليهود ، قاله مقاتل .

قوله تعالى : (بل هو آياتٌ بيِّناتٌ) في المكنيِّ عنه قولان .

أحدهما : أنه النبيُّ محمد ﷺ ؛ ثم في معنى الكلام قولان . أحدهما : أن المعنى : بل وجْدانُ أهل الكتاب في كتبهم أن محمداً ﷺ لا يكتب ولا يقرأ ، وأنه أمّيٌّ ، آياتٌ بيّنات في صدورهم ، وهذا مذهب ابن عباس ، والضحاك ، وابن جريج . والثاني : أن المعنى : بل محمد ذو آيات بيّنات في صدور الذين أوتوا العِلْم من أهل الكتاب ، لأنّهم يجدونه بنعته وصفته ، قاله قتاده .

والثاني : أنه القرآن ، والذين أوتوا العلم : المؤمنون الذين حملوا القرآن على عهد رسول الله ﷺ وحملوه بعده . وإنما أُعطي الحفظ هذه الأمة ، وكان مَنْ قبلهم لا يقرؤون كتابهم إلاّ نظراً ، فاذا أطبقوه لم يحفظوا ما فيه سوى الأنبياء ، وهذا قول الحسن .

وفي المراد بالظالمين هاهنا قولان . أحدهما : المشركون ، قاله ابن عباس . والثاني : كفار اليهود ، قاله مقاتل .

﴿ وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ . أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ

ـــ فكتب » ، ولهذا اشتد النكير من فقهاء المشرق والمغرب على من قال بقول الباجي ، وتبرّؤوا منه . ثم قال ابن كثير : وما أورده بعضهم من الحديث أنه لم يمت ﷺ حتى تعلّم الكتابة ، فضعيف لا أصل له . اهـ .

يُؤْمِنُونَ . قُلْ كَفَى بِاللهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيداً يَعْلَمُ مَا فِي السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضِ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْبَاطِلِ وَكَفَرُوا بِاللهِ أُولٰئِكَ هُمُ الخَاسِرُونَ ﴾

قوله تعالى : (وقالوا) يعني كفار مكة (لولا أُنزل عليه آياتٌ من ربّه) قرأ نافع ، وأبو عمرو ، وابن عامر ، وحفص عن عاصم : « آياتٌ » على الجمع . وقرأ ابن كثير ، وحمزة ، والكسائي ، وأبو بكر عن عاصم : « آيةٌ » على التوحيد . وإنما أرادوا : كآيات الأنبياء (قُلْ إنَّما الآياتُ عند الله) أي : هو القادر على إرسالها ، وليست بيدي . وزعم بعض علماء التفسير أن قوله : (وإنَّما أنا نذير مُبين) منسوخ بآية السيف .

ثم بيَّن اللهُ عز وجل أن القرآن يكفي من الآيات التي سألوها بقوله : (أو لَمْ يَكْفِهِم أنَّا أنزلنا عليكَ الكتاب) ؟! وذكر يحيى بن جعدة أن ناساً من المسلمين أتَوا رسول الله ﷺ بكتب قد كتبوها ، فيها بعض ما يقول اليهود ، فلمَّا نظر إليها ألقاها وقال : « كفى بها حماقة قوم ، أو ضلالة قوم ، أن يرغبوا عمَّا جاء به نبيُّهم إلى قوم غيرهم » ، فنزلت : « أو لَمْ يَكْفِهِم » إلى آخر الآية [1] .

قوله تعالى : (قُلْ كفى بالله) قال المفسرون : لمَّا كذَّبوا بالقرآن نزلت :

---

(١) رواه الطبري : ٢١/٧ ، قال الحافظ ابن حجر في « تخريج الكشاف » ١٢٨ : رواه الطبري ، وأبو داود في « المراسيل » من طريق يحيى بن جعدة ، وقال ابن حجر في « التقريب » عن جعدة : ثقة وقد أرسل عن ابن مسعود ونحوه ، وذكر هذا الخبر السيوطي في « الدر » ١٤٨/٥ وزاد نسبته للدارمي ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، عن يحيى بن جعدة رضي الله عنه ، وأورده السيوطي في « الدر » أيضاً من رواية الاسماعيلي في « معجمه » ، وابن مردويه من طريق يحيى بن جعدة عن أبي هريرة رضي الله عنه بنحوه .

(قل كفى بالله بيني وبينكم شهيداً) يَشهَد لي أنّي رسوله ، ويشهد عليكم بالتكذيب ، وشهادةُ الله له : إثبات المعجزة له بانزال الكتاب عليه ، (والذين آمنوا بالباطل) قال ابن عباس : بغير الله . وقال مقاتل : بعبادة الشيطان .

﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلاَ أَجَلٌ مُسَمًّى لَجَاءَهُمُ الْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لاَيَشْعُرُونَ . يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ . يَوْمَ يَغْشَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾

قوله تعالى : (ويستعجلونك بالعذاب) قال مقاتل : نزلت في النَّضر بن الحارث حين قال : « فأَمْطِرْ علينا حجارةً مِنَ السَّماء » [الأنفال : ٣٢] (١) .

وفي [الأَجل] المسمى أربعة أقوال . أحدها : أنه يوم القيامة ، قاله سعيد ابن جبير . والثاني : أجل الحياة إلى حين الموت ، وأجل الموت إلى حين البعث ، قاله قتادة . والثالث : مُدّة أعمارهم ، قاله الضحاك . والرابع : يوم بدر ، حكاه الثعلبي .

قوله تعالى : (وليَأْتينَّهم) يعني العذاب . وقرأ معاذ القارىء ، وأبو نهيك ، وابن أبي عبلة : « ولتَأْتينَّهم » بالتاء (بغتةً وهم لايَشْعُرون) باتيانه .

قوله تعالى : (وإنَّ جهنَّم لَمُحيطة بالكافرين) أي : جامعة لهم .

قوله تعالى : (ويقولُ ذُوقوا) قرأ ابن كثير : بالنون . وقرأ نافع : بالياء . فمن قرأ بالياء ، أراد الملَك الموكَّل بعذابهم ؛ ومن قرأ بالنون ، فلأَنَّ ذلك لمَّا كان بأمر الله تعالى جاز أن يُنسَب إليه . ومعنى (ما كنتم تعملون) أي : جزاء ماعملتم من الكفر والتكذيب .

---

(١) الطبري : ٩/٢٣٢ عن سعيد بن جبير ، ومجاهد ، وعطاء . وروى البخاري عن أنس قال : قال أبو جهل : (اللهم إن كان هذا هو الحقّ من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم) فنزلت : (وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم وما كان الله معذّبهم وهم يستغفرون) .

﴿ يَاعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ . كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ . وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ مِنَ الْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ . الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ . وَكَأَيِّنْ مِنْ دَابَّةٍ لَا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾

قوله تعالى : (ياعباديَ الذين آمنوا) قرأ ابن كثير ، ونافع ، وعاصم ، وابن عامر : « ياعباديَ » بتحريك الياء . وقرأ أبو عمرو ، وحمزة ، والكسائي : باسكانها .

قوله تعالى : (إن أرضي واسعة) وقرأ ابن عامر وحده : « أرضيَ » بفتح الياء . وفيه ثلاثة أقوال .

أحدها : أنه خطاب لِمَن آمن [مِنْ] أهل مكة ، قيل لهم : « إن أرضي » يعني المدينة « واسعة » ، فلا تجاوروا الظَّلَمة في أرض مكة ، قاله أبو صالح عن ابن عباس ؛ وكذلك قال مقاتل : نزلت في ضُعفاء مُسْلِمي مكة ، [أي] : إن كنتم في ضيق بمكة من إظهار الإيمان ، فأرض المدينة واسعة .

والثاني : أن المعنى : إذا عُمل بالمعاصي في أرض فاخرجوا منها ، رواه سعيد بن جبير عن ابن عباس ، وبه قال عطاء .

والثالث : إنَّ رزقي لكم واسع ، قاله مطرف بن عبد الله .

قوله تعالى : (فإيَّايَ فاعبُدونِ) أثبت فيها الياء يعقوب في الحالين ، وحذفها الباقون . قال الزجّاج : أمرهم بالهجرة من الموضع الذي لا يمكنهم فيه عبادة الله إلى حيث تتهيَّأُ لهم العبادة ؛ ثم خوَّفهم بالموت لتهون عليهم الهجرة ، فقال : (كلُّ نَفْس ذائقةُ الموت) المعنى : فلا تُقيموا في دار الشِّرك خوفاً من الموت (ثُمَّ

إلينا تُرْجَعون) بعد الموت فنجزيكم بأعمالكم ، والأكثرون قرؤوا : « تُرْجَعون » بالتاء على الخطاب ؛ وقرأ أبو بكر عن عاصم بالياء .

قوله تعالى : (لَنُبَوِّئَنَّهُمْ) [قرأ ابن كثير ، ونافع ، وعاصم ، وأبو عمرو ، وابن عامر : « لَنُبَوِّئَنَّهُمْ » بالباء] ، أي : لَنُنْزِلَنَّهم . وقرأ حمزة ، والكسائي ، [وخلف] : « لَنُثْوِيَنَّهُمْ » بالثاء ، [وهو] من : ثويتُ بالمكان : إذا أقمت به قال الزجاج : [يقال] : ثوى الرجل : إذا أقام ، وأثويتُه : إذا أنزلتَه منزلاً يُقيم فيه .

قوله تعالى : (وكأيِّن مِنْ دابَّة لا تَحملُ رزقَها) قال ابن عباس : لمَّا أمرهم رسولُ الله ﷺ بالخروج إلى المدينة ، قالوا : يا رسول الله ، نَخرُج إلى المدينة وليس لنا بها عقار ولا مال ؟! فمن يؤوينا ويطعمنا ؟ فنزلت هذه الآية[1] .

قال ابن قتيبة : ومعنى الآية : كم مِنْ دابَّة لا ترفَعُ شيئاً لغدٍ ، قال ابن عُيَيْنَةَ : ليس شيء يَخبَأُ إلا الإنسانُ والفأرةُ والنملة .

---

(١) ذكر ذلك بعض المفسرين بدون سند ، والله أعلم . وقد ذكر المفسرون في سبب نزولها حديثاً ضعيفاً عن ابن عمر ، وقد أورده السيوطي في « الدر » ١٤٩/٥ قال : أخرج عبد بن حميد ، وابن أبي حاتم ، وابن مردويه ، والبيهقي ، وابن عساكر بسند ضعيف عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : خرجت مع رسول الله ﷺ حتى دخل بعض حيطان المدينة ، فجعل يلتقط من التمر ، ويأكل ، فقال لي : « يا ابن عمر مالك لا تأكل ؟ » قلت : لا أشتهيه يارسول الله ، قال : « لكني أشتهيه ، وهذه صبح رابعة منذ لم أذق طعاماً ، ولم أجده ، ولو شئت لدعوت ربي فأعطاني مثل ملك كسرى وقيصر ، فكيف بك يا ابن عمر إذا بقيت في قوم يخبؤون رزق سنتهم ويضعف اليقين ؟ » قال : فوالله مابرحنا ولا رمنا حتى نزلت : (وكأين من دابة لا تحمل رزقها الله يرزقها وإياكم وهو السميع العليم) فقال رسول الله ﷺ : « إن الله لم يأمرني بكنز الدنيا ولا باتباع الشهوات ، ألا وإني لا أكنز ديناراً ولا درهماً ، ولا أدَّخر رزقاً لغد » . قال ابن كثير : وهذا حديث غريب ، وأبو العطوف الجزري ضعيف اهـ ، يعني أحد رجال السند ، وهو الجراح بن منهال الجزري .

قال المفسرون : وقوله : (اللهُ يرزُقُها) أي : حيثما توجهتْ (وإيَّاكم) أي : ويرزُقكم إن هاجرتم إلى المدينة (وهو السَّميع) لقولكم : لا نجد ما نُنفق بالمدينة (العليمُ) بما في قلوبكم .

﴿ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ . اللهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ إِنَّ اللهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ . وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾

قوله تعالى : (ولَئن سألتَهم) يعني كفار مكة ، وكانوا يُقرُّون بأنه الخالق والرَّازق ؛ وإنَّما أمَره أن يقول : (الحمدُ لله) على إقرارهم ، لأن ذلك يُلزمهم الحُجَّة فيوجِب عليهم التوحيد (بل أكثرُهم لا يعقلون) توحيد الله مع إقرارهم بأنه الخالق . والمراد بالأكثر : الجميع .

﴿ وَمَا هٰذِهِ الْحَيَوٰةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ . فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ . لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾

قوله تعالى : (وما هذه الحياةُ الدُّنيا إلا لَهْوٌ ولَعِبٌ) والمعنى : وما الحياةُ في هذه الدنيا إلا غرور ينقضي عن قليل (وإنَّ الدَّار الآخرة) يعني الجنة (لَهِيَ الحَيَوانُ) قال أبو عبيدة : اللام في « لَهِيَ » زائدة للتوكيد ، والحيوان والحياة واحد ؛ والمعنى : لهي دارُ الحياة التي لا موتَ فيها ، ولا تنغيص

يشوبها كما يشوب الحياةَ في الدُّنيا (لو كانوا يَعْلَمون) أي : لو علموا لرغبوا عن الفاني في الباقي ، ولكنهم لا يَعْلَمون .

قوله تعالى : (فإذا رَكِبُوا في الفُلْك) يعني المشركين (دَعَوُا اللهَ مُخلِصين له الدِّين) أي : أفردوه بالدُّعاء . قال مقاتل : والدِّين بمعنى التوحيد ؛ والمعنى أنهم لا يَدْعُون مَنْ يَدْعُونه شريكاً له (فلمَّا نجَّاهم) أي : خلَّصهم من أهوال البحر ، وأفْضَوا (إلى البَرِّ إذا هم يُشْرِكون) في البَرّ ، وهذا إخبار عن عنادهم . (ليَكْفُروا بِمَا آتيناهم) هذه لام الأمر ، ومعناه التهديد والوعيد ، كقوله : (اعْمَلوا ما شِئْتُم) [فصّلت : ٤٠] ؛ والمعنى : ليَجْحَدوا نِعْمة الله في إنجائه إيَّاهم (ولِيَتَمَتَّعُوا) قرأ ابن كثير ، وحمزة ، والكسائي بإسكان اللام على معنى الأمر ؛ والمعنى : ليتمتعوا بباقي أعمارهم (فسوف يَعْلَمون) عاقبة كفرهم . وقرأ الباقون بكسر اللام في « لِيَتَمَتَّعُوا » ، فجعلوا اللاّمين بمعنى « كي » ، فتقديره : لكي يكفُروا ، ولكي يَتَمتَّعوا ، فيكون معنى الكلام : إذا هم يُشْرِكون ليكفُروا ولِيتمتَّعوا ، أي : لا فائدة لهم في الإشراك إلاّ الكفر والتمتُّع بما يتمتَّعون به في العاجلة من غير نصيب لهم في الآخرة .

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللهِ يَكْفُرُونَ . وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِلْكَافِرِينَ . وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴾

قوله تعالى : (أَوَلَمْ يَرَوْا) يعني كفار مكة (أنَّا جَعَلْنا حَرَماً آمِناً) يعني مكة ؛ وقد شرحنا هذا المعنى في (القصص : ٥٧)

(ويُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حولهم) أي : أن العرب يَسْبِي بعضهم بعضاً وأهلُ مكة آمنون (أفبالباطل) وفيه ثلاثة أقوال . أحدها : الشِّرك ، قاله قتادة . والثاني : الأصنام ، قاله ابن السائب . والثالث : الشيطان ، قاله مقاتل .

قوله تعالى : (يُؤْمِنونَ) وقرأ أبو عبد الرحمن السلمي ، وعاصم الجحدري : « تُؤْمِنونَ وبنِعمة الله تكفُرونَ » بالتاء فيهما .

قوله تعالى : (وبنِعمة الله) يعني : محمداً والإسلام ؛ وقيل : بـإنعـام الله عليهم حين أطعمهم وآمنهم (يكفُرون) ، (ومَنْ أظْلَمُ مِمَّن افترى على الله كَذِباً) أي : زعم أن له شريكاً وأنه أمر بالفواحش (أو كذَّبَ بالحق لمَّا جاءه) يعني محمداً والقرآن (أليس في جهنم مثوىً للكافرين) ؟! وهذا استفهام بمعنى التقرير ، كقول جرير :

أَلَسْتُمْ خَيْرَ مَنْ رَكِبَ المَطايا [وأندى العالَمِينَ بُطونَ راحِ][1]

(والذين جاهَدوا فينا) أي : قاتلوا أعداءنا لأجلنا (لَنَهْدِيَنَّهم سُبُلَنا) أي : لَنُوَفِّقَنَّهم لإصابة الطريق المستقيمة ؛ وقيل : لَنَزِيدنَّهم هِدايَة (وإنَّ الله لَمعَ المُحْسِنِينَ) بالنُّصرة والعون . قال ابن عباس : يريد بالمُحْسِنِين : الموحِّدين ؛ وقال غيره : يريد المجاهدين . وقال ابن المبارك : من اعتاصت عليه مسألة ، فليسأل أهل الثغور عنها ، لقوله : « لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا » .

★ ★ ★

(١) ديوانه : ٩٨ ، و « مجاز القرآن » : ١/٣٦ و ٢/١١٨ ، و « الطبري » : ٢١/٥ .

سورة الرّوم

وهي مَكيّة كُلها باجماعهم

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ الٓمٓ . غُلِبَتِ الرُّومُ . فِي أَدْنَى الأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ . فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلّهِ الأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ المُؤْمِنُونَ . بِنَصْرِ اللهِ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ العَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾

قوله تعالى : (غُلِبَتِ الرُّومُ) ذكر أهل التفسير في سبب نزولها أنه كان بين فارس والروم حرب فغلبت فارس الرُّومَ ، فبلغ ذلك رسولَ الله ﷺ وأصحابَه ، فشقّ ذلك عليهم ، وفرح المشركون بذلك ، لأنّ فارس لم يكن لهم كتاب وكانوا يجحدون البعث ويعبُدون الأصنام ، والرُّوم أصحاب كتاب ، فقال المشركون لأصحاب رسول الله ﷺ : إنكم أهل كتاب ، والنصارى أهل كتاب ، ونحن أُمّيّون ، وقد ظهر إخواننا من أهل فارس على إخوانكم من

الرُّوم ، فإن قاتلتمونا لَنَظْهَرَنَّ عليكم ، فنزلت هذه الآية ، فخرج بها أبو بكر الصديق إلى المشركين ، فقالوا : هذا كلام صاحبك ، فقال : اللهُ أنزل هذا ، فقالوا لأبي بكر : نراهنك على أن الروم لا تغلب فارس ، فقال أبو بكر : البِضْع ما بين الثلاث إلى التسع ، فقالوا : الوسط من ذلك ست ، فوضعوا الرِّهان ، وذلك قبل أن يُحرَّم الرِّهان ، فرجع أبو بكر إلى أصحابه فأخبرهم ، فلاموه وقالوا : هلاَّ أقررتَها كما أقرَّها الله ؟! لو شاء أن يقول : ستاً ، لقال ! فلمَّا كانت سنة ست ، لم تظهر الروم على فارس ، فأخذوا الرهان ، فلمَّا كانت سنة سبع ظهرت الرُّومُ على فارس [1] . وروى ابن عباس قال : لمَّا نزلت : « الٓمٓ . غُلِبَت الرُّومُ » ناحب [2] أبو بكر قريشاً ، فقال له رسول الله ﷺ : ألا احتطتَ ، فانَّ البِضْع ما بين السبع [3] والتسع » [4] . وذكر بعضهم أنهم ضربوا الأجَل خمس سنين [5] ، وقال بعضهم : ثلاث سنين ، فقال رسول الله ﷺ : « إنَّما البِضْع ما بين الثلاث إلى التسع » ، فخرج أبو بكر فقال لهم : أُزايدُكم

(١) ذكره بنحوه الترمذي في التفسير ٢/١٥٠ عن نيار بن مُكرَم ، والطبري ٢١/١٧ عن عكرمة ، وذكره البغوي والخازن ، وأورده السيوطي في « الدر » ٥/١٥١ وعزاه إلى الترمذي ، وزاد نسبته للدارقطني في « الأفراد » ، والطبراني ، وابن مردويه ، وأبي نعيم في « الدلائل » والبيهقي في « شعب الايمان » ، عن نيار بن مكرم الأسلمي .

(٢) المناحبة : المخاطرة والمراهنة .

(٣) كذا الأصل : « فان البضع مابين السبع والتسع » والذي في الطبري ، والترمذي : « فان البضع مابين الثلاث إلى التسع » .

(٤) ذكره بنحوه الطبري ٢١/١٧ والترمذي ٢/١٥٠ ، عن ابن عباس رضي الله عنهما . وقال الترمذي : هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه ، من حديث الزهري عن عبيد الله عن ابن عباس . ورواه الطبري عن عبد الله بن عمرو من قوله ، والله أعلم .

(٥) ذكر ذلك الطبري ٢١/١٦ .

في الخطر وأمُدْ في الأجَل إلى تسع سنين ، ففعلوا ، فقهرهم أبو بكر ، وأخذ رهانهم [١] .

وفي الذي تولّى وضع الرهان من المشركين قولان . أحدهما : أُبيْ بن خلف ، قاله قتادة . والثاني : أبو سفيان بن حرب ، قاله السدي .

قوله تعالى : (في أدنى الأرض) وقرأ أُبيْ بن كعب ، والضحاك ، وأبو رجاء ، وابن السميفع : « في أداني الأرض » بألف مفتوحة الدال ؛ أي : أقرب الأرض أرض الروم إلى فارس . قال ابن عباس : وهي طرف الشام .

وفي اسم هذا المكان ثلاثة أقوال . أحدها : أنه الجزيرة ، وهي أقرب أرض الروم إلى فارس ، قاله مجاهد . والثاني : أذْرِعات وكَسْكَر [٢] ، قاله عكرمة . والثالث : الأردنْ وفلسطين ، قاله السدي .

قوله تعالى : (وهم) يعني الروم (مِنْ بَعْدِ غَلَبِهم) وقرأ أبو الدرداء ، وأبو رجاء ، وعكرمة ، والأعمش : « غَلْبِهم » بتسكين اللام ؛ أي : من بعد غلبة فارس إيّاهم . والغَلَب والغَلَبة لغتان ، (سيَغْلِبون) فارس في بِضْع سنينَ) في البِضْع تسعة أقوال قد ذكرناها في (يوسف : ٤٢) قال المفسرون : وهي هاهنا سبع سنين ، وهذا من علم الغيب الذي يدل على أن القرآن حق ، (لله الأمر مِنْ قَبْلُ ومن بعدُ) أي : من قبل أن تُغلَب الروم ومِنْ بَعْد ما غَلبت ؛ والمعنى أن غَلَبة الغالب وخِذْلان المغلوب ، بأمر الله وقضائه

---

(١) ذكره بنحوه الطبري ١٨/٢١ .

(٢) قال ياقوت الحموي في « معجم البلدان » : كَسْكَرُ : معناه : عامل الزرع ، وهي كورة واسعة تنسب إليها الفراريج الكسكرية ، لأنها تكثر بها جداً ، وقال : قصبتها اليوم « واسط » القصبة التي بين الكوفة والبصرة ، وكانت قصبتها قبل أن يمصّر الحجّاج واسطاً : خسرو سابور . قال : وسميت كسكر بكسكر بن طهمورث الملك الذي هو أصل الفرس ، وقال آخرون : معنى كسكر : بلد الشعير ، بلغة أهل هراة .

(ويومئذ) يعني يوم غلبت الرومُ فارس (يَفرح المؤمنون بنصر الله) للروم . وكان التقاء الفريقين في السنة السابعة من غَلَبة فارس إيَّاهم ، فغلبتْهم الرُّوم ، وجاء جبريل يُخبر بنصر الروم على فارس ، فوافق ذلك يوم بدر ، وقيل : يوم الحديبية .

﴿ وَعْدَ اللهِ لا يُخْلِفُ اللهُ وَعْدَهُ وَلٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ . يَعْلَمُونَ ظَاهِراً مِنَ الحَيٰوةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ . أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ مَا خَلَقَ اللهُ السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُسَمًّى وَإِنَّ كَثِيراً مِنَ النَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ ﴾

قوله تعالى : (وَعْدَ الله) أي : وَعَدَ اللهُ ذلك وَعْداً (لا يُخْلِفُ اللهُ وَعْدَهُ) أنَّ الرُّوم يَظهرون على فارس (ولكنَّ أكثر النَّاس) يعني كفار مكة (لا يَعلمون) أن الله لا يُخْلِف وعده في ذلك .

ثم وصف كفار مكة ، فقال : (يَعْلَمون ظاهراً مِنَ الحياة الدُّنيا) قال عكرمة : هي المعايش . وقال الضحاك : يعلمون بنيان قصورها وتشقيق أنهارها . وقال الحسن : يعلمون متى زرعهم و [متى] حصادهم ، ولقد بلغ واللهِ مِنْ عِلْم أحدهم بالدنيا أنه ينقُر الدرهم بظُفره فيُخبرك بوزنه ولا يُحسن يصلّي .

قوله تعالى : (وهم عن الآخرة هم غافلون) لأنهم لا يؤمنون بها . قال الزجاج : وذِكْرهم ثانية يجري مجرى التوكيد ، كما تقول : زيد هو عالم ، وهو أوكد من قولك : زيد عالم .

قوله تعالى : (أوَلَمْ يَتفكَّروا في أنفُسهم) قال الزجاج : معناه : أولم يتفكروا فيعلموا ، فحذف « فيعلموا » لأن في الكلام دليلاً [عليه] . ومعنى (إلَّا بالحقِّ) :

إلّا للحق، أي: لإقامة الحق (وأجلٍ مسمّىً) وهو وقت الجزاء (وإنّ كثيراً من الناس بلقاء ربّهم لكافرون) المعنى: لكافرون بلقاء ربّهم، فقدّمت الباء، لأنها متصلة بـ « كافرون »؛ وما اتصل بخبر « إنّ » جاز أن يقدَّم قبل اللام، ولا يجوز أن تدخل اللام بعد مضي الخبر من غير خلاف بين النحويين، لايجوز أن تقول: إن زيداً كافرٌ لبالله، لأن اللام حقّها أن تدخل على الابتداء أو الخبر، أو بين الابتداء والخبر، لأنها تؤكّد الجملة. وقال مقاتل في قوله: (وأجَلٍ مسمّىً): للسموات والأرض أجَل ينتهيان إليه، وهو يوم القيامة، (وإنّ كثيراً مِنَ الناس) يعني كفار مكة (بِلقاء ربّهم) أي: بالبعث (لكافرون).

﴿ أوَلَمْ يَسِيرُوا فِي ٱلأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلٰكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ . ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاؤُا السُّوأَى أَنْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِؤُنَ . اللهُ يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ثُمَّ إلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾

قوله تعالى: (أوَلَمْ يَسيروا في الأرض) أي: أوَلَمْ يسافروا فينظروا مصارع الأمم قبلهم كيف أُهلكوا بتكذيبهم فيعتَبروا.

قوله تعالى: (وأثاروا الأرض) أي: قلبوها للزراعة، ومنه قيل للبقرة: مثيرة. وقرأ أُبيّ بن كعب، ومعاذ القارئ، وأبو حيوة: « وآثَرُوا الأرض » بمد الهمزة وفتح الثاء مرفوعة الراء، (وعَمَرُوها أكثرَ مِمَّا عَمَرُوها) أي: أكثر من عِمارة أهل مكة، لطول أعمار أولئك وشدة قوّتهم (وجاءتهم رسُلُهم بالبيِّنات) أي: بالدّلالات (فما كان الله ليَظْلِمهم) بتعذيبهم على غير ذنب

(ولكن كانوا أنفُسَهم يَظْلِمون) بالكفر والتكذيب ؛ ودلَّ هـذا على أنهم لم يؤمنوا فأُهلكوا .

ثم أخبر عن عاقبتهم فقال : (ثُمَّ كان عاقبةَ الذين أساؤوا السُّوأى) يعني الخَلَّة السيِّئة ؛ وفيها قولان . أحدها : أنها العذاب ، قاله الحسن . والثاني : جهنم ، قاله السدي .

قوله تعالى : (أن كذَّبوا) قال الفراء : معناه : لِأن كذَّبوا ، فلمَّا أُلقيت اللامُ كان نصباً . وقال الزجاج : لتكذيبهم بآيات الله واستهزائهم . وقيل : السُّوأى مصدر بمنزلة الإساءة ؛ فالمعنى : ثم كان التكذيب آخرَ أمرهم ، أي : ماتوا على ذلك ، كأنَّ الله تعالى جازاهم على إساءتهم أن طبع على قلوبهم حتى ماتوا على التكذيب عقوبةً لهم . وقال مكي بن أبي طالب النحوي : « عاقبةُ » اسم كان ، و « السُّوأى » خبرها ، و « أن كذَّبوا » مفعول من أجله ؛ ويجوز أن يكون « السُّوأى » مفعولة بـ « أساؤوا » ، و « أن كذَّبوا » خبر كان ؛ ومن نصب « عاقبةَ » جعلها خبر « كان » ، و « السُّوأى » اسمها ، ويجوز أن يكون « أن كذَّبوا » اسمها . وقرأ الأعمش : « أساؤوا السُّوء » برفع « السُّوءُ » .

قوله تعالى : (الله يبدأ الخَلْق ثم يُعيدُه) أي : يخلُقهم أوّلاً ، ثم يعيدهم بعد الموت أحياءً كما كانوا ، (ثُمَّ إليه تُرْجَعون) قرأ ابن كثير ، ونافع ، وابن عامر ، وحمزة ، والكسائي ، وحفص عن عاصم : « تُرْجَعون » بالتاء ؛ فعلى هذا يكون الكلام عائداً من الخبر إلى الخطاب وقرأ أبو عمرو ، وأبو بكر عن عاصم : بالياء ، لأن المتقدِّم ذِكْره غَيبة ، والمراد بذِكر الرجوع : الجزاءُ على الأعمال ، والخَلْق بمعنى المخلوقين ، وإنما قال : « يُعيده » على لفظ الخَلْق .

﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ . وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ مِنْ شُرَكَائِهِمْ شُفَعَاؤُا وَكَانُوا بِشُرَكَائِهِمْ كَافِرِينَ . وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ . فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ . وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ فَأُولَئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴾

قوله تعالى : (يُبْلِسُ المجرمون) قد شرحنا الإبلاس في (الأنعام : ٤٤) .

قوله تعالى : (وَلَمْ يكُن لهم من شركائهم) أي : [من] أوثانهم التي عبدوها (شفعاء) في القيامة (وكانوا بشركائهم كافرين) يتبرَّؤون منها وتتبرَّأ منهم .

قوله تعالى : (يومئذ يتفرَّقون) وذلك بعد الحساب ينصرف قوم إلى الجنة، وقوم إلى النار .

قوله تعالى : (فهُم في روضة) الرَّوضة : المكان المخضرُّ من الأرض ؛ وإنَّما خصَّ الروضة ، لأنها كانت أعجب الأشياء إلى العرب ؛ قال أبو عبيدة : ليس شيء عند العرب أحسنَ من الرياض المُعْشِبة ولا أطيبَ ريحاً ، قال الأعشى :

مَا رَوْضَةٌ مِنْ رِيَاضِ الحَزْنِ مُعْشِبَةٌ
خَضْرَاءُ جَادَ عَلَيْهَا مُسْبِلٌ هَطِلُ
يَوْماً بِأَطْيَبَ مِنْهَا نَشْرَ رَائِحَةٍ
وَلَا بِأَحْسَنَ مِنْهَا إِذْ دَنَا الأُصُلُ (١)

قال المفسرون : والمراد بالروضة : رياض الجنة .

وفي معنى « يُحْبَرون » أربعة أقوال .

(١) البيتان لأعشى قيس ، ديوانه : ٥٧ ، و « مجاز القرآن » : ٢/١٢٠ ، و « الطبري » : ٢١/٢٧ .

أحدها : يُكْرَمون ، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس .

والثاني : يَنعَمون ، قاله مجاهد ، وقتادة . قال الزجاج : والحَبْرَة في اللغة: كل نَغْمَة حسَنة .

والثالث : يفرحون ، قاله السدي . وقال ابن قتيبة : « يُحْبَرون » : يُسَرُّون ، والحَبْرَة : السُّرور .

والرابع : أن الحَبْر : السَّماع في الجنة ، فاذا أخذ أهل الجنة في السماع ، لم تبق شجرة إلّا وردَّدت ، قاله يحيى بن أبي كثير . وسئل يحيى بن معاذ : أيّ الأصوات أحسن ؟ فقال : مزامير أُنس ، في مقاصير قُدس ، بألحان تحميد ، في رياض تمجيد « في مَقْعَد صِدْقٍ عِنْدَ مَليكٍ مُقْتَدِر » [القمر : ٥٥] .

قوله تعالى : (فأولئك في العذاب مُحْضَرون) أي : هم حاضرون العذاب أبداً لايخفَّف عنهم .

﴿ فَسُبْحَانَ اللهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ . وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ . يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَيُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴾

ثم ذكر ماتُدْرَك به الجنة ويُتباعَد به من النار فقال : (فسُبحانَ الله حين تُمْسُونَ) قال المفسرون : المعنى : فصلُّوا لله حين تُمسون ، أي : حين تدخُلون في المساء (وحين تُصْبِحونَ) أي : تدخُلون في الصباح ، و (تُظْهِرونَ) تدخُلون في الظهيرة ، وهي وقت الزَّوال ، (وعشيّاً) أي : وسبِّحوه عشيّاً .

وهذه الآية قد جمعت الصلوات الخمس ، فقوله : « حين تُمسون » يعني [به]

صلاة المغرب والعشاء ، « وحين تصبحون » يعني به صلاة الفجر ، « وعشياً » العصر ، « وحين تُظهِرونَ » الظُّهر .

قولهتعالى : (وله الحمد في السموات والأرض) قال ابن عباس : يَحْمَده أهل السموات وأهل الأرض ويصلُّون له .

قولهتعالى : (يُخرِجُ الحيَّ من الميّت) فيه أقوال قد ذكرناها في (آل عمران : ٢٧) .

قولهتعالى : (ويُحيي الأرض بعد موتها) أي : يجعلها مُنْبِتة بعد أن كانت لاتُنْبِت ، وتلك حياتها (وكذلك تُخرَجون) قرأ ابن كثير ، ونافع ، وعاصم ، وأبو عمرو ، وابن عامر : « تُخْرَجون » بضم التاء ، وفتحها حمزة والكسائي ؛ والمراد : تخرجون يوم القيامة من الأرض ، أي : كما أحيا الأرض بالنبات يُحييكم بالبعث .

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ . وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجاً لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ . وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِلْعَالِمِينَ . وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ . وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفاً وَطَمَعاً وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُحْيِي بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ . وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ .

وَلَهُ مَنْ فِي السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضِ كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ . وَهُوَ الَّذِي يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الأَعْلَىٰ فِي السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ . ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلاً مِنْ أَنْفُسِكُمْ هَلْ لَكُمْ مِنْ مَامَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ شُرَكَاءَ فِي مَارَزَقْنَاكُمْ فَأَنْتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ . بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ فَمَنْ يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ ﴾

قوله تعالى : (ومِنْ آياته) أي : من دلائل قدرته (أنْ خلقكم من تراب) يعني آدم ، لأنه أصل البشر (ثُمَّ إذا أنتم بَشَرٌ) من لحم ودم ، يعني ذريته (تَنْتَشِرون) أي : تنبسطون في الأرض .

قوله تعالى : (أنْ خَلَق لكم من أنفُسكم أزواجاً) فيه قولان .

أحدهما : أنه يعني بذلك آدم ، خلق حوَّاء من ضِلعه ، وهو معنى قول قتادة .

والثاني : أن المعنى : جعل لكم آدميَّات مثلكم ، ولم يجعلهنَّ من غير جنسكم ، قاله الكلبي .

قوله تعالى : (لتسكُنوا إليها) أي : لتأْووا إلى الأزواج (وجعل بينكم مودَّةً ورحمة) وذلك أن الزوجين يتوادَّان ويتراحمان من غير رَحِم بينهما (إنَّ في ذلك) الذي ذكره من صنعه (لآياتٍ لقوم يتفكَّرون) في قدرة الله وعظمته .

قوله تعالى : (واختلافُ ألسنتكم) يعني اللغات من العربية والعجمية وغير ذلك (وألوانِكم) لأنَّ الخلق بين أسود وأبيض وأحمر ، وهم ولد رجل واحد وامرأة واحدة . وقيل : المراد باختلاف الألسنة : اختلاف النَّغَمات والأصوات ، حتى إنه لايشتبه صوت أخوين من أب وأم والمراد باختلاف الألوان : اختلاف

الصُّوَر ، فلا تشتبه صورتان مع التشاكل (إِنَّ في ذلك لآيات للعالِمين) قرأ ابن كثير ، ونافع ، وأبو عمرو ، وابن عامر ، وحمزة ، [والكسائي] ، وأبو بكر عن عاصم : « للعالَمين » بفتح اللام . وقرأ حفص عن عاصم : « للعالِمين » بكسر اللام .

قوله تعالى : (ومن آياته منامُكم بالليل والنهار) أي : نومكم . قال أبو عبيدة : المنام من مصادر النَّوم ، بمنزلة قام يقوم قِياماً ومَقاماً ، وقال يقول مَقالاً . قال المفسرون : وتقدير الآية : منامكم بالليل (وابتغاؤكم من فضله) وهو طلب الرزق بالنهار (إِنَّ في ذلك لآيات لقوم يسمعون) سماع اعتبار [وتذكُّر] وتدبُّر . (ومن آياته يُريكم البرق) قال اللغويون : إِنَّما حذف « أنْ » لدلالة الكلام عليه ، وأنشدوا :

[وما الدَّهْرُ إِلَّا تارتان فتارةً أموتُ وأُخرى أبتغي العَيْش أكدحُ[1]

ومعناه : فتارة أموت فيها] ، وقال طرفة :

ألا أيُّهَذَا الزَّاجِرِي أحْضُرَ الوَغَى

[وأن أشهد اللَّذَّاتِ هل أنتَ مُخْلِدي][2]

أراد : أن أحضر . وقد شرحنا معنى الخوف والطمع في رؤية البَرْق في سورة (الرعد : ١٢) .

قوله تعالى : (أن تقوم السماء والأرض) أي : تدوما قائمتين (بأمره) (ثم إذا دعاكم دعوةً) وهي نفخة إسرافيل الأخيرة في الصُّور بأمر الله عز وجل

---

(١) البيت لتميم بن مقبل ، وقد سبق تخريجه في ج ٢ ص ٩٩ ، وهو أيضاً في « الطبري » : ٣٣/٢١ ، و « البحر » : ١٦٧/٧ ، و « روح المعاني » : ٢٩/٢١ ، و « اللسان » ، و « التاج » : كدح .

(٢) البيت لطرفة بن عبد البكري من معلقته ، وهو في « الطبري » : ٣٣/٢١ ، و « روح المعاني » : ٢٩/٢١ ، و « مختار الشعر الجاهلي » : ٣١٧/١ .

(من الأرض) أي : من قبوركم (إذا أنتم تَخرُجون) منها . وما بعد هذا قد سبق بيانه [البقرة : ١١٦ ، العنكبوت : ١٩] إلى قوله : (وهو أهونُ عليه) وفيه أربعة أقوال .

أحدها : أن الإعادة أهون عليه من البداية ، وكُلٌّ هيِّنٌ عليه ، قاله مجاهد ، وأبو العالية .

والثاني : أن « أهون » بمعنى « هيِّن » ، فالمعنى : وهو هيِّن عليه ، وقد يوضع « أفعل » في موضع « فاعل » ، ومثله قولهم في الأذان : الله أكبر ، أي : الله كبير ، قال الفرزدق :

إنَّ الَّذي سَمَكَ السَّماءَ بَنى لَنا بَيْتاً دعائِمُهُ أعَزُّ وأطْوَلُ [١]

وقال معن بن أوس المزني :

لَعَمْرُكَ ما أدْرِي وإنِّي لأوْجَلُ على أيِّنا تَغْدُو المَنيَّةُ أوَّلُ [٢]

أي : وإنِّي لَوَجِل ، وقال غيره :

أصبحتُ أمنحُكَ الصُّدودَ وإنَّني قسماً إليك مع الصُّدود لأمْيَلُ [٣]

وأنشدوا أيضاً :

(١) ديوانه : ٧١٤ ، و « مجاز القرآن » : ٢/١٢١ ، و « الطبري » : ٢١/٣٧ ، و « الكامل » : ٦٩٧ .

(٢) البيت في « الطبري » : ٢١/٣٧ ، و « الحماسة البصرية » ١٤٢ ، و « الكامل » : ٦٩٦ ، و « لباب الآداب » : ٣٩٩ . قال الشيخ أحمد محمد شاكر في تعليقه على « لباب الآداب » : و « تغدو » بالغين المعجمة في الروايات كلها ، وحكى التبريزي أن في رواية : « تعدو » بالعين المهملة . اهـ .

(٣) البيت للأحوص ، وهو في « مجاز القرآن » : ٢/١٢١ ، و « القرطبي » : ١٤/٢١ ، و « الخزانة » : ١/٢٤٨ ، و « الكتاب » : ١/١٩٠ ، و « السمط » : ٢٥٩ . وكان الشطر الثاني من البيت في الأصل : « قسم إليك مع الصدود لأميل » . قال الشنتمري في « الكتاب » في تعليقه على البيت : الشاهد فيه نصب قوله : « قسماً » ، ونصبه على المصدر المؤكد لما قبله من الكلام الدال على القسم ، لأنه لما قال : « إني لأمنحك الصدود ، وإني إليك لأميل » علم أنه محقق مقسم ، فقال : « قسماً » مؤكداً لذلك . اهـ .

تَمَنَّى رِجالٌ أنْ أموتَ وإنْ أمُتْ   فَتِلكَ سَبيلٌ لَسْتُ فِيها بأَوْحَدِ [١]

أي : بواحد ، هذا قول أبي عبيدة ، وهو مروي عن الحسن ، وقتادة . و [قد]قرأ أُبيُّ بن كعب ، وأبو عمران الجوني ، وجعفر بن محمد : « وهو هَيِّن عليه » .

والثالث : أنه خاطب العباد بما يعقلون ، فأعلمهم أنه يجب أن يكون عندهم البعث أسهل من الابتداء في تقديرهم وحُكمهم ، فمن قَدَرَ على الإنشاء كان البعثُ أهونَ عليه ، هذا اختيار الفراء ، والمبرد ، والزجاج ، وهو قول مقاتل . وعلى هذه الأقوال الثلاثة تكون الهاء في « عليه » عائدة إلى الله تعالى .

والرابع : أن الهاء تعود على المخلوق ، لأنه خلَقه نطفة ثم علقة ثم مضغة ، ويوم القيامة يقول له كن فيكون ، رواه أبو صالح عن ابن عباس ، وهو اختيار قطرب .

قوله تعالى : (وله المَثَلُ الأعلى) قال المفسرون : أي : له الصِّفة العُليا (في السموات والأرض) وهي أنَّه لا إله غيره .

قوله تعالى : (ضَرَبَ لكم مَثَلاً) سبب نزولها أن أهل الجاهلية كانوا يلبُّون فيقولون : لبيك لا شريك لك إلا شريكاً هو لك تملكُه وما ملك ، فنزلت هذه الآية ، قاله سعيد بن جبير ، ومقاتل [٢] . ومعنى الآية : بيَّن لكم أيها المشركون شَبَهاً ، وذلك الشَّبه (من أنفُسكم) ، ثم بيَّنه فقال : (هل لكم ممَّا ملكت أيمانُكم) أي : من عبيدكم (من شركاءَ فيما رزقناكم) من المال والأهل والعبيد ، أي : هل يشاركُكم عبيدكم في أموالكم (فأنتم فيه سواء) أي : أنتم

(١) البيت في « مجاز القرآن » : ٢/١٦ ، و « الطبري » : ٢١/٣٧ ، و « القرطبي » : ١٤/٢١ ، و « التاج » : وحد .

(٢) ذكره ابن كثير من رواية أبي القاسم الطبراني عن ابن عباس رضي الله عنهما ، وفي سنده ضعف ، وأورده السيوطي في « الدر » ٥/١٥٥ وزاد نسبته لابن مردويه عن ابن عباس رضي الله عنهما .

وشركاؤكم من عبيدكم سواء (تخافونهم كخيفتكم أنفسكم) أي : كما تخافون أمثالكم من الأحرار ، وأقرباءكم كالآباء والأبناء ؟ قال ابن عباس : تخافونهم أن يرثوكم كما يرث بعضكم بعضاً ؟ وقال غيره : تخافونهم أن يقاسموكم أموالكم كما يفعل الشركاء ؟ والمعنى : هل يرضى أحدكم أن يكون عبده شريكه في ماله وأهله حتى يساويه في التصرف في ذلك ، فهو يخاف أن ينفرد في ماله بأمر يتصرف فيه كما يخاف غيره من الشركاء الأحرار ؟ ! فاذا لم ترضوا ذلك لأنفسكم ، فلم عدلتم بي من خلقي من هو مملوك لي ؟ ! (كذلك) أي : كما بيَّنَّا هذا المَثل (نفصِّل الآيات لقوم يعقلون) عن الله . ثم بيَّن أنَّهم إنَّما اتَّبعوا الهوى في إشراكهم ، فقال : (بل اتَّبع الذين ظلموا) أي : أشركوا بالله (أهواءهم بغير علم فمن يهدي من أضلَّ اللهُ) وهذا يدل على أنهم إنما أشركوا باضلال الله إيَّاهم (وما لهم من ناصرين) أي : مانعين من عذاب الله .

﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَتَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ . مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَوٰةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ . مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعاً كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ . وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُمْ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا أَذَاقَهُمْ مِنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ . لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ . أَمْ أَنْزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَاناً فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ . وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ

أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ . أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ . فَآتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللهِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾

قوله تعالى : (فأقم وجهك) قال مقاتل : أخلص دينك الإسلام (الدِّين) أي : للتوحيد . وقال أبو سليمان الدمشقي : استقم بدينك نحو الجهة التي وجَّهك اللهُ إليها . وقال غيره : سدِّد عملك . والوجه : ما يُتَوجَّه إليه ، وعمل الإنسان ودينه : ما يتوجَّه إليه لتسديده وإقامته .

قوله تعالى : (حنيفاً) قال الزجاج : الحنيف : الذي يميل إلى الشيء ولا يرجع عنه ، كالحَنَف في الرِّجل ، وهو ميلها إلى خارجها خِلْقة ، لا يقدر الأحنف أن يردَّ حَنَفه . وقوله : (فطرةَ الله) منصوب بمعنى : اتَّبِع فطرةَ الله ، لأن معنى « فأقم وجهك » : اتَّبِع الدِّين القيِّم ، واتَّبع فطرة الله ، أي : دين الله . والفطرة : الخِلْقة التي خَلَق اللهُ عليها البشر . وكذلك قوله عليه السلام : « كل مولود يولد على الفطرة »[1] ، أي : على الإيمان بالله . وقال مجاهد في قوله : (فطرة الله التي فطر الناسَ عليها) قال : الإسلام ، وكذلك قال قتادة . والذي

---

(١) رواه البخاري في « صحيحه » : ٣/١٩٧ عن أبي هريرة رضي الله عنه ، ولفظه بتمامه : « كل مولود يولد على الفطرة ، فأبواه يهوِّدانه ، أو ينصِّرانه ، أو يمجِّسانه ، كمثل البهيمة تُنتَج البهيمة ، هل ترى فيها جدعاء » وذكره السيوطي في « الجامع الصغير » بلفظ « كل مولود يولد على الفطرة ، حتى يُعْرِب عنه لسانه ، فأبواه يهودانه ، أو ينصِّرانه ، أو يمجِّسانه » وعزاه لأبي يعلى في « مسنده » ، والطبراني في « الكبير » والبيهقي في « السنن » عن الأسود بن سريع . ورواه البخاري ٣/١٧٦ ومسلم ٤/٢٠٤٧ عن أبي هريرة رضي الله عنه بلفظ : « مامن مولود إلا يولد على الفطرة ... » الحديث ، ولفظه في مسلم بتمامه : « مامن مولود إلا يولد على الفطرة ، فأبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه ، كما تُنتَج البهيمة بهيمة جمعاء ، ــــ

أشار إليه الزجاج أصح ، وإليه ذهب ابن قتيبة ، فقال : فرقٌ ما بيننا وبين أهل القَدَر في هذا الحديث ، أن الفطرة عندهم : الإسلام ، والفطرة عندنا : الإقرار بالله والمعرفة به ، لا الإسلام ، ومعنى الفطرة : ابتداء الخِلقة ، والكل أقرُّوا حين قوله : (ألستُ بربِّكم ؟ قالوا بلى) [الأعراف : ١٧٢] ولستَ واجداً أحداً إلا وهو مُقِرّ بأنّ له صانعاً ومدبِّراً وإن عبد شيئاً دونه وسمَّاه بغير اسمه ؛ فمعنى الحديث : إن كل مولود في العالَم على ذلك العهد وذلك الإقرار الأول ، وهو الفطرة ، ثم يهوِّد اليهودُ أبناءهم ، أي : يعلِّمونهم ذلك ، وليس الإقرار الأول ممَّا يقع به حُكم ولا ثواب ؛ وقد ذكر نحو هذا أبو بكر الأثرم ، واستدل عليه بأن الناس أجمعوا على أنه لا يرث المسلمُ الكافرَ ، ولا الكافرُ المسلمَ ، ثم أجمعوا على أن اليهوديَّ إذا مات له ولد صغير ورثه ، وكذلك النصراني والمجوسي ، ولو كان معنى الفطرة الإسلام ، ماورثه إلا المسلمون ، ولا دُفن إلا معهم ؛ وإنما أراد بقوله عليه السلام : « كل مولود يولد على الفطرة » أي : على تلك البداية التي أقرُّوا له فيها بالوحدانية حين أخذهم مِن صُلْب آدم ، فمنهم من جحد ذلك بعد إقراره [١] . ومثل هذا الحديث

ـــــ هل تحِسُّون فيها من جدعاء ، ثم يقول أبو هريرة : واقرؤوا إن شئتم : (فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ...) الآية . وأورده السيوطي في « الدر » بهذا اللفظ ٥/١٥٥ وزاد نسبته ، لابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وابن مردويه عن أبي هريرة رضي الله عنه .

(١) قال الحافظ ابن حجر في « الفتح » ٣/١٩٧ : وقد اختلف السلف في المراد بالفطرة في هذا الحديث على أقوال كثيرة ، ثم قال : وأشهر الأقوال أن المراد بالفطرة : الاسلام ، قال : قال ابن عبد البر : وهو المعروف عند عامة السلف ، وأجمع أهل العلم بالتأويل على أن المراد بقوله تعالى : (فطرة الله التي فطر الناس عليها) : الاسلام ، واحتجوا بقول أبي هريرة في آخر حديث الباب : اقرؤوا إن شئتم : (فطرة الله التي فطر الناس عليها) ، وبحديث عياض ابن حمار عن النبي ﷺ فيما يرويه عن ربه : « إني خلقت عبادي حنفاء كلَّهم فاجتالتهم الشياطين عن دينهم ... » الحديث ، وقد رواه غيره فزاد فيه « حنفاء مسلمين » ورجحه ـــــ

حديث عياض بن حمار عن النبي ﷺ قال : « قال الله عز وجل : إني خلقتُ عبادي حنفاء »[1] ، وذلك أنه لم يدعُهم يوم الميثاق إلا إلى حرف واحد ، فأجابوه .

قوله تعالى : (لاتبديل لخلق الله) لفظه لفظ النفي ، ومعناه النهي ؛ والتقدير : لاتبدّلوا خلق الله . وفيه قولان . أحدهما : أنه خِصاء البهائم ، قاله عمر بن الخطاب رضي الله عنه . والثاني : دين الله ، قاله مجاهد ، وسعيد بن جبير ، وقتادة ، والنخعي في آخرين . وعن ابن عباس وعكرمة كالقولين .

قوله تعالى : (ذلك الدّينُ القيّم) يعني التوحيد المستقيم (ولكنّ أكثر الناس) يعني كفار مكة (لايعلمون) توحيد الله .

--- بعض المتأخرين بقوله تعالى : (فطرة الله) ، لأنها إضافة مدح ، وقد أمر نبيه بلزومها ، فعلم أنها الاسلام . وقال الحافظ : وقد قال أحمد : من مات أبواه وهما كافران حكم باسلامه ، واستدل بحديث الباب ، فدلَّ على أنه فسر الفطرة بالاسلام ، قال : وحكى محمد بن نصر أن آخر قولَي أحمد ، أن المراد بالفطرة : الاسلام ، ثم قال : وقال ابن القيم : سبب اختلاف العلماء في معنى الفطرة في هذا الحديث ، أن القدرية كان يحتجون به على أن الكفر والمعصية ليسا بقضاء الله ، بل مما ابتدأ الناس إحداثه ، فحاول جماعة من العلماء مخالفتهم بتأويل الفطرة على غير معنى الاسلام ، ولا حاجة لذلك ، لأن الآثار المنقولة عن السلف تدل على أنهم لم يفهموا من لفظ الفطرة إلا الاسلام ، ولا يلزم من حملها على ذلك موافقة مذهب القدرية ، لأن قوله : « فأبواه يهودانه . . . » الخ ، محمول على أن ذلك يقع بتقدير الله تعالى ، ومن ثم احتج عليهم مالك بقوله في آخر الحديث : « الله أعلم بما كانوا عاملين » . اهـ .

(١) هو جزء من حديث طويل رواه مسلم في « صحيحه » ٤/٢١٩٧ عن عياض بن حمار المجاشعي أن رسول الله ﷺ قال ذات يوم في خطبته : « ألا إن ربي أمرني أن أعلمكم ماجهلتم مما علّمني يومي هذا : كل مال نحلته عبداً ، حلال (أي : قال الله : كل مال... الخ) وإني خلقت عبادي حنفاء كلّهم ، وإنهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم وحرّمتْ عليهم ماأحللتُ لهم وأمرتْهم أن يشركوا بي مالم أنزلْ به سلطاناً ، وإن الله نظر إلى أهل الأرض فمقتهم عربَهم وعجمَهم ، إلا بقايا من أهل الكتاب (المراد بهم : الباقون على التمسك بدينهم الحق من غير تبديل) ، وقال : إنما بعثتك لأبتليَك وأبتليَ بك . . . » الحديث .

قوله تعالى : (مُنيبِين إليه) قال الزجاج : زعم جميع النحويين أن معنى هذا : فأقيموا وجوهكم منيبين ، لأن مخاطبة النبي ﷺ تدخل معه فيها الأُمَّة ومعنى « منيبين » : راجعين إليه في كل ما أمر ، فلا يخرجون عن شيء من أمره .

وما بعد هذا قد سبق تفسيره [البقرة : ٣ ، الأنعام : ١٥٩] إلى قوله : (وإذا مَسَّ الناسَ ضُرٌّ دَعَوْا ربَّهم مُنيبِين إليه ثم إذا أذاقهم منه رحمةً) وفيه قولان . أحدهما : أنه القحط ، والرحمة : المطر . والثاني : أنه البلاء ، والرحمة : العافية ، (إذا فريق منهم) وهم المشركون . والمعنى : إن الكل يلتجؤون إليه في شدائدهم ، ولا يلتفت المشركون حينئذ إلى أوثانهم .

قوله تعالى : (لِيَكفُروا بما آتيناهم) قد شرحناه في آخر (العنكبوت : ٦٧) ، وقوله : (فتَمتَّعوا) خطاب لهم بعد الإخبار عنهم .

قوله تعالى : (أم أنزَلْنا عليهم) أي : على هؤلاء المشركين (سُلطاناً) أي : حُجَّه وكتاباً من السماء (فهو يتكلَّم بما كانوا به يُشْرِكون) أي : يأمرهم بالشِّرك ؟ ! وهذا استفهام إنكار ، معناه : ليس الأمر كذلك .

قوله تعالى : (وإذا أذقنا الناس) قال مقاتل : يعني كفار مكة (رحمةً) وهي المطر . والسيِّئة : الجوع والقحط . وقال ابن قتيبة : الرحمة : النعمة ، والسيِّئة : المصيبة . قال المفسرون : وهذا الفرح المذكور هاهنا ، هو فرح البطر الذي لاشُكر فيه ، والقنوط : اليأس من فضل الله ، وهو خلاف وصف المؤمن ، فانه يشكر عند النعمة ، ويرجو عند الشدة ؛ وقد شرحناه في (بني إسرائيل : ٢٦) إلى قوله : (ذلك) يعني إعطاء الحق (خير) أي : أفضل من الإمساك (للذين يريدون وجه الله) أي : يطلُبون بأعمالهم ثواب الله .

﴿ وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ رِبًا لِيَرْبُوَا فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلاَ يَرْبُوا عِنْدَ اللهِ وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ زَكوٰةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللهِ فَأُولئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ . اللهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَفْعَلُ مِنْ ذٰلِكُمْ مِنْ شَيْءٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾

قوله تعالى : (وما آتيتم من رِباً) في هذه الآية أربعة أقوال .

أحدها : أن الرِّبا هاهنا : أن يُهدي الرجل الرجل الشيء يقصد أن يُثيبه عليه أكثر من ذلك ، هذا قول ابن عباس ، وسعيد بن جبير ، ومجاهد ، وطاووس ، [والضحاك] ، وقتادة ، والقرظي . قال الضحاك : فهذا ليس فيه أجر ولا وزر . وقال قتادة : ذلك الذي لا يَقبله الله ولا يَجزي به ، وليس فيه وِزْر .

والثاني : أنه الرِّبا المحرَّم ، قاله الحسن البصري .

والثالث : أن الرجل يُعطي قرابته المال ليصير به غنيّاً ، لا يقصد بذلك ثواب الله تعالى ، قاله إبراهيم النخعي .

والرابع : أنه الرجل يُعطي من يخدمه لأجل خدمته ، لا لأجل الله تعالى ، قاله الشعبي .

قوله تعالى : (لِيَرْبُوَ في أموال الناس) وقرأ نافع ، ويعقوب : [« لتَرْبوْ »] بالتاء وسكون الواو ، أي : [في] اجتلاب أموال الناس ، واجتذابها (فلا يربو عند الله) أي : لا يزكو ولا يضاعَف ، لأنكم قصدتم زيادة العِوَض ، ولم تقصُدوا القُربة .

(وما آتيتم من زكاة) أي : ما أعطيتم من صدقة لا تطلبون بها المكافأة ،

إنما تريدون بها ما عند الله ، (فأولئك هم المُضْعِفُونَ) قال ابن قتيبة : الذين يجدون التضعيف والزيادة . وقال الزجاج : أي : ذوو الأضعاف من الحسنات ، كما يقال : رجل مُقْوٍ ، أي : صاحب قُوَّة ، ومُوسِر : صاحب يسار .

﴿ ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ . قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلُ كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُشْرِكِينَ . فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللهِ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ ﴾

قوله تعالى : (ظَهَرَ الفسادُ في البَرِّ والبحر) في هذا الفساد أربعة أقوال . أحدها : نقصان البَرَكة ، قاله ابن عباس . والثاني : ارتكاب المعاصي ، قاله أبو العالية . والثالث : الشِّرك ، قاله قتادة ، والسدي . والرابع : قحط المطر ، قاله عطية .

فأما البَرّ . فقال ابن عباس : البَرُّ : البرِّيَّة التي ليس عندها نهر .

وفي البحر قولان .

أحدهما : أنه ما كان من المدائن والقرى على شطِّ نهر ، قاله ابن عباس . وقال عكرمة : لا أقول : بحرُكم هذا ، ولكن كل قرية عامرة . وقال قتادة : المراد بالبَرِّ : أهل البوادي ، وبالبحر : أهل القرى . وقال الزجاج : المراد بالبحر : مدن البحر التي على الأنهار ، وكل ذي ماء فهو بحر .

والثاني : أن البحر : الماء المعروف . قال مجاهد : ظهور الفساد في البر : قتل

ابن آدم أخاه، وفي البحر: مَلِك جائر يأخذ كل سفينة غصباً [١]. وقيل لعطيَّة: أيّ فساد في البحر؟ فقال: إذا قلَّ المطر قلَّ الغَوص.

قوله تعالى: (بما كسبتْ أيدي الناس) أي: بما عملوا من المعاصي (لِيُذيقَهم) وقرأ أبو عبد الرحمن السلمي، وعكرمة، وقتادة، وابن محيصن، وروح [عن يعقوب]، وقنبل عن ابن كثير: «لِنُذيقَهم» بالنون (بعضَ الذي عَمِلوا) أي: جزاء بعض أعمالهم؛ فالقحط جزاء، ونقصان البركة جزاء، ووقوع المعصية منهم جزاء معجَّل لمعاصيهم أيضاً.

قوله تعالى: (لعلَّهم يَرجِعونَ) في المشار إليهم قولان.

أحدها: أنهم الذين أُذيقوا الجزاء. ثم في معنى رجوعهم قولان. أحدهما: يرجعون عن المعاصي، قاله أبو العالية. والثاني: يرجعون إلى الحق، قاله إبراهيم.

والثاني: أنهم الذين يأتون بعدهم؛ فالمعنى: لعلَّه يرجع مَنْ بعدَهُم، قاله الحسن.

قوله تعالى: (قُل سيروا في الأرض) أي: سافِروا (فانظروا كيف كان عاقبةُ الذين مِنْ قَبْلُ) أي: الذين كانوا قبلكم؛ والمعنى: انظروا إلى مساكنهم وآثارهم (كان أكثرهم مشركين) المعنى: فأُهلكوا بشِركهم [٢].

---

(١) قال ابن جرير الطبري: وأولى الأقوال في ذلك بالصواب: أن الله تعالى ذِكْره، أخبر أن الفساد قد ظهر في البر والبحر، والبرُّ عند العرب: الأرض القفار، والبحر بحران: بحر ملح، وبحر عذب، فهما جميعاً عندهم بحر، ولم يخصص جل ثناؤه الخبر عن ظهور ذلك في بحر دون بحر، فذلك على ما وقع عليه اسم بحر، عذباً كان أو ملحاً، وإذا كان ذلك كذلك، دخل القرى التي على الأنهار والبحار، فتأويل الكلام إذن: إذ كان الأمر كما وصفت، ظهرت معاصي الله في كل مكان من برٍّ وبحر بما كسبت أيدي الناس، أي: بذنوب الناس، وانتشر الظلم فيهما. اهـ.

(٢) قال ابن جرير الطبري: يقول تعالى ذِكْره لنبيه محمد ﷺ: قل يا محمد لهؤلاء —

(فأَقم وجهك للدِّين) أي : أقم قصدك لاتبّاع الدِّين (القيِّم) وهو الإسلام المستقيم (مِنْ قَبْلِ أن يأتيَ يومٌ لامَرَدَّ له من الله) يعني [يوم] القيامة لايقدر أحد على رد ذلك اليوم ، لأن الله تعالى قد قضى كونه (يَومَئِذٍ يَصَّدَّعون) أي : يتفرَّقون إلى الجنة والنار .

﴿ مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَمَنْ عَمِلَ صَالِحاً فَلأَنْفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ . لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ لايُحِبُّ الْكَافِرِينَ ﴾

(من كَفَرَ فعليه كُفره) أي : جزاء كفره (ومن عمل صالحاً فلأنفُسهم يَمْهَدُونَ) أي : يُوَطِّئُون . وقال مجاهد : يسوُّون المضاجع في القبور ، قال أبو عبيدة : « مَنْ » يقع على الواحد والاثنين والجمع من المذكَّر والمؤنَّث ، ومجازها هاهنا مجاز الجميع ، و « يَمْهَد » بمعنى يكتسب ويعمل ويستمدّ .

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ يُرْسِلَ الرِّيَاحَ مُبَشِّرَاتٍ وَلِيُذِيقَكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَلِتَجْرِيَ الْفُلْكُ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ . وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ رُسُلاً إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاؤُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَانْتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا وَكَانَ حَقّاً عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾

قوله تعالى : (ومن آياته أن يُرْسِلَ الرياح مبشِّراتٍ) تبشِّر بالمطر

ـــ المشركين بالله من قومك : سيروا في البلاد ، فانظروا إلى مساكن الذين كفروا بالله مِن قبلكم ، وكذَّبوا رسله ، كيف كان آخر أمرهم وعاقبة تكذيبهم رسلَ الله وكفرهم ، ألم نهلكهم بعذاب منا ، ونجعلهم عبرة لمن بعدهم ؟! كان أكثرهم مشركين ، يقول : فعلنا ذلك بهم ، لأن أكثرهم كانوا مشركين بالله مثلهم . اهـ .

(وليُذيقكم مِنْ رحمته) وهو الغيث والخصب (ولِتَجريَ الفُلْكُ) في البحر بتلك الرياح (بأمره) (ولِتَبتغوا) بالتجارة في البحر (مِنْ فضله) وهو الرزق ؛ وكلٌّ هذا بالرياح .

قوله تعالى : (فجاؤوهم بالبيّنات) أي : بالدلالات على صدقهم (فانتقمنا من الذين أجرموا) أي : عذّبْنا الذين كذّبوهم (وكان حقّاً علينا) أي : واجباً هو أوجبه على نفسه (نصرُ المؤمنين) إنجاؤهم مع الرُّسل من عذاب المكذّبين .

﴿ اللهُ الَّذي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَاباً فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسَفاً فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلاَلِهِ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ . وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمُبْلِسِينَ . فَانْظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَتِ اللهِ كَيْفَ يُحْيِي الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ . وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحاً فَرَأَوْهُ مُصْفَرّاً لَظَلُّوا مِنْ بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ . فَإِنَّكَ لاَ تُسْمِعُ الْمَوْتَى وَلاَ تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ . وَمَا أَنْتَ بِهَادِ الْعُمْيِ عَنْ ضَلاَلَتِهِمْ إِنْ تُسْمِعُ إِلاَّ مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ . اللهُ الَّذي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفاً وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَايَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ . وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَالَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ . وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللهِ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ

﴿ فَهَٰذَا يَوْمُ الْبَعْثِ وَلَٰكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ . فَيَوْمَئِذٍ لَّا يَنفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَعْذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴾

قوله تعالى : (يُرْسِلُ الرِّيَاح) وقرأ ابن مسعود ، وأبو رجاء ، والنخعي ، وطلحة بن مصرِّف ، والأعمش : « يُرْسِلُ الرِّيح » بغير ألف .

قوله تعالى : (فتُثير سحاباً) أي : تُزعجه (فيَبْسُطُهُ) الله (في السماء كيف يشاء) إن شاء بسطه مسيرة يوم أو يومين أو أقل أو أكثر (ويجعلُه كِسَفاً) أي : قِطعاً متفرّقة . والأكثرون فتحوا سين « كِسَفاً » ؛ وقرأ أبو رزين ، وقتادة ، وابن عامر ، وأبو جعفر ، وابن أبي عبلة : بتسكينها ؛ قال أبو علي : يمكن أن يكون مثل سِدْرَة وسِدَر ، فيكون معنى القراءتين واحداً (فترى الوَدْق يخرُج مِن خِلاَله) وقرأ ابن مسعود ، وابن عباس ، ومجاهد ، وأبو العالية : « مِن خَلَلِه » ؛ وقد شرحناه في (النور : ٤٣) (فاذا أصاب به) أي : بالوَدْق ؛ ومعنى (يَستبشِرون) يفرحون بالمطر ، (وإن كانوا مِنْ قَبْلِ أن يُنَزَّل عليهم) المطر (مِنْ قَبْله)) وفي هذا التكرير ثلاثة أقوال .

أحدها : أنه للتأكيد ، كقوله : (فسجد الملائكة كلُّهم أجمعون) [الحجر: ٣٠] ، قاله الأخفش في آخرين .

والثاني : أن « قَبْل » الأولى للتنزيل ، والثانية للمطر ، قاله قطرب . قال ابن الأنباري : والمعنى : مِنْ قَبْل نزول المطر ، مِنْ قَبْل المطر ، وهذا مثلما يقول القائل : آتيك من قبل أن تتكلم ، من قبل أن تطمئن في مجلسك ، فلا تُنكَر الإعادة ، لاختلاف الشيئين .

والثالث : أن الهاء في قوله : « مِنْ قَبْله » ترجع إلى الهُدى وإن لم يتقدَّم له ذِكْر ، فيكون المعنى : كانوا يقنَطون من قبل نزول المطر ، من قبل الهُدى ،

فلمَّا جاء الهُدى والإسلام زال القُنوط، ذكره ابن الأنباري عن أبي عُمر الدُّوري وأبي جعفر بن قادم. والمبلسون: الآيسون وقد سبق الكلام في هذا [الأنعام: ٤٤] .

(فانظُر إلى آثار رحمة الله) قرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وأبو بكر عن عاصم: « إلى أثَر » . وقرأ ابن عامر، وحمزة، والكسائي، وحفص عن عاصم: « إلى آثار » على الجمع. والمراد بالرحمة هاهنا: المطر، وأثرها: النبت؛ والمعنى: انظر إلى حسن تأثيره في الأرض (كيف يُحيي الأرض) أي: كيف يجعلها تُنبت بعد أن لم يكن فيها نبت. وقرأ عثمان بن عفان، وأبو رجاء، وأبو عمران الجوني، وسليمان التيمي. « كيف تُحيِي » بتاء مرفوعة مكسورة الياء « الأرضَ » بفتح الضاد.

قوله تعالى: (ولئن أرسلْنا ريحاً) [أي: ريحاً] باردة مُضِرَّة، والريح إذا أتت على لفظ الواحد أُريدَ بها العذاب، ولهذا كان رسول الله ﷺ يقول عند هبوب الريح: « اللهم اجعلها رياحاً ولا تجعلها ريحاً » [1] (فرأوه مُصْفَرّاً)

---

(١) قال الامام النووي في « الأذكار » : وروى الامام الشافعي رحمه الله في كتابه « الأم » بإسناده عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: ماهبَّت الريح إلا جثا النبي ﷺ على ركبتيه وقال: « اللهم اجعلها رحمة، ولا تجعلها عذاباً، اللهم اجعلها رياحاً، ولا تجعلها ريحاً ... » . وقال الشيخ محمد بن علان الصديقي الشافعي في كتابه « الفتوحات الربانية على الأذكار النواوية » في هذا الحديث: قال الحافظ: « أي ابن حجر » بعد تخريجه: هذا حديث حسن. أخرجه البيهقي في « المعرفة » ، قال: وشيخ الشافعي ماعرفته، وكنت أظنه ابن يحيى، لكن لم يذكروه في الرواة عن العلاء بن راشد، والعلاء موثق، قال الحافظ: لابن عباس حديث آخر، ثم أخرج من طريق الطبراني في كتاب « الدعاء » أيضاً عن ابن عباس قال: كان رسول الله ﷺ إذا هاجت الريح استقبلها وجثا على ركبتيه وقال: « اللهم اجعلها ... الخ » فذكر الحديث مثله إلى قوله: « ريحاً » وزاد « اللهم إني أسألك من خير هذه الريح، وخير ما تُرسل به، وأعوذ بك من شرها وما تُرسل به » قال الحافظ: أخرجه ـــ

يعني النبت ، والهاء عائدة إلى الأثر . قال الزجاج : المعنى : فرأوُا النبت قد اصفرّ وجفّ (لظلّوا مِنْ بَعده يكفُرونَ) ومعناه : ليَظَلّنّ ، لأن معنى الكلام الشرط والجزاء ، فهم يستبشرون بالغيث ، ويكفرون إذا انقطع عنهم الغيث وجفّ النبت . وقال غيره : المراد برحمة الله : المطر . و « ظلّوا » بمعنى صاروا « من بعده » أي : من بعد اصفرار النبت يجحدون ماسلف من النّعمة . وما بعد هذا مفسَّر في سورة (النمل : ٨٠ ، ٨١) إلى قوله : (اللهُ الذي خلقكم من ضَعْف) وقد ذكرنا الكلام فيه في (الأنفال : : ٦٦) ، قال المفسرون : المعنى : خلقكم من ماء ذي ضَعف ، وهو المنيّ (ثُمّ جَعل مِنْ بَعْد ضَعْف) يعني ضعف الطفولة قوّة الشباب ، ثُمَّ جَعل مِن بَعْد قوّة الشباب ضعف الكِبَر ، وشيبةً ، (يخلُق مايشاء) أي : من ضعف وقوّة وشباب وشَيبة (وهو العليم) بتدبير خلقه (القدير) على مايشاء .

(ويوم تقوم الساعة) قال الزجاج : الساعة في القرآن على معنى الساعة التي تقوم فيها القيامة ، فلذلك لم نُعرف أيّ ساعة هي .

قوله تعالى : (يُقسِم المجرِمون) أي : يحلِف المشرِكون (مالَبِثوا) في القبور (غيرَ ساعةٍ كذلك كانوا يؤفَكون) قال ابن قتيبة : يقال : أُفِكَ الرجلُ : إذا عُدِلَ به عن الصّدق ، فالمعنى أنهم قد كذّبوا في هذا الوقتِ كما كَذّبوا في الدنيا . وقال غيره : أراد الله تعالى أن يفضحهم يوم القيامة بين المؤمنين ، فحلفوا على شيء يَبين للمؤمنين كذبُهم فيه ، ويستدلّون على كذبهم في الدنيا .

ـــ مسدد في « مسنده » الكبير ، وفي سنده جبر بن عبد الله ، وهو ضعيف ، وجده عبيد الله ـ بالتصغير ـ ابن العباس ، وفي نسخة من « المسند » : حسين بن قيس أبو علي الرجي ، وهو ضعيف أيضاً ، وقد اعتضد بالمتابعة . اهـ . والحديث في « مسند الشافعي » (٤٧) وفيه ابن أبي يحيى ، وهو ابراهيم بن أبي يحيى الأسلمي الذي يروي عن العلاء بن راشد ، متهم .

ثم ذكر إنكار المؤمنين عليهم بقوله : (وقال الذين أُوتوا العِلْم والإيمانَ) وفيهم قولان . أحدهما : أنهم الملائكة . والثاني : المؤمنون .

قوله تعالى : (لقد لَبِثتم في كتاب الله إلى يوم البعث) فيه قولان .

أحدهما : أن فيه تقديماً وتأخيراً ، تقديره : وقال الذين أوتوا العلم بكتاب الله والإيمان بالله ، قاله ابن جريج في جماعة من المفسرين .

والثاني : أنه على نظمه . ثم في معناه قولان . أحدهما : لقد لَبِثتم في عِلْم الله ، قاله الفراء . والثاني : لقد لَبِثتم في خَبَر الكتاب ، قاله ابن قتيبة .

قوله تعالى : (فهذا يومُ البعث) أي : اليوم الذي كنتم تُنْكِرونه (ولكنَّكم كنتم لاتَعْلَمون) في الدنيا أنه يكون . (فيومَئذ لايَنْفَعُ الذين ظَلَموا معذرتُهم) قرأ ابن كثير ، ونافع ، وأبو عمرو ، وابن عامر : « لاتَنْفَعُ » بالتاء . وقرأ عاصم ، وحمزة ، والكسائي : بالياء ، لأن التأنيث غير حقيقي .

قال ابن عباس : لايُقْبَلُ من الذين أشركوا عُذر ولا توبة .

قوله تعالى : (ولا هُمْ يُسْتَعْتَبون) أي : لايُطلب منهم العتبى والرجوعُ في الآخرة .

﴿ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هٰذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَلَئِنْ جِئْتَهُمْ بِآيَةٍ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ . كَذٰلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الَّذِينَ لَايَعْلَمُونَ . فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لَايُوقِنُونَ ﴾

قوله تعالى : (ولئن جئتَهم بآية) أي : كعصا موسى ويده (لَيَقُولَنَّ الذين كفروا إنْ أنتم) أي : ما أنتم يامحمد وأصحابك (إلا مُبْطِلون) أي : أصحاب أباطيل ، وهذا بيان لعنادهم . (كذلك) أي : كما طَبع على قلوبهم حتى

لايصدِّقون الآيات (يَطبعُ اللهُ على قلوب الذين لايَعْلَمونَ) توحيد الله؛ فالسبب في امتناع الكفار من التوحيد، الطَّبْع على قلوبهم .

قوله تعالى : (فاصْبِر إنَّ وَعْدَ الله) بنصرك وإظهارك على عدوِّك (حقٌّ) .

(ولا يَسْتَخِفَّنَّكَ) وقرأ يعقوب إلا روحاً وزيداً : « يَسْتَخِفَنْكَ » بسكون النون . قال الزجاج : لايَستفزَّنَّك عن دِينك (الذين لايُوقِنونَ) أي : هم ضُلاَّلٌ شاكُّونَ . وقال غيره : لايُوقِنون بالبعث والجزاء[1] . وزعم بعض المفسرين أن هذه الآية منسوخة .

★ ★ ★

(١) قال ابن كثير : (فاصبر إن وَعْدَ الله حق) أي : اصبر على مخالفتهم وعنادهم ، فان الله تعالى منجز لك ماوعدك من نصره إياك عليهم ، وجعله العاقبة لك ولمن اتبعك في الدنيا والآخرة (ولا يستخفنك الذين لايوقنون) أي : بل اثبت على مابعثك الله به ، فانه الحق الذي لامرية فيه ، ولا تعدل عنه ، وليس فيما سواه هدىً يُتَّبع ، بل الحق كلُّه منحصر فيه . اهـ .

سورة لقمان

وهي مكية في قول الأكثرين . وروي عن عطاء أنه قال : هي مكية سوى آيتين منها نزلتا بالمدينة ، وهما قوله تعالى : (ولو أنَّ ما في الأرض من شجرةٍ أقلامٌ) والتي بعدها [لقمان : ٢٧ ، ٢٨] ؛ وروي عن الحسن أنه قال : إلّا آية نزلت بالمدينة ، وهي قوله : (الذين يُقيمون الصلاة ويؤتُون الزكاة) [لقمان : ٤] ، لأن الصلاة والزكاة مدنيتان .[1]

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ الٓمٓ . تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ . هُدًى وَرَحْمَةً لِلْمُحْسِنِينَ . الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَوٰةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ . أُولَٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ . وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ .

(١) من المعلوم أن الصلاة فرضت بمكة ليلة الاسراء ، كما في صحيح البخاري وغيره ، والزكاة فرضت بالمدينة ، فلعل القائل بذلك يريد أن إيجابهما معاً تحقق بالمدينة ، أو أنها فُرضت ليلة الاسراء ركعتين ركعتين إلا المغرب، ثم زيدت بعد الهجرة ، إلا الصبح ، فكان ذلك تمام فرضيتها .

وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِراً كَأَنْ لَمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْراً فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ . إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتُ النَّعِيمِ . خَالِدِينَ فِيهَا وَعْدَ اللهِ حَقّاً وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ . خَلَقَ السَّمٰوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا وَأَلْقَىٰ فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ . هٰذَا خَلْقُ اللهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ . وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنِ اشْكُرْ لِلّٰهِ وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ . وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَابُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾

قوله تعالى : (هُدىً ورحمةً) وقرأ حمزة وحده : « ورحمةٌ » بالرفع . قال الزجاج : القراءة بالنصب على الحال ؛ والمعنى : تلك آيات الكتاب في حال الهداية والرحمة ؛ ويجوز الرفع على إضمار « هو هدىً ورحمةٌ » وعلى معنى : « تلك هدىً ورحمةٌ » . وقد سبق تفسير مفتتح هذه السورة [البقرة: ١ - ٥] إلى قوله : (ومِنَ النَّاس من يشتري لَهْوَ الحديث) قال ابن عباس : نزلت هذه الآية في رجل اشترى جارية مغنّيةً [١] . وقال مجاهد : نزلت في شراء القِيَان والمغنّيات [٢] . وقال ابن السائب ومقاتل : نزلت في النَّضْر بن الحارث ، وذلك أنه كان

---

(١) « الطبري » ٦٣/٢١ من رواية العوفي عن ابن عباس بمعناه ، وذكره السيوطي في « الدر » ١٥٩/٥ ، وزاد نسبته للفريابي ، وابن مردويه عن ابن عباس .

(٢) « الطبري » ٦٢/٢١ عن مجاهد بمعناه ، وذكره السيوطي في « الدر » ١٦٠/٥ ، وزاد نسبته لآدم ، والبيهقي في « سننه » عن مجاهد .

تاجراً إلى فارس ، فكان يشتري أخبار الأعاجم فيحدّث بها قريشاً ويقول لهم : إنَّ محمداً يحدِّثكم بحديث عاد وثمود ، وأنا أحدّثكم بحديث رستم وإسفنديار وأخبار الأكاسرة ، فيستملحون حديثه ويتركون استماع القرآن ، فنزلت فيه هذه الآية [١] .

وفي المراد بلهو الحديث أربعة أقوال .

أحدها : [أنه] الغناء . كان ابن مسعود يقول : هو الغناء والذي لا إله إلا هو ، يُردِّدها ثلاث مرات [٢] ؛ وبهذا قال ابن عباس ، ومجاهد ، وسعيد بن جبير ، وعكرمة ، وقتادة . وروى ابن أبي نجيح عن مجاهد ، قال : اللهو : الطبل [٣] .

والثاني : أنه ما ألهى عن الله ، قاله الحسن ، وعنه مثل القول الأول .

والثالث : أنه الشِّرك ، قاله الضحاك .

والرابع : الباطل ، قاله عطاء [٤] .

وفي معنى « يشتري » قولان .

أحدهما : يشتري بماله ؛ وحديث النضر يعضده . والثاني : يختار ويستحبّ ، قاله قتادة ، ومطر [٥] .

---

(١) « أسباب النزول » للواحدي ١٩٧ عن الكلبي ومقاتل بدون سند .

(٢) « الطبري » ٢١/٦١ ، وذكره السيوطي في « الدر » ٥/١٥٩ مختصراً ، وزاد نسبته لابن أبي شيبة ، وابن أبي الدنيا ، وابن المنذر ، والحاكم وصححه ، والبيهقي في « شعب الايمان » عن ابن مسعود رضي الله عنه .

(٣) « الطبري » ٢١/٦٣ عن مجاهد .

(٤) قال ابن جرير الطبري : والصواب من القول في ذلك أن يقال : عنى به كل ما كان من الحديث ملهياً عن سبيل الله مما نهى الله عن استماعه ، أو رسولُه ، لأن الله تعالى عمّ بقوله : (لهو الحديث) ولم يخصص بعضاً دون بعض ، فذلك على عمومه ، حتى يأتيَ مايدل على خصوصه ، والغناء والشرك من ذلك . اهـ .

(٥) قال ابن جرير الطبري : وأولى التأويلين عندي بالصواب تأويل من قال : معناه: ـــ

وإنما قيل لهذه الأشياء : لهو الحديث ، لأنها تُلهي عن ذِكْر الله .

قوله تعالى : (لِيَضِلَّ) المعنى : ليصير أمره إلى الضلال . وقد بيَّنَّا هذا الحرف في (الحج : ٩) .

وقرأ أبو رزين ، والحسن ، وطلحة بن مصرف ، والأعمش ، وأبو جعفر : « لِيُضِلَّ » بضم الياء ، والمعنى : لِيُضِلَّ غيره ، وإذا أضَلَّ غيره فقد ضَلَّ هو أيضاً .

قوله تعالى : (ويَتَّخِذَها) قرأ ابن كثير ، ونافع ، وأبو عمرو ، وابن عامر ، وأبو بكر عن عاصم : « ويَتَّخِذُها » برفع الذال . وقرأ حمزة ، والكسائي ، وحفص عن عاصم : بنصب الذال . قال أبو علي : من نصب عطف على « لِيُضِلَّ » « ويَتَّخذ » ومن رفع عطفه على « من يشتري » « ويتخذ » .

وفي المشار إليه بقوله : (ويَتَّخِذَها) قولان .

أحدهما : أنها الآيات . والثاني : السبيل .

وما بعد هذا مفسر في مواضع قد تقدَّمت [الاسراء : ٤٦ ، الانعام : ٢٥ ، البقرة : ٢٥ ، الرعد : ٢ ، النحل : ١٥ ، الشعراء : ٧] ، إلى قوله : (ولقد آتيْنا لُقمانَ الحكمة) وفيها قولان . أحدهما : الفهم والعقل ، قاله الأكثرون .

والثاني : النبوَّة . وقد اختُلف في نبوَّته على قولين .

أحدها : أنه كان حكيماً ولم يكن نبيّاً ، قاله سعيد بن المسيب ، ومجاهد ، وقتادة .

والثاني : أنه كان نبياً ، قاله الشعبي ، وعكرمة ، والسدي . هكذا حكاه

ـــ الشراء الذي هو بالثمن ، وذلك أن ذلك هو أظهر معنَييه ، قال : فان قال قائل : وكيف يشتري لهو الحديث ؟ قيل : يشتري ذات لهو الحديث ، أو ذا لهو الحديث ، فيكون مشترياً لهو الحديث . اهـ .

عنهم الواحدي ، ولا يعرف ، إلاّ أن هذا ممّا تفرّد به عكرمة ؛ والقول الأول أصح [(١)] .

وفي صناعته ثلاثة أقوال .

أحدها : أنه كان خيّاطاً ، قاله سعيد بن المسيب . والثاني : راعياً ، قاله ابن زيد . والثالث : نجاراً ، قاله خالد الربعي .

فأما صفته ، فقال ابن عباس : كان عبداً حبشيّاً . وقال سعيد بن المسيب : كان لقمان أسود من سودان مصر . وقال مجاهد : كان غليظ الشفتين مشقّق القدمين ، وكان قاضياً على بني إسرائيل .

قوله تعالى : ﴿ أَنِ اشكُرْ لله ﴾ المعنى : وقلنا له : أن اشكر لله [على] ما أعطاك من الحكمة ﴿ ومن يشكُرْ فانَّما يَشكُرُ لنَفْسه ﴾ أي : إنما يفعل لنفسه ﴿ ومن كَفَرَ ﴾ النِّعمة ، فان الله لغنيٌّ عن عِبادة خَلْقه .

---

(١) قال ابن كثير : اختلف السلف في لقمان ، هل كان نبياً ، أو عبداً صالحاً من غير نبوة ؟ على قولين ، الأكثرون على الثاني (يعني أنه لم يكن نبياً) ثم ذكر بعض الآثار ، منها ماهو مصرح فيه بنفي كونه نبياً ، ومنها ماهو مشعر بذلك ، وفي بعضها مايشعر أنه كان عبداً قد مسّه الرق ، فقال : وكونه عبداً قد مسّه الرق ينافي كونه نبياً ، لأن الرسل كانت تبعث في أحساب قومها ، قال : ولهذا كان جمهور السلف على أنه لم يكن نبياً ، قال : وإنما ينقل كونه نبياً عن عكرمة إن صح السند إليه ، قال : فانه رواه ابن جرير ، وابن أبي حاتم من حديث وكيع عن إسرائيل عن جابر عن عكرمة ، قال : كان لقمان نبياً ، قال : وجابر هذا ، هو ابن يزيد الجعفي ، وهو ضعيف ، والله أعلم . ثم قال ابن كثير : والذي رواه سعيد بن أبي عروبة عن قتادة في قوله تعالى : (ولقد آتينا لقمان الحكمة) أي : الفقه في الاسلام ، ولم يكن نبياً ، ولم يوح إليه . اهـ ، فهذا يدل على أنه كان عبداً صالحاً ، ولم يكن نبياً .

﴿ وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْناً عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ . وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَالَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلاَ تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفاً وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ . يَابُنَيَّ إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمٰوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللهُ إِنَّ اللهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ . يَابُنَيَّ أَقِمِ الصَّلٰوٰةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَاصْبِرْ عَلَى مَاأَصَابَكَ إِنَّ ذٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴾

قوله تعالى : (ووصَّينا الإنسان بوالديه) قال مقاتل : نزلت في سعد بن أبي وقاص ، وقد شرحنا ذلك في (العنكبوت : ٨) .

قوله تعالى : (حملتْه أُمُّه وَهْناً على وَهْنٍ) وقرأ الضحاك ، وعاصم الجحدري : « وَهَناً على وَهَنٍ » بفتح الهاء فيهما . قال الزجاج : أي : ضَعْفاً على ضَعْف . والمعنى : لزمها بحَمْلها إيَّاه أن تَضْعُف مَرَّةً بعد مَرَّة . وموضع « أن » نصب بـ « وصَّيْنا » ؛ المعنى : ووصَّينا الإنسان أن اشكُر لي ولوالدَيْكَ ، أي : وصَّيناه بشُكْرنا وشُكر والدَيه .

قوله تعالى : (وفِصَالُه في عامَين) أي : فِطامُه يقع في انقضاء عامين . وقرأ إبراهيم النخعي ، وأبو عمران ، والأعمش : « وفَصَالُه » بفتح الفاء . وقرأ أُبيُّ بن كعب ، والحسن ، وأبو رجاء ، وطلحة بن مصرِّف ؛ وعاصم الجحدري ، وقتادة ؛ « وفَصْلُه » بفتح الفاء وسكون الصاد من غير ألف . والمراد : التنبيه على مشقَّة الوالدة بالرَّضاع بعد الحمل .

قوله تعالى : (وإن جاهَدَاكَ) قد فسرنا ذلك في سورة (العنكبوت : ٨) إلى قوله : (وصاحِبْهُما في الدُّنيا معروفاً) قال الزجاج : أي : مُصَاحَبا معروفاً ، تقول صاحبه مُصَاحَبا ومُصَاحَبَةً ؛ والمعروف : ما يُستحسن من الأفعال .

قوله تعالى : (واتَّبِعْ سبيلَ مَنْ أناب إليَّ) أي : مَنْ رَجَع إليَّ ؛ وأهل التفسير يقولون : هذه الآية نزلت في سعد ، وهو المخاطَب بها .

وفي المراد بِمَنْ أناب ثلاثة أقوال .

أحدها : أنه أبو بكر الصِّدِّيق ، قيل لسعد : اتَّبِع سبيله في الإيمان ، هذا معنى قول ابن عباس في رواية عطاء [1] . وقال ابن إسحاق : أسلم على يدَي أبي بكر [الصِّدِّيق] : عثمانُ بن عفان ، وطلحة ، والزبير ، وسعد بن أبي وقاص ، وعبد الرحمن بن عوف .

والثاني : أنه رسول الله ﷺ ، قاله ابن السائب .

والثالث : مَنْ سلك طريق محمد وأصحابه ، ذكره الثعلبي [2] .

ثم رجع إلى الخبر عن لقمان فقال : (يا بُنَيَّ) . وقال ابن جرير : وجه اعتراض هذه الآيات بين الخبرين عن وصيَّة لقمان أنَّ هذا ممَّا أوصى به لقمانُ ابنَه .

قوله تعالى : (إنَّها إنْ تَكُ مِثقالَ حَبَّة) وقرأ نافع وحده : « مِثقالُ حَبَّة » برفع اللام .

---

(١) ذكره الواحدي في « أسباب النزول » : ١٨٩ .

(٢) قال الآلوسي في « روح المعاني » : والظاهر هو العموم . وقال ابن جرير الطبري : وقوله : (واتبع سبيل من أناب إليَّ) يقول : واسلك طريق من تاب من شركه ورجع إلى الاسلام ، واتبع محمداً ﷺ . اهـ .

وفي سبب قول لقمان لابنه هذا قولان .

أحدها : أن ابن لقمان قال لأبيه : أرأيتَ لو كانت حبّة في قعر البحر أكان اللهُ يعلَمُها ؟ فأجابه بهذه الآية ، قاله السدي .

والثاني : أنه قال : يا أبت إن عملتُ الخطيئة حيث لا يراني أحد ، كيف يعلَمُها الله ؟ فأجابه بهذا ، قاله مقاتل .

قال الزجاج : من قرأ برفع المثقال مع تأنيث « تَكُ » فلأنَّ « مثقال حبَّة من خردل » راجع إلى معنى : خردلة ، فهي بمنزلة : إن تَكُ حبَّةٌ من خردل ؛ ومن قرأ : « مثقالَ حبَّة » فعلى معنى : إن التي سألتَني عنها إن تَكُ مثقالَ حبَّة ، وعلى معنى : إنَّ فَعْلَةَ الإنسان وإن صَغُرت يأت بها الله .

وقد بيَّنَّا معنى « مثقالَ حبَّة من خردل » في (الأنبياء : ٤٧) .

قوله تعالى : (فتكُن في صخرة) قال قتادة : في جبل . وقال السدي : هي الصخرة التي تحت الأرض السابعة ، ليست في السموات ولا في الأرض [١] .

وفي قوله : (يأتِ بها اللهُ) ثلاثة أقوال .

أحدها : يعلَمها اللهُ ، قاله أبو مالك . والثاني : يُظهرها ، قاله ابن قتيبة . والثالث : يأت بها الله في الآخرة للجزاء عليها .

---

(١) قال ابن كثير : وقد زعم بعضهم أن المراد بقوله : (فتكن في صخرة) أنها صخرة تحت الأرضين السبع ، قال : وذكره السدي بإسناده ذلك المطروق عن ابن مسعود وابن عباس وجماعة من الصحابة إن صح ذلك ، ويروى هذا عن عطية العوفي وأبي مالك والثوري والمنهال ابن عمرو ، وغيرهم ، وهذا ـ والله أعلم ـ كأنه متلقى من الاسرائيليات التي لاتصدَّق ولا تكذَّب ، والظاهر ـ والله أعلم ـ أن المراد أن هذه الحبة في حقارتها لو كانت داخل صخرة ، فان الله سيبديها ويظهرها بلطيف علمه . اهـ .

(إنَّ اللهَ لطيف) قال الزجاج : لطيف باستخراجها (خبير) بمكانها . وهذا مَثَل لأعمال العباد ، والمراد أنَّ الله تعالى يأتي بأعمالهم يوم القيامة ، مَنْ يعمل مثقال ذرَّة خيراً يره ، ومن يعمل مثقال ذرَّة شرّاً يره .

قوله تعالى : (واصْبِر على ما أصابك) أي : في الأمر بالمعروف والنَّهي عن المُنْكَر من الأذى . وباقي الآية مفسر في (آل عمران : ١٨٦) .

﴿ وَلا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحاً إِنَّ اللهَ لا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتالٍ فَخُورٍ . وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ ﴾

قوله تعالى : (ولا تُصَعِّر خدَّك للنَّاس) قرأ ابن كثير ، وابن عامر ، وعاصم ، وأبو جعفر ، ويعقوب : « تُصَعِّر » بتشديد العين من غير ألف . وقرأ نافع ، [وأبو عمرو] ، وحمزة ، والكسائي : بألف من غير تشديد . قال الفراء : هما لغتان ، ومعناها : الإعراض من الكِبْر . وقرأ أُبَيُّ بن كعب ، وأبو رجاء ، وابن السميفع ، وعاصم الجحدري : « ولا تُصْعِر » باسكان الصاد وتخفيف العين من غير ألف . وقال الزجاج : معناه : لاتُعْرِض عن الناس تكبُّراً ؛ يقال : أصاب البعير صَعَرٌ : إذا أصابه داء يَلْوي منه عُنُقه . وقال ابن عباس : هو الذي إذا سُلِّم عليه لوى عُنُقه كالمستكبِر . وقال أبو العالية : ليكن الغنيُّ والفقير عندك في العِلْم سواءً . وقال مجاهد : هو الرجل يكون بينه وبين أخيه الحِنَة[1] ، فيراه فيُعرِض عنه . وباقي الآية بعضه مفسر في (بني إسرائيل : ٣٧) وبعضه في سورة (النساء : ٣٦) .

---

(١) قال في « تاج العروس » : « أحن » : الحِنَة بالكسر لغة في الإحنة ، وقد أنكرها الأصمعي والفراء وابن الفرَج ، وفي « الصحاح » : ولا تقل : حِنَة ، قال الزبيدي : قلت : والحق أنها لغة قليلة . اهـ . والإحنة : الحقد .

قوله تعالى : (واقْصِدْ في مَشْيِكَ) أي : ليكن مشيُك قصداً ، لا تخيُّلاً ولا إسراعاً . قال عطاء : امش بالوقار والسَّكينة .

قوله تعالى : (واغضُضْ من صوتك) أي : انقص منه . قال الزجاج : ومنه قولهم : غضضتُ بصري ، وفلان يغضُّ من فلان ، أي : يقصر به .

(إنَّ أنكر الأصوات) وقرأ أبو المتوكل ، وابن أبي عبلة : « أنَّ أنكر الأصوات » بفتح الهمزة . ومعنى « أنكر » : أقبح ؛ تقول : أتانا فلان بوجهٍ منكَر ، أي : قبيح . وقال المبرِّد : تأويله : أن الجهر بالصوت ليس بمحمود ، وأنه داخل في باب الصوت المنكَر . وقال ابن قتيبة : عرَّفه قُبْحَ رفعِ الأصوات في المخاطبة والمُلاحاة [١] بقبح أصوات الحمير ، لأنها عالية . قال ابن زيد : لو كان رفع الصوت خيراً ، ماجعله الله للحمير . وقال سفيان الثوري : صياح كل شيء تسبيح لله عز وجل ، إلا الحمار ، فانه ينهق بلا فائدة .

فان قيل : كيف قال : « لصَوتُ » ولم يقل : « لأصواتُ الحمير » ؟

فالجواب : أن لكل جنس صوتاً ، فكأنه قال : إن أنكر أصوات الأجناس صوت هذا الجنس .

﴿ أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمٰوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدىً وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ . وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ ﴾

قوله تعالى : (وأسبغَ عليكم) أي : أوسعَ وأكملَ (نِعَمَهُ) قرأ نافع ،

---

(١) المُلاحاة : المخاصمة والمنازعة .

وأبو عمرو ، وحفص عن عاصم : « نِعَمَهُ » ، أرادوا جميع ما أنعم به . وقرأ ابن كثير ، وابن عامر ، وحمزة ، والكسائي ، وأبو بكر عن عاصم : « نِعْمَةً » على التوحيد . قال الزجاج : هو ما أعطاهم من توحيده . وروى الضحاك عن ابن عباس ، قال : سألت رسول الله ﷺ فقلت : يارسول الله ! ماهذه النّعمة الظاهرة والباطنة ؟ فقال : « أمّا ماظهر : فالإسلام ، وما سوّى اللهُ مِنْ خَلْقِك ، وما أفضل عليك من الرّزق . وأمّا مابطن : فستر مساوىء عملك ، ولم يفضحك »[1] . وقال الضحاك: الباطنة: المعرفة ، والظاهرة: حسن الصورة، وامتداد القامة، وتسوية الأعضاء .

قوله تعالى : (أَوَلَوْ كانَ الشَّيطانُ يَدْعُوهُم) هو متروك الجواب ، تقديره : أفتتّبعونه ؟

﴿ وَمَنْ يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ وَإِلَى اللهِ عَاقِبَةُ الأُمُورِ . وَمَنْ كَفَرَ فَلاَ يَحْزُنْكَ كُفْرُهُ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ . نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلاً ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَى عَذَابٍ غَلِيظٍ . وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَيَعْلَمُونَ . لِلّهِ مَافِي السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضِ إِنَّ اللهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ . وَلَوْ أَنَّ مَافِي الأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلاَمٌ وَالْبَحْرُ

---

(١) ذكره السيوطي في « الدر » ٥/١٦٧ من رواية البيهقي في « شعب الايمان » عن عطاء عن ابن عباس بمعناه ، ومن رواية ابن مردويه ، والبيهقي ، والديلمي ، وابن النجار عن ابن عباس ، والله أعلم . وذكره الطبري في تفسيره عن ابن عباس من قوله ، أنه قرأها (وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة) وفسّرها بالاسلام ، وذكر البغوي والخازن نحو هذا المعنى موقوفاً على ابن عباس . وقال الآلوسي في « روح المعاني » بعد أن ذكر هذين الحديثين مرفوعين : فان صح ماذكر ، غير جازم بها ، والله أعلم .

يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَانَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللهِ إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾

قوله تعالى : (ومن يُسْلِمْ وجهه) وقرأ أبو عبد الرحمن السلمي ، وأبو العالية ، وقتادة : « ومن يُسَلِّم » بفتح السين وتشديد اللام . وذكر المفسرون أن قوله : (ومن كَفَرَ فلا يَحْزُنْكَ كُفْرُهُ) منسوخ بآية السيف ، ولا يصح ، لأنه تسلية عن الحُزن ، وذلك لاينافي الأمر بالقتال . وما بعد هذا قد تقدم تفسير ألفاظه في مواضع [هود : ٤٨ ، العنكبوت : ٦١ ، البقرة : ٢٦٧] إلى قوله : (ولو أنَّ ما في الأرض مِنْ شجرة أقلامٌ) وفي سبب نزولها قولان .

أحدهما : أن أحبار اليهود قالوا لرسول الله ﷺ : أرأيتَ قول الله عز وجل : « وما أُوتيتم من العِلْم إلّا قليلاً » [الاسراء : ٨٥] ، إيَّانا يريد ، أم قومك ؟ فقال : « كُلاًّ » ، فقالوا : ألستَ تتلو فيما جاءك أنَّا قد أوتينا التوراة فيها تبيانُ كل شيء ؟ فقال : « إنَّها في عِلْم الله قليل » ، فنزلت هذه الآية ، رواه سعيد ابن جبير عن ابن عباس [١] .

والثاني : أن المشركين قالوا في القرآن : إنَّما هو كلام [يوشك أن] يَنْفَد وينقطع ، فنزلت هذه الآية ، قاله قتادة [٢] .

---

(١) « الطبري » ٢١/٨١ وفي سنده رجل مجهول ، وذكره ابن كثير من رواية ابن إسحاق عن محمد ابن أبي محمد ، عن سعيد بن جبير عن ابن عباس ، و « محمد ابن أبي محمد » شيخ لعبد الرزاق ، مجهول ، كما قال الحافظ ابن حجر في « التقريب » . قال ابن كثير : وهذا يقتضي أن هذه الآية مدنية ، لامكية ، والمشهور أنها مكية ، والله أعلم . اه . والحديث أورده السيوطي في « الدر » ٥/١٦٧ ، وزاد نسبته لابن أبي حاتم .

(٢) « الطبري » ٢١/٨١ ، وأورده السيوطي في « الدر » ٥/١٦٨ وزاد نسبته لعبد الرزاق ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وأبي الشيخ في « العظمة » ، وأبي نصر السجزي في « الابانة » عن قتادة .

ومعنى الآية : لو كانت شجر الأرض أقلاماً ، وكان البحر ومعه سبعة أبحر مِداداً ـ وفي الكلام محذوف تقديره : فكُتب بهذه الأقلام وهذه البحور كلمات الله ـ لتكسَّرت الأقلامُ ونَفِدت البحور ، ولم تَنْفَد كلماتُ الله ، أي : لم تنقطع [١] .

فأما قوله : (والبَحْرُ) فقرأ ابن كثير ، ونافع ، وعاصم ، وابن عامر ، وحمزة ، والكسائي : « والبَحْرُ » بالرفع ، ونصبه أبو عمرو . وقال الزجاج : من قرأ : « والبَحْرَ » بالنصب ، فهو عطف على « ما » ؛ المعنى : ولو أن ما في الأرض ، ولو أن البحر ؛ والرفع حسن على معنى : والبحرُ هذه حالُه . قال اليزيدي : ومعنى « يَمُدُّهُ مِنْ بَعده » : يزيد فيه ؛ يقال : مُدَّ قِدْرَكَ ، أي : زِدْ في مائها ، وكذلك قال ابن قتيبة : « يَمُدُّه » من المِداد ، لا من الإمداد ، يقال : مَدَدْتُ دواتي بالمِداد ، وأمددتُه بالمال والرجال .

﴿ مَاخَلْقُكُمْ وَلا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ إِنَّ اللهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ . أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي

(١) قال ابن كثير : يقول تعالى مخبراً عن عظمته وكبريائه وجلاله وأسمائه الحسنى وصفاته العلى وكلماته التامة التي لايحيط بها أحد ولا اطلاع لبشر على كنهها وإحصائها كما قال سيد البشر وخاتم الرسل : « لاأحصي ثناءً عليك أنت كما أثنيت على نفسك » فقال تعالى : (ولو أن مافي الأرض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر مانفدت كلمات الله) أي : ولو أن جميع أشجار الأرض جعلت أقلاماً ، وجعل البحر مداداً ، وأمدَّه سبعة أبحر معه فكتبت بها كلمات الله الدالة على عظمته وصفاته وجلاله ، لتكسرت الأقلام ونفد ماء البحر ولو جاء أمثالها مدداً ، قال : وإنما ذكرت السبعة على وجه المبالغة ، ولم يرد الحصر ، ولا أن ثَمَّ سبعة أبحر موجودة محيطة بالعالم كما يقوله مَن تلقَّاه من الاسرائيليات التي لاتصدَّق ولا تكذَّب ، بل كما قال تعالى في الآية الأخرى : (قل لو كان البحر مداداً لكلمات ربي لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربي ولو جئنا بمثله مدداً) ، فليس المراد بقوله : « بمثله » آخَرَ فقط ، بل بمثله ثم بمثله ثم بمثله ثم هلم جرا ، لأنه لاحصر لآيات الله وكلماته . اهـ .

اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ . ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ . أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَتِ اللَّهِ لِيُرِيَكُمْ مِنْ آيَاتِهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ . وَإِذَا غَشِيَهُمْ مَوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ ﴾

قوله تعالى : (ما خَلْقُكُم ولا بَعْثُكُم إلا كنَفْس واحدة) سبب نزولها أن أُبيَّ بن خلف في آخرين من قريش قالوا للنبي ﷺ : إنَّ الله خلقنا أطواراً : نطفة ، علقة ، مضغة ، عظاماً ، لحماً ، ثم تزعم أنَّا نُبْعَث خَلْقاً جديداً جميعاً في ساعة واحدة ؟! فنزلت هذه الآية [١] ومعناها : ماخَلْقُكم أيُّها الناس جميعاً في القُدرة إلا كخَلْق نفس واحدة ، ولا بَعْثُكم جميعاً في القُدرة إلا كبعث نفس واحدة ، قاله مقاتل .

وما بعد هذا قد تقدم تفسيره [آل عمران : ٢٧ ، الرعد : ٢ ، الحج : ٦٢] إلى قوله : (أَلَمْ تَرَ أَنَّ الفُلْكَ تجري في البحر بنِعمة الله) قال ابن عباس : من نِعمه جريان الفُلْك (ليُرِيَكم من آياته) أي : ليُرِيَكم من صنعته عجائبه في

(١) قال الآلوسي في « روح المعاني » ٩١/٢١ : وعن مقاتل أن كفار قريش قالوا : إن الله خلقنا أطواراً : نطفة ، علقة ، مضغة ، لحماً ، فكيف يبعثنا خلقاً جديداً في ساعة واحدة ؟ ! فنزلت ، قال : وذكر النقاش أنها نزلت في أُبيّ بن خلف ، وأبي الأسود ، ونبيه ومنبه ابني الحجاج ، وذكر في سبب نزولها فيهم نحو ماذكر ، ثم قال الآلوسي : وعلى كون سبب النزول ذلك قيل : المعنى أنه تعالى سميع بقولهم ذلك ، بصير بما يضمرونه ، وهو كما ترى . اهـ . وذكر مثل هذا القول الطبرسي في « مجمع البيان » عن مقاتل ، والله أعلم .

البحر، وابتغاء الرزق (إنَّ في ذلك لَآياتٍ لِكُلِّ صبَّارٍ) قال مقاتل : أي : لكل صبور على أمر الله (شكورٍ) في نِعَمه .

قوله تعالى : (وإذا غَشِيَهم) يعني الكفار ؛ وقال بعضهم : هو عامٌّ في الكفار والمسلمين (موجٌ كالظُّلل) قال ابن قتيبة : وهي جمع ظُلَّة ، يراد أنَّ بعضه فوق بعض ، فله سوادٌ من كثرته .

قوله تعالى : (دَعَوُا اللهَ مُخلِصينَ له الدِّين) وقد سبق شرح هذا [يونس: ٢٢] ؛ والمعنى أنهم لا يذكُرون أصنامهم في شدائدهم إنما يذكُرون الله وحده . وجاء في الحديث أن عكرمة بن أبي جهل لمَّا هرب يوم الفتح من رسول الله ﷺ ركب البحر فأصابتهم ريح عاصف ، فقال أهل السفينة : أَخْلِصوا ، فان آلهتكم لا تُغْني عنكم شيئاً هاهنا ، فقال عكرمة : ما هذا الذي تقولون ؟ فقالوا : هذا مكان لا ينفع فيه إلاَّ اللهُ ، فقال : هذا إله محمد الذي كان يدعونا إليه ، لَئن لم ينجني في البحر إلاَّ الإخلاص ما ينجيني في البَرِّ غيرُه ، ارجعوا بنا ، فرجَع فأسلم[١] .

قوله تعالى : (فمنهم مُقتَصِدٌ) فيه ثلاثة أقوال .

أحدها : مؤمن ، قاله الحسن .

والثاني : مقتصد في قوله ، وهو كافر ، قاله مجاهد . يعني أنه يعترف بأن الله وحده القادر على إنجائه وإن كان مُضمِراً للشِّرك .

والثالث : أنه العادل في الوفاء بما عاهد اللهَ عليه في البحر من التوحيد ، قاله مقاتل .

فأما « الخَتَّار » فقال الحسن : هو الغدَّار . قال ابن قتيبة : الخَتْرُ : أقبح الغَدْر وأشدُّه .

---

(١) قال الحافظ ابن حجر في « الاصابة » في ترجمة عكرمة : وقد أخرج قصة مجيئه موصولة ، الدارقطني ، والحاكم ، وابن مردويه من طريق أسباط بن نصـــر عن السدي عن مصعب بن سعد عن أبيه قال : ... فذكرها . اهـ .

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَاخْشَوْا يَوْماً لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَنْ وَالِدِهِ شَيْئاً إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيٰوةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللهِ الْغَرُورُ . إِنَّ اللهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَداً وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾

قوله تعالى : (يا أيُّها النَّاس اتَّقُوا ربَّكم) قال المفسرون : هذا خطاب لكفار مكة . وقوله : (لا يَجزي والدٌ عن ولده) أي : لا يقضي عنه شيئاً من جنايته ومظالمه . قال مقاتل : وهذا يعني به الكفار . وقد شرحنا هذا في (البقرة : ٤٨) . قال الزجاج : وقوله : (هو جازٍ) جاءت في المصاحف بغير ياء ، والأصل « جازيٌ » بضمة وتنوين . وذكر سيبويه والخليل أن الاختيار في الوقف هو « جازٍ » بغير ياء ، هكذا وقف الفصحاء من العرب ليُعلموا أن هذه الياء تسقُط في الوصل . وزعم يونس أن بعض العرب الموثوق بهم يقف بياء ، ولكن الاختيار اتّباع المصحف .

قوله تعالى : (إنَّ وَعْدَ الله حَقٌّ) أي : بالبعث والجزاء (فلا تَغُرَّنَّكم الحياةُ الدُّنيا) بزينتها عن الإسلام والتزوُّد للآخرة (ولا يَغُرَّنَّكم بالله) أي : بحِلْمه وإمهاله (الغَرورُ) يعني : الشيطان ، وهو الذي من شأنه أن يَغُرَّ . قال الزجاج : « الغَرور » على وزن الفَعول ، وفَعول من أسماء المبالغة ، يقال : فلان أَكُول : إذا كان كثير الأكل ، وضَروب : إذا كان كثير الضَّرْب ، فقيل للشيطان : غَرور ، لأنه يَغُرُّ كثيراً . وقال ابن قتيبة : الغَرور بفتح الغين : الشيطان ، وبضمها : الباطل .

قوله تعالى : (إنَّ الله عنده عِلْم الساعة) سبب نزولها أن رجلاً من

أهل البادية جاء إلى النبي ﷺ فقال : إنّ امرأتي حُبْلى ، فأخبرني ماذا تَلِد ؟ وبلدنا مُجْدِب ، فأخبِرني متى يَنزل الغيث ؟ وقد علمت متى وُلدتُ ، فأخبرني متى أموتُ ، فنزلت هذه الآية ، قاله مجاهد [1] .

ومعنى الآية : « إن الله » عز وجل « عنده عِلْم الساعة » متى تقوم ، لا يعلم سواه ذلك (ويُنْزِلُ الغَيْثَ) وقرأ نافع ، وعاصم ، وابن عامر : « ويُنَزِّلُ » بالتشديد ، فلا يعلم أحد متى يَنزل الغيث ، ألَيْلاً أم نهاراً (ويَعْلَمُ ما في الأرحام) لا يعلم سواه ما فيها ، أذكراً أم أنثى ، أبيض أم أسود (وما تَدري نَفْسٌ ماذا تَكْسِبُ غداً) أخيراً أم شرّاً (وما تَدري نَفْس بِأيِّ أرض تموت) أي : بأيِّ مكان [2] . وقرأ ابن مسعود ، وأُبيّ بن كعب ،

(١) « الطبري » ٢١/٨٧ ، وأورده السيوطي في « الدر » ٥/١٦٩ ، وزاد نسبته للفريابي ، وابن أبي حاتم عن مجاهد ، وذكره الواحدي في « أسباب النزول » : ١٩٩ بدون سند ، وكذلك البغوي في « التفسير » وغيره .

(٢) قال ابن كثير : هذه مفاتيح الغيب التي استأثر الله تعالى بعلمها ، فلا يعلمها أحد إلا بعد إعلامه تعالى بها ، فعلم وقت الساعة لا يعلمه نبي مرسل ، ولا مَلَك مقرَّب (لا يجلّيها لوقتها إلا هو) وكذلك إنزال الغيث لا يعلمه إلا الله ، ولكن إذا أمر به علمته الملائكة الموكلون بذلك ومن يشاء الله من خلقه ، وكذلك لا يعلم مافي الأرحام مما يريد أن يخلقه تعالى سواه ، ولكن إذا أمر بكونه ذكراً أو أنثى ، أو شقياً أو سعيداً ، علم الملائكة الموكلون بذلك ومن شاء الله من خلقه ، وكذلك لا تدري نفس ماذا تكسب غداً في دنياها وأخراها (وما تدري نفس بأي أرض تموت) في بلدها أو غيره من أي بلاد الله كان ، لا علم لأحد بذلك ، قال : وهذه شبيهة بقوله تعالى : (وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو ...) الآية . ثم قال : وقد وردت السنة بتسمية هذه الخمس : مفاتيح الغيب ، قال : فروى الامام أحمد عن ابن عمر رضي الله عنها قال : قال رسول الله ﷺ : « مفاتيح الغيب خمس لا يعلمهن إلا الله : (إن الله عنده علم الساعة وينزل الغيث ويعلم مافي الأرحام وما تدري نفس ماذا تكسب غداً وما تدري نفس بأي أرض تموت إن الله عليم خبير) » قال : ورواه البخاري . اه .

وابن أبي عبلة : « بأيَّة أرض » بتاء مكسورة . والمعنى : ليس أحد يعلم [أين] مضجعه من الأرض حتى يموت ، أفي برٍّ أو بحر أو سهل أو جبل . وقال أبو عبيدة : [يقال] : بأيِّ أرض كنتَ ، وبأية أرض كنت ، لغتان . وقال الفراء : من قال : بأيِّ أرض ، اجتزأ بتأنيث الأرض من أن يُظهر في « أيّ » تأنيثاً آخر . قال ابن عباس : هذه الخمس لا يعلمها ملَك مقرَّب ولا نبيٌّ [مرسَل] مصطفى . قال الزجاج : فمن ادَّعى أنه يعلم شيئاً من هذه كفر بالقرآن لأنه خالفه [1] .

★ ★ ★

(١) قال الآلوسي في تتمه الآية : (إن الله عليم) مبالغ في العلم ، فلا يعزب عن علمه سبحانه شيء من الأشياء ، (خبير) يعلم بواطنها كما يعلم ظواهرها ، قال : فالجمع بين الوصفين للاشارة إلى التسوية بين علم الظاهر والباطن عنده عز وجل . اهـ .

سورة السجدة

وتسمى سورة المضاجع، وهي مكية باجماعهم

وقال الكلبي: فيها من المدنيّ ثلاث آيات، أولها قوله: (أفمن كان مؤمناً...) [السجدة: ١٨] وقال مقاتل: فيها آية مدنية، وهي قوله: (تتجافى جنوبهم ...) الآية [السجدة: ١٦]. وقال غيرهما: فيها خمس آيات مدنيّات، أولها (تتجافى جنوبهم ...) [السجدة: ١٦][1].

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ الٓمٓ . تَنْزِيلُ الْكِتَابِ لَارَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ . أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ لِتُنْذِرَ قَوْماً مَاأَتَاهُمْ مِن نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ . اللهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمٰوَاتِ

---

(١) روى البخاري في «صحيحه» في كتاب الجمعة عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: كان النبي ﷺ يقرأ في الفجر يوم الجمعة (آلم تنزيل) السجدة، و (هل أتى على الانسان)، ورواه مسلم أيضاً.

وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ مَا لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴾

قوله تعالى : (تنزيلُ الكتاب لا ريب فيه) قال مقاتل : المعنى : لا شكَّ فيه أنَّه تنزيل (مِنْ ربِّ العالمين) .

(أم يقولون) بل يقولون ، يعني المشركين (افتراه) محمد من تلقاء نفسه ، (بل هو الحقُّ من ربِّك لِتُنْذِر قوماً ما أتاهم من نذير من قبلك) يعني العرب الذين أدركوا رسول الله ﷺ لم يأتهم نذير من قبل محمد عليه السلام . وما بعده قد سبق تفسيره [الاعراف : ٥٤] إلى قوله : (ما لكم مِنْ دونه من وليٍّ) يعني الكفار ؛ يقول : ليس لكم من دون عذابه من وليٍّ ، أي : قريب يمنعكم فيردُّ عذابه عنكم (ولا شفيعٍ) يشفع لكم (أفلا تتذكَّرونَ) فتؤمنوا .

﴿ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ . ذَٰلِكَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ . الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ . ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ . ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ ﴾

قوله تعالى : (يدبِّر الأمر من السماء إلى الأرض) في معنى الآية قولان .

أحدها : يقضي القضاء من السماء فينزِّله مع الملائكة إلى الأرض (ثم يَعْرُجُ) الملَك (إليه في يوم) من أيام الدنيا ، فيكون الملَك قد قطع في يوم واحد من أيام الدنيا في نزوله وصعوده مسافة ألف سنة من مسيرة الآدمي .

والثاني : يدبِّر أمر الدنيا مدة أيَّام الدنيا ، فينزِّل القضاء والقدر من

السماء إلى الأرض « ثم يعرُج إليه » أي : يعود إليه الأمر والتدبير حين ينقطع أمر الأمراء وأحكام الحكّام وينفرد الله تعالى بالأمر (في يوم كان مقداره ألف سنة) وذلك في [يوم] القيامة ، لأنّ كل يوم من أيام الآخرة كألف سنة .

وقال مجاهد : يقضي أمر ألف سنة في يوم واحد ، ثم يلقيه إلى الملائكة ، فاذا مضت قضى لألف سنة أخرى ، ثم كذلك أبداً .

وللمفسرين في المراد بالأمر ثلاثة أقوال .

أحدها : أنه الوحي ، قاله السدي . والثاني : القضاء ، قاله مقاتل . والثالث : أمر الدنيا .

و « يعرُج » بمعنى يصعَد . قال الزجاج : يقال : عَرَجْتُ في السُّلَّم أعرُج ، وعَرِج (١) الرجُل يعرَج : إذا صار أعرج .

وقرأ معاذ القارىء ، وابن السميفع ، وابن أبي عبلة : « ثم يُعْرَجُ إليه » بياء مرفوعة وفتح الراء . وقرأ أبو المتوكل ، وأبو الجوزاء : « يَعْرِجُ » بياء مفتوحة وكسر الراء . وقرأ أبو عمران الجوني ، وعاصم الجحدري : « ثم تَعْرُجُ » بتاء مفتوحة ورفع الراء .

قوله تعالى : (الذي أحسنَ كُلَّ شيء خلَقه) فيه خمسة أقوال .

أحدها : جعله حَسَناً . والثاني : أحكم كل شيء ، رويا عن ابن عباس ، وبالأول قال قتادة ، وبالثاني قال مجاهد . والثالث : أحسنه ، لم يتعلمه من أحد ، كما يقال : فلان يُحْسِن كذا : إذا علِمه ، قاله السدي ، ومقاتل . والرابع :

---

(١) قال في « المصباح » : عَرِج في مشيه عَرَجاً من باب تعب : إذا كان من عِلَّة لازمة ، فهو أعرج ، والأنثى عرجاء ، فان كان من عِلَّة غير لازمة ، بل من شيء أصابه حتى غمز في مشيه ، قيل : عَرَج يَعْرُج ، من باب قتل ، فهو عارج .

أن المعنى : ألهم خَلْقه كلَّ مايحتاجون إليه ، كأنه أعلمهم كل ذلك وأحسنهم ، قاله الفراء . والخامس : أحسن إلى كل شيء خَلْقه ، حكاه الماوردي .

وفي قوله : « خَلْقَه » قراءتان . قرأ ابن كثير ، وأبو عمرو ، وابن عامر : « خَلْقَه » ساكنة اللام . وقرأ الباقون بتحريك اللام . وقال الزجاج : فتحها على الفعل الماضي ، وتسكينها على البدل ، فيكون المعنى : أحسنَ خَلْقَ كلِّ شيء خَلْقَه . وقال أبو عبيدة : المعنى : أحسن خَلْق كلِّ شيء ، والعرب تفعل مثل هذا ، يقدِّمون ويؤخِّرون .

قوله تعالى : (وبدأ خَلْقَ الإنسان) يعني آدم ، (ثم جعل نسله) أي : ذرِّيته وولده ؛ وقد سبق شرح الآية [المؤمنون : ١٢] .

ثم رجع إلى آدم فقال : (ثُمَّ سوَّاه ونَفَخ فيه من رُوحه) وقد سبق بيان ذلك [الحجر : ٢٩] . ثم عاد إلى ذريته فقال : (وجَعَل لكم السَّمْع والأبصار) أي : بعد كونكم نُطَفاً .

﴿ وَقَالُوا ءَإِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ ءَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ بَلْ هُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ . قُلْ يَتَوَفَّـكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ . وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُؤُسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴾

قوله تعالى : (وقالوا) يعني منكري البعث (أإذا ضَلَلْنا في الأرض) وقرأ عليّ بن أبي طالب ، وعليّ بن الحسين ، وجعفر بن محمد ، وأبو رجاء ، وأبو مجلز ، وحميد ، وطلحة : « ضَلِلْنا » بضاد معجمة مفتوحة وكسر اللام الأولى . قال الفراء : ضَلَلْنا وضَلِلْنا لغتان ، والمعنى : إذا صارت عظامنا ولحومنا تراباً

كالأرض ؛ تقول : ضَلَّ الماء في اللَّبَن ، وضل الشيء في الشيء : إذا أخفاه وغلب عليه . وقرأ أبو نهيك ، وأبو المتوكل ، وأبو الجوزاء ، وأبو حيوة ، وابن أبي عبلة : « ضُلِّلْنَا » [بضم] الضاد المعجمة وتشديد اللام الأولى وكسرها . وقرأ الحسن ، وقتادة ، ومعاذ القارىء : « صَلَلْنَا » بصاد غير معجمة مفتوحة ، وذكر لها الزجاج معنيين . أحدهما : أنْتَنَّا وتغَيَّرْنا وتغيَّرت صُوَرُنا ؛ يقال : صَلَّ اللحمُ وأصَلَّ : إذا أنتن وتغيَّر . والثاني : صِرْنَا من جنس الصَّلَّة ، وهي الأرض اليابسة .

قوله تعالى : (أإنَّا لفي خَلْق جديد) ؟! هذا استفهام إنكار .

قوله تعالى : (الذي وُكِّل بِكُم) أي : بقبض أرواحكم (ثُمَّ إلى ربِّكم تُرْجَعُون) يوم الجزاء .

ثم أخبر عن حالهم في القيامة فقال : (ولو ترى إذِ المجرِمون ناكِسو رؤوسِهم) أي : مُطأطئوها حياءً وندماً ، (ربَّنا) فيه إضمار « يقولون ربَّنا » (أبصَرْنا وَسمِعْنا) أي : عَلِمْنا صِحَّة ما كنَّا به مكذِّبين (فارْجِعنا) إلى الدنيا ؛ وجواب « لو » متروك ، تقديره : لو رأيتَ حالهم لرأيتَ مايُعتبر به ، ولشاهدت العَجَب .

﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ . فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا إِنَّا نَسِينَاكُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ . إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّداً وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَايَسْتَكْبِرُونَ . تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفاً وَطَمَعاً وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ

يُنْفِقُونَ . فَلاَ تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾

قوله تعالى : (ولكنْ حقَّ القولُ منِّي) أي : وجب وسبق ؛ والقول هو قوله لإبليس (لأملأنَّ جهنَّم منكَ وممَّن تبعك منهم أجمعين) [ص : ٨٥] .

قوله تعالى : (لأملأنَّ جهنَّم من الجِنَّة والنَّاس أجمعين) أي : من كفار الفريقين .

(فذُوقوا بما نسيتم لقاء يومكم هذا) قال مقاتل : إذا دخلوا النار قالت لهم الخزنة : فذوقوا العذاب . وقال غيره : إذا اصطرخوا فيها قيل لهم : ذُوقوا بما نَسيتُم ، أي : بما تركتم العمل للقاء يومكم هذا ، (إنَّا نَسيناكم) أي : تركناكم من الرَّحمة .

قوله تعالى : (إنَّما يؤمن بآياتنا الذين إذا ذُكِّروا بها) أي : وُعِظوا بها (خَرُّوا سُجَّداً) أي : سقطوا على وجوههم ساجدين . وقيل : المعنى : إنَّما يؤمن بفرائضنا من الصلوات الخمس الذين إذا ذُكِّروا بها بالأذان والإقامة خَرُّوا سُجَّداً .

قوله تعالى : (تتجافى جنوبُهم) اختلفوا فيمن نزلت وفي الصلاة التي تتجافى لها جنوبهم على أربعة أقوال .

أحدها : أنها نزلت في المتهجِّدين بالليل ؛ روى معاذ بن جبل عن رسول الله ﷺ في قوله : « تتجافى جنوبُهم » قال : « قيام العبد من الليل » [1] . وفي

---

(١) رواه أحمد في « المسند » : ٥/٢٣٢ من حديث حماد بن سلمة عن عاصم بن أبي النجود عن شهر بن حوشب عن معاذ بن جبل رضي الله عنه ، وفي سنده ضعف . قال الحافظ ابن رجب الحنبلي : ورواية شهر بن حوشب عن معاذ مرسلة يقيناً ، وكذلك رواه الطبري ٢١/١٠٣ به ، وأورده السيوطي في « الدر » : ٥/١٧٥ وزاد نسبته لابن مردويه عن معاذ رضي الله عنه ، وقال الحافظ ابن حجر في « تخريج الكشاف » ١٣١ : رواه أحمد ، وابن أبي شيبة ، وإسحاق ، والحاكم من رواية أبي وائل عن معاذ في أثناء حديث مرفوع قال : « وصلاة الرجل في جوف الليل » ثم قرأ (تتجافى جنوبهم عن المضاجع) . اهـ . يريد به الرواية التي بعد هذه ، وأبو وائل لم يثبت سماعه من معاذ .

لفظ آخر أنه قال لمعاذ : « إن شئتَ أنبأتُك بأبواب الخير » ، قال : قلت أجَلْ يارسول الله ، قال : « الصَّوم جُنَّة ، والصدقة تكفِّر الخطيئة ، وقيام الرَّجل في جوف الليل يبتغي وجه الله » ، ثم قرأ : « تتجافى جنوبُهم عن المضاجع »[١] . وكذلك قال الحسن ، ومجاهد ، وعطاء ، وأبو العالية ، وقتادة ، وابن زيد أنها في

(١) هو جزء من حديث طويل ، رواه بهذا اللفظ الحاكم في « المستدرك » : ٤١٣/٢ من حديث حبيب بن أبي ثابت والحكم بن عتبة ، عن ميمون بن أبي شبيب عن معاذ بن جبل رضي الله عنه ، وقال : هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه ، قال الحافظ ابن رجب الحنبلي في « جامع العلوم والحكم » : وميمون بن أبي شبيب لم يسمع من معاذ . والحديث رواه الطبري : ١٠٢/٢١ مختصراً كما ساقه المؤلف عن ميمون بن أبي شبيب عن معاذ ، ورواه مطولاً بنحو رواية الحاكم أحمد في « المسند » : ٢٣١/٥ والترمذي في « جامعه » : ٨٦/٢ ، وابن ماجه في « سننه » رقم (٣٩٧٣) من رواية معمر عن عاصم بن أبي النجود عن أبي وائل عن معاذ بن جبل رضي الله عنه ، وقال الترمذي : هذا حديث حسن صحيح ، وهذا الحديث هو الحديث التاسع والعشرون من الأربعين النووية ، وقد قال الحافظ ابن رجب الحنبلي في شرحه لهـــذا الحديث في كتابه « جامع العلوم والحكم » : وفيما قاله الترمذي رحمه الله نظر من وجهين ، أحدهما : أنه لم يثبت سماع أبي وائل من معاذ وإن كان قد أدركه بالسنّ ، والثاني : أنه قد رواه حماد بن سلمة عن عاصم بن أبي النجود عن شهر بن حوشب عن معاذ ، خرجه الامام أحمد مختصراً ـ يريد به الحديث الذي قبل هذا ـ ثم قال : قال الدارقطني : وهو أشبه بالصواب ، لأن الحديث معروف من رواية شهر على اختلاف عليه فيه ، قلت ـ أي الحافظ ابن رجب الحنبلي ـ : رواية شهر عن معاذ مرسلة يقيناً ، وشهر مختلف في توثيقه وتضعيفه ، قال : وقد خرجه الامام أحمد من رواية شهر عن عبد الرحمن بن غنم عن معاذ ، وخرجه الامام أحمد أيضاً من رواية عروة ابن النزّال ، أو النزال بن عروة ، وميمون بن أبي شبيب ، كلاهما عن معاذ ، ولم يسمع عروة ولا ميمون من معاذ ، قال : وله طرق أخرى عن معاذ كلها ضعيفة ، والحديث ذكره السيوطي في « الدر » : ١٧٥/٥ وزاد نسبته لابن نصـــر في كتاب الصلاة ، وابن أبي حاتم ، وابن مردويه ، والبيهقي في « شعب الايمان » عن معاذ بن جبل رضي الله عنه . اهـ . ولبعض فقرات الحديث شواهد ، والله أعلم .

قيام الليل . وقد روى العوفي عن ابن عباس قال : تتجافى جنوبهم لذِكْر الله ، كلّما استيقظوا ذَكَروا الله ، إمّا في الصلاة ، وإمّا في قيام ، أو في قعود ، أو على جنوبهم ، فهم لايزالون يذكُرون الله عز وجل .

والثاني : أنها نزلت في ناس من أصحاب رسول الله ﷺ كانوا يصلّون مابين المغرب والعشاء ، قاله أنس بن مالك .

والثالث : أنها نزلت في صلاة العشاء [كان أصحاب رسول الله ﷺ لاينامون حتى يصلّوها ، قاله ابن عباس .

والرابع : أنها صلاة العشاء] والصبح في جماعة ، قاله أبو الدرداء ، والضحاك .

ومعنى « تَتَجافى » : ترتفع . والمَضاجِع جمع مَضْجَع ، وهو الموضع الذي يُضْطَجَع عليه .

(يَدْعُونَ ربَّهم خَوْفاً) من عذابه (وطمعاً) في رحمته [وثوابه] (ومِمَّا رَزَقْناهم يُنْفِقونَ) في الواجب والتطوّع .

(فلا تَعْلَمُ نَفْسٌ ما أُخْفِيَ لهم) وأسكن ياء « أُخْفِي » حمزة ، ويعقوب . قال الزجاج : في هذا دليل على أن المراد بالآية التي قبلها : الصلاة في جوف الليل ، لأنه عمل يستسرّ الإنسان به ، فجعل لفظ مايُجازى به « أُخفي لهم » ، فاذا فتحتَ ياء « أُخْفِيَ » ، فعلى تأويل الفعل الماضي ، وإذا أسكنْتَها ، فالمعنى : ما أُخْفِي أنا لهم ، إخبار عن الله تعالى ؛ وكذلك قال الحسن البصري : أخفي لهم ، بالخُفْية خُفْية ، وبالعلانية علانية . وروى أبو هريرة عن رسول الله ﷺ قال : « يقول الله عز وجل : أعددتُ لعبادي الصالحين مالا عين رأت ولا أُذن سمعت ولا خَطَرَ على قلب بشر ، اقرؤوا إن شئتم : (فلا تَعْلَمُ نَفْس ما أُخْفِيَ لهم) »[1] .

---

(١) رواه البخاري في « صحيحه » : ٣٩٦/٨ ، ومسلم في « صحيحه » : ٢١٧٤/٤ ، —

قوله تعالى : (مِن قُرَّة أعيُن) وقرأ أبو الدرداء ، وأبو هريرة ، وأبو عبد الرحمن السلمي ، والشعبي ، وقتادة : « من قُرَّاتِ أعيُن » [بألف] على الجمع .

﴿ أفَمَنْ كَانَ مُؤْمِناً كَمَنْ كَانَ فَاسِقاً لَا يَسْتَوُونَ . أمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَى نُزُلاً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ . وَأمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ كُلَّمَا أرَادُوا أنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ . وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الأدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الأكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ . وَمَنْ أظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أعْرَضَ عَنْهَا إنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنْتَقِمُونَ ﴾

قوله تعالى : (أفمن كان مؤمناً كمن كان فاسقاً) في سبب نزولها قولان .

أحدهما : أن الوليد بن عقبة بن أبي مُعَيط قال لعليّ بن أبي طالب : أنا أحدُّ منك سناناً ، وأبسط منك لساناً ، وأملأُ للكتيبة منك ، فقال له عليٌّ : اسكت فإنما أنت فاسق ، فنزلت هذه الآية [1] ، فعنى بالمؤمن علياً ، وبالفاسق الوليد ،

—— ورواه الترمذي ٢/١٥١ وقال : هذا حديث حسن صحيح ، ورواه ابن جرير الطبري في « التفسير » : ٢١/١٠٥ ، وذكره السيوطي في « الدر » : ٥/١٧٦ وزاد نسبته ، لابن أبي شيبة ، وأحمد وهنـاد كلاهما في « الزهد » ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وابن مردويه ، وابن الأنباري عن أبي هريرة رضي الله عنه .

(١) ذكره الواحدي في « أسباب النزول » : ٢٠٠ ، عن ابن عباس رضي الله عنهما ، وفي سنده ضعف . وقال السيوطي في « أسباب النزول » ١٧٤ : وأخرج ابن عدي ، والخطيب في « تاريخه » من طريق الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس مثله ، وذكره ابن جرير الطبري في « التفسير » : ٢١/١٠٧ عن عطاء بن يسار بمثله ، وفي سنده جهالة ، وذكره السيوطي عن عطاء بن يسار ، وزاد نسبته لابن إسحاق ، قال الحافظ ابن حجر في « تخريج الكشاف » ١٣١ بعد أن خرجه من رواية ابن مردويه والواحدي عن سعيد بن جبير عن ابن عباس : وله طريق أخرى عند ابن مردويه من رواية الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس . اهـ .

رواه سعيد بن جبير عن ابن عباس ، وبه قال عطاء بن يسار ، وعبد الرحمن ابن أبي ليلى ، ومقاتل .

والثاني : أنها نزلت في عمر بن الخطاب وأبي جهل ، قاله شريك .

قوله تعالى : (لا يستوون) قال الزجاج : المعنى : لايستوي المؤمنون والكافرون [١] ؛ ويجوز أن يكون لاثنين ، لأن معنى الاثنين جماعة ؛ وقد شهد الله بهذا الكلام لعليّ عليه السلام بالايمان وأنَّه في الجنَّة ، لقوله : (أمَّا الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم جنَّات المأوى) . وقرأ ابن مسعود ، وطلحة بن مصرّف : « جنةُ المأوىٰ » على التوحيد .

قوله تعالى : (نُزُلاً) وقرأ الحسن ، والنخعي ، والأعمش ، وابن أبي عبلة : « نُزْلاً » بتسكين الزاي . وما بعد هذا قد سبق بيانه [الحج : ٢٢] إلى قوله : (ولَنُذيقنَّهم مِنَ العذاب الأدنى) وفيه ستة أقوال .

أحدها : أنه ما أصابهم يوم بدر ، رواه مسروق عن ابن مسعود ، وبه قال قتادة ، والسدي .

والثاني : سنون أُخذوا بها ، رواه أبو عبيدة عن ابن مسعود ، وبه قال النخعي . وقال مقاتل : أُخذوا بالجوع سبع سنين .

والثالث : مصائب الدنيا ، قاله أُبيّ بن كعب ، وابن عباس في رواية ابن أبي طلحة ، وأبو العالية ، والحسن ، وقتادة ، والضحاك .

والرابع : الحدود ، رواه عكرمة عن ابن عباس .

والخامس : عذاب القبر ، قاله البراء .

والسادس : القتل والجوع ، قاله مجاهد [٢] .

---

(١) وكذلك قال أكثر المفسرين .

(٢) قال ابن جرير الطبري ٢١/١١٠ : وأولى الأقوال في ذلك أن يقال : إن الله وعد ـــ

قوله تعالى : (دون العذاب الأكبر) أي : قَبْل العذاب الأكبر ؛ وفيه قولان . أحدها : أنه عذاب يوم القيامة ، قاله ابن مسعود . والثاني : أنه القتل ببدر ، قاله مقاتل .

قوله تعالى : (لعلَّهم يرجِعون) قال أبو العالية : لعلهم يتوبون . وقال ابن مسعود : لعلَّ مَنْ بقي منهم يتوب . وقال مقاتل : لكي يرجِعوا عن الكفر إلى الإيمان .

قوله تعالى : (ومن أظلمُ) قد فسرناه في (الكهف : ٥٧) .

قوله تعالى : (إنّا من المجرمين منتقمون) قال زيد بن رفيع[1] : هم أصحاب القَدَر . وقال مقاتل : هم كفار مكة انتقم الله منهم بالقتل ببدر ، وضربت الملائكةُ وجوههم وأدبارهم ، وعجَّل أرواحهم إلى النار .

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَلَا تَكُنْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقَائِهِ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِبَنِي إِسْرَائِيلَ . وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ . إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ . أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ

ـــ هؤلاء الفسقة المكذّبين بوعيده في الدنيا العذاب الأدنى أن يذيقهموه دون العذاب الأكبر ، والعذاب: هو ما كان في الدنيا من بلاءٍ أصابهم ، إما شدة من مجاعة ، أو قتل ، أو مصائب يصابون بها ، فكل ذلك من العذاب الأدنى ، ولم يخصص الله تعالى ذكره إذ وعدهم ذلك أن يعذبهم بنوع من ذلك دون نوع ، وقد عذّبهم بكل ذلك في الدنيا ، بالقتل ، والجوع ، والشدائد ، والمصائب في الأموال ، فأوفى لهم بما وعدهم . اهـ . وقال ابن كثير : وقوله تعالى : (ولنذيقنهم من العذاب الأدنى دون العذاب الأكبر) قال ابن عباس : يعني بالعذاب الأدنى : مصائب الدنيا وأسقامها وآفاتها وما يحلُّ بأهلها مما يبتلي الله به عباده ليتوبوا إليه . اهـ .

(١) كذا الأصل ، والذي في « الطبري » ، و « البحر » : « يزيد بن رُفَيع » .

أَفَلَا يَسْمَعُونَ . أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ . وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْفَتْحُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ . قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيمَانُهُمْ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ . فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَانْتَظِرْ إِنَّهُمْ مُنْتَظِرُونَ ﴾

قوله تعالى : (ولقد آتينا موسى الكتاب) يعني التوراة (فلا تَكُنْ في مِرْيَة من لقائه) فيه أربعة أقوال .

أحدها : فلا تكن في مرية من لقاء موسى ربَّه ، رواه ابن عباس عن رسول الله ﷺ (١) .

والثاني : من لقاء موسى ليلة الإسراء ، قاله أبو العالية ، ومجاهد ، وقتادة ، وابن السائب .

والثالث : فلا تكن في شكٍّ من لقاء الأذى كما لقي موسى ، قاله الحسن .

والرابع : لا تكن في مرية من تلقّي موسى كتابَ الله بالرضى والقبول ، قاله السدي . قال الزجاج : وقد قيل : فلا تكن في شكٍّ من لقاء موسى الكتاب ، فتكون الهاء للكتاب . وقال أبو علي الفارسي : المعنى : من لقاء موسى الكتاب ، فأضيف المصدر إلى ضمير الكتاب ، وفي ذلك مدح له على امتثاله ما أُمر به ، وتنبيه على الأخذ بمثل هذا الفعل .

---

(١) رواه الطبري : ٢١/١١٢ مطولاً من حديث سعيد بن أبي عروبة عن قتادة عن أبي العالية عن ابن عباس مرفوعاً ، وذكره ابن كثير في « التفسير » : ٣/٤٦٣ من رواية الطبراني به مرفوعاً ، وأورده السيوطي في « الدر » : ٥/١٧٩ وزاد نسبته للضياء في « المختارة » عن ابن عباس عن النبي ﷺ .

وفي قوله : (وجعلناه هُدىً) قولان . أحدهما : الكتاب ، قاله الحسن .
والثاني : موسى ، قاله قتادة .

(وجعلنا منهم) أي : من بني إسرائيل (أئمةً) أي : قادة في الخير (يَهْدُونَ بأمرنا) أي : يدعون الناس إلى طاعة الله (لمَّا صبروا) [قرأ ابن كثير ، وعاصم ، ونافع ، وأبو عمرو ، وابن عامر : « لَمَّا صبروا » بفتح اللام وتشديد الميم . وقرأ حمزة ، والكسائي : « لِمَا » بكسر اللام خفيفة . وقرأ ابن مسعود : « بِما » بياء مكان اللام ؛ والمراد : صبرهم] على دينهم وأذى عدوِّهم (وكانوا بآياتنا يوقِنون) أنها من الله عز وجل ؛ وفيهم قولان . أحدهما : أنهم الأنبياء . والثاني : أنهم قومٌ صالحون سوى الأنبياء . وفي هذا تنبيه لقريش أنكم إن أطعتم جعلتُ منكم أئمة .

قوله تعالى : (إنَّ ربَّكَ هو يَفْصِلُ بينهم) أي : يقضي ويحكُم ؛ وفي المشار إليهم قولان . أحدهما : أنهم الأنبياء وأممهم . والثاني : المؤمنون والمشركون .

ثم خوَّف كفار مكة بقوله : (أوَلَمْ يَهْدِ لهم) وقرأ أبو عبد الرحمن السلمي : « نَهْدِ » بالنون . وقد سبق تفسيره في (طه : ١٢٨) .

(أوَلَمْ يَرَوْا أنَّا نَسُوق الماء) يعني المطر والسيل (إلى الأرض الجُرُز) وهي التي لاتُنبت - وقد ذكرناها في أول (الكهف : ٨) - فاذا جاء الماء أنبتَ فيها مايأكل الناسُ والأنعام .

(ويقولون) يعني كفار مكة (متى هذا الفتح) وفيه أربعة أقوال .

أحدها : أنه مافتح يوم بدر ؛ روى عكرمة عن ابن عباس في هذه الآية قال : يومَ بدر فُتح للنبيِّ ﷺ ، فلم ينفع الذين كفروا إيمانُهم بعد الموت .

والثاني : أنه يوم القيامة ، وهو يوم الحُكم بالثواب والعقاب ، قاله مجاهد .

والثالث : أنه اليوم الذي يأتيهم فيه العذاب في الدنيا ؛ قاله السدي .

والرابع : فتح مكة ، قاله ابن السائب ، والفراء ، وابن قتيبة [١] ؛ وقد اعتُرض على هذا القول ، فقيل : كيف لاينفع الكفارَ إيمانُهم يوم الفتح ، وقد أسلم جماعة منهم وقُبِلَ إسلامُهم يومئذ ؟ ! فعنه جوابان .

أحدهما : لا ينفع مَنْ قُتل من الكفار يومئذ إيمانُهم بعد الموت ؛ وقد ذكرناه عن ابن عباس . وقد ذكر أهل السِيَر أنَّ خالداً دخل يوم الفتح من غير الطريق التي دخل منها رسول الله ﷺ ، فلقيه صفوان بن أميّة وسهيل ابن عمرو في آخرين فقاتلوه ، فصاح خالد في أصحابه وقاتلهم ، فقتل أربعة وعشرين من قريش ، وأربعة من هذيل ، وانهزموا ، فلمّا ظهر رسولُ الله ﷺ قال : « ألم أنه عن القتال » ؟ فقيل : إن خالداً قوتل فقاتل [٢] .

والثاني : لا ينفع الكفارَ ما أُعطوا من الأمان ، لأن النبي ﷺ قال :

---

(١) قال ابن جرير الطبري : والصواب من القول في ذلك قول من قال : معناه : ويقولون : متى يجيء هذا الحكم بيننا وبينكم ؟ يعنون العذاب ، يدل على أن ذلك معناه قولُه : (قل يوم الفتح لاينفع الذين كفروا إيمانهم ولا هم ينظرون) ، ولا شك أن الكفار قد كان جعل الله لهم التوبة قبل فتح مكة وبعده ، ولو كان معنى قوله : (متى هذا الفتح) على ماقاله من قال : يعني به فتح مكة ، لكان لاتوبة لمن أسلم من المشركين بعد فتح مكة ، ولا شك أن الله قد تاب على كثير من المشركين بعد فتح مكة ، ونفعهم بالايمان به وبرسوله ، فمعلوم بذلك صحة ماقلنا من التأويل وفساد ماخالفه . قال : وقوله : (قل يوم الفتح لاينفع الذين كفروا إيمانهم) يقول لنبيه محمد ﷺ : قل لهم يامحمد : يوم الحكم ومجيء العذاب لاينفع من كفر بالله وبآياته إيمانهم الذي يُحدثونه في ذلك الوقت . وقال : وقوله : (ولا هم ينظرون) يقول : ولا هم يؤخَّرون للتوبة والمراجعة . اهـ .

(٢) ذكره ابن هشام ٢/٤٠٧ عن ابن إسحاق بدون سند ، وذكره الحافظ ابن كثير في « البداية والنهاية » ٤/٢٩٧ من رواية الطبراني بنحوه .

« مَنْ أغلق بابَه فهو آمن ، ومن دخل دار أبي سفيان فهو آمن »[1] . قال الزجاج : يقال : آمنتُ فلاناً إيماناً ، فعلى هذا يكون المعنى : لا يدفع هذا الأمانُ عنهم عذابَ الله . وهذا القول الذي قد دافعنا عنه ليس بالمختار ، وإنما بيَّنَّا وجهه لأنه قد قيل .

وقد خرج بما ذكرنا في الفتح قولان . أحدهما : أنه الحُكم والقضاء ، وهو الذي نختاره . والثاني : فتح البلد .

قوله تعالى : (فأَعْرِضْ عنهم وانتَظِر) أي : انتظر عذابهم (إنَّهم مُنْتَظِرونَ) بك حوادث الدهر[2] . قال المفسرون : وهذه الآية منسوخة بآية السيف .

★ ★ ★

(١) رواه مسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه ١٤٠٨/٣ بلفظ : « من دخل دار أبي سفيان فهو آمن ، ومن ألقى السلاح فهو آمن ، ومن أغلق بابه فهو آمن » وأخرجه ابن هشام في « السيرة » ، عن ابن إسحاق معضلاً ، ولكن وصله ابن جرير الطبري ، ورواه أبو داود عن ابن إسحاق بإسناد آخر له عن ابن عباس ، وفي سنده رجل مجهول ، وله عند أبي داود إسناد ثالث ورجاله ثقات ، لكن لم يصرح فيه ابن إسحاق بالسماع ، وذكره الهيثمي في « مجمع الزوائد » : ١٦٦/٦ وقال : رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح .

(٢) قال ابن كثير : (فأعرض عنهم وانتظر إنهم منتظرون) أي : أعرض عن هؤلاء المشركين ، وبلّغ ماأنزل إليك من ربك ، وانتظر فان الله سينجز لك ماوعدك ، وسينصرك على من خالفك ، إنه لا يخلف الميعاد . وقوله : (إنهم منتظرون) أي : أنت منتظر وهم منتظرون ، ويتربّصون بكم الدوائر ، وسترى أنت عاقبة صبرك عليهم وعلى أداء رسالة الله في نصرك وتأييدك ، وسيجدون غِبَّ ماينتظرون فيك وفي أصحابك من وبيل عقاب الله لهم وحلول عذابه بهم ، وحسبنا الله ونعم الوكيل . اهـ .

سورة الأحزاب

وهي مدنيّة باجماعهم

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ يَا أيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللهَ وَلا تُطِعِ الكَافِرِينَ وَالمُنَافِقِينَ إنَّ اللهَ كَانَ عَلِيماً حَكِيماً . وَاتَّبِعْ مَا يُوحَى إلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ إنَّ اللهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً . وَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ وَكَفَى بِاللهِ وَكِيلاً . مَاجَعَلَ اللهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ وَمَا جَعَلَ أزْوَاجَكُمُ اللاَّئِي تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ وَمَا جَعَلَ أدْعِيَاءَكُمْ أبْنَاءَكُمْ ذَلِكُمْ قَوْلُكُمْ بِأفْوَاهِكُمْ وَاللهُ يَقُولُ الحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ ﴾

قوله تعالى : (يا أيُّها النبيُّ اتَّقِ الله) سبب نزولها أن أبا سفيان بن حرب ، وعكرمة بن أبي جهل ، وأبا الأعور السلمي ، قَدِموا على رسول الله ﷺ في الموادعة التي كانت بينهم ، فنزلوا على عبد الله بن أُبيّ ، ومعتّب بن قُشَير ، والجَدِّ بن قيس ؛ فتكلَّموا فيما بينهم ، وأتَوا رسول الله ﷺ فدعَوه إلى أمرهم

وعرضوا عليه أشياء كرهها ، فنزلت هذه الآية ، رواه أبو صالح عن ابن عباس . قال مقاتل : سألوا رسول الله ﷺ أن يرفُض ذِكْر اللات والعُزّى ويقولَ : إنّ لها شفاعة ، فكَرِه ذلك ، ونزلت [هذه] الآية [1] . وقال ابن جرير : (ولا تُطِع الكافرينَ) الذين يقولون : اطرد عنّا أتباعك من ضعفاء المسلمين (والمنافقينَ) فلا تَقْبَل منهم رأياً .

فان قيل : ما الفائدة في أمر الله تعالى رسولَه بالتقوى ، وهو سيِّد المتّقين ؟! فعنه ثلاثة أجوبة .

أحدها : أن المراد بذلك استدامة ما هو عليه . والثاني : الإكثار مما هو فيه . والثالث : أنه خطاب ُووجِهَ به ، والمراد أمّتُه .

قال المفسرون : وأراد بالكافرين في هذه الآية : أبا سفيان ، وعكرمة ، وأبا الأعور ، وبالمنافقين : عبد الله بن أُبيّ ، وعبد الله بن سعد بن أبي سرح ، وطُعمة بن أُبَيْرِق . وما بعد هذا قد سبق بيانه [النساء : ٨١] إلى قوله : (ما جعل اللهُ لرجُل من قلبين في جوفه) وفي سبب نزولها قولان .

أحدها : أن المنافقين كانوا يقولون : لمحمد قلبان ، قلب معنا ، وقلبٌ مع أصحابه ، فأكذبهم اللهُ تعالى ، ونزلت هذه الآية ، قاله ابن عباس [2] .

---

(١) رواه الواحدي في « أسباب النزول » : ٢٠١ بغير سند ، وقال الحافظ ابن حجر في « تخريج الكشاف » ١٣٢ : هكذا ذكره الثعلبي والواحدي بغير سند .

(٢) « الطبري » : ٢١/١١٨ ، وفي سنده قابوس بن أبي ظبيان ، قال الحافظ ابن حجر عنه في « التقريب » : فيه لين . ورواه الترمذي في « جامعه » : ٢/١٥١ وقال : حديث حسن ، وفي سنده أيضاً قابوس بن أبي ظبيان ، ورواه الحاكم في « المستدرك » : ٢/٤١٥ ، وصححه ، ولكن قال الذهبي في تعقّبه عليـه : قلت : قابوس ضعيف . وأورد الحديث السيوطي في « الدر » : ٥/١٨٠ ، وزاد نسبته لأحمد ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وابن مردويه ، والضياء في « المختارة » عن ابن عباس رضي الله عنهما .

والثاني : أنها نزلت في جميل بن مَعْمَر الفهري ـ كذا نسبه جماعة من المفسرين . وقال الفراء : جميل بن أسد ، ويكنى : أبا مَعْمَر . وقال مقاتل : أبو مَعْمَر بن أنس الفهري ـ وكان لبيباً حافظاً لِمَا سمع ، فقالت قريش : ماحفظ هذه الأشياء إلا وله قلبان في جوفه ، وكان يقول : إن لي قلبين أعقِل بكل واحد منهما أفضل من عقل محمد ، فلمَّا كان يوم بدر وهُزم المشركون وفيهم يومئذ جميل بن معمر ، تلقَّاه أبو سفيان وهو معلّق إحدى نعليه بيده ، والأخرى في رجله ، فقال له : ما حالُ الناس ؟ فقال : انهزموا ، قال : فما بالك إحدى نعليك في يدك والأخرى في رجلك ؟ قال : ما شعرتُ إلاَّ أنهما في رِجليّ ، فعرفوا [يومئذ] أنه لو كان له قلبان لَمَا نسي نعله في يده [١] ؛ وهذا قول جماعة من المفسرين . وقد قال الزهري في هذا قولاً عجيباً ، قال : بلغَنا أن ذلك في زيد ابن حارثة ضُرب له مثَل يقول : ليس ابنُ رجل آخر ابنَك [٢] . قال الأخفش : « مِنْ » زائدة في قوله : « مِنْ قلبين » .

---

(١) ذكره الواحدي في « أسباب النزول » : ٢٠١ بدون سند ، وذكره الطبري ٢١/١١٨ ، مختصراً عن ابن عباس أنها نزلت في رجل من قريش يسمى من دَهْيِه : ذا القلبين ، وذكر عن مجاهد أن رجلاً من بني فهر قال : إن في قلبي جوفين . . . الخ ، وذكره السيوطي في « الدر » : ٥/١٨٠ ، من رواية ابن أبي حاتم مختصراً عن السدي أنها نزلت في رجل من قريش من بني جمح يقال له : جميل بن معمر .

(٢) ذكره الطبري : ٢١/١١٩ ، عن الحسن بن يحيى قال : أخبرنا عبد الرزاق ، قال : أخبرنا معمر ، عن الزهري . وأورده السيوطي في « الدر » : ٥/١٨١ من رواية عبد الرزاق ، وابن جرير الطبري عن الزهري ، وكذا قال مجاهد ، وقتادة ، وابن زيد : إنها نزلت في زيد بن حارثة رضي الله عنه . قال الطبري : وأولى الأقوال في ذلك بالصواب قول من قال : ذلك تكذيب من الله تعالى قولَ من قال : لرجل في جوفه قلبان يعقل بهما ، على النحو الذي روي عن ابن عباس ، وجائز أن يكون ذلك تكذيباً من الله لمن وصف رسول الله ﷺ بذلك ، وأن يكون تكذيباً لمن سمى القرشيَّ الذي ذكر أنه سُمّي ذا القلبين من دَهْيِه ، وأي الأمرين كان ، فهو نفي من الله عن خلقه من الرجال أن يكونوا بتلك الصفة . اهـ .

قال الزجاج : أكذبَ اللهُ عز وجل هذا الرجل الذي قال : لي قلبـان ، ثم قرر بهذا الكلام ما يقوله المشركون وغيرهم ممَّا لا حقيقة له ، فقال : (وما جَعل أزواجَكم اللاَّئي تُظاهِرونَ مِنهُنَّ أُمَّهاتِكم) فأعلم الله تعالى أن الزوجة لا تكون أمّاً ، وكانت الجاهلية تُطلِّق بهذا الكلام ، وهو أن يقول لها : أنتِ عليَّ كظَهر أُمّي ، وكذلك قوله : (وما جَعل أدعياءَكم أبناءَكم) أي : ما جعل مَنْ تَدْعونه ابناً ـ وليس بولد في الحقيقة ـ ابناً (ذلكم قولُكم بأفواهكم) أي : نسبُ مَنْ لا حقيقةَ لنَسَبه قولٌ بالفم لا حقيقة تحته (واللهُ يقولُ الحقَّ) أي : لا يجعل غير الابن ابناً (وهو يَهدي السبيل) أي : للسبيل المستقيم [1] .

---

(١) قال ابن كثير في هذه الآيات : (ما كان لرجل من قلبين في جوفه . .) إلى آخره : يقول تعالى موطئاً قبل المقصود المنوي أمراً معروفاً حسيّاً ، وهو أنه كما لا يكون للشخص الواحد قلبان في جوفه ، ولا تصير زوجته التي يظاهر منهـا بقوله : أنت عليَّ كظهر أمّي أماً له ، كذلك لا يصير الدعيُّ ولداً للرجل إذا تبنّاه فدعاه ابناً له ، فقال : (ماجعل الله لرجلين من قلبين في جوفه وما جعل أزواجكم اللائي تظاهرون منهن أمهاتكم) كقوله عز وجل : (ماهن أمهاتِهم إن أمهاتُهم إلا اللائي ولدنهم . . .) الآية ، ثم قال : وقوله تعالى : (وما جعل أدعياءكم أبناءكم) هذا هو المقصود بالنفي ، فانها نزلت في شأن زيد بن حارثة رضي الله عنه مولى النبي ﷺ ، كان النبي ﷺ قد تبنّاه قبل النبوة فكان يقال له : زيد بن محمد ، فأراد الله تعالى أن يقطع هذا الالحاق وهذه النسبة بقوله تعالى : (وما جعل أدعياكم أبناءكم) كما قال تعالى في أثنـاء السورة : (ماكان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبين وكان الله بكل شيء عليماً) وقال ها هنا : (ذلكم قولكم بأفواهكم) يعني : تبنّيكم لهم قولٌ لا يقتضي أن يكون ابناً حقيقياً ، فانه مخلوق من صلب رجل آخر ، فما يمكن أن يكون له أبوان ، كما لا يمكن أن يكون للبشر الواحد قلبان ، (والله يقول الحق وهو يهدي السبيل) قـال سعيد بن جبير : « يقول الحق » أي : العدل ، وقال قتادة : « وهو يهدي السبيل » أي : الصراط المستقيم . اهـ .

وذكر المفسرون أن قوله : « وما جعل أزواجكم اللائي تُظاهِرون منهُنّ » نزلت في أوس بن الصامت وامرأته خولة بنت ثعلبة .

ومعنى الكلام : ما جعل أزواجكم اللاّئي تُظاهِرون منهنّ كأُمّهاتكم في التحريم ، إنّما قولُكم معصية ، وفيه كفّارة ، وأزواجُكم لكم حلال ؛ وسنشرح هذا في سورة (المجادلة) إن شاء الله . وذكروا أن قوله : « وما جعل أدعياءكم أبناءكم » نزل في زيد بن حارثة ، أعتقه رسول الله ﷺ وتبنّاه قبل الوحي ، فلمّا تزوّج رسولُ الله ﷺ زينب بنت جحش قال اليهود والمنافقون : تزوّج محمدٌ امرأة ابنه وهو ينهى الناس عنها ، فنزلت هذه الآية [1] .

﴿ أُدْعُوهُمْ لآبائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللهِ فَإِنْ لَمْ تَعْلَمُوا آباءَهُمْ فَإِخْوانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوالِيكُمْ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُناحٌ فِيما أَخْطَأْتُمْ بِهِ وَلٰكِنْ ما تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَكانَ اللهُ غَفُوراً رَحِيماً . النَّبِيُّ أَوْلىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَأَزْواجُهُ أُمَّهاتُهُمْ وَأُولُوا الْأَرْحامِ بَعْضُهُمْ أَوْلىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتابِ اللهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهاجِرِينَ إِلّا أَنْ تَفْعَلُوا إِلىٰ أَوْلِيائِكُمْ مَعْرُوفاً كانَ ذٰلِكَ فِي الْكِتابِ مَسْطُوراً ﴾

قوله تعالى : (أُدعوهم لآبائهم) قال ابن عمر : ما كنّا ندعو زيد بن حارثة إلا زيد بن محمد ، حتى نزلت « أُدعوهم لآبائهم » [2] .

---

(١) ذكره الواحدي في « أسباب النزول » : ٢٠١ بدون سند ، وذكره السيوطي في « الدر » : ١٨١/٥ ، من رواية الفريابي ، وابن أبي شيبة ، وابن المنذر ، عن مجاهد رضي الله عنه .

(٢) رواه البخاري في « صحيحه » : ٣٩٧/٨ ، ومسلم في ١٨٨٤/٤ ، وأخرجه الترمذي ، —

قوله تعالى : (هو أقسط) أي : أعدل ، (فان لم تَعْلَموا آباءهم) أي : إن لم تعرفوا آباءهم (فاخوانُكم) أي : فهُم إخوانُكم ، فليقُل أحدُكم : يا أخي ، (ومواليكم) قال الزجاج : أي : بنو عمِّكم . ويجوز أن يكون « مواليكم » أولياءكم في الدِّين .

(وليس عليكم جُناح فيما أخطأتم به) فيه ثلاثة أقوال .

أحدها : فيما أخطأتم به قبل النَّهي ، قاله مجاهد .

والثاني : في دعائكم من تَدْعونه إلى غير أبيه وأنتم تَرَونه كذلك ، قاله قتادة .

والثالث : فيما سهوتم فيه ، قاله حبيب بن أبي ثابت .

فعلى الأول يكون معنى قوله : (ولكن ما تعمَّدتْ قلوبُكم) أي : بعد النَّهي . وعلى الثاني والثالث : ما تعمَّدتْ في دعاء الرجل إلى غير أبيه .

قوله تعالى : (النَّبيُّ أولى بالمؤمِنين مِنْ أنفُسهم) أي : أحقُّ ، فله أن يحكُم فيهم بما يشاء ، قال ابن عباس : إذا دعاهم إلى شيء ، ودعتْهم أنفسهم إلى شيء ، كانت طاعتُه أولى من طاعة أنفُسهم ؛ وهذا صحيح ، فان أنفُسهم تدعوهم إلى ما فيه هلاكهم ، والرسول يدعوهم إلى ما فيه نجاتهم [1] .

ـــ والنسائي ، من طرق ، ورواه الواحدي في « أسباب النزول » : ٢٠١ ، وأورده السيوطي في « الدر » : ٥/١٨١ وزاد نسبته لابن أبي شيبة ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وابن مردويه ، والبيهقي في « سننه » عن عبد الله بن عمر بن الخطاب رضي الله عنه .

(١) قال ابن كثير : قد علم الله تعالى شفقة رسوله ﷺ على أمته ونصحه لهم ، فجعله أولى بهم من أنفسهم ، وحكمه فيهم كان مقدَّماً على اختيارهم لأنفسهم ، كما قال تعالى : (فلا وربك لايؤمنون حتى يحكّموك فيما شجر بينهم ثم لايجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيتَ ويسلموا تسليماً) قال : وفي الصحيح : « والذي نفسي بيده لايؤمن أحدكم حتى أكون ـــ

قوله تعالى : (وأزواجُه أمَّهاتُهم) أي : في تحريم نكاحهنَّ على التأبيد ، ووجوب إجلالهنَّ وتعظيمهنَّ ؛ ولا تجري عليهنَّ أحكام الأمَّهات في كل شيء ، إذ لو كان كذلك لَمَا جاز لأحد أن يتزوج بناتِهنَّ ، ولَوَرِثْنَ المسلمين ، ولجازت الخَلوة بهنَّ (١) . وقد روى مسروق عن عائشة أن امرأة قالت : يا أُمَّاه ، فقالت : لستُ لكِ بأُمٍّ ؛ إنما أنا أُمُّ رجالكم (٢) ؛ فبان بهذا الحديث أن معنى الأمومة تحريمُ نكاحهنَّ فقط . وقال مجاهد : « وأزواجُه أُمَّهاتُهم » وهو أب لهم . وما بعد هذا مفسَّر

ـــ أحبَّ إليه من نفسه وماله وولده والناس أجمعين » قال : وفي « الصحيح » أيضاً أن عمر رضي الله عنه قال : يارسول الله ! والله أنت أحبُّ إليَّ من كل شي إلا من نفسي ، فقال ﷺ : « لا ياعمر ، حتى أكون أحبَّ إليك من نفسك » فقال : يارسول الله ! والله لأنت أحبُّ إليَّ من كل شيء حتى من نفسي ، فقال ﷺ : « الآن ياعمر » ، ولهذا قال تعالى في هذه الآية : (النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم) . قال : وقال البخاري عند هذه الآية الكريمة : عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : « مامن مؤمن إلا وأنا أولى الناس به في الدنيا والآخرة ، اقرؤوا إن شئتم : (النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم) فأيما مؤمن ترك مالاً فليرثه عصبته من كانوا ، وإن ترك ديناً أو ضياعاً فليأتني فأنا مولاه » . اهـ .

(١) قال ابن كثير : (وأزواجه أمهاتهم) أي : في الحرمة والاحترام والتوقير والاكرام والاعظام ، ولكن لاتجوز الخلوة بهن ، ولا ينتشر التحريم إلى بناتهن وأخواتهن بالاجماع ، وإن سمى بعض العلماء بناتهن : أخوات المؤمنين ، كما هو منصوص الشافعي رضي الله عنه في « المختصر » وهو من باب إطلاق العبارة ، لا لإثبات الحكم ، ثم قال : وهل يقال لمعاوية وأمثاله : خال المؤمنين ؟ فيه قولان للعلماء رضي الله عنهم ، ونص الشافعي رضي الله عنه على أنه لايقال ذلك ، قال : وهل يقال لهن : أمهات المؤمنات فيدخل النساء في جمع المذكر السالم تغليباً ؟ فيه قولان ، صح عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت : لايقال ذلك ، وهذا أصح الوجهين في مذهب الشافعي رضي الله عنه اهـ .

(٢) أورده السيوطي في « الدر » : ١٨٢/٥ بنحوه من رواية ابن سعد ، وابن المنذر ، والبيهقي في « سننه » عن عائشة رضي الله عنها .

في آخر (الأنفال) إلى قوله تعالى : (من المؤمنين والمهاجرين) والمعنى أن ذوي القرابات بعضُهم أولى بميراث بعض من أن يَرِثوا بالإيمان والهجرة كما كانوا يفعلون قبل النسخ [1] (إلّا أن تفعلوا إلى أوليائكم معروفاً) [وهذا استثناء ليس من الأول ، والمعنى : لكن فِعلُكم إلى أوليائكم معروفاً] جائز ، وذلك أن الله تعالى لمّا نسخ التوارث بالحلف والهجرة ، أباح الوصية للمعاقدين ، فللانسان أن يوصيَ لمن يتولاّه بما أحب من ثلثه . فالمعروف هاهنا : الوصية .

قوله تعالى : (كان ذلك) يعني نسخ الميراث بالهجرة وردّه إلى ذوي الأرحام (في الكتاب) يعني اللوح المحفوظ (مسطوراً) أي : مكتوباً .

﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقاً غَلِيظاً . لِيَسْأَلَ الصَّادِقِينَ عَنْ صِدْقِهِمْ وَأَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَاباً أَلِيماً . يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً وَجُنُوداً لَمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيراً ﴾

قوله تعالى : (وإذ أخذْنا) المعنى : واذكر إذ أخذنا (من النبيّين ميثاقهم) أي : عهدهم ؛ وفيه قولان .

أحدهما : أخذُ ميثاق النبيّين : أن يصدِّق بعضُهم بعضاً ، قاله قتادة .

والثاني : أن يعبدوا الله ويدعوا إلى عبادته ، ويصدِّق بعضهم بعضاً ، وأن ينصحوا لقومهم ، قاله مقاتل .

---

(١) قال ابن كثير : أي القرابات أولى بالتوارث من المهاجرين والأنصار ، قال : وهذه ناسخة لما كان قبلها من التوارث بالحلف والمؤاخاة التي كانت بينهم ، كما قال ابن عباس وغيره : كان المهاجريُّ يرث الأنصاريَّ دون قراباته وذوي رحمه للأخوّة التي آخى بينهما رسول الله ﷺ ، وكذا قال سعيد بن جبير وغير واحد من السلف والخلف . اهـ .

وهذا الميثاق أُخذ منهم حين أُخرجوا من ظهر آدم كالذَّرِ . قال أُبيُّ بن كعب : لمَّا أخذ ميثاق الخَلْق خصَّ النبيّين بميثاق آخر [١] .

فان قيل : لِمَ خصَّ الأنبياء الخمسة بالذِّكر دون غيرهم من الأنبياء ؟

فالجواب : أنه نبَّه بذلك على فضلهم ، لأنهم أصحاب الكتب والشرائع ؛ وقدَّم نبيَّنا ﷺ بياناً لفضله عليهم . قال قتادة : كان نبيُّنا أولَ النبيّين في الخَلْق [٢] .

وقوله : (ميثاقاً غليظاً) أي : شديداً على الوفاء بما حُمِّلوا . وذكر المفسرون أن ذلك العهد الشديد : اليمينُ بالله عز وجل .

---

(١) قال ابن كثير : يقول تعالى مخبراً عن أولي العزم الخمسة (وهم : نوح ، وإبراهيم ، وموسى ، وعيسى ، ومحمد صلى الله عليه وعليهم أجمعين) وبقية الأنبياء : أنه أخذ عليهم العهد والميثاق في إقامة دين الله تعالى ، وإبلاغ رسالته ، والتعاون والتناصر والاتفاق . اهـ .

(٢) هذا الكلام ذكره بعضهم عن قتادة موقوفاً عليه ، ورواه ابن جرير الطبري : ٢١/١٢٥ ، من طريق سعيد بن بشير الأزدي عن قتادة مرسلاً قال : ذُكِر لنا أن نبي الله ﷺ كان يقول : « كنت أول الأنبياء في الخلق وآخرهم في البعث » وسعيد بن بشير الأزدي ، ضعيف كما قال الحافظ ابن حجر في « التقريب » ، والحديث ذكره ابن كثير ٣/٤٦٩ ، من رواية ابن أبي حاتم من حديث بشير بن سعيد قال : حدثني قتادة عن الحسن عن أبي هريرة مرفوعاً بلفظ « كنت أول النبيين في الخلق وآخرهم في البعث ، فبدىء بي قبلهم » ثم قال ابن كثير : وسعيد بن بشير فيه ضعف ، قال : ورواه سعيد بن أبي عروبة عن قتادة مرسلاً ، وهو الأشبه ، قال : ورواه بعضهم عن قتادة موقوفاً ، والله أعلم . وقال الحافظ السخاوي في « المقاصد الحسنة » : حديث « كنت أول النبيين في الخلق وآخرهم في البعث » رواه أبو نعيم في « الدلائل » ، وابن أبي حاتم في « تفسيره » وابن لال ، ومن طريقه الديلمي ، كلهم من حديث سعيد بن بشير عن قتادة عن الحسن عن أبي هريرة به مرفوعاً . اهـ . وسعيد بن بشير ضعيف كما قال الحافظ ابن حجر ، وللحديث رواية أخرى من حديث ميسرة الفجر بلفظ « كنت نبياً وآدم بين الروح والجسد » وهو صحيح الاسناد ، أخرجه أحمد ، والبخاري في « تاريخه » وأبو نعيم في « الحلية » والحاكم وصححه ، والترمذي وقال : حديث حسن صحيح . ولكن ليس معناه كما يتوهم بعض الناس أن نبينا محمداً ﷺ كان موجوداً بذاته قبل آدم ، وأن ذاته خلقت قبل الذوات ، ومن يقول بذلك فانما يعتمد على أحاديث غير صحيحة في هذا الموضوع .

(لِيَسأَلَ الصادقين) يقول : أخذنا ميثاقهم لكي نسأل الصادقين، وهم الأنبياء (عن صِدقهم) في تبليغهم . ومعنى سؤال الأنبياء ـ وهو يعلم صدقهم ـ تبكيت مكذِّبيهم . وهاهنا تم الكلام . ثم أخبر بعد ذلك عمَّا أعدَّ للكافرين بالرسل .

قوله تعالى : (ياأيُّها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ جاءتكم جنود) وهم الذين تحزَّبوا على رسول الله ﷺ أيام الخندق .

الإشارة إلى القصة

ذَكر أهل العلم بالسِّيرة أن رسول الله ﷺ لمَّا أجلى بني النضير ، ساروا إلى خيبر ، فخرج نفر من أشرافهم إلى مكة فألَّبوا قريشاً ودعَوهم إلى الخروج لقتاله ، ثم خرجوا من عندهم فأتَوا غطفان وسُلَيم ، ففارقوهم على مثل ذلك . وتجهزت قريشٌ ومن تبعهم من العرب ، فكانوا أربعة آلاف ، وخرجوا يقودهم أبوسفيان ، ووافتهم بنو سُلَيم بـ «مرِّ الظهران »، وخرجت بنو أسد ، وفزارة ، وأشجع ، وبنو مُرَّة ، فكان جميع من وافى الخندق من القبائل عشرة آلاف ، وهم الأحزاب ؛ فلمَّا بلغ رسولَ الله ﷺ خروجُهم من مكة ، أخبر النـاسَ خبرهم ، وشاورهم ، فأشار سلمان بالخندق ، فأعجب ذلك المسلمين ، وعسكر بهم رسولُ الله ﷺ إلى سفح « سَلْعٍ »[1] ، وجعل سَلْعاً خلف ظهره ؛ ودسَّ أبو سفيان بن حرب حُيَيَّ ابن أخطب إلى بني قريظة يسألهم أن ينقُضوا العهد الذي بينهم وبين رسول الله ﷺ ويكونوا معهم عليه ، فأجابوا ، واشتد الخوف ، وعَظُم البلاء ، ثم جرت بينهم مناوشة وقتال ، وحُصِر رسول الله ﷺ وأصحابُه بضع عشرة ليلة حتى خلص

(١) قال في « معجم البلدان » : سَلْعٌ : جبل بسوق المدينة .

إليهم الكَرْب ، وكان نُعَيم بن مسعود الأشجعيّ قد أسلم ، فمشى بين قريش وقريظة وغطفان فخذّل بينهم ، فاستوحش كل منهم من صاحبه ، واعتلّت قريظة بالسبت فقالوا : لانقاتل فيه ، وهبّت ليلةَ السبت ريح شديدة ، فقال أبو سفيان : يامعشر قريش ، إنكم والله لستم بدار مُقام ، لقد هلك الخُفُّ والحافر ، وأجدب الجَنَاب [1] ، وأخلفتْنا قريظةُ ، ولقينا من الريح ما ترَون ، فارتحِلوا فإني مرتحِل ؛ فأصبحت العساكر قد أقشَعت كلُّها [2] . قال مجاهد : والريح التي أُرسلت عليهم هي الصَّبا [3] ، حتى أكفأت قدورهم ، ونزعت فساطيطهم . والجنود : الملائكة ، ولم تقاتل يومئذ [4] . وقيل : إن الملائكة جعلت تقلعُ أوتادهم وتطفىء نيرانهم وتكبّر في جوانب عسكرهم ، فاشتدت عليهم ، فانهزموا من غير قتال .

قوله تعالى : (لَمْ تَرَوْهَا) وقرأ النخعي ، والجحدري ، والجوني ، وابن السميفع : « لم يَرَوْهَا » بالياء (وكان اللهُ بما تعملون بصيراً) وقرأ أبو عمرو : [« يعملون »] بالياء .

﴿ إذْ جاؤُكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإذْ زاغَتِ الأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللهِ الظُّنُونَا . هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالاً شَدِيداً . وَإذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَاوَعَدَنَا اللهُ وَرَسُولُهُ إلاّ غُرُوراً ﴾

---

(١) قال في «الصحاح» : الجَنَاب ، بالفتح : الفِناء ، وما قَرُبَ من مَحَلَّة القوم ، والجمع أجْنِبَة .

(٢) أقشَعَ القومُ وتقشّعوا وانقشَعوا : ذهبوا وافترقوا .

(٣) عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال : « نُصِرْتُ بالصَّبا وأُهلكتْ عادٌ بالدَّبور » رواه أحمد ، والبخاري ، ومسلم . والصبا : الريح تهب من مطلع الشمس ، والدبور : الريح تهب من جهة المغرب ، تقابل الصَّبَا .

(٤) انظر تفسير ابن كثير : ٣/٤٧٠ ، وسيرة ابن هشام : ٢/٢١٤ ، و « البداية والنهاية » لابن كثير : ٤/٩٢ .

قوله تعالى : (إذ جاؤوكم مِنْ فوقكم ومِن أسفلَ منكم) أي : مِنْ فوق الوادي ومن أسفله (وإذا زاغت الأبصار) أي : مالت وعَدَلت ، فلم تنظُر إلى شيء إلّا إلى عدوّها مُقبِلاً من كل جانب (وبَلَغت القلوبُ الحناجر) وهي جمع حَنْجَرَة . والحَنْجَرَة : جوف الحُلقُوم . قال قتادة : شَخَصتْ عن مكانها ، فلولا أنّه ضاق الحُلقوم عنها أن تخرُج لخرجتْ . وقال غيره : المعنى أنهم جَبُنوا وَجزِع أكثرهم ؛ وسبيل الجبان إذا اشتدّ خوفُه أن تنتفخ رئته فيرتفع حينئذ القلب إلى الحَنْجَرة ؛ وهذا المعنى مروي عن ابن عباس والفراء . وذهب ابن قتيبة إلى أن المعنى : كادت القلوبُ تبلُغ الحُلوقَ من الخوف وقال ابن الأنباري : « كاد » لا يُضمَر ولا يُعرَف معناه إذا لم يُنطَق به .

قوله تعالى : (وتَظُنُّون بالله الظّنونا) قال الحسن : اختلفت ظنونهم ، فظن المنافقون أن محمداً وأصحابه يُستأصَلون ، وظن المؤمنون أنه يُنصَر .

قرأ ابن كثير ، والكسائي ، وحفص عن عاصم : « الظّنونا » و « الرَّسولا » [الأحزاب: ٦٦] و « السَّبيلا » [الأحزاب : ٦٧] بألف إذا وقفوا عليهن ، وبطرحها في الوصل . وقال هبيرة عن حفص عن عاصم : وصل أو وقف بألف . وقرأ نافع ، وابن عامر ، وأبو بكر عن عاصم : بالألف فيهن وصلاً ووقفاً . وقرأ أبو عمرو ، وحمزة ، والكسائي : بغير ألف في وصل ولا وقف . قال الزجاج : والذي عليه حُذّاق النحويين والمتّبعون السُّنّة من قُرّائهم أن يقرؤوا : « الظّنونا » ويقفون على الألف ولا يَصِلون ؛ وإنما فعلوا ذلك ، لأن أواخر الآيات عندهم فواصل يُثبتون في آخرها الألف في الوقف .

قوله تعالى : (هنالك) أي : عند ذلك (ابتُلِيَ المؤمِنون) أي : اختُبروا بالقتال والحصر ليتبيَّن المُخلِص من المنافق (وزُلزِلوا) أي : أُزعجوا وحُرِّكوا

بالخوف ، فلم يوجَدوا إلا صابرين . وقال الفراء : حُرِّكوا إلى الفتنة تحريكاً ، فمَصوا .

قوله تعالى : (وإذ يقولُ المنافقون والذين في قلوبهم مرض) فيه قولان . أحدهما : أنه الشِّرك ، قاله الحسن . والثاني : النفاق ، قاله قتادة ، (ماوَعَدَنا اللهُ ورسولُه إلّا غُروراً) قال المفسرون : قالوا يومئذ : إن محمداً يَعِدنا أن نفتَح مدائن كسرى وقيصر وأحدنا لايستطيع أن يجاوز رحله ! هذا والله الغُرور . وزعم ابن السائب أن قائل هذا معتِّب بن قُشَير .

﴿ وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَامُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِنْ يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَاراً . وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِمْ مِنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ لَآتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا إِلَّا يَسِيراً . وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللهَ مِنْ قَبْلُ لَايُوَلُّونَ الْأَدْبَارَ وَكَانَ عَهْدُ اللهِ مَسْؤُلاً . قُلْ لَنْ يَنْفَعَكُمُ الْفِرَارُ إِنْ فَرَرْتُمْ مِنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذاً لَاتُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلاً . قُلْ مَنْ ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُمْ مِنَ اللهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءاً أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللهِ وَلِيّاً وَلَا نَصِيراً ﴾

قوله تعالى : (وإذ قالت طائفة منهم) يعني من المنافقين . وفي القائلين لهذا منهم قولان . أحدهما : عبد الله بن أُبيّ وأصحابه ، قاله السدي . والثاني : بنو سالم من المنافقين ، قاله مقاتل .

قوله تعالى : (ياأهل يثرب) قال أبو عبيدة : يَثْرِب : اسم أرض ، ومدينةُ النبيِّ ﷺ في ناحية منها [1] .

(١) قال ياقوت الحموي في « معجم البلدان » يثرب : قال أبو القاسم الزجاجي : مدينة —

قوله تعالى : (لامَقَامَ لكم) وقرأ حفص عن عاصم : « لامُقَـامَ » بضم الميم . قال الزجاج : من ضمّ الميم ، فالمعنى : لا إقامة لكم ؛ ومن فتحها ، فالمعنى : لامكان لكم تُقيمون فيه . وهؤلاء كانوا يثبّطون المؤمنين عن النبي ﷺ .

قوله تعالى : (فارجِعوا) أي : إلى المدينة ، وذلك أن رسول الله ﷺ خرج بالمسلمين حتى عسكروا بـ « سَلْعٍ » ، وجعلوا الخندق بينهم وبين القوم ، فقال المنافقون للناس : ليس لكم هاهنا مُقام ، لكثرة العدوّ ، وهذا قول الجمهور . وحكى الماوردي قولَين [آخرَين] .

أحدهما : لا مُقـام لكم على دين محمد فارجِعـوا إلى دين مشركي العرب ، قاله الحسن .

والثاني : لا مُقام لكم على القتال ، فارجعوا إلى طلب الأمان ، قاله الكلبي .

قوله تعالى : (ويستأذنُ فريقٌ منهم النّبيَّ) فيه قولان .

أحدهما : أنهـم بنو حارثة ، قاله ابن عباس . وقال مجـاهد : بنو حارثة ابن الحارث بن الخزرج . وقال السدي : إنما استأذنه رجلان من بني حارثة .

والثاني : بنو حارثة ، وبنو سلمة بن جشم ، قاله مقاتل .

قوله تعالى : (إنّ بيوتنـا عَوْرة) قال ابن قتيبة : أي : خاليةٌ ، فقد

ـــ رسول الله ﷺ ، وقال : وقال آخرون : بل يثرب ناحية من مدينة النبي ﷺ . وقال ابن كثير في « التفسير » في قوله تعالى : (وإذ قالت طائفة منهم يا أهل يثرب) يعني المدينة ، كما جاء في « الصحيح » « أريت دار هجرتكم ، أرض بين حرّتين ، فذهب وَهْلي (وهمي واعتقادي) أنها هجر ، فاذا هي يثرب » وفي لفظ « المدينة » ، ثم قال : فأما الحديث الذي رواه الامام أحمد عن البراء رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « من سمى المدينة يثرب فليستغفر الله تعالى ؛ إنما هي طابة ، إنما هي طابة » ، تفرد به الامام أحمـد ، وفي إسناده ضعف ، والله أعلم ، قال : ويقال : إنما كان أصل تسميتها يثرب برجل نزلها من العماليق يقال له : يثرب . ا هـ.

أمكَن من أراد دخولَها ، وأصل العَوْرة : ما ذهب عنه السِّتر والحِفظ ، فكأنَّ الرجال سِترٌ وحفظٌ للبيوت ، فاذا ذهبوا أعْوَرت البيوتُ ، تقول العرب : أعْوَرَ منزلي : إذا ذهب سِتْرُه ، أو سقط جداره ، وأعْوَرَ الفارسُ : إذا بان منه موضع خلل للضرب والطعن ، يقول الله : (وما هي بِعَوْرة) لأنَّ الله يحفظها ، ولكن يريدون الفرار . وقال الحسن ، ومجاهد : قالوا : بيوتنا ضائعة نخشى عليها السُّرّاق . وقال قتادة : قالوا : بيوتنا ممّا يلي العدوّ ، ولا نأمنَ على أهلنا ، فكذّبهم الله وأعلمَ أنّ قصدهم الفرار .

قوله تعالى : (ولو دُخِلَتْ عليهم من أقطارها) يعني المدينة ؛ والأقطار : النواحي والجوانب ، واحدها : قُطْر ، (ثم سُئلوا الفتنة) وقرأ عليّ بن أبي طالب عليه السلام ، والضحاك ، والزهري ، وأبو عمران ، وأبو جعفر ، وشيبة : « ثم سُيِلوا » برفع السين وكسر الياء من غير همز . وقرأ أُبيْ بن كعب ، ومجاهد ، وأبو الجوزاء : « ثم سوئِلوا » برفع السين ومدِّ الواو بهمزة مكسورة بعدها . وقرأ الحسن ، وأبو الأشهب : « ثم سُوْلوا » برفع السين وسكون الواو من غير مدّ ولا همز . وقرأ الأعمش ، وعاصم الجحدري : « ثم سِيْلوا » بكسر السين ساكنة الياء من غير همز ولا واو . ومعنى : « سُئلوا الفتنة » ، أي : سُئلوا فعلها ؛ [والفتنة : الشِّرك ، (لَآتَوْها)] قرأ ابن كثير ، ونافع ، وابن عامر : « لأَتَوْها » بالقصر ، أي : لقصدوها ، ولفعلوها . وقرأ عاصم ، وأبو عمرو ، وحمزة ، والكسائي : « لَآتَوْها » بالمد ، أي : لأعطَوها . قال ابن عباس في معنى الآية : لو أن الأحزاب دخلوا المدينة ثم أمروهم بالشِّرك لأشركوا .

قوله تعالى : (وما تَلَبَّثوا بها إلاّ يسيراً) فيه قولان .

أحدها : وما احتَبَسوا عن الإجابة إلى الكفر إلا قليلاً ، قاله قتادة .

والثاني : وما تلبَّثوا بالمدينة بعد الإجابة إلاَّ يسيراً حتى يعذَّبوا ، قاله السدي ، وحكى أبو سليمان الدمشقي في الآية قولاً عجيباً ، وهو أن الفتنة هاهنا : الحرب ، والمعنى : ولو دُخلت المدينةُ على أهلها من أقطارها ، ثم سُئل هؤلاء المنافقون الحرب لأتوها مبادِرين ، وما تلبَّثوا - يعني الجيوش الداخلة عليهم بها - إلاَّ قليلاً حتى يُخرجوهم منها ؛ وإنَّما منعهم من القتال معك ما قد تداخلهم من الشكِّ في دينك [١] ؛ قال : وهذا المعنى حَفِظتُه من كتاب الواقدي [٢] .

قوله تعالى : (ولقد كانوا عاهَدوا اللهَ مِنْ قَبْلُ) في وقت معاهدتهم ثلاثة أقوال .

أحدها : أنهم ناس غابوا عن وقعة بدر ، فلمَّا علموا ما أعطى اللهُ أهل بدر من الكرامة قالوا : لئن شهدنا قتالاً لنقاتِلَنَّ ، قاله قتادة .

---

(١) روى ابن جرير الطبري عن قتادة أن الفتنة : الشرك ، وروى ابن أبي حاتم عن مجاهد أن الفتنة : الشرك ، وكذلك قال البغوي والخازن ، وقال ابن كثير : الفتنة : هي الدخول في الكفر . وقال الشوكاني في « فتح القدير » الفتنة هنا : إما القتال في العصبية كما قال الضحاك ، أو الشرك بالله والرجعة إلى الكفر الذي يبطنونه ويظهرون خلافه كما قاله الحسن . وقال الآلوسي في « روح المعاني » : الفتنة : أي القتال كما قال الضحاك ، ثم قال : كأنه شبه الفتنة المطلوب اتباعهم فيها بأمر نفيس يطلب منهم بذله ، ونزَّل إطاعتهم واتّباعهم بمنزلة بذل ماسئلوه وإعطائه ، ثم قال : والمراد : أنهم لو سألهم غيرك القتال وهم في أشد حال وأعظم بلبال ، لأسرعوا جداً ، فضلاً عن التعلل باختلال بيوتهم مع سلامتها كما فعلوا الآن ، قال : والحاصل أن طلبهم الاذن في الرجوع ، ليس لاختلال بيوتهم ، بل لنفاقهم وكراهتهم نصرتك . اهـ .

(٢) الواقدي : هو محمد بن عمر بن واقد السهمي الأسلمي المدني أبو عبد الله الواقدي ، من أقدم المؤرّخين في الاسلام ومن أشهرهم ، ومن حفاظ الحديث ، قال الحافظ ابن حجر عنه في « التقريب » : متروك مع سَعة علمه . له تصانيف كثيرة ، منها تفسير القرآن .

والثاني : أنهم أهل العقبة ، وهم سبعون رجلاً بايعوا رسول الله ﷺ على طاعة الله ونُصرة رسوله ، قاله مقاتل .

والثالث : أنه لمّا نزل بالمسلمين يوم أُحد ما نزل ، عاهد اللهَ معتّب بن قُشَير وثعلبة بن حاطب : لا نولّي دُبُراً قطُّ ، فلمّا كان يوم الأحزاب نافقا ، قاله الواقدي ، واختاره أبو سليمان الدمشقي ، وهو أليَق ممّا قبله . وإذا كان الكلام في حق المنافقين ، فكيف يُطلَق القول على أهل العَقَبة كلِّهم !

قوله تعالى : (وكان عهد الله مسؤولا) أي : يُسأَلون عنه في الآخرة .

ثم أخبر أن الفرار لا يزيد في آجالهم ، فقال : (قُلْ لن ينفعكم الفرار إن فَرَرتم من الموت أو القتل وإذاً لا تُمتَّعون) بعد الفرار في الدنيا (إلاّ قليلاً) وهو باقي آجالكم .

ثم أخبر أن ما قدّره عليهم لا يُدفَع ، بقوله : (من ذا الذي يَعْصِمُكم مِنَ الله) أي : يُجيركم ويمنعكم منه (إن أراد بكم سُوءاً) وهو الإهلاك والهزيمة والبلاء (أو أراد بكم رَحْمة) وهي النصر والعافية والسلامة (ولا يَجِدون لهم من دُون الله ولياً ولا نصيراً) أي : لا يجدون مُوالياً ولا ناصراً يمنعهم من مُراد الله فيهم .

﴿ قَدْ يَعْلَمُ اللهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنْكُمْ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا وَلا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلاً . أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُمْ بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ أُولَئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللهُ أَعْمَالَهُمْ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيراً . يَحْسَبُونَ الْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا وَإِنْ يَأْتِ الْأَحْزَابُ

يَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِي الْأَعْرَابِ يَسْأَلُونَ عَنْ أَنبَائِكُمْ وَلَوْ كَانُوا فِيكُم مَّا قَاتَلُوا إِلَّا قَلِيلاً . لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً . وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَٰذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَاناً وَتَسْلِيماً ﴾

قوله تعالى : (قد يَعْلَمُ اللهُ المعوِّقين منكم) في سبب نزولها قولان .

أحدهما : أن رجلاً انصرف من عند رسول الله ﷺ يوم الأحزاب ، فوجد أخاه لأُمِّه وأبيه وعنده شِواء ونبيذٌ ، فقال له : أنتَ هاهنا ورسولُ الله بين الرِّماح والسيوف ؟! فقال : هلمَّ إليَّ ، لقد أُحيطَ بك وبصاحبك ؛ والذي يُحْلَفُ به لا يستقبلها محمدٌ أبداً ؛ فقال له : كذبتَ ، والذي يُحْلَف به ، أما والله لأُخبِرَنَّ رسولَ الله ﷺ بأمرك ، فذهب إلى رسول الله ﷺ ليخبرَه ، فوجده قد نزل جبريل بهذه الآية إلى قوله : (يسيراً) ، هذا قول ابن زيد [١] .

والثاني : أن عبد الله بن أُبيّ ومُعتّب بن قُشَير والمنافقين الذين رجعوا من الخندق إلى المدينة ، كانوا إذا جاءهم منافق قالوا له : ويحك اجلس فلا تخرُج ، ويكتُبون بذلك إلى إخوانهم الذين في العسكر أن ائتونا بالمدينة فانّا ننتظركم ـ يثبِّطونهم عن القتال ـ وكانوا لا يأتون العسكر إلاّ أن لا يجدوا بُدّاً ، فيأتون العسكر ليرى الناسُ وجوههم ، فاذا غُفل عنهم عادوا إلى المدينة ، فنزلت هذه الآية ، قاله ابن السائب [٢] .

والمعوِّق : المثبِّط ؛ تقول : عاقني فلان ، واعتاقني ، وعوَّقني : إذا

(١) ذكره الطبري : ٢١/١٣٩ ، عن ابن زيد ، وأورده السيوطي في « الدر » : ٥/١٨٨ ، من رواية ابن أبي حاتم عن ابن زيد .
(٢) ذكره الآلوسي في « تفسيره » مختصراً عن ابن السائب بدون سند .

منعك عن الوجه الذي تريده . وكان المنافقون يعوِّقون عن رسول الله ﷺ نُصَّاره [١] .

قوله تعالى : (والقائلين لإخوانهم هَلُمَّ إلينا) فيهم ثلاثة أقوال .

أحدها : أنه المنافق الذي قال لأخيه ما ذكرناه في قول ابن زيد .

والثاني : أنهم اليهود دعَوْا إخوانهم من المنافقين إلى ترك القتال، قاله مقاتل .

والثالث : أنهم المنافقون دعَوْا المسلمين إليهم عن رسول الله ﷺ ، حكاه الماوردي .

قوله تعالى : (ولا يأتون البأس) أي : لا يحضُرون القتال في سبيل الله (إلاَّ قليلاً) للرِّياء والسُّمعة من غير احتساب، ولو كان ذلك [القليل] [٢] لله لكان كثيراً .

قوله تعالى : (أشِحَّةً عليكم) قال الزجاج : هو منصوب على الحال . المعنى : لا يأتون الحرب إلا تعذيراً [٣] ، بخلاء عليكم .

وللمفسرين فيما شحُّوا به أربعة أقوال . أحدها : أشحة بالخير، قاله مجاهد .

---

(١) قال الشوكاني في « فتح القدير » : قال الواحدي : قال المفسرون : هؤلاء قوم من المنافقين كانوا يثبطون أنصار النبي ﷺ . اهـ . يقال : أنصار ، ونصار ، كما في « اللسان » .

(٢) زيادة من تفسير البغوي .

(٣) قال في « اللسان » : والتعذير في الأمر : التقصير فيـه ، وأعذر : قصَّر ولم يبالغ وهو يُري أنه مبالغ . وعذَّر الرجل فهو معذِّر : إذا اعتذر ولم يأت بعذر . وقوله عز وجل : (وجاء المعذِّرون من الأعراب) هم الذين لا عـذر لهم ولكن يتكلَّفون عذراً ، قال : قال الأزهري : ويكون المعذِّرون بمعنى المقصِّرين على مفعِّلين من التعذير وهو التقصير . اهـ .

وقال ابن جرير الطبري : (ولو كانوا فيكم ماقاتلوا إلا قليلاً) ، قال : يقول تعالى ذكره للمؤمنين : ولو كانوا أيضاً فيكم مانفعوكم ، وما قاتلوا المشركين إلا قليلاً ، يقول : إلا تعذيراً ، لأنهم لايقاتلون حسبة ولا رجاء ثواب . اهـ .

والثاني : بالنفقة في سبيل الله . والثالث : بالغنيمة ، رويا عن قتادة . وقال الزجاج : بالظَّفَر والغنيمة . والرابع : بالقتال معكم ، حكاه الماوردي [١] .

ثم أخبر عن جُبنهم فقال : (فاذا جاء الخوفُ) أي : إذا حضر القتال (رأيتَهم ينظُرون إليك تدورُ أعينُهم كالذي يُغْشَى عليه مِنَ الموت) أي : كدوَران عين الذي يُغْشَى عليه من الموت ، وهو الذي دنا موته وغشيَتْه أسبابُه ، فانه يخاف ويذهل عقله ويشخص بصره فلا يَطْرِف ، فكذلك هؤلاء ، لأنهم يخافون القتل .

(فاذا ذهبَ الخوفُ سَلَقُوكم) قال الفراء : آذَوْكم بالكلام في الأمن (بألسنة حِدادٍ) سليطة ذَرِبة [٢] ، والعرب تقول : صَلَقوكم ، بالصاد ، ولايجوز في القراءة ؛ وهذا قول الفراء . وقد قرأ بالصاد أُبَيْ بن كعب ، وأبو الجوزاء ، وأبو عمران الجوني ، وابن أبي عبلة في آخرين وقال الزجاج : معنى « سلقوكم » : خاطبوكم أشدَّ مخاطَبة وأبلَغها في الغنيمة ، يقال : خطيب مِسْلاق : إذا كان بليغاً في خطبته (أشِحَّةً على الخير) أي : خاطبوكم وهُم أشحَّة على المال والغنيمة قال قتادة : إذا كان وقت قسمة الغنيمة ، بسطوا ألسنتهم فيكم ، يقولون : أعطُونا فلستم أحقَّ بها منَّا ؛ فأمَّا عند البأس ، فأجبن قوم وأخذله للحق ، وأمَّا عند الغنيمة ، فأشحُّ قوم .

وفي المراد بالخير هاهنا ثلاثة أقوال . أحدها : أنه الغنيمة . والثاني : على المال أن يُنفقوه في سبيل الله تعالى . والثالث : على رسول الله ﷺ بظَفَره .

---

(١) قال ابن جرير الطبري : والصواب من القول في ذلك عندي أن يقال : إن الله وصف هؤلاء المنافقين بالجبن والشح ، ولم يخصص وصفهم من معاني الشح بمعنى دون معنى ، فهم كما وصفهم الله به أشحة على المؤمنين بالغنيمة ، والخير ، والنفقة في سبيل الله على أهل مسكنة المسلمين . اهـ .

(٢) أي : فاحشة . وذَرَب اللسان : حدَّته .

قوله تعالى : (أولئك لم يُؤْمِنوا) أي : هُمْ وإن أظهروا الإيمان فليسوا بمؤمِنين ، لنفاقهم (فأحبَطَ اللهُ أعمالَهم) قال مقاتل : أبطَل جهادهم ، لأنه لم يكن في إيمان (وكان ذلك) الإحباط (على الله يسيراً) .

ثم أخبر عنهم بما يدل على جُبنهم ، فقال : (يَحْسَبون الأحزاب لم يَذهبوا) أي : يحسب المنافقون من شدة خوفهم وجُبنهم أن الأحزاب بعد انهزامهم وذهابهم لم يذهبوا ، (وإن يأتِ الأحزاب) [أي] : يَرجعوا إليهم كَرَّةً ثانية للقتال (يَوَدُّوا لو أنَّهم بادُون في الأعراب) أي : يتمنَّوا لو كانوا في بادية الأعراب من خوفهم ، (يَسألون عن أنبائكم) أي : ودُّوا لو أنَّهم بالبُعد منكم يسألون عن أخباركم ، فيقولون : ما فعل محمد وأصحابه ، ليعرفوا حالكم بالاستخبار لا بالمشاهَدة ، فرَقاً وجُبناً ؛ وقيل : بل يَسألون شماتةً بالمسلمين وفرحاً بنكَبَاتهم (ولو كانوا فيكم) أي : لو كانوا يشهدون القتال معكم (ما قاتلوا إلاّ قليلاً) فيه قولان .

أحدهما : إلا رمياً بالحجارة ، قاله ابن السائب .

والثاني : إلا رياءً من غير احتساب ، قاله مقاتل .

ثم عاب من تخلَّف بالمدينة بقوله : (لقد كان لكم في رسول الله أُسوةٌ حسنة) أي : قُدوة صالحة . والمعنى : لقد كان لكم به اقتداء لو اقتديتم به في الصبر [معه] كما صبر يوم أُحُد حتى كُسِرت رَباعِيَتُه وشُجَّ جبينه وقُتِل عمُّه ، وآساكم مع ذلك بنفسه .

وقرأ عاصم : « أُسوةٌ » بضم الألف ؛ والباقون بكسر الألف ؛ وهما لغتان . قال الفراء : أهل الحجاز وأسَد يقولون : « إسوة » بالكسر ، وتميم وبعض قيس يقولون : « أُسوة » بالضم . وخَصَّ اللهُ تعالى بهذه الأُسوة المؤمنين ، فقال : (لِمَن كان يرجو الله واليوم الآخر) والمعنى أن الأسوة برسول الله إنما كانت لِمَن كان يرجو الله [واليوم الآخر] ؛ وفيه قولان .

أحدهما : يرجو ما عنده من الثواب والنعيم ، قاله ابن عباس . والثاني : يخشى اللهَ ويخشى البعث ، قاله مقاتل .

قوله تعالى : (وذَكَرَ اللهَ كثيراً) أي : ذِكْراً كثيراً ، لأن ذاكر الله متّبِع لأوامره، بخلاف الغافل عنه [1] .

ثم وصف حال المؤمنين عند لقاء الأحزاب ، فقال : (ولما رأى المؤمنون الأحزاب قالوا هذا ما وعَدَنا اللهُ ورسولُه) وفي ذلك الوعد قولان .

أحدهما : أنه قوله : (أم حَسِبتم أن تدخلوا الجنّة ولمّا يأتكم مَثَل الذين خَلَوا مِنْ قبلِكم ...) الآية : [البقرة : ٢١٤] فلمّا عاينوا البلاء يومئذ قالوا : هذا ما وعَدَنا اللهُ ورسولُه ، قاله ابن عباس ، وقتادة في آخرين .

والثاني : أن رسول الله ﷺ وعدهم النصر والظهور على مدائن كسرى وقصور الحيرة ، ذكره الماوردي وغيره .

قوله تعالى : (وما زادهم) يعني ما رأوه (إلا إيماناً) بوعد الله (وتسليماً) لأمره .

﴿ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَاعَاهَدُوا اللهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً . لِيَجْزِيَ اللهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِنْ شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ

---

(١) قال ابن كثير : هذه الآية الكريمة أصل كبير في التأسي برسول الله ﷺ في أقواله وأفعاله وأحواله ، ولهذا أمر الله تبارك وتعالى الناس بالتأسي بالنبي ﷺ يوم الأحزاب في صبره ومصابرته ومرابطته ومجاهدته وانتظار الفرج من ربه عز وجل ، صلوات الله وسلامه عليه دائماً إلى يوم الدين ، قال : ولهذ قال تعالى للذين تقلّقوا وتضجّروا وتزلزلوا واضطربوا في أمرهم يوم الأحزاب : (لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة) ، أي : هلا اقتديتم به وتأسّيتم بشمائله ﷺ ؟! ولهذا قال تعالى : (لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيراً) . اهـ .

إنَّ اللهَ كَانَ غَفُوراً رَحِيماً . وَرَدَّ اللهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْراً وَكَفَى اللهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللهُ قَوِيّاً عَزِيزاً . وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقاً تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقاً . وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضاً لَمْ تَطَؤُوهَا وَكَانَ اللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيراً ﴾

قولهتعالى : (مِنَ المؤمنين رجال صَدَقوا ما عاهدوا الله عليه) اختلفوا فيمن نزلت على قولين .

أحدهما : أنها نزلت في أنس بن النضر ، قاله أنس بن مالك . وقد أخرج البخاري ومسلم من حديث أنس بن مالك قال : غاب عمّي أنس بن النَّضْر عن قتال بدر ، فلمّا قَدِم قال : غِبْتُ عن أوَّل قتال قاتله رسول الله ﷺ المشركين ، لئن أشهدني اللهُ عز وجل قتالاً لَيَرَيَنَّ اللهُ ما أصنع [1] ، فلمّا كان يوم أُحُدٍ انكشف الناسُ [2] ، فقال : اللهم إني أبرأُ إليكَ ممّا جاء به هؤلاء ، يعني المشركين ، وأعتذر إليك ممّا صنع هؤلاء ، يعني المسلمين [3] ؛ ثم

---

(١) قال الحافظ ابن حجر في « الفتح » ٧/٢٧٤ : ومراده أن يبالغ في القتال ولو زهقت روحه ، قال : وقال أنس في رواية ثابت : وخشي أن يقول غيرها ، أي غير هذه الكلمة ، وذلك على سبيل الأدب منه ، والخوف ، لئلا يعرض له عارض فلا يفي بما يقول ، فيصير كمن وعد فأخلف . اه . ولفظ مسلم « لَيَرانيَ الله ماأصنع » ، قال الامام النووي في « شرح مسلم » ويكون « ماأصنع » بدلاً من الضمير في « يراني » أي : لَيَرى الله ماأصنع .

(٢) في البخاري : ٦/١٦ ، « وانكشف المسلمون » وفيه : ٧/٢٧٤ « فهزم الناس » .

(٣) قال الحافظ ابن حجر في « الفتح » ٦/١٨ : قال الزين بن المنير : من أبلغ الكلام وأفصحه قول أنس بن النضر في حق المسلمين : أعتذر إليك ، وفي حق المشركين : أبرأ إليك ، فأشار إلى أنه لم يرض الأمرين جميعاً مع تغايرهما في المعنى .

مشى بسيفه ، فلقيه سعد بن معاذ ، فقال : أي سعد ، والذي نفسي بيده إني لأجد ريح الجنة دون أُحُد، واهاً لريح الجنة [١] . قال سعد : فما استطعتُ يا رسول الله ما صنع ؛ قال أنس : فوجدناه بين القتلى به بِضْع وثمانون جِراحة ،من ضربة بسيف ،وطعنة برمح ، ورَمْيَة بسهم ،قد مثَّلوا به ؛ قال : فما عرفناه حتى عرفتْه أختُه بِبَنانه ؛ [٢] قال أنس : فكنّا نقول : أُنزلت هذه الآية « من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه » فيه وفي أصحابه [٣] .

والثاني : أنها نزلت في طلحة بن عبيد الله . روى النزّال بن سَبْرة عن عليّ عليه السلام أنهم قالوا له : حدِّثنا عن طلحة ، قال : ذاك امرؤٌ نزلت فيه آية من كتاب الله تعالى : « فمنهم من قضى نحبه » لا حساب عليه فيما يستقبل [٤] .

---

(١) واهاً لريح الجنة ، قال الامام النووي : « واهاً » كلمة تحنّن وتلهّف . اهـ .

(٢) قال الحافظ ابن حجر : في رواية ثابت ، فقالت عمتي الربيع بنت النضر أخته : فما عرفت أخي إلا ببنانه ، قال : زاد النسائي من هذا الوجه : وكان حسن البنان ، قال : والبنان : الاصبع ، وقيل : طرف الأصبع . اهـ .

(٣) البخاري : ٦/١٦ ، ومسلم : ٣/١٥١٢ ، ورواه البخاري في « المغازي » : ٧/٢٧٤ ، ولم يذكر سبب النزول ، ورواه أيضاً في « التفسير » : ٨/٣٩٨ مقتصراً على سبب النزول ، ورواه الترمذي : ٢/١٥١ ، وقال : هذا حديث حسن صحيح ، ورواه أيضاً أحمد في « المسند » ، وابن جرير في « التفسير » : ٢١/١٤٧ ، وذكره السيوطي في « الدر » : ٥/١٩٠ ، وزاد نسبته لابن سعد ، والنسائي ، والبغوي في « معجمه » ، وابن أبي حاتم ، وابن مردويه ، وأبي نعيم في « الحلية » ، والبيهقي في « الدلائل » .

قال الحافظ ابن حجر في « الفتح » : ٦/١٧ ، وفي قصة أنس بن النضر من الفوائد : جواز بذل النفس في الجهاد ، وفضل الوفاء بالعهد ولو شق على النفس حتى يصل إلى إهلاكها ، وأن طلب الشهادة في الجهاد لا يتناوله النهي عن الالقاء إلى التهلكة ، قال : وفيه فضيلة ظاهرة لأنس بن النضر ، وما كان عليه من صحة الايمان وكثرة التوقّي والتورّع وقوة اليقين . اهـ .

(٤) أورده السيوطي في « الدر » : ٥/١٩١ من رواية أبي الشيخ ، وابن عساكر عن —

وقد جعل بعض المفسرين هذا القدر من الآية في طلحة، وأولها في أنس.

قال ابن جرير: ومعنى الآية: وَفَوْا لله بما عاهدوه عليه. وفي ذلك أربعة أقوال.

أحدها: أنهم عاهدوا ليلة العقبة على الإسلام والنصرة.

والثاني: أنهم قوم لم يشهدوا بدراً، فعاهدوا الله أن لا يتأخَّروا بعدها.

والثالث: أنهم عاهدوا أن لا يفرُّوا إذا لاقَوْا، فصَدَقوا.

والرابع: أنهم عاهدوا على البأساء والضرَّاء وحين البأس.

قوله تعالى: ﴿فمنهم من قضى نَحْبه ومنهم من يَنْتَظِرُ﴾ فيه ثلاثة أقوال.

أحدها: فمنهم من مات، ومنهم من ينتظر الموت، قاله ابن عباس.

والثاني: فمنهم من قضى عهده قُتل أو عاش. ومنهم من ينتظر أن يقضيه بقتال أو صدق لقاه، قاله مجاهد.

والثالث: فمنهم من قضى نَذْره الذي كان نذر، قاله أبو عبيدة. فيكون النَّحْب على القول الأول: الأَجَل؛ وعلى الثاني: العهد؛ وعلى الثالث: النَّذْر. وقال ابن قتيبة: «قضى نحبه» أي: قُتل، وأصل النَّحْب: النَّذْر، كأن قوماً نذروا [1] أنهم إن لَقُوا العدوَّ قاتَلوا حتى يُقتَلوا أو يَفتَح اللهُ عليهم، فقُتِلوا، فقيل: فلان قضى نَحْبَه، أي: قُتِل، فاستعير النَّحْب مكان الأَجَل، لأن الأَجَل وقع بالنَّحْب، وكان النَّحْبُ سبباً له، ومنه قيل للمطيَّة: «مَنٌّ»، لأن من أعطى فقد مَنَّ. قال ابن عباس: ممَّن قضى

ـــ علي رضي الله عنه، والله أعلم. قال الحافظ ابن حجر في «الفتح» ٣٩٧/٨١: ثبت عن عائشة رضي الله عنها أن طلحة دخل على النبي ﷺ فقال: «أنت ياطلحة ممن قضى نحبه»، وقال: أخرجه ابن ماجه، والحاكم، اهـ. ورواه الطبري بنحوه: ١٤٧/٢١.

(١) الذي في «غريب القرآن»: وكان قوم نذروا.

نَحْبه : حمزة بن عبد المطلب ، وأنس بن النَّضْر وأصحابه . وقال ابن إسحاق : « فمنهم من قضى نحبه » من استُشهد يوم بدر وأُحُد ، « ومنهم من ينتظرُ » ما وعد اللهُ من نصره ، أو الشهادة على ما مضى عليه أصحابه (وما بدَّلوا) أي : ما غيَّروا العهد الذي عاهدوا ربَّهم عليه كما غيَّر المنافقون .

قوله تعالى : (لِيَجْزِيَ اللهُ الصَّادِقِين بِصِدقهم) وهم المؤمنون الذين صدقوا فيما عاهدوا [الله] عليه (ويعذِّبَ المنافقين) بنقض العهد (إن شاء) وهو أن يُميتَهم على نفاقهم (أو يتوبَ عليهم) في الدنيا ، فيخرجَهم من النفاق إلى الإيمان ، فيغفر لهم .

(وردَّ اللهُ الذين كفروا) يعني الأحزاب ، صدَّهم ومنعهم عن الظَّفَر بالمسلمين (بِغَيْظِهم) أي : لم يَشْفِ صدورهم بِنَيْل ما أرادوا (لم ينالوا خيراً) أي : لم يظفروا بالمسلمين ، وكان ذلك عندهم خيراً ، فخوطبوا على استعمالهم (وكفى اللهُ المؤمنين القتال) بالريح والملائكة [1] ، (وأنزل الذين ظاهروهم)

---

(١) قال ابن كثير : وقوله تبارك وتعالى : (وكفى الله المؤمنين القتال) ، أي : لم يحتاجوا إلى منازلتهم ومبارزتهم حتى يجلوهم عن بلادهم ، بل كفى الله وحده ، ونصر عبده ، وأعز جنده ، قال : ولهذا كان رسول الله ﷺ يقول : « لا إله إلا الله وحده ، صدق وعده ، ونصر عبده ، وأعز جنده ، وهزم الأحزاب وحده ، فلا شيء بعده » أخرجاه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه ، قال : وفي « الصحيحين » عن عبد الله بن أبي أوفى رضي الله عنه قال : دعا رسول الله ﷺ على الأحزاب فقال : « اللهم منزل الكتاب ، سريع الحساب ، اهزم الأحزاب ، اللهم اهزمهم وزلزلهم » . قال ابن كثير : وفي قوله عز وجل : (وكفى الله المؤمنين القتال) : إشارة إلى وضع الحرب بينهم وبين قريش ، وهكذا وقع بعدها ، لم يغزهم المشركون ، بل غزاهم المسلمون في بلادهم ، قال ابن كثير في تتمة الآية : قوله تعالى : (وكان الله قوياً عزيزاً) أي : بحوله وقوته ردَّهم خائبين لم ينالوا خيراً ، وأعز الله الاسلام وأهله ، وصدق وعده ، ونصر رسوله وعبده ، فله الحمد والمنة . اهـ .

أي : عاونوا الأحزاب ، وهم بنو قريظة ، وذلك أنهم نقضوا ما بينهم وبين رسول الله ﷺ من العهد ، وصاروا مع المشركين يداً واحدة .

وهذه الإشارة إلى قصتهم

ذكر أهل العِلْم بالسِّيرة أن رسول الله ﷺ لمَّا انصرف من الخندق وضع عنه اللأْمة واغتسل ، فتبدَّى له جبريل ، فقال : ألا أراك وضعت اللأْمة ، وما وضعت الملائكة سلاحها منذ أربعين ليلة ؟! إن الله يأمرك أن تسير إلى بني قريظة فإنِّي عامد إليهم فمزلزل بهم حصونهم [١] ؛ فدعا عليّاً فدفع لواءه إليه ، وبعث بلالاً فنادى في الناس : إن رسول الله ﷺ يأمركم أن لا تصلُّوا العصر إلا ببني قريظة [٢] ، ثم سار إليهم فحاصرهم خمسة عشر يوماً أشدَّ الحصار ، وقيل : عشرين ليلة [٣] ، فأَرسلوا إلى رسول الله ﷺ : أرْسِل إلينا أبا لُبَابة بن عبد المنذر ، فأرسله إليهم ، فشاوروه في أمرهم ، فأشار إليهم بيده : إنه الذَّبْح ، ثُمَّ ندم فقال : خنتُ اللهَ ورسولَه ، فانصرف فارتبط في المسجد حتى أنزل الله

---

(١) ذكره بنحوه ابن هشام في « السيرة » : ٢/٢٣٣ ، وذكره ابن كثير في « البداية والنهاية » بنحوه : ٤/١١٦ من رواية محمد بن إسحاق . وأمر جبريل للنبي ﷺ بالمسير ثابت في « صحيح البخاري » : ٧/٣١٣ من حديث عائشة رضي الله عنها . ورواه أحمد في « المسند » : (٦/٥٦ ، ١٣١ ، ١٤١ ، ٢٨٠) من حديث عائشة أيضاً .

(٢) رواه البخاري في « صحيحه » : ٧/٣١٣ ، ومسلم : ٣/١٣٩١ من حديث عبد الله ابن عمر رضي الله عنها ، ولفظ مسلم : نادى فينا رسول الله ﷺ يوم انصرف الأحزاب « أن لا يصلين أحد الظهر إلا في بني قريظة . . . » الحديث .

(٣) الذي في « مسند أحمد » ، و « الطبري » ، و « سيرة ابن هشام » أن رسول الله ﷺ حاصرهم خمساً وعشرين ليلة .

توبته [١] ، ثم نزلوا على حكم رسول الله ﷺ ، فأمَرَ بهم رسول الله محمدَ ابن مَسْلَمة ، وكُتِّفوا ، ونُحُّوا ناحيةً ، وجُعل النساء والذُّرِّيَّة ناحيةً . وكلَّمت الأوسُ رسولَ الله ﷺ أن يَهَبَهم لهم ، وكانوا حلفاءهم ، فجعل رسولُ الله ﷺ الحُكْمَ فيهم إلى سعد بن معاذ ؛ هكذا ذكر محمد بن سعد [٢] . وحكى غيره : أنهم نزلوا أوَّلاً على حكم سعد بن معاذ ، وكان بينهم وبين قومه حلف ، فَرَجَوْا أن تأخذه فيهم هوادة ، فحكم فيهم أن يُقتل كلُّ مَنْ جرَت عليه المَوَاسي [٣] ، وتُسبى النساء والذراري ، وتُقسم الأموال . فقال رسول الله ﷺ : « لقد حكمتَ بحُكم الله من فوق سبعة أرقعة » [٤] ؛ وانصرف رسول الله ﷺ ، وأمر بهم فأُدخلوا المدينة ، وحُفر لهم أُخدود في السوق ، وجلس رسول الله ﷺ ومعه أصحابه ، وأُخرجوا إليه فضُربت أعناقهم ، وكانوا ما بين السَّمائة إلى السبعمائة .

قوله تعالى : (مِنْ صياصيهم) قال ابن عباس وقتادة : من حصونهم ؛ قال ابن قتيبة : وأصل الصَّياصي : قرون البقر ، لأنها تمتنع بها ، وتدفع عن أنفسها ؛

---

(١) ذكر هذا الخبر بنحوه الطبري في « التفسير » ، وابن هشام في « السيرة » : ٢/٢٣٦ ، ٢٣٧ ، وابن كثير في « التفسير » : ٢/٣٠٠ من رواية الزهري مرسلاً ، وانظر « البداية والنهاية » لابن كثير : ٤/١٢٠ .

(٢) هو أبو عبد الله محمد بن سعد بن منيع الزهري ، صاحب طبقات الصحابه المشهورة بـ « طبقات ابن سعد » مؤرخ ثقة ، صدوق فاضل ، من حفاظ الحديث ، (١٦٨ - ٢٣٠ هـ) .

(٣) قال في « اللسان » مادة « موس » : من جرت عليه المواسي ، أي : مَنْ نبتت عانته ، لأن المواسي إنما تجري على من أنبت ، أراد : مَن بَلَغ الحُلُم من الكفَّار .

(٤) أخرجه ابن إسحاق ، وعنه ابن هشام : ٢/٢٤٠ عن علقمة بن وقاص الليثي مرسلاً ، لكن أخرجه الشيخان في « صحيحيها » عن أبي سعيد الخدري دون قوله : « من فوق سبعة أرقعة » والأرقعة : السموات ، الواحدة : رقيع ، فجاء به على لفظ التذكير ، كأنه ذهب به إلى السقف .

فقيل للحصون : الصياصي ، لأنها تمنع ، وقال الزجاج : كل قرن صيصية ، وصيصية الديك : شوكة يتحصن بها .

قوله تعالى : (وقَذَفَ في قلوبهم الرُّعب) أي : ألقى فيها الخوف (فريقاً تقتُلون) وهم المُقاتِلة (وتأسِرون) وقرأ ابن يعمر ، وابن أبي عبلة : « وتأسُرون » برفع السين (فريقاً) وهم النساء والذّراري ، (وأورثكم أرضَهم وديارهم) يعني عَقارهم ونخيلهم ومنازلهم (وأموالَهم) من الذهب والفضة والحُلِيّ والعبيد والإماء (وأرضاً لم تطؤوها) أي : لم تطؤوها بأقدامكم بَعْدُ ، وهي مما سنفتحها عليكم ؛ وفيها أربعة أقوال .

أحدها : أنها فارس والروم ، قاله الحسن . والثاني : ما ظهر عليه المسلمون إلى يوم القيامة ، قاله عكرمة . والثالث : مكة ، قاله قتادة . والرابع : خيبر ، قاله ابن زيد ، وابن السائب ، وابن إسحاق ، ومقاتل [(١)] .

﴿ يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ إِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَوٰةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحاً جَمِيلاً . وَإِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ اللهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنْكُنَّ أَجْراً عَظِيماً . يَانِسَاءَ النَّبِيِّ مَنْ يَأْتِ مِنْكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ وَكَانَ ذٰلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيراً . وَمَنْ يَقْنُتْ مِنْكُنَّ لِلهِ وَرَسُولِهِ وَتَعْمَلْ صَالِحاً نُؤْتِهَا أَجْرَهَا

---

(١) قال ابن جرير الطبري : والصواب من القول في ذلك أن يقال : إن الله تعالى ذكره أخبر أنه أورث المؤمنين من أصحاب رسول الله ﷺ أرض بني قريظة ، وديارهم وأموالهم ، وأرضاً لم يطؤوها يومئذ ، ولم تكن مكة ولا خيبر ولا أرض فارس والروم ولا اليمن مما كان وطئوه يومئذ،ثم وطئوا ذلك بعدُ وأورثهموه الله ، وذلك كلّه داخل في قوله :(وأرضاً لم تطؤوها) لأنه تعالى ذكره لم يخصص من ذلك بعضاً دون بعض . اهـ .

مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقاً كَرِيماً . يَانِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلاَ تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلاً مَعْرُوفاً . وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الأُولَىٰ وَأَقِمْنَ الصَّلَوٰةَ وَآتِينَ الزَّكَوٰةَ وَأَطِعْنَ اللهَ وَرَسُولَهُ إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً . وَاذْكُرْنَ مَايُتْلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللهِ وَالْحِكْمَةِ إِنَّ اللهَ كَانَ لَطِيفاً خَبِيراً ﴾

قوله تعالى : (ياأيُّها النبيُّ قُلْ لأزواجكَ . . .) الآية ، ذكر أهل التفسير أن أزواج النبي ﷺ سألنَه شيئاً من عرض الدنيا ، وطلبن منه زيادة النفقة ، وآذينه بغَيْرة بعضهن على بعض ، فآلى رسولُ الله ﷺ منهُنَّ شهراً [(١)] ، وصعد إلى غرفة له فمكث فيها ، فنزلت هذه الآية ، وكُنَّ أزواجُه يومئذ تسعاً : عائشة ، وحفصة ، وأم حبيبة ، وسَوْدة ، وأم سَلَمة ، وصَفيَّة الخيبريَّه ، وميمونة الهلالية ؛ وزينب بنت جحش ، وجويرية بنت الحارث ، فنزل رسول الله ﷺ فعرض الآية عليهن ، فبدأ بعائشة ، فاختارت الله ورسوله ، ثم قالت : يارسول الله لا تُخبر أزواجك أنِّي اخترتك ؛ فقال : « إن الله بعثني مُبلِّغاً ولم يبعثني متعنِّتاً » . وقد ذكرت حديث التخيير في كتاب « الحدائق » وفي « المغني » بطوله [(٢)] .

---

(١) قال في اللسان « ألا » : آلى من نسائه شهراً ، أي : حلف لايدخُل عليهن ، وإنما عدَّاه بـ « مِن » حملاً على المعنى ، وهو الامتناع من الدخول ، وهو يتعدّى بـ « مِنْ » .

(٢) روى مسلم في « صحيحه » : ٢/١١٠٤ عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال : دخل أبو بكر يستأذن على رسول الله ﷺ ، فوجد الناس جلوساً ببابه لم يؤذَن لأحدٍ منهم ، قال : فأُذن لأبي بكر فدخل ، ثم أقبل عمر فاستأذن فأُذن له ، فوجد النبي ﷺ جالساً ، حوله نساؤه ، واجماً ، ساكتاً ، قال : فقال : لأقولن شيئاً أضحك النبي ﷺ ، فقال : ـــ

وفي ما خيَّرهنَّ فيه قولان .

أحدها : أنه خيَّرهن بين الطلاق والمقام معه ، هذا قول عائشة عليها السلام .

والثاني : أنه خيَّرهنَّ بين اختيار الدنيا فيفارقهنَّ ، أو اختيار الآخرة فيُمسكهنَّ ، ولم يخيِّرهنَّ في الطلاق ، قاله الحسن ، وقتادة .

وفي سبب تخييره إيَّاهُنَّ ثلاثة أقوال .

أحدها : أنّهنَّ سألنَه زيادة النَّفقة .

والثاني : أنّهنَّ آذَينه بالغَيْرة . والقولان مشهوران في التفسير .

والثالث : أنه لمَّا خُيِّر بين ملك الدنيا ونعيم الآخرة فاختار الآخرة ، أُمِر بتخيير نسائه ليكنَّ على مِثْل حاله ، حكاه أبو القاسم الصَّيمري .

والمراد بقوله : (أُمَتِّعْكُنَّ) : مُتعة الطلاق . والمراد بالسَّراح : الطلاق ،

ـــ يارسول الله لو رأيت بنت خارجة (يريد زوجته) سألتني النفقة ، فقمت إليها فوجأت عنقها (طعنت عنقها) فضحك رسول الله ﷺ وقال : « هن حولي كما ترى يسألنني النفقة » فقام أبو بكر الى عائشة يجأ عنقها ، فقام عمر الى حفصه يجأ عنقهـا ، كلاهما يقول : تسألن رسول الله ﷺ ماليس عنده ، فقلن : والله لانسأل رسول الله ﷺ شيئاً أبداً ليس عنده ، ثم اعتزلهن شهراً ، أو تسعاً وعشرين ، ثم نزلت عليه هذه الآية : (يا أيها النبي قل لأزواجك) حتى بلغ (للمحسنات منكن أجراً عظيماً) قال : فبدأ بعائشة فقال : « ياعائشة إني أريد أن أعرض عليك أمراً أحب أن لاتعجلي فيه حتى تستشيري أبويك » قالت : وما هو يارسول الله ، فتلا عليهـا الآية ، قالت : أفيك يارسول الله أستشير أبويَّ ؟ ! بل أختار الله ورسوله والدار الآخرة ، وأسألك أن لاتخبر امرأة من نسائك بالذي قلتُ ، قال : « لاتسألني امرأة منهن إلا أخبرتها ، إن الله لم يبعثني مُعنِّتاً ولا متعنِّتاً (أي : لم يبعثني مشدداً على الناس ولا طالباً زلَّتهم) ولكن بعثني معلِّماً ميسِّراً » . ولقد أورد هذا الحديث السيوطي في « الدر » : ١٩٤/٥ ، وزاد نسبته لأحمد ، والنسائي ، وابن مردويه عن جابر رضي الله عنه . وانظر « صحيح مسلم » باب الايلاء واعتزال النساء وتخييرهن ١١٠٥/٢ - ١١١٣ .

وقد ذكرنا ذلك في (البقرة : ٢٣١) . والمراد بالدار الآخرة . الجنة . والمُحْسِنات : المُؤْثِرات للآخرة .

قال المفسرون : فلمّا اختَرْنَه أثابهنَّ اللهُ عز وجل ثلاثة أشياء . أحدها : التفضيل على سائر النساء بقوله : (لَسْتُنَّ كأَحد من النساء) ، والثاني : أن جَعَلَهُنَّ أُمَّهات المؤمنين ، والثالث : أن حظر عليه طلاقَهُنَّ والاستبدال بهنَّ بقوله : (لا يَحِلُّ لَكَ النِّساءِ مِنْ بَعْدُ) [الأحزاب : ٥٢] . وهل أُبيح له بعد ذلك التزويجُ عليهنَّ ؟ فيه قولان سيأتي ذِكْرهما إن شاء الله تعالى .

قوله تعالى : (مَنْ يأتِ مِنْكُنَّ بفاحشة مُبَيِّنة) أي : بمعصية ظاهرة . قال ابن عباس : يعني النشوز وسوء الخُلُق (يُضَاعَفْ لها العذابُ ضِعفين) أي : يُجعل عذاب جُرمها في الآخرة كعذاب جُرمَين ، كما أنها تُؤتى أجرَها على الطاعة مرتين . وإنما ضوعف عِقابُهنّ ، لأنهنّ يشاهِدن من الزّواجر الرّادعة مالا يُشاهِد غيرُهن ، فاذا لم يمتنعن استحققن تضعيف العذاب ، ولأن في معصيتهنَّ أذىً لرسول الله ﷺ ؛ وجُرم من آذى رسولَ الله ﷺ أكبرُ من جُرم غيره .

قوله تعالى : (وكان ذلك على الله يسيراً) أي : وكان عذابُها على الله هيّناً .

(ومن يَقْنُتْ) أي : يُطع ، و (أعتدنا) قد سبق بيانه [النساء : ٣٧] ، والرِّزق الكريم : الحَسَن ، وهو الجنة .

ثُمَّ أظهر فضيلتهنَّ على النساء بقوله : (لَسْتُنَّ كأَحد من النساء) قال الزجاج : لم يقل : كواحدة من النساء ، لأن « أحَداً » نفي عامّ للمذكَّر والمؤنَّث والواحد والجماعة . قال ابن عباس : يريد : ليس قدرُكُنَّ عندي مثل قَدْر غيركنَّ من النساء الصالحات ، أنتُنَّ أكرمُ عليَّ ، وثوابُكُنَّ أعظم (إنِ اتَّقَيْتُنَّ) ، فشرط عليهن التقوى بياناً أن فضيلتهنَّ إنَّما تكون بالتقوى ، لا بنفس اتصالهنَّ برسول الله ﷺ .

قوله تعالى : (فلا تَخْضَعْنَ بالقول) أي : لاتلِنَّ بالكلام (فَيَطْمَعَ الذي في قلبه مرض) أي : فُجور ؛ والمعنى : لاتَقُلْنَ قولاً يجد به منافق أو فاجر سبيلاً إلى موافقتكن له ؛ والمرأة مندوبة إذا خاطبت الأجانب إلى الغلظة في المَقَالة ، لأن ذلك أبعد من الطمع في الرِّيبة .

(وقُلْنَ قولاً معروفاً) أي : صحيحاً عفيفاً لايُطمِع فاجراً [١] .

(وقَرْنَ في بُيوتِكُنَّ) قرأ نافع ، وعاصم إلا أبان ، وهبيرة ، والوليد بن مسلم عن ابن عامر : « وقَرْنَ » بفتح القاف ؛ وقرأ الباقون بكسرها . قال الفراء : من قرأ بالفتح ، فهو من قَرَرْتُ في المكان ، فخفّفت ، كما قال : (ظَلْتَ عليه عاكفاً) [طه : ٩٧] ، ومن قرأ بالكسر ، فمن الوَقار ، يقال : قِرْ في منزلك . وقال ابن قتيبة : من قرأ بالكسر ، فهو من الوقار ، يقال : وَقَرَ في منزله يَقِرُ وُقوراً . ومن قرأ بنصب القاف جعله من القرار . وقرأ أُبيْ بن كعب ، وأبو المتوكل : « واقرَرْنَ » باسكان القاف وبراءين الأولى مفتوحة والثانية ساكنة . وقرأ ابن مسعود ، وابن أبي عبلة مثله ، إلا أنهما كسرا الراء الأولى .

قال المفسرون : ومعنى الآية : الأمر لهن بالتوقّر والسكون في بُيوتهنّ وأن لا يَخرُجْنَ [٢] .

قوله تعالى : (ولا تَبَرَّجْنَ) قال أبو عبيدة : التبرُّج : أن يُبرِزن

---

(١) قال ابن كثير : ومعنى هذا أنها تخاطب الأجانب بكلام ليس فيه ترخيم ، أي : لاتخاطب المرأة الأجانب كما تخاطب زوجها . اهـ .

(٢) قال ابن كثير : وقوله تعالى : (وقَرْنَ في بُيوتكن) أي : الزَمْنَ بُيوتكنْ فلا تَخرُجْنَ لغير حاجة ، قال : ومن الحوائج الشرعية الصلاةُ في المسجد بشرطه كما قال رسول الله ﷺ : « لاتمنعوا إماء الله مساجد الله ، وليَخرُجْنَ تَفِلات » (تاركات للطّيب والأدهان) وفي رواية : « وبيوتهنّ خير لهنّ » . اهـ . ومن الحوائج الشرعية : الخروج للحج والعمرة ، وزيارة الوالدين ، وعيادة المرضى ، وغير ذلك .

محاسنهن . وقال الزجاج : التبرُّج : إظهار الزِّينة وما يُستدعى به شهوةُ الرجل .
وفي (الجاهلية الأُولى) أربعة أقوال .
أحدها : أنها كانت بين إدريس ونوح ، وكانت ألف سنة ، رواه عكرمة عن ابن عباس [١] .
والثاني : أنها كانت على عهد إبراهيم عليه السلام ، وهو قول عائشة رضي الله عنها .
والثالث : بين نوح وآدم ، قاله الحكم .
والرابع : مابين عيسى ومحمد عليهما السلام ، قاله الشعبي [٢] . قال الزجاج : وإنما قيل : « الأُولى » ، لأَن كل متقدِّم أوَّل ، وكل متقدِّمة أُولى ، فتأويله : أنهم تقدَّموا أُمَّة محمد ﷺ .
وفي صفة تبرُّج الجاهلية الأُولى ستة أقوال .
أحدها : أن المرأة كانت تخرج فتمشي بين الرجال ، فهو التبرج ، قاله مجاهد .
والثاني : أنها مِشية فيها تكسُّر وتغنُّج ، قاله قتادة . والثالث : أنه التبختر ، قاله ابن أبي نجيح . والرابع : أن المرأة منهن كانت تتخذ الدِّرع من اللؤلؤ فتَلْبَسُه ثم تمشي وسط الطريق ليس عليها غيره ، وذلك في زمن إبراهيم عليه السلام ،

(١) رواه الطبري : ٢٢/٤ عن عكرمة عن ابن عباس ، وذكره الحافظ ابن حجر في « الفتح » : ٣٩٩/٨ من رواية ابن أبي حاتم وقال : إسناده قوي . وأورده السيوطي في « الدر » : ١٩٧/٥ وزاد نسبته لابن المنذر ، والحاكم ، وابن مردويه ، والبيهقي في « شعب الايمان » .

(٢) قال ابن جرير الطبري : وأولى الأقوال في ذلك عندي بالصواب أن يقال : إن الله تعالى ذِكره نهى نساء النبي أن يتبرَّجن تبرج الجاهلية الأولى ، وجائز أن يكون ذلك مابين آدم وعيسى ، فيكون معنى ذلك : ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى التي قبل الاسلام . فان قال قائل : أوَفي الاسلام جاهلية حتى يقال : عنى بقوله (الجاهلية الأولى) التي قبل الاسلام ؟ ! قيل : فيه أخلاق من أخلاق الجاهلية ، ثم قال : وجائز أن يكون ذلك مابين آدم ونوح ، وجائز أن يكون مابين إدريس ونوح ، فتكون الجاهلية الآخرة مابين عيسى ومحمد ، قال : وإذا كان ذلك مما يحتمله ظاهر التنزيل ، فالصواب أن يقال في ذلك كما قال الله ، إنه نهى عن تبرج الجاهلية الأولى . اهـ .

قاله الكلبي . والخامس : أنها كانت تُلقي الخِمار عن رأسها ولا تشُدُّه ، فيُرى قُرْطها وقلائدها ، قاله مقاتل . والسادس : أنها كانت تَلْبَس الثياب تبلغ المال ، لا تواري جَسدها ، حكاه الفراء .

قوله تعالى : (إنَّما يُريدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عنكم الرِّجس) وفيه للمفسرين خمسة أقوال .

أحدها : الشرك ، قاله الحسن . والثاني : الإثم ، قاله السدي . والثالث : الشيطان ، قاله ابن زيد . والرابع : الشكّ . والخامس : المعاصي ، حكاهما الماوردي . قال الزجاج : الرِّجس : كل مستقذَر من مأكول أو عمل أو فاحشة .

ونصب « أهلَ البيت » على وجهين ، أحدهما : على معنى : أعني أهلَ البيت ، والثاني : على النداء ، فالمعنى : يا أهل البيت .

وفي المراد بأهل البيت هاهنا ثلاثة أقوال .

أحدها : أنهم نساء رسول الله ﷺ ، لأنهنّ في بيته ، رواه سعيد بن جبير عن ابن عباس ، وبه قال عكرمة ، وابن السائب ، ومقاتل . ويؤكد هذا القولَ أن ما قبله وبعده متعلّق بأزواج رسول الله ﷺ . وعلى أرباب هذا القول اعتراض ، وهو أن جمع المؤنّث بالنون ، فكيف قيل : « عنكم » « ويطهركم » ؟ فالجواب أن رسول الله ﷺ فيهنّ ، فغلّب المذكّر .

والثاني : أنه خاصٌّ في رسول الله ﷺ وعليّ وفاطمة والحسن والحسين ، قاله أبو سعيد الخدري . وروي عن أنس وعائشة وأم سلمة نحو ذلك .

والثالث : أنهم أهل رسول الله ﷺ وأزواجه [1] ، قاله الضحاك .

---

(١) قال ابن كثير : وقوله تعالى : (إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً) نص في دخول أزواج النبي ﷺ في أهل البيت هاهنا ، لأنهن سبب نزول هذه الآية ، قال : وسبب النزول داخل فيه قولاً واحداً ، إما وحده على قول ، أو مع غيره على الصحيح ، ثم قال : وقال عكرمة : من شاء باهلته أنها نزلت في شأن نساء النبي ﷺ ، ـــ

وحكى لزجاج أنهم نساء رسول الله ﷺ والرجال الذين هم آله ؛ قال : واللغة تدل على أنها للنساء والرجال جميعاً ، لقوله : « عنكم » بالميم ، ولو كانت للنساء ، لم يجز إلاّ « عنكنّ » « ويُطهركنّ » .

قوله تعالى : (ويُطَهِّرَكم تطهيراً) فيه ثلاثة أقوال .

أحدها : من الشِّرك ، قاله مجاهد . والثاني : من السُّوء ، قاله قتادة . والثالث : من الإثم ، قاله السدي ، ومقاتل .

قوله تعالى : (واذكُرْنَ) فيه قولان .

أحدهما : أنه تذكير لهنّ بالنِّعَم .

والثاني : أنه أمرٌ لهنّ بحفظ ذلك . فمعنى « واذكُرْنَ » : واحفَظْن (ما يُتْلى في بيوتكُنّ من آيات الله) يعني القرآن .

ـــ قال ابن كثير : فان كان المراد أنهن كن سبب النزول دون غيرهن ، فصحيح ، وإن أريد أنهن المراد فقط دون غيرهن ، ففي هذا نظر ، فانه قد وردت أحاديث تدل على أن المراد أعم من ذلك ، وسرد بعض تلك الأحاديث ثم قال : الذي لايشك فيه من تدبّر القرآن أن نساء النبي ﷺ داخلات في قوله تعالى : (إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً) فان سياق الكلام معهن ، ولهذا قال تعالى بعد هذا كله : (واذكرن مايتلى في بيوتكن من آيات الله والحكمة) » ثم قال : ولكن إذا كان أزواجه من أهل بيته ، فقرابته أحق بهذه التسمية . اهـ . وفي « صحيح مسلم » : ٤/١٨٧٣ من حديث زيد بن أرقم رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « أما بعد ، ألا أيها الناس ، فانما أنا بشر يوشك أن يأتيَ رسول ربي فأجيب ، وأنا تارك فيكم ثقَلين ، أولهما كتاب الله فيه الهدى والنور ، فخذوا بكتاب الله واستمسكوا به » فحث على كتاب الله ورغّب فيه ثم قال : « وأهلُ بيتي ، أذكّركم الله في أهل بيتي ، أذكركم الله في أهل بيتي ، أذكركم الله في أهل بيتي » فقال له حصين : ومَن أهلُ بيته يازيد ؟ أليس نساؤه من أهل بيته ؟ قال : نساؤه من أهل بيته ، ولكن أهل بيته من حُرِم الصدقة بعده ، قال : ومن هم ؟ قال : هم آل علي ، وآل عقيل ، وآل جعفر ، وآل عباس ، قال : كل هؤلاء حُرِم الصدقة ؟ قال : نعم .

وفي الحكمة قولان . أحدهما : أنها السُّنَّة ، قاله قتادة . والثاني : الأمر والنهي ، قاله مقاتل .

قوله تعالى : (إن الله كان لطيفاً) أي : ذا لطف بكُنَّ إذْ جعلكُنَّ في البيوت التي تُتْلى فيها آياتُه (خبيراً) بكُنَّ إذ اختارَكُنَّ لرسوله .

﴿ إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيراً وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْراً عَظِيماً ﴾

قوله تعالى : (إنَّ المسلمين والمسلمات) في سبب نزولها خمسة أقوال .

أحدها : أن نساء رسول الله ﷺ قُلْنَ : ماله ليس يُذْكَر إلاَّ المؤمنون ، ولا تُذْكَر المؤمنات بشيء ؟! فنزلت هذه الآية ، رواه أبو ظبيان عن ابن عباس (١) .

والثاني : أن أُمَّ سَلَمَة قالت : يا رسول الله يُذْكَرُ الرجال ولا نُذْكَر ! فنزلت هذه الآية (٢) ، ونزل قوله : (لا أُضيعُ عمل عامل منكم) [آل عمران : ١٩٥] ، قاله مجاهد (٣) .

---

(١) رواه الطبري : ٢٢/١٠ وفي سنده قابوس بن أبي ظبيان ، قال الحافظ ابن حجر عنه في « التقريب » : فيه لين . وذكره السيوطي في « الدر » : ٥/٢٠٠ وزاد نسبته للطبراني ، وابن مردويه عن ابن عباس رضي الله عنها .

(٢) رواه الطبري : ٢٢/١٠ ، ورواه أحمد في « المسند » عن أم سلمة ، وأورده السيوطي في « الدر » : ٥/٢٠٠ وزاد نسبته للنسائي ، وابن المنذر ، وابن مردويه ، والطبراني عن أم سلمة رضي الله عنها .

(٣) رواه الطبري : ٤/٢١٥ ، والحاكم : ٢/٣٠٠ وصححه ، وذكره السيوطي في « الدر » : ٢/١١٢ وزاد نسبته لسعيد بن منصور ، وعبد الرزاق ، والترمذي ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، والطبراني .

والثالث : أن أُمَّ عُمَارة الأنصارية قالت : قلت : يا رسول الله بأبي وأُمّي ما بالُ الرجال يُذْكَرون ، ولا تُذْكَر النساء ؟! فنزلت هذه الآية ، قاله عكرمة [١] . وذكر مقاتل بن سليمان أن أمَّ سَلَمة وأُمَّ عُمَارة قالتا ذلك ، فنزلت [هذه] الآية في قولهما .

والرابع : أن الله تعالى لمّا ذكر أزواج رسوله دخل النساء المُسْلمات عليهنَّ فقُلْنَ : ذُكِرْتُنَّ ولم نُذْكَر ، ولو كان فينا خيرٌ ذُكِرنا ، فنزلت هذه الآية ، قاله قتادة [٢] .

والخامس : أن أسماء بنت عُمَيس لما رجعت من الحبشة دخلت على نساء رسول الله ﷺ فقالت : هل نزل فينا شيء من القرآن ؟ قُلْنَ : لا ، فأتت رسولَ الله ﷺ ؛ فقالت : يا رسول الله إن النساء لفي خَيْبة وخسار ، قال : « ومم ذاك » ؟ قالت : لأنهنَّ لا يُذْكَرْنَ بخير كما يُذْكَر الرجال ، فنزلت هذه الآية ، ذكره مقاتل بن حيّان [٣] .

وقد سبق تفسير ألفاظ الآية في مواضع [البقرة : ١٢٩ ، ١٠٩ ، الاحزاب : ٣١ ، آل عمران : ١٧ ، البقرة : ٤٥ ، يوسف : ٨٨ ، البقرة : ١٨٤ ، الانبياء : ٩١ ، آل عمران : ١٩١] .

﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالاً مُبِيناً . وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ

(١) ذكره السيوطي في « الدر » : ٥/٢٠٠ من رواية الفريابي ، وسعيد بن منصور ، وعبد بن حميد ، والترمذي وحسنه ، والطبراني ، وابن مردويه عن أم عمارة الأنصارية رضي الله عنها .

(٢) « الطبري » : ١٠/٢٢ ، وذكره السيوطي في « الدر » من رواية ابن سعد عن قتادة .

(٣) ذكره الواحدي في « أسباب النزول » : ٢٠٤ بدون سند .

أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَراً زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَراً وَكَانَ أَمْرُ اللهِ مَفْعُولاً ﴾

قوله تعالى : (وما كان لمؤمن ولا مؤمنة ...) الآية ، في سبب نزولها قولان .

أحدها : أن رسول الله ﷺ انطلق يخطب زينب بنت جحش لزيد بن حارثة ، فقالت : لا أرضاه ، ولستُ بِنَاكِحَتِه ، فقال رسول الله ﷺ : « بلى فانكحيه ، فإني قد رضيتُه لك » ، فأبت ، فنزلت هذه الآية . وهذا المعنى مرويّ عن ابن عباس ، ومجاهد ، وقتادة ، والجمهور [١] . وذكر بعض المفسرين أن عبد الله بن جحش أخا زينب كره ذلك كما كرهته زينب ، فلمّا نزلت الآيةُ رضيا وسلّما [٢] . قال مقاتل : والمراد بالمؤمن : عبد الله بن جحش ، والمؤمنة : زينب بنت جحش .

والثاني : أنها نزلت في أمّ كُلثوم بنت عُقْبة بن أبي مُعَيط ، وكانت أوّل امرأة هاجرت ، فوهبت نفسها لرسول الله ﷺ ، فقال : « قد قَبِلْتُكِ » ، وزوّجها زيدَ بن حارثة ، فسخطت هي وأخوها ، وقالا : إنّما أردنا رسولَ الله ، فزوّجها عبدَه ؟! فنزلت هذه الآية ، قاله ابن زيد [٣] . والأوّل عند المفسرين أصح .

---

(١) رواه الطبري : ٢٢/١١ من رواية العوفي عن ابن عباس ، وابن لهيعة عن ابن أبي عمرة عن عكرمة عن ابن عباس ، ورواه عن مجاهد وقتادة ، وذكره السيوطي في « الدر » عن ابن عباس ، ومجاهد ، وقتادة .

(٢) ذكره البغوي والخازن وغيرهما بدون سند .

(٣) رواه الطبري : ٢٢/١٢ عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم ، وذكره السيوطي في « الدر » : ٥/٢٠١ من رواية ابن أبي حاتم عن ابن زيد . وقال الحافظ ابن حجر في « تخريج الكشاف » ١٣٤ : رواه الثعلبي بهذا بغير سند .

قوله تعالى : (إذا قضى اللهُ ورسولُه أمراً) أي: حَكَما بذلك (أن تكون) وقرأ أهل الكوفة : « أن يكون » بالياء (لهم الخِيَرَةُ) وقرأ أبو مجلز ، وأبو رجاء : « الخِيْرَةُ » باسكان الياء ؛ فجمع في الكناية في قوله : « لهم »، لأن المراد جميع المؤمنين والمؤمنات ، والخِيرَة : الاختيار ، فأعلم الله عز وجل أنه لااختيار على ماقضاه الله ورسوله . فلمّا زوّجها رسولُ الله ﷺ زيداً مكثت عنده حيناً ، ثم إن رسول الله ﷺ أتى منزل زيد فنظر إليها وكانت بيضاء جميلة من أتمّ نساء قريش ، فوقعت في قلبه ، فقال : « سبحان مقلِّب القلوب » ، وفطن زيد ، فقال : يارسول الله ائذن لي في طلاقها [1] . وقال بعضهم : أتى رسولُ الله ﷺ منزل زيد ، فرأى زينب ، فقال : « سبحان مقلِّب القلوب » ، فسمعت ذلك زينب ، فلمّا جاء زيد ذكرت له ذلك ، فعلم أنها قد وقعت في نفسه ، فأتاه فقال : يارسول الله ائذن لي في طلاقها [2] . وقال ابن زيد : جاء رسولُ الله ﷺ إلى باب زيد - وعلى الباب سِتْر من شعر - فرفعت الريح السِّتر ، فرأى زينب ، فلمّا وقعت في قلبه كرهت إلى الآخر ، فجاء فقال : يارسول الله أُريد فراقها ، فقال له : « اتق الله » [3] . وقال مقاتل : لمّا فطن زيد لتسبيح رسول الله ﷺ ، قال: يارسول الله ائذن لي في طلاقها ، فان فيها كِبْراً ، فهي تَعظَّم عليّ وتؤذيني بلسانها ، فقال له النبي ﷺ : « أمسك عليك زوجك واتق الله » . ثم إن زيداً طلّقها

---

(١) قال الحافظ ابن حجر في « تخريج الكشاف » : ذكره الثعلبي بدون سند . اه . وكذلك ذكر مثل هذا المعنى الخازن والبغوي وغيرهما بدون سند .

(٢) وهذا أيضاً من المرسلات والمنقطعات التي ليس لها سند صحيح ، وقد أورد مثلها السيوطي في « الدر » من طريق عبد بن حميد ، وابن المنذر ، عن عكرمة ، ومن طريق ابن سعد والحاكم عن محمد بن يحيى بن حبّان .

(٣) رواه الطبري عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم ، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم ضعيف .

بعد ذلك ، فأنزل الله تعالى : (وإذ تقولُ للذي أنعم اللهُ عليه) [١] بالاسلام (وأنعمتَ عليه) بالعِتق .

قوله تعالى : (واتّقِ اللهَ) أي : في أمرها فلا تطلِّقها (وتُخفي في نَفْسك) أي : تُسِرُّ وتُضمِر في قلبك (ما اللهُ مُبْدِيه) أي : مُظهِره ؛ وفيه أربعة أقوال.

أحدها : حُبّها ، قاله ابن عباس .

والثاني : عهد عهده الله إليه أنّ زينب ستكون له زوجة ، فلمّا أتى زيد يشكوها ، قال له : « أمْسِك عليك زوجك واتق الله » ، وأخفى في نفسه ما الله مبديه ، قاله علي بن الحسين [٢] .

والثالث : إيثاره لطلاقها ، قاله قتادة ، وابن جريج ، ومقاتل .

والرابع : أن الذي أخفاه : إن طلّقها زيد تزوجتُها ، قاله ابن زيد .

قوله تعالى : (وتخشى الناسَ) فيه قولان.

أحدهما : أنه خشي اليهود أن يقولوا : تزوّج محمد امرأة ابنه ، رواه عطاء عن ابن عباس .

---

(١) ذكره بنحوه الحافظ ابن حجر في « تخريج الكشاف » عن الثعلبي بدون سند .

(٢) رواه الطبري : ٢٢/١٣ وفي سنده علي بن زيد بن جدعان ، وهو ضعيف . ورواه ابن أبي حاتم عن علي بن الحسين ، وفي سنده أيضاً علي بن زيد بن جدعان ، ورواه ابن أبي حاتم أيضاً من طريق السدي ، قال الحافظ ابن حجر عنه في « الفتح » : وهو أوضح سياقاً وأصح إسناداً إليه . اهـ . وقال الآلوسي في تفسيره عن هذا المعنى : وإلى هذا ذهب أهل التحقيق من المفسرين ، كالزهري ، وبكر بن العلاء ، والقشيري ، والقاضي أبي بكر بن العربي ، وغيرهم . اهـ . وقد رأيتَ كلام الحافظ ابن حجر قبل قليل ، وهو قوله : والحاصل أن الذي كان يخفيه النبي ﷺ هو إخبار الله إياه أنها ستصير زوجته . اهـ .

والثاني : أنه خشي لوم الناس أن يقولوا : أمر رجلاً بطلاق امرأته، ثم نكحها .

قوله تعالى : (واللهُ أحقُّ أن تَخْشَاه) أي : أولى أن تخشى في كل الأحوال . وليس المراد أنه لم يخش اللهَ في هذه الحال ، ولكن لمـّا كان لخشيته بالخَلْق نوع تعلـّق ، قيل له : اللهُ أحقُّ أن تخشى منهم . قالت عائشة : ما نزلت على رسول الله ﷺ آية هي أشدّ عليه من هذه الآية ، ولو كتم شيئاً من الوحي لكتمها [1] .

فصل

وقد ذهب بعض العلماء إلى تنزيه رسول الله من حُبِّها وإيثاره طلاقها . وإن كان ذلك شائعاً في التفسير [2] . قالوا : وإنما عوتب في هذه القصة على شيئين ،

(١) رواه الطبري بهذا اللفظ : ٢٢/١٣ من قول الحسن ، ورواه ايضاً عن عائشة بلفظ : لو كتم رسول الله ﷺ شيئاً مما أوحي إليه من كتاب الله لكتم (وتخفي في نفسك ماالله مبديه وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه) ورواه الترمذي : ١٥٣/٢ بنحوه وقال : هذا حديث حسن صحيح ، وأورده السيوطي في « الدر » : ٢٠٢/٥ ، وزاد نسبته لسعيد بن منصور ، وعبد بن حميد ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، والطبراني ، وابن مردويه عن عائشة . وروى مسلم في « صحيحه » : ١٦٠/١ عن عائشة رضي الله عنها قالت : ولو كان محمد ﷺ كاتماً شيئاً مما أنزل عليه لكتم هذه الآية : (وإذ تقول للذي أنعم الله عليه وأنعمت عليه أمسك عليك زوجك واتق الله وتخفي في نفسك ماالله مبديه وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه) . اهـ .

(٢) قال الحافظ ابن كثير في تفسير هذه الآية (وتخفي في نفسك ماالله مبديه وتخشى الناس والله أحق ان تخشاه) : ذكر ابن أبي حاتم والطبري هاهنا آثاراً عن بعض السلف رضي الله عنهم أحببنا أن نضرب عنها صفحاً لعدم صحتها فلا نوردها . اهـ . يريد بذلك أمثال « فوقعت في قلبه » و « سبحان مقلب القلوب » .

وقال الحافظ ابن حجر العسقلاني ٤٠٣/٨ بعدما ذكر أن الآية نزلت في شأن زينب بنت جحش ـــ

. . . .

ـــ وزيد بن حارثة مختصراً كما في حديث البخاري ، ثم ذكر حديثاً للبخاري في كتاب التوحيد أطول منه ، وليس فيها ماتقدم من أنها وقعت في قلبه ، وغير ذلك ، قال : وقد أخرج ابن أبي حاتم هذه القصة من طريق السدي فساقها سياقاً واضحاً حسناً ، ولفظه : بلغنا أن هذه الآية نزلت في زينب بنت جحش ، وكانت أمها أميمة بنت عبد المطلب عمة رسول الله ﷺ ، وكان رسول الله ﷺ أراد أن يزوجها زيد بن حارثة مولاه ، فكرهت ذلك ، ثم إنها رضيت بما صنع رسول الله ﷺ ، فزوجها إياه ، ثم أعلم الله عز وجل نبيه ﷺ بعدُ أنها من أزواجه ، فكان يستحي أن يأمر بطلاقها ، وكان لايزال يكون بين زيد وزينب مايكون من الناس ، فأمره رسول الله ﷺ أن يمسك زوجه وأن يتقي الله ، وكان يخشى الناس أن يعيبوا عليه ويقولوا : تزوج امرأة ابنه وكان قد تبنّى زيداً .
ثم قال ابن حجر : ووردت آثار أخرى أخرجها ابن أبي حاتم ، والطبري ، ونقلها كثير من المفسرين لاينبغي التشاغل بها ، قال : والذي أوردته هو المعتمد ، ثم قال : والحاصل أن الذي كان يخفيه النبي ﷺ هو إخبار الله إياه أنها ستصير زوجته ، قال : والذي كان يحمله على إخفاء ذلك خشية قول الناس : تزوج امرأة ابنه ، وأراد الله إبطال ما كان أهل الجاهلية عليه من أحكام التبنّي بأمرٍ لاأبلغَ في الابطال منه ، وهو تزوّج امرأة الذي يُدعى ابناً ، قال : ووقوع ذلك من إمام المسلمين ، ليكون أدعى لقبولهم ، قال : وإنمـــا وقع الخبط في تأويل متعلق الخشية ، والله أعلم . وقال الآلوسي في « تفسيره » : وللقُصّاص في هذه القصة كلام لاينبغي أن يجعل في حيز القبول ، منه ما أخرجه ابن سعد والحاكم عن محمد بن يحيى بن حبّان ، ثم قال : وفي « شرح المواقف » : أن هذه القصة مما يجب صيانة النبي ﷺ عن مثله . اهـ .
قال الحافظ ابن حجر في « الفتح » : وروى أحمد ، ومسلم ، والنسائي ، من طريق سليمان بن المغيرة عن ثابت عن أنس قال : لما انقضت عدة زينب ، قال رسول الله ﷺ لزيد : « اذكرها عليَّ » قال : فانطلقت ، فقلت : يازينب أبشري أرسل رسول الله ﷺ يذكرك ، فقالت : ما أنا بصانعة ـــ
حتى أوامر ربي ، فقامت إلى مسجدها ، ونزل القرآن ، وجاء رسول الله ﷺ حتى دخل عليها بغير إذن . قال ابن حجر : وهذا أيضاً من أبلغ ماوقع في ذلك ، وهو أن يكون الذي كان زوجها هو الخاطب ، لئلا يظن أحد أن ذلك وقع قهراً بغير رضاه ، قال : وفيه أيضاً اختبار ما كان عنده منها ، هل بقي منه شيء ، أم لا ؟ وفيه استحباب فعل المرأة الاستخارة ، ودعائها عند الخطبة قبل الاجابة ، وأن من وكل أمره إلى الله عز وجل يسر الله له ماهو الأحظّ له والأنفع دنيا وأخرى . اهـ .

أحدها : أنه أُخبر بأنها ستكون زوجة له ، فقال لزيد : « أمسك عليك زوجك » فكتم ما أخبره الله به من أمرها حياءً من زيد أن يقول له : إنَّ زوجتَك ستكون امرأتي ؛ وهذا يخرج على ما ذكرنا عن عليّ بن الحسين ، وقد نصره الثعلبي ، والواحدي ·

والثاني : أنه لمَّا رأى اتصال الخصومة بين زيد وزينب ، ظن أنهما لايتفقان وأنه سيفارقها ، وأضمر أنه إن طلَّقها تزوَّجتُها صِلةً لرحمها ، وإشفاقاً عليها ، لأنها كانت بنت عمته أُميمة بنت عبد المطلب ، فعاتبه الله على إضمار ذلك وإخفائه حين قال لزيد : « أمسك عليك زوجك » ، وأراد منه أن يكون ظاهره وباطنه عند الناس سواء كما قيل له في قصة رجل أراد قتله : هلاّ أومأتَ إلينا بقتله ؟ فقال : « ما ينبغي لنبيّ أن تكون له خائنة الأعين » [1] ، ذكر هذا القول القاضي أبو يعلى رحمة الله عليه .

قوله تعالى : (فلمَّا قضى زيدٌ منها وَطَراً) قال الزجاج : الوَطَر : كل حاجة لك فيها هِمَّة ، فاذا بلغها البالغ قيل : قد قضى وَطَره . وقال غيره : قضاء الوَطَر في اللغة : بلوغ منتهى ما في النفس من الشيء ، ثم صار عبارة عن الطلاق ، لأن الرجل إنما يطلِّق امرأته إذا لم يبق له فيها حاجة . والمعنى : لمَّا قضى زيد حاجته من نكاحها (زوَّجْناكها) ، وإنما ذكر قضاء الوَطَر هاهنا ليُبيِّن أن امرأة المتبنَّى تحِلُّ وإن وطئها ، وهو قوله : (لِكَيْلا يكونَ على المؤمنين حَرَجٌ في أزواج أدعيائهم إذا قَضَوْا منهنَّ وَطراً) ؛ والمعنى : زوجْناك زينب ـ وهي امرأة زيد الذي تبنَّيْتَه ـ لكيلا يُظَنَّ أن امرأة المتبنَّى لا يحلُّ نكاحها . وروى مسلم في

---

(١) رواه أبو داود في « سننه » رقم (٢٦٨٣) و (٤٣٥٩) من حديث أحمد بن المفضل قال : ثنا أسباط بن نصر ، قال : زعم السدي عن مصعب بن سعد عن سعد ... فذكره ، وذكره ابن كثير في « البداية والنهاية » ٤/٢٩٨ من رواية البيهقي من حديث أحمد بن المفضل به نحوه ، ورواه النسائي في « المحاربة » .

أفراده من حديث أنس بن مالك قال : لمّا انقضت عِدّةُ زينب قال رسول الله ﷺ لزيد : « اذهب فاذْكُرها عليّ » ، قال زيد : فانطلقتُ ، فلمّا رأيتُها عَظُمَتْ في صدري حتى ما أستطيع أن أنظُر إليها ، لأن رسول الله ﷺ ذكرها ، فولّيتُها ظهري ، ونَكَصْتُ على عَقِبي ، وقلتُ : يا زينب ، أرسلني رسولُ الله ﷺ يذكُرُكِ ، قالت : ما أنا بصانعة شيئاً حتى أُوَامر ربّي ، فقامت إلى مسجدها ، ونزل القرآن ، وجاء رسول الله ﷺ فدخل عليها بغير إذن [1] .

وذكر أهل العلم أن من خصائص رسول الله ﷺ أنه أُجيز له التزويج بغير مَهْر ليَخلُص قَصْد زوجاته لله دون العِوَض ، وليخفّف عنه ، وأُجيز له التزويج بغير وليٍّ ، لأنه مقطوع بكفاءته ، وكذلك هو مستغنٍ في نكاحه عن الشهود . وكانت زينب تفاخر نساء النبي ﷺ وتقول : زوّجكُنّ أهلوكُنّ ، وزوّجني اللهُ عز وجل [2] .

﴿ مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَراً مَقْدُوراً . الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَداً إِلَّا اللَّهَ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيباً . مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً ﴾

---

(١) رواه مسلم في « صحيحه » ١٠٤٨/٢ ، ورواه أحمد في « مسنده » ، والنسائي في « سننه » ، وأورده السيوطي في « الدر » : ٢٠١/٥ وزاد نسبته لابن سعد ، وأبي يعلى ، وابن أبي حاتم ، والطبراني ، وابن مردويه عن أنس بن مالك رضي الله عنه .

(٢) رواه البخاري رحمه الله : ٢٤٨/١٣ عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : فكانت زينب تفخر على أزواج النبي ﷺ تقول : زوجكنّ أهاليكن ، وزوجني الله تعالى من فوق سبع سموات ، وذكره السيوطي في « الدر » : ٢٠١/٥ وزاد نسبته لأحمد ، وعبد بن حميد ، والترمذي ، وابن المنذر ، والحاكم ، وابن مردويه ، والبيهقي في « سننه » عن أنس رضي الله عنه .

قوله تعالى : (ماكان على النبيِّ مِنْ حَرَجٍ فيما فَرَضَ اللهُ له) قال قتادة : فيما أحَلَّ اللهُ له من النساء .

قوله تعالى : (سُنَّةَ الله) هي منصوبة على المصدر ، لأن معنى « ما كان على النبيِّ مِنْ حَرَج » : سنَّ اللهُ سُنَّة واسعة لاحَرَجَ فيها . والذين خَلَوا : هم النبيُّون ؛ فالمعنى : أن سُنَّة الله في التَّوسعة على محمد فيما فرض له ، كسُنَّته في الأنبياء الماضين . قال ابن السائب : هكذا سُنَّة الله في الأنبياء ، كداود ، فانه كان له مائة امرأة ، وسليمان كان له سبعمائة امرأة وثلاثمائة سُرِّيَّة [1] ،

---

(١) كذا الأصل ، والذي في « مجمع البيان » للطبرسي ، والخازن عكس ماهاهنا : وكان لسليمان ثلاثمائة امرأة ، وسبعمائة سرية . قال الحافظ ابن حجر في « الفتح » ٦/٣٣١ : وقد حكى وهب بن منبه في « المبتدأ » أنه كان لسليمان ألف امرأة ، ثلاثمائة مهيرة ، وسبعمائة سرية ، قال : ونحوه مما أخرج الحاكم في « المستدرك » من طريق أبي معشر عن محمد بن كعب قال : بلغنا أنه كان لسليمان ألف بيت من قوارير على الخشب ، فيها ثلاثمائة صريحة ، وسبعمائة سرية . اه .

والذي في « صحيح البخاري » : ٦/٣٣٠ في كتاب أحاديث الأنبياء عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : قال سليمان بن داود : لأطوفن الليلة على سبعين امرأة تحمل كل امرأة فارساً يجاهد في سبيل الله ، فقال له صاحبه : إن شاء الله ، فلم يقل ، ولم تحمل شيئاً إلا واحداً ساقطاً أحد شقَّيه ، فقال النبي ﷺ : « لو قالها لجاهدوا في سبيل الله » . وفي بعض روايات البخاري تسعين ، ورجحها البخاري على سبعين ، قال الحافظ ابن حجر : وعند مسلم سبعين . وأخرج الاسماعيلي والنسائي عن أبي الزناد ، قال : مائة امرأة ، ورواه أحمد وأبو عوانة من طريق هشام عن ابن سيرين فقال : مائة امرأة ، قال : ومن طريق جعفر بن ربيعة عن الأعرج : مائة امرأة أو تسع وتسعون على الشك . قال الحافظ ابن حجر : فمحصل الروايات ستون ، وسبعون ، وتسعون ، وتسع وتسعون ، ومائة ، والجمع بينها أن الستين كن حرائر ، وما زاد عليهن كن سراري ، أو بالعكس ، وأما السبعون ، فللمبالغة ، وأما التسعون والمائة ، فكن دون المائة وفوق التسعين ، فمن قال : تسعون ألغى الكسر ، ومن قال : مائة ، جبره ، ومن ثَمَّ وقع التردد في رواية جعفر ، قال : وأما قول بعض الشراح : ليس في ذكر القليل نفي الكثير ، وهو من مفهوم العدد ، وليس بحجة عند الجمهور ، فليس بكاف في هذا المقام ، وذلك أن مفهوم العدد معتبر عند كثيرين ، والله أعلم . اه .

(وكان أمر الله قَدَراً مقدوراً) أي : قضاءً مقضياً . وقال ابن قتيبة : « سُنَّةَ الله في الذين خَلَوا » معناه : لاحَرَجَ على أحد فيما لم يَحْرُم عليه .

ثم أثنى الله على الأنبياء بقوله : (الذين يبلِّغون رسالات الله ويَخشَوْنه ولا يَخشَون أحداً إلّا اللهَ) أي : لايخافون لائمة الناس وقولهم فيما أُحِلَّ لهم . وباقي الآية قد تقدم بيانه [النساء : ٦] .

قوله تعالى : (ماكان محمَّدٌ أبا أحَد من رجالكم) قال المفسرون : لمَّا تزوَّج رسولُ الله ﷺ زينب ، قال النـاس : إن محمداً قد تزوَّج امرأة ابنه ، فنزلت هذه الآية [1] ، والمعنى : ليس بأب لزيد فتَحْرُم عليه زوجته (ولكنْ رسولَ الله) قال الزجاج : من نصبـه ، فالمعنى : ولكن كان رسولَ الله ، وكان خاتَمَ النبيّين ؛ ومن رفعه ، فالمعنى : ولكنْ هو رسولُ الله ؛ ومن قرأ : « خاتِمَ » بكسر التاء ، فمعناه : وختَم النبيّين ؛ ومن فتحها ، فالمعنى : آخر النبيِّين . قال ابن عبـاس : يريد : لو لم أختِم به النبيِّين ، لَجَعلتُ له ولداً يكون بعده نبياً [2] .

---

(١) رواه الترمذي : ١٥٢/٢ عن عائشة رضي عنها .

(٢) قال ابن كثير : وقوله تعالى : (ما كان محمـد أبا أحد من رجالكم) نهى أن يقال بعد هذا : زيدُ بن محمد ، أي : لم يكن أباه وإن كان قد تبنّاه ، فانه ﷺ لم يعش له ولد ذَكَر حتى بلغ الحلم ، فانه ﷺ ولد له : القاسم ، والطيب والطاهر ، من خديجة رضي الله عنها ، فماتوا صغاراً ، وولد له ﷺ ابراهيم من مارية القبطية ، فمات أيضاً رضيعاً ، وكان له ﷺ من خديجة أربع بنات : زينب ، ورقية ، وأم كلثوم ، وفاطمة ، رضي الله تعالى عنهم أجمعين ، فمات في حياته ﷺ ثلاث ، وتأخَّرت فاطمة رضي الله عنها حتى اصيبت به ﷺ ، ثم ماتت بعده لستة أشهر ، قال : وقوله تعالى : (ولكن رسول الله وخاتم النبيين وكان الله بكل شيء عليماً) كقوله عز وجل : (الله أعلم حيث يجعل رسالته) قال : فهذه الآية نص في أنه لانبي بعده ، وإذا كان لانبي بعده ، فلا رسول بعده بالطريق الأَولى والأحرى ، لأن مقام الرسالة أخص من مقام النبوة ، فان كل رسول نبي ، ولا ينعكس ، قال : وبذلك وردت الأحاديث المتواترة ـــ

. . . .

ـــ عن رسول الله ﷺ من حديث جماعة من الصحابة رضي الله عنهم . اهـ . وذكر ابن كثير كثيراً من الأحاديث التي تدل على ختم النبوة والرسالة به ﷺ ، منها ماأخرجه البخاري في « صحيحه » : ٤٠٨/٤ ، ومسلم في « صحيحه » ١٧٩١/٤ ، عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « إن مَثَلي ومثل الأنبياء من قبلي ، كمثل رجل بنى بيتاً فأحسنه وأجمله ، إلا موضع لبِنة من زاوية ، فجعل الناس يطوفون به ويعجبون له ، ويقولون : هلاّ وضعت هذه اللَّبِنة ؟ ! قال : فأنا اللَّبِنة ، وأنا خاتم النبيين » والفظ للبخاري . ومنها مارواه مسلم في « صحيحه » : ٣٧١/١ ، عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « فضِّلتُ على الأنبياء بست : أعطيت جوامع الكلِم ، ونصرت بالرعب ، وأحلت لي الغنائم ، وجعلت لي الأرض طهوراً ومسجداً ، وأرسلت إلى الخلق كافة ، وختم بي النبيون » ، ومنها مارواه البخاري في « صحيحه » : ٤٠٤/٦ ، ومسلم في « صحيحه » : ١٨٢٨/٤ عن جبير بن مطعم رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إن لي أسماءً : أنا محمد ، وأنا أحمد ، وأنا الماحي الذي يمحو الله بيَ الكفر ، وأنا الحاشر الذي يُحشر الناس على قدميّ ، وأنا العاقب الذي ليس بعده أحد » واللفظ لمسلم ـ والعاقب : الذي ليس بعده نبي ـ وغير ذلك من النصوص الكثيرة الدالة على ختم باب النبوة برسولنا ونبينا محمد ﷺ .

قال ابن كثير : والأحاديث في هذا كثيرة ، فمن رحمة الله تعالى بالعباد : إرسال محمد ﷺ إليهم ، ثم من تشريفه لهم ختم الأنبياء والمرسلين به ، وإكمال الدين الحنيف له ، قال : وقد أخبر الله تبارك وتعالى في كتابه ، ورسوله ﷺ في السُّنَّة المتواترة عنه أنه لانبي بعده ، ليعلموا أن كل من ادّعى هذا المقام بعده ، فهو كذّاب ، أفّاك ، دجّال ، ضالٌ ، مضِلٌ ، ولو تخرق وشعبذ وأتى بأنواع السحر والطلاسم والنيرنجيات ، فكلها محال وضلال عند أولي الألباب ، كما أجرى الله سبحانه وتعالى على يد الأسود العنسي باليمن ومسيلمة الكذاب باليمامة من الأحوال الفاسدة والأقوال الباردة ماعلم كلُّ ذي لُبٍّ وفهم وحِجىً ، أنهما كاذبان ضالاّن ، لعنهما الله ، وكذلك كلُّ مدّعٍ لذلك إلى يوم القيامة حتى يختموا بالمسيح الدجال ، فكل واحد من هؤلاء الكذابين يخلق الله تعالى معه من الأمور مايشهد العلماء والمؤمنون بكذب من جاء بها ، وهذا من تمام لطف الله تعالى بخلقه ، فانهم بضرورة الواقع لايأمرون بمعروف ولا يَنهون عن منكر إلا على سبيل الاتفاق ، أو لِما لهم فيه من المقاصد إلى غيره ، ويكون في غاية الافك والفجور ـــ

. . . .

ـــ في أقوالهم وأفعالهم ، كما قال تعالى : (هل أنبئكم على من تنزّل الشياطين تنزّل على كل أفّاك أثيم . . .) الآية ، قال : وهذا بخلاف حال الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، فإنهم في غاية البرّ والصدق والرشد والاستقامة والعدل فيما يقولونه ويفعلونه ويأمرون به وينهون عنه ، مع مايؤيَّدون به من الخوارق للعادات ، والأدلة الواضحات ، والبراهين الباهرات ، فصلوات الله وسلامه عليهم دائماً مستمراً مادامت الأرض والسموات . اهـ .

هذا وقد ظهر في هذا القرن (القرن الثالث عشر الهجري) دجال في « قاديان » إحدى بلاد باكستان يدّعي النبوة ، يسمى : ميرزا غلام أحمد (١٢٥٢ - ١٣٢٦ هـ) وأتباعه يسمون أنفسهم « الأحمدية » نسبة إلى دجال قاديان ، وهم المعروفون عند الناس بالقاديانيين ، وهم يعتبرون ميرزا غلام أحمد القادياني إمام هذا الزمان ، والمسيح الموعود ، ويدّعون أن النبوة لاتنقطع ، وأن إمامهم من جملة الأنبياء ، ويفسرون قوله تعالى : (وخاتَم النبيّين) بأنه طابعهم ، وليس آخرهم ، وأن كل نبي يظهر بعده (ﷺ) تكون نبوّته مطبوعاً عليها بخاتم تصديقه ، مخالفين بذلك تفسير الصحابة والتابعين والمفسرين والمجتهدين والفقهاء والمحدثين وجمهور المسلمين من السلف والخلف ، ويستشهدون بقول مسيحهم المزعوم في كتاب « ملفوظات أحمدية » صفحة (٢٩٠) : أن المراد به أنه لايمكن أن نصدق الآن نبوة أي نبي من الأنبياء إلا بخاتمه (ﷺ) ويقول مسيحهم بناءً على ذلك مدعياً الرسالة في كتابه « التبليغ » صفحة (٤٣ - ٤٥) : « أرسلني ربي لدعوة الخلق ، وآتاني من آيات بينة لأدعو خلقه إلى دينه ، فطوبى للذين يقبلوني ويذكرون الموت أو يطلبون الآيات وبعد رؤيتها يؤمنون » والحق أنه رسول من قبل دولة الانكليز ، يدل على ذلك قوله في كتابه « ضرورة الامام » صفحة (٣٨) في تفسير قوله تعالى : (أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم) : المراد من أولي الأمر جسمانياً الملك (ملك بريطانيا) وروحانياً إمام الزمان (يعني نفسه) وإن الشخص الجسماني الذي لايخالفنا في مقاصدنا ، ويمكننا أن تحصل لنا منه الفائدة الدينية فهو يكون منا ، ولذلك فنصيحتي لجماعتي هي أن يعدّوا ملك الانكليز من أولياء أمرهم ويطيعوهم بصدق القلب ، لأن هؤلاء لايحرجوننا في مقاصدنا الدينية » . اهـ . ويقول منير الحصني من أتباعه في دمشق في شرح كلامه هذا في كتابه « الجماعة الأحمدية والانكليز » صفحة (١٨) : ومن هذا الكلام الواضح يفهم كل قارىء أن المسيح الموعود عليه السلام (يريد دجال قاديان) بين حكماً من أحكام القرآن المجيد ، وهو إطاعة غير المسلمين إذا منحوا الحرية الدينية ـــ

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللهَ ذِكْراً كَثِيراً . وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً . هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيماً . تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْراً كَرِيماً ﴾

قوله تعالى : (اذكُروا الله ذِكْراً كثيراً) قال مجاهد : هو أن لاينساه أبداً. وقال ابن السائب : يقال : « ذِكْراً كثيراً » بالصلوات الخمس . وقال مقاتل بن حيَّان : هو التسبيح والتحميد والتهليل والتكبير على كل حال : وقد روى أبو هريرة عن رسول الله ﷺ أنه قال : « يقول ربكم : أنا مع عبدي ماذكرني وتحركت بي شفتاه »[1] .

ـــ سواء أكانوا انكليزاً أم غير انكليز ، وبما أن الانكليز كانوا في وقته عليه السلام هم الحاكمين ، كانوا لايتعرضون الدين ، لذلك قال بوجوب طاعتهم . ويقول المسيح الكذاب مبيناً نعمة الانكليز عليه وعلى أتباعه في كتابه « بركات الخلافة » صفحة (٦٥) : « إن إحسان الحكومة الانكليزية إلينا هو كبير ونحن نعيش براحة واطمئنان كبيرين ، وتتم مقاصدنا ، إن أعظم مقصد انما هو إشاعة الدين (دين دجال قاديان) ولأجل تتميم هذا المقصد نجد كل حرية ، ويمكننا التبليغ في كل ركن من المملكة (الانكليزية) حيث نشاء ، وإذا ذهبنا للتبليغ في الممالك الأخرى ، فهناك أيضاً تساعدنا الحكومة البريطانية » . اهـ كلام هذا الدجال ، وهو واحد من الذين ظهروا ، وسيظهر أمثاله ، وذلك مصداق قول نبينا محمد ﷺ فيما رواه مسلم في « صحيحه » : ٢٢٤٠/٤ عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : « لاتقوم الساعة حتى يُبْعَثَ دجَّالون كذّابون ، قريبٌ من ثلاثين ، كلهم يزعم أنه رسول الله » .

(١) رواه البخاري معلقاً ٤١٧/١٣ ، قال : وقال أبو هريرة عن النبي ﷺ : « قال الله تعالى : أنا مع عبدي إذا ذكرني وتحركت بي شفتاه » . ورواه أحمد في « المسند » عن أبي هريرة رضي الله عنه ، وابن ماجه في « سننه » رقم « ٣٧٩٢ » عن أبي هريرة رضي الله عنه ، ورواه ابن حبان في « صحيحه » وهو في « موارد الظمآن » للحافظ الهيثمي صفحة ٥٦٧ ، ورواه الحاكم في « المستدرك » : ٤٩٦/١ عن أبي الدرداء رضي الله عنه وصححه ، ووافقه الذهبي . ـــ

قوله تعالى : (وسَبِّحوه بُكْرةً وأصيلاً) قال أبو عبيدة : الأصيل : ما بين العصر إلى الليل . وللمفسرين في هذا التسبيح قولان .

أحدها : أنه الصلاة ، واتفق أرباب هذا القول على أن المراد بالتسبيح بُكْرة : صلاةُ الفجر .

واختلفوا في صلاة الأصيل على ثلاثة أقوال . أحدها : أنها صلاة العصر ،

— والأحاديث في فضل الذِّكر كثيرة ، منها مارواه الترمذي ، وابن ماجه ، والحاكم بسند صحيح عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « ألا أنبئكم بخير أعمالكم ، وأزكاها عند مليككم ، وأرفعها في درجاتكم ، وخير لكم من إنفاق الذهب والوَرِق ، وخير لكم من أن تلقَوْا عدوّكم فتضربوا أعناقهم ويضربوا أعناقكم ؟ » قالوا : بلى يارسول الله : قال : « ذِكر الله » . ومنها مارواه مسلم في « صحيحه » عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « سبق المفرِّدون » قالوا : وما المفردون يارسول الله ؟ قال : « الذاكرون الله كثيراً والذاكرات » . ومنها مارواه البخاري ومسلم في « صحيحيهما » عن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال : « مثل الذي يذكر ربه والذي لايذكر ربه مثل الحي والميت » . وعن عبد الله بن بسر أن رجلاً قال : يارسول الله إن شرائع الاسلام قد كثرت عليّ فأخبرني بشيء أتشبَّث به ، قال : « لايزال لسانك رطباً من ذكر الله تعالى » ، رواه الترمذي وحسنه ، والحاكم وصححه ووافقه الذهبي . وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال : « من قعد مقعداً لم يذكر الله تعالى فيه ، كانت عليه من الله تعالى تِرة ، ومن اضطجع مضطجعاً لايذكر الله تعالى فيه ، كانت عليه من الله تِرة » - أي : نقص وتبعة وحسرة - رواه أبو داود ، وهو حديث صحيح . والآيات والأحاديث والآثار في الحث على ذكر الله تعالى كثيرة جداً ، وفي هذه الآية الكريمة حثٌّ على الاكثار من ذلك ، وقد صنف العلماء في الأذكار المتعلقة بآناء الليل والنهار مصنفات كثيرة ، ومن أحسنها في ذلك كتاب « الأذكار » للامام النووي رحمه الله ، وقد اختصره شيخ الاسلام ابن تيمية وسماه بـ « الكلم الطيب » وطبعه المكتب الاسلامي طباعة جيدة محققة ، ليكون في متناول أيدي الناس - وخاصة الشباب منهم - وليجدوا بذلك عوناً لهم على ذكر الله عز وجل .

قاله أبو العالية ، وقتادة . والثاني : أنها الظهر والعصر والمغرب والعشاء . قاله ابن السائب . والثالث : أنها الظهر والعصر ، قاله مقاتل .

والقول الثاني : أنه التسبيح باللسان ، وهو قول : « سبحان الله ، والحمد لله ، ولا إله إلا الله ، والله أكبر ، ولا حول ولا قوّة إلاّ بالله » ، قاله مجاهد .

قوله تعالى : (هو الذي يصلِّي عليكم وملائكتُه) في صلاة الله علينا خمسة أقوال .

أحدها : أنها رحمته ، قاله الحسن . والثاني : مغفرته ، قاله سعيد بن جبير . والثالث : ثناؤه ، قاله أبو العالية ، والرابع : كرامته ، قاله سفيان . والخامس : بَرَكَتُه ، قاله أبو عبيدة .

وفي صلاة الملائكة قولان .

أحدهما : أنها دعاؤهم ، قاله أبو العالية . والثاني : استغفارهم ، قاله مقاتل .

وفي الظُّلُمات والنُّور هاهنا ثلاثة أقوال .

أحدها : الضَّلالة والهدى ، قاله ابن زيد . والثاني : الإيمان والكفر ، قاله مقاتل . والثالث : الجنة والنار ، حكاه الماوردي .

قوله تعالى : (تحيَّتُهم) الهاء والميم كناية عن المؤمنين .

فأما الهاء في قوله : (يَلْقَونه) ففيها قولان .

أحدهما : أنها ترجع إلى الله عز وجل . ثم فيه ثلاثة أقوال . أحدها : أن معناه : تحيَّتُهم من الله يوم يَلْقَونه سلام . وروى صهيب عن النبي ﷺ أن الله يسلِّم على أهل الجنة . والثاني : تحيَّتُهم من الملائكة يوم يَلْقَون اللهَ : سلامٌ ،

قاله مقاتل . وقال أبو حمزة الثمالي : تسلّم عليهم الملائكة يوم القيامة ، وتبشّرهم حين يخرجون من قبورهم . والثالث : تحيّتُهم بينهم يوم يلقون ربّهم : سلام ، وهو أن يُحيّي بعضُهم بعضاً بالسلام ، ذكره أبو سليمان الدمشقي .

والقول الثاني : أن الهاء ترجع إلى ملك الموت ، وقد سبق ذِكْره في ذِكْر الملائكة . قال ابن مسعود : إذا جاء ملك الموت لقبض روح المؤمن قال له : ربُّك يقرئك السلام [١] . وقال البراء بن عازب : في قوله : « تحيّتُهم يوم يلْقَونه » قال : ملَك الموت ، ليس مؤمن يقبض روحه إلا سلّم عليه [٢] . فأما الأجر الكريم ، فهو الحسن في الجنة [٣] .

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً . وَدَاعِياً إِلَى اللهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجاً مُنِيراً . وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُمْ مِنَ اللهِ فَضْلاً كَبِيراً . وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَدَعْ أَذَاهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ وَكَفَى بِاللهِ وَكِيلاً ﴾

---

(١) ذكره السيوطي في « الدر » : ٥/٢٠٦ من رواية المروزي في « الجنائز » وابن أبي الدنيا وأبي الشيخ عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه .

(٢) ذكره السيوطي في « الدر » : ٥/٢٠٦ من رواية ابن أبي شيبة في « المصنف » ، وابن أبي الدنيا في « ذكر الموت » ، وعبد بن حميد ، وأبي يعلى ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه ، والبيهقي في « شعب الايمان » عن البراء بن عازب رضي الله عنه .

(٣) قال ابن كثير : وقوله تعالى (تحيتهم يوم يلقونه سلام) الظاهر أن المراد ـ والله أعلم ـ تحيتهم ، أي من الله تعالى يوم يلقونه : سلام ، أي : يسلم عليهم ، كما قال عز وجل : (سلام قولاً من ربٍّ رحيم) ، قال : وقوله تعالى : (وأعد لهم أجراً كريماً) يعني الجنة وما فيها من المآكل والمشارب والملابس والمساكن والمناكح والملاذ والمناظر مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر . اهـ .

قوله تعالى : (يا أيُّها النبيُّ إنَّا أرسلناكَ شاهداً) أي : على أُمَّتك بالبلاغ (ومبشِّراً) بالجنة لمن صدَّقك (ونذيراً) أي : منذِراً بالنار لمن كذَّبك [١] ، (وداعياً إلى الله) أي : إلى توحيده وطاعته (بِإذنه) أي : بأمره ، لا أنك فعلتَه من تلقاء نفسك (وسراجاً منيراً) أي : أنت لِمَن اتَّبعك « سراجاً » ، أي : كالسِّراج المضيء في الظلمة يُهتدى به .

قوله تعالى : (وبَشِّرِ المؤمنين بأنَّ لهم من الله فضلاً كبيراً) وهو الجنة . قال جابر بن عبد الله : لمَّا أُنزل قوله : (إنَّا فتحنا لك فتحاً مبيناً . . .) الآيات [الفتح] قال الصحابة : هنيئاً لك يا رسول الله ، فمالَنا ؟ فنزلت هذه الآية [٢] .

قوله تعالى : (ولا تُطِعِ الكافرين) قد سبق في أول السورة .

قوله تعالى : (ودَعْ أذاهم) قال العلماء : معناه : لا تجازهم عليه (وتوكَّلْ على الله) في كفاية أمرهم [٣] ؛ وهذا منسوخ بآية السيف .

---

(١) روى أحمد في « المسند » والبخاري في « صحيحه » عن عطاء بن يسار رضي الله عنه ، قال : لقيت عبد الله بن عمرو بن العاص ، قلت : أخبرني عن صفة رسول الله ﷺ في التوراة ، قال : أجل ، والله إنه لموصوف ببعض صفته في القرآن : (يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً) وحِرزاً للأمّيين ، أنت عبدي ورسولي ، سميتك المتوكل ، ليس بفظ ، ولا غليظ ، ولا سخَّاب في الأسواق ولا يدفع بالسيئة السيئة ، ولكن يعفو ويغفر ، ولن يقبضه الله حتى يقيم به الملة العوجاء ، بأن يقولوا : لا إله إلا الله ، ويفتح بها أعيناً عمياً ، وآذاناً صماً ، وقلوباً غلفاً » .

(٢) أخرجه ابن جرير الطبري عن عكرمة والحسن البصري قالا : لما نزلت (ليغفر لك الله ماتقدم من ذنبك وما تأخر) قال رجال من المؤمنين : هنيئاً لك يارسول الله قد علمنا مايفعل بك ، فماذا يُفعل بنا ؟ فأنزل : (ليدخل المؤمنين والمؤمنات جنات . . .) الآية ، وأنزل في سورة (الأحزاب) : (وبشر المؤمنين بأن لهم من الله فضلاً كبيراً) .

(٣) قال ابن جرير الطبري : وقوله : (وتوكل على الله) يقول : وفوّض إلى الله أمورك ، وثق به ، فانه كافيك جميع مَن دونه حتى يأتيك أمره وقضاؤه ، (وكفى بالله وكيلاً) يقول : وحسبك بالله قيِّماً بأمورك ، وحافظاً لك وكالئاً . اهـ .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحاً جَمِيلاً ﴾

قوله تعالى : (إِذا نَكَحْتُم المُؤْمِنات) [1] قال الزجاج : معنى « نَكَحْتُم »

---

(١) قال ابن كثير : هذه الآية الكريمة فيها أحكام كثيرة ، منها إطلاق النكاح على العقد وحده ، وليس في القرآن آية أصرح في ذلك منها ، وقد اختلفوا في النكاح ، هل هو حقيقة في العقد وحده ، أو في الوطء ، أو فيهما ؟ على ثلاثة أقوال ، واستعمال القرآن إنما هو في العقد والوطء بعده ، إلا في هذه الآية ، فانه استعمل في العقد وحده ، لقوله تبارك وتعالى : (إذا نكحتم المؤمنات ثم طلقتموهن من قبل أن تمسوهن) وفيها دلالة لاباحة طلاق المرأة قبل الدخول بها ، وقوله تعالى : (المؤمنات) خرج مخرج الغالب ، إذ لافرق في الحكم بين المؤمنة والكتابية في ذلك بالاتفاق . وقد استدل ابن عباس رضي الله عنهما ، وسعيد بن المسيب ، والحسن البصري ، وعلي بن الحسين زين العابدين ، وجماعة من السلف بهذه الآية على أن الطلاق لايقع إلا إذا تقدمه نكاح ، لأن الله تعالى قال : (إذا نكحتم المؤمنات ثم طلقتموهن) فعقب النكاح بالطلاق ، فدل على أنه لايصح ولا يقع قبله ، وهذا مذهب الشافعي وأحمد بن حنبل وطائفة كثيرة من السلف والخلف رحمهم الله تعالى ، قال : وذهب مالك وأبو حنيفة رحمهما الله تعالى إلى صحة الطلاق قبل النكاح فيما إذا قال : إن تزوجت فلانة فهي طالق ، فعندهما متى تزوجها طلقت منه ، واختلفا فيما إذا قال : كل امرأة أتزوجها فهي طالق ، فقال مالك : لاتطلق حتى يبيّن المرأة ، وقال أبو حنيفة رحمه الله : كل امرأة يتزوجها بعد هذا الكلام تطلق منه . قال : فأما الجمهور ، فاحتجوا على عدم وقوع الطلاق بهذه الآية ، قال : وقد ورد الحديث بذلك عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال : قال رسول الله ﷺ : « لاطلاق لابن آدم فيما لايملك » ، رواه أحمد وأبو داود ، والترمذي ، وابن ماجه ، وقال الترمذي : هذا حديث حسن ، وهو أحسن شيء روي في هذا الباب ، قال : وهكذا روى ابن ماجه عن علي والمسور بن مخرمة رضي الله عنهما عن رسول الله ﷺ أنه قال : « لاطلاق قبل النكاح » . اه .

تزوّجتم . ومعنى « تَمَسّوهُنَّ » تقربوهن . وقرأ حمزة ، والكسائي : « تُمَاسّوهُنَّ » بألف .

قوله تعالى : (فما لكم عليهنَّ مِنْ عِدَّةٍ تعتدُّونها) أجمع العلماء أنه إذا كان الطلاق قبل المسيس والخلوة فلا عِدَّة [1] ؛ وعندنا [2] أن الخلوة توجب العِدَّة وتقرِّر الصَّداق ، خلافاً للشافعي .

قوله تعالى : (فمتّعوهُنَّ) المراد به من لم يُسمِّ لها مهراً ، لقوله في (البقرة : ٢٣٦) : (أو تَفرِضوا لهُنَّ فريضةً) وقد بيّنّا المتعة هنالك وكان سعيد بن المسيّب وقتادة يقولان : هذه الآية منسوخة بقوله : (فنِصْفُ ما فرَضْتم) [البقرة : ٢٣٧] .

قوله تعالى : (وسَرِّحوهُنَّ سَرَاحاً جميلاً) أي : من غير إضرار . وقال قتادة : هو طلاقها طاهراً من غير جماع . وقال القاضي أبو يعلى : الأظهر أن هذا التسريح ليس بطلاق ، لأنه قد ذكر الطلاق ، وإنما هو بيان أنه لا سبيل له عليها ، وأن عليه تخليتها من يده وحِباله .

فصل

واختلف العلماء فيمن قال : إن تزوجتُ فلانة فهي طالق ، ثم تزوجها ؛ فعندنا أنها لا تطلق ، وهو قول ابن عباس ، وعائشة ، والشافعي ، واستدل أصحابنا

---

(١) قال ابن كثير : هذا أمر مجمع عليه بين العلماء أن المرأة إذا طلقت قبل الدخول بها ، لا عدة عليها ، فتذهب فتتزوج في فورها من شاءت ، ولا يستثنى من هذا إلا المتوفى عنها زوجها ، فإنها تعتد منه أربعة أشهر وعشراً وإن لم يكن دخل بها بالاجماع أيضاً . اه .

(٢) أي : معاشر الحنابلة .

بهذه الآية ، وأنه جعل الطلاق بعد النكاح . وقال سماك بن الفضل : النكاح عُقدة ، والطلاق يَحُلّها ، فكيف يحلّ عقدة لم تنعقد ؟! فجُعل بهذه الكلمة قاضياً على « صنعاء » . وقال أبو حنيفة : ينعقد الطلاق ، فاذا وُجد النكاح وقع . وقال مالك : ينعقد ذلك في خصوص النساء ، وهو إذا كان في امرأة بعينها ، ولا ينعقد في عمومهن . فأما إذا قال : إن ملكتُ فلاناً فهو حُرّ ، ففيه عن أحمد روايتان .

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ اللاَّتِي آتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفَاءَ اللهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّاتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَالاَتِكَ اللاَّتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ وَامْرَأَةً مُؤْمِنَةً إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَهَا خَالِصَةً لَكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ قَدْ عَلِمْنَا مَافَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِي أَزْوَاجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ لِكَيْلاَ يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ وَكَانَ اللهُ غَفُوراً رَحِيماً . تُرْجِي مَنْ تَشَاءُ مِنْهُنَّ وَتُؤْوِي إِلَيْكَ مَنْ تَشَاءُ وَمَنِ ابْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْكَ ذٰلِكَ أَدْنَىٰ أَنْ تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلاَ يَحْزَنَّ وَيَرْضَيْنَ بِمَا آتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ وَاللهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَكَانَ اللهُ عَلِيماً حَلِيماً . لاَيَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ وَلاَ أَنْ تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلاَّ مَامَلَكَتْ يَمِينُكَ وَكَانَ اللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ رَقِيباً ﴾

قوله تعالى : (إنّا أحللنا لكَ أزواجكَ) ذكر الله تعالى أنواع الأنكحة التي أحلّها له ، فقال : (أزواجكَ اللاّتي آتيتَ أُجورهُنّ) أي : مهورهُنّ ، وهُنّ اللّواتي تزوّجتهُنّ بصداق (وما ملكتْ يمينُك) يعني الجواري

(مِمَّا أفاء اللهُ عليك) أي : ردَّ عليك من الكفار ، كصفيَّة وجُوَيرية ، فانه أعتقها وتزوجها (وبنـاتِ عمّك وبناتِ عمّـاتك) يعني نساء قريش (وبنـاتِ خالك وبناتِ خالاتك) يعني نساء بني زُهْرة [1] (اللاَّتي هاجرن معك) إلى المدينة . قال القاضي أبو يعلى : و [ظاهر] هذا يدلُّ على أن من لم تهاجر معه من النساء لم يَحِلَّ له نكاحها . وقالت أمُّ هانىء : خطبني رسول الله ﷺ فاعتذرتُ إليه بعذر ، ثم أنزل اللهُ تعالى : « إنّا أحللنا لك أزواجك » إلى قوله : « اللاَّتي هاجَرْنَ معك » ، قالت : فلم أكن لأَحِلَّ له ، لأنّي لم أُهاجِر معه ، كنتُ من الطُّلَقاء [2] ؛ وهذا يدلُّ مِنْ مذهبها أنَّ تخصيصه بالمهاجرات قد أوجب حظر مَنْ لم تُهاجِر .

وذكر بعض المفسرين : أن شرط الهجرة في التحليل منسوخ ، ولم يذكر ناسخه . وحكى الماوردي في ذلك قولين . أحدهما : أن الهجرة شرط في إحلال النساء له على الإطلاق . والثاني : أنه شرط في إحلال قراباته المذكورات في الآية دون الأجنبيات .

(١) قال ابن كثير في قوله تعالى: (وبنات عمك وبنات عماتك وبنات خالك وبنات خالاتك ...) الآية : هذا عدل وسط بين الافراط والتفريط ، فان النصارى لايتزوجون المرأة إلا إذا كان الرجل بينه وبينها سبعة أجداد فصاعداً ، واليهود يتزوج أحدهم بنت أخيه وبنت أخته ، فجاءت هذه الشريعة الكاملة الطاهرة بهدم إفراط النصارى ـ فأباح بنت العم والعمة ، وبنت الخال والخالة ـ وتحريم مافرطت فيه اليهود من إباحة بنت الأخ والأخت ، وهذا شنيع فظيع . اهـ .

(٢) رواه ابن جرير الطبري : ٢٠/٢٢ من طريق السدي عن أبي صالـــح عن أم هانىء رضي الله عنها ، والسدي وأبو صالح ضعيفان . ورواه الترمذي في « جامعه » : ١٥٣/٢ به وقال : هذا حديث حسن لانعرفه إلا من هذا الوجه من حديث السدي ، ورواه الحاكم في « المستدرك » : ٤٢٠/٢ به ، وصححه ، ووافقه الذهبي ، والحديث أخرجه الحافظ ابن حجر في « تخريج الكشاف » : ١٣٥ وقال : رواه الترمذي ، والحاكم ، وابن أبي شيبة ، وإسحاق ، والطبري ، والطبراني ، وابن أبي حاتم ، كلهم من رواية السدي عن أبي صالـــح عن أم هانىء ، وأورده السيوطي في « الدر » : ٢٠٨/٥ ، وزاد نسبته لابن سعد ، وعبد بن حميد ، وابن مردويه ، والبيهقي . قال ابن كثير : وقد رواه ابن أبي حاتم من حديث إسماعيل بن أبي خالد عن أبي صالح عن أم هانىء بنحوه .

قوله تعالى : (وامرأةً مؤمنةً) أي : وأحلَلْنا لك امرأة مؤمنة (إن وهبتْ نفْسَها) لك ، (إن أراد النبيُّ أن يَستنكحها) أي : إن آثر نكاحها (خالصةً لكَ) أي : خاصة . قال الزجّاج : وإنما قال : « إن وهبتْ نفْسَها للنبيِّ » ، ولم يقل : « لك » ، لأنه لو قال : « لك » ، جاز أن يُتوهَّم أن ذلك يجوز لغير رسول الله ﷺ كما جاز في بنات العمِّ وبنات العمّات . و « خالصةً » منصوب على الحال .

وللمفسرين في معنى « خالصةً » ثلاثة أقوال .

أحدها : أن المرأة إذا وهبت له نفسها ، لم يلزمه صَداقُها دون غيره من المؤمنين ، قاله أنس بن مالك ، وسعيد بن المسيّب .

والثاني : أنَّ له أن يَنْكِحها بِلاَ وليّ ولا مَهْر دون غيره ، قاله قتادة .

والثالث : خالصةً لك أن تَملك عقد نكاحها بلفظ الهبة دون المؤمنين ، وهذا قول الشافعي ، وأحمد [(١)] .

وفي المرأة التي وهبتْ له نَفْسها أقوال . أحدها : أُمّ شَريك . والثاني : خولة بنت حكيم . ولم يدخل بواحدة منها . وذكروا أن ليلى بنت الخطيم وهبت

(١) قال ابن كثير : وقوله تعالى : (خالصة لك من دون المؤمنين) قال عكرمة : أي : لاتحل الموهوبة لغيرك ، ولو أن امرأة وهبت نفسها لرجل ، لم تحل له حتى يعطيَها شيئاً ، وكذا قال مجاهد والشعبي وغيرهما ، أي أنها إذا فوضت المرأة نفسها إلى رجل ، فانه متى دخل بها وجب عليه لها مهر مثلها ، كما حكم به رسول الله ﷺ في تزويج بنت واشق لما فوضت ، فحكم لها رسول الله ﷺ بصداق مثلها لما توفي عنها زوجها ، قال : والموت والدخول سواء في تقرير المهر ، وثبوت مهر المثل في المفوضة لغير النبي ﷺ ، فأما هو عليه الصلاة والسلام ، فانه لايجب عليه للمفوضة شيء ولو دخل بها ، لأن له أن يتزوج بغير صداق ولا ولي ولا شهود ، كما في قصة زينب بنت جحش رضي الله عنها ، ولهذا قال قتادة في قوله : (خالصة لك من دون المؤمنين) يقول : ليس لامرأة تهب نفسها لرجل بغير ولي ولا مهر ، إلا للنبي ﷺ . أهـ .

نفسها له فلم يقبلها . قال ابن عباس : لم يكن عند رسول الله ﷺ امرأة وهبت نفسها له [١] . وقد حكي عن ابن عباس أن التي وهبت نفسها له ميمونة بنت الحارث ؛ وعن الشعبي : أنها زينب بنت خزيمة . والأول : أصح [٢] .

قوله تعالى : (قد عَلِمْنَا مافَرَضْنَا عليهم) أي : على المؤمنين غيرك (في أزواجهم) وفيه قولان .

أحدها : أن لايجاوز الرجل أربع نسوة ، قاله مجاهد .

والثاني : أن لايتزوج الرجل المرأة إلّا بوليّ وشاهدَين وصَداق ، قاله قتادة .

قوله تعالى : (وما مَلَكَتْ أيمانُهم) أي : وما أبحنا لهم من ملك اليمين مع الأربع الحرائر من غير عدد محصور [٣] .

قوله تعالى : (لِكَيْلا يكونَ عليكَ حَرَجٌ) هذا فيه تقديم ؛ المعنى :

---

(١) أخرجه الطبري : ٢٣/٢٢ من طريق سماك عن عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما ، قال الحافظ ابن حجر في « الفتح » ٤٠٤/٨ : وإسناده حسن ، والمراد : أنه لم يدخل بواحدة ممن وهبت نفسها له ، وإن كان مباحاً له ، لأنه راجع إلى إرادته ، لقوله تعالى : (إن أراد النبي أن يستنكحها) .

(٢) قال الحافظ ابن حجر في « الفتح » ٤٠٤/٨ : ومنهن (يعني الموهوبات) زينب بنت خزيمة ، جاء عن الشعبي ، وليس بثابت ، وقال : وعند ابن أبي حاتم من طريق قتادة عن ابن عباس قال : التي وهبت نفسها للنبي ﷺ ، هي ميمونة بنت الحارث ، قال : وهذا منقطع ، وقال : وأورده من وجه آخر مرسل ، وإسناده ضعيف ، اه وقد ثبت أن بعض النساء وهبن أنفسهن لرسول الله ﷺ . وقد قال ابن كثير : اللاتي وهبن أنفسهن للنبي ﷺ كثير ، كما قال البخاري عن عائشة رضي الله عنها قالت : كنت أغار من اللاتي وهبن أنفسهن للنبي ﷺ وأقول : أتهب المرأة نفسها ؟ ! فلما أنزل الله تعالى : (ترجي من تشاء منهن وتؤوي إليك من تشاء ومن ابتغيت ممن عزلت فلا جناح عليك) قلت : ماأرى ربَّك إلا يسارع في هواك .

(٣) قال ابن كثير : وقوله : (قد علمنا مافرضنا عليهم في أزواجهم وما ملكت أيمانهم) قال أبي بن كعب ، ومجاهد ، والحسن ، وقتادة ، وابن جرير في قوله : (قد علمنا مافرضنا عليهم في أزواجهم) أي : من حصرهم في أربع نسوة حرائر وما شاؤوا من الاماء ، واشتراط الولي والمهر والشهود عليهم ، وهم الأمة ، وقد رخصنا لك في ذلك فلم نوجب عليك شيئاً منه (لكيلا يكون عليك حرج وكان الله غفوراً رحيماً) . اه .

أحللنـا لك أزواجك ، إلى قوله : « خالصةً لك من دون المؤمنين » « لكيلا يكون عليك حرج » .

قوله تعالى : (تُرْجِي من تشاء مِنْهُنّ) قرأ ابن كثير ، وأبو عمرو ، وابن عامر ، وأبو بكر عن عاصم : « تُرْجِىء » مهموزاً ؛ وقرأ نافع ، وحمزة ، والكسائي ، وحفص عن عـاصم : بغير همز . وسبب نزولهـا أنه لمَّا نزلت آية التخيير المتقدِّمة ، أشفقْنَ أن يُطلّقْنَ ، فقُلْنَ : يانبيَّ الله ، اجعل لنا من مالك ونفسك ماشئت ، ودَعْنَا على حالنا ، فنزلت هذه الآية ، قاله أبو رزين [١] .

وفي معنى الآية أربعة أقوال .

أحدها : تطلّق من تشاء من نسائك ، وتُمْسِك من تشاء من نسائك ، قاله ابن عباس .

والثاني : تترُك نكاح من تشاء ، وتَنْكِح من نساء أُمّتك من تشاء ، قاله الحسن .

والثالث : تَعْزِل من شئتَ من أزواجك فلا تأتيها بغير طلاق ، وتأتي من تشاء فلا تَعْزِلها . قاله مجاهد .

والرابع : تَقْبَل من تشاء من المؤمنات اللواتي يَهَبْنَ أنفُسَهُنّ ، وتترُك من تشاء ، قاله الشعبي ، وعكرمة .

وأكثر العلماء على أن هذه الآية نزلت مبيحة لرسول الله ﷺ مصاحَبة نسائه كيف شاء من غير إيجاب القِسْمة عليه والتسوية بينهنّ ، غير أنه كان يسوّي

(١) قال الحافظ ابن حجر في « تخريج الكشاف » ١٣٥ : أخرجه ابن أبي شيبة من رواية رزين ، قال : وهذا مرسل . اهـ . وذكره الواحدي في « أسباب النزول » ٢٠٥ بدون سند وقال : وقال قوم ... الخ .

بينهن[١]. وقال الزُّهري : ماعَلِمْنا رسولَ الله ﷺ أرجأ منهنّ أحداً ، ولقد آواهنّ كلَّهنّ حتى مات . وقال أبو رزين : آوى عائشة ، وأُم سلمة ، وحفصة ، وزينب ، وكان قَسْمُه من نَفْسه وماله فيهنّ سواءً . وأرجأ سَوْدة ، وجُوَيرية ، وصفيَّة ، وأُمّ حبيبة ، وميمونة ، وكان يَقْسِم لهنّ ما شاء . وكان أراد فراقهنّ فقُلن : اقسم لنا ما شئتَ ، ودَعْنا على حالنا . وقال قوم : إنَّما أرجأ سَودة وحدها لأنها وهبت يومها لعائشة ، فتوفي وهو يَقْسِم لثمان .

قوله تعالى : (وتُؤْوي) أي : تضم ، (ومن ابتغيتَ ممَّن عزَلْتَ) أي : إذا أردتَ أن تُؤْوي إليكَ امرأةً ممَّن عزلتَ من القسمة (فلا جُناحَ عليكَ) أي : لا مَيْلَ عليك بلَوْم ولا عتْب (ذلكَ أدنى أن تَقَرّ أعيُنُهُنّ) أي : ذلك التخيير الذي خيَّرناك في صُحبتهنّ أقرب إلى رضاهنّ . والمعنى : إنهنّ إذا عَلِمن أنّ هذا أمر من الله ، كان أطيبَ لأنفُسهنّ . وقرأ ابن محيصن ، وأبو عمران الجوني : « أن تُقِرّ » بضم التاء وكسر القاف « أعيُنَهُنّ » بنصب النون .

---

(١) قال ابن كثير : ولهذا ذهب طائفة من العلماء من الشافعية وغيرهم إلى أنه لم يكن القسم واجباً عليه ﷺ ، واحتجوا بهذه الآية الكريمة ، قال : وقال البخاري عن معاذ عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ كان يستأذن في اليوم المرأة منا بعد أن نزلت هذه الآية : (ترجي من تشاء منهن وتؤوي إليك من تشاء ومن ابتغيت ممن عزلت فلا جُناح عليك) فقلت لها : ماكنت تقولين ؟ فقالت : كنت أقول : إن كان ذلك إليَّ فاني لاأريد يارسول الله أن أوثر عليك أحداً . قال ابن كثير : فهذا الحديث عنها يدل على أن المراد من ذلك عدم وجوب القسم ، وحديثها الأول ـ يعني : « أرى ربَّك يسارع في هواك » ـ يقتضي أن الآية نزلت في الواهبات ، قال : ومن هاهنا اختار ابن جرير أن الآية عامة في الواهبات وفي النساء اللاتي عنده أنه مخير فيهن ، إن شاء قسم ، وإن شاء لم يقسم ، قال : وهذا الذي اختاره حسن جيد قوي ، وفيه جمع بين الأحاديث . اهـ .

(ويَرْضَيْنَ بِمَا آتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ) أي : بما أعطيتَهُنَّ من تقريب وتأخير [١] (واللهُ يعلم ما في قلوبكم) من المَيْل إلى بعضهنّ [٢] . والمعنى : إنما خيَّرناك تسهيلاً عليك.

قوله تعالى : (لا يَحِلُّ لكَ النِساءُ) كلّهم قرأ : « لا يَحِلُّ » بالياء ، غير أبي عمرو ، فانه قرأ بالتاء ؛ والتأنيث ليس بحقيقي ، إنما هو تأنيث الجمع ، فالقراءتان حسنتان .

وفي قوله : (مِنْ بَعْدُ) ثلاثة أقوال .

أحدها : من بعد نسائك اللواتي خيرتَهُنَّ فاخترنَ اللهَ ورسولَه ، قاله ابن عباس ، والحسن ، وقتادة في آخرين ، وهُنَّ التِسع ، فصار [مقصوراً] عليهنّ ممنوعاً من غيرهن وذكر أهل العِلْم أن طلاقه لحفصة وعَزْمه على طلاق سَوْدة كان قبل التخيير [٣] .

(١) قال ابن كثير : أي : إذا علمن أن الله قد وضع عنك الحرج في القسم ، فان شئت قسمت ، وإن شئت لم تقسم ، لاجناح عليك في أي ذلك فعلت ، ثم مع هذا إن تقسم لهن اختياراً منك ، لاأنه على سبيل الوجوب ، فرحن بذلك واستبشرن به وحملن جميلك في ذلك ، واعترفن بمنّتك عليهن في قسمك لهن وتسويتك بينهن ، وإنصافك لهن ، وعدلك فيهن . اه .

(٢) قال ابن كثير : أي : من الميل إلى بعضهن دون بعض مما لايمكن دفعه . اه . وروى الامام أحمد ، وأبو داود ، والترمذي ، وابن ماجه ، والدارمي بسند جيد عن عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ كان يقسم بين نسائه فيعدل ويقول : « اللهم هذا قسمي فيما أملك فلا تلمني فيما تملك ولا أملك » . هذا بالنسبه له ﷺ ، وقد قال رسول الله ﷺ بالنسبة لغيره فيما رواه أبو داود ، والترمذي ، والنسائي ، وابن ماجه ، والدارمي بسند صحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : « إذا كانت عند الرجل امرأتان فلم يعدل بينهما ، جاء يوم القيامة وشقّه ساقط » .

(٣) قال ابن كثير : فأما قضية سودة ، ففي «الصحيح» عن عائشة رضي الله تبارك وتعالى عنها : ـــ

والثاني : من بعد الذي أحلَلْنا لك ، فكانت الإباحة بعد نسائه مقصورة على المذكور في قوله : « إنَّا أحلَلْنا لكَ أزواجَكَ » إلى قوله : « خالصةً لكَ » ؛ قاله أُبيّ بن كعب ، والضحاك .

والثالث : لا تَحِلُّ لك النساء غير المُسْلِمات كاليهوديّات والنصرانيّات والمشركات ، وتَحِلُّ لك المسلمات ، قاله مجاهد .

قوله تعالى : (ولا أن تَبَدَّلَ بِهِنَّ) فيه ثلاثة أقوال .

أحدها : أن تطلّق زوجاتك وتستبدل بِهِنَّ سِواهن [1] ، قاله الضحاك .

والثاني : أن تبدِّل بالمسلمات المشركات ، قاله مجاهد في آخرين .

والثالث : أن تُعطيَ الرجل زوجتك وتأخذ زوجته ، وهذه كانت عادة للجاهلية ، قاله أبو هريرة ، وابن زيد .

قوله تعالى : (إلاَّ ما مَلَكَتْ يمينُك) يعني الإماء .

وفي معنى الكلام ثلاثة أقوال .

أحدها : إلا أن تَملك بالسَّبي ، فيَحِلّ لك وطؤها وإن كانت من غير الصِّنف الذي أحلَلْتُه لك ؛ وإلى هذا أومأ أُبيّ بن كعب في آخرين .

والثاني : إلاّ أن تصيب يهودية أو نصرانية فتطأها بملك اليمين ، قاله ابن عباس ، ومجاهد .

ـــ وهي سبب نزول قوله تعالى : (وان امرأة خافت من بعلها نشوزاً أو إعراضاً فلا جناح عليهما أن يصلحا بينهما صلحاً . . .) الآية ، وأما قضية حفصة ، فروى أبو داود ، والنسائي ، وابن ماجه ، وابن حبان في « صحيحه » من طرق عن عمر أن رسول الله ﷺ طلق حفصة ثم راجعها ، قال : وهذا إسناد قوي . اهـ .

(١) قال ابن كثير : فنهاه عن الزيادة عليهن إن طلق واحدة منهن واستبدل غيرها بها إلا ماملكت يمينه . اهـ .

والثالث : إلاّ أن تبدِّل أمَتَك بأَمَة غيرك ، قاله ابن زيد .

قال أبو سليمان الدمشقي : وهذه الأقوال جائزة ، إلاّ أنّا لا نعلم أن رسول الله ﷺ نكح يهودية ولا نصرانية بتزويج ولا ملك يمين ، ولقد سبى ريحانة القرظية فلم يَدْنُ منها حتى أسلمت .

فصل

واختلف علماء الناسخ والمنسوخ في هذه الآية على قولين .

أحدهما : أنها منسوخة بقوله : « إنّا أحْلَلْنا لك أزواجك » ، وهذا مروي عن عليٍّ ، وابن عباس ، ، وعائشة ، وأم سلمة ، وعلي بن الحسين ، والضحاك . وقالت عائشة : ما مات رسول الله ﷺ حتى أُحِلّ له النساء [1] ، قال أبو سليمان الدمشقي : يعني نساء جميع القبائل من المهاجرات وغير المهاجرات .

والقول الثاني : أنها محكمة ؛ ثم فيها قولان .

أحدهما : أن الله تعالى أثاب نساءه حين اختَرنه بأن قَصَره عليهنّ ، فلم يُحِلّ له غيرهنّ ، ولم ينسخ هذا ، قاله الحسن ، وابن سيرين ، وأبو أُمامة بن سهل ، وأبو بكر بن عبد الرحمن بن الحارث [2] .

والثاني : أن المراد بالنساء هاهنا : الكافرات ، ولم يَجُز له أن يتزوّج كافرة ، قاله مجاهد ، وسعيد بن جبير ، وعكرمة ، وجابر بن زيد .

---

(١) رواه أحمد في « المسند » والترمذي في «جامعه» والنسائي في « سننه » عن عائشة رضي الله عنها .

(٢) قال ابن كثير : ذكر غير واحد من العلماء ، كابن عباس ، ومجاهد ، والضحاك ، وقتادة ، وابن زيد ، وابن جرير ، وغيرهم ، أن هذه الآية نزلت مجازاة لأزواج النبي ﷺ ، ورضىً عنهن على حسن صنيعهن في اختيارهنّ الله ورسوله والدار الآخرة لمّا خيَّرهن رسول الله —

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَاتَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ وَلَكِنْ اذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَاِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا وَلَا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ وَاللهُ لَايَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعاً فَسْئَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللهِ وَلَا أَنْ تَنْكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَداً إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ عِنْدَ اللهِ عَظِيماً ﴾

قوله تعالى : (يا أيُّها الذين آمنوا لاتدخلوا بيوت النبيِّ . . .) الآية [١] .

في سبب نزولها ستة أقوال .

— ﷺ كما تقدم في الآية ، فلما اخترن رسول الله ﷺ ، كان جزاؤهن أن الله تعالى قصره عليهن ، وحرَّم عليه أن يتزوج بغيرهن ، أو يستبدل بهن أزواجاً غيرهن ولو أعجبه حسنهن ، إلا الاماء والسراري ، فلا حرج عليه فيهن ، ثم إنه تعالى رفع عنه الحرج في ذلك ونسخ حكم هذه الآية ، وأباح له التزوج ، ولكن لم يقع منه بعد ذلك تزوج ، لتكون المنَّة لرسول الله ﷺ عليهن ، وذكر ابن كثير بعض الأدلة على ذلك ، ثم قال : وذلك قوله تعالى : (ترجي من تشاء منهن ...) الآية ، قال : فجعلت هذه ناسخة للتي بعدها في التلاوة ، كآيتي عدة الوفاة في (البقرة) الأولى ناسخة للتي بعدها ، والله أعلم . قال : وقال آخرون : بل معنى الآية : (لايحل النساء بعدُ) أي : من بعد ماذكرنا لك من صفة النساء اللاتي أحللنا لك من نسائك اللاتي آتيت أجورهن وما ملكت يمينك وبنات العم والعمات والخال والخالات ، والواهبة ، وما سوى ذلك من أصناف النساء ، فلا يحل لك ، وذكر بعض أقوال السلف في ذلك ، ثم قال : واختار ابن جرير رحمه الله أن الآية عامة فيمن ذكر من أصناف النساء ، وفي النساء اللواتي في عصمته وكن تسعاً ، قال : وهذا الذي قاله جيد ، ولعله مراد كثير ممن حكينا عنه من السلف ، فان كثيراً منهم روي عنه هذا وهذا ، ولا منافاة ، والله أعلم . اهـ .

(١) قال ابن كثير : هذه آية الحجاب ، وفيها أحكام وآداب شرعية ، وهي مما وافق —

القول الأول : أخرجاه في « الصحيحين » من حديث أنس بن مالك ، أنَّ رسول الله ﷺ لمَّا تزوَّج زينب بنت جحش دعا القوم ، فطَعِمُوا ثم جلسوا يتحدَّثون ، فأخذ كأنَّه يتهيَّأُ للقيام ، فلم يقوموا ، فلمَّا رأى ذلك قام وقام مِنَ القوم مَنْ قام ، وقعد ثلاثة ، فجاء رسول الله ﷺ فدخل فاذا القوم جلوس ، فرجع ، وإنَّهم قاموا فانطلقوا ، وجئتُ فأخبرت النبيَّ ﷺ أنَّهم قد انطلقوا ، فجاء حتى دخل ، وذهبتُ أدخلُ فألقى الحجاب بيني وبينه ، وأنزل الله تعالى هذه الآية [1] .

والثاني : أنَّ ناساً من المؤمنين كانوا يتحيَّنون طعام النبيِّ ﷺ فيدخُلون عليه قبل الطعام إلى أن يُدرِك [2] ، ثم يأكلون ولا يخرُجون ، فكان رسول الله ﷺ يتأذَّى بهم ، فنزلت هذه الآية ، قاله ابن عباس [3] .

والثالث : أن عمر بن الخطاب قال : قلت يارسول الله ! إن نساءك يدخل

= تنزيلها قول عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، كما ثبت ذلك في « الصحيحين » عنه أنه قال : وافقتُ ربي عز وجل في ثلاث ، قلت : يارسول الله لو اتخذت من مقام إبراهيم مصلى ، فأنزل الله تعالى : (واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى) وقلت : يارسول الله إن نساءك يدخل عليهن البَرُّ والفاجر ، فلو حجبتهن ، فأنزل الله آية الحجاب ، وقلت لأزواج النبي ﷺ لمّا تمالأن عليه في الغيرة : (عسى ربه إن طلقكن أن يبدله أزواجاً خيراً منكن) فنزلت كذلك . قال : وفي رواية لمسلم ذكر أسارى بدر ، وهي قضية رابعة . اهـ .

(١) البخاري : ٤٠٦/٨ ، ٤٠٧ ، ومسلم : ١٠٥٠/٢ ، ورواه ابن جرير الطبري بنحوه : ٣٧/٢٢ ، وأورده السيوطي في « الدر » : ٢١٣/٥ ، وزاد نسبته لأحمد ، وعبد بن حميد ، والنسائي ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وابن مردويه ، والبيهقي في « سننه » من طرق عن أنس رضي الله عنه .

(٢) أي : إلى أن ينضج الطعام .

(٣) ذكره البغوي في « تفسيره » عن ابن عباس بدون سند .

عليهن البَرُّ والفاجر ، فلو أمرتَهُنَّ أن يَحتَجِبْنَ ، فنزلت آية الحجاب ، أخرجه البخاري من حديث أنس ، وأخرجه مسلم من حديث ابن عمر ، كلاهما عن عمر [١] .

والرابع : أنَّ عُمر أمر نساء رسول الله ﷺ بالحجاب ، فقالت زينب : يا ابن الخطاب ، إنك لتغار علينا والوحي ينزل في بيوتنا ؟ ! فنزلت الآية ، قاله ابن مسعود [٢] .

والخامس : أن عمر كان يقول لرسول الله ﷺ : احجب نساءك ، فلا يفعل ، فخرجت سَوْدَةُ ليلة ، فقال عمر : قد عرفناكِ ياسَوْدَة ـ حرصاً على أن ينزل الحجاب ـ فنزل الحجاب ، رواه عكرمة عن عائشة [٣] .

---

(١) البخاري : ٨/٤٠٦ ، ومسلم : ٤/١٨٦٥ وهو طرف من حديث أوله : « وافقت ربي في ثلاث . . . » وقد تقدم في الصفحة التي قبل هذه .

(٢) « الطبري » : ٢٢/٤٠ من طريق عطاء بن السائب ، عن أبي وائل عن ابن مسعود ، وذكره السيوطي في « الدر » : ٥/٢١٤ من رواية ابن مردويه عن ابن مسعود رضي الله عنه ، قال الحافظ ابن حجر في « تخريج الكشاف » ١٣٧ : رواه الثعلبي من رواية مجاهد عن الشعبي .

(٣) رواه الطبري : ٢٢/٤٠ من طريق عروة عن عائشة ، قال ابن كثير : هكذا وقع في هذه الرواية ، والمشهور أن هذا كان بعد نزول الحجاب ، كما رواه الامام أحمد والبخاري ومسلم من حديث هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة رضي الله عنها قالت : خرجت سودة بعدما ضرب الحجاب لحاجتها ، وكانت امرأة جسيمة لاتخفى على من يعرفها ، فرآها عمر بن الخطاب فقال : ياسودة أما والله ماتخفين علينا ، فانظري كيف تخرجين ، قالت : فانكفأت راجعة ورسول الله ﷺ في بيتي وإنه ليتعشى وفي يده عِرْق ، فدخلت فقالت : يارسول الله إني خرجت لبعض حاجتي فقال لي عمر كذا وكذا ، قالت : فأوحى الله إليه ، ثم رفع عنه وإن العِرْق في يده ماوضعه ، فقال : « إنه قد أذن لكنّ أن تخرجن لحاجتكن » وقال ابن كثير : هذا لفظ البخاري . اهـ . وقال ابن كثير أيضاً : فقوله تعالى : (لاتدخلوا بيوت النبي) حظر على المؤمنين أن يدخلوا منازل رسول الله ﷺ بغير إذن كما كانوا قبل ذلك يصنعون في بيوتهم ـــ

والسادس : أنَّ رسول الله ﷺ كان يطعم معه بعض أصحابه ، فأصابت يدُ رجل منهم يدَ عائشة ، وكانت معهم ، فكره النبيُّ ﷺ ذلك ، فنزلت آية الحجاب ، قاله مجاهد [١] .

قوله تعالى : (إلا أنْ يُؤْذَنَ لكم إلى طعام) أي : أن تُدعَوا إليه (غيرَ ناظرِين) أي : منتظرين (إنَاهُ) . قال الزجاج : موضع « أنْ » نصب ؛ والمعنى : إلا بأن يؤذَنَ لكم ، أو لِأَنْ يؤذَنَ ، و « غيرَ » منصوبة على الحال ؛ والمعنى : إلا أن يؤذَن لكم غيرَ منتظِرين . و « إنَاهُ » : نُضجه وبلوغه .

قوله تعالى : (فانتشِروا) أي : فاخرُجوا .

قوله تعالى : (ولا مُستأنِسِين لحديث) المعنى : ولا تدخُلوا مستأنِسِين ، أي : طالبي الأُنس لحديث ، وذلك أنهم كانوا يجلسون بعد الأكل فيتحدَّثون طويلاً ، وكان ذلك يؤذيه ، ويستحيي أن يقول لهم : قوموا ، فعلَّمهم الله الأدب ، فذلك قوله : (والله لا يستحيي من الحقِّ) أي : لا يترُك أن يُبيِّن لكم ما هو الحقّ (وإذا سألتُموهُنَّ متاعاً) أي : شيئاً يُستمتَع به ويُنتفَع به من آلة المنزل (فاسألوهُنَّ مِنْ وراءِ حجاب ذلكُم أطهر) أي : سؤالكم إيَّاهُنَّ المتاعَ من وراء حجاب أطهرُ (لِقُلوبكم وقُلوبِهِنَّ) من الرِّيبة .

في الجاهلية وابتداء الاسلام ، حتى غار الله لهذه الأمة ، فأمرهم بذلك ، وذلك من إكرامه تعالى هذه الأمة ، قال : ولهذا قال رسول الله ﷺ : « إياكم والدخول على النساء . . . » الحديث ، قال : ثم استثنى من ذلك فقال تعالى : (إلا أن يؤذَن لكم إلى طعام غير ناظرين إناه) قال : قال مجاهد وقتادة وغيرهما ، أي : غير متحينين نضجه واستواءه ، أي : لاترقبوا الطعام إذا طبخ حتى إذا قارب الاستواء تعرضتم للدخول ، فان هذا مما يكرهه الله ويذمه ، قال : وهذا دليل على تحريم التطفيل ، وهو الذي تسميه العرب : « الضيفن » . اهـ .

(١) رواه الطبري : ٢٢/٣٩ عن مجاهد مرسلاً ، قال الحافظ ابن حجر في « تخريج الكشاف » ١٣٦ : رواه ابن أبي شيبة والطبري من طريق مجاهد مرسلاً .

قوله تعالى : (وما كان لكم أن تُؤْذُوا رسولَ الله) أي : ما كان لكم أذاه في شيء من الأشياء . قال أبو عبيدة : و « كان » من حروف الزوائد . والمعنى : ما لكم أن تُؤذوا رسول الله (ولا أن تَنْكِحُوا أزواجَه مِنْ بَعده أبداً) . روى عطاء عن ابن عباس ، قال : كان رجل من أصحاب رسول الله ﷺ قال : لو توفِّي رسولُ الله ﷺ تزوَّجتُ عائشة ، فأنزل الله ما أنزل [١] . وزعم مقاتل أن ذلك الرجل طلحة بن عبيد الله [٢] .

قوله تعالى : (إنَّ ذلكم) يعني نكاح أزواج رسول الله ﷺ (كان عند الله عظيماً) أي : ذنباً عظيم العقوبة [٣] .

---

(١) ذكره السيوطي في « الدر » : ٥/٢١٤ من طريق ابن مردويه عن ابن عباس . قال الحافظ ابن حجر في « تخريج الكشاف » ١٣٧ : وروى ابن أبي حاتم ، وابن مردويه من طريق داود عن عكرمة عن ابن عباس في هذه الآية قال : نزلت في رجل همَّ أن يتزوج بعض نساء النبي ﷺ . . . الحديث ، قال السيوطي في « الدر » : ٥/٢١٤ قال سفيان : ذكروا أنها عائشة رضي الله عنها . اهـ .

(٢) أخرج ابن سعد عن الواقدي عن عبد الله بن جعفر عن ابن أبي عون ، عن أبي بكر ابن حزم في هذه الآية قال : نزلت في طلحة قال : إذا توفي رسول الله ﷺ تزوجت عائشة . والواقدي متروك مع سعة علمه كما قال الحافظ ابن حجر في « التقريب » .

(٣) قال ابن كثير : ولهذا أجمع العلماء قاطبة على أن من توفي عنها رسول الله ﷺ من أزواجه أنه يحرم على غيره تزوجها من بعده ، لأنهن أزواجه في الدنيا والآخرة وأمهات المؤمنين كما تقدم ، قال : واختلفوا فيمن دخل بها ثم طلقها في حياته ، هل يحل لغيره أن يتزوجها ؟ على قولين ، مأخذهما هل دخلت هذه في عموم قوله : (من بعده) أم لا ؟ قال : فأما من تزوجها ثم طلقها قبل أن يدخل بها ، فما نعلم في حليّتها لغيره والحالة هذه نزاعاً ، والله أعلم . اهـ . وروى ابن جرير في « التفسير » : ٢٢/٤١ عن عامر بن سعد بن أبي وقاص أن النبي ﷺ مات وقد ملك قَيْلة بنت الأشعث ، فتزوجها عكرمة بن أبي جهل بعد ذلك ، فشق على أبي بكر مشقة شديدة ، فقال له عمر : ياخليفة رسول الله ، إنها ليست من نسائه ، إنها لم يخيِّرها رسول الله ﷺ ، ولم يحجبها ، وقد برَّأها منه بالردة التي ارتدّت مع قومها ، فاطمأن أبو بكر وسكن . اهـ .

﴿ إنْ تُبْدُوا شَيْئاً أوْ تُخْفُوهُ فَإنَّ اللهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً . لاجُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِي آبَائِهِنَّ وَلا أبْنَائِهِنَّ وَلا إخْوَانِهِنَّ وَلا أبْنَاءِ إخْوَانِهِنَّ وَلا أبْنَاءِ أخَوَاتِهِنَّ وَلا نِسَائِهِنَّ وَلا مامَلَكَتْ أيْمَانُهُنَّ وَاتَّقِينَ اللهَ إنَّ اللهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيداً ﴾

قوله تعالى : (إن تُبْدُوا شيئاً أو تُخْفُوه) قيل : إنها نزلت فيما أبداه القائل : لئن مات رسول الله لأتزوجنّ عائشة .

قوله تعالى : (لا جُناح عليهنّ في آبائهنّ) [١] قال المفسرون : لمّا نزلت آية الحجاب ، قال الآباء والأبناء والأقارب لرسول الله ﷺ : ونحن أيضاً نُكَلِّمُهُنَّ من وراء حجاب ؟ فأنزل الله تعالى : « لا جُناح عليهن في آبائهنّ » أي : في أن يَرَوْهُنَّ ولا يحتجبْنَ عنهم ، إلى قوله : (ولا نسائهنّ) [٢] قال ابن عباس : يعني نساء المؤمنين ، لأن نساء اليهود والنصارى يَصِفْنَ لأزواجهن نساء رسول الله ﷺ إن رأينهنّ [٣] .

فان قيل : ما بال العمّ والخال لم يُذكَرا ؟ فعنه جوابان .

---

(١) قال ابن كثير : لما أمر الله تبارك وتعالى النساء بالحجاب من الأجانب ، بين أن هؤلاء الأقارب لايجب الاحتجاب منهم ، كما استثناهم في سورة (النور) عند قوله تعالى : (ولا يبدين زينتهن إلا لبعولتهن أو آبائهن أو آباء بعولتهن أو أبنائهن أو أبناء بعولتهن أو إخوانهن أو بني إخوانهن أو بني أخواتهن أو نسائهن أما ماملكت أيمانهن أو التابعين غير أولي الاربة من الرجال أو الطفل الذين لم يظهروا على عورات النساء) . اه .

(٢) ذكره من المفسرين الطبرسي من الاماميه الشيعة في « مجمع البيان » بقوله : لما نزلت آية الحجاب . . . الخ بدون سند ، وقال الآلوسي في « روح المعاني » : روي أنه لما نزلت آية الحجاب .. الخ ، هكذا بصيغة التمريض ، والله أعلم .

(٣) انظر التعليق الذي في الصفحة (٣٢) من هذا الجزء .

أحدهما : لأن المرأة تَحِلُّ لأبنائهما ، فكره أن تضع خمارها عند عمّها وخالها ، لأنهما ينعتانها لأبنائهما ، هذا قول الشعبي وعكرمة .

والثاني : لأنهما يجريان مجرى الوالدين فلم يُذْكَرا ، قاله الزجاج .

فأما قوله : (ولا ما ملكتْ أيمانُهنّ) ففيه قولان .

أحدهما : أنه أراد الإماء دون العبيد ، قاله سعيد بن المسيب .

والثاني : أنه عامّ في العبيد والإماء . قال ابن زيد : كُنّ أزواج رسول الله ﷺ لا يحتجِبْن من المماليك . وقد سبق بيان هذا في سورة (النور : ٣١) .

قوله تعالى : (واتَّقِينَ الله) أي : أن يراكنّ غير هؤلاء (إنّ الله كان على كل شيء شهيداً) أي : لم يَغِب عنه شيء .

﴿ إنَّ اللهَ وَمَلٰئِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيماً . إنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللهُ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَاباً مُهِيناً . وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَاناً وَإِثْماً مُبِيناً ﴾

قوله تعالى : (إنّ الله وملائكته يصلُّون على النبيّ) في صلاة الله وصلاة الملائكة أقوال قد تقدَّمت في هذه السورة [الاحزاب : ٤٣] .

قوله تعالى : (صلُّوا عليه) قال كَعْب بن عُجْرَة : قلنا : يارسول الله قد عرفنا التسليم عليك ، فكيف الصلاة عليك ؟ فقال : قولوا : « اللهم صلّ على محمد وعلى آل محمد ، كما صلَّيت على [آل] [١] إبراهيم ، إنَّك حميد مجيد ، وبارك [٢] على محمد وعلى آل محمد ، كما باركت على [آل] [١] إبراهيم ، إنك حميد مجيد » ،

---

(١) مابين المعقفين زيادة من البخاري ومسلم من حديث كعب بن عجرة .
(٢) في حديث كعب بن عجرة في البخاري ومسلم : « اللهم بارك » .

أخرجه البخاري ومسلم [1] . ومعنى قوله « قد علمنا التسليم عليك » : ما يقال في التشهد : « السلام عليك أيها النبيُّ ورحمة الله وبركاته » . وذهب ابن السائب إلى أن معنى التسليم : سلِّموا لِمَا يأمركم به .

قوله تعالى : (إنَّ الذين يؤذون الله ورسوله) اختلفوا فيمن نزلت على ثلاثة أقوال .

---

(١) البخاري : ٤١٠/٨ ومسلم : ٣٠٥/١ ، ولهذا الحديث صيغ أخرى بألفاظ مختلفة تراجع في محلها من كتب الحديث ، انظر « فتح الباري » : ١٢٨/١١ - ١٤٧ قال ابن كثير : والمقصود من هذه الآية - (إن الله وملائكته يصلون على النبي يأيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليماً) - أن الله سبحانه وتعالى أخبر عباده بمنزلة عبده ونبيه عنده في الملأ الأعلى بأنه يثني عليه عند الملائكة المقرَّبين ، وأن الملائكة تصلي عليه ، قال : ثم أمر تعالى أهل العالم السفلي بالصلاة والتسليم عليه ليجتمع الثناء عليه من أهل العالَمين العلوي والسفلي جميعاً . اهـ . وقال ابن كثير أيضاً : ذهب الشافعي رحمه الله إلى أنه يجب على المصلي أن يصليَ على رسول الله ﷺ في التشهد الأخير ، فان تركه لم تصح صلاته ، ثم قال : وقد روينا وجوب ذلك والأمر بالصلاة كما هو ظاهر الآية ومفسر بهذا الحديث عن جماعة من الصحابة ، منهم : ابن مسعود ، وأبو مسعود البدري ، وجابر بن عبد الله ، ومن التابعين : الشعبي ، وأبو جعفر الباقر ، ومقاتل بن حيان ، قال : وإليه ذهب الشافعي ، لاخلاف عنه في ذلك ولا بين أصحابه أيضاً ، قال : وإليه ذهب الامام أحمد أخيراً فيما حكاه عنه أبو زرعة الدمشقي ، وبه قال إسحاق بن راهويه ، والفقيه الامام محمد بن ابراهيم المعروف بابن الموَّاز المالكي رحمهم الله ، ثم قال : وللقول بوجوبه ظواهر الحديث والله أعلم . قال : ومما يؤيد ذلك الحديث الذي رواه الامام أحمد ، وأبو داود ، والترمذي وصححه ، والنسائي ، وابن خزيمة وابن حبان في « صحيحيهما » عن فضالة بن عبيد رضي الله عنه قال : سمع رسول الله ﷺ رجلاً يدعو في صلاته ، لم يمجد الله ، ولم يصلّ على النبي ﷺ ، فقال رسول الله ﷺ : « عجل هذا » ، ثم دعاه فقال له أو لغيره : « إذا صلى أحدكم فليبدأ بتمجيد الله عز وجل والثناء عليه ، ثم ليصلّ على النبي ، ثم ليدع بما شاء » . اهـ .

أحدها : في الذين طعنوا على رسول الله ﷺ حين اتخذ صفيَّة بنت حُيَيّ ، قاله ابن عباس [١] .

والثاني : نزلت في المصوِّرين ، قاله عكرمة [٢] .

والثالث : في المشركين واليهود والنصارى ، وصفوا الله بالولد وكذَّبوا رسوله وشجُّوا وجهه وكسروا رَباعيَته وقالوا : مجنون شاعر ساحر كذَّاب [٣] . ومعنى أذى الله : وصفُه بما هو منزَّه عنه ، وعصيانُه [٤] ؛ ولعنُهم في الدنيا : بالقتل والجلاء ، وفي الآخرة : بالنار .

قوله تعالى : (والذين يؤذون المؤمنين والمؤمنات) في سبب نزولها أربعة أقوال .

---

(١) رواه الطبري : ٢٢/٤٥ من رواية عطية العوفي عن ابن عباس ، وذكره السيوطي في « الدر » : ٥/٢٢٠ ، وزاد نسبته لابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما .

(٢) ذكره البغوي عن عكرمة بدون سند ، وقال ابن كثير : قال عكرمة في قوله تعالى : (إن الذين يؤذون الله ورسوله) نزلت في المصورين . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن عكرمة قال : الذين يؤذون الله ورسوله هم أصحاب التصاوير .

(٣) ذكر هذا المعنى البغوي والخازن عن ابن عباس بدون سند ، وذكره السيوطي في « الدر » : ٥/٢٢٠ من رواية ابن المنذر عن ابن جريج قال : آذوا الله فيما يدعون معه ، وآذوا رسول الله قالوا : إنه ساحر مجنون . قال ابن كثير : والظاهر أن الآية عامة في كل من آذاه بشيء ، ومن آذاه فقد آذى الله ، كما أن من أطاعه فقد أطاع الله . اهـ .

(٤) ومن إيذاء الله تعالى ، ماجاء في « الصحيحين » عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « يقول الله عز وجل : يؤذيني ابن آدم ، يسب الدهر وأنا الدهر أقلّب ليله ونهاره » ومعنى هذا أن الجاهلية كانوا يقولون : ياخيبة الدهر فعل بنا كذا وكذا ، فيسندون أفعال الله تعالى إلى الدهر ويسبونه ، وإنما الفاعل لذلك هو الله عز وجل .

أحدها : أن عمر بن الخطاب رأى جارية متبرّجة فضربها وكفّ ما رأى من زينتها ، فذهبت إلى أهلها تشكو ، فخرجوا إليه فآذَوْه ، فنزلت هذه الآية ، رواه عطاء عن ابن عباس [١] .

والثاني : أنها نزلت في الزُّناة الذين كانوا يمشون في طرق المدينة يتبعون النساء إذا برزن بالليل لقضاء حوائجهن ، فيرَون المرأة فيدنون منها فيغمزونها ؛ وإنما كانوا يؤذون الإماء ، غير أنه لم تكن الأَمَة تُعرَف من الحرة ، فشكون ذلك إلى أزواجهنّ ، فذكروا ذلك لرسول الله ﷺ ، فنزلت هذه الآية ، قاله السدي [٢] .

والثالث : أنها نزلت فيمن تكلّم في عائشة وصفوان بن المعطّل بالإفك ، قاله الضحاك [٣] .

والرابع : أن ناساً من المنافقين آذَوا عليّ بن أبي طالب ، فنزلت هذه الآية ، قاله مقاتل [٤] .

قال المفسرون : ومعنى الآية : يرمونهم بما ليس فيهم .

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيبِهِنَّ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَنْ يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً . لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي

(١) ذكره الواحدي في « أسباب النزول » : ٢٠٧ ، ٢٠٨ عن عطاء عن ابن عباس بدون سند .

(٢) الواحدي في « أسباب النزول » : ٢٠٨ عن الضحاك والسدي والكلبي بدون سند .

(٣) ذكره السيوطي في « الدر » : ٥/٢٢٠ من رواية ابن جرير عن ابن عباس قال : أنزلت في عبد الله بن أبيّ وناس معه قذفوا عائشة رضي الله عنها .

(٤) الواحدي في « أسباب النزول » ٢٠٨ عن مقاتل بدون سند ، وكذلك البغوي .

قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلاً . مَلْعُونِينَ أَيْنَ مَا ثُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِّلُوا تَقْتِيلاً . سُنَّةَ اللهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَبْدِيلاً ﴾

قوله تعالى : (ياأيُّها النبيُّ قل لأزواجك ...) الآية ، سبب نزولها أن الفُسَّاق كانوا يؤذون النساء إذا خرجن بالليل ، فاذا رأوا المرأة عليها قناع تركوها وقالوا : هذه حُرَّة ، وإذا رأوها بغير قناع قالوا : أمَة ، فآذَوها ، فنزلت هذه الآية ، قاله السدي [١] .

قوله تعالى : (يُدْنِينَ عليهنَّ من جلابيبهنَّ) [٢] قال ابن قتيبة : يَلْبَسْنَ الأرْدية . وقال غيره : يغطّين رؤوسهنّ ووجوههن ليُعلَم أنهنّ حرائر (ذلك أدنى) أي : أحرى وأقرب (أن يُعرَفْنَ) أنهنّ حرائر (فلا يؤذَيْن) .

قوله تعالى : (لئن لم ينته المنافقون) أي : عن نفاقهم (والذين في قلوبهم مرض) أي : فجور ، وهم الزناة (والمُرْجِفون في المدينة) بالكذب والباطل ، يقولون : أتاكم العدوّ ، وقُتلت سراياكم وهُزمت (لَنُغْرِيَنَّك بهم) أي : لَنُسلِّطنَّك عليهم بأن نأمرك بقتالهم . قال المفسرون : وقد أُغري بهم ، فقيل له :

---

(١) ذكره السيوطي في « الدر » : ٥/٢٢٢ من رواية ابن أبي حاتم عن السدي . وذكره الواحدي في « أسباب النزول » ٢٠٨ عن السدي بدون سند .

(٢) قال ابن كثير : يقول تعالى آمراً رسوله ﷺ تسليماً ، أن يأمر النساء المؤمنات - خاصة أزواجه وبناته لشرفهن - بأن يدنين عليهن من جلابيبهن ، ليتميزنّ عن سمات نساء الجاهلية وسمات الاماء ، قال : والجلباب : هو الرداء فوق الخمار ، قاله ابن مسعود ، وعبيدة ، وقتادة ، والحسن البصري ، وسعيد بن جبير ، وابراهيم النخعي ، وعطاء الخراساني ، وغير واحد ، وهو بمنزلة الازار اليوم ، وقال : قال الجوهري : الجلباب : الملحفة .

(جاهد الكفار والمنافقين) [التوبة : ٧٣ ، التحريم : ٩] ، وقال يوم الجمعة « اخرج يا فلان من المسجد فانك منافق ، قم يا فلان فانك منافق »[(١)] (ثم لا يجاورونك فيها) أي : في المدينة (إلاّ قليلاً) حتى يهلكوا ، (ملعونين) منصوب على الحال ؛ أي : لا يجاورونك إلاّ وهم ملعونون (أينما ثُقِفوا) أي : وُجِدوا وأُدركوا (أُخذوا وقُتِّلوا تقتيلاً) معنى الكلام : الأمر ، أي : هذا الحكم فيهم ، (سُنَّةَ الله) أي : سنَّ في الذين ينافقون الأنبياء ويُرجِفون بهم أن يُفعل بهم هذا .

﴿ يَسْئَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللهِ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيباً . إِنَّ اللهَ لَعَنَ الْكَافِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيراً . خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً لَايَجِدُونَ وَلِيّاً وَلَا نَصِيراً . يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَالَيْتَنَا أَطَعْنَا اللهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولاَ . وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلاَ . رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنْهُمْ لَعْناً كَبِيراً ﴾

قوله تعالى : (يسألُكَ النَّاسُ عن الساعة) قال عروة : الذي سأله عنها عُتبة بن ربيعة .

قوله تعالى : (وما يُدريك) أي : أيّ شيء يُعْلِمك أمر الساعة ومتى تكون ؛ والمعنى : أنت لا تعرف ذلك ؛ ثم قال : (لعلَّ الساعة تكون قريباً) .

فان قيل : هلاّ قال : قريبة ؛ فمنه ثلاثة أجوبة .

أحدها : أنه أراد الظَّرف ، ولو أراد صفة الساعة بعينها ، لقال : قريبة ،

---

(١) هو جزء من حديث طويل رواه الطبري : ١١/١٠ ، وابن أبي حاتم ، والطبراني في « الأوسط » عن ابن عباس ، وفي سنده الحسين بن عمرو العنقزي ، وهو ضعيف .

هذا قول أبي عبيدة . والثاني : أن المعنى راجع إلى البعث ، أو إلى مجيء الساعة . والثالث : أن تأنيث الساعة غير حقيقي ، ذكرهما الزجاج . وما بعد هذا قد سبق بيان ألفاظه [البقرة : ١٥٩ ، النساء : ١٠ ، الاسراء : ٩٧] .

فأما قوله : (وأطعنا الرسول) فقال الزجاج : الاختيار الوقف بألف ، لأن أواخر الآي وفواصلها تجري مجرى أواخر الأبيات ، وإنما خوطبوا بما يعقلونه من الكلام المؤلَّف ليدلّ بالوقف بزيادة الحرف أن الكلام قد تمّ ؛ وقد أشرنا إلى هذا في قوله : (الظنونا) [الأحزاب : ١] .

قوله تعالى : (أطعنا سادتنا وكُبَراءنا) أي : أشرافنا وعظماءنا . قال مقاتل : هم المُطْعِمون في غزوة بدر . وكلّهم قرأوا : « سادتَنا » على التوحيد ، غير ابن عامر ، فانه قرأ : « ساداتِنا » على الجمع مع كسر التاء ، ووافقه المفضَّل ، ويعقوب ، إلا أبا حاتم (فأضلونا السبيل) أي : عن سبيل الهدى ، (ربَّنا آتهم) يعنون السادة (ضِعفين) أي : ضعفي عذابنا ، (والعنهم لعناً كبيراً) قرأ ابن كثير ، ونافع ، وأبو عمرو ، وحمزة ، والكسائي : « كثيراً » بالثاء . وقرأ عاصم ، وابن عامر : « كبيراً » بالباء . وقال أبو علي : الكثرة أشبه بالمِرار المتكررة من الكِبَر .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِندَ اللَّهِ وَجِيهًا . يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا . يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴾

قوله تعالى : (لا تكونوا كالذين آذَوا موسى) أي : لا تؤذوا محمداً كما آذى بنو إسرائيل موسى فينزل بكم ما نزل بهم .

وفي ما آذَوا به موسى أربعة أقوال .

أحدها : أنهم قالوا : هو آدَر ، فذهب يوماً يغتسل ، ووضع ثوبه على حجرٍ ، ففرّ الحجر بثوبه ، فخرج في طلبه ، فرأوه فقالوا : واللهِ ما به من بأس . والحديث مشهور في الصحاح كلِّها من حديث أبي هريرة عن رسول الله ﷺ ؛ وقد ذكرتُه باسناده في « المغني » و « الحدائق »[1] . قال ابن قتيبة : والآدَر : عظيم الخُصيتين .

والثاني : أن موسى صَعِد الجبل ومعه هارون ، فمات هارون ، فقال بنو إسرائيل : أنت قتلتَه ، فآذَوه بذلك ، فأمر اللهُ تعالى الملائكةَ فحملته حتى مرّت به على بني إسرائيل ، وتكلّمت الملائكة بموته حتى عرف بنو إسرائيل أنه مات ، فبرّأه الله من ذلك ، قاله عليّ عليه السلام[2] .

---

(١) روى البخاري في « صحيحه » : ٣١٢/٦ عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إن موسى كان رجلاً حيياً ، ستيراً ، لايُرى من جلده شيء استحياءً منه ، فآذاه من آذاه من بني إسرائيل فقال : مايستتر هذا التستر إلا من عيب بجلده ، إما برص ، وإما أدرة ، وإما آفة ، وإن الله أراد أن يبرّئه مما قالوا لموسى ، فخلا يوماً وحده ، فوضع ثيابه على الحجر ثم اغتسل ، فلما فرغ أقبل إلى ثيابه ليأخذها ، وإن الحجر عدا بثوبه ، فأخذ موسى عصاه ، وطلب الحجر ، فجعل يقول : ثوبي حجر ، ثوبي حجر ، حتى انتهى إلى ملإٍ من بني إسرائيل فرأوه عرياناً أحسن ماخلق الله ، وأبرأه مما يقولون ، وقام حجر فأخذ بثوبه ، فلبسه وطفق بالحجر ضرباً بعصاه ، فوالله إن بالحجر لندباً من أثر ضربه ثلاثاً ، أو أربعاً أو خمساً ، فذلك قوله تعالى : (يأيها الذين آمنوا لاتكونوا كالذين آذوا موسى فبرّأه الله مما قالوا وكان عند الله وجيهاً) . قال ابن كثير عن هذا الحديث بعدما ذكره في تفسيره : وهذا سياق حسن مطول ، قال : وهذا الحديث من أفراد البخاري دون مسلم . اهـ . والحديث أورده السيوطي في « الدر » : ٢٢٣/٥ ، وزاد نسبته لعبد الرزاق ، وأحمد ، وعبد بن حميد ، والترمذي ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وابن مردويه من طرق عن أبي هريرة رضي الله عنه .

(٢) « الطبري » : ٥٢/٢٢ ، قال الحافظ ابن حجر في « الفتح » ٤١١/٨ : وروى ــــ

والثالث : أن قارون استأجر بغيّاً [1] لتقذف موسى بنفسها على ملأٍ من بني إسرائيل فعصمها الله وبرّأ موسى من ذلك ، قاله أبو العالية [2] .

والرابع : أنهم رمَوه بالسِّحر والجنون ، حكاه الماوردي .

قوله تعالى : (وكان عِنْدَ الله وجيهاً) قال ابن عباس : كان عند الله حَظِيّاً لا يسألُه شيئاً إلاّ أعطاه . وقد بيَّنَّا معنى الوجيه في (آل عمران : ٤٥) [3] .

وقرأ ابن مسعود ، والأعمش ، وأبو حيوة : « وكان عَبْداً لِلهِ » بالتنوين والباء ، وكسر اللام .

قوله تعالى : (وقولوا قولاً سديداً) فيه أربعة أقوال .

أحمد بن منيع في « مسنده » والطبري ، وابن أبي حاتم ، بإسناد قوي عن علي رضي الله عنه . . . فذكره ، وأورد السيوطي في « الدر » : ٥/٢٢٣ وزاد نسبته لابن المنذر ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه عن علي رضي الله عنه .

قال ابن كثير : وجائز أن يكون هذا هو المراد بالأذى ، وجائز أن يكون الأول هو المراد ، فلا قول أولى من قول الله عز وجل ، قال ابن كثير : قلت : يحتمل أن يكون الكل مراداً ، وأن يكون معه غيره والله أعلم . اهـ . وقال الحافظ ابن حجر : وما في « الصحيح » أصح من هذا ، لكن لامانع أن يكون للشيء سببان فأكثر كما تقدم تقريره غير مرة . اهـ .

(١) في الأصل : بغيّة ، وفي « اللسان » و « التاج » مادة « بغا » : ولا يقال للمرأة : بغيّة .

(٢) رواه السيوطي في « الدر » ٥/١٣٦ من رواية ابن أبي شيبة في « المصنف » ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه عن ابن عباس رضي الله عنهما مطولاً . والقصة تقدمت بنحوها في الصفحتين (٢٣٩ و ٢٤٥) من هذا الجزء .

(٣) قال ابن كثير : وقوله تعالى : (وكان عند الله وجيهاً) أي : له وجاهة وجاهٌ عند ربه عز وجل ، قال : قال الحسن البصري : كان مستجاب الدعوة عند الله ، وقال غيره من السلف : لم يسأل الله شيئاً إلا أعطاه ، ولكن منع الرؤية لما يشاء الله عز وجل ، قال : وقال بعضهم : من وجاهته العظيمة عند الله ، أنه شفع في أخيه هارون أن يرسله الله معه ، فأجاب الله سؤاله فقال : (ووهبنا له من رحمتنا أخاه هارون نبياً) . اهـ .

أحدها : صواباً ، قاله ابن عباس . والثاني : صادقاً ، قاله الحسن . والثالث : عدلاً ، قاله السدي . والرابع : قصداً ، قاله ابن قتيبة .

ثم في المراد بهذا القول ثلاثة أقوال .

أحدها : أنه « لا إله إلا الله » ، قاله ابن عباس ، وعكرمة . والثاني : أنه العدل في جميع الأقوال والأعمال ، قاله قتادة . والثالث : في شأن زينب وزيد ، ولا تنسبوا رسول الله ﷺ إلى مالا يصلُح ، قاله مقاتل بن حيّان .

قوله تعالى : (يُصْلِحْ لكم أعمالكم) فيه قولان .

أحدها : يتقبّل حسناتكم ، قاله ابن عباس . والثاني : يزكّي أعمالكم ، قاله مقاتل .

قوله تعالى : (فقد فاز فوزاً عظيماً) أي : نال الخير وظَفِر به .

﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً . لِيُعَذِّبَ اللهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ وَيَتُوبَ اللهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَكَانَ اللهُ غَفُوراً رَحِيماً ﴾

قوله تعالى : (إنّا عرَضْنا الأمانة) فيها قولان .

أحدها : أنها الفرائض ، عرضها الله على السموات والأرض والجبال ، إن أدّتها أثابها ، وإن ضيّعتْها عذّبها ، فكرهتْ ذلك ؛ وعرضها على آدم فقبِلها بما فيها ، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس [1] ؛ وكذلك قال سعيد بن جبير : عُرضت الأمانة على آدم فقيل له : تأخذها بما فيها ، إن أطعتَ غفرتُ لك ، وإن

(١) « الطبري » : ٢٢/٥٤ ، وذكره السيوطي في « الدر » ٥/٢٢٤ ، وزاد نسبته لابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وابن الأنباري في كتاب « الأضداد » عن ابن عباس رضي الله عنها .

عصيتَ عـذَّبتُك ، فقال : قَبِلتُ ، فما كان إلاَّ كما بين صلاة العصر إلى أن غَرَبت الشمس حتى أصاب الذَّنب . (١) وممن ذهب إلى أنها الفرائض قتادة ، والضحاك ، والجمهور .

والثاني : أنها الأمانة التي يأتمن الناس بعضهم بعضاً عليها . روى السدي عن أشياخه أن آدم لمَّا أراد الحج قال للسماء : احفظي ولدي بالأمانة ، فأبت ، وقال للأرض ، فأبت ، وقال للجبال ، فأبت ، فقال لقابيل ، فقال : نعم ، تذهب وتجيء وتجد أهلك كما يسرُّك ، فلما انطلق آدم قتل قابيلُ هابيلَ ، فرجع آدم فوجد ابنه قد قتل أخاه ، فذلك حيث يقول الله عز وجل : « إنّا عَرَضْنا الأمانة » إلى قوله : (وحَمَلَها الإنسانُ) وهو ابن آدم ، فما قام بها (٢) .

وحكى ابن قتيبة عن بعض المفسرين أن آدم لمّا حضرته الوفاة قال : يارب ، من أستخلف من بعدي ؟ فقيل له : اعرض خلافتك على جميع الخلق ، فعرضها ، فكلٌّ أباها غير ولده .

وللمفسرين في المراد بعَرْض الأمانة على السموات والأرض قولان .

أحدها : أن الله تعالى ركّب العقل في هذه الأعيان ، وأفهمهنّ خطابه ، وأنطقهنّ بالجواب حين عرضها عليهنّ ، ولم يُرد بقوله : « أبَيْنَ » المخالَفَة ،

---

(١) « الطبري » : ٢٢/٥٤ عن سعيد بن جبير عن ابن عباس ، وذكره السيوطي في « الدر » : ٥/٢٢٥ ، وزاد نسبته لسعيد بن منصور ، وابن أبي شيبة ، وعبد بن حميد ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وابن الأنباري في كتاب « الأضداد » ، والحاكم وصححه ، عن ابن عباس رضي الله عنهما .

(٢) روى هذا الخبر مطولاً الطبري : ٢٢/٥٦ ، ٥٧ من رواية السدي في خبر ذكره عن أبي مالك ، وعن أبي صالح عن ابن عباس ، وعن مرة الهمداني عن ابن مسعود ، وعن ناس من أصحاب النبي ﷺ .

ولكنْ أبَيْنَ للخَشية والمخافة ، لأن العَرْض كان تخييراً لا إلزاماً ، و « أشفقن » بمعنى خِفْنَ منها أن لايؤدِّينَها فيلحقهنَّ العقاب ، هذا قول الأكثرين .

والثاني : أن المراد بالآية : إنَّا عرضنا الأمانة على أهل السموات وأهل الأرض وأهل الجبال من الملائكة ، قاله الحسن .

وفي المراد بالإنسان أربعة أقوال . أحدها : آدم في قول الجمهور . والثاني : قابيل في قول السدي . والثالث : الكافر والمنافق ، قاله الحسن . والرابع : جميع الناس ، قاله ثعلب .

قوله تعالى : (إنَّه كان ظَلوماً جَهولاً) فيه ثلاثة أقوال .

أحدها : ظَلوماً لنفسه ، غِرّاً بأمر ربِّه ، قاله ابن عباس ، والضحاك .

والثاني : ظَلوماً لنفسه ، جَهولاً بعاقبة أمره ، قاله مجاهد .

والثالث : ظَلوماً بمعصية ربِّه ، جَهولاً بعقاب الأمانة ، قاله ابن السائب .

وذكر الزجاج في الآية وجهاً يخالف أكثر الأقوال ، وذكر أنَّه موافق للتفسير فقال : إن الله تعالى ائتمن بني آدم على ماافترضه عليهم من طاعته ، وائتمن السموات والأرض والجبال على طاعته والخضوع له ، فأمَّا السموات والأرض فقالتا : (أتَيْنَا طائعِين) [فصلت : ١١] ، وأعلَمنا أن من الحجارة مايَهْبِط من خَشية الله ، وأن الشمس والقمر والنجوم والجبال والملائكة يسجُدون لله ، فعرَّفنا اللهُ تعالى أنَّ السموات والأرض لم تحتمل الأمانة ، لأنها أدَّتها ، وأداؤها : طاعة الله وترك معصيته ، وكلُّ من خان الأمانة فقد احتملها ، وكذلك كلُّ من أثم فقد احتمل الإثم[1] ، وكذلك قال الحسن : « وحملها الإنسان » أي : الكافر والمنافق حَمَلاها ، أي : خانا ولم يُطيعا ؛ فأمَّا من أطاع ، فلا يقال : كان ظلوماً جهولاً .

(١) قال الآلوسي عن قول الزجاج هذا : ولا يخفى بُعْدُه ، ولم نر في المأثور مايؤيده . اهـ .

قوله تعالى : (ليعذِّب اللهُ المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات ويتوبَ اللهُ على المؤمنين والمؤمنات) قال ابن قتيبة : المعنى : عَرَضْنا ذلك ليظهر نفاقُ المنافق وشِرك المشرك فيعذِّبهم الله، ويظهر إيمان المؤمنين فيتوب الله عليهم، أي : يعود عليهم بالرحمة والمغفرة إن وقع منهم تقصير في الطاعات [1] .

★ ★ ★

(١) قال الآلوسي في تتمة الآية : (وكان الله غفوراً رحيماً) أي : مبالغاً في المغفرة والرحمة حيث تاب على المؤمنين والمؤمنات وغفر لهم فرطاتهم ، وأثابهم بالفوز العظيم على طاعاتهم ، نسأل الله تعالى أن يتوب علينا ويغفر لنا ويثيبنا بالفوز العظيم ، إنه ـ جل جلاله وعمَّ نواله ـ غفور رحيم . اهـ .

سورة سبأ

وهي مكيّة باجماعهم

وقال الضحاك ، وابن السائب ، ومقاتل : فيها آية مدنية ، وهي قوله : (ويرى الذين أُوتوا العلم) [سبأ : ٦] .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمٰوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ . يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ . وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَالِمِ الْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمٰوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِنْ ذٰلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ . لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولٰئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ . وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولٰئِكَ لَهُمْ

عَذَابٌ مِنْ رِجْزٍ أَلِيمٌ . وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقَّ وَيَهْدِي إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴾

قوله تعالى : (الحمد لله الذي له ما في السموات وما في الأرض) مُلْكاً وخَلْقاً (وله الحَمْدُ في الآخرة) يَحمَدُه أولياؤه إذا دخلوا الجنّة ، فيقولون : (الحمدُ لله الذي صَدَقَنا وَعْدَه) [الزمر : ٧٤] (الحمدُ لله الذي هدانا لهذا) [الأعراف:٤٣] (الحمدُ لله الذي أذهب عنّا الحَزَنَ) [فاطر : ٣٤] (١) .

(يَعْلَمُ ما يَلِجُ في الأرض) من بذر أو مطر أو كنز أو غير ذلك (وما يَخْرُجُ منها) من زرع ونبات وغير ذلك (وما يَنْزِلُ من السماء) من مطر أو رزق أو ملَك (وما يَعْرُجُ فيها) من ملَك أو عمل أو دُعاء .

(وقال الذين كفروا) يعني مُنكِري البعث (لا تأتينا الساعةُ أي : لا نُبعَث (٢) .

---

(١) قال ابن كثير : يخبر تعالى عن نفسه الكريمة أن له الحمد المطلق في الدنيا والآخرة ، لأنه المنعم المتفضّل على أهل الدنيا والآخرة ، المالك لجميع ذلك ، والحاكم في جميع ذلك ، كما قال تعالى : (وهو الله لا إله إلا هو له الحمد في الأولى والآخرة وله الحكم وإليه تُرجعون) ولهذا قال تعالى هاهنا : (الحمد لله الذي له ما في السموات وما في الأرض) أي : الجميع ملكه وعبيده وتحت تصرّفه وقهره ، كما قال تعالى : (وإن لنا للآخرةَ والأولى) قال : ثم قال عز وجل : (وله الحمد في الآخرة) فهو المعبود أبداً ، المحمود على طول المدى ، قال : وقوله : (وهو الحكيم) أي : في أقواله وأفعاله وشرعه وقدَره (الخبير) الذي لا تخفى عليه خافية ولا يغيب عنه شيء . اهـ .

(٢) قال ابن كثير : هذه إحدى الآيات الثلاث التي لا رابع لهن مما أمر الله تعالى رسوله ﷺ أن يقسم بربه العظيم على وقوع المعاد لمّا أنكره من أنكره من أهل الكفر والعناد ، قال : فاحداهن في سورة يونس عليه السلام ، وهي قوله تعالى : (ويستنبئونك أحق هو قل إي وربي إنه لحق وما أنتم بمعجزين) والثانية هذه (وقال الذين كفروا لا تأتينا الساعة قل بلى وربي لتأتينكم) والثالثة في سورة (التغابن) وهي قوله تعالى : (زعم الذين كفروا أن لن يبعثوا قل بلى وربي لتبعثن ثم لتنبؤن بما عملتم وذلك على الله يسير) فقال تعالى : (قل بلى وربي لتأتينكم) . اهـ .

قوله تعالى : (عالِمِ الغيب) قرأ ابن كثير ، وعاصم ، وأبو عمرو : « عالِمِ الغيب » بكسر الميم ؛ وقرأ نافع ، وابن عامر : برفعها . وقرأ حمزة ، والكسائي : « علاَّمِ الغيب » بالكسر ولام قبل الألف . قال أبو علي : من كسر ، فعلى معنى : الحمدُ لله عالِمِ الغيب ؛ ومن رفع ، جاز أن يكون « عالِمُ الغيب » خبر مبتدأ محذوف ، تقديره : هو عالِمُ الغيب ، ويجوز أن يكون ابتداء ، خبره (لا يَعْزُبُ عنه) ؛ و « علاَّم » أبلغ من « عالم » . وقرأ الكسائي وحده : « لا يَعْزِبُ » بكسر الزاي ؛ وهما لغتان .

قوله تعالى : (ولا أصغرُ مِنْ ذلك) وقرأ ابن السميفع ، والنخعي ، والأعمش : « ولا أصغرَ مِنْ ذلك ولا أكبرَ » بالنصب فيهما .

قوله تعالى : (لِيَجْزِيَ الذين آمَنوا) قال الزجاج : المعنى : بلى وربِّي لتأتينَّكم المُجازاة وقال ابن جرير : المعنى : أثبتَ مثقال الذرَّة وأصغر منه في كتاب مبين ، ليَجْزِيَ الذين آمنوا ، وليُرِيَ الذين أوتوا العلم .

قوله تعالى : (مِنْ رِجْزٍ أليمٌ) قرأ ابن كثير ، وحفص عن عاصم ، ويعقوب ، [والمفضل] : « مِنْ رِجْزٍ أليمٌ » رفعاً ؛ والباقون بالخفض فيهما[1] .

وفي (الذين أوتوا العِلْم) قولان .

أحدهما : أنهم مؤمنو أهل الكتاب ، كعبد الله بن سلام وأصحابه ، رواه أبو صالح عن ابن عباس .

والثاني : أصحاب محمد ﷺ ، قاله قتادة .

(١) أي هنا وفي سورة (الجاثية : ١١) ، قال في « إتحاف فضلاء البشر » ٢١٩ : واختلف في « من رجز أليم » هنا و (الجاثية) ، فابن كثير ، وحفص ، ويعقوب : برفع الميم فيهما نعتاً لـ « عذابٌ » ، وافقهم ابن محيصن ، والباقون : بخفضه فيهما نعتاً لـ « رجزٍ » وهو العذاب السيء . اهـ .

قوله تعالى : (الذي أُنزِلَ إليك مِن ربّك) يعني القرآن (هو الحَقّ) قال الفراء : « هو » عماد ، فلذلك انتصب الحقّ . وما أخللنا به فقد سبق في مواضع [الحج : ٥١ ، ٥٢ ، البقرة : ١٣٠ ، ٢٦٧] .

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَى رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ . أَفْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِبًا أَمْ بِهِ جِنَّةٌ بَلِ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ فِي الْعَذَابِ وَالضَّلَالِ الْبَعِيدِ . أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنْ نَشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِنَ السَّمَاءِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ ﴾

قوله تعالى : (وقال الذين كفروا) وهم مُنكِرو البعث ، قال بعضهم لبعض : (هل نَدُلُّكُم على رَجُلٍ ينبّئُكم) أي : يقول لكم : إنَّكم (إذا مُزّقتم كلَّ ممزّق) أي : فُرّقتم كل تفريق ؛ والممزّق هاهنا مصدر بمعنى التمزيق (إنَّكم لفي خَلْق جديد) أي : يجدَّد خَلْقكم للبعث . ثم أجاب بعضُهم فقالوا : (أفترى على الله كَذِباً) حين زعم أنّا نُبعث ؟! وألف « أفترى » ألف استفهام ، وهو استفهام تعجب وإنكار ، (أم به جِنّة) أي : جنون ؟! فردَّ اللهُ عليهم فقال : (بل) أي : ليس الأمر كما تقولون من الافتراء والجنون ، بل (الذين لا يؤمنون بالآخرة) وهم الذين يجحدون البعث (في العذاب) إذا بُعثوا في الآخرة (والضَّلال البعيد) من الحق في الدنيا [1] .

ثم وعظهم فقال : (أفلم يَرَوا إلى ما بين أيديهم وما خلفهم مِنَ السماء

(١) قال ابن كثير : ليس الأمر كما زعموا ، ولا كما ذهبوا إليه ، بل محمد ﷺ هو الصادق البارّ الراشد الذي جاء بالحق ، وهم الكذَبة الجهلة الأغبياء (في العذاب) أي : الكفر المفضي بهم إلى عذاب الله تعالى (والضلال البعيد) من الحق في الدنيا . اهـ .

والأرض) وذلك أن الإنسان حيثما نظر رأى السماء والأرض قُدّامه وخلفه وعن يمينه وعن شماله ؛ فالمعنى أنهم أين كانوا فأرضي وسمائي محيطة بهم ؛ وأنا القادر عليهم ، إن شئتُ خسفتُ بهم الأرض ، وإن شئتُ أسقطتُ عليهم قطعة من السماء ، (إنّ في ذلك) أي : فيما يَرَون من السماء والأرض (لآيةً) تدلُّ على قدرة الله تعالى على بعثهم والخسف بهم (لكلِّ عبد مُنيب) أي : راجعٍ إلى طاعة الله ، متأمّلٍ لما يرى .

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ مِنَّا فَضْلاً يَاجِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ . أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ وَاعْمَلُوا صَالِحاً إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾

قوله تعالى : (ولقد آتينا داود مِنّا فَضْلاً) وهو النبوّة والزّبور وتسخير الجبال والطير ، إلى غير ذلك ممّا أنعم اللهُ به عليه [1] (ياجبالُ أوِّبي معه) وروى الحلبي عن عبد الوارث : « أُوْبي » بضم الهمزة وتخفيف الواو . قال الزجاج : المعنى : وقلنا : يا جبال أوِّبي معه ، أي : رجِّعي معه . والمعنى : سبِّحي معه ورجِّعي التسبيح . ومن قرأ : « أُوْبي » ، معناه : عودي في التسبيح معه كلما عاد . وقال ابن قتيبة : « أوِّبي » أي : سبِّحي ، وأصل التأويب في السير ، وهو أن يسير النهار كلّه ، وينزل ليلاً ، فكأنه أراد : ادأبي النهار [كلّه] بالتسبيح إلى الليل .

---

(١) قال ابن كثير : يخبر تعالى عما أنعم به على عبده ورسوله داود عليه الصلاة والسلام مما آتاه من الفضل المبين ، وجمع له بين النبوة والملك المتمكّن والجنود ذوي العَدد والعُدد ، وما أعطاه ومنحه من الصوت العظيم الذي كان إذا سبح به تسبّح معه الجبال الراسيات الصم الشامخات ، وتقف له الطيور السارحات ، والغاديات والرائحات ، وتجاوبه بأنواع اللغات ، قال : وفي « الصحيح » أن رسول الله ﷺ سمع صوت أبي موسى الأشعري رضي الله عنه يقرأ من الليل ، فوقف فاستمع لقراءته ، ثم قال ﷺ : « لقد أوتيَ هذا مزماراً من مزامير آل داود » . اهـ .

قوله تعالى : (والطَّيْرَ) وقرأ أبو رزين ، وأبو عبد الرحمن السلمي ، وأبو العالية ، وابن أبي عبلة : « والطَّيْرُ » بالرفع . فأما قراءة النصب ، فقال أبو عمرو بن العلاء : هو عطف على قوله : « ولقد آتينا داود مِنَّا فضلاً » « والطَّيْرَ » أي : وسخَّرْنا له الطَّيْرَ . قال الزجاج : ويجوز أن يكون نصباً على النداء ، كأنه قال : دعَوْنا الجبالَ والطيرَ ، فالطير معطوف على موضع الجبال ، وكل منادى عند البصريين فهو في موضع نصب ؛ قال : وأما الرفع ، فمن جهتين ، إحداهما : أن يكون نسقاً على ما في « أوِّبي » ، فالمعنى : يا جبال رجِّعي التسبيح معه أنتِ والطير ؛ والثانية [1]: على النداء ، المعنى : يا جبال ويا أيُّها الطير أوِّبي [معه] .

قال ابن عباس : كانت الطير تسبِّح معه إذا سبَّح ، وكان إذا قرأ لم تبق دابَّة إلا استمعت لقراءته وبكت لبكائه . وقال وهب بن منبه : كان يقول للجبال : سبِّحي ، وللطير : أجيبي ، ثم يأخذ هو في تلاوة الزَّبور بين ذلك بصوته الحسن ، فلا يرى الناسُ منظراً أحسن من ذلك ، ولا يسمعون شيئاً أطيبَ منه .

قوله تعالى : (وألنَّا له الحديد) أي : جعلناه ليِّناً . قال قتادة : سخَّر اللهُ له الحديد بغير نار ، فكان يسوِّيه بيده ، لا يُدخله النار ، ولا يضربه بحديدة ، وكان أول من صنع الدروع ، وكانت قبل ذلك صفائح .

قوله تعالى : (أنِ اعْمَلْ) قال الزجاج : معناه : وقلنا له : اعْمَل ، ويكون في معنى « لأنْ يعمل » (سابغات) أي : دروعاً سابغات ، فذكر الصفة لأنَّها تدل على الموصوف .

قال المفسرون : كان يأخذ الحديد بيده فيصير كأنه عجين يعمل به ما يشاء ،

---

(١) في الأصل : والثاني .

فيعمل الدِّرع في بعض يوم فيبيعه بمال كثير ، فيأكل ويتصدق . والسابغات : الدروع الكوامل التي تغطّي لابسها حتى تَفْضُل عنه فيجرّها على الأرض .

(وقَدِّر في السَّرْدِ) أي : اجعله على قدر الحاجة . قال ابن قتيبة : السَّرْدُ : النَّسْج ، ومنه يقال لصانع الدُّروع : سَرّادٌ وزَرّادٌ ، تبدل من السين الزاي ، كما يقال : سرّاط [1] وزرّاط . وقال الزجاج : السَّرْدُ في اللغة : تَقْدِمَةُ الشيء إلى الشيء تأتي به متّسقاً بعضُه في إثر بعض متتابعاً . ومنه قولهم : سَرَدَ فلان الحديثَ .

وفي معنى الكلام قولان .

أحدها : عدِّل المسمار في الحَلْقة ولا تصغِّره فيقلق ، ولا تعظِّمه فتنفصم الحَلْقة ، قاله مجاهد .

والثاني : لا تجعل حلَقَه واسعة فلا تَقي صاحبها ، قاله قتادة .

قوله تعالى : (واعمَلوا صالحاً) خطاب لداود وآله .

﴿ وَلِسُلَيْمَـٰنَ الرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ وَمِنَ الْجِنِّ مَنْ يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَمَنْ يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ . يَعْمَلُونَ لَهُ مَايَشَاءُ مِنْ مَحَارِيبَ وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَاسِيَاتٍ اعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ . فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَادَلَّهُمْ عَلَى مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَنْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَالَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ ﴾

---

(١) في الأصل : صراط ، وما أثبتناه من « غريب القرآن » : ٣٥٤ ، و « البحر » : ٢٥٥/٧ ، و « اللسان » : زرط .

قوله تعالى : (ولِسليمان الرِّيح) [١] قرأ الأكثرون بنصب الرِّيح على معنى : وسخَّرنـا لسليمان الرِّيحَ . وروى أبو بكر ، والمفضل عن عاصم : « الرِّيحُ » رفعاً ، أي : له تسخيرُ الريح . وقرأ أبو جعفر : « الرِّياح » على الجمع .

(غُدُوُّها شَهْرٌ) قال قتادة : تغدو مسيرةَ شهر إلى نصف النهار ، وتروح مسيرةَ شهر إلى آخر النهـار ، فهي تسير في اليوم الواحد مسيرة شهرين . قـال الحسن : لمـَّا شَغَلَت نبيَّ الله سليمانَ الخيلُ عن الصلاة فعقرها [٢] ، أبدله الله خيراً منها وأسرع وهي الريح ، فكان يغدو من دمشق فيَقيل بإِصْطَخْر وبينهما مسيرة شهر للمسرع ، ثم يروح من إصطخر فيبيت بكابُل ، وبينهما مسيرة شهر للمسرع .

قوله تعالى : (وأَسَلْنَا له عَيْنَ القِطْرِ) قال الزجاج : القِطْر : النُّحاس ، وهو الصُّفْر ، أُذيب مذ ذاك وكان قبل سليمان لا يذوب .

قال المفسرون : أجرى الله لسليمان عين الصُّفْر حتى صنع منهـا ما أراد من غير نار ، كما أُلين لداود الحديدُ بغير نار ، فبقيت تجري ثلاثة أيام ولياليهنَّ كجري الماء ؛ وإنما يعمل الناس اليوم مما أُعطي سليمان .

---

(١) قال ابن كثير : لما ذكر تعالى ماأنعم به على داود ، عطف بذكر ماأعطى ابنه سليمان عليهما الصلاة والسلام من تسخير الريح له تحمل بساطه ، غدوُّها شهر ورواحها شهر . اهـ .

(٢) قال ابن جرير الطبري في سورة (ص : ٣٣) عند قوله تعالى : (فطفق مسحاً بالسوق والأعناق) : واختلف أهل التأويل في معنى مسحِ سليمان بسوق هـذه الخيل الجياد وأعناقها ، فقال بعضهم : معنى ذلك : أنه عقرها وضرب أعناقها ، وقال آخرون : جعل يمسح أعرافها وعراقيبها بيده حبّاً لهـا ، ونقل ذلك عن ابن عباس ، ثم قال : وهذا القول الذي ذكرناه عن ابن عباس أشبه بتأويل الآية ، لأن نبي الله ﷺ (يريد سليمان عليه السلام) لم يكن إن شاء الله ليعذب حيواناً بالعرقبة ، ويهلك مالاً من ماله بغير سبب سوى أنه اشتغل عن صلاته بالنظر إليها ، ولا ذنب لها باشتغاله بالنظر إليها . اهـ . وسيأتي ذلك في موضعه إن شاء الله تعالى من سورة (ص) .

قوله تعالى : (ومن الجن) المعنى : وسخَّرنـا له من الجن (من يعمل بين يديه بإذن ربّه) أي : بأمره ؛ سخَّرهم الله له ، وأمرهم بطاعته ؛ والكلام يدلّ على أنَ منهم من لم يسخَّر له (ومَنْ يَزِغْ منهم) أي : يَعْدِل (عن أمرنا) له بطاعة سليمان (نُذِقْه من عذاب السعير) ؛ وهل هذا في الدنيا ، أم في الآخرة ؟ فيه قولان . أحدهما : في الآخرة ، قاله الضحاك . والثاني : في الدنيا ، قاله مقاتل . وقيل : إنه كان مع سليمان مَلَك بيده سوط من نار ، فمن زاغ من الجن ضربه الملك بذلك السوط .

(يعملون له ما يشاء من محاريب) وفيها ثلاثة أقوال . أحدها : أنها المساجد ، قاله مجاهد ، وابن قتيبة . والثاني : القصور ، قاله عطية . والثالث : المساجد والقصور ، قاله قتادة . وأما التماثيل ، فهي الصُّوَر ؛ قال الحسن : ولم تكن يومئذ محرَّمة[1] ؛ ثم فيها قولان .

أحدهما : أنها كانت كالطَّواويس والعِقْبان والنُّسور على كرسيِّه ودرجات سريره لكي يَهابَها من أراد الدُّنُوَّ منه ، قاله الضحاك .

والثاني : أنها كانت صُوَرُ النبيِّين والملائكة لكي يراهم الناس مصوَّرين ، فيعبُدوا مثل عبادتهم ويتشبَّهوا بهم ، قاله ابن السائب .

وفي ما كانوا يعملونها منه قولان . أحدهما : من النُّحاس ، قاله مجاهد . والثاني : من الرُّخام والشَّبَه[2] ، قاله قتادة .

قوله تعالى : (وجِفَانٍ كالجَوَابي) الجِفَان : جمع جفنة ، وهي القصعة الكبيرة ؛ والجَوَابي ؛ جمع جابِيَة ، وهي الحوض الكبير يُجبَى فيه الماء ، أي : يُجمع .

---

(١) قال الآلوسي : وإنما هي في شرعنا حرام ، ولا فرق عندنا بين أن تكون الصورة ذات ظلٍّ ، وأن لا تكون كذلك . اهـ .

(٢) الشَّبْهُ والشَّبَهُ : ضرب من النحاس يلقى عليه دواء فيصفرُّ ، سمي به ، لأنه إذا فعل به ذلك أشبه الذهب بلونه .

قرأ ابن كثير ، وأبو عمرو : « كالجَوَابي » بياء ، إلا أن ابن كثير يثبت الياء في الوصل والوقف ، وأبو عمرو يثبتها في الوصل دون الوقف . قال الزجاج : وأكثر القراء على الوقف بغير ياء ، وكان الأصل الوقف بالياء ، إلا أن الكسرة تنوب عنها .

قال المفسرون : كانوا يصنعون [له] القِصَاع كحياض الإبل ، يجتمع على القصعة الواحدة ألف رجل يأكلون منها .

قوله تعالى : (وقدورٍ راسياتٍ) أي : ثوابت ؛ يقال : رسا يرسو : إذا ثبت .

وفي علّة ثبوتها في مكانها قولان . أحدهما : أن أثافيها منها [1] ، قاله ابن عباس . والثاني : أنها لا تُنزل لِعِظَمها ، قاله ابن قتيبة .

قال المفسرون : وكانت القُدور كالجبال لا تحرّك من أماكنها ، يأكل من القِدْر ألف رجل .

قوله تعالى : (اعْمَلوا آلَ داوُدَ شُكْراً) المعنى : وقلنا : اعملوا بطاعة الله شكراً له على ما آتاكم [2] .

قوله تعالى : (فلمَّا قضينا عليه الموتَ) يعني على سليمان .

---

(١) الأثافي : الحجارة التي تُنصب وتُجعل القِدْرُ عليها .

(٢) قال ابن جرير الطبري : وقوله : (اعملوا آل داود شكراً) يقول تعالى ذِكره : وقلنا لهم : اعملوا بطاعة الله يا آل داود شكراً له على ما أنعم عليكم من النعم التي خصّكم بها عن سائر خلقه ، مع الشكر له على سائر نعمه التي عمّكم بها مع سائر خلقه . اهـ . وقال أبو عبد الرحمن السلمي : الصلاة شكر ، والصيام شكر ، وكل خير تعمله لله عز وجل شكر ، وأفضل الشكر الحمد . وروى ابن جرير وابن أبي حاتم عن محمد بن كعب القرظي قال : الشكر : تقوى الله تعالى والعمل الصالح ، قال ابن كثير : وهذا يقال لمن هو متلبّس بالفعل ، قال : وقد كان آل داود عليهم السلام كذلك قائمين بشكر الله تعالى قولاً وعملاً .

قال المفسرون : كانت الإنس تقول : إن الجن تعلم الغيب الذي يكون في غد ، فوقف سليمان في محرابه يصلّي متوكـّئاً على عصاه ، فمات ، فمكث كذلك حولاً والجن تعمل تلك الأعمال الشّاقة ولا تعلم بموته حتى أكلتِ الأَرَضُ[1] عصا سليمان ، فخرّ فعلموا بموته ، وعَلِم الإنسُ أن الجن لا تعلم الغيب[2] .

وقيل : إن سليمان سأل الله تعالى أن يعمّي على الجن موته ، فأخفاه الله عنهم حولاً .

وفي سبب سؤاله قولان .

أحدها : لأن الجن كانوا يقولون للانس : إنّنا نَعْلَمُ الغيب ، فأراد تكذيبهم .

والثاني : لأنه كان قد بقي من عِمارة بيت المقدس بقيّة .

فأما (دابّة الأرض) فهي : الأَرَضَة . وقرأ أبو المتوكل ، وأبو الجوزاء ، وعاصم الجحدري : « دابّة الأَرَض » بفتح الراء .

والمِنْسأة : العصا . قال الزجاج : وإنما سمّيت مِنْسأة ، لأنه يُنْسَأُ بها ، أي : يُطْرَدُ ويُزْجَر . قال الفراء : أهل الحجاز لايهمزون المِنْسأة ، وتميم وفصحاء قيس يهمزونها .

قوله تعالى : (فلمّا خرّ) أي : سقط (تبيّنت الجنُّ) أي : ظهرت ، وانكشف للناس أنهم لايعلمون الغيب ، ولو علموا (مالَبِثوا في العذاب المُهين)

---

(١) الأَرَضُ : جمع أَرَضَة ، وهي دويبّة تأكل الخشب .

(٢) قال ابن كثير : يذكر الله تعالى كيفية موت سليمان عليه السلام ، وكيف عمّى الله موته على الجانّ المسخّرين له في الأعمال الشاقة ، فانه مكث متوكئاً على عصاه ـ وهي مِنسأته كما قال ابن عباس رضي الله عنهما ، ومجاهد ، والحسن ، وقتادة ، وغير واحد ـ مدة طويلة نحواً من سنة ، فلما أكلتها دابة الأرض وهي الأرَضة ضعفت وسقط إلى الأرض وعُلم أنه قد مات قبل ذلك بمدة طويلة ، وتبيّنت الجن والأنس أيضاً أن الجن لايعلمون الغيب كما كانوا يتوهّمون ويوهمون الناس ذلك . اهـ .

أي : ماعملوا مسخَّرين وهو ميت وهم يظنّونه حيّاً . وقيل : تبيَّنت الجن ، أي : علِمت ، لأنّها كانت تتَوَهَّم باستراقها السمع أنها تعلم الغيب ، فعلمت حينئذ خطأها في ظنّها . وروى رويس عن يعقوب : « تُبُيِّنَتْ » برفع التاء والباء وكسر الياء .

﴿ لَقَدْ كَانَ لِسَبَأٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ . فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ . ذَٰلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ . وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّاماً آمِنِينَ . فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ . وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقاً مِنَ الْمُؤْمِنِينَ . وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يُؤْمِنُ بِالْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ وَرَبُّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ ﴾

قوله تعالى : (لقد كان لِسَبَأٍ في مساكنهم آيةٌ) [١] قرأ ابن كثير ،

---

(١) قال ابن كثير : كانت سبأ ملوك اليمن وأهلها ، وكانت التبابعة منهم ، وبلقيس صاحبة سليمان عليه الصلاة والسلام من جملتهم ، وكانوا في نعمة وغبطة في بلادهم وعيشهم واتّساع أرزاقهم وزروعهم وثمارهم ، وبعث الله تبارك وتعالى إليهم الرسل تأمرهم أن يأكلوا من رزقه ويشكروه بتوحيده وعبادته ، فكانوا كذلك ماشاء الله تعالى ، ثم أعرضوا عما أُمروا به ، فعوقبوا بارسال السيل والتفرق في البلاد أيدي سبأ ، شذر مذر .

ونافع ، وأبو عمرو ، وابن عامر ، وأبو بكر عن عاصم : « في مَسَاكِنِهِم » . وقرأ حمزة ، وحفص عن عاصم : « مَسْكَنِهِم » بفتح الكاف من غير ألف . وقرأ الكسائي ، وخلف : « مَسْكِنِهِم » بكسر الكاف ، وهي لغة .

قال المفسرون : المراد بسبأٍ هاهنا : القبيلة التي هم من أولاد سبأ بن يَشْجُب ابن يَعْرُب بن قحطان ؛ وقد ذكرنا في سورة (النمل : ٢٢) الخلاف في هذا ، وأن قوماً يقولون : هو اسم بلد ، وليس باسم رجل [١] . وذكر الزجاج في هذا المكان أنَّ مَنْ قرأ : « لِسَبَأَ » بالفتح وترك الصَّرْف ، جعله اسماً للقبيلة ، ومن صرف وكسر ونوَّن ، جعله اسماً للحيِّ واسماً لرجل ؛ وكلٌّ جائزٌ حسن . و (آيةٌ) رفعٌ ، اسم « كان » ، و (جَنَّتَان) رفع على نوعين ، أحدهما : أنه بدل من « آية » ، والثاني : على إضمار ، كأنَّه لمَّا قيل : « آيةٌ » ، قيل : الآية جَنَّتان .

الإشارة إلى قصتهم

ذكر العلماء بالتفسير والسِّيَر أن بلقيس لمَّا ملكت [قومَها] جعل قومُها يقتتلون على ماء واديهم ، فجعلت تنهاهم فلا يُطيعونها ، فتركت مُلْكها وانطلقت إلى قصرها فنزلته ، فلمَّا كَثُر الشَّرُّ بينهم وندموا ، أتوها فأرادوها على أن ترجع إلى مُلْكها ، فأبت ، فقالوا : لَتَرجِعِنَّ أو لَنَقْتُلَنَّكِ ، فقالت : إنكم لاتُطيعونني وليست لكم عقول ، فقالوا : فإنَّا نُطيعك ، فجاءت إلى واديهم - وكانوا

---

(١) روى الترمذي في « سننه » : ٣/١٥٤ عن فروة بن مسيك المرادي قال : قال رجل يارسول الله ، وما سبأ ؟ أرض أو امرأة ؟ قال : « ليس بأرض ولا امرأة ، ولكنه رجل ولد عشرة من العرب . . .) الحديث ، ورواه أحمد والطبري وهو حديث حسن ، وقد سبق تخريجه صفحة (١٦٥) من هذا الجزء ، وأورده السيوطي في « الدر » : ٥/٢٣١ وزاد نسبته لعبد بن حميد ، والبخاري في « تاريخه » ، وابن المنذر ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه .

إذا مُطِروا أتاه السَّيل من مسيرة أيَّام ـ فأمرتْ به ، فسُدَّ مابين الجبلين بمُسَنَّاة [١] ، وحبستْ الماء من وراء السد ، وجعلتْ له أبواباً بعضها فوق بعض ، وبنتْ من دونه بِركة وجعلت فيها اثني عشر مَخْرجاً على عِدَّة أنهارهم ، فكان الماء يخرج بينهم بالسويَّة ، إلى أن كان من شأنها مع سليمان ماسبق ذِكره [النمل : ٢٩ - ٤٤] ، وبقُوا بعدها على حالهم . وقيل : إنما بنَوْا ذلك البنيان لِئلاَّ يغشى السيلُ أموالهم فيُهلكها ، فكانوا يفتحون من أبواب السَّدِّ مايريدون ، فيأخذون من الماء مايحتاجون إليه ، وكانت لهم جنَّتان عن يمين واديهم وعن شماله ، فأخصبت أرضُهم ، وكَثُرت فواكههم ، وإن كانت المرأةُ لتمُرُّ بين الجنَّتين والمِكتَل على رأسها ، فترجع وقد امتلأ من الثمر ولا تَمَسّ يدها شيئاً منه ، ولم يكن [يُرى] في بلدهم حيَّة ولا عقرب ولا بعوضة ولا ذباب ولا برغوث ، ويمُرُّ الغريب ببلدتهم وفي ثيابه القَمْل ، فيموت القمل لطيب هوائها . وقيل لهم : (كُلُوا مِنْ رِزْقِ ربِّكم واشكُروا له بلدةٌ طيِّبةٌ) أي : هذه بلدة طيِّبة ، أو بلدتُكم بلدةٌ طيِّبة ، ولم تكن سبخة [٢] ولا فيها مايؤذي (وربٌّ غفورٌ) أي : واللهُ ربٌّ غفور ، وكانت ثلاث عشرة قرية ، فبعث الله إليهم ثلاثة عشر نبياً ، فكذَّبوا الرُّسل ، ولم يُقِرُّوا بنِعم الله ، فذلك قوله : (فأَعْرَضُوا) أي : عن الحقّ ، وكذَّبوا أنبياءهم [٣] (فأرسَلْنا عليهم سَيْلَ العَرِمِ) وفيه أربعة أقوال .

---

(١) قال في « المصباح » مادة « سنن » : المُسنَّاة : حائط يُبنى في وجه الماء ، ويسمى السّدّ .

(٢) أرض سبخة ، أي : ملحة .

(٣) قال ابن كثير : وقوله تعالى : (فأعرضوا) أي : عن توحيد الله وعبادته وشكره على ماأنعم به عليهم ، وعدلوا إلى عبادة الشمس من دون الله ، كما قال الهدهد لسليمان عليه الصلاة والسلام : (وجئتك من سبأ بنبأ يقين ، إني وجدت امرأة تملكهم وأوتيت من كل شيء ولها عرش عظيم وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله وزين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل فهم لايهتدون) . اهـ .

أحدها : أن العَرِم : الشديد ، رواه عليّ بن أبي طالب عن ابن عباس .

وقال ابن الأعرابي : العَرِم : السَّيل الذي لا يُطاق .

والثاني : [أنه] اسم الوادي ، رواه العوفي عن ابن عباس ، وبه قال قتادة ، والضحاك ، ومقاتل .

والثالث : أنه المُسَنَّاة ، قاله مجاهد ، وأبو ميسرة ، والفراء ، وابن قتيبة .

وقال أبو عبيدة : العَرِم : جمع عَرِمَة ، وهي : السِّكْر والمُسَنَّاة .

والرابع : أن العَرِم : الجُرَذ الذي نقب عليهم السِّكْر ، حكاه الزجاج .

وفي صفة إرسال هذا السيل عليهم قولان .

أحدهما : أن الله تعالى بَعَثَ على سِكْرِهم دابَّةً من الأرض فنقبت فيه نقباً ، فسال ذلك الماء إلى موضع غير الموضع الذي كانوا ينتفعون به ، رواه العوفي عن ابن عباس . وقال قتادة والضحاك في آخرين : بعث اللهُ عليهم جُرَذاً يسمَّى الخُلْد ـ والخُلْد : الفأر الأعمى ـ فنقبه من أسفله ، فأغرق اللهُ [به] جنَّاتهم ، وخرَّب به أرضهم .

والثاني : أنه أرسل عليهم ماءً أحمر ، أرسله في السدِّ فنسفه وهدمه وحفر الوادي ، ولم يكن الماء أحمر من السد ، وإنما كان سيلاً أُرسل عليهم ، قاله مجاهد .

قوله تعالى : (وبدَّلناهم بجنَّتيهم) يعني اللتين تُطعمان الفواكه (جنَّتين ذواتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ) قرأ ابن كثير ، ونافع ، وعاصم ، وابن عامر ، وحمزة ، والكسائي : « أُكُلٍ » بالتنوين . وقرأ أبو عمرو : « أُكُلِ » بالإضافة . وخفَّف الكاف ابن كثير ونافع ، وثقَّلها الباقون . أمَّا الأُكُل ، فهو الثمر .

وفي المراد بالخَمْط ثلاثة أقوال .

أحدها : أنه الأراك ، قاله ابن عباس ، والحسن ، ومجاهد ، والجمهور ؛ فعلى هذا ، أُكُلُه : ثمره ؛ ويسمَّى ثمر الأراك : البَرِير .

والثاني : أنه كل شجرة ذات شوك ، قاله أبو عبيدة .

والثالث : أنه كل نبت قد أخذ طعماً من المرارة حتى لا يمكن أكله ، قاله المبرِّد والزجّاج . فعلى هذا القول ، الخَمْط : اسم للمأكول ، فيَحسُن على هذا قراءة من نوَّن الأُكُل ؛ وعلى ماقبله ، هو اسم شجرة ، والأُكُل ثمرها ، فيحسُن قراءة من أضاف .

فأمَّا الأَثْل ، ففيه ثلاثة أقوال . أحدها : أنه الطَّرْفاء [١] ، قاله ابن عباس . والثاني : أنه السَّمُر [٢] ، حكاه ابن جرير . والثالث : أنه شجر يشبه الطَّرْفاء إلّا أنَّه أعظم منه .

قوله تعالى : (وشيءٍ من سِدْرٍ قليلٍ) فيه تقديم ، وتقديره : وشيء قليل من سِدْر ، وهو شجر النَّبق [٣] . والمعنى أنه كان الخَمْط والأَثْل في جنَّتيهم

---

(١) قال في « القاموس » الطرفاء : شجر ، وهي أربعة أصناف ، منها الأَثْل ، الواحدة طرفاءة وطَرَفَة ، وقال في « الصحاح » : قال سيبويه : الطرفاء واحد وجميع . قال في « اللسان » : قال أبو حنيفة (يعني الدِّينَوَري) : الطرفاء : من العضاه ، وهُدْبُه مثل هدب الأَثْل ، وليس له خشب ، وإنما يخرج عِصِيّاً سمحة في السماء ، وقد تتحمَّض بها الابل إذا لم تجد حمضاً غيره .

(٢) قال في « المصباح » : السَّمُر ، وزان رَجُل وسَبُع : شجر الطلح ، وهو نوع من العضاه ، الواحدة سَمُرة ، وبها سُمِّيَ .

(٣) قال في « المصباح » : وإذا أطلق السِّدْر في الغسل ، فالمراد : الورق المطحون ، والسدر نوعان ، أحدهما : ينبت في الأرياف فينتفَع بورقه في الغسل ، وثمرته طيبة ، والآخر ينبت في البر ولا ينتَفع بورقه في الغسل ، وثمرته عَفِصَة ، قال : وقد تقدم في حرف الزاي أن الزُّعرور ثمرة تنبت في البرّ ، وهي بهذه الصفة ، فيجوز أن يكون هو النَّبق البرّي . اهـ .

أكثر من السِّدْر . قال قتادة : بينا شجرُهم من خير الشجر ، إذ صيَّره اللهُ من شرِّ الشجر (١) .

قوله تعالى : (ذلكَ جزَيناهم) أي : ذلك التبديل جزيناهم (بما كفروا وهل نُجازي إلا الكَفُورَ) .

فإن قيل : قد يُجازى المؤمنُ والكافر ، فما معنى هذا التخصيص ؟ فمنه جوابان .

أحدهما : أن المؤمن يُجزى ولا يُجازى ، فيقال في أفصح اللغة : جزى اللهُ المؤمن ، ولا يقال : جازاه ، لأن « جازاه » بمعنى كافأه ، فالكافر يُجازى بسيِّئته مثلها ، مكافأة له ، والمؤمن يُزاد في الثواب ويُتفضَّل عليه ، هذا قول الفراء .

والثاني : أن الكافر ليست له حسنة تكفِّر ذنوبه ، فهو يُجازي بجميع الذنوب ، والمؤمن قد أحبطت حسناتُه سيِّئاته ، هذا قول الزجاج . وقال طاووس : الكافر يُجازى ولا يُغْفَر له ، والمؤمن لا يُناقَش الحسابَ (٢) .

قوله تعالى : (وجَعَلْنا بينهم) هذا معطوف على قوله تعالى : « لقد كان لسَبَأٍ » ؛ والمعنى : كان من قَصَصهم أنّا جَعَلْنا بينهم (وبين القرى التي

---

(١) قال ابن كثير : وقوله : (وشيء من سدر قليل) قال : لما كان أجود هذه الأشجار المبدل هو السدر ، قال : (وشي من سدر قليل) فهذا الذي صار أمرتَيْنك الجنتين إليه بعد الثمار النضيجة ، والمناظر الحسنة ، والظلال العميقة ، والأنهار الجارية ، تبدّلت إلى شجر الأراك والطرفاء والسدر ذي الشوك الكثير والثمر القليل ، وذلك بسبب كفرهم وشركهم بالله وتكذيبهم الحق ، وعدولهم عنه إلى الباطل .

(٢) قال السيوطي في « الدر » ٥/٢٣٣ : وأخرج عبد الرزاق ، وعبد بن حميد ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، عن طاوس (وهل نجازي إلا الكفور) قال : هو المناقشة في الحساب ، ومن نوقش الحساب عُذّب ، وهو الكافر لايغفر له .

باركنا فيها) [1] وهي : قرى الشام ؛ وقد سبق بيان معنى البَرَكة فيها [الانبياء : ٧١] ، هذا قول الجمهور . وحكى ابن السائب أن الله تعالى لمَّا أهلك جنَّتيهم قالوا للرسل : قد عرفنا نعمة الله علينا ، فلئن ردَّ إلينا ما كنَّا عليه لنَعْبُدَنَّه عبادةً شديدة ، فردَّ عليهم النِّعمة ، وجعل لهم قُرىً ظاهرة ، فعادوا إلى الفساد وقالوا : باعد بين أسفارنا ، فَمُزِّقوا .

قوله تعالى : (قُرىً ظاهرةً) أي : متواصلة ينظُر بعضها إلى بعض (وقدَّرْنا فيها السَّير) فيه قولان .

أحدهما : أنهم كانوا يَغْدون فيَقِيلون في قرية ، ويَرُوحون فيَبِيتون في قرية ، قاله الحسن ، وقتادة .

والثاني : أنه جعل ما بين القرية والقرية مقداراً واحداً ، قاله ابن قتيبة .

قوله تعالى : (سِيروا فيها) والمعنى : وقلنا لهم : سيروا فيها (لياليَ وأيَّاماً) أي : ليلاً ونهاراً (آمنين) من مخاوف السفر من جوع أو عطش أو سَبُع أو تعب . وكانوا يسيرون أربعة أشهر في أمان ، فبَطِروا النِّعمة وملّوها كما ملّ بنو إسرائيل المَنَّ والسَّلوى (فقالوا ربَّنا بَعِّدْ بين أسفارنا) قرأ ابن كثير ، وأبو عمرو : « بَعِّد » بتشديد العين وكسرها . وقرأ نافع ، وعاصم ، وحمزة : « باعِدْ » بألف وكسر العين . وعن ابن عباس كالقراءتين . قال ابن عباس : إنهم قالوا : لو كانت جنَّاتنا أبعد ممَّا هي ، كان أجْدَرَ أن يُشتهى جَنَاها . قال أبو سليمان الدمشقي : لمَّا ذكَّرتهم الرُّسلُ نِعَمَ الله ، أنكروا أن يكون ما هم فيه نعمة ،

---

(١) قال ابن كثير : يذكر تعالى ما كانوا فيه من النعمة والغبطة والعيش الهنيء الرغيد والبلاد الرَّخيَّة ، والأماكن الآمنة ، والقرى المتواصلة المتقاربة بعضها من بعض مع كثرة أشجارها وزروعها وثمارها ، بحيث أن مسافرهم لايحتاج إلى حمل زاد ولا ماء ، بل حيث نزل وجد ماءً وثمراً ، ويقيل في قرية ويبيت في أخرى بمقدار مايحتاجون إليه في سيرهم . اهـ .

وسألوا الله أن يُباعِد بين أسفارهم . وقرأ يعقوب : [« ربُّنـا » برفع الباء] « باعَدَ » بفتح العين والدال، جعله فعلاً ماضياً على طريق الإخبار للناس بما أنزله الله عز وجل بهم . وقرأ عليّ بن أبي طالب ، وأبو عبد الرحمن [السلمي] ، وأبو رجاء ، وابن السميفع ، وابن أبي عبلة : « بَعُدَ » برفع العين وتخفيفها وفتح الدال من غير ألف ، على طريق الشِّكاية إلى الله عز وجل . وقرأ عاصم الجحدري ، وأبو عمران الجوني : « بُوعِدَ » برفع الباء وبواو ساكنة مع كسر العين .

قوله تعالى : (وظَلَمُوا أنفُسَهم) فيه قولان . أحدهما : بالكفر وتكذيب الرُّسل . والثاني : بقولهم : « بَعِّدْ بين أسفارنا » .

(فجعلْناهم أحاديث) لمن بعدهم يتحدَّثون بما فُعل بهم (ومزَّقْناهم كلَّ مُمزَّق) أي : فرَّقْناهم في كل وجه من البلاد كلَّ التفريق ، لأنَّ الله لمَّا غرَّق مكانهم وأذهب جنَّتَيْهم تبدَّدوا في البلاد ، فصارت العرب تتمثل في الفُرقة بسبأٍ [١] (إنَّ في ذلك) أي : فيما فُعِل بهم (لآياتٍ) أي : لَعِبَراً (لكلِّ صبَّار) عن معاصي الله (شكورٍ) لِنِعَمه [٢] .

قوله تعالى : (ولقد صدَّق عليهم إبليسُ ظنَّه) « عليهم » بمعنى « فيهم » ،

(١) قال ابن كثير : أي : جعلناهم حديثاً للناس ، وسمراً يتحدثون به من خبرهم ، وكيف مكر الله بهم وفرّق شملهم بعد الاجتماع والألفة والعيش الهنيء ، تفرقوا في البلاد هاهنا وهاهنا ، قال : ولهذا تقول العرب في القوم إذا تفرقوا : تفرقوا أيدي سبأ ، وأيادي سبأ ، وتفرقوا شذر مذر . اهـ .

(٢) قال ابن كثير : وقوله تعالى : (إن في ذلك لآيات لكل صبَّار شكور) أي : إن في هذا الذي حلَّ بهؤلاء من النقمة والعذاب وتبديل النعمة وتحويل العافية عقوبة على ما ارتكبوه من الكفر والآثام ، لعبرة ودلالة لكل عبدٍ صبَّار على المصائب ، شكور على النعم . اهـ . وروى مسلم في « صحيحه » : ٤/٢٢٩٥ عن صهيب رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « عجباً لأمر المؤمن ، إن أمره كلَّه خير ، وليس ذلك لأحدٍ إلا للمؤمن ، إن أصابته سراءُ شكر فكان خيراً له ، وإن أصابته ضراءُ صبر فكان خيراً له » .

وصدْقه في ظنه أنَّه ظنَّ بهم أنَّهم يتَّبعونه إذ أغواهم ، فوجدهم كذلك . وإنما قال : (ولأُضلَّنَّهم ولأُمنِّينَّهم) [النساء : ١١٩] بالظنِّ ، لا بالعِلْم ، فمن قرأ : « صدَّق » بتشديد الدال ، فالمعنى : حقَّق ما ظنَّه فيهم بما فعل بهم ؛ ومن قرأ بالتخفيف ، فالمعنى : صدَق عليهم في ظنِّه بهم [١] .

وفي المشار إليهم قولان .

أحدهما : أنهم أهل سبأ . والثاني : سائر المطيعين لإبليس .

قوله تعالى : (وما كان له عليهم من سُلطان) قد شرحناه في قوله : (ليس لكَ عليهم سُلطان) [الحجر : ٤٢] . قال الحسن : واللهِ ما ضربهم بعصاً ولاقهرهم على شيء ، إلاَّ أنه دعاهم إلى الأماني والغرور .

قوله تعالى : (إلاَّ لِنَعْلَمَ) أي : ما كان تسليطنا إيَّاه إلاَّ لِنَعْلَم المؤمنين من الشاكِّين . وقرأ الزهري : « إلاَّ لِيُعْلَمَ » بياء مرفوعة على ما لم يُسمَّ فاعله . وقرأ ابن يعمر : « لِيَعْلَمَ » بفتح الياء .

وفي المراد بعِلْمه هاهنا ثلاثة أقوال قد شرحناها في أول (العنكبوت : ٣) .

(وربُّكَ على كل شيء) من الشكِّ والإيمان (حفيظ) ، وقال ابن قتيبة : والحفيظ بمعنى الحافظ . قال الخطَّابي : وهو فَعيل بمعنى فاعل ، كالقدير ، والعليم ، فهو يحفظ السموات والأرض بما فيهما لتبقى مدَّة بقائها ، ويحفظ عباده من

---

(١) قال ابن كثير : لما ذكر الله تعالى قصة سبأ وما كان من أمرهم في اتِّباعهم الهوى والشيطان ، أخبر عنهم وعن أمثالهم ممن اتَّبع إبليس والهوى وخالف الرشاد والهدى ، فقال : (ولقد صدَّق عليهم إبليس ظنه) قال : قال ابن عباس رضي الله عنهما وغيره : هذه الآية كقوله تعالى اخباراً عن إبليس حين امتنع من السجود لآدم عليه الصلاة والسلام ، ثم قال : (أرأيتَك هذا الذي كرَّمتَ عليَّ لئن أخرتن إلى يوم القيامة لاحتنكنَّ ذريته إلا قليلاً) ، وقال : (ثم لآتينَّهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم ولا تجد أكثرهم شاكرين) ، قال : والآيات في هذا كثيرة . اهـ .

المَهالك ، ويحفظ عليهم أعمالهم ، ويعلم نيَّاتِهم ، ويحفظ أولياءه عن مواقعة الذّنوب ، ويحرُسهم من مكايد الشيطان .

﴿ قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمٰوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ . وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ حَتَّى إِذَا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ﴾

قوله تعالى : (قُلِ ادْعُوا الذين زعمتم) المعنى : قل للكفار : ادعوا الذين زعمتم أنهم آلهةٌ لِيُنْعِموا عليكم بنِعْمة ، أو يكشفوا عنكم بليَّة . ثم أخبر عنهم فقال : (لا يَمْلِكون مثقال ذرَّة في السَّموات ولا في الأرض) أي : من خير وشرّ ونفع وضُرّ (وما لهم فيهما من شِرْكٍ) لم يشاركونا في شيء من خلقهما ، (وماله) أي : وما لله (منهم) أي : من الآلهة (من ظَهير) أي : من مُعين على شيء .

(ولا تَنْفَعُ الشَّفاعةُ عنده إلاّ لِمَن أذِنَ له) قرأ ابن كثير ، ونافع ، وابن عامر : « أَذِنَ له » بفتح الألف . وقرأ أبو عمرو ، وحمزة ، والكسائي ، وخلف : « أُذِنَ له » برفع الألف وعن عاصم كالقراءتين . أي : لا تنفع شفاعة مَلَك ولا نبيّ حتى يُؤْذَن له في الشفاعة [1] ، وقيل : حتى يؤذَن له فيمن يشفع . وفي هذا ردّ عليهم حين قالوا : إن هذه الآلهة تشفع لنا .

---

(١) قال ابن كثير : ثبت في « الصحيحين » من غير وجه عن رسول الله ﷺ ـ وهو سيد ولد آدم وأكبر شفيع عند الله تعالى ـ أنه حين يقوم المقامَ المحمود ليشفع في الخلق كلِّهم أن يأتيَ ربهم لفصل القضاء قال : « فأسجد لله تعالى فيدَعني ماشاء الله أن يدَعني ، ويفتح عليَّ بمحامدَ لاأحصيها الآن ، ثم يقال : يامحمد ارفع رأسك ، وقل تُسمع ، وسل تُعطه ، واشفع تُشفّع . . . » الحديث بتمامه .

(حتّى إذا فُزِّعَ عن قُلوبهم) قرأ الأكثرون : « فُزِّعَ » بضم الفاء وكسر الزاي . قال ابن قتيبة : خُفِّفَ عنها الفَزَع . وقال الزجاج : معناه : كُشِفَ الفَزَع عن قلوبهم . وقرأ ابن عامر ، ويعقوب ، وأبان : « فَزَعَ » بفتح الفاء والزاي ، والفعل لله عز وجل . وقرأ الحسن ، وقتادة ، وابن يعمر : « فرغ » بالراء غير معجمة ، وبالغين معجمة ، وهو بمعنى الأول ، لأنها فرغت من الفزع . وقال غيره : بل فرغت من الشك والشِّرْك .

وفي المشار إليهم قولان .

أحدهما : أنهم الملائكة . وقد دلّ الكلام على أنهم يفزعون لأمر يطرأ عليهم من أمر الله ، ولم يذكره في الآية ، لأن إخراج الفزع يدل على حصوله . وفي سبب فَزَعهم قولان .

أحدهما : أنهم يفزعون لسماع كلام الله تعالى . روى عبد الله بن مسعود عن رسول الله ﷺ قال : « إذا تكلَّم اللهُ بالوحي سمع أهلُ السماء صلصلةً كجرِّ السلسلة على الصفا ، فيصعقون ، فلا يزالون كذلك حتى يأتيَهم جبريل ، فاذا جاءهم جبريل فزِّع عن قلوبهم ، فيقولون : يا جبريل : ماذا قال ربُّك ؟ قال : فيقول : الحق ، فينادون : الحقّ الحقّ »[1] . وروى أبو هريرة عن النبي ﷺ أنه قال : « إذا قضى اللهُ عزّ وجل الأمرَ في السماء ضَربت الملائكةُ بأجنحتها خُضْعَاناً لقوله[2] ، كأنه سلسلة على صفوان[3] ، فاذا فزِّع عن قلوبهم قالوا : ماذا قال ربُّكم ، قالوا :

---

(١) رواه أبو داود في « سننه » رقم (٤٧٣٨) ، وأورده السيوطي في « الدر » : ٢٣٦/٥ ، وزاد نسبته لسعيد بن منصور ، وعبد بن حميد ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وأبي الشيخ في « العظمة » ، وابن مردويه ، والبيهقي عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه .

(٢) أي : تواضعاً وتخاشعاً وانقياداً لحكمه .

(٣) أي : حجر أملس .

الذي قال الحقّ [١] (وهو العليُّ الكبير) » [٢] .

والثاني : أنهم يفزعون من قيام الساعة . وفي السبب الذي ظنّوه بدنوّ الساعة ففزعوا ، قولان .

أحدهما : أنه لمَّا كانت الفترة التي بين عيسى ومحمد صلى الله عليهما وسلم ، ثم بعث اللهُ محمداً ، أنزَل اللهُ جبريل بالوحي ، فلمَّا نزل ظنَّت الملائكة أنه نزل بشيء من أمر الساعة ، فصعقوا لذلك ، فجعل جبريل يمرُّ بكل سماء ويكشف عنهم الفَزَع ويُخبرهم أنه الوحي ، قاله قتادة ، ومقاتل ، وابن السائب . وقيل : لمَّا علموا بالإيحاء إلى محمد ﷺ ، فزعوا ، لِعلمهم أنَّ ظُهوره من أشراط الساعة .

والثاني : أن الملائكة المعقِّبات الذين يختلفون إلى أهل الأرض ويكتبون أعمالهم إذا أرسلهم الله تعالى فانحدروا ، يُسمَع لهم صوتٌ شديد ، فيحسب الذين هم أسفل منهم من الملائكة أنه من أمر الساعة ، فيخرُّون سُجَّداً ، ويُصْعَقون حتى يعلموا أنه ليس من أمر الساعة ، وهذا كلَّما مرُّوا عليهم ، رواه الضحاك عن ابن مسعود .

والقول الثاني : أن الذي أُشير إليهم المشركون [٣] ؛ ثم في معنى الكلام قولان .

أحدهما : أن المعنى : حتى إذا كُشف الفزع عن قلوب المشركين عند الموت ـ إقامةً للحجة عليهم ـ قالت لهم الملائكة : ماذا قال ربُّكم في الدنيا ؟ قالوا : الحقّ ، فأقرُّوا حين لم ينفعهم الإقرار ، قاله الحسن ، وابن زيد .

---

(١) أي : الذي قال القول الحق ، وهو الله سبحانه وتعالى .

(٢) رواه البخاري في « صحيحه » ٨/٤١٤ عن أبي هريرة رضي الله عنه ، ورواه عنه أيضاً أبو داود ، والترمذي ، وابن ماجه ، وغيرهم .

(٣) وقد اختار ابن جرير الطبري القول الأول ، وهو ان الضمير عائد إلى الملائكة ، وهم المشار إليهم ، وقال ابن كثير : وهذا هو الحق الذي لا مرية فيه ، لصحة الأحاديث فيه والآثار . اهـ .

والثاني : حتى إذا كُشف الغطاء عن قلوبهم يوم القيامة ، قيل لهم : ماذا قال ربكم ؟ قاله مجاهد .

﴿ قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضِ قُلِ اللهُ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ . قُلْ لَا تُسْئَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْئَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ . قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ . قُلْ أَرُونِيَ الَّذِينَ أَلْحَقْتُمْ بِهِ شُرَكَاءَ كَلَّا بَلْ هُوَ اللهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾

قوله تعالى : (قل مَنْ يرزُقُكم مِنَ السموات) يعني المطر (والأرضِ) يعني النبات والثمر . وإنما أُمر أن يسأل الكفار عن هذا ، احتجاجاً عليهم بأن الذي يرزُق هو المستحِقّ للعبادة ، وهم لا يُثبتون رازقاً سواه ، ولهذا قيل له : (قُلِ اللهُ) لأنهم لا يُجيبون بغير هذا ؛ وهاهنا تم الكلام . ثم أمره أن يقول لهم : (وإنّا أو إيّاكم لَعَلَى هُدىً أو في ضلال مُبينٍ) مذهب المفسرين أن « أو » هاهنا بمعنى الواو . وقال أبو عبيدة : معنى الكلام : وإنّا لَعَلَى هُدى ، وإنّكم لفي ضلال مُبين[1] . وقال الفراء : معنى « أو » عند المفسرين معنى الواو ، وكذلك هو في المعنى ، غير أن العربيّة على غير ذلك ، لا تكون « أو » بمنزلة الواو ، ولكنها تكون في الأمر المفوّض ، كما تقول : إن شئت فَخُذ درهماً أو اثنين ، فله أن يأخذ واحداً أو اثنين ، وليس له أن يأخذ ثلاثة ؛ وإنما معنى الآية : وإنّا لضالّون أو مهتدون ، وإنكم أيضاً لضالّون أو مهتدون ، وهو يَعْلَمُ أن

(١) قال ابن كثير : وقوله تعالى : (وإنّا أو إياكم لعلى هدىً أو في ضلال مبين) هذا من باب اللفّ والنشر ، أي : واحد من الفريقين مبطل ، والآخر محقّ ، لاسبيل إلى أن تكونوا أنتم ونحن على الهدى أو على الضلال ، بل واحد منا مصيب ، ونحن قد أقمنا البرهان على التوحيد ، فدل على بطلان ماأنتم عليه من الشرك بالله تعالى . اهـ .

رسوله المهتدي ، وأن غيره الضالُّ ، كما تقول الرجل تكذِّبه : واللهِ إنّ أحدنا لكاذب ـ وأنت تعنيه ـ فكذَّبْتَه تكذيباً غير مكشوف ؛ ويقول الرجل : والله لقد قَدِم فلان ، فيقول له من يَعْلَم كذبه : قل : إن شاء الله ، فيكذِّبه بأحسنَ من تصريح التكذيب ؛ ومن كلام العرب أن يقولوا : قاتله الله ، ثم يستقبحونها ، فيقول : قاتَمَه الله ، ويقول بعضهم : كاتمه الله ؛ ويقولون : جوعاً ، دعاء على الرجل ، ثم يستقبحونها فيقولون : جوداً ، وبعضهم يقول : جوساً ؛ ومن ذلك قولهم : ويحك وويسك ، وإنما هي في معنى « ويلك » إلا أنها دونها .

قوله تعالى : (قل لا تُسألون عمّا أجرمنا) أي : لا تؤاخَذون به (ولا نُسألُ عمّا تَعملون) من الكفر والتكذيب ؛ والمعنى إظهار التبرّي منهم [1] . وهذه الآية عند أكثر المفسرين منسوخة بآية السيف ، ولا وجه لذلك .

قوله تعالى : (قُلْ يَجْمَعُ بيننا ربُّنا) يعني عند البعث في الآخرة (ثُمَّ يَفْتَحُ بيننا) أي يقضي (بالحقِّ) أي : بالعدل (وهو الفتّاح) القاضي (العليمُ) بما يقضي (قل) للكفار (أرونيَ الذين ألحقتم به شركاء) أي : أعلِموني من أيِّ وجه ألحقتموهم وهم لا يخلُقون ولا يرزُقون (كلّا) ردع وتنبيه ؛ والمعنى : ارتدِعوا عن هذا القول ، وتنبّهوا عن ضلالتكم ، فليس الأمر على ما أنتم عليه [2] .

---

(١) قال ابن كثير : أي : لستم منا ولا نحن منكم ، بل ندعوكم إلى الله تعالى وإلى توحيده وإفراد العبادة له ، فإن أجبتم فأنتم منا ونحن منكم ، وإن كذّبتم فنحن برآء منكم وأنتم برآء منا ، كما قال تعالى : (فإن كذبوك فقل لي عملي ولكم عملكم ، أنتم بريئون مما أعمل وأنا بريء مما تعملون) . اهـ .

(٢) قال ابن كثير في تتمة الآية : (بل هو الله) أي : الواحد الأحد الذي لا شريك له ، (العزيز الحكيم) أي : ذو العزّة الذي قد قهر بها كل شيء وغلبت كل شيء ، الحكيم في أفعاله وأقواله وشرعه وقدره ، تبارك وتعالى وتقدس عما يقولون علواً كبيراً ، والله أعلم . اهـ .

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيراً وَنَذِيراً وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ . وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ . قُلْ لَكُمْ مِيعَادُ يَوْمٍ لَا تَسْتَأْخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ ﴾

قوله تعالى : (وما أرسلناكَ إِلَّا كافَّةً للنَّاس) أي : عامَّة لجميع الخلائق . وفي الكلام تقديم ، تقديره : وما أرسلناك إِلَّا للناس كافَّةً . وقيل : معنى « كافة للناس » : تكفهم عمَّا هُم عليه من الكفر ، والهاء فيه للمبالغة [1] .

(ويقولون متى هذا الوَعْدُ) يعنون العذاب الذي يَعِدُهم به في يوم القيامة ؛ وإنما قالوا هذا ، لأنهم يُنكرون البعث ، (قُلْ لكُم ميعادُ يوم) وفيه قولان . أحدهما : أنه يوم الموت عند النَّزْع والسِّياق ، قاله الضحاك . والثاني : يوم القيامة ، قاله أبو سليمان الدمشقي .

---

(١) وهو تأويل بعيد ، وإن كان أصلها من الكفّ بمعنى المنع ، والمراد هنا أن الله تعالى أرسله إلى جميع الخلائق من المكلفين ، كقوله تعالى : (قل يأيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً) وقوله : (تبارك الذي نزّل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً) ، وروى البخاري ومسلم في « صحيحيهما » عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : « أعطيت خمساً لم يعطهن أحد قبلي ، نصرت بالرعب مسيرةَ شهر ، وجعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً فأيما رجل من أمتي أدركته الصلاة فليصل ، وأحلّت لي الغنائم ولم تحلّ لأحد قبلي ، وأعطيت الشفاعة ، وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة ، وبعثت إلى الناس عامة » .

وفي « صحيح مسلم » : « وبعثت إلى كل أحمر وأسود » ، أي : إلى الجن والانس . وهذا من جملة ماامتاز به نبينا محمد ﷺ . قال ابن عباس رضي الله عنهما : إن الله فضل محمداً ﷺ على أهل السماء وعلى الأنبياء ، قالوا : ياابن عباس ، فبم فضله على الأنبياء ؟ قال : إن الله تعالى قال : (وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه) وقال للنبي ﷺ : (وما أرسلناك إلا كافة للناس) فأرسله الله تعالى إلى الجن والانس .

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ نُؤْمِنَ بِهَٰذَا الْقُرْآنِ وَلَا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ . قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَاءَكُمْ بَلْ كُنْتُمْ مُجْرِمِينَ . وَقَالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَنْدَادًا وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الْأَغْلَالَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾

قوله تعالى : (وقال الذين كَفَروا) يعني مشركي مكّة (لن نؤمن بهذا القرآن ولا بالذي بين يديه) يعنون التوراة والإنجيل ، وذلك أن مؤمني أهل الكتاب قالوا : إنّ صفة محمد في كتابنا ، فكفر أهلُ مكّة بكتابهم .

ثم أخبر عن حالهم في القيامة فقال : (ولو ترى إذ الظالمون) يعني مشركي مكة (موقوفون عند ربّهم) في الآخرة (يَرْجِعُ بعضُهم إلى بعض القولَ) أي : يَرُدُّ بعضُهم على بعض في الجدال واللّوم (يقول الذين استُضعفوا) وهم الأتباع (الذين استكبروا) وهم الأشراف والقادة : (لولا أنتم لكُنّا مؤمنين) أي : مصدّقين بتوحيد الله ؛ والمعنى : أنتم منعتمونا عن الإيمان ؛ فأجابهم المتبوعون فقالوا : (أنحن صددناكم عن الهُدى) أي : منعناكم عن الإيمان (بعد إذ جاءكم) به الرسول؟ (بل كنتم مجرمين) بترك الإيمان - وفي هذا تنبيه للكفار على أن طاعة بعضهم لبعض في الدنيا تصير سبباً للعداوة في الآخرة - فردّ عليهم الأتباع فقالوا : (بل مَكْرُ الليلِ والنهارِ) أي : بل مكرُكم بنا في الليل والنهار . قال الفراء :

وهذا ممَّا تتوسع فيه العرب لوضوح معناه، كما يقولون : ليله قائم ، ونهاره صائم ، فتضيف الفعل إلى غير الآدميين، والمعنى لهم . وقال الأخفش : وهذا كقوله : (مِنْ قريتك التي أخرجَتْكَ) [محمد: ١٣] ، قال جرير :

لقد لُمْتِنا يا أمَّ غيلانَ في السُّرَى ونِمتِ وما ليْلُ المَطِيِّ بِنائمِ (١)

وقرأ سعيد بن جبير ، وأبو الجوزاء ، وعاصم الجحدري : « بل مَكَرَ » بفتح الكاف والراء « الليلُ والنهارُ » برفعهما . وقرأ ابن يعمر : « بل مَكْرٌ » باسكان الكاف ورفع الراء وتنوينها « الليلَ والنهارَ » بنصبهما .

قوله تعالى : (إذ تأمُرُوننا أن نكفُر بالله) وذاك أنهم كانوا يقولون لهم : إنَّ دِيننا حقٌ ومحمد كذّاب، (وأسرُّوا النَّدامة) وقد سبق بيانه في (يونس : ٥٤) .

قوله تعالى : (وجعَلْنا الأغلالَ في أعناق الذين كفَروا) إذا دخلوا جهنم غُلَّت أيديهم إلى أعناقهم ، وقالت لهم خزَنة جهنم : هل تُجزَون إلا ما كنتم تعملون في الدنيا . قال أبو عبيدة : مجاز « هل » هاهنا مجاز الإيجاب، وليس باستفهام؛ والمعنى : ماتُجزَون إلا ما كنتم تعملون .

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ . وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالاً وَأَوْلَاداً وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ . قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَلٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ . وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِنْدَنَا زُلْفَىٰ إِلَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً فَأُولٰئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ آمِنُونَ . وَالَّذِينَ

(١) ديوانه : ٥٥٤ ، و « مجاز القرآن » : ١/٢٧٩ ، و « الطبري » : ٢٢/٩٨ ، و « مجمع البيان » : ٢٢/٢١٠ .

يَسْعَوْنَ فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَٰئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ . قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴾

(وما أرسَلْنا في قرية من نذير) أي : نبيّ يُنْذِر (إلّا قالَ مُتْرَفوها) وهم أغنياؤها ورؤساؤها [1] .

قوله تعالى : (وقالوا نحن أكثرُ أموالاً وأولاداً) [2] . في المشار إليهم

---

(١) قال ابن كثير : يقول تعالى مسلياً لنبيه ﷺ وآمراً له بالتأسّي بمن قبله من الرسل ومخبره بأنه مابعث نبياً في قرية إلا كذّبه مترفوها واتّبعه ضعفاؤهم ، كما قال نوح عليه الصلاة والسلام : (أنؤمن لك واتّبعك الأرذلون) (وما نراك اتّبعك إلا الذين هم أراذلنا بادي الرأي) ، وقال الكبراء من قوم صالح : (الذين استضعفوا لمن آمن منهم أتعلمون أن صالحاً مرسَل من ربه ؟ قالوا إنا بما أرسل به مؤمنون . قال الذين استكبروا إنا بالذي آمنتم بـــه كافرون) وقال عز وجل : (وكذلك فتنا بعضهم ببعض ليقولوا أهؤلاء منّ الله عليهم من بيننا أليس الله بأعلم بالشاكرين) ، وقال تعالى : (وكذلك جعلنا في كل قرية أكابر مجرميها ليمكروا فيها) وقال جل وعلا : (وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميراً) وقال جل وعلا هاهنا : (وما أرسلنا في قرية من نذير) أي : نبي أو رسول (إلا قال مترفوها) وهم أولو النعمة والحشمة والثروة والرياسة - قال قتادة : هم جبابرتهم وقادتهم ورؤوسهم في الشر - : (إنا بما أرسلتم به كافرون) أي : لانؤمن به ولا نتّبعه . اهـ .

(٢) قال ابن كثير : افتخروا بكثرة الأموال والأولاد ، واعتقدوا أن ذلك دليل على محبة الله تعالى لهم ، واعتنائه بهـــم ، وأنه ماكان ليعطيَهم هذا في الدنيا ثم يعذبهم في الآخرة ، وهيهات لهم ذلك ، قال الله تعالى : (أيحسبون أنما نمدّهم به من مال وبنـــين نسارع لهم في الخيرات بل لايشعرون) ، وقال تبارك وتعالى : (فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم إنما يريد الله ليعذبهم بها في الحياة الدنيا وتزهق أنفسهم وهم كافرون) وقال عز وجل : (ذرني ومن خلقت وحيداً ، وجعلت له مالاً ممدوداً ، وبنين شهوداً ، ومهدت له تمهيداً ، ثم يطمع أن أزيد ، كلا إنه كان لآياتنا عنيداً ، سأرهقه صعوداً) وقد أخبر الله عز وجل عن صاحب تينْك الجنتين أنه كان ـــ

قولان . أحدهما : أنهم المُتْرَفون من كل أُمَّة . والثاني : مشركو مكة ، فظنوا من جهلهم أن الله خوَّلهم المال والولد لكرامتهم عليه ، فقالوا : (وما نحن بمعذَّبين) لأن الله أحسن إلينا بما أعطانا فلا يعذِّبنا ، فأخبر أنه (يبسُط الرِّزق لمن يشاء ويَقْدِر) ؛ والمعنى أنَّ بَسْطَ الرِّزق وتضييقه ابتلاء وامتحان ، لا أنَّ البَسْطَ يدلُّ على رضى الله ، ولا التضييق يدل على سخطه (ولكنَّ أكثر الناس لايعلمون) ذلك . ثم صرح بهذا المعنى بقوله : (وما أموالُكم ولا أولادُكم بالَّتي تقرِّبُكم عندنا زُلْفى) قال الفراء : يصلُح أن تقع « التي » على الأموال والأولاد جميعاً ، لأن الأموال جمع والأولاد جمع ؛ وإن شئتَ وجَّهتَ « التي » إلى الأموال ، واكتفيتَ بها من ذِكْر الأولاد ؛ وأنشد لمرّار الأسدي :

نَحْنُ بِمَا عِنْدَنَا وأَنْتَ بِمَا عِنْدَكَ رَاضٍ والرَّأْيُ مُخْتَلِفُ (١)

وقد شرحنا هذا في قوله : (ولا يُنْفِقونها في سبيل الله) [التوبة : ٣٤] وقال الزجاج : المعنى : وما أموالكم بالتي تقرِّبكم ، ولا أولادكم بالذين يقرِّبونكم ، فحُذف اختصاراً . وقرأ أُبيُّ بن كعب ، والحسن ، وأبو الجوزاء : « باللاتي تقرِّبكم » . قال الأخفش : و « زُلْفى » هاهنا اسم مصدر ، كأنه قال : تقرِّبكم عندنا ازْدِلافاً (٢) . وقال ابن قتيبة : « زُلْفى » أي : قُرْبى ومَنْزِلةً عِندنا (٣) .

ـــ ذا مال وثمر وولد ثم لم يغن عنه شيئاً ، بل سُلِبَ ذلك كلُّه في الدنيا قبل الآخرة ، ولهذا قال عز وجل هاهنا : (قل إن ربي يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر) أي : يعطي المال لمن يحب ومن لايحب ، فيفقر من يشاء ، ويغني من يشاء ، وله الحكمة التامة البالغة ، والحجة القاطعة الدامغة ، (ولكن أكثر الناس لايعلمون) . اهـ .

(١) سبق تخريج البيت في الجزء ٣ ص ٤٢٩ ، وهو أيضاً في « الطبري » : ١٠/١٢٢ ، و « القرطبي » : ٨/١٢٧ .

(٢) في الأصل : إزلافاً ، وما أثبتناه من « الصحاح » ، و « اللسان » و « التاج » : زلف .

(٣) روى مسلم في « صحيحه » : ٤/١٩٨٧ عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « إن الله لاينظر إلى صوركم وأموالكم ، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم » .

قوله تعالى : (إِلَّا مَنْ آمَنَ) قال الزجاج : المعنى : ماتقرِّبُ الأموالُ إلا من آمن وعمل بها في طاعة الله ، (فأولئك لهم جزاءُ الضِّعف) والمراد به هاهنا عشر حسنات ، تأويله : لهم جزاءُ الضِّعف الذي قد أعلمتُكم مقداره . وقال ابن قتيبة : لم يُرِدْ فيما يَرى أهلُ النظر - والله أعلم - أنهم يُجازَون بواحدٍ مثله ، ولا اثنين ، ولكنه أراد جزاء التضعيف ، وهو مِثْل يُضَمّ إلى مِثْلٍ مابلَغ ، وكأنَّ الضِّعفَ الزيادةُ ، فالمعنى : لهم جزاءُ الزيادة . وقرأ سعيد بن جبير ، وأبو المتوكل ، ورويس ، وزيد عن يعقوب : « لهم جزاءً » بالنصب والتنوين وكسر التنوين وصلاً « الضِّعفُ » بالرفع . وقرأ أبو الجوزاء ، وقتادة ، وأبو عمران الجوني : « لهم جزاءٌ » بالرفع والتنوين « الضِّعفُ » بالرفع .

قوله تعالى : (وهم في الغُرُفات) يعني [في] غُرَف الجنة ، وهي البيوت فوق الأبنية . وقرأ حمزة : « في الغُرْفة » على التوحيد ؛ أراد اسم الجنس . وقرأ الحسن ، وأبو المتوكل : « في الغُرْفات » بضم الغين وسكون الراء مع الألف . وقرأ أبو الجوزاء ، وابن يعمر : بضم الغين وفتح الراء مع الألف (آمنون) من الموت والغير . وما بعد هذا قد تقدم تفسيره [الحج : ٥١ ، الرعد : ٢٦] إلى قوله : (وما أنفقتم من شيء فهو يُخلِفُه) أي : يأتي ببدله ، يقال : أخلف اللهُ له وعليه : إذا أبدل ماذهب عنه . وفي معنى الكلام أربعة أقوال .

أحدها : ما أنفقتم من غير إسراف ولا تقتير فهو يُخلِفُه ، قاله سعيد بن جبير .

والثاني : ما أنفقتم في طاعته ، فهو يخلفه في الآخرة بالأجر ، قاله السدي .

والثالث : ما أنفقتم في الخير والبِرِّ فهو يُخلِفه ، إمَّا أن يعجِّلَه في الدنيا ، أو يدَّخرَه لكم في الآخرة ، قاله ابن السائب .

والرابع : أن الإنسان قد يُنفق ماله في الخير ولا يرى له خَلَفاً أبداً؛ وإنما معنى الآية : ما كان من خَلَف فهو منه ، ذكره الثعلبي [١] .

قوله تعالى : (وهو خير الرَّازِقِين) لمَّا دار على الألسن أن السلطان يرزُق الجند ، وفلان يرزق عياله ، أي : يعطيهم ، أخبر أنه خير المُعْطِين .

﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَـٰئِكَةِ أَهَـٰؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ . قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِيُّنَا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ . فَالْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَفْعاً وَلَا ضَرّاً وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ . وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَـٰذَا إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَنْ يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُكُمْ وَقَالُوا مَا هَـٰذَا إِلَّا إِفْكٌ مُفْتَرًى وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ إِنْ هَـٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ . وَمَا آتَيْنَاهُمْ مِنْ كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا وَمَا أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِنْ نَذِيرٍ . وَكَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَغُوا مِعْشَارَ مَا آتَيْنَاهُمْ فَكَذَّبُوا رُسُلِي فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴾

---

(١) قال ابن كثير : (وما أنفقتم من شيء فهو يخلفه) أي : مهما أنفقتم من شيء فيما أمركم به وأباحه لكم ، فهو يخلفه عليكم في الدنيا بالبدل ، وفي الآخرة بالجزاء والثواب . اهـ . وروى البخاري ومسلم في « صحيحيهما » عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ : قال : « قال الله تعالى : يابن آدم أنْفِقْ أُنْفِقْ عليك » ، وروى البخاري ومسلم أيضاً في « صحيحيهما » عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ ، « ما من يوم يصبح العباد فيه إلا ملكان ينزلان ، فيقول أحدهما : اللهم أعط منفقاً خلفاً ، ويقول الآخر : اللهم أعط ممسكاً تلفاً » . وروى أبو يعلى ، والطبراني في « الكبير » و « الأوسط » بإسناد حسن ، عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : « أنفق يابلال ولا تخش من ذي العرش إقلالاً » .

قوله تعالى : (ويوم يحشُرُهم جميعاً) يعني المشركين ؛ وقال مقاتل : يعني الملائكة ومَنْ عَبَدها (ثُمَّ يقولُ للملائكة أهؤلاء إيّاكم كانوا يعبُدونَ)[١] وهذا استفهام تقرير وتوبيخ للعابدين ؛ فنزّهت الملائكةُ ربَّها عن الشِّرك ف (قالوا سبحانك) أي : تنزيهاً لك مما أضافوه إليك من الشركاء (أنت وليُّنا مِنْ دونهم) أي : نحن نتبرّأ إليك منهم ، مانولّيناهم ولا اتّخذناهم عابدين ، ولسنا نريد وليّاً غيرك (بل كانوا يعبُدون الجِنّ) أي : يُطيعون الشياطين في عبادتهم إيّانا (أكثرُهم بهم) أي : بالشياطين (مُؤْمِنون) أي : مصدّقون لهم فيما يُخبرونهم من الكذب أن الملائكةَ بناتُ الله ، فيقول الله تعالى : (فاليومَ) يعني في الآخرة (لايملكُ بعضُكم لبعض) يعني العابدين والمعبودين (نَفْعاً) بالشفاعة (ولا ضَرّاً) بالتعذيب (ونقولُ للّذين ظَلَموا) فعبدوا غير الله (ذُوقوا عذاب النّار . . .) الآية .

ثم أخبر أنهم يكذّبون محمداً والقرآن بالآية التي تلي هذه ، وتفسيرها ظاهر[٢] .

ثم أخبر أنهم لم يقولوا ذلك عن بيّنة ، ولم يكذّبوا محمداً عن يقين ، ولم يأتهم قبله كتاب ولا نبيّ يخبرهم بفساد أمره ، فقال : (وما آتيناهم من كُتُب يدرُسونها) قال قتادة : ما أنزل الله على العرب كتاباً قبل القرآن

(١) قال ابن كثير : يخبر تعالى أنه يقرّع المشركين يوم القيامة على رؤوس الخلائق فيسأل الملائكة الذين كان المشركون يزعمون أنهم يعبدون الأنداد التي هي على صورهم ليقربوهم إلى الله زلفى ، فيقول للملائكة : (أهؤلاء إياكم كانوا يعبدون) أي : أنتم أمرتم هؤلاء بعبادتكم ، كما قال تعالى في سورة (الفرقان) : (أأنتم أضللتم عبادي هؤلاء أم هم ضلوا السبيل) وكما يقول لعيسى عليه الصلاة والسلام : (أأنت قلت للناس اتخذوني وأميَ إلَهين من دون الله قال سبحانك مايكون لي أن أقول ماليس لي بحق) ، وهكذا تقول الملائكة : « سبحانك » أي : تعاليت وتقدست أن يكون معك إله . اهـ .

(٢) وهي قوله تعالى : (وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات قالوا ماهذا إلا رجل يريد أن يصدّكم عما كان يعبد آباؤكم وقالوا ماهذا إلا إفك مفترى وقال الذين كفروا للحق لما جاءهم إنْ هذا إلاّ سحر مبين) .

ولا بعث إليهم نبياً قبل محمد ؛ وهذا محمول على الذين أنذرهم نبيُّنا [محمد] ﷺ ؛ وقد كان إسماعيل نذيراً للعرب .

ثم أخبر عن عاقبة المكذِّبين قبلهم مخوِّفاً لهم ، فقال : (وكذَّب الذين مِنْ قبلهم) يعني الأُمم الكافرة (وما بَلَغوا معشار ما آتيناهم) وفيه ثلاثة أقوال .

أحدها : مابلغ كفار مكة معشار ما آتينا الأُمم التي كانت قبلهم من القوَّة والمال وطول العمر ، قاله الجمهور .

والثاني : مابلغ الذين من قبلهم معشار ما أعطينا هؤلاء من الحُجَّة والبرهان .

والثالث : مابلغ الذين من قبلهم معشار شكر ما أعطيناهم ، حكاهما الماوردي .

والمِعشار : العُشر . والنَّكير : اسم بمعنى الإنكار . قال الزجاج : والمعنى : فكيف كان نكيري ؛ وإنما حُذفت الياءُ ، لأنَّه آخر آية .

﴿ قُلْ إنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلهِ مَثنَى وَفُرَادَى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ إنْ هُوَ إلَّا نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ . قُلْ مَاسَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إنْ أَجْرِيَ إلَّا عَلَى اللهِ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ . قُلْ إنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَّامُ الْغُيُوبِ . قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِىءُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ . قُلْ إنْ ضَلَلْتُ فَإنَّمَا أَضِلُّ عَلَى نَفْسِي وَإنِ اهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِي إلَيَّ رَبِّي إنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ ﴾

قوله تعالى : (قُلْ إنَّما أَعِظُكم) أي : آمُرُكم وأُوصيكم (بواحدة) وفيها ثلاثة أقوال .

أحدها : أنها « لا إله إلا الله » ، رواه ليث عن مجاهد .

والثاني : طاعة الله ، رواه ابن أبي نجيح عن مجاهد .

والثالث : أنها قوله : (أَنْ تَقُوموا لله مثنى وفُرادى) ، قاله قتادة .

والمعنى : أن التي أَعِظُكم بها ، قيامُكم وتشميركم لطلب الحق ، وليس بالقيام على الأقدام [(١)] . والمراد بقوله : « مثنى » أي : يجتمع اثنان فيتناظران في أمر رسول الله ﷺ . والمراد بـ « فُرادى » : أن يتفكَّر الرجل وحده ، ومعنى الكلام : لِيتفكرِ الإنسانُ منكم وحده ، ولْيَخْلُ بغيره ، ولْيُناظِر ، ولْيَسْتَشِر ، فَيَسْتَدِلَّ بالمصنوعات على صانعها ، ويُصدِّق الرسول على اتّباعه ، ولْيَقُل الرجلُ لصاحبه : هَلُمَّ فلْنَتَصادق هل رأينا بهذا الرجل جِنَّة قَطّ ، أو جرَّبْنا عليه كَذِباً قَطّ . وتم الكلام عند قوله : (ثم تتفكَّروا ما بصاحبكم من جِنَّة) ، وفيه اختصار تقديره : ثم تتفكَّروا لتعلموا صِحَّة ما أمرتُكم به وأنَّ الرسول ليس بمجنون ، (إنْ هو إلاّ نذير لكم بين يَدَيْ عذابٍ شديدٍ) في الآخرة [(٢)] .

قوله تعالى : (قل ما سألتُكم مِنْ أجْر) على تبليغ الرسالة (فَهُو لكم)

---

(١) قال ابن كثير : يقول الله تبارك وتعالى : قل يامحمد لهؤلاء الكافرين الزاعمين أنك مجنون : (إنما أعظكم بواحدة) أي : إنما آمركم بواحدة ، وهي (أن تقوموا لله مثنى وفرادى ثم تتفكروا مابصاحبكم من جنة) أي : تقوموا قياماً خالصاً لله عز وجل من غير هوى ولا عصبية فيسأل بعضكم بعضاً : هل بمحمد من جنون ؟ فينصح بعضكم بعضاً .

(٢) روى البخاري في « صحيحه » : ٨/٤١٥ عن ابن عباس رضي الله عنها قال : صَعِد النبي ﷺ الصفا ذات يوم فقال : « ياصباحاه » فاجتمعت إليه قريش ، قالوا : مالك ؟ قال : « أرأيتم لو أخبرتُكم أن العدوّ يصبّحكم أو يمسّيكم أما كنتم تصدقوني ؟ » قالوا : بلى ، قال : « فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد » فقال أبو لهب : تبّاً لك ألهذا جمعتنا ، فأنزل الله : (تبَّت يدا أبي لهب) .

والمعنى : ما أسألكم شيئاً؛ ومثله قول القائل : مالي في هذا فقد وهبتُه لك، يريد : ليس لي فيه شيء [١] .

قوله تعالى : (قُلْ إنَّ ربِّي يَقْذِفُ بالحقِّ) أي : يُلقي الوحي إلى أنبيائه (عَلاَّمُ الغُيوبِ) وقرأ أبو رجاء : « عَلاَّمَ » بنصب الميم .

(قُلْ جاء الحقُّ) وهو الإسلام والقرآن .

وفي المراد بالباطل ثلاثة أقوال .

أحدها : أنه الشيطان ، لا يخلُق أحداً ولا يبعثُه ، قاله قتادة [٢] .

والثاني : أنه الأصنام ، لا تُبدىء خَلْقاً ولا تُحيي ، قاله الضحاك . وقال أبو سليمان : لا يبتدىء الصنم من عنده كلاماً فيُجاب ، ولا يرُدُّ ما جاء من الحق بحُجَّة .

والثالث : أنه الباطل الذي يُضادُّ الحق ؛ فالمعنى : ذهب الباطل بمجيء الحقِّ ، فلم تَبْقَ منه بقيَّة يُقبِل بها أو يُدبِر أو يُبدىء أو يعيد ، ذكره جماعة من المفسرين .

قوله تعالى : (قُلْ إنْ ضَلَلْتُ فانَّما أَضِلُّ على نفسي) أي : إثم ضلالتي

---

(١) قال ابن جرير الطبري : يقول تعالى ذِكره : قل يا محمد لقومك المكذبيك الرادّين عليك ما أتيتَهم به من عند ربك : ما أسألكم من جُعل على إنذاريكم عذاب الله وتخويفكم به بأسه ، ونصيحتي لكم في أمري إياكم بالايمان بالله والعمل بطاعته ، فهو لكم لاحاجة لي به ، قال : وإنما معنى الكلام : قل لهم : إني لم أسألكم على ذلك جُعلاً فتتَّهموني وتظنوا أني إنما دعوتكم إلى اتّباعي لمال آخذه منكم . اهـ .

(٢) قال ابن كثير : وزعم قتادة والسدي أن المراد بالباطل هاهنا : إبليس ، أي : إنه لايخلق أحداً ولا يعيده ولا يقدر على ذلك ، قال : وهذا وإن كان حقاً ، ولكن ليس هو المراد هاهنا ، والله أعلم . اهـ .

على نفسي ، وذلك أنَّ كُفَّار مكَّة زعموا أنه قد ضَلَّ حين ترك دين آبائه (وإنِ اهتَديتُ فَبِما يوحي إليَّ ربِّي) من الحكمة والبيان .

﴿ وَلَوْ تَرىٰ إذْ فَزِعُوا فَلاَ فَوْتَ وَأُخِذُوا مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ . وَقَالُوا آمَنَّا بِهِ وَأَنَّى لَهُمُ التَّنَاوُشُ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ . وَقَدْ كَفَرُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ وَيَقْذِفُونَ بِالْغَيْبِ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ . وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وبَيْنَ مَايَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِمْ مِنْ قَبْلُ إنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُرِيبٍ ﴾

قوله تعالى : (ولو تَرى إذْ فَزِعوا) في زمان هذا الفزع قولان .

أحدها : أنه حين البعث من القبور ، قاله الأكثرون .

والثاني : أنه عند ظهور العذاب في الدنيا ، رواه العوفي عن ابن عباس ، وبه قال قتادة . وقال سعيد بن جبير : هو الجيش الذي يُخسف به بالبيداء ، يبقى منهم رجل فيخبر الناس بما لقُوا [1] ، وهذا حديث مشروح في التفسير ، وأن هذا الجيش يؤمُّ البيت الحرام لتخريبه ، فيُخسف بهم [2] . وقال الضحاك وزيد ابن أسلم : هذه الآية فيمن قُتل يوم بدر من المشركين .

---

(١) « الطبري » : ١٠٧/٢٢ .

(٢) ذكر الطبري عند تفسير هذه الآية ١٠٧/٢٢ حديثاً طويلاً عجيباً لايصح ، عن الجيش الذي يخسف به ، ونصه بتمامه : حدثنا عصام بن روَّاد بن الجراح ، قال : ثنا أبي ، قال : ثنا سفيان بن سعيد ، قال : ثني منصور بن المعتمر ، عن ربعيّ بن حِراش ، قال : سمعت حذيفة بن اليمان يقول : قال رسول الله ﷺ ، وذكر فتنة تكون بين أهل المشرق والمغرب ، قال : فبينما هم كذلك ، إذ خرج عليهم السفيانيُّ من الوادي اليابس في فَوْره ذلك حتى ينزل دمشق ، فيبعث جيشين ، جيشاً إلى المشرق ، وجيشاً إلى المدينة ، حتى ينزلوا بأرض « بابل » في المدينة الملعونة ، والبقعة الخبيثة ، فيقتلون أكثر من ثلاثة آلاف ، ويَبْقَرُون بها أكثر —

. . . .

ـــ من مائة امرأة ، ويقتلون بها ثلاثمائة كبش من بني العباس ، ثم ينحدرون إلى الكوفة فيخرّبون ماحولهـا ، ثم يخرجون متوجهين إلى الشأم ، فتخرج راية من الكوفة ، فتلحق ذلك الجيش منها على الفئتين فيقتلونهم لايفلت منهم مخبر ، ويستنقذون مافي أيديهم من السّبي والغنـــائم ، ويخلّي جيشه التالي بالمدينة فينتهبونها ثلاثة أيام ولياليها ، ثم يخرجون متوجهين إلى مكة ، حتى إذا كانوا بالبيداء ، بعث الله جبريل فيقول : ياجبرائيل اذهب فأبِدْهُم ، فيضربها برجله ضربة يخسف الله بهم ، فذلك قوله في سورة (سبأ) : (ولو ترى إذ فزعوا فلا فوت ...) الآية ، ولا ينفلت منهم إلا رجلان ، أحدهما بشير ، والآخر نذير ، وهما من جهينة ، فلذلك جاء القول : « وعند جهينة الخبر اليقين » . اهـ . قال ابن كثير عند تفسير هذه الآية : وحكى ابن جرير عن بعضهم قال : إن المراد بذلك جيش يخسف بهم بين مكة والمدينة في أيام بني العباس رضي الله عنهم ، قال : ثم أورد في ذلك حديثاً موضوعاً بالكلية (يريد هذا الحديث) ، قال : ثم لم ينبّه على ذلك ، وهذا أمر عجيب غريب منه . اهـ . ولكن قال الطبري بعد هذه الرواية : حدثنـــا محمد بن خلف العسقلاني ، قال : سألت روّاد بن الجراح عن الحـديث الذي حدث به عنه عن سفيان الثوري عن منصور عن ربعي عن حذيفة عن النبي ﷺ ، عن قصة ذكرها في الفتن ، قال : فقلت له : أخبرني عن هذا الحديث ، سمعتَه من سفيـان الثوري ؟ قال : لا ، قلتُ : فقرأتَه عليه ؟ قال : لا ، قلتُ : فقرىء عليه وأنت حاضر ؟ قال : لا ، قلتُ : فما قصته ؟ فما خبره ؟ قال : جاءني قوم فقالوا : معنا حديث عجيب ، أو كلام هذا معناه ، نقرؤه وتسمعه ، قلت لهم : هاتوه ، فقرؤوه عليّ ثم ذهبوا فحدّثوا به عني ، أو كلام هذا معناه . اهـ . فهذا يدل على أن الطبري نفسه يراه غريباً .

وقد روى البخاري في « صحيحه » : ٤/٢٨٤ حديث الجيش الذي يغزو الكعبة فيخسف به : عن عائشة رضي الله عنها قالت : قال رسول الله ﷺ : « يغزو جيشٌ الكعبة ، فإذا كانوا ببيداء من الأرض (مكان معروف بين مكة والمدينة) يخسف بأولهم وآخرهم » ، قالت : قلت : يارسول الله كيف يخسف بأولهم وآخرهم وفيهم أسواقهم ومن ليس منهم ؟ قال : « يخسف بأولهم وآخرهم ثم يُبعثون على نياتهم » ، ولكن لاعلاقة لهذا الحديث بتفسير هذه الآية ، ولذلك قال ابن كثير : والصحيح أن المراد بذلك (أي بوقت الفزع) : يوم القيامة ، وهو الطامة العظمى . اهـ .

قوله تعالى : (فلا فَوْتَ) المعنى : فلا فَوْتَ لهم ، أي : لا يُمكنهم أن يفوتونا (وأُخِذوا من مكان قريب) فيه ثلاثة أقوال .

أحدها : من مكانهم يوم بدر ، قاله زيد بن أسلم . والثاني : من تحت أقدامهم بالخسف ، قاله مقاتل . والثالث : من القبور ، قاله ابن قتيبة . وأين كانوا ، فهُم من الله قريب .

قوله تعالى : (وقالوا) أي : حين عاينوا العذاب (آمَنَّا به) في هاء الكناية أربعة أقوال .

أحدها : أنها تعود إلى الله عز وجل ، قاله مجاهد . والثاني : إلى البعث ، قاله الحسن . والثالث : إلى الرسول ، قاله قتادة ، والرابع : إلى القرآن ، قاله مقاتل .

قوله تعالى : (وأنَّى لهم التَّنَاوُشُ) قرأ ابن كثير ، ونافع ، وابن عامر ، وحفص عن عاصم : « التَّنَاوُشُ » غير مهموز . وقرأ أبو عمرو ، وحمزة ، والكسائي ، والمفضل عن عاصم : بالهمز . قال الفراء : من همز جعله من « نأشْتُ » ، ومن لم يهمز ، جعله من « نُشْتُ » ، وهما متقاربان ؛ والمعنى : تناولتُ الشيء ، بمنزلة : ذِمْتُ الشيءَ وذأمْتُه : إذا عِبْتَه ؛ وقد تناوش القومُ في القتال : إذا تناول بعضُهم بعضاً بالرِّماح ، ولم يتدانَوا كُلَّ التداني ، وقد يجوز همز « التَّنَاؤش » وهي من « نُشْتُ » لانضمام الواو ، مثل قوله : (وإذا الرُّسُل أُقِّتَتْ) [المرسلات : ١١] . وقال الزجّاج : من همز « التَّنَاؤش » فلأنّ واو التَّنَاوُش مضمومة ، وكُلُّ واو مضمومة ضمَّتُها لازمة ، إن شئتَ أبدلت منها همزة ، وإن شئتَ لم تبدل ، نحو : أدؤر [1] . وقال ابن قتيبة : معنى الآية : وأنَّى لهم

---

(١) قال في « الصحاح » مادة « دور » : الدار مؤنثة ، وأدنى العدد : أدْؤُرٌ ، فالهمزة فيه مُبْدَلة من واو مضمومة ، ولك أن لاتهمز .

التَّناوُشُ لِمَا أرادوا بلوغَه وإدراكُ ما طلبوا من التَّوبة (من مكانٍ بعيدٍ) وهو الموضع الذي تُقبَل فيه التوبةُ . وكذلك قال المفسرون : أنَّى لهم بتناول الإيمان والتوبة وقد تركوا ذلك في الدنيا والدنيا قد ذهبت ؟!

قوله تعالى : (وقد كفَروا به) في هاء الكناية أربعة أقوال قد تقدّمت في قوله : (آمنَّا به) [سبأ : ٥٢] . ومعنى (مِنْ قَبْلُ) أي : في الدنيا من قبل معاينة أهوال الآخرة (ويَقْذِفون بالغيب) أي : يَرْمُون بالظنِّ (مِنْ مكانٍ بعيدٍ) وهو بُعدهم عن العلم بما يقولون .

وفي المراد بمقالتهم هذه ثلاثة أقوال .

أحدها : أنهم يظُنُّون أنهم يُرَدُّون إلى الدنيا ، قاله أبو صالح عن ابن عباس .

والثاني : أنه قولهم في الدنيا : لا بعث لنا ولا جنة ولا نار ، قاله الحسن ، وقتادة .

والثالث : أنه قولهم عن رسول الله ﷺ : هو ساحر ، هو كاهن ، هو شاعر ، قاله مجاهد .

قوله تعالى : (وحِيل بينهم وبين ما يَشتهون) أي : مُنع هؤلاء الكفار مما يشتهون ، وفيه ستة أقوال .

أحدها : أنه الرجوع إلى الدنيا ، قاله ابن عباس . والثاني : الأهل والمال والولد ، قاله مجاهد . والثالث : الإيمان ، قاله الحسن . والرابع : طاعة الله ، قاله قتادة . والخامس : التوبة [١] ، قاله السدي . والسادس : حيل بين الجيش الذي

---

(١) قال ابن كثير : وهذا اختيار ابن جرير رحمه الله ، قال : وقال مجاهد : (وحيل بينهم وبين مايشتهون) من هذه الدنيا من مال وزهرة وأهل ، قال : وروي نحوه عن ابن عمر ، وابن عباس ، والربيع بن أنس ، رضي الله عنهم ، قال : وهو قول البخاري وجماعة ، ثم قال : ـــ

خرج لتخريب الكعبة وبين ذلك بأن خُسف بهم ، قاله مقاتل [١] .

قوله تعالى : (كما فُعِلَ) وقرأ ابن مسعود ، وأُبيّ بن كعب ، وأبو عمران : « كما فَعَل » بفتح الفاء والعين (بأشياعهم مِنْ قَبْلُ) قال الزجّاج : أي : بمن كان مذهبُه مذهبَهم [٢] . قال المفسرون : والمعنى : كما فُعل بنُظَرائهم من الكفار مِنْ قَبْل هؤلاء ، فانهم حِيل بينهم وبين ما يشتهون . وقال الضحاك : هم أصحاب الفيل حين أرادوا خراب الكعبة (إنَّهم كانوا في شَكٍّ) من البعث ونزول العذاب بهم (مُرِيبٍ) أي : مُوقِعٍ لِلرِّيبة والتُّهمة [٣] .

★ ★ ★

ـــ والصحيح أنه لامنافاة بين القولين ، فانه قد حيل بينهم وبين شهواتهم في الدنيا وبين ماطلبوه في الآخرة فمنعوا منه . اه .

(١) هذا التأويل متعلق بما ذكر في حديث الجيش الذي يخسف به عند قوله تعالى : (ولو ترى إذ فزعوا فلا فوت) وقد علمت أنه لايصح .

(٢) قال ابن كثير : أي: كما جرى للأمم الماضية المكذبة بالرسل لمّا جاءهم بأس الله تمنّوا أن لو آمنوا فلم يقبل منهم . اه .

(٣) قال ابن كثير : أي : كانوا في الدنيا في شك وريبة ، فلهذا لم يُتقبّل منهم الايمان عند معاينة العذاب ، وقال : قال قتادة : إياكم والشك والريبة ، فان من مات على شك بُعث عليه ، ومن مات على يقين بعث عليه . اه .

سورة فاطر

وتسمى سُورة الملائكة، وهي مكيَّة بإجماعهم

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلٰئِكَةِ رُسُلًا أُولِي أَجْنِحَةٍ مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ . مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾

قوله تعالى : (الحمدُ لله فاطِرِ السَّموات والأرض) أي : خالِقُهما مبتدئاً على غير مِثال . قال ابن عباس : ما كنت أدري ما فاطر السموات والأرض حتى اختصم أعرابيَّان في بئر ، فقال أحدهما : أنا فطرتُها ، أي : ابتدأتُها [1] .

قوله تعالى : (جاعِلِ الملائكةِ) وروى الحلبي والقزَّاز عن عبد الوارث :

---

(١) قال ابن كثير : وقال ابن عباس رضي الله عنهما أيضاً : (فاطر السموات والأرض) أي : بديع السموات والأرض ، قال : وقال الضحاك : كل شيء في القرآن (فاطر السموات والأرض) فهو خالق السموات والأرض . اهـ .

« جاعِلٌ » بالرفع والتنوين « الملائكةَ » بالنصب (رُسُلاً) يرسلهم إلى الأنبياء وإلى ما شاء من الأمور (أُولي أجنحة) أي : أصحاب أجنحة (مَثنى وثُلاثَ ورُباعَ) فبعضُهم له جناحان ، وبعضُهم [له] ثلاثة ، وبعضهم له أربعة ، و (يزيدُ في الخَلْق ما يشاء) فيه خمسة أقوال .

أحدها : أنه زاد في خَلْق الملائكة الأجنحة ، رواه أبو صالح عن ابن عباس .

والثاني : يَزيد في الأجنحة مايشاء ، رواه عبّاد بن منصور عن الحسن ، وبه قال مقاتل [١] .

والثالث : أنه الخلق الحسن ، رواه عوف عن الحسن .

والرابع : أنه حُسن الصوت ، قاله الزهري ، وابن جريج .

والخامس : المَلاحة في العينين ، قاله قتادة .

قوله تعالى : (مايَفْتَحِ اللهُ للنَّاس مِنْ رحمةٍ) أي : من خير ورزق . وقيل : أراد بها المطر (فلا مُمْسِكَ لها) وقرأ أُبَيُّ بن كعب ، وابن أبي عبلة : « فلا مُمْسِكَ له » . وفي الآية تنبيه على أنه لا إله إلا هو ، إذ لايستطيع أحدٌ إمساكَ مافتَحَ وفَتْح ما أمسك [٢] .

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ . وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ وَإِلَى اللهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ . يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا

---

(١) وفي « صحيح مسلم » عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال : (لقد رأى من آيات ربه الكبرى) قال : رأى جبريل في صورته له ستمائة جناح .

(٢) قال ابن كثير : يخبر تعالى أنه ماشاء كان وما لم يشأ لم يكن ، وأنه لامانع لِما أعطى ولا معطي لِما منع .

وَلا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللهِ الْغَرُورُ . إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوّاً إِنَّمَا يَدْعُوا حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ . الَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴾

قوله تعالى : (يا أيُّها النَّاس اذكُروا نعمة الله عليكم) قال المفسرون : الخطاب لأهل مكة ، و « اذكُروا » بمعنى « احفظوا » ، ونعمة الله عليهم : إسكانهم الحَرَم ومنع الغارات عنهم .

(هل مِنْ خالقٍ غيرُ الله) وقرأ حمزة والكسائي : « غيرِ الله » بخفض الراء ؛ قال أبو علي : جعلاه صفة على اللفظ ، وذلك حَسَنٌ لإتباع الجرّ . وهذا استفهام تقرير وتوبيخ ؛ والمعنى : لاخالق سواه (يرزُقُكم من السماء) المطر (و) من (الأرض) النبات . وما بعد هذا قد سبق بيانه [الأنعام : ٩٥ ، آل عمران : ١٨٤ ، البقرة : ٢١٠ ، لقمان : ٣٣] إلى قوله : (إنَّ الشيطان لكم عَدُوٌّ) أي : إنه يريد هلاككم (فاتَّخِذوه عَدُوّاً) أي : أنزِلوه من أنفُسكم منزلة الأعداء ، وتجنَّبوا طاعته (إنَّما يدعو حِزبه) أي : شيعته إلى الكفر (لِيكونوا من أصحاب السَّعير) .

﴿ أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَناً فَإِنَّ اللهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ فَلاَ تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ . وَاللهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَاباً فَسُقْنَاهُ إِلَى بَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَلِكَ النُّشُورُ ﴾

قوله تعالى : (أَفَمَنْ زُيِّنَ له سُوءُ عمله) [١] اختلفوا فيمن نزلت على ثلاثة أقوال .

أحدها : أنها نزلت في أبي جهل ومشركي مكة ، قاله ابن عباس .

والثاني : في أصحاب الأهواء والمِلل التي خالفت الهُدى ، قاله سعيد بن جبير .

والثالث : أنهم اليهود والنصارى والمجوس ، قاله أبو قلابة [٢] .

فان قيل : أين جواب « أَفَمَنْ زُيِّنَ له » ؟ .

فالجواب من وجهين ذكرهما الزجاج .

أحدها : أن الجواب محذوف ؛ والمعنى : أَفَمَنْ زُيِّنَ له سُوء عمله كمن هداه الله ؟ ! ويدُلُّ على هذا قوله : (فانَّ الله يُضِلُّ من يشاء ويَهدي من يشاء) .

والثاني : أن المعنى : أَفَمَنْ زُيِّنَ له سوء عمله فأضلَّه اللهُ ذهبتْ نفسُك عليهم حسرات ؟ ! ويدلُّ على هذا قوله : (فلا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عليهم حَسَراتٍ) .

---

(١) قال السيوطي في « الدر » ٥/٢٤٥ : أخرج ابن جرير من طريق جويبر عن الضحاك رضي الله عنه قال : أنزلت هذه الآية (أفمن زُين له سوء عمله فرآه حسناً) حيث قال النبي ﷺ : « اللهم أعزَّ دينك بعمر بن الخطاب ، أو بأبي جهل ابن هشام ، فهدى الله عمر رضي الله عنه ، وأضل أبا جهل ، ففيهما أنزلت .

وقال في « أسباب النزول » ١٨٥ : أخرج جويبر عن الضحاك عن ابن عباس قال : أنزلت هذه الآية . . . فذكره بنحوه .

(٢) قال السيوطي في « الدر » ٥/٢٤٥ : أخرج ابن أبي حاتم عن أبي قلابة أنه سئل عن هذه الآية (أفمن زين له سوء عمله فرآه حسناً) : أم عمَّالنا هؤلاء الذين يصنعون ؟ قال : ليس هم ، إنَّ هؤلاء ليس أحدهم يأتي شيئاً مما لايحل له إلا قد عرف أن ذلك حرام عليه ، إن أتى الزنا فهو حرام ، أو قتل النفس فهو حرام ، إنما أولئك أهل الملل اليهود والنصارى والمجوس . . . الخ .

وقرأ أبو جعفر : « فلا تُذْهِبْ » بضم التاء وكسر الهاء « نَفْسَكَ » بنصب السين .

وقال ابن عباس : لاتغتمّ ولا تُهْلِكْ نَفْسَكَ حَسْرة على تركهم الإيمان .

قوله تعالى : (فتُثيرُ سحاباً) أي : تُزعجه من مكانه ؛ وقال أبو عبيدة : تجمعُه وتجيء به ، و« سُقْناه » بمعنى « نسوقه » ؛ والعرب قد تضع « فَعَلْنَا » في موضع « نَفْعَلُ » ، وأنشدوا :

إن يَسْمَعُوا رِيبَةً طاروا بها فَرَحاً مِنِّي ومَا سَمِعوا مِنْ صَالِحٍ دَفَنُوا[1]

المعنى : يَطيروا ويَدفِنوا .

قوله تعالى : (كذلك النُّشور) وهو الحياة . وفي معنى الكلام قولان .

أحدهما : كما أحيا اللهُ الأرض بعد موتها يُحيي الموتى يوم البعث . روى أبو رزين العقيلي ، قال : قلت : يارسول الله : كيف يُحيي اللهُ الموتى ؛ وما آيةُ ذلك في خَلْقه ؛ فقال : « هل مررتَ بوادي أهلك مَحْلاً ، ثم مررتَ به يهتزُّ خَضِراً ؟ » قلت : نعم ، قال : « فكذلك يُحيي اللهُ الموتى ، وتلك آيتُه في خَلْقه »[2] .

والثاني : كما أحيا اللهُ الأرض الميتة بالماء ، كذلك يُحيي الله الموتى بالماء .

---

(١) سبق تخريج البيت في الجزء ٣ صفحة ٢٣٥ ، وهو أيضاً في « مجاز القرآن » : ١٥٢/٢ ، و « اللسان » ، و « التاج » : أذن .

(٢) رواه الامام أحمد في « المسند » : ١١/٤ من حديث حماد بن سلمة قال : أنبأنا يعلى بن عطاء عن وكيع بن حدس عن عمه أبي رزين العقيلي . قال ابن كثير : ورواه أبو داود وابن ماجه من حديث حماد بن سلمة به ، ثم قال : ورواه أحمد أيضاً بسند آخر قال : حدثنا علي بن إسحاق ، أنبأنا ابن المبارك ، أنبأ عبد الرحمن بن يزيد بن جابر ، عن سليمان بن موسى ، عن أبي رزين العقيلي . . . فذكره بنحوه . والحديث أورده السيوطي في « الدر » : ٢٤٥/٥ ، وزاد نسبته للطيالسي ، وعبد بن حميد ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وابن مردويه ، والبيهقي في « الأسماء والصفات » عن أبي رزين العقيلي رضي الله عنه .

قال ابن مسعود : يرسلُ اللهُ تعالى ماءً من تحت العرش كمَنِيِّ الرجال ، قال : فتنبت لُحمانهم وجُسمانهم من ذلك الماء ، كما تنبت الأرض من الثرى ، ثم قرأ هذه الآية . وقد ذكرنا في (الأعراف : ٥٧) نحو هذا الشرح .

﴿ مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعاً إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّآتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُولَئِكَ هُوَ يَبُورُ ﴾

قوله تعالى : (من كان يُريد العِزَّة) فيه ثلاثة أقوال .

أحدها : من كان يريد العزَّة بعبادة الأوثان (فللّه العِزَّةُ جميعاً) ، قاله مجاهد .

والثاني : من كان يريد العزَّة فليتعزَّز بطاعة الله ، قاله قتادة . وقد روى أنس عن رسول الله ﷺ أنه قال : « إنَّ ربَّكم يقول كل يوم : أنا العزيز ، فمن أراد عِزَّ الدَّارَيْن فليُطِع العزيز »[1] .

والثالث : من كان يريد عِلْم العزَّة لِمن هي ، فانها لله جميعاً ، قاله الفراء[2] .

قوله تعالى : (إليه يَصْعَدُ الكَلِمُ الطَّيِّبُ) وقرأ ابن مسعود ، وأبو عبد الرحمن السلمي ، والنخعي ، والجحدري ، والشيزري عن الكسائي :

---

(١) ذكره الطبرسي في « مجمع البيان » بدون سند .

(٢) قال ابن جرير الطبري : والذي هو أولى الأقوال بالصواب عندي قول من قال : من كان يريد العزَّة فبالله فليتعزَّز ، فلله العزة جميعاً دون كلّ مادونه من الآلهة والأوثان . وقال ابن كثير : وقوله تعالى : (من كان يريد العزَّة فلله العزَّة جميعاً) أي : من كان يحب أن يكون عزيزاً في الدنيا والآخرة ، فليلزم طاعة الله تعالى ، فانه يحصل له مقصوده ، لأن الله تعالى مالك الدنيا والآخرة ، وله العزة جميعاً . اهـ .

« يُصْعَدُ الكلامُ الطَّيِّبُ » وهو توحيده وذِكْره [١] (والعملُ الصَّالح يَرْفَعُهُ) قال علي بن المديني : الكَلِم الطَّيِّب : لا إله إلا الله ، والعمل الصالح : أداء الفرائض واجتناب المحارم [٢] .

وفي هاء الكناية في قوله : « يرفعه » ثلاثة أقوال .

أحدها : أنها ترجع إلى الكَلِم الطَّيِّب ؛ فالمعنى : والعمل الصالح يرفع الكَلِم الطَّيِّب ، قاله ابن عباس ، والحسن ، وسعيد بن جبير ، ومجاهد ، والضحاك . وكان الحسن يقول : يُعْرَض القولُ على الفعل ، فان وافق القولَ الفعلُ قُبِل ، وإن خالف رُدَّ .

والثاني : أنها ترجع إلى العمل الصالح ، فالمعنى : والعمل الصالح يرفعُه الكَلِمُ الطَّيِّب ، فهو عكس القول الأول ، وبه قال أبو صالح ، وشهر بن حوشب . فاذا قلنا : إن الكَلِم الطَّيِّب هو التوحيد ، كانت فائدة هذا القول أنه لا يُقْبَلُ عملٌ صالح إلا من مُوحِّد .

والثالث : أنها ترجع إلى الله عز وجل ؛ فالمعنى : والعمل الصالح يرفعُه اللهُ إليه ، أي : يَقْبَلُه ، قاله قتادة .

قوله تعالى : (والذين يمكُرون السَّيِّئات) قال أبو عبيدة : يمكرون : بمعنى : يكتسِبون ويجترِحون . ثم في المشار إليهم أربعة أقوال .

---

(١) قال ابن كثير : وقوله : (إليه يصعد الكلم الطيب) يعني الذكر والتلاوة والدعاء ، قاله غير واحد من السلف .

(٢) الذي في الطبري : عن علي بن أبي طلحة عن ابن عباس قال : قوله : (إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه) قال : الكلام الطيب : ذِكْر الله ، والعمل الصالح : أداء فرائضه ، فمن ذكر الله سبحانه في أداء فرائضه ، حمل عليه ذِكر الله فصعد به إلى الله ، ومن ذكر الله ولم يؤد فرائضه ، ردَّ كلامه على عمله فكان أولى به . اهـ .

أحدهـا : أنهم الذين مكـروا برسول الله ﷺ في دار الندوة ، قاله أبو العالية .

والثاني : أنهم أصحاب الرِّياء ، قاله مجاهد ، وشهر بن حوشب .

والثالث : أنهم الذين يعملون السَّيِّئات ، قاله قتادة ، وابن السائب .

والرابع : أنهم قائلو الشِّرك ، قاله مقاتل [1] .

وفي معنى (يَبُورُ) قولان .

أحدها : يَبْطُلُ ، قاله ابن قتيبة . والثاني : يَفْسُدُ ، قاله الزجاج .

﴿ وَاللهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجاً وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ وَمَا يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَلَا يُنْقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ إِنَّ ذٰلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرٌ . وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِنْ كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْماً طَرِيّاً وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً

(١) قال ابن كثير : وقوله تعالى : (والذين يمكرون السيئات) قال مجاهد ، وسعيد بن جبير ، وشهر بن حوشب : هم المراؤون بأعمالهم ، يعني يمكرون بالناس ، يوهمون أنهم في طاعة الله تعالى ، وهم بغضاءُ إلى الله عز وجل ، يراؤون بأعمالهم (ولا يذكرون الله إلا قليلاً) ، قال : وقـال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : هم المشركون ، ثم قال ابن كثير : والصحيح أنهـا عامة ، والمشركون داخلون بطريق الأَولى ، ولهذا قال تعالى : (لهم عذاب شديد ومكر أولئك هو يبور) أي : يفسد ويبطل ويظهر زيفهم عن قريب لأولي البصـائر والنهى ، فانه ما أسرَّ أحد سريرة إلا أبداها الله تعالى على صفحات وجهه وفلتات لسانه ، وما أسرَّ أحد سريرة إلا كساه الله تعالى رداءها ، إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر ، قال : فالمرائي لايروج أمره ويستمر إلا على غبيٍّ ، أما المؤمنون المتفرِّسون ، فلا يروج ذلك عليهم ، بل ينكشف لهم عن قريب ، قال : وعالم الغيب لاتخفى عليه خافية . اهـ .

تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ . يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى ذَلِكُمُ اللهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ . إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴾

قوله تعالى : (واللهُ خلقكم من تراب) يعني آدم (ثُمَّ من نُطفة) يعني نسله (ثم جعلكم أزواجاً) أي : أصنافاً ، ذكوراً وإناثاً ؛ قال قتادة : زوَّج بعضهم ببعض .

قوله تعالى : (وما يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ) أي : ما يطول عمر أحد (ولا يُنْقَصُ) وقرأ الحسن ، ويعقوب : « يَنْقُصُ » بفتح الياء وضم القاف (مِنْ عُمُرِه) في هذه الهاء قولان .

أحدهما : أنها كناية عن آخر ، فالمعنى : ولا يُنْقَص من عمر آخر ؛ وهذا المعنى في رواية العوفي عن ابن عباس ، وبه قال مجاهد في آخرين [١] . قال الفراء : وإنما كني عنه كأنه الأول ، لأن لفظ الثاني لو ظهر كان كالأول ، كأنه قال : ولا يُنْقَصُ من عمر مُعَمَّر ، ومثله في الكلام : عندي درهم ونصفه ؛ والمعنى : ونصف آخر .

والثاني : أنها ترجع إلى المُعَمَّر المذكور ؛ فالمعنى : ما يذهب من عمر هذا المُعَمَّر يومٌ أو ليلة إلاَّ وذلك مكتوب ؛ قال سعيد بن جبير : مكتوب في أول الكتاب : عمره كذا وكذا سنة ، ثم يُكتب أسفل من ذلك : ذهب يوم ،

(١) وهذا الذي اختاره ابن جرير الطبري ، وقال عنه ابن كثير : وهو كما قال .

ذهب يومان ، ذهبت ثلاثة ، إلى أن ينقطع عُمُره ؛ وهذا المعنى في رواية ابن جبير عن ابن عباس ، وبه قال عكرمة وأبو مالك في آخرين [١] .

فأما الكتاب ، فهو اللوح المحفوظ .

وفي قوله (إنَّ ذلك على الله يسيرٌ) قولان .

أحدهما : أنه يرجع إلى كتابة الآجال . والثاني : إلى زيادة العُمُر ونقصانه .

قوله تعالى : (وما يستوي البحران) يعني العذب والمِلْح ؛ وهذه الآية وما بعدها قد سبق بيانه [الفرقان : ٥٣ ، النحل : ١٤ ، آل عمران : ٢٧ ، الرعد : ٢] إلى قوله : (ما يَمْلِكون من قِطْمير) قال ابن عباس : هو القِشْر الذي يكون على ظهر النَّواة .

قوله تعالى : (إن تَدْعُوهم لا يَسْمَعوا دُعاءَكم) لأنهم جماد (ولو سَمِعُوا) بأن يخلق الله لهم أسماعاً (ما استجابوا لكم) أي : لم يكن عندهم إجابة (ويومَ القيامة يكفُرون بشِرككم) أي : يتبرَّؤون من عبادتكم (ولا يُنَبِّئُكَ) يا محمد (مِثْلُ خبير) أي : عالِم بالأشياء ، يعني نفسه عز وجل ؛ والمعنى أنه لا أخْبَرَ منه عز وجل بما أخبر أنَّه سيكون .

---

(١) قال ابن كثير : وقال النسائي عند تفسير هذه الآية الكريمة : حدثنا أحمد بن يحيى ابن أبي زيد بن سليمان ، قال : سمعت ابن وهب يقول : حدثني يونس عن ابن شهاب عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « من سَرَّه أن يُبسط له في رزقه ويُنسأ له في أثره فليصِل رحمه » ، قال ابن كثير : وقد رواه البخاري ومسلم وأبو داود من حديث يونس بن يزيد الأيلي به . اهـ .

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللهِ وَاللهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ . إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ . وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللهِ بِعَزِيزٍ . وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى وَإِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَى حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى إِنَّمَا تُنْذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَمَنْ تَزَكَّى فَإِنَّمَا يَتَزَكَّى لِنَفْسِهِ وَإِلَى اللهِ الْمَصِيرُ . وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ . وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ . وَلَا الظِّلُّ وَلَا الْحَرُورُ . وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ إِنَّ اللهَ يُسْمِعُ مَنْ يَشَاءُ وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبُورِ . إِنْ أَنْتَ إِلَّا نَذِيرٌ . إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ . وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالزُّبُرِ وَبِالْكِتَابِ الْمُنِيرِ . ثُمَّ أَخَذْتُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴾

(يا أيُّها النَّاسُ أنتم الفقراء إلى الله) أي : المحتاجون إليه (واللهُ هو الغنيُّ) عن عبادتكم (الحميد) عند خلقه باحسانه إليهم [1] . وما بعد هذا قد تقدم

(١) قال ابن كثير : يخبر تعالى بغنائه عما سواه ، وبافتقار المخلوقات كلّها إليه وتذلّلها بين يديه ، فقال تعالى : (يا أيها الناس أنتم الفقراء إلى الله) أي : هم محتاجون إليه في جميع الحركات والسكنات ، وهو تعالى الغني عنهم بالذات ، ولهذا قال عز وجل : (والله هو الغني الحميد) أي : هو المنفرد بالغنى وحده لاشريك له ، وهو الحميد في جميع مايفعله ويقوله ويقدّره ويشرعه ، ثم قال في تتمة الآية : وقوله تعالى : (إن يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد) أي : لو شاء لأذهبكم أيها الناس وأتى بقوم غيركم ، وما هذا عليه بصعب ولا ممتنع ، ولهذا قال تعالى : (وما ذلك على الله بعزيز) ، وقوله تعالى : (ولا تزر وازرة وزر أخرى) أي يوم القيامة .

بيانه [إبراهيم : ١٩ ، الأنعام: ١٦٤] إلى قوله : (وإن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ) أي: نَفْس مُثْقَلَة بالذُّنوب (إلى حِمْلِها) الذي حملتْ من الخطايا (لا يُحْمَلْ منه شيء ولو كان) الذي تدعوه (ذا قربى) ذا قرابة [١] (إنما تُنْذِرُ الذين يَخْشَوْنَ ربَّهم بالغيب) أي : يخشونه ولمْ يَرَوه؛ والمعنى : إنما تَنفع بانذارك أهل الخشية ، فكأنك تُنذرهم دون غيرهم لمكان اختصاصهم بالانتفاع ، (ومن تَزَكَّى) أي: تطهَّر من الشِّرك والفواحش ، وفعلَ الخير (فانَّما يَتَزَكَّى لِنَفْسه) أي : فصلاحُه لنَفْسه (وإلى الله المَصيرُ) فيجزي بالأعمال .

(وما يستوي الأعمى والبصير) يعني المؤمن والمشرك ، (ولا الظُّلُماتُ) يعني الشِّرك والضَّلالات (ولا النُّورُ) الهدى والإيمان ، (ولا الظِّلُّ ولا الحَرورُ) فيه قولان .

أحدها : ظِلُّ اللَّيل وسَمُوم النهار ، قاله عطاء .

والثاني : الظِّلُّ : الجَنَّة ، والحَرُور : النَّار ، قاله مجاهد . قال الفراء : الحَرُور بمنزلة السَّمُوم ، وهي الرِّياح الحارَّة . والحَرُور تكون بالنَّهار وبالليل ، والسَّمُوم لا تكون إلا بالنَّهار . وقال أبو عبيدة : الحَرُور تكون بالنَّهار مع الشمس ، وكان رؤبة يقول : الحَرور باللَّيل ، والسَّمُوم بالنَّهار .

قوله تعالى : (وما يستوي الأحياءُ ولا الأمواتُ) فيهم قولان .

أحدها : أن الأحياء : المؤمنون ، والأموات : الكفار .

والثاني : أن الأحياء : العقلاء ، والأموات : الجُهَّال .

---

(١) وذلك لقوله تعالى : (يا أيها الناس اتقوا ربكم واخشوا يوماً لايجزي والد عن ولده ولا مولود هو جازٍ عن والده شيئاً إن وعد الله حق فلا تغرنكم الحياة الدنيا ولا يغرنكم بالله الغرور) وقال : (يوم يفر المرء من أخيه . وأمه وأبيه وصاحبته وبنيه . لكل امرىء منهم يومئذ شأن يغنيه) .

وفي « لا » المذكورة في هذه الآية قولان .

أحدهما : أنها زائدة مؤكِّدة . والثاني : أنها نافية لاستواء أحد المذكورَين مع الآخر .

قال قتادة : هذه أمثال ضربها اللهُ تعالى للمؤمن والكافر ، يقول: كما لاتستوي هذه الأشياء ، كذلك لا يستوي الكافر والمؤمن (١) .

(إنّ الله يُسمِعُ من يشاء) أي : يُفهم من يريد إفهامه (وما أنت بِمُسْمِعٍ مَنْ في القُبور) (٢) وقرأ أبو عبد الرحمن السلمي ، والحسن ، والجحدري : « بِمُسْمِعِ مَنْ » على الإضافة ؛ يعني الكفار ، شبههم بالموتى ، (إن أنتَ إلاّ نذير) قال بعض المفسرين : نُسخ معناها بآية السيف (٣) .

---

(١) قال ابن كثير : هذا مَثَل ضربه الله تعالى المؤمنين وهم الأحياء ، وللكافرين وهم الأموات ، كقوله تعالى : (أوَ من كان ميتاً فأحييناه وجعلنا له نوراً يمشي به في الناس كمن مَثَله في الظلمات ليس بخارج منها) وقال عز وجل : (مَثَل الفريقين كالأعمى والأصم والبصير والسميع هل يستويان مَثَلاً ؟) فالمؤمن بصير سميع في نور ، يمشي على صراط مستقيم في الدنيا والآخرة حتى يستقرَّ به الحال في الجنات ذات الظلال والعيون ، والكافر أعمى وأصم في ظلمات يمشي لاخروج له منها ، بل هو يتيه في غيّه وضلاله في الدنيا والآخرة حتى يفضيَ به ذلك إلى الحرور والسَّموم والحميم وظل من يحموم لابارد ولا كريم . اهـ .

(٢) قال ابن جرير الطبري : وقوله : (إن الله يسمع من يشاء وما أنت بمسمع من في القبور) يقول تعالى ذِكره : كما لايقدر أن يَسمع من في القبور كتاب الله فيهديهم به إلى سبيل الرشاد ، فكذلك لايقدر أن ينفع بمواعظ الله وبيان حججه من كان ميت القلب من إحياء عباده عن معرفة الله وفهم كتابه وتنزيله وواضح حججه . اهـ .

(٣) قال ابن جرير : وقوله : (إن أنت إلا نذير) يقول تعالى ذِكره لنبيه محمد ﷺ : ما أنت إلا نذير تنذر هؤلاء المشركين بالله الذين طبع الله على قلوبهم ، ولم يُرسِلك ربك إليهم إلا لتبلغهم رسالته ، ولم يكلّفك من الأمر مالاسبيل لك إليه ، فأما اهتداؤهم وقبولهم منك ماجئتهم به ، فان ذلك بيد الله لا بيدك ولا بيد غيرك من الناس ، فلا تذهب نفسك عليهم حسرات إن هم لم يستجيبوا لك . اهـ .

قوله تعالى : (وإنْ مِنْ أُمَّةٍ إلاَّ خلا فيها نذير) أي : ما من أُمَّة إلا قد جاءها رسول [١] . وما بعد هذا قد سبق بيانه [آل عمران : ١٨٤ ، الحج : ٤٤] إلى قوله : (فكيف كان نَكيرِ) [٢] أثبت فيها الياء في الحالين يعقوب ، وافقه في الوصل ورش .

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفاً أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ . وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴾

قوله تعالى : (ومن الجبال جُدَدٌ بِيضٌ) أي : ومِمَّا خلقْنا من الجبال جُدَدٌ . قال ابن قتيبة : الجُدَدُ : الخُطوط والطَّرائق تكون في الجبال ، فبعضُها بِيض ، وبعضُها حُمر ، وبعضُها غرابيبُ سودٌ ، والغرابيب جمع غِرْبِيبٍ ، وهو الشديد السواد ، يقال : أسْودُ غِرْبِيبٌ ، وتمام الكلام عند قوله : « كذلك » ، يقول : من الجبال مختلِفٌ ألوانه [٣] ، (ومِنَ النَّاس والدَّوابِّ والأنعام مختلِفٌ ألوانُه كذلك) أي : كاختلاف الثمرات . قال الفراء : وفي الكلام تقديم وتأخير ، تقديره : وسودٌ غرابيب ، لأنه يقال : أسودُ غِرْبِيبٌ ،

---

(١) قال ابن كثير : أي : وما من أمة خلت من بني آدم إلا وقد بعث الله تعالى إليهم النذر ، وأزاح عنهم العلل ، كما قال تعالى : (إنما أنت منذر ولكل قوم هادٍ) وكما قال تعالى : (ولقد بعثنا في كل أمة رسولاً أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت فمنهم من هدى الله ومنهم من حقت عليه الضلالة . . .) الآية ، قال : والآيات في هذا كثيرة . اهـ .

(٢) قال ابن جرير الطبري : فكيف كان نكير : فانظر يامحمد كيف كان تغييري بهم ، وحلول عقوبتي بهم .

(٣) في « غريب القرآن » : ألوانها .

وقلّما يقال : غريب أسود . وقال الزجاج : المعنى : ومن الجبال غرابيبُ سود ، وهي ذوات الصخر الأَسْود . وقال ابن دريد : الغِرْبيب : الأَسْود ، أحسبُ أن اشتقاقه من الغُراب .

وللمفسرين في المراد بالغرابيب ثلاثة أقوال .

أحدها : الطرائق السُّود ، قاله ابن عباس . والثاني : الأَودية السود ، قاله قتادة . والثالث : الجبال السود ، قاله السدي .

ثم ابتدأ فقال : (إِنَّما يخشى اللهَ مِنْ عِباده العُلَماءُ) يعني العلماء بالله عزّ وجل . قال ابن عباس : يريد : إِنَّما يخافُني مِنْ خَلْقي مَنْ عَلِم جبروتي وعِزّتي وسلطاني [1] . وقال مجاهد والشعبي : العالِم من خاف اللهَ . وقال الربيع ابن أنس : من لم يَخْش اللهَ فليس بعالِم .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللهِ وَأَقَامُوا الصَّلٰوةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرّاً وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَنْ تَبُورَ . لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ . وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ إِنَّ اللهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ ﴾

قوله تعالى : (إِنَّ الذين يَتْلُون كتاب الله) يعني قُرّاء القرآن ، فأثنى عليهم بقراءة القرآن ؛ وكان مطرّف يقول : هذه آية القُرّاء .

وفي قوله : (يَتْلُونَ) قولان . أحدهما : يقرؤون . والثاني : يَتّبعون .

---

(١) قال ابن كثير : أي : إنما يخشاه حق خشيته العلماء العارفون به ، لأنه كلما كانت المعرفة للعظيم القدير العليم الموصوف بصفات الكمال المنعوت بالأسماء الحسنى ، كلما كانت المعرفة به أتم والعلم به أكمل ، كانت الخشية له أعظم وأكثر . اهـ .

قال أبو عبيدة : (وأقاموا الصلاة) بمعنى ويُقيمون ، وهو إدامتها لمواقيتها وحدودها .

قوله تعالى : (يَرْجُونَ تجارة) قال الفراء : هذا جواب قوله : (إنَّ الذين يَتْلُونَ) . قال المفسرون : والمعنى : يرجون بفعلهم هذا تجارة لن تفسُد ولن تَهْلِك ولن تَكْسُد (لِيُوَفِّيَهم أجورهم) أي : جزاء أعمالهم (ويَزيدَهم مِنْ فضله) قال ابن عباس : سوى الثواب ما لم تر عين ولم تسمع أُذن .

فأما الشَّكور ، فقال الخطّابي : هو الذي يشكُر اليسيرَ من الطاعة ، فيُثيب عليه الكثير من الثواب ، ويُعطي الجزيل من النّعمة ، ويرضى باليسير من الشُّكر ؛ ومعنى الشُّكر المضاف إليه : الرِّضى بيسير الطّاعة من العبد ، والقبول له ، وإعظام الثواب عليه ؛ وقد يحتمل أن يكون معنى الثناء على الله بالشَّكور ترغيب الخَلْق في الطاعة قلَّت أو كثُرت ، لئلاّ يَستَقِلُّوا القليل من العمل ، ولا يتركوا اليسير منه .

﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ . جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤاً وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴾

قوله تعالى : (ثُمَّ أَوْرَثْنا الكتابَ) في « ثُمَّ » وجهان ؛ أحدهما : أنها بمعنى الواو ، والثاني : أنها للترتيب . والمعنى : أنزلنا الكتب المتقدِّمة ، ثُمَّ أَوْرَثْنا الكتابَ (الذين اصطَفَيْنا) وفيهم قولان .

أحدها : أنهم أُمَّة محمد ﷺ ، قاله ابن عباس .

والثاني : أنهم الأنبياء وأتباعهم ، قاله الحسن .

وفي الكتاب قولان .

أحدهما : أنه اسم جنس ، والمراد به الكتب التي أنزلها الله عز وجل ، وهذا يخرَّج على القولين . فان قلنا : الذين اصطفوا أُمَّة محمد ، فقد قال ابن عباس : إن الله أورث أُمَّة محمد ﷺ كلَّ كتاب أنزله . وقال ابن جرير الطبري : ومعنى ذلك : أورثهم الإيمانَ بالكتب كلِّها ـ وجميع الكتب تأمر باتّباع القرآن ـ فهم مؤمنون بها عاملون بِمقتضاها ؛ واستدل على صحة هذا القول بأن الله تعالى قال في الآية التي قبل هذه : (والذي أوْحَيْنا إليكَ من الكتاب هو الحَقُّ) وأتبعه بقوله : (ثُمَّ أوْرَثْنا الكتاب) فعلمنا أنهم أُمَّة محمد ، إذ كان معنى الميراث : انتقال شيء من قوم إلى قوم ، ولم تكن أُمَّةٌ على عهد نبينا انتقل إليهم كتابٌ من قوم كانوا قبلهم غير أُمَّته . فان قلنا : هم الأنبياء وأتباعهم ، كان المعنى : أورثْنا كلَّ كتاب أُنزل على نبيٍّ ذلك النبيَّ وأتباعَه .

والقول الثاني : أن المراد بالكتاب القرآن [1] .

وفي معنى « أوْرَثْنا » قولان .

أحدهما : أعْطَيْنا ، لأنَّ الميراث عطاء ، قاله مجاهد .

والثاني : أخَّرْنا ، ومنه الميراث ، لأنه تأخَّر عن الميت ؛ فالمعنى : أخَّرْنا القرآنَ عن الأُمم السالفة وأعطيناه هذه الأُمَّة ، إكراماً لها ، ذكره بعض أهل المعاني .

قوله تعالى : (فمِنهم ظالمٌ لنفسه) فيه أربعة أقوال .

---

(١) قال ابن كثير في قوله تعالى : (ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا) يقول تعالى : ثم جعلنا القائمين بالكتاب العظيم المصدّق لما بين يديه من الكتب ، الذين اصطفينا من عبادنا ، وهم هذه الأمة . اهـ .

أحدها : أنه صاحب الصغائر ؛ روى عمر بن الخطاب عن رسول الله ﷺ أنه قال : « سابقُنا سابق ، ومقتصدُنا ناجٍ ، وظالمُنا مغفورٌ له »[١] . وروى أبو سعيد الخدري عن رسول الله ﷺ في هذه الآية ، قال : « كلهم في الجنة »[٢] .

والثاني : أنه الذي مات على كبيرة ولم يَتُب منها ، رواه عطاء عن ابن عباس .

والثالث : أنه الكافر ، رواه عمرو بن دينار عن ابن عباس ، وقد رواه ابن عمر مرفوعاً إلى النبي ﷺ[٣] . فعلى هذا يكون الاصطفاء لجملة من أُنزل عليه الكتاب ، كما قال : (وإنَّه لَذِكْرٌ لَكَ ولِقَومِكَ) [الزخرف : ٤٤] أي : لَشَرف لكم ، وكم من مُكرَم لم يَقبل الكرامة !

والرابع : أنه المنافق ، حكي عن الحسن[٤] . وقد روي عن الحسن أنه

---

(١) قال الحافظ ابن حجر في « تخريج الكشاف » ١٣٩ : رواه سعيد بن منصور عن فرج بن فضالة عن أزهر بن عبد الله الحرازي عمن سمع عمر ، فذكره موقوفاً . وذكره السيوطي في « الدر » من رواية سعيد بن منصور ، وزاد نسبته لابن أبي شيبة ، وابن المنذر ، والبيهقي في « البعث » عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه موقوفاً ، ولم يثبت في المرفوع .

(٢) رواه الامام أحمد عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه بلفظ : « هؤلاء كلهم بمنزلة واحدة ، وكلهم في الجنة » قال ابن كثير : هذا حديث غريب ، وفي إسناده من لم يسم ، ثم قال : ومعنى قوله : « بمنزلة واحدة » أي : في أنهم من هذه الأمة وأنهم من أهل الجنة وإن كان بينهم فرق في المنازل في الجنة . اهـ . والحديث قد رواه ابن جرير الطبري بنحو حديث أحمد ، وللحديث شواهد يشد بعضها بعضاً . ورواه بنحوه الترمذي وقال : هذا حديث غريب حسن ، وقد أورده السيوطي في « الدر » ٥/٢٥١ عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه ، وزاد نسبته للطيالسي ، وعبد بن حميد ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وابن مردويه ، والبيهقي .

(٣) ذكره السيوطي في « الدر » : ٥/٢٥٢ من رواية ابن مردويه عن عمر مرفوعاً ، والله أعلم .

(٤) قال ابن كثير : والصحيح أن الظالم لنفسه ، من هذه الأمة ، وهو اختيار ابن جرير كما هو ظاهر الآية ، وكما جاءت به الأحاديث عن رسول الله ﷺ من طرق يشد بعضها بعضاً . اهـ . يريد بذلك أمثال حديث أبي سعيد الخدري وغيره .

قال : الظالم : الذي ترجح سيئاته على حسناته ، والمقتصد : الذي قد استوت حسناته وسيئاته ، والسابق : من رَجَحت حسناتُه . وروي عن عثمان بن عفان أنه تلا هذه الآية ، فقال : سابقُنا أهل جهادنا ، ومقتصِدنا أهل حَضَرنا ، وظالمُنا أهل بدونا [١] .

قوله تعالى : (ومنهم سابِقٌ) وقرأ أبو المتوكل ، والجحدري ، وابن السميفع : « سبّاقٌ » مثل : فعّال (بالخيرات) أي : بالأعمال الصالحة إلى الجنة ، أو إلى الرحمة (باذن الله) أي : بارادته وأمره (ذلك هو الفضل الكبير) يعني إيراثهم الكتاب [٢] .

ثم أخبر بثوابهم ، فجمعهم في دخول الجنة فقال : (جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَها) [٣] قرأ أبو عمرو وحده : « يُدْخَلُونَها » بضم الياء ؛ وفتحها الباقون ، وقرأ نافع ، وأبو بكر عن عاصم : (ولُؤْلُؤاً) بالنصب . وروى

---

(١) ذكره السيوطي في « الدر » : ٢٥٢/٥ من رواية سعيد بن منصور ، وابن أبي شيبة ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وابن مردويه ، عن عثمان بن عفان رضي الله عنه موقوفاً .

(٢) قال ابن جرير الطبري : وقوله : (ذلك هو الفضل الكبير) يقول تعالى ذكره : سُبوق هذا السابق من سبقه بالخيرات باذن الله ، هو الفضل الكبير الذي فضل به من كان مقصّراً عن منزلته في طاعة الله من المقتصد والظالم لنفسه . اه .

(٣) قال ابن كثير : يخبر تعالى أن هؤلاء المصطفَين من عباده الذين أورثوا الكتاب المنزّل من رب العالمين يوم القيامة ، مأواهم جنات عدن ، أي : جنات الاقامة يدخلونها يوم معادهم وقدومهم على الله عز وجل (يحلّون فيها من أساور من ذهب ولؤلؤاً) كما ثبت في « الصحيح » عن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال : « تبلغ الحلية من المؤمن حيث يبلغ الوضوء » (ولباسهم فيها حرير) ولهذا كان محظوراً عليهم في الدنيا ، فأباحه الله تعالى لهم في الآخرة ، وثبت في « الصحيح » أن رسول الله ﷺ قال : « من لبس الحرير في الدنيا لم يلبسه في الآخرة » وقال : « هي لهم في الدنيا ولكم في الآخرة » . اه .

أبو بكر عن عاصم أنه كان يهمز الواو الثانية ولا يهمز الأولى ؛ وفي رواية أخرى أنه كان يهمز الأولى ولا يهمز الثانية . والآية مفسرة في سورة (الحج : ٢٣) .
قال كعب : تحاكت مناكبهم وربِّ الكعبة ، ثم أُعطوا الفضل بأعمالهم .

﴿ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ . الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِنْ فَضْلِهِ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ . وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا كَذَٰلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ . وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ . إِنَّ اللَّهَ عَالِمُ غَيْبِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ . هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا ﴾

ثم أخبر عمَّا يقولون عند دخولها ، وهو قوله : (الحمدُ لله الذي أذهب عنَّا الحَزَنَ) الحَزَن والحُزْن واحد ، كالبَخَل والبُخْل .

وفي المراد بهذا الحزن خمسة أقوال . أحدها : أنه الحزن لطول المقام في المحشر . روى أبو الدرداء عن رسول الله ﷺ أنه قال : « أمَّا السابق ، فيدخل الجنة بغير حساب ، وأما المقتصِد ، فيحاسَب حساباً يسيراً ، وأما الظَّالم لنفسه ، فانه حزين في ذلك المقام » ، فهو الحزن والغم ، وذلك قوله تعالى : « الحمد لله الذي

أذهب عنّا الحَزَن » (١) .

والثاني : أنه الجوع ، رواه أبو الدرداء أيضاً عن رسول الله ﷺ ، [ولا يصح] ، وبه قال شمر بن عطية (٢) . وفي لفظ عن شمر أنه قال : الحزن : هَمُّ الخُبز (٣) ، وكذلك روي عن سعيد بن جبير أنه قال : الحزن : هَمُّ الخُبز في الدنيا .

والثالث : أنه حزن النار ، رواه أبو الجوزاء عن ابن عباس (٤) .

والرابع : حزنهم في الدنيا على ذُنوب سلفت منهم ، رواه عكرمة عن ابن عباس (٥) .

والخامس : حزن الموت ، قاله عطية (٦) .

والآية عامّة في هذه الأقوال وغيرها (٧) ، ومن القبيح تخصيص هذا الحزن بالخبز وما يشبهه ، وإنما حزنوا على ذُنوبهم وما يوجبه الخوف .

---

(١) رواه أحمد في « المسند » ، وذكره السيوطي في « الدر » : ٢٥١/٥ ، وزاد نسبته للفريابي ، وعبد بن حميد ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، والطبراني ، والحاكم ، وابن مردويه ، والبيهقي عن أبي الدرداء رضي الله عنه .

(٢) لم نر الحزن بمعنى الجوع عن أبي الدرداء مرفوعاً ولا موقوفاً عليه ، وإنما ذكره السيوطي في « الدر » : ٢٥٣/٥ من رواية ابن أبي حاتم عن شمر بن عطية من قوله .

(٣) ذكره الطبري : ١٣٨/٢٢ .

(٤) « الطبري » : ١٣٨/٢٢ ، وذكره السيوطي في « الدر » : ٢٥٣/٥ ، وزاد نسبته لعبد بن حميد ، وابن أبي حاتم ، والحاكم وصححه عن ابن عباس رضي الله عنهما .

(٥) ذكره السيوطي في « الدر » : ٢٥٣/٥ من رواية عبد بن حميد ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، عن ابن عباس رضي الله عنهما .

(٦) « الطبري » : ١٣٨/٢٢ .

(٧) قال ابن جرير الطبري : وأولى الأقوال في ذلك بالصواب أن يقال : إن الله تعالى ذكره أخبر عن هؤلاء القوم الذين أكرمهم بما أكرمهم به ، أنهم قالوا حين دخلوا الجنة : ـــ

قولهتعالى : (الذي أحلَّنا) أي : أنزلنا (دارَ المُقامة) قال الفراء : المُقامة هي الإقامة ، والمَقامة : المجلس ، بالفتح لا غير ، قال الشاعر :

يَوْمَانِ يَوْمُ مَقامَاتٍ وأَنْدِيَةٍ ... وَيَوْمُ سَيْرٍ إلى الأعْدَاءِ تأْوِيبِ [١]

قولهتعالى : (مِنْ فَضْلِه) قال الزجاج : أي : بتفضُّله ، لا بأعمالنا . والنَّصَبُ : التَّعَب . واللُّغوب : الإعياء من التَّعب . ومعنى « لُغُوب » : شيء يُلغِب ؛ أي : لا نتكلَّف شيئاً نُعنَّى منه .

قولهتعالى : (لا يُقْضَى عليهم فيموتوا) أي : لا يهلكون فيستريحوا ممَّا هُمْ فيه [٢] ، ومثله : (فوكزه موسى فقضى عليه) [القصص : ٥١] .

(الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن) قال : وخوف دخول النار من الحزن ، والجزع من الموت من الحزن ، والجزع من الحاجة إلى المطعم من الحزن ، ولم يخصص الله إذ أخبر عنهم أنهم حمدوه على إذهابه الحزن عنهم نوعاً دون نوع ، بل أخبر عنهم أنهم عمّوا جميع أنواع الحزن بقولهم ذلك ، وكذلك ذلك ، لأن من دخل الجنة فلا حزن عليه بعد ذلك ، فحمدُهم على إذهابه عنهم جميع معاني الحزن . اهـ .

(١) البيت لسلامة بن جندل كما في « مجاز القرآن » : ٢/١٠ ، و « الطبري » : ٢٢/١٤٠ ، و « اللسان » ، و « التاج » : أوب .

(٢) قال ابن كثير : لما ذكر تبارك وتعالى حال السعداء ، شرع في بيان مآل الأشقياء فقال : (والذين كفروا لهم نار جهنم لايقضى عليهم فيموتوا) كما قال تعالى : (لايموت فيها ولا يحيى) قال : وثبت في « صحيح مسلم » أن رسول الله ﷺ قال : « أما أهل النار الذين هم أهلها فلا يموتون فيها ولا يحيون » وقال عز وجل : (ونادَوا يامالك ليقض علينا ربك قال إنكم ماكثون) فهم في حالهم ذلك يرون موتهم راحة لهم ، ولكن لاسبيل إلى ذلك ، قال الله تعالى : (لايقضى عليهم فيموتوا ولا يخفف عنهم من عذابها) كما قال عز وجل : (إن المجرمين في عذاب جهنم خالدون لايفتّر عنهم وهم فيه مُبلسون) وقال جل وعلا : (كلما خبت زدناهم سعيراً) (فذوقوا فلن نزيدكم إلا عذاباً) ، ثم قال تعالى : (كذلك نجزي كلَّ كفور) أي : هذا جزاء كل من كفر بربه وكذب الحق . اهـ .

قوله تعالى : (كَذلك نَجْزي كُلَّ كَفور) وقرأ أبو عمرو : « يُجزى » بالياء « كُلُّ » برفع اللام . وقرأ الباقون : « نَجزي » بالنون « كُلَّ » بنصب اللام .

قوله تعالى : (وهم يَصْطَرِخُون فيها) وهو افتعال من الصُّراخ : والمعنى : يستغيثون ، فيقولون : (ربَّنا أخْرِجنا نعملْ صالحاً) أي : نوحِّدك ونُطيعك (غيرَ الذي كُنَّا نَعملُ) من الشِّرك والمعاصي ؛ فوبَّخهم الله تعالى بقوله : (أوَلَمْ نُعَمِّرْكم) قال أبو عبيدة : معناه التقرير ، وليس باستفهام ؛ والمعنى : أولم نعمِّركم عُمُراً يتذكَّر فيه من تَذَكَّر ؟!

وفي مقدار هذا التعمير أربعة أقوال .

أحدها : أنه سبعون سنة ، قال ابن عمر : هذه الآية تعيير لأبناء السبعين .

والثاني : أربعون سنة .

والثالث : ستون سنة ، رواهما مجاهد عن ابن عباس (١) ، وبالأول منهما قال الحسن ، وابن السائب .

والرابع : ثماني عشرة سنة ، قاله عطاء ، ووهب بن منبِّه ، وأبو العالية ، وقتادة .

قوله تعالى : (وجاءكم النَّذير) فيه أربعة أقوال .

أحدها : أنه الشيب ، قاله ابن عمر ، وعكرمة ، وسفيان بن عيينة ؛ والمعنى : أوَلَمْ نعمِّرْكم حتى شِبتم ؟! . والثاني : النبيّ ﷺ ، قاله قتادة ، وابن زيد ،

(١) روى البخاري في « صحيحه » عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : « أعذر الله عز وجل إلى امرىءٍ أخَّر عمره حتى بلغ ستين سنة » ورواه أحمد وغيره ، ولما كان هذا هو العمر الذي يعذر الله تعالى إلى عباده به ويزيح به عنهم العلل ، كان هو الغالب على أعمار هذه الأمة . وقد ثبت في « الصحيح » أن رسول الله ﷺ عاش ثلاثاً وستين سنة .

وابن السائب ، ومقاتل [١] . والثالث : موت الأهل والأقارب . والرابع . الحمّى ، ذكرها الماوردي .

قوله تعالى : (فذُوقوا) يعني : العذاب (فما للظالمين من نصير) أي : من مانع يَمنع عنهم . وما بعد هذا قد تقدم بيانه [المائدة : ٧] إلى قوله : (خلائفَ في الأرض) وهي الأُمَّة التي خَلَفَتْ مَنْ قَبْلها ورأت فيمن تقدَّمها ما ينبغي أن تَعتبر به (فمن كَفَر فعليه كُفره) أي : جزاء كفره [٢] .

﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَكُمُ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمٰوَاتِ أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَاباً فَهُمْ عَلَى بَيِّنَتٍ مِنْهُ بَلْ إِنْ يَعِدُ الظَّالِمُونَ بَعْضُهُمْ بَعْضاً إِلَّا غُرُوراً . إِنَّ اللهَ يُمْسِكُ السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيماً غَفُوراً ﴾

قوله تعالى : (أرأيتُم شركاءكم) المعنى : أخبِروني عن الذين عبدتم من دون الله واتخذتموهم شركاء بزعمكم ، بأيّ شيء أوجبتم لهم الشركة في العبادة ؟ ! أبشيء

---

(١) وروى الطبري قال : قال ابن زيد في قوله : (وجاءكم النذير) قال : النذير : النبي . وقرأ : (هذا نذير من النذر الأولى) ، قال ابن كثير : وهذا هو الصحيح عن قتادة فيما رواه شيبان عنه أنه قال : احتج عليهم بالعمر والرسل ، قال : وهذا اختيار ابن جرير ، وهو الأظهر ، لقوله تعالى : (ونادَوا يامالك ليقض علينا ربك قال إنكم ماكثون . لقد جئناكم بالحق ولكن أكثركم للحق كارهون) أي : لقد بينا لكم الحق على ألسنة الرسل فأبيتم وخالفتم . اهـ .

(٢) قال ابن كثير في تتمة الآية : (ولا يزيد الكافرين كفرُهم إلا مقتاً) أي : كلما استمروا على كفرهم أبغضهم الله تعالى ، وكلما استمروا فيه خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة ، بخلاف المؤمنين ، فانهم كلما طال عمر أحدهم وحسن عمله ارتفعت درجته ومنزلته في الجنة وزاد أجره وأحبه خالقه وبارئه رب العالمين . اهـ .

خلقوه من الأرض ، أم شاركوا خالق السموات في خَلْقها ؟! ثم عاد إلى الكفار فقال : (أم آتيناهم كتاباً) يأمرهم بما يفعلون (فَهُمْ على بيّنة منه ؟!) قرأ ابن كثير ، وأبو عمرو ، وحمزة ، وحفص عن عاصم : « على بيّنةٍ » على التوحيد. وقرأ نافع ، وابن عامر ، والكسائي ، وأبو بكر عن عاصم : « بيّناتٍ » جمعاً. والمراد : البيان بأنّ مع الله شريكاً [١] (بل إنْ يَعِدُ الظّالمون) يعني المشركين يَعِدُ (بعضُهم بعضاً) أنّ الأصنام تَشفع لهم ، وأنّه لاحساب عليهم ولا عقاب . وقال مقاتل : ما يَعِدُ الشيطانُ الكفّار من شفاعة الآلهة إلاّ باطلاً .

قوله تعالى : (إنّ الله يُمسِكُ السّمواتِ والأرضَ أنْ تَزُولا) أي : يمنعهما من الزوال والذهاب والوقوع . قال الفراء : (ولئن) بمعنى « ولو » ، و « إن » بمعنى « ما » ، فالتقدير : ولو زالتا ما أمسكهما من أحد . وقال الزجاج : لمّا قالت النصارى : المسيح ابن الله ، وقالت اليهود : عزير ابن الله ، كادت السمواتُ يتفطّرْن والجبالُ أن تَزُول والأرضُ أن تنشقّ ، فأمسكها الله عز وجل ؛ وإنّما وحّد « الأرض » مع جمع « السموات » ، لأن الأرض تدل على الأَرَضِين . (ولَئِن زالتا) تحتمل وجهين . أحدهما : زوالهما يوم القيامة . والثاني : أن يقال تقديراً : وإن لم تزولا ، وهذا مكان يَدُلُّ على القدرة ، غير أنه ذكر الحِلْم فيه ، لأنه لمّا أمسكهما

---

(١) أي : الاتيان ببينة تدل بأن مع الله شريكاً ، قال الآلوسي : وهو ضرب من التهكّم . قال ابن جرير الطبري : (أم آتيناهم كتاباً فهم على بينة منه ؟ !) يقول : أم آتينا هؤلاء المشركين كتاباً أنزلناه عليهم من السماء بأن يشركوا بالله الأوثانَ والأصنام « فهم على بينة منه » ، فهم على برهان مما أمرتهم فيه من الاشراك بي ؟ ! وقال ابن كثير : وقوله : (أم آتيناهم كتاباً فهم على بينه منه ؟ !) أي : أم أنزلنا عليهم كتاباً بما يقولونه من الشرك والكفر ؟ ! ليس الأمر كذلك (بل إن يعد الظالمون بعضهم بعضاً إلا غروراً) أي : بل إنما اتبعوا في ذلك أهواءهم وآراءهم وأمانيهم التي تمنّوها لأنفسهم ، وهي غرور وباطل وزور . اهـ . وقال الآلوسي : والمعنى أن عبادة هؤلاء إما بالعقل ، ولا عقل يحكم بصحة عبادة من لايخلق جزءاً ما من الأرض دلالة شرك في السماء ، وإما بالنقل ، ولم نؤت المشركين كتاباً فيه الأمر بعبادة هؤلاء . اهـ .

عند قولهم : (اتخذ الرحمن ولداً) [مريم : ٨٨] ، حلُم فلم يُعجّل لهم العقوبة [١]

﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَيَكُونُنَّ أَهْدَى مِنْ إِحْدَى الأُمَمِ فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَازَادَهُمْ إِلَّا نُفُوراً . إِسْتِكْبَاراً فِي الأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الأَوَّلِينَ فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللهِ تَبْدِيلاً وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللهِ تَحْوِيلاً ﴾

قوله تعالى : (وأقسَموا بالله جَهْدَ أيْمانهم) يعني كفار مكة حلفوا بالله قبل إرسال محمد ﷺ (لئن جاءهم نذير) أي : رسول (ليَكونُنَّ أهدى) أي : أصْوَبَ دِيناً (مِنْ إحدى الأُمم) يعني : اليهود والنصارى والصابئين (فلمَّا جاءهم نذير) وهو محمد ﷺ (مازادهم) مجيئُه (إلاَّ نُفُوراً) أي : تباعُداً عن الهُدى ، (استكباراً في الأرض) أي : عتوّاً على الله وتكبّراً عن الإيمان به [٢] . قال الأخفش : نصب « استكباراً » على البدل من النفور . قال الفراء : المعنى :

---

(١) قال ابن كثير : ثم أخبر تعالى عن قدرته العظيمة التي بها تقوم السماء والأرض عن أمره وما جعل فيهما من القوة الماسكة لهما فقال : (إن الله يمسك السموات والأرض أن تزولا) أي : أن تضطربا عن أماكنهما ، كما قال عز وجل : (ويمسك السماء أن تقع على الأرض إلا باذنه) وقال تعالى : (ومن آياته أن تقوم السماء والأرض بأمره) (ولئن زالتا إن أمسكهما من أحد من بعده) أي : لايقدر على دوامهما وإبقائهما إلا هو ، وهو مع ذلك حليم غفور ، أي : يرى عباده وهم يكفرون به ويعصونه وهو يَحْلُم فيؤخّر ويُنظِر ، ويؤجّل ولا يعجّل ، ويستر آخرين ويغفر ، ولهذا قال تعالى : (إنه كان حليماً غفوراً) . اهـ .

(٢) قال ابن كثير : (استكباراً في الأرض) أي : استكبروا عن اتّباع آيات الله (ومكر السيّء) أي : ومكروا بالناس في صدهم إياهم عن سبيل الله (ولا يحيق المكر السيء إلا بأهله) أي : وما يعود وبال ذلك إلا عليهم أنفسهم دون غيرهم . اهـ .

فعلوا ذلك استكباراً (ومَكْرَ السَّيِّءِ) ، فأضيف المكر إلى السَّيِّءِ ، كقوله : (وإنَّه لَحَقُّ اليقين) [الحاقة : ٥١] ، وتصديقه في قراءة عبد الله : « ومَكْراً سَيِّئاً » ، والهمزة في « السَّيِّءِ » مخفوضة ، وقد جزمها الأعمش وحمزة ، لكثرة الحركات ؛ قال الزجّاج : وهذا عند النحويّين الحُذّاق لَحْن ، إنّما يجوز في الشّعر اضطراراً . وقال أبو جعفر النحاس : كان الأعمش يقف على « مَكْرَ السَّيّ » فيترك الحركة ، وهو وقف حَسَنٌ تامّ ، فغَلِط الراوي ؛ فروى أنه كان يَحْذِفُ الإعراب في الوصل ، فتابع حمزة الغالط ، فقرأ في الإدراج بترك الحركة [1] .

والمفسرين في المراد بـ« مكر السَّيِّءِ » قولان .

أحدهما : أنه الشِّرك [2] . قال ابن عباس : عاقبة الشِّرك لاتَحُلُّ إلا بمن أشرك .

والثاني : أنه المَكْر برسول الله ﷺ ، حكاه الماوردي [3] .

قوله تعالى : (فهل ينظُرون) أي : ينتظِرون (إلاّ سُنَّةَ الأوَّلِين) أي : إلاّ أن يَنْزِل العذاب بهم كما نَزَل بالأمم المكذّبة قبلهم (فلن تَجِدَ لِسُنَّةِ الله) في العذاب (تبديلاً) وإن تأخّر (ولن تَجِدَ لِسُنَّةِ الله تحويلاً) أي : لا يَقْدِر أحدٌ أن يحوّل العذاب عنهم إلى غيرهم .

﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَكَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَيْءٍ

(١) قال ابن جرير الطبري : والصواب من القراءة ماعليه قراء الأمصار من تحريك الهمزة فيه إلى الخفض ، وغير جائز في القرآن أن يُقرأ بكل ماجاز في العربية ، لأن القراءة إنما هي ماقرأت به الأئمة الماضية وجاء به السلفُ على النحو الذي أخذوا عمن قبلهم . اهـ .

(٢) ذكره الطبري عن قتادة .

(٣) قال الآلوسي : هو الخداع الذي يرومونه برسول الله ﷺ والكيد له .

فِي السَّمٰوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيماً قَدِيراً . وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَاتَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلٰكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ اللهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيراً ﴾

قوله تعالى : (ولو يؤاخذ اللهُ النَّاسَ بما كَسَبوا) هذا عامٌّ ، وبعضهم يقول : أراد بالناس المشركين . والمعنى : لو واخذهم بأفعالهم لعجَّل لهم العقوبة [1] . وقد شرحنا هذه الآية في (النحل : ٦١) . وما أخللنا به فقد سبق بيانه [يوسف : ١٠٩ ، الروم : ٩ ، الأعراف : ٣٤ ، النحل : ٦١] .

قوله تعالى : (فإنَّ اللهَ كان بعِباده بَصيراً) قال ابن جرير : بصيراً بمن يستحقُّ العُقوبة ومَن يستوجب الكرامة [2] .

تم ـ بعون الله تعالى وتوفيقه ـ الجزء السادس من كتاب

« زاد المسير في علم التفسير » للامام ابن الجوزي

ويليه الجزء السابع ، وأوله

تفسير سورة « يس »

★ ★ ★

---

(١) قال ابن كثير : ولكن ينظرهم إلى يوم القيامة فيحاسبهم يومئذ ، ويوفي كل عامل بعمله ، فيجازي بالثواب أهل الطاعة ، وبالعقاب أهل المعصية . اهـ .

(٢) ونص كلام ابن جرير بتمامه : وقوله : (فاذا جاء أجلهم فان الله كان بعباده بصيراً) يقول تعالى ذكره : فاذا جاء أجل عقابهم ، فان الله كان بعباده بصيراً مَن الذي يستحق أن يعاقب منهم ، ومن الذي يستوجب الكرامة ، ومن الذي كان منهم في الدنيا له مطيعاً ، ومن كان فيها به مشركاً ، لايخفى عليه أحد منهم ، ولا يعزب عنه علم شيء من أمرهم . اهـ .